تراثنا

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى

٦٧٧ - ٧٣٣ هـ

السفر الثالث عشر

نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب

مع استدراكات وفهارس جامعة

وزارة الثقافة والارشاد القومى
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

بيان

يوجد من نُسَخ هـذا الجزء بدار الكتب المصرية نسختان كاملتان مأخوذتان بالتصوير الشمسى؛ وقطعة غير كاملة من نسخة أخرى مأخوذة بالتصوير الشمسى أيضا، وقد نبهنا على الموضع الذى تنتهى عنده هذه القطعة فى إحدى الحواشى .

أما خطوط النُّسَخ الثلاث : فإحداها مكتوبة بخط نور الدين العاملى فى سنة ٩٦٦ هـ . وثانيتها مكتوبة بخط الشيخ عبد الرحمن بن ابراهيم الجبرتى الحنفى فى سنة ٩٦٦ أيضا . والثالثة منسوب خطها إلى المؤلف كما نص على ذلك فى بعض الأجزاء الأخرى منها .

أما التحريف والتصحيف فى هذه الأصول فيكاد يكون متفقا فى جميعها؛ غير أننا وجدنا أن بعض هذه النسخ قد سقطت منها عبارات وجدناها مثبتة فى النسخ الأخرى، فكملنا بعضها من بعض كى يكون الجزء نسخة كاملة من جميع هذه الأصول .

ومما ينبغى التنبيه عليه فى هـذا الموضع أن المؤلف قد نقل موضوعات هـذا الجزء عن كتابين : أحدهما "يواقيت البيان فى قصص القرآن" لأبى إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبى؛ والثانى "المبتدأ" لأبى الحسن محمد بن عبد الله المعروف بالكسائى؛ وقد بحثنا فى محفوظات دار الكتب عن اسمى هذين الكتابين فلم نجدهما، غير أننا وجدناهما باسمين آخرين؛ فكتاب الثعلبى مكتوب عليه : "قصص الأنبياء المسمى بالعرائس" . وكتاب الكسائى يسمى "بالعرائس" أيضا؛ ويسمى أيضا "نفائس العرائس" كما هو مكتوب على بعض نسخه المخطوطة . وفى "كشف الظنون" أنه يسمى "خلق الدنيا وما فيها" . والأول مطبوع بالمطبعة البهية بالقاهرة عام ١٣٠١ هـ . والثانى مخطوط سنة ٨٠٣ هـ .

ومما يرجح لدينا أن هذين الكتابين هما اللذان أشار إليهما المؤلف ونقل عنهما وإنما تغير اسماهما دون مسمّاهما، مراجعة ما فيهما على ما نقله المؤلف فى هذا الجزء عنهما ملخصا، والاتفاق التام فى العبارات بين المنقول والمنقول عنه .

ويلاحظ أنه قد ورد فى هذا الجزء نقلا عن الكتابين المذكورين كثير من الأسماء العبرانية التى تعوّد المؤرخون القدماء ذكرها فى كتبهم فى الكلام على بدأ الخليقة وقصص الأنبياء ، وهذه الأسماء لم نقف على نصوص صريحة تدل على الصواب فى ضبطها ، والصحة فى تقييد حروفها .

وقد بحثنا فيما بين أيدينا من مصادر التاريخ الكثيرة عنها للوثوق من صحتها فوجدنا تلك المصادر مختلفة كل الاختلاف فيها ، حتى لا تجد كتابا متفقا مع غيره فى كتابتها .

لهذا رأينا أن نبقى تلك الأسماء كما هى فى الأصول ، إلا ما وجدناه مضبوطا بخطٍّ موثوق بكاتبه .

وعسى أن نكون قد وُفقنا فى هذا الجزء إلى ما قصدْنا إليه فى الأجزاء السابقة من تصحيح التحريف ، وتكميل النقص ، وضبط الملتبس من الألفاظ ، وغير ذلك مما سردناه فى الكلام على تصحيح الأجزاء السابقة . .

مصحّحه

أحمد الزين

القاهرة فى ٧ شوال سنة ١٣٥٧ هـ (٢٩ نوفمبر سنة ١٩٣٨ م)

فهرس

الجـزء الثالث عشر

من

كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه توفيقي

وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلّم

الفنّ الخامس

في التاريخ

ويشتمل على خمسة أقسام

قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ، إلى غير ذلك من الآي .

والتاريخ ممّا يَحتاج إليه الملك والوزير، والقائد والأمير، والكاتب والمُشير والغنيّ والفقير، والبادي والحاضر، والمقيم والمسافر .

فالملِك يعتبر بما مضى من الدّول ومن سلف من الأمم، والوزير يقتدي بأفعالِ من تقدّمه ممّن حاز فضيلتي السيف والقلم ؛ وقائد الجيش يطّلع منه على مكايد الحرب، ومواقف الطعن والضرب ؛ والمشير يتدبّر الرأي فلا يُصدره إلّا عن رويّة ويتأمّل الأمر فكأنه أعطي درجة المعيّة وحاز فضيلة الألمعيه(١) ؛ والكاتب يستشهد به في رسائله وكتبه، ويتوسّع به إذا ضاق عليه المجال في سربه(٢) ، والغنيّ يحمد الله تعالى

---

(١) الألمعية : توقد الذكاء . (٢) سربه ، أي طريقه في الكتابة .

على ما أولاه من نعمه ورزقه من نواله ، وينفِق مما آتاه الله إذا علم أنه لابدّ من زواله وآنتقاله ؛ والفقير يرغب فى الزهد لعلمه أن الدنيا لا تدوم ، وليتيقّنه أنّ سَعتها بضيقها لا تقوم . ومن عدا هؤلاء يسمعه على سبيل المسامره ، ووجه المحاضَرة والمذاكره ، والرغبة فى الاطلاع على أخبار الأمم ، ومعرفة أيام العرب وحروب العجم .

فقد تبيّن بهذه المقدّمة تعويل الأمر عليه ، وميل المرء إليه .

وسأورد إن شاء الله فى هــذا الفنّ جُمــلا من تواريخ الأمم السالفة والعصور الخاليه ، وأطرّزه من القصص والسِّيَر بمــا تصبح به صفحات الطروس حاليه .

ولمّــا رأيتُ غالب من أرّخ فى الملة الإسلاميّة وضع التــاريخ على حكم السنين ومَساقِها ، لا الدّول وآتّساقها ؛ علمتُ أن ذلك ربمــا قطع على المُطالع لذّةَ واقعة آستحلاها ، وقضيّة آستجلاها ؛ فآنقضت أخبار السنة ولا آستوعب تكملةَ فصولهـــا ولا آنتهى إلى جملتها وتفصيلها ؛ وآنتقل المؤرّخ بدخول السنة التى تليهـــا من تلك الوقائع وأخبارها ، والممالك وآثارها ، والدولة وسِيرَها ، والحالة وخبرها ؛ فتنقّل من الشرق إلى الغرب ، وعَدَلَ عن السّلم إلى الحرب ؛ وعطف من الجنوب إلى الشمال وتحوّل من البُكَر إلى الآصال ؛ وقد تجول به خيلُ الآستطراد فيُبعِد ، وتحول بينــه و بين مقصده السُّنون فيغور(١) تارة وتارة يُنجِد ، فلا يرجع المُطالع إلى ما كان قد أهمّه إلّا بعد مشقّة ، وقد يعدل عنه إذا طالت المسافة و بعُدت عليه الشُّقّة .

فآخترتُ أن أقيم التاريخ دُوَلا ، ولا أبغى عن دولة إذا شرعتُ فيها حِوَلا ؛ حتى أسردها من أوائلها إلى أواخرها ، وأذ كُرَ جُملا من وقائعها ومآثرها ؛ وسِياقة أخبار ملوكها ، ونظم عقود سلوكها ؛ ومقرّ ممالكها ، وتشعُّب مَسالكها .

(١) « يغور و ينجــد » ، أى ينخفض و يرتفع . والغــور بفتح أوّله : ما انخفض من الأرض . والنجد : ما ارتفع منها ؛ وهما فى هذا الموضع على سبيل الآستعارة .

فإذا آنقضت مدّتها، وآنقرضت عِدّتها ، وآنتقلت من العين إلى الأثر، ومن البيان إلى الخبر ، رجعتُ إلى غيرها فقفوتُ أثرهـا ، وشرحت خبرَها ، وبيّنتُ خُبرها ، وذكرتُ أسبابها، وسردت أنسابها ، وبدأت بأصلها ، وتفوّهتُ بأخبار من نبغ من أهلها ، وآستقصيتها دولة بعد دوله ، وجالت بي خيول المطالعة جَولة ناهيك بهـا من جوله ، ورغبتُ مع ذلك في الآختصار دون الآقتصار[1] ، وأوردت ما يُحتاج إلى إيراده من غير تكرار ولا إكثار .

فإن عرضتْ واقعة كانت بين ملكين كان وقتهما واحدا ، وكان الدهر لأحدهما على الآخر مساعدا ، شرحتها بجملتها في أخبار الظافر منهما ، وأحلت في أخبار المغلوب عليها ، وآكتفيت بإيرادها في أحد الموضعين ولم أعرّج في الآخر إلا بالإشارة إليها .

وجريت في تقسيم هـذا الفنّ على القاعدة التي تقدّمت فيما قبـله من الفنون ١
ليكون أبسطَ للنفوس وأنشطَ للخواطر وأقرَّ للعيون ، وجعلتُه خمسة أقسام ، ووضعتُه على أحسن آتّساق وأكمل آنتظام .

القســـم الأوّل

في مبدأ خلق آدم — عليه السلام — وحوّاء وأخبارهما ومن كان بعد آدم إلى نهاية خبر أصحاب الرّس ، وفيه ثمـانية أبواب :

البـاب الأوّل — في مبـدأ خلق آدم وحوّاء — عليهما السـلام — وما كان من أخبارهما إلى حين وفاتهما .

البـاب الثـانى — في خبر شيث بن آدم — عليهما السلام — وأولاده .

البـاب الثـالث — في أخبار إدريس النبيّ عليه السلام .

---

(١) يستفاد من سياق هذه العبارة أن الفرق بين الاختصار والاقتصار أن المراد بالأوّل : الإيجاز في شرح كل حادثة مع ذكر جميع الحوادث وعدم ترك واحدة منها ، وبالثاني ، الاكتفاء بذكر بعض الحوادث عن بعض . ٢

الباب الرابع — فى قصّة نوح — عليه السلام — وخبر الطُّوفان .

الباب الخامس — فى قصة هود — عليه السلام — مع عاد وهلاكهم بالريح العقيم .

الباب السادس — فى قصّة صالح — عليه السلام — مع ثمود وعَقرهم الناقة وهلاكهم .

الباب السابع — فى أخبار أصحاب البئر المعطّلة والقصر المَشيد وهلاكهم .

الباب الثامن — فى خبر أصحاب الرّسّ ، وما كان من أمرهم .

القسم الثانى

فى قصة إبراهيم الخليل — عليه الصلاة والسلام — وخبره مع النمروذ [لعنه الله] وقصّة لوط وخبر إسحاق ويعقوب ، وقصّة يوسف وأيوب وذى الكفل وشعيب — عليهم السلام — وفيه سبعة أبواب :

الباب الأوّل — فى قصة إبراهيم الخليل — عليه السلام — وأخبار نمروذ بن كنعان .

الباب الثانى — فى خبر لوط مع قومه وقلبِ المدائن .

الباب الثالث — فى خبر إسحاق ويعقوب عليهما السلام .

الباب الرابع — فى قصّة يوسف بن يعقوب عليهما السلام .

الباب الخامس — فى قصّة أيوب — عليه السلام — وابتلائه وعافيته .

الباب السادس — فى خبر ذى الكِفل بن أيوب عليهما السلام .

الباب السابع — فى خبر شُعيب — عليه السلام — وقصّته مع مَدْيَن[1] .

(١) مع مدين ، أى مع أهل مدين .

القســـم الثـالث

يشتمل على قصّــة موسى بن عمران — عليــه السلام — وخبره مع فرعون وخبر يوشع ومَن بعــدَه وخبر حِزْقِيلَ وإليـاس واليسع وغيلا وأشمويل وطالوت وجالوت وداود وسليمان وسَعْيَا وإِرْمِياءَ وخبر بُخْتُنَصَّرَ وخراب بيت المقدس وعمارته ومايتصل بذلك من خبر عُزَيرٍ وقصّة يونس بن متّى وخبر بلوقيا وخبر زكريا ويحيى وعمران ومريم وعيسى — عليهــم السلام — وخبرِ الحواريين وما كان من أمرهم وخبر جِرجيسَ، وفيه ستة أبواب :

وذيّلتُ على هــذا القسم ذيلا يشتمل على أبواب أربعة ، ذكرتُ فيها ما قيل فى الحوادث التى تظهر قبل نزول عيسى — عليه السلام — إلى الأرض ، وأخبار المهدىّ والدجّال، ونزول عيسى — عليه السلام — ومدّة إقامته فى الأرض ووفاته ١
وما يكون بعده، وشيئا من أخبار الحشر والمعاد .

وإنمـا ذكرتُ هــذا الذيل فى هــذا الموضع — وإن كان غير داخل فى فنّ التاريخ — لأن النفوس لمـا كانت مائلةً إلى الاطّلاع على أخبار مامضى من الزمان ومن سلف من الأمم ، فميلُها إلى الاطّلاع على ما يظهر فى مســتقبل الزمان أكثر وتشوّقها إليه أوفر؛ فأوردتُ ما أذكره لهذا السبب، ولأنّ كتابنا هــذا ليس مبناه على مجرّد التاريخ بل هو كتاب أدب ، لا تُخرجه هذه الزيادة عن شرطه .

الباب الأوّل — فى قصّــة موسى بن عمران وهرون عليهما الســلام (٣)
وغرق فرعون، وأخبار بنى إسرائيــل وخبر قارون وحروب موسى وخبر الجبّارين وبَلْعَمَ وغير ذلك .

الباب الثانى — فيا كان بعد موسى بن عمران — عليه السلام — وهو أخبار يوشع وخبر حِزْقِيلَ و إلياس واليسع وغيلا وأشمو يل وطالوت وجالوت وداود وسليمان — عليهم السلام — ومَن بعدهم .

الباب الثالث — فى أخبار سَعْيَا و إِرْمِياءَ وخبر بُخْتُنَصَّرَ وخراب بيت المقدس وعمارته ، وما يتّصل بذلك من خبر عُزَيْر .

الباب الرابع — فى قصّة ذى النُّون يونس بن متّى — عليه السلام — وخبر بلوقيا .

الباب الخامس — فى خبر زكرِيّا ويحيى وعمران ومريم ابنته وعيسى ابن مريم عليهم السلام .

الباب السادس — فى أخبار الحواريّين الذين أرسلهم عيسى وما كان من أمرهم وخبر جِرجيس .

التذييل على هذا القسم ، وفيه أربعة أبواب

الباب الأوّل — فى ذكر الحوادث التى تَظهر قبل نزول عيسى بن مريم عليه السلام .

الباب الثانى — فى خبر نزول عيسى إلى الأرض وقتل الدجّال وخروج يأجوج ومأجوج و إفسادهم وهلاكهم ، ووفاة عيسى عليه السلام .

الباب الثالث — فى ذكر ما يكون بعد وفاة عيسى بن مريم الى النفخة الأولى .

الباب الرابع — فى أخبار يوم القيامة والحشر والمَعاد والنفخة الثانية فى الصّور .

القســـم الرابـــع

في أخبار ملوك الأصقاع ، وملوكِ الأمم والطوائف ، وخبر سَيْلِ العَرِم ، ووقائع العرب فى الجاهليّة ، وفيه خمسة أبواب

البــاب الأوّل — فى أخبار ذى القرنين المذكور فى كتاب الله عزّ وجلّ .

البــاب الثــانى — فى أخبار ملوك الأصقاع ، وهم ملوك مصر والهند والصين والترك وجبل الفتح .

البــاب الثــالث — فى أخبار ملوك الأمم من الأعاجم ، وهم ملوك الفُرس الأول ، وملوك الطوائف من الفُرس ، والملوك الساسانيّة منهم ، وملوك اليونان والسريان والكَلْدانيِّين والروم والصقالبة والنُّوبَرْد[1] والفَرَنْجة والجَلالِقة وطوائف السودان .

البــاب الرابــع — فى أخبــار ملوك العرب ، وما يتّصل بهــا من خبر سَــيْل العَرِم .

البــاب الخامس — فى أيّام العرب ووقائعها فى الجاهليّة .

القســـم الخــامس

فى أخبار المِلّة الإسلاميّة وذكرِ شىء من سيرة نبينا محمد — صلى الله عليه وسلم — وأيام الخلفاء من بعده — رضى الله عنهم — والدولة الأمويّة والعباسيّة والعَلَويّة ودُوَلِ ملوك الإسلام وأخبارهم ، وما فتح الله عليهم ، وفيه اثنا عشر بابا .

---

(١) النوبرد ، هم الونبرد سكان لومبرديا ، وهم الإقليم المعروف فى شمال إيطاليا انظر (تقويم البلدان) ص ٢٠٨ طبع أوربا . وفى بعض الكتب : النوكبرد .

الباب الاول — فى سيرة سيّدنا رسول الله — صلّى الله عليه وسلّم — .

الباب الثانى — فى أخبار الخلفاء من بعده : أبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ، وآبنه الحسن — رضى الله عنهم — .

الباب الثالث — فى أخبار الدولة الأمويّة بالشأم وغيره .

الباب الرابع — فى أخبار الدولة العباسيّة بالعراق ومصر .

الباب الخامس — فى أخبار الدولة الأُمويّة بالأندلس ، وأخبار الأندلس بعد آنقراض دولتهم .

الباب السادس — فى أخبار افريقية وبلاد المغرب ومن وَلِيَها من العمّال، ومن آستقلّ بالمُلك .

الباب السابع — فى أخبار من نهض فى طلب الخلافة من الطالبيّين فى الدولتين : الأمويّة والعباسيّة فقُتل دونها بعد مقتل الحسين بن علىّ — رضى الله عنهما — .

الباب الثامن — فى أخبار صاحب الزَّنْج والقَرامطة والخوارج ببلاد المَوْصل .

الباب التاسع — فى أخبار من آستقلّ بالمُلك والممالك فى البلاد الشرقيّة والشماليّة فى خلال الدولة العبّاسيّة ، وهم ملوك خُراسان وما وراء النهر والجبال وطَبرِسْتان وغَزْنةَ والغُور و بلاد السِّند والهند ، كالدولة السامانيّة ، والدولة الصَّفّارية ، والدولة الغَزْنويّة ، والدولة الغُوريّة ، والدولة الدَّيْلَميّة الخُتّليّة .

الباب العاشر — فى أخبار ملوك العراق وما والاه ، وملوك المَوْصل والديار الجزيريّة والديار البَكْريّة والبلاد الشاميّة والحلبيّة ، كالدولة الحَمْدانيّة ، والدولة الدَّيْلَميّة البُوَيْهيّة ، والدولة السَّلْجُقيّة ، والدولة الأَتابكيّة .

الباب الحادى عشر — فى أخبار الدولة الخُوارَزْميّة والدولة الجنكزخانيّة وهى دولة التتار (جنكزخان وأولاده) وما تفرّع منها .

الباب الثاني عشر — فى أخبار ملوك الديار المصريّة الّذين ملكوا فى خلال الدولة العباسيّة نيابةً عن خلفائها، وهم الملوك الطُّولونيّة والملوك الإخْشيديّة، ومَن آستقلّ بمُلكها وآنتزعها وأخرجها من يد نوّاب خلفاء الدولة العباسيّة، وهم الملوك العُبَيْديّون الّذين آنتسبوا إلى العَلَويّين، وما كان من أمرهم من آبتدائه إلى آنتهائه وما ملكوه من بلاد المغرب، وكيف آستولَوا على الديار المصريّة والبلاد الشاميّة والثغور الساحليّة، وآنقراض دولتهم، وقيام الدولة الأيّوبيّة وأخبار ملوكها بمصر والشأم إلى حين آنقراضها، وقيام دولة الترك ومن مَلَك منهم وما حازوه من الأقاليم وما فتحوه من الممالك وآستنقذوه من أيدى الأفرنج والأرمَن والتّتار وغيرهم وما آستقرّ فى مُلك هذه الدولة من الممالك إلى حين وضعنا لهذا التأليف فى سنة ...[(1)] وسبعمائة فى أيّام مولانا السلطان السيّد الأجلّ المالك (الملك الناصر)، ناصر الدنيا والدين، محمد آبن السلطان الشهيد المالك، الملك المنصور سيف الدنيا والدين (قلاوون) الصالحىّ، خلّد الله تعالى مُلكه على ممرّ الزمان، وسقَى عهد والده صَوْبَ الرحمة والرضوان .

هذا جملة ما آشتمل عليه هذا الفنّ من الأقسام والأبواب، والله تعالى المرشد والهادى والموفّق إلى الصواب، بمنّه وكرمه، إنه على مايشاء قدير، وبالإجابة جدير.

---

(١) موضع هذه النقط الثلاث بياض بالأصول؛ والظاهر أن هذا البياض من المؤلف نفسه؛ ولعل سبب ذلك أن كتابه هذا لم يوضع فى سنة معينة فيحدّدها، بل وضع فى سنين. والمعروف أن المؤلف توفى فى سنة آثنتين وثلاثين وسبعمائة

القسم الأوّل من الفنّ الخامس

في مبدأ خلق آدم وحوّاء — عليهما السلام — ودخولهما الجنة، وما كان بينهما و بين إبليس — لعنه الله — وهبوطهما إلى الأرض وٱجتماعهما بعد الفرقة، وخبر حرثه وزرعه، وحَمْل حوّاء ووضعها، وخبر ابنى آدم هابيلَ وقابيلَ، ونبوّة آدم — عليه السلام — ووفاته، وخبر شيث وأولاده، وقصّة إدريس ونوح وهود وصالح — عليهم السلام — وخبر أصحاب البئر المعطّلة والقصر المشيد، وخبر أصحاب الرسّ

وفيــه ثمــانية أبواب

البــاب الأوّل — من هذا القسم في مبدأ خلق آدم وحوّاء — عليهما السلام — وما كان من أخبارهما إلى حين وفاتهما .

ذكــر خَلق آدم عليه السلام

خلق الله تبارك وتعــالى آدم — عليه السلام — من تراب، بدليل قوله عزّ وجلّ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ وقوله تعالى ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ ٱللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ﴾ وقوله تعالى إخبارا عن إبليس: ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ وهذا أمر بيّنٌ واضح لا خلاف فيه، ولا يحتاج إلى زيادة في إقامة دليل و إيضاح .

وقيل : إنما سُمّي آدم لأن الله تعالى خلقه من أديم الأرض .

وعن وهب بن منبّه أن رأسه من الأرض الأولى، وعنقه من الثانية، وصدره من الثالثة ، و يديه من الرابعة ، و بطنــه وظهره من الخامسة ، وفخذه ومذاكيره (٥) وعجزه من السادسة، وساقيه وقدميه من السابعة .

وعن عبد الله بن عباس — رضى الله عنهما — أنّ الله تعالى خلقه من الأقاليم السبعة .

وقيل : إن عزرائيل أخذ من تراب الأرض كلّها أبيضها وأحمرها وأسودها وعَذْبِها ومالحها، فهو مخلوق من ذلك التراب .

قال : ولمّا خلقه الله — عزّ وجلّ — وصوّره على هذه الصورة الآدميّة، أمر الملائكة أن يحملوه ويضعوه على باب الجنّة عند ممرّ الملائكة ، وكان جسدا لا روح فيه، فكانت الملائكة يعجبون من خلقته وصورته، لأنّهم لم يكونوا رأَوا مِثلَه قط وكان إبليس يطيل النظر إليه ويقول : ما خلق الله تعالى هذا إلّا لأمر . وربما دخل فيه، فاذا خرج قال : إنه خَلْقٌ ضعيف، خُلِق من طين أجوف، والأجوف لا بدّ له من مَطعَم ومَشرَب .

ويقال : إنه قال للملائكة : ما تعملون إذا فُضِّل هذا المخلوق عليكم ؟ فقالوا : نطيع أمر ربّنا ولا نعصيه . فقال إبليس : إنْ فضّله علىّ لأعصينّه ، وإنْ فضّلنى عليه لأُهلكنّه .

ذكر دخول الرُّوح فيه

قال : ولمّا أراد الله تعالى نفخ الرُّوح فيه أمر بروحه فغُمِستْ فى جميع الأنوار وليست كأرواح الملائكة ولا غيرها من المخلوقات .

قال الله تعالى ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى ﴾ الاية .

وقال تعالى : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ الآية .

قال : فأمرها الله تعالى أن تدخل فى جسد آدم بالتأنّى دون الاستعجال فرأت مدخلا ضيّقا حرجا ؛ فقالت : يارب ، كيف أدخل ؟ فنوديتْ « ادخلى كَرْها واخرجى كَرْها » . فدخلتْ من يافوخه إلى عينيه ، ففتحها آدم ونظر إلى

نفسه طينا، ثم صارت إلى أذنيه، فسمع تسبيح الملائكة، وجعلت الروح تمر فى رأسه والملائكة ينظرون إليه، ثم صارت إلى الخياشيم، فعطس، فآنفتحت المجارى المسدودة؛ وصارت إلى اللسان؛ فقال آدم: «الحمد لله الذى لم يزل ولا يزول» وهى أوّل كلمة قالها. فناداه الرب: "يرحمك ربّك يا آدم، لهذا خلقتك، وهذا لك ولذرّيتك". وسارت الروح فى جسده حتى بلغت الساقين، فصار آدم لحما ودما وعظما وعروقا، غير أنّ رجليه من طين؛ فذهب ليقوم فلم يقدر وهو قولُه تعالى: ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾.

فلمّا صارت إلى الساقين والقدمين آستوى قائما على قدميه يوم الجمعة.

فقيل: إنّ الروح آستوت فى جسده فى خمسمائة عام عند زوال الشمس.

ذكر سجود الملائكة لادم

قال: فلمّا آستوى قائما أمر الله الملائكة بالسجود له؛ فسجدوا كلُّهم إلّا إبليس، كما أخبر الله تعالى عنه؛ قال الله تعالى: ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ الآيات.

قال: وكان السجود لآدم يوم الجمعة عند الزوال، فبقيت الملائكة فى سجودها إلى العصر.

قال وعلّم الله تعالى آدم الأسماء كلّها واللغات بأجمعها.

قال آبن عبّاس — رضى الله عنهما —: علّمه حتى لغة الحيتان والضفادع وجميع ما فى البرّ والبحر، ثم أمر الملائكة أن يحملوه على أكتافهم، ويطوفون به فى طرائق السموات؛ ففعلوا ذلك.

ثم أمر جبريل أن ينادى فى صفوف الملائكة أن يجتمعوا، فآجتمعوا وآصطفّوا عشرين ألف صفّ، ووُضع لآدم منبرُ الكرامة، وعليه ثياب السندس الأخضر وله ضفيرتان محشوّتان بالمسك والعنبر بطوله، وعلى رأسه تاج من ذهب مرصّع بالدرّ والجوهر؛ فآنتصب على المنبر، وسلم على الملائكة، فأجابته بردّ السلام وخطب لحمد الله، ثم ذكر علم السموات والأرضين وما فيهما، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ .

ونزل آدم عن منبره، فجىء بقطف من عنب أبيض فأكله، وهو أول شىء أكله من طعام الجنة، ثم أخذته سِنةٌ فنام . (٦)

ذكر خَلْق حوّاء عليها السلام

قال: ولمّا نام آدم خلق الله تعالى حوّاء من جنبه الأيسر، من ضلعه مما يلى الشُّرسوف، وهو ضِلَعٌ أعوج، قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ فكانت على طول آدم وحسنه وجماله، إلّا أنها أرقّ جلدا منه، وأحسن صوتا، ولها ضفائر مرصّعة محشوّة بالمسك تُسمع لذوائبها خَشخشة، فجلستْ عند رأسه، فآنتبه فرآها، فتمكّن حبُّها من قلبه؛ فقال: يارَبِّ، مَن هذه؟ قال: أَمَتى حوّاء. فقال: يا ربِّ لمن خلقتَها؟ قال: لمن أخذها بالأمانة، وأصدقها الشكر. قال: يارَبِّ، أنا أقبلها على هذا فزوِّجنيها. فزوّجها إياه قبل دخول الجنة على الطاعة والتقوى والعمل الصالح، ونثرتْ عليهما

الملائكة من نثار الجنّة، وأوحى الله إلى آدم، أن آذكر نعمتى عليك، فإنّى خلقتك ببديع فطرتى، وسوّيتك بشرا على مشيئتى، ونفختُ فيك من رُوحى، وأسجدتُ لك ملائكتى، وحملتُك على أكتافهم، وجعلتُك خطيبهم، وأطلقتُ على لسانك جميع اللّغات، وجعلت ذلك كلّه فخرا وشرفا لك، وهذا إبليس قد أبلسته[١] ولعنته حين أبى أن يسجد لك، وقد ختمتُ كرامتى لك بأَمَتى حوّاء، وقد بنيتُ لكما دارَ الحيوان[٢] من قبل أن أخلقكما بألفى عام، على أن تدخلاها بعهدى وأمانتى.

ذكر عرض الأمانة على آدم عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾.

قال: وهى أن يكافأوا على الإحسان، ويعذّبوا على الإساءة، فأبوا، فعرضتْ على آدم، فقيل له: إن أطعتَ كافأتُك بالإحسان، وخلّدتك فى الجنان، وإن تركتَ عهدى أخرجتك من دارى، وعذّبتك بنارى. فقبل آدم الأمانة، فعجب الملائكة من ذلك، ثم مُثّل له ولحوّاء إبليس، وقيل له: ﴿هٰذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾.

ثم ناداهما الرب: إنّ من عهدى إليكما وأمانتى أن تدخلا الجنة ﴿فَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. فقبلا هذه العهود كلّها.

ثم أمر الله تعالى بإدخالهما الجنّة، فحُمل آدم على الفرس الميمون، وحوّاء وراءه على الناقة، والملائكةُ عن اليمين والشمال وأمامهما وخلفهما حتى بلغوا باب الجنّة ودخلا واستقرّا بجنّة عدن فى وسط الجنّة بعد أن طافا بالجنان، فقدّم إليهما من

(١) أبلسه الله: أيأسه من رحمته؛ يستعمل متعديا كما هنا ولازما.

(٢) دار الحيوان، أى دار الحياة الدائمة.

فواكه الجنّة فأكلا ، فكانا فى الجنّة خمسمائة عام من أعوام الدنيا فى أتمّ السرور وأنعم الأحوال .

ذكر خبر إبليس والطاوس والحيّة

قال : ولمّا سمع إبليس أن الله تعالى أباح لآدم أن يأكل من ثمار الجنة إلّا شجرة واحدة ، فرح بذلك ، وقال : لأخرجنّهما من الجنة . ثم مرّ مستخفيا فى طرقات السموات حتى وقف على باب الجنّة ، فإذا الطاوس قد خرج من الجنة وله جناحان إذا نشرهما غطّى بهما سدرةَ المنتهَى ، وله ذَنَب من الزمرّد الأخضر على كلّ ريشة منه جوهرة بيضاء ، وعيناه من الياقوت الأحمر ، وهو أطيب طيور الجنّة صوتا وتغريدا ؛ وكان يخرج و يمرّ فى السموات يَخطِر فى مِشيته و يرجع إلى الجنّة .

فلما رآه إبليس كلّمه بكلام ليّن ، وقال : أيها الطائر العجيب الخلق الطيّب الصوت ، مَن تكون من طيور الجنة ؟ فقال : أنا الطاوس ، فمالك أيها الشّخص كأنّك مرعوب تخاف من طالب يطلبك؟ قال إبليس : أنا من ملائكة الصّفيح الأعلى[1] من زُمرة الكَرُوبيين[2] ، وقد أحببتُ أن أنظر إلى الجنّة و إلى ما أعدّ الله فيها لأهلها فهل لك أن تُدخلنى الجنّة وأنا أعلّمك ثلاثَ كلمات من قالها لا يَهرَم ولا يَسقَم ولا يموت؟ فقال له : وأهل الجنّة يموتون ؟ قال : نعم و يَسقَمون و يَهرَمون إلّا من كانت عنده هذه الكلمات ، وحلف له على ذلك ، فوثق به الطاوس ولم يظنّ أحدا يحلف بالله كاذبا ؛ فقال : ما أحوجنى إلى هذه الكلمات ، غير أنّى أخاف أن يستخبرنى (رضوان) عنك ، ولكنى أبعث إليك الحيّة فإنّها سيّدة دوابّ الجنة . (٧)

---

(١) الصفيح : من أسماء السماء .

(٢) الملائكة الكروبيون بفتح الكاف ، هم سادة الملائكة ، وهم المقربون . قيل : إنهم سموا الكروبيين لأنهم هم المتصدون للدعاء بدفع الكرب عن الناس .

قال: وجاء الطاوس إلى الحية وهى يومئذ على صورة الجمل، ولها زغب كالعبقرى[1] ما بين أبيضَ وأحمر وأسود وأخضر، ولها عُرف من اللؤلؤ، وذوائبُ من الياقوت ورائحة كرائحة المسك والعنبر، وكان مسكنها فى جنّة المأوى، وكانت تساير آدم وحوّاء فى الجنة، وتخبرهما بالأشجار.

فلما أخبرها الطاوس بالخبر أسرعت الحية نحو باب الجنة، فتقدم إبليس إليها وقال لها كقوله للطاوس، وحلف لها؛ فقالت: حسبُك، ولكن كيف أُدخلك؟ فقال: إنى أرى ما بين نابيك فُرْجة، وهى تسعنى. ففتحت الحيّة فاهًا، فوثب وقعد بين نابيها، فصار نابها إلى آخر الدهر سمًّا، وضمّت الحيّة شفتيها، ودخلتْ الجنّةَ ولم يكلّمها رضوانُ للقضاء السابق؛ فلمّا توسّطت الجنة قالت: أُخرج وعجّل. قال: إن حاجتى من الجنة آدم وحوّاء، فانى أريد أن أكلّمهما مِن فيك، فإن لم تفعلى ذلك فما أعلمك الكلمات، فجاءت إلى حوّاء فقال إبليس مِن فيها: ياحوّاء، ألست تعلمين أنّى معك فى الجنة، وأحدّثك بكلّ ما فيها، وأنا صادقة فى كلّ ما حدّثتُك به؟ قالت حوّاء: نعم؛ قال إبليس: ياحوّاء، أَخبرينى ما الّذى أحلّ لكما ربّكما من هذه الجنة وحرّم عليكما؟ فأخبرته بما نهاهما عنه؛ فقال إبليس: لماذا نهاكما عن شجرة الخُلْد؟ فقالت حوّاء: لا أعلم بذلك؛ قال: أنا أعلم، إنما نهاكما لأنه أراد ألّا يفعل بكما ما فعل بالعبد الذى مأواه تحت شجرة الخلد.

هذا وحوّاء تظنّ أن الخطاب لها من الحيّة؛ فوثبتْ حوّاء عن سريرها لتنظر إلى العبد، فخرج إبليس مِن فيها كالبرق، فقعد تحت الشجرة، فأقبلتْ

---

(١) العبقرى: الطنافس الثخان، الواحدة عبقرية.

حوّاء فوقفت بالبعـد منه ونادته : من أنت أيها الشـخص ؟ قال : خَلْقٌ من خَلْق الله ، خلقنى من نار كما تَرِيننى، وأنا فى هـذه الجنة منذ ألفى عام ، خلقنى كما خلقكما بيده ، ونفخ فىّ من روحه، وأسجد لى ملائكته ، وأسكننى جنّته، ونهانى عن أكل هذه الشجرة ، فكنت لا آكل منها ، حتى نصحنى بعضُ الملائكة وقال لى : كلْ منها ، فإنّ من أكل منهـا كان مخلّدًا فى الجنّة أبدا . فأكلتُ منها ، فأنا فى الجنة إلى وقتى هذا، قد أمنتُ الهَرَم والسقم والموت والخروج من الجنّة .

ثم قال : والله ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ ثم نادى : ياحوّاء اسبقِى وكلى قبل زوجك، فمن سبق كان له الفضل على صاحبـه . فأقبلتْ حوّاء إلى آدم وهى مستبشرة فرحة ، فأخبرته بخبر الحيّـة والشـخص، وأنه قد حلف لهـا بأنّه لهما لمن الناصحين ، فذلك قولُه تعـالى : ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ ؛ وتقدّمت حوّاء إلى الشجرة ولهـا أغصان لا تحصى، وعلى الأغصان سـنابل ، كل حبة منهـا مِثل قِلال هَجَر(١)، ولهـا رائحة كالمسك، أبيض من اللبن وأحلى من العسل ؛ فأخذتْ منها سبعَ سنابل من سبعة أغصان، فأكلت واحدة وآدّخرت واحدة، وجاءت بخمس إلى آدم .

قال آبن عبّاس — رضى الله عنهما — : لم يكن لآدم فى ذلك أمر ولا إرادة بل كانـ فى سابق العلم ، لقوله تعـالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ . فتناول آدم السنابلَ من يدها، وقد نسى العهـد الذى أخذ عليه من أجلها، فذلك قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ فذاق من الشجرة كما ذاقت حواء؛ قال الله تعالى : ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ .

(١) هجر : ناحية البحرين كلها ؛ وهى معروفة بالقلال التى كانت تجلب منها إلى المدينة .

قال ابن عباس — رضى الله عنهما — : والذى نفسى بيده ماساغ آدم من تلك السنابل سنبلة واحدة حتى طار التاج عن رأسه، وعرى من لباسه، وانتُزعت عنه خواتمه ، وسقط كلُّ ما كان على حوّاء من لباسها وحليّها وزينتها، وناداهما كلّ ما طار عنهما : « يا آدم طال حزنك ، وعظمت رزيّتك، وعليك السلام إلى يوم اللّقاء » . ولم يبق عليهما من لباسهما شىء، ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ؛ ونظر كلٌّ منهما إلى سَوءة صاحبه ؛ وهرب إبليس فسار مستخفيا فى طرائق السمٰوات ، وصاح آدم صيحة عظيمة ، ولم يبق فى الجنة شىء إلّا لامه ، وانقبضت عنه الأشجار ؛ فلمّا كثرت عليه الملامات مرّ هاربا على وجهه ، فالتفّت عليه شجرة الطّلح وأمسكته ونادته : إلى أين تهرب يا عاصى؛ واضطربت الملائكة لذلك؛ والله الموفّق للصواب .

ذكر خروج آدم وحوّاء من الجنة



قال : وأمر الله جبريل فجاء إلى آدم وقبض على ناصيته، وخلّصه من الشجرة؛ فلما صار به إلى باب الجنة وأخرج رجله اليمنى وبقيت اليسرى، نودى : ياجبريل قف به على باب الجنّة حتى يخرج معه أعداؤه الذين حملوه على أكل الشجرة لكى يراهم ويرى ما يُفعل بهم . فوقّفه هنالك، فناداه الربّ : يا آدم إنّما خلقتك لتكون عبدا شكورا ، لا لتكون عبدا كفورا . قال : يا ربّ أسألك أن تعيدنى إلى تربتى التى خلقتنى منها لأكون ترابا كما كنتُ أوّل مرّة . قال : يا آدم، كيف أعيدك إلى تربتك وقد سبق علمى أن أملأ من ظهرك الجنّة والنار

وأخرج آدمُ حوّاء وقد استترت بورقة من ورق الجنة بإذن الله؛ فلمّا رأت آدمَ صاحت وقالت : يالها من حسرة؟ فوقفتْ خارج الجنّة، ثم أتى بالطاوس وقد

طعنته الملائكة حتى قطعت ريشه، وجبريل يجزه ويقول : اخرج من الجنة خروج الأبد، فإنك شؤم أبدا ما بقيت؛ ثم أتى بالحية وقد جذبتها الملائكة جذبا شديدا، وهى ممسوخة "مبطوحة" على بطنها لا قوائم لها، وصارت ممدودة مشوهة، ومُنعت النطقَ فصارت خرساء، مشقوقة اللسان، فقالت لها الملائكة : لا رحمك الله ولا رحم من يرحمك .

ثم حُجبتْ حوّاء عن آدم من هناك؛ ومرّ به جبريل فى طرائق السموات، ونظرت إليه الملائكة عريانا ففزعت منه، وقالت : إلهنا، هذا آدم بديع فطرتك أقله عثرته . وآدم قد ترك يده اليمنى على رأسه، واليسرى على سوأته، ودموعه تجرى على خدّيه، وكلما مرّ على ملإ من الملائكة يوبّخونه على نقض عهد ربّه وميثاقه، وأكثروا عليه فى الملامة والتوبيخ؛ فقال لهم : يا ملائكة ربّى، ارحمونى ولا توبّخونى، فالّذى جرى علىّ بقضاء ربّى، حيث قال : ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ الآية .

ذكر سؤال إبليس — لعنه الله تعالى —

قال : وقال إبليس : ياربّ أضللتنى وأغويتنى وأبلسنى، وكان ذلك فى سابق علمك ﴿فَأَنْظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ وهى النفخة الأولى، ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ .

قال الله تعالى ﴿اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ .

قال إبليس : أنظرتنى فأين يكون مسكنى؟ قال : إذا هبطتَ إلى الأرض فسكنك المزابل . قال : فما قراءتى؟ قال : الشعر والغناء . قال : فما مؤذّنى؟ قال : المزمار .

قال : فما طعامى؟ قال : مالم يُذْكر آسمي عليه . قال : فما شرابى ؟ قال : الخمور . قال : فما بيتى ؟ قال : الحمّامات ؛ قال : فما مجلسى ؟ قال : الأسواق . قال : فما شعارى؟ قال : لعنتى . قال : فما دِثارى ؟ قال : سُخطى . قال : فما مَصايدى ؟ قال : النساء . قال : فوعزّتك لا أخرجتُ محبّة النساء من قلوب بنى آدم أبدا . قيل له : يا ملعون ، فإن ربّك لا ينزع التوبة من ولد آدم حتى يتغرغر بالموت ، ﴿ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ .

ذكر سؤال آدم — عليه السلام —

قال : فعند ذلك قال آدم : ياربّ هذا إبليس قد أعطيتَه النَّظرة، وقد أقسم بعزّتك أنّه يُغوى أولادى ، فبماذا أحترز من مكايده ؟ فنودى ، ياآدم ، إنّى قد مننتُ عليك بثلاث خصال ، واحدةٌ لى ، وهى أن تعبدنى لا تشرك بى شيئا ؛ وواحدة لك ، وهى ماعملتَ من صغيرة أو كبيرة من الحسنات فلك بالحسنة عشر وإن عملتَ سيئة فواحدة بواحدة ، وإن آستغفرتنى غفرتها لك وأنا الغفور الرحيم . (٩) وواحدة بينى و بينك ، وهى أنّ منك المسألة ومنّى الإجابة ، فآبسط يدك وآدعنى فإنّى قريب مجيب .

فصاح إبليس حسدا لآدم وقال : كيف أكيد ولد آدم الآن؟ فنودى : يا ملعون (وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً) . قال إبليس : زدنى يا ربّ ؛ قال لا يولد لآدم ولد إلّا يولد لك سبعة : قال : ربّ زدنى؛ قال : زدتك أن تجرىَ منهم مجرَى الدم فى عروقهم، وتسكنَ فى صدورهم . فقال : ياربّ حسبى ؛ ثم قال علام أهبط إلى الأرض ؟ قال : على الإياس من رحمتى .

قال : ثم نظر آدم إلى الحيّة وقال : ربِّ هـذه اللعينةُ هى التى أعانت عدوّى علىّ، فبماذا أتقوّى عليها ؟ فقيل له : قد جعلتُ مسكنها الظلمات، وطعامها التراب فإذا رأيتَها فاشْدَخ رأسها .

وقيل للطاوس : مسكنُك أطرافُ الأنهار ، ورزقك مما تنبته الأرض من حَبّها، وألقِ عليك المحبّة حتى لا تُقتل .

ذكر سؤال حوّاء — عليها السلام —

قال : ثم قالت حوّاء : إلهى خلقتنى من ضِلَع أعوج، وجعلتنى ناقصة العقل والدين والشهادة والميراث ، وضربتَنى بالنجاسة ، وحرمتَنى الجُمُعة والجماعات ؛ وذكرتْ مشقة الحمل والولادة — فأسألك أن تعطينى مِثلَ ما أعطيتهم .

فقيل لها : قد وهبتُ لك الحياء والأنس والرحمة ، وكتبتُ لك من ثواب الحبل والولادة مالو رأيته لقرّت به عيناك، فأىّ امرأة ماتت فى ولادتها حشرتُها فى زمرة الشهداء . قالت : حسبى ياربّ .

قال : ثم أمر الله بعد ذلك ان يهبطوا إلى الأرض؛ قال الله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ . فهبَط آدم من باب التوبة ، وحوّاء من باب الرحمة ، وإبليس من باب اللّعنة ، والطاوس من باب الغضب، والحيّة من باب السُّخط، وكان ذلك وقت العصر .

قال السّدّىّ : فمن هذه الأبواب تنزل التوبة والرحمة واللّعنة والغضب والسُّخط .

قال وهب : خلق الله آدم يوم الجمعة، وفيه دخل الجنّة وأقام فيها نصف يوم مقدار خمسمائة عام، وأهبط بين الظهر والعصر من باب يقال له (المبرم)[1] وهو حذاءَ البيت المعمور .

(١) كذا ورد هذا اللفظ فى الأصول الثلاثة وكتاب الكسائى المنقول عنه هذا الكلام .

قال كعب : أهبط آدم إلى بلاد الهند على جبل من جبالها يقال له (بُوذ) وهو جبل محيط بأرض الهند ؛ وأهبطتْ حوّاء بجُدّة ، وإبليس بدَسْتميسان[1] ، والحيّة أَصفَهان ، والطاوس بالبحر ؛ ففرّق الله بينهم فلم يرَ بعضُهم بعضا حينا ، ولم يكن على آدم يوم أهبط إلّا ورقةٌ من أوراق الجنة ، فذَرَتْها الرياح فى بلاد الهند فصارت معدنا للطِّيب .

وأخذ آدم فى البكاء مائة عام حتى نبت من دموعه العُود والزنجبيل والصندل والكافور وأنواع الطِّيب ، وآمتلات الأودية بأطيب الأشجار ، وبكت حوّاء فنبت من دموعها القرنفل والأفاويه ؛ وكانت الريح تحمل كلامه إليها وكلامها إليه .

ثم أنبت الله — عزّ وجلّ — لآدم الشَّعر واللحية ، وكان قبل ذلك أمرد وجسده كالفضّة ، فتألّم لذلك ألما شديدا .

قال وهب : أوّل من علم بهبوط آدم من حيوان الأرض النَّسْر ، وكان قد أَلِف الحوت ، فجاء إليه وقال له : إنى رأيت اليوم خَلْقا عظيما ينقبض وينبسط ، ويقوم ويقعد ، ويجىء ويذهب . فقال الحوت : إن كان ما تقوله حقّا فقد حان ألّا يكون لى معه مقرّ فى البحر ولا لك فى البرّ ، وهذا الوداع بينى وبينك . فجاء النَّسر إلى آدم وأَلِفه ، وجاءه الوحش والطير وأَلِفوه وبكوا لبكائه دهرا طويلا ، فلمّا أضجرهم ذلك نفروا عنه ولم يبق عنده إلّا النَّسْر وحده وهو لا يَفتُر عن البكاء .

قال وهب : بكى آدم حتى بكت الملائكة لبكائه وقالوا : « إلهنا أقله عثرته » .

---

(١) دستميسان : كورة بين واسط والبصرة والأهواز .

قال : وبقى من دموعه فى الأرض — بعد أن كفّ عن البكاء — ما شربه الوحش والطير والهوامّ مائة عام ؛ وكان لدموعه رائحة كالمسك ، ولذلك كثر الطيّب فى الهنـــد .

وقال كعب : بكى آدم ثلاثمائة عام لا يرفع رأسه إلى السماء وهو يقول : " إلهي بأىّ وجه أنظر إلى السماء " . فألهم الله سائر الحيوانات أن تأتى لآدم وتعزّيه فى مصيبته ، فعزّاه جميعها ونهته عن البكاء ، وأمرته بالتسبيح والتقديس . (١٠)

ذكر توبة آدم عليه السلام

قال : فعند ذلك أمر الله تعالى جبريل أن يهبط على آدم ، وقال له : « إن آدم بديع فطرتى قد أبكى أهل سمواتى وأرضى ، ولا يذكر غيرى ، ولم يخف سواى ، وهو أوّل من حمدنى ، وأوّل من دعانى بأسمائى الحسنى ، وأنا الرحمن الّذى سبقت رحمتى غضبى ، وهذه الكلمات قد خصصتُ بها آدم لتكون له توبة ، وتخرجه من الظلمات إلى النور » . فهبط عليه جبريل بالكلمات ولها نور عظيم ، فقال : « السلام عليك ياطويل البكاء والحزن » ؛ فلم يسمعه آدم لغليان صــدره ؛ فناداه بصوت رفيع : السلام عليك يا آدم . وأمرّ جناحه على صدره ووجهه حتى هدأ من بكائه ، وسمع الصوت فقال : أبنداء السخط تنادى ، أم بنداء الإحسان والغفران ؟ قال : بل بنداء الرحمة والغفران ، يا آدم : لقد أبكيتَ ملائكة السموات والأرض ، فدونك هذه الكلمات ، فإنّها كلمات الرحمة والتوبة .

قال كعب : كانت الكلمات ما قالهـا يونس فى ظلمات ثلاث : ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص — رضى الله عنهما — كانت : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

وقال ابن عبّاس — رضى الله عنهما — : كانت « لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، عملتُ سوءا وظلمتُ نفسى فتُب علىّ يا خير التوابين » .

قال الله تعالى : ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ .

قال : فلمّا قالها آدم آنتشر صوتُه فى الافاق، فقالت الأرض والشجر والجبال : « أقرّ الله عينك يا آدم، وهنّاك الله بتوبتك » . وأمره الله أن يبعث بالكلمات إلى حوّاء، فحملتْها الريح إليها ، فقالتها، فتاب الله عليها .

قال : ولمّا فرغ آدم من الدعاء والسجود قال له جبريل : ارفع رأسك . فرفعه وإذا قد رُفع له حجاب النّور ، وفُتحت له السمٰوات ، ونودى بالتوبة والرضوان وقيل له : يا آدم ، إنّ الله قد قبل توبتك . فذهب ليقوم فلم يقدر لأنه كان قد رَسَب فى الأرض كعروق الشجر ، فآقتلعه جبريل، فصاح صيحة شديدة للألم الذي أصابه، وقال : « ماذا تفعل الخطيئة » ؟

ثم ضرب جبريل بجناحه الأرض فآنفجرتْ عينُ ماءٍ مَعِينٍ برائحة كالمسك فآغتسل آدم منها، ثم كساه الله حُلَّتين من سُندس الجنّة، وبعث الله تعالى ميكائيل إلى حوّاء، فبشرها بالتوبة، وكساها كذلك؛ وسأل آدم جبريلَ عنها؛ فأخبره أن الله قد قبل توبتها، وأنه يجمع بينهما فى أشرف الأعياد وأكرم البقاع .

قال : وأمر الله عزّ وجلّ الملائكة والحيوانات أن يَقربوا من آدم ليهنّئوه فأتوه وهنّأوه كما كانوا عزّوْه .

ثم أمر الله تعالى جبريل أن يضع يده على رأس آدم ليقصِّر من طُوله ، وكان إذا قام وصل رأسُه إلى السماء ، فيسمَع تسبيح الملائكة ، فلمّا قصُر آغتمّ لفقد ذلك، فقال له جبريل : لا يغمّك ذلك فإن الله يفعل ما يريد .

وامره الله ببناء بيت يحاذى البيت المعمور ليطوف به هو وأولاده من بعده كما رأى الملائكة تفعل حول البيت المعمور؛ فبناه .

وقد ذكرنا صفة بنائه فى الباب الثانى من القسم الخامس من الفن الأوّل من هذا الكتاب فى خصائص البلاد ، وهو فى السفر الأوّل، فلا حاجة إلى إعادته هاهنا . فلنذكر غير ذلك .

قال : وسار آدم من موضعه إلى موضع البيت؛ والله الهادى .

ذكر أخذ الميثاق على ذرّية آدم — عليه السلام —

قال . وأوحى الله تعالى إلى آدم : أنّى أريد أن آخذ على ودبعتى الّتى فى ظهرك الميثاق ، فأحاطت الملائكة بآدم فى أحسن صُورهم ، فوقعت الرِّعدة على آدم من الخوف، فضمّه جبريل إلى صدره، وآضطرب الوادى وآرتجّ، فقال جبريل: (١١) اسكن فإنّك أوّل شاهد على الميثاق الذى يأخذه الله على ذرّية آدم . فسكن ، ومسح الله تعالى على ظهر آدم كما شاء ، وقال : « انظر يا آدم إلى من يخرج من ظهرك » فأوّل من بادر وكان أسرعَ خروجا نبيُّنا محمد — صلّى الله عليه وسلّم — فأجاب بالتلبية ونادى إلى ذات اليمين وهو يقول : أنا أوّل من يَشهد لك بالتوحيد ، و يقرّ لك بالعُبوديّة ، وأشهد أنّى عبدك ورسولك . فهو — صلّى الله عليه وسلّم — أوّل الأنبياء فى الخَلق، وآخرهم فى البعث، وفى ذلك من الحكمة الإلهيّة والقدرة الربّانيّة ما لم يَخفَ على ذى لُبّ وفهم، وليس هذا موضع ذكر ذلك . ثم أجابت الطبقة الثانية من النبيّين والمرسلين نبيّا بعد نبىّ فى نورهم و بهائهم، ثم خرجت زُمرة من المؤمنين بيض الوجوه، معلنين بالتوحيد، فوقفوا دون النبيّين .

ثم مسح الله مسحة أخرى فخرج (قابيل) بن آدم مبادرا وقد تبعه أهل الشِّمال فوقفوا ذات الشِّمال كلُّهم سود الوجوه . ثم قيل لآدم : « انظر إلى ولدك هؤلاء

لتعرفهم بأسمائهم وأزمانهم» فنظر إلى أهل اليمين فضحك منهم، وبارك عليهم؛ ونظر إلى أهل الشّمال فلعنهم وصرف وجهه عنهم؛ ثم ٱستنطقهم اللهُ تعالى فقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ وأقررنا .

قال ٱبن عبّاس — رضى الله عنهما — : أمّا أهل اليمين فأجابوا بالسرعة، وأمّا أهل الشّمال فأجابوا بالتثاقل . قال الله تعالى: «يا ملائكتى ٱشهدوا على ذرّيّة آدم بأنهم أقرّوا أنّى ربّهم لا يجحدوننى شيئا، وأنّ آدم قد بارك على أهل يمينه، ولعن أهلَ شماله، فأهل اليمين فى جنّتى برحمتى، وأهل الشّمال فى النار بما جحدوا من حقّ» .

ثم ردّهم الله إلى ظهره كما أخرجهم بقدرته .

قال وهب: إذا كان يوم القيامة وحُشر الخَلْق لفَصْل القضاء قيل: يا آدم، «ٱبعثْ بعْثَ الجنّة إلى الجنّة، وبعثَ النار إليها». فيعرفهم بصورهم وأسمائهم؛ فيقول: «نعم يارب»؛ ويراهم كما رآهم فى الذرّيّة، ويُقبل عليهم بوجهه ويقول: أنَسيتم عهد ربّكم وشهادتكم له بأنّه الله الواحد الأحد؟ فيقولون ما أخبرنا الله تعالى به عنهم: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ يعنون قابيل بنَ آدم، لأنه أوّل من عصى ربّه؛ ثم يقولون: ﴿رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ يعنون إبليس وقابيل؛ فيقبض آدم بشماله من كلّ ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار، وواحدًا بيمينه إلى الجنة؛ ثم يقول: ياربّ هل وفيتُ؟ فيقال له: نعم ادخل الجنّة برحمتى .

ذكر ٱجتماع آدم بحوّاء

قال: وأقبل ملَك إلى حوّاء وهى جالسة بجُدّة على ساحل البحر، فقال لها: «خذى لباسك وٱنطلقى إلى الحرم»؛ ثم رمى لها بقميص وخمار من الجنّة، وتوارى

عنها حتى لبست القميصَ وتخمّرتْ بالخمار ، ومضت إلى مكّة فدخلت الحرم من شرقيّه يومَ الجمعة من شهر المحرّم ؛ فأمرَها الملَك أن تقعد على جبل المروة ؛ وإنّما سمّيت المروةَ لقعود المرأة عليها .

قال وهب : دخلتْ حوّاء الحرم قبل آدم بسبعة أيّام، ودخل آدمُ من غربيّ مكّة وحوّاء من شرقيّها، فصار آدم إلى جبل الصفا، فناداه : "مرحبا بك يا صفيّ الله" ، فسمّيَ الصّفا لذلك ؛ وناداه الربّ : يا آدم ، فقال : « لَبَّيك اللّهم لبّيك لبّيك لاشريك لك لبّيك، إنّ الحمد والنّعمة لك والمُلكَ لا شريك لك » . فصار ذلك سنّة فى الحجّ والعُمرة .

ثم أوحى الله إليه : « اليوم حرّمتُ مكّة وما حولها » . فهى حرام إلى يوم القيامة . فقال آدم : يارب ، إنك وعدتنى أن تجمع بينى وبين حوّاء فى هذا المقام . فنودىَ : إنّها أمامك على المروة، وأنت على الصّفا ، فآنظر إليها ولا تمسّها حتى تقضىَ المناسك . فهبَط آدم إليها ، وآلتقَيا، وفرح كلّ منهما بصاحبه، وسعى هو من الصفا، وسعت هى من المروة، فكانا يجتمعان بالنهار، فإذا أمسَيا رجع إلى الصفا، ورجعتْ إلى المروة، فكانا كذلك حتى دخل ذو القعدة، فأعاد آدم التلبية وعقدَ الإزار، ولم يزل يلبّى حتّى دخل ذو الحجّة؛ فهبَط جبريل وعلّمه المناسك وكساه ثوبا أبيضَ لإحرامه ، وطاف به ، وعرّفه المناسك، وأمره أن يطوف بالبيت سبعا؛ فلمّا فعل ذلك قال له جبريل : « حَسْبُكَ يا آدم قد أحللتَ »؛ فآنطلق آدم إلى حوّاء فاجتمع بها فى ليلة الجمعة فحملتْ من ساعتها . (١٣)

قال كعب : ما حملتْ حوّاء حتّى رأت الحيض ففزِعتْ وأخبرتْ آدم بذلك لمنعها من الصّلاة أيّامَ حيضها حتّى ينقطع الدم ؛ ثم جاءها ملَك فوقفَها على زمزم

وقال لادم : أُركُض برِجلك فى هذا الموضع . فركضها ، فانفجرتْ الأرض بإذن الله عينَ ماءٍ مَعين؛ فكبّر آدم وحوّاء ، وهمّت أن تشرب فمنعها وقال : «حتى يأذن لى ربّى » . فآغتسلتْ حوّاء ، وكان فى ذوائبها بقيّة من مِسك الجنّة ، ففاحت الدنيا .

ذكر إبناء آدم وزرعه وحرثه

قال : ثم أوحى الله تعالى إلى آدم : « أنك إن لم تَعمُر هذه الدنيا لم يَعمُرها أحد من أولادك ، فآعمرها » . فبنى له مسكنا يأوى إليه هو وحوّاء ؛ ثم أخذ بعد ذلك فى الحرث والزرع وحفر الآبار ؛ وجاءه جبريل بالحبة وهى على قدر بَيض النَّعام ، بيضاء فى لون الثلج وأحلى من العسل ؛ وجاءه بثورين من ثيران الفردوس وجاءه بالحديد ؛ فلمّا نظر آدم إلى الحَبّ صاح صيحة عظيمة ، وقال : مالى ولهذا الحَبّ الّذى أخرجنى من الجنّة .

قال : « هذا رزقك فى الدنيا ، لأنك آخترته فى الجنّة ، فهو غذاء لك ولذرّيّتك » .

ثم قال له جبريل : يا آدم ، قم فكن حرّاثا زرّاعا ، وأتاه بالنار وقد غمسها فى سبعين ماءً حتّى آعتدلتْ وكَمنتْ فى الحديد والحجر ، وأمره أن يوقد النار ويُلين الحديد ، ويتّخذ منه مِطرَقة وسَنْدانا ، ففعل ؛ ثم آتخذ مُدية يذبح بها ، وفأسا يحفر بها ويكسر ، ومحراثا يحرُث به الأرض ، ونيرا ؛ كلّ ذلك وجبريل يعلّمه .

قال وهب : أوّلُ ما آتخذ آدم من الحديد سَنْدانٌ ومطرَقة وكلبتان ؛ ثم اتخذ بعد ذلك آلة النجارة ، وأتاه جبريل بكبش من الجنّة ، فنحره آدم ، وأ كل هو وحوّاء من لحمه ، وآتخذا مقراضا جزّا به الصوف من الكبش ، وغزلاه ، وآتخذا منه

جبّتين بغير كمّين، وكساءين، فاكتسى كلّ واحد منهما جبّة وكساء، فلما مسّت جلدهما خشونة الصوف بكيا شوقا إلى السندس والإستبرق؛ فقيل لهما: «هذا لباس أهل الطاعة فى الدنيا». وجىء بالأشجار التى ذكرناها فى الفن الرابع من هذا الكتاب، وهو فنّ النباتات؛ وقد قدّمنا ذكرها فيما سلف منه.

وعن كعب أن الذى جاء بالحَبّ ميكائيل، لأنّه الموكّل بالحَبّ والقَطر والنبات.

قال: فقام آدم فعقَد النِّير على عنقَ الثورين؛ ثم حرث وبذر، وكان يقف على الزرع ويقول: متى يُدرِك؟. فيسمع هاتفا يقول: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾؛ وكان الزرع فى طول النخل، والسنبلة فى طول مائة ذراع، بيضاء كالفضّة.

قال كعب: فلمّا آستحقّ الزرع كان آدم يَحصُد، وحوّاء تجمع؛ ثم عُلِّمَ آدم الدّراسةَ والتذريةَ والطحن والعجن والخَبز؛ ثم أكلا وشربا فأصابتهما النفخة والقَرقَرة فى بطونهما؛ فتجشّأ آدم جُشاء متغيّرا، وتغيّر عليه بدنُه وثَقُل؛ فلمّا ثَقُلت عليهما بطونهما أمرهما الملَك أن يتبرّزا إلى الصحراء لقضاء الحاجة؛ فلمّا رأيا ذلك من أنفسهما بكيا بكاء شديدا، وقالا: «هذا الذى أورثنا ذنبنا».

ثم أمرهما الملَك أن يمسحا بالمَدَر، ثم يغتسلا بالماء؛ ثم علّمهما الوضوء فتوضآ وضوء الإسلام؛ ثم أمرهما بالصلاة، فكان أوّل صلاة صلّاها آدم الظهر.

وكان آدم ربّما آشتغل عن صلاته ولا يعرف الأوقات، فأعطاه الله ديكا ودجاجة، فكان الديك أبيضَ أفرقَ[1] أصفرَ الرجلين، كالثور العظيم، وكان يضرب بجناحه عند أوقات الصلاة ويقول: سبحان من يسبّحه كلُّ شىء سبحان الله وبحمده، يا آدم: الصلاة يرحمك الله.

(١) الديك الأفرق: ذو العرفين، أى إن عرفه مفروق.

قال : وأخذ آدم فى الغـرس حتى غرس كلّ ما على وجه الأرض من أنواع الثمار والأشجار، وأخذت الأرض زهرتها ؛ وكان آدم يأكل من بقول الأرض ونباتها.

قال وهب : أوّل بقـلة زرعها آدم الهندبا ، وأوّل مازرع من الرياحين الحنّاء، ثم الآس .

ذكر حمل حوّاء — عليها السلام — وولادتها

(١٣) قال : وواقع آدم حـوّاء فى ليـلة الجمعة ، فحملت بذكر وأنثى ، وأسقطتهما فى الشهر الثامن، فكان أوّل سقط فى الدنيا؛ ثم حملت ثانيا كذلك، فأصابهما مثل الأوّل؛ ثم حملت ثالثة . قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ .

قال : فجـاء إبليس إلى حوّاء وقال : أتحبّين أن يعيش فى بطنك ؟ قالت : نعم . قال : سمّيه (عبد الحارث) .

وقال ابن حبيب عن ابن عباس : أنها لمّـا وضـعته جاء إبليس وقال : ألا تسمّيانه باسمى ؟ قالت له حـوّاء : ما اسمك ؟ فذهب ولم يتسمّ، ثم عاد إليهما فقال: كيف تريدان أن تسمّياه؟ قالا : نسمّيه (عبدالله) . قال : أفتظنّان أنّ الله يترك عبده عندكما إن سمّيتماه (عبد الله)، لا والله لايدعه عندكما حتى يقبضه، ولكن سمّياه (عبد شمس) فإنّه يبقى ما بقيت الشمس . فأطاعاه وسمّياه (عبد شمس) ؛ فمات صغيرا . قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ .

قال وهب : أوحى الله إليهما « أنكما أطعتما إبليس فى هـذه التسمية ، فهلّا سمّيتماه عبـد الله أو عبد الرحمن أو عبد الرحيم » فجزعا لذلك جزعا شديدا ، وقالا : « لاحاجة لنا فى هذا المولود » . فأماته الله .

ثم حملت بذكر وأنثى، فلما وضعتهما سمّتهما (عبد الله) (وأمة الله)؛ ثم وضعت بطنا آخر فسمّتهما (عبــد الرحيم) (وأمة الرحيم) ؛ ولم تزل كذلك حتى وضعت مائة بطن؛ ثم وضعت بعد ذلك هابيل وأختَه فى بطن، ثم قابيلَ وأخته فى بطن، حتى وضعت عشرين ومائةَ بطن ذكرٍ وأنثى، فتناسَلوا وكثُروا .

ذكر مبعث آدم — عليه السلام — إلى أولاده

قال : ثم بعث الله عزّ وجلّ آدم إلى ذرّيّته رسولا ، وذلك فى أوّل ليلة من شهر رمضان، وخصّه بالوحى، وأنزل عليه إحدى وعشرين صحيفة فيها سُور مقطّعة الحروف ، لا يتّصل حرف بحرف ، وهو أوّل كتاب أُنزِل ، وهو بألف لغة فيها الفرائض والسنن والشرائع والوعد والوعيــد وأخبار الدنيا ، وبيّن له فيها أهل كل زمان وصورهم وسِيرهم، وما يحدث فى الأرض حتى المـأكل والمشرب .

ثم أمره الله تعــالى أن يكتبها بالقلم ، فأخذ جلود الضأن فدبغها حتى صارت رَقّا ، وكتب فيها الحروف التسعة والعشرين ، وهى فى التوراة والإنجيــل والزبور والقرآن، أوّلها (ا) : معناها، أنا الله الواحد الأحد الذى لم يزل . (ب) : بديعُ السمٰوات والأرض . (ت) : توحّد فى ملكه، وتواضع كلّ شىء لعظمته . (ث) : ثابت لم يَزَل ولا يزال . (ج) : جميل الفعال، جواد، جليل المقال . (ح) : حليم على من عصاه، حميد عند من أنشاه . (خ) خبير ببواطن الأشياء وظواهرها، خالق كلّ شىء (د) : ديّان يوم الدين، دانٍ مَن خَلْقه . (ذ) : ذو الفضل العظيم، والعرش المجيد، ذو الطَّول القديم . (ر) : ربّ الخلائق رزّاق رءوف رحمن رحيم . (ز) : زرّاع زرع من غير بَذْر، زائد لمن شكَرَ، زيّن كلّ شىء برحمته . (س) : سريع الحساب، سميع الدعاء، سريع الإجابة . (ش) : شديد العقاب والبطش، شاهد

كلّ نجوى . (ص): صمد صادق الوعد. (ض) : ضياء السمٰوات والأرض، ضمن لأوليـائه المغفرة . (ط) : طاب من أخلص له من المطيعين، طوبى لمن أطاعه . (ظ) : ظهر أمره، وظفر أهلُ محبّته بالجنّة . (ع) : عليم عالم علّام علا بالربوبيّة. (غ) : غياث المستغيثين، غنيّ لا يفتقر . (ف) : (فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)، فرد ليس له شريك . (ق) : قيّوم، (قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)، قـدير قاهر . (ك) كريم كان قبل كلّ شيء، كائن بعد كلّ شيء، كافى كلّ بليّة. (ل) : (لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ)، وله الخلق والأمر . (م) : مالك يوم الدين، متكبّر محسن محمود متين معبود منعم مِن قَبـلُ ومن بَعـد . (ن) : نور السمٰوات والأرض ناره مُعَدّة لأهل عذابه . (و) : ولىّ المؤمنين، و يل لمن عصاه، (وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ) . (هـ) : هادٍ هدى من الضـلالة من قدّر له ذلك برحمته ومشيئته ، (لا) : لا إله إلا الله الواحد القهّار ، الّذى لا إله إلّا هو العزيز الحكيم . (ى) : يعـلم ما فى السمٰوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى وما تُخفى الصدور .

قال : فلما نزلت هذه الحروف علّمها آدم لولده، فتوارثها ولده ، إلى أن بعث الله تعالى إدريس، وأنزل عليه خمسين صحيفة، وأنزل عليه هذه الحروف .

(١٤) ذكر قتل قابيل هابيلَ

قال : ودعا آدم ٱبنيه (هابيل) (وقابيل) — وكان يحبّهما من بين أولاده — فذكر لهما ما كان من أمره ودخوله الجنة ، وسبب خروجه، وغير ذلك، ثم أمرهما أن يقرّبا قربانا ، وكان هابيل صاحب غنم ، وقابيل صاحبَ زرع ، فأخذ هابيل من غنمه كبشا سمينا لم يكن فى غنمه خير منه، فجعله قربانا؛ وأخذ قابيل من زرعه أدناه فقرّبه ؛ فنزلتْ من السماء نار بيضاء لا حرّ ولا دخان فيها ، فأَحرقَتْ قُربانَ

هابيل ، ولم تحرق قربان قابيل ، فداخله الحسد من ذلك، وقال : إن أولاد هذا تفتخر على أولادى من بعدى ، فوالله لأقتلنه . قال الله تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّى أَخَافُ ٱللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

قال : ثم رجعا من مِنًى — وهو موضع القربان — يريدان أباهما وهابيل أمام قابيل، فعمد قابيل الى حجر فضرب به رأس أخيه (هابيل) فقتله ، ثم مرّ على وجهه هاربا . قال الله تعالى : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ ﴾؛ وإذا هو بغرابين قد اقتتلا، فقتل أحدُهما الآخر، وجعل يبحث فى الأرض برجليه حتى حفر حفرة ودفن فيها المقتول؛ فقال قابيل فى نفسه ما أخبر الله تعالى به عنه: ﴿ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِىَ سَوْأَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ .

فلما أبطآ على آدم خرج فى طلبهما، فأصاب هابيلَ مقتولا ، فساءه ذلك واغتمّ غمّا شديدا، وكانت الأرض لمّا شربتْ دمه تغيّرت الأشجار عن نضارتها، فيقال : إن آدم قال :

تغيّرت البلادُ ومن عليها * فوجه الأرض مغبرٌ قبيحُ
تغيّر كلُّ ذى لون وطعم * وقلّ بشاشة الوجه المليحْ
قتْلَ(١) قابيلُ هابيلا أخاه * فوا أسفَى على الوجه الصبيحْ

(١) تسكين اللام فى قوله : « قتل » للضرورة؛ وقد ورد هذا البيت فى كثير من الكتب بروايات أخرى وزيادات على هذه الأبيات

ثم حمل آدم هابيلَ على عاتقه وهو باك ، ثم دفنه ، وبكى عليه هو وحوّاءُ أربعين يوما ، فأوحى الله تعالى إليه أن كُفّ عن بكائك ، فإنّى سأهب لك غلاما زكيّا على صورة هابيل يكون أبا النبيّين والمرسلين . فسُرِّىَ عنه ، وجامع حوّاء فحَمَلَتْ بشيث واسمه (هبة الله) فلمّا وضعتْه كان على صفة هابيل وصورته ؛ فلمّا ترعرع و بلغ بعث الله تعالى له قضيبا من سدرة المنتهى فى صفاء الجوهر ، ورزق الله شيثا الأولاد فى حياة آدم ؛ والله أعلم .

ذكر وفاة آدم — عليه السلام —

قال : وكان آدم لمّا أخرج الله تعالى الذرية من ظهره رأى داود — عليه السلام — وحُسنَ صورته ، فسأل عنه وعمّا رزقه الله تعالى من العمر ؛ فقيل له : إنه نبيّ الله داود ، وإنّ عمره الذى كتب الله له أربعون سنة . فقال : يا ربّ زد فى عمره . قال : ذلك الذى كتبتُ له . فقال : ياربّ فإنّى قد وهبته من عمرى ستّين سنة . فلمّا انقضى من عمره تسعمائة سنة وأربعون سنة أتاه ملَكُ الموت ، فقال له آدم : قد عجِلتَ علىّ ، لأنّ ربّى كتب لى ألفَ سنة . قال : ألم تهَب منها لولدك داود ستّين سنة ؟ قال : لا . قال : فجحد آدم وجحدت ذرّيّته من بعده ، ونَسى فنَسيتْ .

وقيل فى عمر داود : ستون سنة ، وإن آدم وهبه أربعين سنة ؛ والله أعلم .

فلما استكمل عدّته أمر الله بقبض روحه ، فعهِد إلى ابنه شيث وأوصاه ، وسلّم إليه التابوت ، وكان فيه نَمَط من الجنّة أبيض أهداه الله تعالى لآدم ، فيه صور الأنبياء والفراعنة من ذرّيّته ؛ فنشر آدم النَّمَط وأراه لابنه شيث ، فنظر إليه ، ثم أمر بطيّه ووضعه فى التابوت ؛ وعمد آدم إلى طاقات من شعر لحيته فوضعها فى التابوت وقال له : يابنىّ ، إنك لا تزال مظفَّرا على أعدائك ما دامت هذه الشعرات سودا

فاذا آبيضّت فاعلم أنّك ميّت ، فاوص إلى خير أولادك . وأوصاه بقتال أخيه قابيل . (١٥)

ثم قبض الله تعالى نبيّه آدم فى يوم الجمعة بعد أن آستكمل ألف سنة ، وصلّت عليه الملائكة صفوفا ، وصلّى عليه شيث ، ودُفن — عليه السلام — .

وقيل : كانت وفاته بالهند ، فلما كان زمن الطوفان حمل نوحٌ معه تابوت آدم فى السفينة ، ثم دفنه ببيت المقدس .

ذكر وفاة حوّاء

قال : ولمّا توفّى آدم — عليه السلام — لم تعلم حوّاء بموته حتى سمعت بكاءَ الوحش والسباع والطير ، ورأت الشمس منكسفة ؛ فقامت من قبّتها فزِعة أن يكون حلّ بشيث ما حلّ بهابيل ، وصارت إلى قبّة آدم فلم تره ، فصاحت صيحة عظيمة ، فأقبل إليها شيث وعزّاها وأمرها بالصبر ، فلم تصبر دون أن صرخت ولطمت وجهها ودقّت صدرها ، فأورثت ذلك بناتها إلى يوم القيامة ؛ ثم لزمت قبره أربعين يوما لا تطعَم ؛ ثم مرضت مرضا شديدا ودام بها حتى بكت الملائكة رحمة لها ؛ ثم قُبضت — رحمة الله عليها — فغسلها بناتُها ، وكُفِّنت من أكفان الجنة ودُفنت إلى جنب آدم — عليهما السلام — ورأسُها إلى رأسه ، ورجلاها عند رجليه .

وقيل : كانت وفاتها بعد مضىّ سنة من وفاة آدم .

الباب الثانى من القسم الأوّل من الفنّ الخامس

فى خبر شيث آبن آدم — عليهما السلام — وأولاده

قال : ولمّا مات آدم — عليه السلام — أسند وصيّته إلى آبنه شيث ، وكان ممّا أوصاه به آلتمسّكُ بالعروة الوثقى ، وشهادةُ أن لا إله إلا الله ، والإيمانُ بمحمّد رسول الله ؛

وقال له : يابنىّ ، إنى رأيت آسمه مكتوبا على سُرادق العرش وأبوابِ الجنان وأطباق السموات وأوراقِ شجرة طوبى ؛ فهذه وصيّتى إليك . ثم نزع خاتَمَه من اصبعه ودفعه إليه ، وتسلّم منه التابوت ، ثم قال له : إن الله سيعطيك ثوب المجاهَدة ، فحارب أخاك قابيل ، فإن الله تعالى ينصرك عليه . وكان شيث حين الوصية إليه آبنَ أربعمائة سنة ، فأطاعه أولاد أبيه ، وصار إليه الفرس الميمون ، وكان أغرَّ محجَّلا إذا صَهَل أجابته الدوابّ كلُّها بالتسبيح .

ذكر قتال شيث قابيل

قال : ثم أمر الله تعالى شيث بن آدم بقتال قابيل ، وكان قابيل قد آعتزل فى ناحية من الأرض ، فعمَّرها ، وخدع أختا له فأحبَلها ، ورُزق منها أولادا كثيرة فسار إليه شيث بجميع أولاده ، وتقلّد سيف أبيه ، وكان بين يديه عمود من الياقوت تحمله الملائكة يضىء بالليل والنهار ؛ وسار وقد أحدقتْ به الملائكة ؛ فتوجّه إبليس إلى قابيل وأعلمه خبر أخيه ، فتأهّب للقائه وقد داخله الفزع ؛ ثم جاء شيث فقابله ، فآقتتلا ، فآنكبّ قابيل على وجهه ، فأخذه شيثٌ أسيرا ، وأسر جماعة من أولاده .

ثم أقبلت الملائكة إلى قابيل فسلكوه فى سلسلة من سلاسل جهنّم ، وغلّوا يده إلى عنقه ، وساقوه بين يدى شيث مُهانا وهو يقول : يا شيث احفظ الرَّحم بينى وبينك . فقال : لا رَحِمَ بيننا بعد أن قتلتَ أخاك ظلما .

ثم أمر شيث الملائكة فساقوه مغلولا إلى عين الشمس بالمغرب ، فلم يزل مواجها للشمس حتى مات كافرا ، وصارت ذريّته عبيدا وإماءً لشيث وأولاده .

ثم أخذ شيث بعد ذلك فى عمارة المدن حتى بنى نيّفا على ألف مدينة فى كلّ مدينة منارة ينادَى عليها : (لا إله إلا الله ، آدم صفوة الله ، محمد رسول الله) .

وكان يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر هو وأولاده ، حتى عمرت الدنيا ؛ وأنزل الله تعالى على شيث خمسين صحيفة ، فكانوا يقرأونها و يعملون بما فيها من غير عداوة ولا تباغض ولا تحاسد ولا فسق بينهم ؛ وكان إبليس يحسد شيثا وأولادَه ، فأقبل إبليس إليه فى صورة آمرأة حسناء ، فقال لها : من أنتِ ؟ قالت : امرأة أرسلنى الله إليك لتتزوّج بى ، ولستُ من بنات آدم . فقال : إن ربى لم يأمرنى بذلك ولا أخبرنى عنك ، وما أظنك إلا إبليس . فضحك وقال : إنما أنا امرأة من نساء الجنة ، ولا تعصِ ربّك وتزوّجْ بى ؛ وجعل إبليس يتزيّن له حتى كاد يفتنه ؛ فنادته الملائكة : يانبىّ الله ، إنه عدوّك إبليس . فقبض شيث عليه وهمّ بقتله ؛ فقال : خلِّ عنّى فإنى من المنظَرين ، ولكن أعطيك الميثاق أنّى لا أتعرض إليك بعدها . فأطلقه ولم يعد إليه . (١٦)

وولد لشيث (أَنُوشُ) على طوله وحسنه ؛ فجعله شيث مكانه والخليفةَ من بعده ، وسلّم إليه التابوت ، وأوصاه بقتال أولاد قابيل .

ومات شيثٌ وله سبعمائة سنة وعشرون سنة .

وقيل : بل عاش بعد آدم مائتى سنة ، وعهد إلى آبنه (أَنُوشَ) فقام على أولاده بالطاعة ثلاثمائة عام .

وعهد من بعده إلى آبنه (قَيْنَان) ، فعُمِّر بعد أبيه مائتين وخمسين سنة .

وعهد إلى آبنه (مَهْلَائِيلَ) ، وكثر فى زمانه بنو آدم ، وكان منزلهم الحرم فضاق بهم ، فقسّم الأرض بينهم خمسة أقسام ، وأرسل خمسة نفر من صلحاء قومه يقيمون لهم شرائع آدم — عليه السلام — و يتولّون الحكومة بينهم ، وهم وَدٌّ وسُواعٌ ويَغُوثُ وَ يَعُوقُ ونَسْرٌ ؛ وهؤلاء الذين لمّا فُقِدوا بلغ من وَجْد قومهم

عليهم أن جعلوا لهم تماثيلَ يتسلّون بها؛ وترامى الأمرُ إلى أن عبدها القرن الذى تلاهم، فكان ذلك هو السببَ لعبادة الأوثان .

ثم قام بالأمر بعد (مَهْلاَئيل) آبنُه (أَخْنُوخ)، وهو إدريس .

الباب الثالث من القسم الأوّل من الفنّ الخامس

فى أخبار إدريس النبي — عليه السلام —

وآسمه أخنوخ ، وإنّما سُمّى إدريس لكثرة دراسته الكتب ؛ وهو أوّل من بُعث من بنى آدم ؛ وهو أوّل من خطّ بالقلم بعد شيث ، وأوّل من كتب فى الصحيفة ؛ وكان مشتغلا بالعبادة ومجالسة الصالحين حتى بلغ فآنفرد للعبادة ، بجعله الله تعالى نبيّا ، وأنزل عليه ثلاثين صحيفة ، وورّثه صحف شيث وتابوت آدم .

وكان يعيش من كسب يده ؛ وكان خيّاطا ، وهو أوّل من خاط الثياب ولبسها وكانوا قبل ذلك يلبسون الجلود ، حتى أتت عليه أربعون سنة ، فبعثه الله تعالى إلى أولاد قابيل ، وكانوا جبابرة ، وقد آشتغلوا باللّهو والغناء والمزامير والطنابير وغير ذلك ، وعبدوا الأصنام ؛ وكان إدريس يدعوهم ثلاثة أيّام ، ويعبد الله أربعة .

وحُكى عن وهب أنه أوّل من آتّخذ السلاح ، وجاهد فى سبيل الله ، ولبس الثياب ، وأظهر الأوزان والأكيال ، وأثار علم النجوم .

وكان إدريس شديد الحرص على دخول الجنة ، وكان قد رأى فى الكتب أنّه لا يدخلها أحد دون الموت ، فبينا هو يسبح فى عبادته إذ عَرَض له مَلَك الموت فى صورة رجل فى نهاية الجمال ؛ فقال له إدريس : من أنت ؟ قال : عبدٌ من عبيد الله أعبده كعبادتك . وآصطحبا ؛ فكان إدريس يأكل من رزق الله ، وهو لا يَطعم شيئا ؛ فسأله عن ذلك ؛ فأخبره انه مَلَك الموت ؛ فقال له : جئتَ لقبض

رُوحى؟ قال: لا، ولو أمرنى الله بذلك ما أمهلتُك، ولكنّه أمرنى أن أصطحبك. فسأله إدريس أن يَقبض روحه؛ فقال له: وما تريد بذلك والموت كربٌ عظيم؟ قال: لعل الله تعالى يحيينى فأكونَ أكثرَ فى عبادته. فأمره الله بقبض روحه فقبضها، وأحياه الله تعالى لوقته.

ثم قال إدريس له بعد حين: هل تستطيع أن تَقِفَنى على جهنّم؟ قال: ما حاجتك إلى ذلك ولها من الأهوال ما لا تطيق أن تنظر إليه، ومالى سبيل الى ذلك، ولكنى أَقِفُك على طريق مالكٍ خازنِها، والله أعلم بحاجتك. فاحتمله ووَقَفه على طريق مالك، فلما رآه كَشَر فى وجهه، فكادت رُوحه تخرج، فأوحى الله — عزّ وجلّ — إلى مالك: وعزّتى وجلالى لا رأى عبدى إدريس بعد كشرتك سوءا، إرجع إليه وقِفْه على شَفير جهنّم ليرى ما فيها. فوقَفَه مالك على شفيرها ونظر إلى ما فيها من الأهوال، فلولا أن ثبّته الله تعالى لصعِق؛ ثم أعاده إلى مكانه؛ فاحتمله مَلَك الموت إلى الأرض، فعبد الله عزّ وجلّ حينا؛ ثم قال لمَلَك الموت: هل لك أن تدخلنى الجنّة لأرى ما أعدّ الله تعالى لأهل طاعته من النعيم؟ فقال: حاجتُك إلى الله تعالى، ولكنّى أحملك وأقف على طريق رضوان خازنِ الجنان فسله حاجتك. ففعل ذلك؛ فلما رآه رضوان قال: مَن هذا؟ قال: إدريس نبى الله يريد أن ينظر إلى نعيم الجنان. قال: «ذلك إلى ربّى». فأوحى الله تعالى إلى رضوان: أنّى قد علمتُ ما يريد عبدى إدريس، وقد أمرتُ غصنا من أغصان شجرة طوبى أن يتدلّى إليه فيلتفّ به ويدخلَه الجنّة، فإذا دخل فأقعِدْه فى أعلى موضع؛ فلمّا دخلها إدريس ورأى ما فيها من النعيم قال له رضوان: أُخرج الآن. قال له إدريس: أيدخل الجنّة من يخرج منها؟ فحاجّه فى ذلك، فأرسل الله تعالى (١٧) له ملَك الموت، فقال له إدريس: ما حاجتك؟ إنك لن تُسلّط على قبض روحى

مرّتين، فاذهب . فرجع مَلك الموتْ إلى ربّه عزّ وجلّ وقال : إلهى قد علمتَ ما قال إدريس . قال الله تعالى : إنه حاجّك بكلامى، فذره فى جنتى . فذلك قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ .

هذا ما أورده الكِسائىّ — رحمه الله — فى كتاب المبتدأ (١) .

ونقل الشيخ أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبىّ — رحمه الله — فى كتابه المترجَم (بيواقيت البيان فى قصص القرآن) وفى تفسيره أيضا فى سبب رفع إدريس عليه السلام، قال : وكان سبب رفعه على ما قال آبن عبّاس — رضى الله عنهما — وأكثرُ الناس : أنه سار ذات يوم فأصابه وَهَج الشمس، فقال : يارب إنى مشيتُ يوما فتأذّيتُ منها، فكيف من يحملها خمسمائة عام فى يوم واحد؟! اللهم خفّف عنه من ثقلها، وآحمل عنه حرّها . فلمّا أصبح المَلك وجد من خفّة الشمس وخفة حرّها ما لا يَعرِف؛ فقال : يارب، خلقتنى لحمل الشمس، فما الّذى قضيتَ فىّ؟ فقال : أما إنّ عبدى إدريس سألنى أن أخفّف عنك ثقلها وحرّها، فأجبته . قال : ياربّ آجمع بينى وبينه، وآجعل بينى وبينه خُلّة . فأذنْ الله تعالى له ؛ فأتى إدريسَ حتى إنّ إدريس لَيسأله، فكان ممّا سأله أن قال : أُخبرت أنّك أكرم الملائكة عند مَلك الموت وأمكنُهم عنده، فآشفع لى إليه أن يؤخّر أجلى فأزداد شكرا وعبادة . فقال المَلَك : لا يؤخّر الله نفسا إذا جاء أجلها . قال إدريس : قد علمتُ ذلك، ولكنّه أطيَب لنفسى . قال : نعم أنا مكلّمه لك، فما كان يستطيع أن يفعل لأحد من بنى آدم فهو فاعله لك . ثم حمله ملك الشمس على جناحه ، فرفعه إلى السماء

(١) كتاب الكسائى الموجود بدار الكتب المصرية غير مكتوب عليه هذا العنوان المذكور، بل كتب على إحدى نسختيه (كتاب العرائس قصص الأنبياء) وعلى نسخة أخرى (قصص الأنبياء) . وهو هذا الكتاب نفسه الذى ذكره المؤلف، وهذا الاختلاف فى التسمية إنما وقع من النساخ .

و وضعه عند مطلع الشمس ؛ ثم أتى ملك الموت ، فقال : لى إليك حاجة . قال : أفعلُ كلّ شىء أستطيعه . فقال له : صديق لى من بنى آدم يتشفّع بى إليك أن تؤخّر أجله . فقال : ليس ذلك إلىّ ، ولكن إن أحببتَ أُعلِمه أجله متى يموت فيتقدّم فى نفسه . قال : نعم . فنظر فى ديوانه ، فأخبره بآسمه ، فقال : إنك كلّمتنى فى إنسان ما أراه يموت أبدا . ثم قال : إنى لأجده يموت عند مطلع الشمس قال : فإنّى أتيتك وتركتُه هناك . قال : فآنطلِق فإنّه قد مات ، فوالله ما بقى من أجل إدريس شىء . فرجع الملك فوجده ميتا .

قال : وقال وهب : كان يُرفع له فى كلّ يوم من العبادة مثلُ ما يرفع لأهل الأرض فى زمانه . فعجبتْ منه الملائكة ، فآشتاق إليه ملك الموت ، فآستأذن الله تعالى فى زيارته ، فأذن له ، فأتاه فى صورة غلام ؛ وكان إدريس يصوم الدهر كلّه فلمّا كان فى وقت إفطاره دعاه إلى الطعام ، فأبى أن يأكل معه ، وفعل ذلك ثلاث ليال ، فقال له إدريس فى الليلة الثالثة : إنّى أريد أن أعلم من أنت . قال : أنا ملَك الموت ، استأذنت ربّى أن أزورك وأن أصاحبك ، فأذن لى فى ذلك . فقال له إدريس : فلى إليك حاجة . قال : وما هى؟ قال : اقبض رُوحى ؛ فأوحى الله تعالى إليه : «اقبض روحه» . ففعل ، ثم ردّها الله تعالى إليه بعد ساعة ، فقال له ملَك الموت : فما الفائدة فى سؤالك قبضَ الروح ؟ قال : لأذوق كرب الموت وغمّه فأكونَ له أشدّ آستعدادا .

ثم قال : لى إليك حاجة أخرى ، قال : وما هى؟ قال : ترفعنى إلى السماء لأنظر إليها وإلى الجنّة والنار . فأذن الله تعالى له فى ذلك ، فلمّا قرب من النار قال : لى إليك حاجة . قال له : وما تريد ؟ قال : تسأل مالكا حتى يفتح لى أبوابها فأردها . ففعل ؛ ثم قال له إدريس : فكما أريتنى النار فأرنى الجنّة . فذهب إلى

الجنّة فاستفتح، ففُتحتْ له أبوابها، فأدخله الجنــة؛ فقال له ملَك الموت : اخرج منها لتعود إلى مَقَرِّك . فتعلّق بشجرة وقال : لا أخرج منهـا . فبعث الله تعـالى ملَكا حَكما بينهما؛ فقال له الملَك : مالكَ لا تخرج ؟ قال : لأنّ الله تعالى قال : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ وقد ذقتُه . وقال : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ وقــد وردتُها . وقال تعالى : ﴿ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ فلستُ أخرج . قال الله تعالى لملك الموت : دعه فإنه بإذنى دخل الجنة، وبأمرى يخرج . فهو هناك، فتارة يعبد الله فى السماء الرابعة، وتارة يتنعّم فى الجنة .

البـاب الرابع من القسم الأوّل من الفنّ الخامس

(١٨) ### فى قصة نوح — عليه السلام — وخبر الطوفان

قال الكسائىّ — رحمه الله تعالى — قال وهب بن منبِّه : لمّـا رفع الله تعالى إدريس — عليه السلام — ترك إدريسُ فى الأرض ولدَه متوشلخ، فتزوّج بآمرأة يقال لهـا : (ميشاخا)؛ فولدت له ولدا سمّاه (لَمَك)، وكان يرجع إلى قوّة وبطش وكان يضرب بيده الشجرة العظيمة فيقتلعها من أصلها، وكان على وجهه نور نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم؛ فخرج فى يوم إلى البرّيّة فرأى آمرأة فى نهاية الجمال وبين يديها غنم ترعاها، فأعجبتْه، فسألها عن نفسها، فقالت : أنا قينوش بنة براكيل بن محويل من أولاد قابيل بن آدم . فقال : ألك زوج؟ قالت : لا . قال : فما سنُّك؟ قالت : مائة وثمانون . قال : لو كنتِ بالغة لتزوّجتك — وكان البلوغ يومئذ لآستيفاء مائتى سنة — فقالت : كان عندى أنك تريد أن تفضحنى، فأمّا إذا أردتَ الزواج فقد أتى علىّ مائتا سنة وعشرُ سنين . فخطبها من أبيها، وأرغبه بالمـال؛ فزوّجه بها فحملت منه بنوح — عليه السلام — فلما كان وقت الولادة ولدتْه فى غار خوفا على

نفسها وولدها من الملك لكونها تزوجتْ بمن ليس منهم؛ فلمّا وضعتْه هناك وأرادت الآنصراف قالت : واُنوحاه . وآنصرفت، فبقى فى الغار أربعين يوما؛ ثم توفّى أبوه لَمَك ، فآحتملته الملائكة ووضعتْه بين يدى أمّه مزيّنا مكحولا ، ففرحتْ به وربّته حتى بلغ .

وكان ذا عقل وعلم ولسان وصوت حسن ، واسع الجبهة ، أسيل الخدّ، وكان يرعى الغنم لقومه مدّة، وربما عالج التجارة؛ ثم كره مجاورة قومه لعبادتهم الأصنام .

وكان لهم ملك يقال له درمشيل؛ وكان جبّارا عاتيا قويّا ، وهو أوّل من شرب الخمر وآتّخذ القمار وقعد على الأسرّة وآتّخذ الثياب المنسوجة بالذهب وأمر بصنعة الحديد والنحاس والرصاص؛ وكان هو وقومه يعبدون الأصنام الخمسة : وَدًّا وسُواعا ويغوثَ ويَعُوقَ ونَسْرا؛ ثم آتخذ ألف صنم وسبعمائة صنم على صور شتّى، وآتخذ لها كراسىَّ من الذهب والفضة ، وأقام لها الخدم يخدُمونها ؛ فاعتزلهم نوح إلى البَرارىّ ولم يخالطهم حتى بعثه الله تعالى نبيّا ؛ والله أعلم بالصواب

ذكر مبعث نوح عليه السلام

قال: فأمر الله تعالى جبريل — عليه السلام — أن يهبط إلى نوح ويبشره بالنبوّة والرسالة؛ فهبط جبريل عليه، وجاءه بوحى الله أن يسير إلى درمشيل الملك وقومه ويدعوهم إلى عبادة الله تعالى؛ فأقبل نوح إلى قومه من يومه — وكان يوم عيدهم وقد نصبوا أصنامهم على أسرّتها وكراسيّها ، وهم يقربون القرابين لها ، وكانوا إذا فعلوا ذلك يخرّون لها سجّدا ويشربون الخمر ، ويضربون بالصُّنْج، ويأتون النساء كالبهائم من غير تستّر — فجاءهم وهم يزيدون على تسعين زمرة، كلّ زمرة لا يُحصَون كثرة ، فآخترق الصفوف حتى صار فى وسط القوم ، وسأل الله تعالى أن ينصره

عليهم ؛ فلما أرادوا السجود للأصنام نادى : أيها القوم ، إنى قد جئتكم بالنصيحة من عند ربكم أدعوكم إلى عبادته وطاعته ، وأنهاكم عن عبادة هذه الأصنام (فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ) . نخرقت دعوته الأسماع ، وهوت الأصنام عن كراسيها ، وسقط الملك عن سريره مغشياً عليه ، فلما أفاق قال : يا أولاد قابيل ، ما هذا الصوت الذى لم أسمع مثله ؟ قالوا : أيها الملك ، هذا صوت رجل منا آسمه نوح بن لمك كان يجانبنا قبل ذلك بجنونه ، والآن قد آشتد عليه فقال ما قال . فغضب الملك وآستدعاه ، فأتوه به بعد أن ضربوه الضرب الشديد ؛ فقال له : من أنت ، فقد ذكرت آلهتنا بسوء ؟ قال : أنا نوح بن لمك رسولُ ربّ العالمين ، جئتكم بالنصيحة من عند ربكم لتؤمنوا به و برسوله ، وتهجروا هذه الأصنام والقبائح . فقال درمشيل : إنك قد جئتنا بما لا نعرفه ، ولا نعتقد أنك عاقل ، فإن كان بك جنة فنداويك أو فقر فنواسيك . قال : يا قوم ، ما بى جنون ولا حاجة إلى ما فى أيديكم ، ولكنى أريد أن تقولوا : لا إله إلا الله و إنى نوحٌ رسول الله . فغضب درمشيل وقال : لولا أنه يوم عيد لقتلناك .

فأول من آمن به آمرأة من قومه يقال لها : (عَمرة) فتزوّجها فأولدها (ساما) (وحاما) (و يافثَ) وثلاثَ بنات ؛ ثم آمنت به آمرأة أخرى من قومه يقال لها : (والعة) فتزوّجها فأولدها كنعانَ ؛ ثم نافقتْ وعادت إلى دينها . (١٩)

وكان نوح يخرج فى كلّ يوم فى أنديةٍ لقومه يدعوهم إلى عبادة الله تعالى فيضربونه حتى يُغشَى عليه ، و يجرّون برجله فيُلقُونه على المزابل ، فاذا أفاق عاد إليهم بمثل ذلك ، و يعاملونه بمثله ؛ حتى أتى عليه ثلاثمُائة سنة وهو على هذه الحال ؛ ثم مات مِلكهم درمشيل ، وملك بعده آبنه بولين ، وكان أعتى وأطغى من أبيه وكان نوح يدعوهم فى القرن الرابع على عادته ، فيضربونه و يشتمونه ، ور بما سَقَوْا

عليه التراب ويقولون : إليك عنا يا ساحر يا كذّاب . ويضعون أصابعهم في آذانهم ؛ فينصرف عنهم ويعود إليهم ، وإذا خلا بالرجل منهم دعاه ، وهم لا يزدادون إلّا عتوّا وتمرّدا واستكبارا ، وذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ الآيات .

ثم دعاهم حتى استكمل ستّة قرون ؛ فلمّا دخل القرن السابع مات ملكهم (بولين) واستخلف عليهم ابنه (طفردوس) — وكان على عتوّ أبيه — وكان نوح يأتي أصنامهم بالليل وينادي بأعلى صوته : يا قوم ، قولوا (لا إله إلا الله ، وإني نوح رسول الله) . فتنكّس الأصنام ؛ وكانوا يضربون نوحا ضربا شديدا ، ويدوسون بطنه حتى يخرج الدم من أنفه وأذنيه ؛

وكان الرجل منهم عند وفاته يوصي أولاده ويأخذ عليهم العهد ألا يؤمنوا به ؛ ويأتي الرجل بابنه إلى نوح ويقول : يا بنيّ انظر إلى هذا فإنّ أبي حملني إليه وحذّرني منه ، فاحذره أن يزيلك عمّا أنت عليه فإنّه ساحر كذّاب . وهو بعد ذلك يدعوهم ؛ فضجّت الأرض إلى ربّها وقالت : ما حملك على هؤلاء ؟ وضجّ كلّ شيء إلى ربّه من عتوّهم ، ونوح يدعوهم ويذكّرهم بآيات الله ؛ فلمّا كان في بعض الأيّام إذا هو برجل من كبار قومه قد أقبل بولده يحذّره منه ؛ فضرب الغلام بيده إلى كفّ تراب وضرب به وجه نوح ، فعند ذلك قال نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا . فأمّنت الملائكة على دعوته ، فمنع الله عنهم القَطر والنبات ؛ فعلم نوح أنّ الله مُهلكٌ قومه ؛ فأحبّ أن يؤمن بعضهم إن لم يؤمنوا كلّهم ؛ فأوحى الله تعالى

إليه : ﴿ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ .

ذكر عمل السفينة

قال : وأوحى الله تعالى إليه أن يتّخذها فى ديار قومه ، وأن يجعلها ألفَ ذراع طـولا وخمسمائة عرضا وثلاثمائة ارتفاعا ، فأعدّ آلاتِ النّجارة ، وشرع فى عملها وأعانه أولادُه ومن آمن من قومه ، والنـاس يسخرون منه ويقولون : بعد النبوّة صرت نجّارا ، ونحن نشكو القحط ، وأنت تبنى للغرق . قال الله تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ؛ وكانوا يأتون السفينة بالليـل فيشعلون فيها النـار ولا تحترق ، فيقولون : هذا من سحرك يا نوح .

وجعل نوح رأسَ السفينة كرأس الطاوُس ، وعنقَها كعنق النّسر ، وجؤجؤَها كجؤجؤ الحمامة ، وكَوْثَلَها كذنَب الديك ، ومنقارَها كمنقار البازى ، وأجنحتَها كأجنحة العُقاب ؛ ثم غشّاها بالزفت ، وجعلها سبعَ طبقات لكلّ طبقة باب ؛ فلمّـا فرغ من بنائها نطقت بإذن الله وقالت : لا إله إلا الله إله الأوّلين والآخرين ، أنا السفينة ، من ركبنى نجا ، ومن تخلّف عنّى غرق ، ولا يدخلنى إلّا أهل الإخلاص . فقـال نوح لقومه : أتؤمنون ؟ قالوا : هـذا قليل من سحرك . ثم استأذن ربّه فى الحج ، فأذن له ؛ فلمّا خرج همّ القـومُ بإحراقها ، فأمر الله الملائكة فاحتملوها إلى الهـواء ، فكانت معلّقة حتى عاد من حجّـه . ولـمّـا قضى مناسكه رأى تابوت آدم(١) عن يمين الكعبة . فسأل ربّه فى ذلك التـابوت فأمر الملائكة فحملوه إلى دار

(١) كذا فى كتاب الكسائى المنقول عنه هذا الكلام . والذى فى الأصول : «نورا من أدم» ؛ وهو تحريف ، إذ لا يعقل أن يتخذ النور من الأدم وهو الجلد .

نوح — وكانت يومئـذ فى مسجد الكوفة — فلمّـا رجع من حجّه نزلت السفينة من الهواء، ثم أوحى الله إليه : أن قد دنا هلاكُ قومك ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ . ثم أمره
(٣٠) الله تعالى أن ينادى فى الوحش والسباع والطير والهوام والأنعام؛ فوقف على سطح منزله، ونادى : " هلمّوا إلى السفينة المنجّية " . فمرّت دعوته إلى الشرق والغرب والبعد والقرب، فأقبلتْ إليه أفواجا .

فقال : إنّما أُمرتُ أن أحمل من كلٍّ زوجين آثنين ؛ فأَقْرَع بينهم، فأصابت القُرْعةُ مَنْ أذن اللهُ فى حَمْله ، وكان معه من بنى آدم ثمانون إنسانا بين رجل وآمرأة؛ فلما كان فى مستهلّ شهر رجب نودى من التنّور وقت الظهر : قم يا نوح فآحمـل فى سفينتك من كلٍّ زوجين آثنين من الذكر زوجا ومن الأنثى زوجا، فحملهم . وكان معه جسد آدم وحوّاء ؛ وتباطأ عليهم الحمار فى صعوده، لأن إبليس تعلّق بذَنَبـه ؛ فقـال نوح بالنبطيّة : على سيطان ، يعنى آدخل يا شـيطان ؛ فدخل ومعه إبليس فرآه نوح فقال : يا ملعون، من أدخلك؟ قال : أنت حيث قلت : على سيطان : فعاهده ألا يغوىَ أهل السفينة ما داموا فيها ؛

ثم أوحى الله إلى جبريل أن يأمر خَزَنةَ المـاء أن يرسلوه بغير كيل ولا مقـدار وأن تُضرَب المياهُ بجناح الغضب . ففعل ذلك ، ونبعت العيون ، وهطلت السماء (فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ) وكان ماء السماء أخضر ، وماء الأرض أصفر ؛ وأمر الله الملائكة أن يحملوا البيت الى سماء الدنيا ؛ وكان الحجر يومئذ أشـدّ بياضا من الثلج ؛ فيقال إنه آسودّ من خوف الطُّوفان؛ وقال نوح عند ركوبه السفينة ما أخبرنا الله عنـه فى كتابه العزيز : ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ

فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ٱرْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ .

قال : كان آبنه هذا كنعان .

قال : وكانوا لا يعرفون الليل من النهار إلّا بخرزة كانت مركّبة فى صدر السفينة بيضاء، فاذا نقص ضوءها علموا أنّه النهار، واذا زاد علموا أنّه اللّيل؛ وكان الديك يصيح عند أوقات الصلاة ؛ وعلا الماء على الجبال أربعين ذراعا ؛ وسارت السفينة حتى بلغت موضع الكعبة، فطافت سبعا ، ونطقت بالتلبية ؛ وكانت لا تقف فى موقف إلّا وتناديه : يا نوح هذه بقعة كذا، وهذا جبل كذا ؛ حتى طافت به الشرق والغرب و رجعتْ الى ديار قومه، فقالت : يانبيّ الله، ألا تسمع صلصلة السلاسل فى أعناق قومك؟ قال الله تعالى : ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً ﴾؛ ولم تزل السفينة كذلك ستّة أشهر آخرها ذو الحجة .

وقيل : كان ركوب نوح ومن معه السفينةَ لعشر خلون من شهر رجب وذلك لتتمّة ألفَى سنة ومائتى سنةٍ وخمسين سنةً من لدن أهبط الله تعالى آدم — عليه السلام — وخرجوا منها فى العاشر من المحرّم بعد مضىّ ستة أشهر ؛ ثم آستقرّت على جبل الجُودىّ ، قال الله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ٱبْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ .

قال : ثم فتح نوح باب السفينة، فنظر الى الأرض ببضاء من عظام قومه ؛ و بعث الغراب لينظر ما بقى على وجه الأرض من الماء؛ فأبطأ ، فبعث الحمامة

فانطلقت شرقا وغربا وعادت مسرعة، فقالت : يانبىّ الله، هلكت الأرض ومن عليها، وأما الماء فإنى لا أراه إلّا ببلاد الهند، ولم تبق على وجه الأرض شجرة إلّا الزيتون، فإنّها على حالها . فأوحى الله تعالى الى نوح : ﴿ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ﴾ فخرج من السفينة وأخرج من فيها، وأعاد الله الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والأشجار والنبات كما كانت، وتفرّق الوحش والسباع والطيور وغيرُها فى الأرض؛ وأمر نوح فبُنيت قرية فى أسفل جبل الجُودِىّ وسمّيتْ (قريةَ ثمانين) على عددهم .

قيل : هى الجزيرة ؛ وهى أوّل قرية بُنيتْ على وجه الأرض بعد الطُّوفان

ثم قسم نوح الأرض بين أولاده الثلاثة : سامٍ وحامٍ ويافثَ، فأعطى سامَ الحجازَ واليمن والشأم، فهو أبو العَرب ، وأعطى حامَ بلادَ المغرب فهو أبو السّودان وأعطى يافثُ بلادَ المشرق، فهو أبو الترك .

ثم أوحى الله — عزّ وجلّ — الى نوح أن يردّ التابوت الى المكان الذى أخذ منه، فردّه .

ذكر خبر دعوة نوح على ٱبنه حام ودعوته لٱبنه سام (٣١)

قال : ولما ٱستقرّ الأمر قال نوح لبنيه : إنى أحب أن أنام، فإنى لم أتهنّأ بالنوم منذ ركبتُ الفُلك . فوضع رأسه فى حجر ٱبنه حام، فهبّت الريح فكشفت عن سوءته، فضحك حام، وغطّاه سام؛ فانتبه فقال : ما هذا الضحك ؟ فأخبره سام ، فغضب وقال لحام : أتضحك من سوءة أبيك ؟ غيّر الله خلقتك ، وسوّد وجهك . فٱسودّ وجهه لوقته . وقال لسام : سترتَ عورة أبيك ، ستر الله عليك فى هذه الدنيا، وغفر لك فى الآخرة. وجعل من نسلك الأنبياء والأشراف، وجعل من نسل حام الإماء والعبيد، وجعل من نسل يافثَ الجبابرةَ والأكاسرةَ والملوكَ العاتية.

ذكر وصيّة نوح ووفاته

قال كعب : بعث الله — عزّ وجلّ — نوحا إلى قومه وله مائتان وخمسون سنة ولبث فيهم ألف سنة إلّا خمسين عاما، وعاش بعد الطُّوفان مائتى سنة ؛ فلمّا حضرته الوفاة دعا بآبنه سام وقال له : أوصيك يا بُنىّ بآثنين، وأنهاك عن آثنين : أوصيك «بشهادة أن لا إله إلا الله» ، فإنّها تخرق السمٰوات السبع ، لا يحجبها شىء ، والثانية أن تُكثر من قولك : « سبحان الله وبحمده » ، فإنها جامعة الثواب ؛ وأنهاك عن الشّرك بالله ، والآتّكال على غير الله . فلمّا فرغ من ذلك أتاه ملَك الموت ، فسلّم عليه فقال : من أنت ؟ فقد آرتاع قلبى من سلامك . قال : أنا ملَك الموت ، جئتُ لقبض رُوحك . فتغيّر وجهه وجزع ، فقال له : ما هذا الجزع ، ألم تشبع من الدنيا فى طول عمرك ؟ قال : ما شبّهتُ ما مضى من عمرى فى الدنيا إلّا بدار لها بابان دخلتُ من أحدهما وخرجتُ من الآخر . فناوله ملَك الموت كأسا فيها شراب وقال : اشرب هذا حتى يسكن روعك . فلمّا شربه خرّ ميتا — عليه السلام — والله الموفّق .

ذكر خبر أولاد نوح — عليه السلام — من بعده

فأما حام فإنه واقع زوجته فولدتْ غلاما وجارية سُودًا[1] ، فأنكرهما حام ؛ فقالت آمرأته : " لحقتك دعوة أبيك " . فلم يقربها حينا ، ثم واقعها فولدت مثلهما فتركها حامٌ وهرب على وجهه ؛ فلما كَبِر الولدان الأوّلان خرجا فى طلب أبيهما حتى بلغا قرية على شاطئ البحر ، فنزلاها ، وواقع الغلام أخته فحملت منه وولدت غلاما وجارية ؛ وأقاما فى ذلك الموضع لا مأكل لهما إلّا السمك ؛ فرجع

(١) أراد بالجمع هنا ما فوق الواحد فقال : « سودا » .

حامٌ فى طلب ولديه فلم يجدهما ، فآغتمّ لذلك ، ثم ماتت آمرأته ، فخرج الولدان الآخَران فى طلب أخوَيهما حتّى صارا الى قرية أخرى على الساحل خربة ، فنزلاها فسمع بهما الأخوان اللّذان فى البطن الأوّل ، فلحقا بهما ، ونزلوا هناك ، ووطئ كلٌّ منهما أخته ، فرُزِقوا أولادا ، وكثر منهم النسل ، وآنتشروا فى أعلى الأرض على ساحل البحر ، فمنهم النُّوبة والزَّنج والبربر والهند والسند وجميع طوائف السودان .

وأمّا يافثُ بن نوح ، فإنه صار إلى المشرق ، فوُلد له هناك خمسةُ أولاد (١) : جومر وتيرس وأشار وسفويل ومياشخ ؛ فمن جومر جميع الصّقالبة والروم وأجناسهم ؛ ومن تيرس جميع الترك والخَزَر وأجناسهم ؛ ومن مياشخ جميع أصناف العجم ؛ ومن أشار يأجوج ومأجوج ؛ ومن سفويل جميع الأرمن :

وأما سام بن نوح فولد خمسةَ أولاد : أرفخشذ ، وهو أب العرب ؛ ولاوَذ وهو أبو العمالقة ؛ وأشور ، وهو أبو النسناس ؛ وعيلم ، وهو أبو العادية [الأولى] ، وإرم ، وهو أبو عاد وثمود ؛ ورُزِق غيرَهم ممّن لم يُعقب .

البـاب الخامس من القسم الأوّل من الفن الخامس

فى قصة هود — عليه السلام — مع عاد وهلاكهم بالريح العقيم



قال وهب : كان ملكُ عادٍ الأكبر آسمه الخَلَجان بن عاد بن العَوْص بن إرَم آبن سام ؛ وكان قومه يَرجِعون إلى فصاحة وشعر ، وكان له ثلاثة أصنام : صَدَا وَهبا ، وصُمو ؛ وكان مَلِكُهم قد حلّى هذه الأصنام بأنواع الحلى ، وطيّبها ، وجعل لها عدّة من الخدم بعدد أيّام السنة ؛ فعتوا فى المعاصى ، وآنهمكوا على عبادة

(١) يلاحظ أن كتب التاريخ مختلفة تمام الاختلاف فى رواية كثير من هذه الأسماء العشرة أولاد يافث وسام حتى إنه لاصلة بين رواية وأخرى . ومن المتعذر الوصول الى تحقيق كثير من هذه الأسماء

الأصنام، وكان فيهم رجل من أشرافهم آسمه الخلود بن معيد بن عاد، وكان له بسْطة فى الخَلْق وقوة فى الجسم، مع الحُسن والفصاحة، وكان إذا قيل له : لِمَ لا تتزوّج وقد بلغتَ سنّ أبيك ؟ يقول : رأيت فى المنام كأن سلسلة بيضاء قد خرجتْ من ظهرى، ولها نور كالشمس، وقيل لى : إذا رأيت هذه السلسلة قد خرجتْ من ظهرك ثانية فتزوّج بالتى تؤمر بتزوجها؛ ولم أرها بعد، وقد عزمتُ على التزوّج؛ وقام ليعبر بيتَ الأصنام يدعو بالتوفيق فى التزوّج، فلما همّ بالدخول لم يقدر، وسمع هاتفا يقول : ياخلود، ما لمن فى ظهرك والأصنام؟ فلم يعد إليها . ثم رأى بعد ذلك فى منامه السلسلة وقد خرجت من ظهره وقائلا يقول : « قم يا خلود فتزوّج بآبنة عمك » فآنتبه وخطبها وتزوّجها، وواقعها فحملتْ بهود؛ وأصبح القوم وهم يسمعون من جميع النواحى : هذا هود قد حملت به أمّه، ويلكم، إن لم تطيعوه هلكتم .

ووضعتْه أمّه فى ليلة الجمعة، فوقعت الرِّعدة على قبائل عاد، ولم يعلموا ماحالهم؛ فعلموا أنه قد ولد لخلود ولد، فقال بعضهم لبعض : ليكونن لهذا الولد شأن فآحذروه . فخرج أحسنَ الناس وجها، وأكملهم عقلا، وسمّته أمّه عابرًا، فرأته أمّه ذات يوم يصلّى، فقالت : لمن هذه العبادة يا بنىّ ؟ قال : لله الذى خلقنى وخَلَقَ الخلْق . قالت : أليس هى لأصنامنا؟ قال : إنّ أصنامكم لا تضرّ ولا تنفع وإنما الشيطان قد زين لكم عبادتها . قالت : أُعبد إلٰهك يا بنىّ، فقد رأيت منك حين كنتَ حَملا وطفلا عجائبَ كثيرة .

ذكر مبعث هود عليه السلام

قال : ولم يزل هود فى ديار قومه يجادلهم فى أصنامهم، حتى أتت عليه أربعون سنة؛ فبعثه الله — عزّ وجلّ — إلى قومه رسولا، وأتاه الوحى، فآنطلق إليهم وهم

متفرّقون فى الأحقاف، وهى الرمال والتّلال — وكانت مساكنهم ما بين عُمان إلى حضرموتَ إلى الأحقاف إلى عالجة — فأتاهم فى يوم عيد لهم وقد اجتمع الملوك على الأسرّة والكراسىّ ، ومَلِكهم الخلجانُ على سرير من ذهب وهو متوّج وقد أحدقت به قبائل عاد، وهم فى اللهو والطرب، فلم يشعروا إلا وهود ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ وهذه الأصنام التى تعبدونها هى التى أغرقتْ قوم نوح ، ولستم أكرمَ على ربّكم منهم ؛ فاستغفِروا ربّكم من عبادة هذه الأصنام ، والأصنام تريحُ ؛ فقال له ملِكهم : ويحك يا هود ، أقبِل إلىّ . فتقدّم إليه ، فلما صار بين يدى الملك صاح صيحة أجابه الوحش والسباع : أَبلِغ[1] ولا تخف . فامتلأت قلوبُ الناس خوفا، فقام إليه رجل منهم وقال : ياهود ، صِف لنا إلهك . فوصف عظمة الله ، وأنه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ — وكان الذى سأله عمرو بن الحلى — فلمّا فرغ من كلامه قال له الملك : ياهود، أتظن أنّ إلهك يقدر علينا وهذه كثرة جموعنا وشدّةُ قوّتنا ؟ قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ .

فأوّل من آمن بهود رجل من قومه يقال له جُنادة بن الأصمّ وأربعون من بنى عمّه، ثم انصرف إلى منزله .

فلمّا كان من الغد أقبل جُنادة و بنو عمّه حتى وقفوا على جماعة من سادات قومه، فقال: يا قوم لاتمنعكم مرارةُ الحق أن تَقبلوه، ولا حلاوةُ الباطل أن تتركوه؛ وهذا ابن عمّكم هود قد عرفتم صدقه، وقد أتاكم من عند الله رسولا وواعظا فاتقوا الله وأطيعوه . وحذّرهم، فحصبوه وشتموه، فرجع إلى هود .

---

(١) فى (ج) : « أقبل » .

فلما كان من الغد خرج هود فوقف عليهم وقال : ياقوم لاتبدّلوا نعمة الله كفرا . وأخذ يعظهم ؛ فكذّبوه وواجهوه بالقبائح ؛ فبقىَ على ذلك دهرا طويلا يلاطفهم وهم على كفرهم وعتوّهم ؛ فأعقم الله أرحام نسائهم ، فلم تحمل آمرأة منهم ؛ فشكَوا ذلك إلى الملِك ، فأمرهم أن يُخرجوا أصنامهم ويقربوا القرابين إليها ؛ ففعلوا (٣٣) ذلك ؛ فأتاهم هود وقال : ياقوم ألا تفزعون إلى الله الّذى خلقكم وأعطاكم هذه النعمة والقوة ، فإنه مجيبكم إذا سألتموه ، ويزيدكم مُلكا إلى مُلككم وقوة إلى قوتكم . وهو أن تقولوا معى : «لا إله إلا الله وحده لاشريك له وإنى هود عبده ورسوله» وإن لم تفعلوا ذلك ضربكم الله بالذلّ والنِّقمة ، وهبّت عليكم الريح العقيم حتّى تذركم فى ديارِكم هشيما . فلمّا سمعوا ذلك منه ضربوه حتى سال الدم على وجهه وهو يقول: « إلٰهى قد أبلغتُ وأنذرتُ » .

وأقبل إلى هود بعد آنصرافه رجل من قومه يُعرَف بمرثد بن عاد ، وقال : يا هود ، إنّى قد جئتك فى أمر ، فإن أخبرتنى به فأنت رسول الله . قال له هود : يامرثد ، كنتَ البارحة نائما مع زوجتك فواقعتَها ، فقالت لك : أتظنّ أنى قد حملتُ؟ فقلتَ لها : إنى صائر غدا إلى هود ، فإن أخبرنى بهذا الكلام آمنتُ به . فقال مرثد : أشهد أنّك رسول الله حقا ؛ ولكن أَخبِرْنى هل حملتْ ؟ قال : نعم حملت بولدين ذكرين يكونان من أمّتى ، سيخرجان من بطنها سليمين مؤمنين ؛ وستلد لك عشرة أبطن فى كلّ بطن ذكران ، ويكونان من أمّتى . فوثب مرثد وقبّل رأس هود وكان من خيار أصحابه ، وجعل مَرثد يقول :

من كان يَصدُق يوما فى مقالتِه * فإنّ هودا رسول صادق القِيلِ
نبىّ صدق أتى بالحقّ من حكم * وقد أتانا ببرهان وتنزيل
فالحمد لله حمدا دائما أبدا * مضاعَفا[1] شكرُه فى كلّ تفصيل

(١) مضاعفا بالنصب : حال من الله .

ثم آنصرف مرثد إلى آمرأته وأخبرها ، فآمنت ؛ وكان مرثد يكتم إيمانه ويجالس قومه ، فإذا سمعهم يذكرون هودا بسوء يقول : مهلا يا بَنِى عمّ فإنه كأحدكم وآبنُ عمكم .

قال : ثم آجتمعوا فى متنزَّه لهم ومَلِكهم ونصبوا أصنامهم ؛ فأقبل هود عليهم وقال : يا قوم آعبدوا الله فإن هذه الأصنام لا تضرّ ولا تنفع ولا تُبصر ولا تَسمع . فقال الرؤساء من قومه : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ﴾ .

فنادَوه من كلّ ناحية : يا هود ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ﴾ .

وكان القوم يشتمونه ويضربونه ويدوسونه تحت أرجلهم حتى يظنّوا أنه قد مات ، ثم يولّون عنه ضاحكين ؛ فيقوم غير مكترث بفعلهم ؛ فلما أكثر عليهم ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ فآمن به فى ذلك اليوم رجل يقال له نُهَيل .

قال: ولم يزل هود فيهم يحذرهم و ينذرهم العذاب سبعين عاما ؛ فلما رأى أنهم لا يؤمنون دعا الله تعالى أن يبتليهم بالقحط ، فإن آمنوا و إلّا يهلكهم بعذاب لم يُهلِك به أحدا قبلهم ولا بعدهم ؛ فاستجاب الله تعالى دعوته ، وأمره باعتزالهم بمن معه من المؤمنين، فاعتزلهم فأمسك الله عنهم المطر، وأجدبت الأرض ولم تُنبِت ومات عامّة المواشي؛ فصبروا على ذلك أربعَ سنين حتى يئسوا من أنفسهم، وهمّوا أن يؤمنوا؛ فنهاهم الملِك عن ذلك وصبّرهم؛ فأجمعوا رأيهم أن يبعثوا رجالا منهم إلى الحرم يستسقون لهم؛ والله الفعّال .

ذكر خبر وفد عاد إلى الحرم يستسقون لهم

قال وهب : فجمعوا الهدايا ، واختاروا سبعين رجلا من أشرافهم ، وجعلوا لكلّ عشرة منهم رئيسا ، من جملتهم مَرثَد المؤمن ؛ فسار وهو يدعو عليهم ؛ فلما (٢٤) أشرفوا على الحرم إذا بهاتف يقول :

قبّح الله قوم عاد وذلّوا * إنّ عادا أشرُّ أهلِ الجحيم
سيّروا الوفد كى يسقَوا غيانا * فسيُسقَون من شراب الحميم

فدخلوا الحرم والملِك يومئذ معاوية بن بكر، وكانوا أخواله، فسألهم عما جاء بهم فأخبروه بخبر هود و بما حلّ بعاد، وأنّهم قدجاءوا إلى الحرم للاستسقاء؛ فأنزلهم معاوية فى منزل الضيافة، وأطعمهم وسقاهم شهرا؛ فشغلهم اللهو عن الاستسقاء؛ فبلغ الملِكَ (الخلجانَ) ذلك، فبعث إلى معاويةَ يسأله أن يأمرهم بالاستسقاء، فكره مواجهتهم بذلك فيقولون : « قد تبرّم بضيافتنا » فدعا بالجرادتين — وهما قَينتان لمعاوية — فقال لهما : إذا شرب القوم ودبّ فيهم الشراب فغنّياهم بهذه الأبيات ، وهى :

بأبى مَن خَلَق الخلْـ * ـقَ بنى سامٍ وحامِ
سادة سادوا جميعَ الـ * ـخَلْقِ فى الخَلْقِ التمامِ

نَصَب الدهر عليهم * حَربَه دون الأنامِ
فسقى الله بنى عا * د من الصَّوْب الغَمامِ

فأجابهما رجل من الوفد يقال له الجَعْد بنُ القَيْل :

علِّلينا — زانك اللّ * ـهُ — بأكواب المُدامِ
وبماءٍ فامزُجيها * تستريحى من مَلامِ

فلما لم يكترثوا بالصوت الأوّل قالت :

ألا يا قَيْلُ وَيْحَكَ قُمْ فَهَيْنِمْ(١) * لعلّ الله يَمنحُكم غَماما
غَماما صَوْبُها هَطِلٌ مغيث * يُروِّى السّهل طُرّا والإكاما
من العطش الشديد فليس نرجو * بها الشيخَ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهمُ بخير * فقد أمست نساؤهمُ عِياما(٢)
وأنّ الوحش تأتيهم جهارا * ولا تخشى لعادىٍّ سهاما
وأنتم هاهنا فيما أشتهيتم * نهارَكم وليلَكم التَّماما
فقُبِّح وفدُكم من وفد قوم * ولا لَقُوا التحيّة والسلاما
أفيقوا أيّها الوفد السُّكارى * لقومكمُ فقد أضحَوا هِياما
فقد طال المُقام على سرورٍ * ألا يا قَيْلُ وَيْكَ ذَرِ المُداما

قال : فأنتبه الناس وقاموا فأغتسلوا ولبسوا ثيابا جُدُدا ، وكسَوا البيت بالكسوة التى حملوها له ؛ فجعل ينفضها ؛ فقال مَرْثَد : ياقوم، إنّ ربّ هذا البيت لا يَقبل الهديّة إلّا من مؤمن ، فهل لكم أن تؤمنوا بهود ؟ فقالوا : يا مَرْثَد : إنّ كلامك يدلّ على إيمانك به، ونحن لا نؤمن به أبدا .

فأنشأ يقول :

---

(١) هينم، أى ادع الله .　(٢) عياما، أى شديدات الشهوة إلى اللبن .

أَرَى عادا تَمَادَى[١] فى ضَلالٍ * وقد عَدَلوا عن الأمر الرشيد
بما كفرتْ بربهم جِهارا * وحادوا رغبةً عنْ دِين هود

فآجتمعوا يستسقون، فقال واحد منهم :

يا ربَّ عادٍ آسقِينّ عادا * إنّك حقّا ترحم العِبادا
فاسق البساتينَ وذى البلادا * أجوادَ[٢] غيث تَتبع العِهادا

وجعل كلُّ واحد منهم يتكلّم بما حضره من ذلك . ثم تكلّم مَرْثَد بن سعد — وهو المؤمن الّذى يكتم إيمانه — وقال : اللهمّ إنا لم نأتك إلى حرمك إلّا لأرض تسقيها، أو أمّة تحييها .

فأوحى الله إلى مَلَك السحاب أن ينشر لهم ثلاثَ غمامات : بيضاءَ وحمراء وسوداء ؛ وجعل السوداء مَشُوبة بغضبه، فآرتفعت البيضاء، وتبعتْها الحمراء خَلْفَهما السوداء، فآرتفعتْ حتى رأى الوفد جميع الغمامات ؛ ففرحوا وآستبشروا ثم نُودوا : يا قَيْل، اختر لقومك من هذه السحائب . فنظر فقال : أمّا البيضاء فإنها جَهام لا ماء فيها ؛ وأمّا الحمراء فإنها إعصار ريح . فآختار السوداء . فنودى :
(٢٥) يا قَيْل، اخترتَ رَمادا أرمدا، لا يُبقِى من قوم عاد أحدا، إلا تراهم فى الديار هُمّدا .

ذكر إرسال العذاب على قوم هود

قال : وأَوحى الله إلى (مالكٍ) خازنِ جهنم أن يقبض على سلاسل السوداء وليكن عليها ألف من الزبانية .

قال كعب : إن هذه السلسلة غُمستْ فى سبعين واديا من أودية الزمهرير ولولا ذلك لذابت الجبال من حرّها .

(١) تمادى، أى تمادى .

(٢) الأجواد : الأمطار الغزيرة، الواحد جود بفتح الجيم .

فمدّت الزبانية السلاسل ، وجعلت السحابة ترمى بشرر كالجبال ، وخرجت عليهم من واد يقال له : (وادى الغيث) فنظروا إليها فقال بعضهم لبعض : ﴿ هَٰذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا ﴾ قال الله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ .

وأخرج القوم أصنامهم ونصبوها على أسرّتها ؛ فأمر الله تعالى خازن الريح العقيم أن يفتح بعض أطباقها ، فانطلقت ناشرةً أجنحتها بعدد قبائل عاد ؛ فلمّا عاينوا الملائكة يطوفون حول السحاب تيقّنوا العذاب ، فأدخلوا النساء والولدان فى الحصون وخرجوا ونشروا أعلامهم وأوتروا قسيّهم ، وأفرغوا السهام بين أيديهم ، والرياح ساكنة تنتظر أمر ربّها ، وهود قائم ينذرهم العذاب ، وهم يقولون : ستعلم ياهود من أشدّ منا قوة وبطشا . حتى إذا كانت صبيحة الأربعاء ، خرجت الريح عليهم فى يوم نحس مستمرّ ، فكانت فى اليوم الأوّل شهباء ، فلم تترك على وجه الأرض شيئا إلّا نسفته نسفا ؛ وفى اليوم الثانى صفراء ، فاقتلعت الأشجار ؛ وفى اليوم الثالث حمراء ، فدمّرت كلّ شىء مرّت عليه ؛ فلم يزل يجرى فى كلّ يوم لون والنساء ينظرن إلى فعلها بقومهنّ ، فجعلن يقلن شعرا :

ألا قد ذهب الدّهـ * ـر بعمرو ذى العليّات
وبالحارث والقمقا * م طلّاع الثنيّات
ومن سدّ مهبّ الريـ * ـح فى وقت البليّات

واستمرت الريح ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ ، أى دائمة ؛ فلما كان فى اليوم الثامن اصطفّت القوم صفوفا ، كلّ واحد إلى جنب أخيه ، وهم عشرة صفوف ؛ فجعل ملكهم الخلجان يشجّعهم ويقول :

ما بالُ عادِ اليــومَ خائفينا ؟ * أمِنْ مَهَبِّ الريح يجزعونا ؟[1]

لقد خشيت أن يكونوا دونا * إنّ البنين تُعقب البنينا

هذا والرِّيح تمزّقهم، فكانت تدخل فى ثوب الرجل فتحمله فى الهواء، ثم ترميه على رأسه ميتا . قال الله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾ .

فلم يَبق منهم إلا الملِك أخّره الله تعالى ليرى مَصارعَ قومه ، وهو يردّ الريح بصدره، فجاءت الريح فدخلت من فيه وخرجت من دبره ، فمات ؛ ثم مرّت الريح نحو الوفد، فحملتهم من الأرض إلى الهواء، فألقتهم على وجوههم؛ فماتوا عن آخرهم .

قال : وهودٌ فى حظيرة بمن معه من المؤمنين لا يصيبهم منها إلا ماتلين له الجلود . قال الله تعالى ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ .

قال : وارتحل هود ومن معه من أرض عاد إلى الشِّحْر من بلاد اليمن؛ فنزلوا هناك حولين، ثم مات .

ويقال : إنه دفن بأرض (حضرموت)؛ والله أعلم .

ذكر خبر مرثد ولقمان

قال : وخرج من وفد عاد مرثد، ولقمان بن عاد، فدخلا مكّة منفردَين، فدعوا الله تعالى لأنفسهما ؛ فقيل لهما : قد أُعطيتما مُناكما ، فاختارا لأنفسكما ، إلا أنه لاسبيل إلى الخلود . فقال مرثد : اللهم أعطنى برًّا وصدقا . فأُعطىَ ذلك . وقال لقمان : « يا ربّ عُمرا » . فقيل له : اختر لنفسك بقاء سبع بقرات صفر عُفْر

(١) كذا ورد هذا الشطر فى إحدى نسخ (قصص الأنبياء للكسائى) المنقول عنه هذا الكلام . والذى فى الأصول : * يا آل عاد أبكم جنونا * وقوله : «أبكم جنونا» غير مستقيم الإعراب كما هو ظاهر .

فى جبل وَعْر، لايمسّهن ذُعْر؛ و إن شئتَ بقاء سبع نوايات من تمر، مستودعات فى صخر، لايمسّهن ندًى ولاقَطْر؛ وإن شئتَ بقاء سبعة أنْسُر كلّما هلك نَسْر أُعقِب (٣٦) من بعده نسر . فآختار الأنسر، فكان يأخذ الفرخَ منها حين يخرج من بيضته، فإذا مات أخذ غيرَه، فكان كلّ نسر يعيش ثمانين سنة، حتى آنتهى إلى السابع، فكان آخرَها لُبَد ؛ فلما مات لبد مات معه لقمان، وهو لقمان النسور .

ولنصل هذا الباب بخبر ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾، وقصّة شديد وشدّاد .

ذكر خبر ﴿ إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ ﴾ وقصّة شديد وشدّاد بنىْ عاد

قد ذكرنا خبر﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ فيما تقدّم من كتابنا هذا على سبيل الاختصار وذلك فى (البـاب الثالث من القسم الخامس من الفن الأوّل فى المبانى القـديمة) وهو فى السفر الأوّل من هذه النسخة؛ ورأينا إيرادَه فى هذا الباب بمـا هو أبسط من ذلك لتعلّقه به

قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَـادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ .

روى أبو إسحاق أحمد بن محمـد بن إبراهيم الثعلبىّ فى كتابه المترجم (بيواقيت البيـان فى قصص القـرآن) عن منصـور عن سـفيان عن أبى وائل أنّ رجلا يقال له : (عبـد الله بن قِلابة) خرج فى طلب إبل له قـد شردت ، فبينما هو فى بعض صحارى عَدَنَ فى تلك الفلوات، إذ وقف على مدينة عليها حصن، حول ذلك الحصن قصور كثيرة وأعلام طوال ؛ فلمّـا دنا منها ظنّ أن فيها من يسأله عن إبله فلم يرداخلا فيها ولا خارجا منها، فنزل عن ناقته وعقلها، وسلّ سيفه، ودخل من باب الحصن، فاذا هو ببابين عظيمين لم يُرَ فى الدنيا أعظمُ منهما ولا أطيبُ رائحـة

وإذا خشبُهما من أطيبِ عُود ، وعليهما نجوم من ياقوت أصفرَ وياقوت أحمر ضوءُها قد ملأ المكان؛ فلما رأى ذلك عجب ، ففتح أحد البابين، فاذا هو بمدينة لم ير الراءون مِثلَها قطّ ، وإذا هو بقصور تتعلّق، تحتها أعمدةٌ من زبرجد وياقوت وفوق كلّ قصر منها غُرَف مبنيّة بالذهب والفضّة واللؤلؤ والياقوت والزبرجد، وعلى كلّ باب من أبواب تلك القصور مِصراع كمصراع باب المدينة من عُودٍ طيِّب، قد نُضِّدتْ عليه اليواقيت؛ وقد فُرِشتْ تلك القصور باللؤلؤ وبنادق المسك والزعفران ولم يَرَ هنالك أحدا، فأفزعه ذلك، ثم نظر إلى الأزقّة فاذا فى كلّ زُقاق منها أشجار قد أثمرت، تحتها أنهارٌ تجرى؛ فقال : هذه الجنّة التى وصفها الله تعالى لعباده فى الدنيا الحمد لله الذى أدخلنى الجنة . فحمل من لؤلؤها وبنادق المسك والزعفران ولم يستطع أن يقلع من زبرجدها ولا ياقوتها لأنّها كانت مشتبكةً فى أبوابها وجدرانها وكان اللؤلؤ وبنادق المسك والزعفران منثورةً بمنزلة الرمل فى تلك القصور والغرف؛ فأخذ منها ما أراد، وخرج؛ ثم سار يقفو أثر ناقته حتى رجع إلى اليَمَن، فأظهر ما كان معه، وأعلم الناس بخبره، وباع ذلك اللؤلؤ، وكان قد آصفرّ وتغيّر من طول الزمان الذى مرّ عليه ، ففشا خبره وبلغ معاوية ، فأرسل رسولا إلى صاحب (صنعاء)، وكتب بإشخاصه، فسار حتى قدم على معاوية، فخلا به وسأله عمّا عاين؛ فقصّ عليه أمر المدينة وما رأى فيها؛ فآستعظم ذلك، وأنكر ما حُدّث به، وقال : ما أظنّ ما يقول حقّا . ثم قال : يا أمير المؤمنين، معى من متاعها الّذى هو مفروش فى قصورها وغرفها وبيوتها . قال له : ما هو؟ قال : اللؤلؤ والبنادق . فشمّ البنادق فلم يجد لها ريحا؛ فأمر ببندقة منها فدُقّت ، فسطع ريحها مسكا وزعفرانا؛ فصدّقه عند ذلك؛ ثم قال معاوية :كيف أصنع حتى أسمع بآسم هذه المدينة ولمن هى ومن بناها؟ والله ما أُعطىَ أحد مِثلَما أُعطى سليمان بنُ داود

وما أظنّ أنه كان له مِثلُ هـذه المدينة . فقال بعض جلسائه : ما تجد خبر هـذه المدينة إلّا عند (كعب الأحبار) فإن رأى أميرُ المؤمنين أن يبعث إليه و يأمر بإشخاصه و يغيب عنه هـذا الرجلَ فى موضع ويسمع كلامَه منه وحديثه و وَصْفَ المدينةِ حتّى يتبيّن أمر هذه المدينة فَعَل، فإنّ كعبا سيخبر أمير المؤمنين بخبرها وأمرِ هذا الرجل إن كان دخلها، لأنّ مثل هـذه المدينة على هذه الصفة لا يستطيع هذا الرجل دخولَها، إلّا أن يكون سبق فى الكتاب دخولُه إيّاها فيعرف ذلك .

فأرسل معاويةُ إلى (كعب الأحبار) وأحضره ثم قال له : يا أبا إسحاق إنّى دعوتك لأمر رجوتُ أن يكون علمُه عندك . فقال له : يا أمير المؤمنين "على الخبير سقطتَ" فسلنى عما بدا لك . فقال له : أخبرنا يا أبا إسحاق ، هل (٢٧) بلغك أن فى الدنيا مدينةً مبنيّةً بالذهب والفضّة ، عَمَدها زبرجد وياقوت، وحصا قصورها وغرفها اللؤلؤ، وأنهارُها فى الأزقّة تحت الأشجار؟ قال: والّذى نفس كعب بيده لقد ظننتُ أن سأُوسَّدُ[1] يمينى قبل أن يسألنى أحد عن تلك المدينة وما فيها ولكن أخبرك بها يا أمير المؤمنين ولمن هى، ومن بناها .

أمّا المدينةُ فهى حق على ما بلغ أمير المؤمنين وعلى ما وُصفتْ له .

وأمّا صاحبها الّذى بناها فشدّاد بن عاد .

وأمّا المدينة فهى إرَم ذات العماد التى لم يُخلَق مثلُها فى البلاد .

فقال له معاوية : يا أبا إسحاق، حدِّثنا بحديثها — يرحمك الله — . فقال كعب : نعم يا أمير المؤمنين ، إن عادا كان له آبنان يسمّى أحدهما « شديدا » والآخر « شدّادا » ؛ فهلك عاد ، فبقيَا ومَلَكا وتجبّرَا ، فقهَرَا أهل البلاد ، وأخذاها عَنوة

(١) كنى بتوسد يمينه عن دفنه بعد الموت . وفى الأصل : «شيئا توسد» .

وقَسرا ، حتى دان لهما جميع الناس ، فلم يبق أحد من النـاس فى زمانهما إلا دخل فى طاعتهما ، لا فى شرق الأرض ولا فى غربها ؛ و إنهما لمـّا صفا لهما ذلك وقـرّ قرارهمـا مات شـديد بن عاد ، و بقى شـدّاد ، فملك وحده ، ولم ينازعه أحد ودانت له الدنيا كلُّها ؛ فكان مولَعا بقراءة الكتب القديمة ، وكان كلّما مرّ فيهـا بذكر الجنة دعته نفسُه لتعجيل تلك الصفة لنفسه الدنيّة عتوّا على الله وكفرا؛ فلما وَقَر ذلك فى نفســه أمر بصنعة تلك المدينــة التى هى إرم ذات العماد ، وأمّر على صنعتها مائةَ قَهْرَمانٍ مع كلّ واحد ألف من الأعوان . ثم قال: انطلقوا إلى أطيب فلاة من الأرض وأوسعها، وٱعملوا فيها مدينة من ذهب وفضّة و ياقوت و ز برجد ولؤلؤ، تحت تلك المدينة أعمدة من ز برجد، وعلى المدينة قصور، من فوق القصور غرف،ومن فوق الغرف غرف،وٱغرسوا تحت القصور غروسا فيها أصناف الثمار كلّها، وأجروا فيها الأنهار حتى تكون تحت تلك الأشجار جارية، فإنى أسمع فى الكتب صفةَ الجنة، و إنى أحبّ أن أتخذ مثلَها فى الدنيا، أتعجّل سكناها. فقال له قَهارمتُه: كيف لنا بالقدرة على ما وصفتَ لنا من الزبرجد والياقوت واللؤلؤ والذهب والفضة نبنى منهـا مدينة كما وصفتَ لنا ؟ فقال لهم شـدّاد : ألستم تعلمون أن مُلك الدنيا كلَّها بيـدى ؟ فقالوا : بلى . قال : انطلقوا إلى كلّ موضع فيه معدن من معادن الزبرجد والياقوت والذهب والفضة، وكلّفوا من كلّ قوم رجلا يُخرج لكم ما فى كلّ معدن من تلك الأرض؛ ثم ٱنظروا إلى ما فى أيدى الناس من ذلك فخذوه، سوى ما يأتيكم به أصحاب المعـادن، فإنّ معادن الدنيا فيها كثير من ذلك ، وما فيها ممـّا لا تعلمون أكثرُ وأعظمُ مما كلّفتكم من صنعة هذه المدينة .

قال: فخرجوا من عنده، وكتب معهم إلى كلّ ملك من ملوك الدنيا يأمره أن يجمع لهم ما فى بلده من الجواهر، و يحفرَ معادنها؛ فٱنطلق القهارمة، و بعث الكتب

إلى الملوك بأخذ كلّ ما يجدونه فى أيدى الناس عشرَ سنين من الزبرجد والياقوت واللؤلؤ والذهب والفضة، ويبعثون بذلك إلى فعلة إرم ذات العماد . وخرج الفَعَلة يطلبون موضعا كما وصفه لهم شدّاد .

فقال معاوية : يا أبا إسحاق ، كم كان عدد أولئك الملوك الذين كانوا تحت يد شدّاد؟ قال : كانوا مائتين وستّين ملكا .

قال : فخرج عند ذلك الفعلة والقَهارمة، فتفرقوا فى الصحارى ليجدوا ما يوافق غرضه؛ فوقعوا فى صحراء عظيمة نقيّة من الجبال والتلال. وإذا هم بعيون مطردة؛ فقالوا: هذه صفة الأرض التى أُمرنا بها؛ فأخذوا منها بقدر ما أمرهم به من العرض والطول، ثم عَمَدوا إلى مواضع الأزقّة فأجرَوا فيها قَنَوات الأنهار؛ ثم وضعوا الأساس من صخور الجَزْع اليمانى، وعجنوا طين ذلك الأساس من دُهن البان والمحلب؛ فلمّا فرغوا من وضع الأساس بُعث بالعَمَد والذهب والفضّة من جهة الملوك؛ فتسلّمها الوزراء والقَهارمة، وأقاموا حتى فرغوا من بنائها على ما أراد شدّاد .

فقال معاوية : يا أبا إسحاق، إنى لأحسبهم أقاموا فى بنائها زمنا من الدهر . قال : نعم يا أمير المؤمنين . إنى لأجد فى التوراة مكتوبا أنهم أقاموا فى بنائها ثلاثمائة سنة . فقال معاوية : كم كان عمر شدّاد ؟ فقال : سبعمائة سنة . فقال معاوية : لقد أخبرتَنا عجبا، فحدّثنا . فقال : يا أمير المؤمنين، إنّما سمّاها الله تعالى (٨ ب) إرم ذات العماد الّتى لم يُخلق مثلُها فى البلاد، للعَمَد التى تحتها من الزبرجد والياقوت وليس فى الدنيا مدينةٌ من الزبرجد والياقوت غيرها، فلذلك قال الله تعالى : ﴿ لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبِلَادِ ﴾ .

وقال كعب : إنّهم لما أتَوه فأخبروه بفراغهم منها قال : انطلقوا وٱجعلوا عليها حصنا، وٱجعلوا حول الحصن ألفَ قصر، عند كلّ قصر ألفَ عَلَم، ويكون فى كلّ

قصروزير من وزرائى، ويكون كلّ عَلَم عليه ناطور . فرجعوا فعملوا تلك القصور والأعلام والحصن؛ ثم أتوه فأخبروه بالفراغ ممّا أمرهم به .

قال : فأمر شـداد ألفَ وزير من خاصّته أن يهيّئوا أسبابهم ، ويعوّلوا على النقلة إلى إرم ذات العماد، وأمر رجالا أن يسكنوا تلك الأعلام ويقيموا فيها ليلهم ونهارهم، وأمر لهم بالعطاء والأرزاق، وأمر من أراد من نسائه وخدمه بالجَهاز إلى إرم ذات العماد؛ فأقاموا فى جَهازهم عشر سنين؛ ثم سار الملك شـداد بن عاد بمن أراد، وتخلّف من قومه فى عَدَنَ مَن أمَرَه بالمُقام بها .

قال : فلمّا آستقلّ وسار إليها ليسكن فيهـا، وبلغ منها موضعا بقى بينه وبين دخوله إليها مسيرةُ يوم وليلة، بعث الله تعـالى عليه وعلى من كان معه صيحة من السماء ، فأهلكتْهم جميعا، ولم يبق منهم أحد ، ولم يدخل شـداد ولا مَن كان معه إرم ذات العماد، ولم يقدر أحد منهم على الدخول فيها حتى الساعة .

فهـذه صفة إرم ذات العماد ، وأنّه سـيدخلها رجل من المســلمين فى زمانك ويَرى ما فيها ، فيحدّث بمـا عاين، ولا يُسمَع منه ولا يصدّق . فقال معاوية : يا أبا إسحاق، فهـل تصفه لنـا ؟ قال : نعم ، هو رجل أحمر أشـقر قصير، على حاجبـه خال، وعلى عَقِبه خال ، يخرج فى طلب إبل له ندّت فى تلك الصحارى فيقع على إرم ذات العماد، فيدخلها ويحمل ممّـا فيها . والرجل جالس عند معاوية. فآلتفت كعب فرأى الرجل ، فقال : هو هذا يا أمير المؤمنين قد دخلها ، فآسأله عمـا حدّثتك به . فقـال معاوية : يا أبا إسحـاق ، إنّ هـذا من خَدَمى ، ولم يفارقنى . قال كعب : قد دخلها وإلّا سوف يدخلها ، وسيدخلها أهلُ هذا الدين فى آخر الزمان . قال معاوية : يا أبا إسحاق، لقـد فضّلك الله على غيرك من العلماء

ولقد أُعطيتَ من علم الأوّلين والآخرين مالم يُعطَه أحد . فقال : والّذى نفس كعب بيده، ما خلق الله تعالى فى الأرض شيئا إلّا وقد فسّره فى التوراة لعبده موسى تفسيرا، و إن هذا القرآن أشدّ وعيدا (وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا) والله الهادى للصواب . (٢٢)

قال أبو إسحاق الثعلبىّ — رحمه الله تعالى — وقال الشعبىّ : أخبرنا دَغْفَلُ الشيبانىُّ عن رجل من أهل (حضرموت) يقال له : بِسْطام، أنه وقع على حَفيرة شدّاد بن عاد فى جبل من جبال حضرموت مطلٍّ على البحر .

قال : وكنت أسمع من صباى إلى أن اكتهلتُ بمغارة فى جبل من جبالنا بحضرموت وهيبةِ الناس لدخولها، فلم أحتفل بما كنت أسمع من ذلك ؛ فبينا أنا فى نادى قومى إذ تناشدوا حديثَ تلك المغارة وأطنبوا فى ذكرها ووصفوا موضعها ؛ فقلت لقومى : إنى غير منتهٍ حتى أدخلها ، فهل فيكم من يساعدنى ؟ فقال فتى منهم حدث السنّ : أنا أصاحبك . فقلت : يا ابن أخى ، أو تجسر على ذلك ؟ قال : عندى ما عند أشدِّ رجل من رَباطة الجاش وشدّة القلب . فهيّأنا شمعة وحملنا معنا إداوةً عظيمة مملوءة ماء وطعاما مقدارَ ما قدرنا على حمله ؛ ثم مضينا نحو ذلك الجبل الذى فيه المغارة — وكان مشرفا على المكان الذى يركب أهلُ حضرموتَ منه البحر — فلما انتهينا إلى باب المغارة حزمنا علينا ثيابنا ؛ وأشعلنا الشمعة ؛ ثم ذكرنا الله تعالى ، ودخلنا ومعنا تلك الإداوةُ وذلك الطعام ، فإذا بمغارة عظيمة عرضها عشرون ذراعا ، وطولها علوا نحو خمسين ذراعا ؛ فمشينا فيها هونا فى طريق أملس مستو ، ثم أفضينا إلى درجات عالية عرضُ الدرجة عشرون ذراعا فى سَمْك عشر أذرع ، فحملنا أنفسنا على نزول تلك الدرجات فقلت لصاحبى : هلمّ، إلىّ يديك . فكنت آخذ بيده حتى ينزل، فإذا نزل وقام فى الدرجة تعلّقتُ بطرف الدرجة وتسيّبتُ حتى تنال رجلاى منكبيه ؛ فلم نزل

كذلك وذلك دأبُنا عامّة يومنا ، حتى نزلنا ذلك الدَّرَج وكانت مقدار مائة درجة ؛ فأفضينا إلى أَزَجٍ عظيم محفورٍ فى الجبـل ، فى طول مائة ذراع ، فى عرض أربعين (٣٩) ذراعا ، وسَمْكه فى السماء نحو مائة ذراع ، وفى صـدره سرير من ذهب مفصَّص بأصناف الجواهر ، وفوقه رجل عظيم الجسم ، قد أخذ طولَ هذا الأَزَج وعرضَه وهو مضطجع على ظهره كهيئة النائم ، وعليـه سبعون حلّة بمقدار طوله وعرضـه منسوجة تلك الحلل بقضبان الذهب والفضة ، و إذا فى ذلك الأزج نَقْب عرضه ذراعان ، وارتفاعه ثلاث أذرع ، خارج إلى فضاء لم ندر ما هـو ، و إذا على رأس السرير لوح من ذهب ، فيـه كتاب بالمُسنَد — وهـو كتاب عادٍ كانت تكتبه فى زمانها — محفور ذلك الكتاب فى اللوح حفرا ؛ فقلعناه ودنونا من الرجل فمسسنا تلك الحلل فصارت رميما ، و بقيت قضبان الذهب قائمة ، فجمعناها وكانت مقدار مائة رطل ، فحملناها فى أُزُرنا ، وأردنا قلع شىء من تلك الجواهر المفصَّص بها السرير ، فلم نقدر عليه لوثاقته ، فتركناه ؛ وهجم علينا الليل ، ونحن فى ذلك الأَزَج وعرفْنا ذلك بذهاب ذلك الضوء الذى كان يدخل من ذلك النَّقب ، فبتنـا ليلتنا فى ذلك الأَزَج ، وطَفئت الشمعة التى كانت معنا ؛ فلما أصبحنا قلت لصاحبى : ماترى ؟ قال : أما الرجوع من حيث جئنا فلا سبيل إليه ، لارتفاع الدَّرَج ، وأنا لا نستطيع صعودها ، لا سيّما والشمعة قـد طَفئت ، ولكن هلمّ لنلزم هذا الضوء الذى نراه فى هـذا النقب ، فإنى أرجو أن يخرج بنا إلى الفضاء إن شاء الله تعالى ، فقلت له : لعمرى إنّ هذا لهو الرأى .

قال : فانطلقنا بمـا معنا من تلك القضـبان من الذهب ، وحملناها مع ذلك اللوح الذهب الذى كان عنـد رأس السرير ، ومشينا فى ذلك النَّقب نتبـع ذلك الضوء ، فلم نزل نمشى فيـه فى طريق ضيق مقـدارَ مائة ذراع حتى خرجنا منه إلى

كهف فى ذلك الجبل كهيئة الحائط ، وقد حَفّ بذلك الكهف البحر، فجلسنا على باب ذلك النَّقْب ثلاثة أيّام نتقوت بقيّة ما كان معنا من الماء والطعام، فلمّا كان فى اليوم الرابع نظرنا إلى مركب قد أقبل فى البحر فلوّحنا إلى مَن فيه ، فأرسلوا إلينا القارِب ، فنزلنا من باب ذلك النقب نزولا شاقًا حتى وثبنا إلى القارب بما معنا ، ثم خرجنا من البحر فقسمنا ذلك الذهب بيننا ، وصار ذلك اللّوح إلىّ بقِسْطى .

قال : ثم إنّ أنفسنا دعتنا إلى العودة إلى ذلك السَّرَب ممّا يلى النَّقْب من جهة البحر، فركبنا قارِبا وسرنا فى البحر نحو المكان الذى كنّا فيه ، فنزلنا منه ، فخفى علينا فعلمنا أنّا لم نُرزَق من ذلك المكان إلّا ما أخذناه ، فرجعنا .

قال : ومكث ذلك اللوح عندى حولا وأنا لا أجد من يقرؤه ، حتى أتانا رجل حِمْيَرِىّ من أهل صنعاء كان يُحسن قراءة تلك الكتابة ، فأخرجتُ إليه اللوح فقرأه ، فإذا فيه مكتوب هذه الأبيات :

اِعتبِرْ بى أيّها المغ * رورُ بالعمر المديد
أنا شدّاد بنُ عادٍ * صاحبُ الحصن العتيد
وأخو القوّة والبأ * ساء والمُلك الشديد
وبفضل المُلك والعُدّ * ة فيه والعَديد
دان أهلُ الأرض طرًّا * لىَ من خوف وعيدى
وملكتُ الشرق والغر * ب بسلطانٍ شديد
فأتى هودٌ وكنّا * فى ضلال قبلَ هود
فدعانا — لو قبِلنا * ه — إلى الأمر الرشيد
فعصيناه ونادَيـ * ـنا ألا هل من محيد
فأتتنا صيحة تهـ * ـوى من الأُفْق البعيد

فتــوافينا كزرعٍ * وسْــط بيــداءَ حصيد

وقد ساق أبو إسحاق الثعلبيُّ أيضا هــذه الأبيات بهذا السند دون القصّة فى تفسيره (الكشف والبيان عن تفسير القرآن) وفيها فى البيت الرابع بدل قوله :

... ... طرًّا * لىَ من خوف وعيــدى

دانَ أهلُ الأرض لى من * خوفِ وعدى ووعيدى

قال أبو إسحاق — رحمه الله — قال دَغْفَلٌ الشيْبانىّ : سألت علماء حِمْيَرَ عن شداد بن عاد، فقلت : إنه أصيب وكان قد دنا من إرم ذات العماد، فكيف وُجِد شِلْوُه فى تلك المغــارة وهى بحضرموت ؟ فقالوا : إنّه لمّــا هلك هو ومن معه بالصيحة، ملك بعده مَرْثَد بن شدّاد، وقــد كان أبوه خلّفه على مُلكه بحضرموت فأمر بحمل أبيه إلى حضرموت، فحُمِل مطليًا بالصبــر والكافور، فأمر أن تُحفَر له تلك المغارة، وآستودعه فيها على ذلك السرير الذهب؛ والله تعالى أعلم .

هذا ما أورده — رحمه الله — من خبر إرم ذات العماد وخبرِ شديدٍ وشدّاد بنَىْ عاد .

(٣٠) وقد ذُكر فى هذه الأبيات هود النبىّ — عليه السلام — فى قوله :

فأتى هودٌ وكنّا * فى ضلالٍ قبلَ هودِ

الأبيات الخمسة

وقد تقــدّم فى خبر هود وهلاكِ عاد بالريح العقيم ، أن مِلكهم القائمَ بأمرهم فى زمن هود كان اسمه الخلَجان بن الوهم بن عاد، وأنه هلك بالريح العقيم إثرَ هلاكِ قومه، ولم يَرِد أنّه آمن بالله تعالى ؛ وهذه الأبيات تدلّ على ندم قائلها ؛ ومقتضى هذا السياق فيه دَلالة على أن شدّاد بن عاد هذا المذكورَ آنفا، وآبنَه مرثد بن شدّاد وخبرَ إرم ذات العماد، كان قبل مبعث هود — عليه السلام — والله تعالى أعلم .

ولنرجع إلى قصص الأنبياء — عليهم الصلاة والسلام —

الباب السادس من القسم الأوّل من الفنّ الخامس

فى قصة صالح — عليه السلام — مع ثمود وعقرهم الناقة وهلاكهم

قال الكسائىّ : قال كعب : لمـا أهلك الله — عزّ وجلّ — عادا، جاءت ثمود وعَمَرت الأرض، وكانوا بضع عشرة قبيلة، فى كلّ قبيلة زيادةٌ عن سبعين ألفا سوى النساء والذرّيّة، وكثروا حتى صاروا فى عدد عادٍ وأكثر، وكانوا ذوى بطش وقوّة وتجبّر وكفر وفساد، وكانت منازلهم ما بين الحجاز إلى الشام ، وهى ديار الحِجْر من وادى القُرى، وكان مِلكهم جُنْـدَع بن عمرو بن عاد بن ثمود بن إرم بن سام ابن نوح .

وقيــل فى نسبه : إنّه جُنْـدَع بن عمرد بن عمرو بن الدُّمَيْـل بن عاد بن ثمود ابن عائذ بن إرم بن سام، وكانت طائفة ممّن آمنت بهودٍ يذكرون له كيف أهلك الله قوم عاد بالريح العقيم، وكيف كانت سيرة هود فيهم؟ فيقول : إنّما هلكتْ عاد لأنها لم تكـن تشيّد بنيانها : ولا تنصح آلهتها، وكان بنيانهـم على الأحقاف التى هى الرمال، ونحن أشدّ قوّة و بناء و بلادا، ونحن نتخـذ الجبال بيوتا فننحتها فى الصخر لئلّا يكون للريح عليها سبيل، ونحن نعبد آلهتنا حقّ العبادة .

قال كعب : كانت قوّة الرجل منهم أن ينحت فى الجبـل بيتا طوله مائة ذراع فى عرض مِثـلِ ذلك، و يضربه بصفائح الحـديد، و يُغَلِّق بابا من حديد مصمَت لا يفتحه إلّا القوىّ منهم، وكانت منازلهم أوّلا بأرض كوش فى بلاد عالج[1]، فآنتقـلوا إلى هذه البلاد لكثرة جبالها .

---

(١) فى ياقوت أن «عالج» رمال بين «فيد» «والقريات» ، وهى متصلة «بالثعلبية» على طريق مكة ؛ فلعل هذا الموضع هو المراد هنا .

قال : ثم اجتمع كبراؤهم إلى ملكهم جُنْدَع ، وقالوا : نريد أن نتّخذ لأنفسنا إلٰها نعبده ، لم يكن مِثله لقوم عاد ولا قوم نوح . فأذن فى ذلك ، فنحتوا صنما من جبل يقال له : (الكثيب) وجعلوا وجهه كوجه الإنسان، وعنقه وصدره كالبقر ويديه ورجليه كالخيل ، وضربوه بصفائح الذهب والفضّة ، وعقدوا على رأسه تاجا ، ورصّعوه بالدرّ والجوهر؛ فلمّا كمل خرّوا له سجّدا، وقرّبوا القربان ، وأقبلوا إلى الملك فقالوا له : أخرج إلى هذا الإلٰه الّذى أتعبنا أنفسَنا فى اتّخاذه . فخرج الملك إليه فى زينته وأصحابه ؛ فلما رأوه خرّوا له سجّدا ؛ ثم أمر الملك أن يُتّخذ له بيت ، وأن يسقَّف بصفائح الذهب والفضّة، ويرصّع بالجوهر، وتُفْرش أرضه بالدِّيباج؛ وأمر أن تُتّخذ لسائر الأصنام بيوت ، وأن يتّخذ سرير من العاج والابنُوس على عرض البيت ، قوائمه من الفضّة ، وأن تعلّق قناديل الفضّة بسلاسل الذهب وأمر أن يُجعل للبيت مصراعان فى كلّ مصراع مائة حَلْقة من الذهب والفضّة ويعلّق عليهما سِتْران ، وسمّاهما ستورَ العزّ، ووضع الصنم على ذلك السرير، وسائر الأصنام الصغار على كراسىِّ العاج والآبنُوس؛ وأمر أن يُنْدَب لخدمة الأصنام رجل من أشراف قومه وأحسنِهم وأنسبِهم؛ فقالوا : ليس فى ثمود أشرف نسبا وأجمل وجها من كانوه[1] . فاستدعاه وقرّبه وتوّجه وسوّده، وجعله على خدمة الأصنام؛ فقبل ذلك، وتفرّغ لخدمتها وعبادتها ، وقوم ثمود يعبدون ذلك الصنم ، وقد ازدادوا عتوّا وتجبّرا وكفرا وفسادا، والله تعالى يزيدهم سَعة وخِصبا، وهم يرون أن ذلك كلّه من بركات أصنامهم .

---

(١) كذا ورد هذا الاسم فى (تاريخ العينى) فى نسخة منقولة عن نسخة المؤلف مأخوذة بالتصوير الشمسىّ محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٨٤ تاريخ . والذى فى الأصل : «كانول» فى جميع مواضعه .

ذكر ميلاد صالح — عليه السلام —

قال : فبينما كانوه[1] فى بيت الأصنام إذ تحرّكتْ نطفة صالح فى ظهره، وصار لها نور على عينيه، وسمع هاتفا يقول : (جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) ألا بعدا وسحقا لثمود لكفرهم، وهذا صالح بن كانوه[1] يصلح الله به الفساد. ففزع من ذلك، وذهب ليتقدّم إلى الصنم الأكبر، فنطق بإذن الله وقال : مالى ومالك يا كانوه، مثلك يخدمنى وقد آستنارت الأرض بنور وجهك للنور الذى فى ظهرك ؟! ثم تنكّس الصنم عن سريره، فأعاده كانوه وأعوانُه إلى السرير، وبلغ الملِكَ ذلك، فآغتمّ له؛ فقال له أصحابه : إنّ هذا لسوء خدمة كانوه فإنّه لا يوفّى الآلهة حقَّها فى الخدمة . وهمّوا بقتله، فأخفاه الله تعالى عن عيونهم؛ فلمّا كان الليل هبط عليه ملَك من السماء، فآحتمله وهو نائم، وألقاه فى وادٍ على أميال من ديار قومه وهو لا يدرى فى أى موضع هو، فنظر غارا فى جبل هناك، فدخله ليكنّه من حرّ الشمس ونام، فضرب الله على أذنه مائة سنة، وفقدَه قومُه، ونصبوا لخدمة أصنامهم رجلا منهم يقال له : داود بن عمرو، فبينما هم كذلك وقد خرجوا فى يوم عيد لهم إذ نطقت الأشجار بإذن الله وقالت : يا آل ثمود، ألا تعتبرون، إنّ الله يُخرج لكم فى السنة من الثمار مرّتين، ثم تكفرون بنعمة ربّكم وتعبدون سواه . ونطقت المواشى كذلك فعمدوا إلى الأشجار فقطّعوها، وعقروا المواشى؛ فنطقت السباع ونادت من رءوس الجبال : ويلكم يا آل ثمود، لا تقطعوا هذه الأشجار وتذبحوا هذه المواشى وقد نطقتْ بالحقّ . فخرجوا إلى السباع بالأسلحة وهى تَهرُب من بين أيديهم (٣١)

(١) كذا ورد هذا الاسم فى (تاريخ العينى) فى نسخة منقولة عن نسخة المؤلف مأخوذة بالتصوير الشمسى محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٨٤ تاريخ . والذى فى الأصل : (كانول) فى جميع مواضعه .

وتستغيث بالله وتقول : اللهم طهّر أرضك بنبيّك صالح، وآرفع به الفساد . والقوم يسمعون ذلك ويقولون : قد كفر هؤلاء بآلهتنا .

قال : وكان لكانوه فى ديار قومه امرأة يقال لها : (رعوم) وهى كثيرة البكاء عليه منذ فقدته ؛ فبينما هى ذات ليلة وإذا بغراب نَعَق ، فقامت لتنظر إليه ، فرأته على مثال الغراب ، ورأسه أبيض ، وظهره أخضر، وبطنه أسود وهو أحمر الرجلين والمنقار، وأخضر الجناحين؛ فقالت : أيها الطائر، ما أحسنك! فقال : أنا الغراب الّذى بُعثتُ إلى قابيلَ فأريتُه كيف يوارى سوءة أخيه، وأنا من طيور الجنّة ، وإنى أراكِ باكية حزينة . فقالت : إنى فقدتُ زوجى منذ مائة عام . فقال : اتبعينى فانّى أرشدك إليه . فتبعته ، وطُويتْ لها الطريق حتى وقَفَها على باب الغار ، ونادى الطائر : قم ياكانوه ، قم بقدرة الله . فقام ودخلت إليه زوجته، فواقعها، فحملت — بإذن الله تعالى — بصالح . وقبض الله كانوه لوقته ؛ وعادت رعوم والغراب يدلّها على منزلها ؛ فلما آنقضت مدّة حَملها ، وضعتْ فى ليلة الجمعة من شهر المحرم، فوقعتْ هزّة شديدة فى بلاد ثمود لمولده ، وخرّت الوحوش والسباع ساجدة لله تعالى ، وأصبحت الأصنام وقد تنكّست ؛ فأقبل داود وأخبر الملكَ بخبرها ؛ فجاء بأشراف ورفعوها على مراتبها وأسرّتها، وتقدّم الملك إلى الصنم الأكبر وقال : ما دهاك ؟ فناداهم إبليس منه : قد وُلد فيكم غلام يدعوكم إلى دين هود ليس عليكم منه بأس .

فخرج الملك ومن معه مستبشرين ؛

ونشأ صالح ، حتى إذا بلغ سبع سنين أقبل على قومه وهو يقول : يا آل ثمود، تنكرون حَسَبى ونسبى، أنا فلان بن فلان . فيقولون : إنك من أحسبنا وأنسبنا؟ حتى إذا بلغ عشر سنين إذ أقبل عليهم ملك من أولاد سام، كان يغزوهم

فى كلّ سبع سـنين مرّة فيَسلُب أموالهم؛ فوثب صـالح إلى سيف أبيـه وسلاحه وخرج يعـدو ، و إذا هو بالملك جُنْدَع وسادات قومه قـد آجتمعوا ، وقد آنتزع الملك منهم أموالهم ، وهم لا يستطيعون دفعه عنها لكثرة جموعه ؛ فصاح بهسم صالح صـيحة أزعجتهم ، وألقى آلله الرعب فى قلوبهم ، واستنقذ منهـم جميع ما أخذوه من قومه .

فعجب جندع وأصحابه منـه ، وأقبلوا يقبّلون صالحا و يكرمونه ؛ فخشى الملك على مُلكه أن يعزلوه و يولّوا صالح بن كانوه ، فهمّ أن يقتله ، ودسّ إليه جماعة من خواصّه فدخلوا منزله ، فأيبس الله أيديَهم عنـه ، وأخرس ألسنتهم ؛ فعلم الملك أنه معصوم ، فبعث يسأله فيهم ؛ فدعالهم ، فأطلق الله أيديهم وألسنتهم ، و بقى صالح مكرّما معظّما فى قومه .

ذكـر مبعثــه — عليــه الســلام —

قال : ولـمّـا أتى عليه أر بعون سنة بعثه الله — عزّ وجلّ — رسولا إلى قومه ؛ فجاءه جبريل بالوحى عن الله ، وأمره أن يدعوهم الى قول ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا آللّٰه ﴾ (٣٢) والإقرار بأن صالحا عبده ورسوله ، وترك عبادة الأصنام ، وأعلمه بمـا سيظهر على يديه من العجائب .

قال : فأقبل صالح إلى قومه فى يوم عيد لهم وقد نصبوا أصنامهم وآجتمعوا على يمينها وشمالها ، والملك جُنْدَع مشرف عليهم ينظر إليهم و إلى قربانهم ؛ فتقـدّم حتى وقف على الملك وقال : قـد علمت نصحى لك أبدا ، وقد جئتك رسولا أدعوك إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنّى صالح رسول الله . فقال الملك له : إن قبائل ثمود لا ترضى أن يكون مثلك رسولا إليهم ، غير أنى أنظر فيما تقول ، فعُد إلىّ غدا .

ثم أصبح الملك ودعا بأشراف قومه، وأخبرهم بخبر صالح؛ فقالوا: أحضره حتى نسمع ما يقول. فأحضره فقال: ﴿يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ فقال له نفر منهم: ﴿يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هٰذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ فقال له الملك: كيف خصّك ربّك بالرسالة من بيننا، ورفعك علينا وفى قبائل ثمودَ من هو أعزّ منك؟ فقال: ﴿ذٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ ثم قال: يا قوم آتقوا الله وأطيعون، ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾، أى لين ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ أى حاذقين ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ * ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

قال: فأقبل الملك عليهم وقال: قد عرفتم صالحا فى حسبه ونسبه، وأنا رجل منكم؛ فما تقولون؟ وما عندكم من الرأى فى أمره؟ قالوا: أيها الملك ﴿ءَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ قال الله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ ٱلْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾.

قال: فآمن به منهم جماعة، وخرج صالح من عند الملك، فأمره الله تعالى أن يبنى مسجدا لنفسه ولمن معه من المؤمنين، فأعانته الملائكة على بنائه؛ فلمّا كمل جاءه جبريل بشجرة فغرسها على باب المسجد، وأنبع الله له عينا من الماء العذب،

وكان صالح يخرج فى كلّ يوم إلى قبيلة من قومه يدعوهم إلى عبادة الله تعالى ويعظهم بأيّام عاد وما حلّ بهم فيقول ﴿الَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِن رَبِّهِ﴾ فكان المستضعفون يقولون : ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ والمتكبّرون يقولون : ﴿إِنَّا بِالَّذِى آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ .

ولم يزل صالح يدعوهم حتّى آستكمل سبعين عاما؛ ثم أعقم الله نساءهم وجفّت أشجارهم فلم تثمر، ولم تضع لهم بقرة ولا شاة .

ثم لم يزل يدعوهم حتى آستكمل مائة سنة وهم لا يزدادون إلا كفرا ؛ فلمّا أيس منهم خرج يريد أن يدعو عليهم بالهلاك، وقال لقومه : لا تبرحوا حتى أعود إليكم . وقصد جبلا فطاف به حتى أمسى ، فنظر إلى عين ماء ، فتقدّم وتوضأ وقام ليصلّى ويدعوَ على قومه ، فرأى فى الجبل كهفا ، فدخله فرأى فيه سريرا من الذهب، عليه فُرُش الحرير، وفى وسط الكهف قنديل؛ فعجب من ذلك، وصعد على السرير، فضرب الله على أذنه فنام أربعين سنة؛ وأخذ قومُه فى العبادة؛ فكان يموت منهم الواحد بعد الواحد ، فيدفن إلى جانب المسجد، ويكتب على قبره : « هذا فلان بن فلان » .

قال : ثم بعث الله — عزّ وجلّ — صالحا من نومته ، فخرج من الكهف وتوضّأ وصلّى ركعتين، وأراد أن يدعوَ على قومه؛ فقيل له : لاتعجل عليهم ، فإنّ عَجَلتك غيّبتك عن قومك أربعين سنة .

فعاد إلى قومه ، وإذا برسوم وآثار لا يعرفها ، وأشرف على مسجده وهو خراب ليس فيه إلّا الملائكة يحفظونه من فُسّاق أهل ثمود؛ فقال : إلهى ما فعل

أهل هذا المسجد ؟ فنادته الملائكة : مات بعضهم و رجع الباقون إلى دينهم الأول لمـّا أيسوا منك .

ثم أمره الله تعـالى أن يأتى قومَه و يدعوهم إلى عبادة الله وٱلكفّ عن عبادة الأصنام ؛ فأقبـل وهم مجتمعون فى يوم عيدهم ومعهم مَلِكُهم ، فناداهم : قولوا (لا إله إلا الله و إنى صالح رسـول الله) يا قوم إنى أرسلت إليكم مرّة وهـذه أخـــرى .

فتحيّروا وتساقطتْ أصنامهم، ونطقت الدوابّ : جاء الحقّ من ربّنا . قال له الملك : من أنت ؟ قال : أنا صالح . قال : أليس قد بقى صالح فينا طويلا وغاب عنّا منذ مدّة طويلة ؟ ما أنت إلّا ساحر جئتنا بعده . وهمّ بقتله .

(٣٣) وكان للملك ٱبن عمّ يقال له : هـذيل، فقال : ياصالح، لا نحتاج إلى نصحك فٱنصرف عنّـا . فقال : ياهذا أما إنك ميت فى يومك هـذا أنت وأهلك و ولدك فى وقت كذا وكذا، وفى غد يموت أبوك وأمّك، فبادرْ إلى الإيمـان ، فإن آمنتَ أحياك الله وجعلك حجّة على قبائل ثمود .

فٱنصرف الرجل وهم ينظرون إلى الوقت الذى ذكره صالح؛ فلما جاء الوقت مات الرجل وأهله و ولده، وٱنتشر الخبر فى قبائل ثمود، ومات أبوه وأمّه من الغد؛ فعجب الناس وجزعوا، وخاف الملك .

وأقبل صالح فقال : يا آل ثمود، كيف كان هـذا الميّت عندكم ؟ قالوا : خير رجل حتى مات . قال : فإن أحياه الله بدعائى، أتؤمنون بى و بإلٰهى وتبرأون من أصنامكم؟ قالوا : نعم. فجاء صالح إلى الميت فدعا ربّه ، ثم ناداه بٱسمه فقال : لبّيك يا نبىّ الله، وقام وهو يقول : (لا إله إلا الله صالح عبد الله ورسوله) .

فلمـا عاين قومه ذلك آزدادوا كفرا، ودخلوا على صنمهم وشكوا ما يلقونه من صالح؛ فنطق إبليس من جوفه وقال : انصرفوا إلى ما أنتم عليه؛ وإذا رأيتم صالحا فقولوا : ائتنا ببرهان كما أتى به هود ونوح .

فخرجوا مسرورين حتى أتوا صالحا، فقال لهم: قد رأيتم وسمعتم كلام الوحش والطـير وإحياءَ الموتى وغيرَ ذلك من الآيات ما فيـه كفاية، فأىّ آية تريدون ؟ فالوا : نخرج نحن وأنت إلى هـذا الوادي، وندعو وتدعو، وننظر أىّ الدعوتين تستجاب ؛ وتواعدوا إلى يوم عيدهم .

فلمّـا كان فى ذلك ٱليوم ٱجتمعوا وخرجوا بأصنامهم وزينتهم؛ وأقبل صالح يخترق صفوفهم ؛ حتّى وقف أمام مليكهم، ودعاهم إلى الإيمان بالله . قالوا : أرنا آية . قال : ما تريدون؟ قالوا : أَخرِج لنا ناقة من هـذه الصخرة ونؤمن بك ونعلم أنّك صادق . قال : إنّ ذلك هين على ربّى، ولكن صفوها لى .

فأقبـل القومُ يصف كلٌّ منهم صـفة حتى أكثروا . فقال الملك : إنّ هؤلاء قد أكثروا وأنا أصفها بما فى قلبى : تكون ناقة ذات فَرْث ودم ولحم وعظم وعَصَب وعروق وجلد وشَعر يخالطه وبر ، وتكون شَكْلاء[1] شقراء هيفاء، ولهـا ضَرع كأكبر مايكون من القلال، يدرّ من غير أن يستدرّ، يشخب لبنا غزيرا صافيا، ويكون لها فصيل يتبعها على مثالهـا، فإذا رغت أجابها بمثل رُغائها، ويكون حنينها الإخلاص لربّك بالتوحيد، والإقرار لك بالنبوّة ، فإن أخرجتَها على هذه الصفة آمنّا .

فأوحى الله إليـه : أن أعطهم ما سألوا . فقال لقـومه : إن الله قد شفّعنى فى حاجتكم ، فإن أخرجتهـا تؤمنون ؟ قالوا : نعم ، على شرط أن يكون لبنها ألذ

(١) شكلاء، أى فى لونها بياض مختلط بحمرة .

من الخمر وأحلى من العسل . قال : إن أخرجها ربّى تؤمنون ؟ قالوا : نعم على شرط أن يكون لبنها فى الصيف باردا ، وفى الشتاء حارّا ، لا يشربه مريض إلّا برئ ، ولا فقير إلّا آستغنى . قال : إن أخرجها ربّى أتؤمنون؟ قالوا : نعم ، على شرط ألّا ترعى من مراعينا ، بل فى رءوس الجبال و بطون الأودية ، وتذر ما على الأرض لمواشينا . قال : إن أخرجها ربّى أتؤمنون ؟ قالوا : نعم ، على شرط أن يكون الماء لنا يوما ولها يوما ، ولا يفوتنا اللّبن ، وتدخل علينا بالعشيّات فى بيوتنا وتسمّى كلّ واحد منّا بآسمه ، وتنادى : « ألا من أراد اللّبن » ؟ فيخرج و يضع ما يريد تحت ضرعها ، فيمتلئ لبنا من غير آحتلاب . قال أتؤمنون حقيقة؟ قالوا : نعم . قال صالح : قد شرطتم شرائط كثيرة ، وأنا أشترط عليكم : لا يركبها أحد منكم ، ولا يرميها بحجر ولا سهم ، ولا يمنعها من شربها ولا فصيلها .

قالوا : هذا لك يا صالح . فأخذ عليهم المواثيق .

ذكر خروج الناقة

قال : فلمّا آنتهت شروطهم وشروطه ، وأخذ عليهم المواثيق ، قام وصلّى ركعتين ، ودعا ، فآضطربت الصخرة وتمخّضت ، وتفجّر من أصولها الماء ، والقوم ينظرون ، وسمعوا دويّا كدوىّ الرعد ، فرفعوا رءوسهم ، فإذا بقبّة تنقضّ من الهواء فآنحدرتْ على الصخرة وحولها الملائكة ؛ ثم تقدّم صالح إلى الصخرة فضربها بقضيب كان بيده ، فآضطربت وتشامخت صُعُدا ، ثم تطامنتْ إلى موضعها ؛ ثم خرج رأس ووثبتْ من جوفها على الصفة كأنّها قطعة جبل ، فوقفتْ بين يدى الملِك وقومه وهى أحسن ممّا وصفوا ، وهى تنادى : (لا إله إلا الله ، صالح رسول الله) .

ثم مر جبريل على بطنها بحربة ، فخرج فصيلها على لونها .

(٣٤) ثم نادت : «أنا ناقة ربّى، فسبحان من خلقنى وجعلنى آية من آياته الكبرى» .

فلما رأى الملك ذلك قام عن سريره وقبّل رأس صالح، وقال : يا معشر قبائل ثمود، لا عمى بعد الهدى، أنا أشهد أن لا إله إلّا الله، وأن صالحا رسول الله .

وآمن معه فى ذلك اليوم خلق كثير من أهل مملكته وغيرهم؛ فلمّا رأى داود خادمُ الأصنام ذلك نادى بصوت رفيع : ياآل ثمود، ما أسرع ماصبوتم إلى هذا الساحر، إن كانت الناقة قد أعجبتكم فهلمّوا إلى آلهتكم فسلوها حتى تُخرج لكم أحسن منها .

فوقفوا عن الإيمان ، وعمدوا إلى شهاب أخ الملك، فملّكوه عليهم؛ ودخل جُنْدَع المدينة فكسر الصنم الذى كان يعبده، وفرّق أمواله على المؤمنين ، ولبس الصوف ، وعبد الله حقّ عبادته ، وكانت الناقة تتّبع صالحا كاتّباع الفصيل لأمه؛ فلمّا كان بعد ذلك أقبلت ثمود على صالح، وقالوا : إن لم نمسّ الناقة بسوء يصرفْ ربّك عنّا عذابه ؟ قال : نعم ، إلى منتهى آجالكم . وكانت الناقة تخرج وفصيلها خلفَها، فتصعد إلى رءوس الجبال ، ولا تمرّ بشجرة إلّا آلتفّت عليها أغصانُها فتأكل أطايب أوراقها؛ ثم تَهبِط إلى الأودية فترعى هناك، فإذا أمست تدخل المدينة وتطوف على دُور أهلها، وتنادى بلسان فصيح : ألا من أراد منكم اللّبن فليخرج . فيخرجون بآنيتهم ، فيضعونها تحت ضرعها ، واللّبن يشخب حتى تمتلئ الآنية ؛ فإذا آكتفوا عادت إلى المسجد، وتسبّح آلله حتى تصبح؛ ثم تخرج إلى المرعى وهذا دأبها .

قال : وكان للقوم بئر يشربون منها ليس لهم سواها، فإذا كان يوم الناقة تأتى وتدلّى رأسها فتشرب به وتقول : « الحمد لله الذى سقانى من فضل مائه، وجعلنى حجّة على آل ثمود » .

وكانت تَمُجّ من فيها إلى فم الفصيل حتّى يَرْوَى؛ فإذا كان يوم القوم أتوا البئر ونزحوا ما فيها ، وكانت الناقة تقول إذا أصبحت : إلهى كلّ من شرب من لبنى وآمن بك و برسولك فزده إيمـانا و يقينا ، ومن لم يؤمن بك و برسولك فآجعل ما يَشرب من لبنى فى بطنه داء لا دواء إنّك على كلّ شيء قدير .

ذكر خبر عَقر الناقة وهلاك ثمود

قال : فلمـا كانت تدعو بذلك صار القوم إذا شربوا لبنها آعترتهـم الحِكّة فى أبدانهم ؛ فآجتمعوا وقالوا : ليس لنا فى هـذه من خير ؛ وأجمعوا على عَقرها ؛ وكانت فيهم آمرأة يقال لها : عُنيزة بنت غُنْم بن مجلز[1]، وتُكنَى أمّ غُنْم ، وهى من بنات عبيد[2] بن المهـل ، وكانت آمرأةَ ذؤاب[3] بن عمرو ، وهى عجوز مسنّة ، ولهـا أموال ومواش ، ولها أربع بنات من أجمـل النساء ، وبجوارها آمرأة يقال لها : صَدُوف بنت المحيا بن فهر ، ولهـا أيضا مواش كثيرة ؛ فدَعَتا قومهما إلى عقر الناقة ، فلم يجيبوهما إلى ذلك ؛ فبينما صَدُوف كذلك إذ مرّ بها رجل يقال له الحباب[4] — وكان مولَعا بالنساء — فعرضت نفسها عليـه على أن يعقر الناقة ؛ فآمتنع ، فقالت له : لقد جَبُن قلبـك ، وقَصُرت يدك . وتركته ؛ وأقبلت على آبن عمّ لهـا يقال له : مِصْدَع[5] فكشفت عن وجهها ، وعرضت نفسها عليه على أن يُصدِقها عَقرَ الناقة ؛ فأجاب . وأقبلت صَدوف إلى عُنيزة فأخبرتها بذلك ، ففرحت به . قالت : إلّا أنه منفرد ، ولكن قومى إلى عزيز ثمود قُدَار ، فإنه شابّ لم يتزوّج ، فآعرضى عليه بناتك

(١) كذا ورد هذا الاسم فى تفسير الطبرى ج ٨ ص ١٦٠ . والذى فى الأصول : « مخلد » .

(٢) كذا ورد هذا الاسم فى تفسير الطبرى . والذى فى الأصول : « العند » .

(٣) كذا ورد هذا الاسم فى تاريخ العينى فى النسخة المنقولة عن نسخة المؤلف .

(٤) كذا ورد هذا الاسم فى تفسير الطبرى . والذى فى الأصول : « الجناب » .

(٥) كذا ضبط هذا الاسم بالقلم فى تاريخ العينى فى النسخة المنقولة عن نسخة المؤلف .

لعلّه يفعل ؛ ففعلت عُنيزة ذلك ، وزيّنت بناتها ، وأقبلت بهنّ إلى قُدار ، وكان أقبح رجل فى ثمود ، وكان فى عينيـه زُرقة ، وكأنّهما عدسـتان ، وأنفه أفطس ولحيته بطوله ، غير أنه كان يمرّ بالشجرة العظيمة فينطحها برأسه فيكسرها ؛ فلمّا رأته عُنيزة رجعت ببناتها إلى صَدوف ، وقالت : من تطيب نفسُه أن يزوّج مِثلَ هؤلاء من هذا؟ فلم تزل بها حتى رجعت بهنّ إليه ، وعرضتهنّ عليه ؛ فآختار منهنّ (الرّباب) ، وأجاب إلى عَقر الناقة ، وآجتمع إليه "مصدع[1] وأخوه ورُعَين[2] وداود خادم الأصنام وريّان ولبيد والمصرد وهُزَيل[3] ومفرّج[4]" فهؤلاء التسعة الذين ذكرهم الله فى كتابه ، قال الله تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ .

فطافوا بأجمعهم على قبائل ثمود وأعلموهم بما أجمعوا عليه من عَقر الناقة ؛ فرضى بذلك كبيرهم وصغيرهم ، وآجتمع هؤلاء التسـعةُ بسيوفهم وقِسِيّهم ، وذلك فى يوم الأربعاء ، وقعدوا ينتظرون الناقة ، فأقبلتْ حتى قربت من البئر ؛ فنادت عُنيزة : يا قدار ، اليومَ يومُك ، فأنت السـيّد فى قومك . قال الله : ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴾ .

قال : فشدّ قُدار قوسه ورماها بسهم فأصاب لَبَّتَها ، وهو أوّل من رماها ، ثم مِصْدَع ، وأقبلوا عليها بالسـيوف فقطّعوها ، وآنبعثْ فصيلها ، فهرب إلى رأس جبل ، ودعا باللّعنة على ثمود ، فآتبعه القوم وعقروه ، وتقاسموا لحمه .

---

(١) فى كتاب الكسائى « وآخر اسمه حراب » . (٢) كذا ورد هذا الاسم مضبوطا بالقلم فى تاريخ العينى فى النسخة المنقولة عن نسخة المؤلف . وفى الأصول : « دعبل » . (٣) كذا ورد هذا الاسم بالزاى فى الأصول وتاريخ العينى مضبوطا بالقلم فى الأخير . (٤) يلاحظ أن هذه الأسماء الثمانية قد اختلفت فيها الروايات والمصادر اختلافا بيّنا لم يجعل بينها تقاربا فى رسم الحروف .

وحكى الثعلبىّ فى كتابه المترجم (بيواقيت البيان فى قصص القرآن) : أنّ الفصيل لمّا عُقرت الناقة أتى جبلا منيعا يقال له : صُور[1] . وقيل : اسمه فاره؛ وأن صالحا لمّا بلغه عقر الناقة أقبل إلى قومه، فخرجوا يتلقّونه و يعتذرون إليه ويقولون : إنّما عقرها فلان وفلان، ولا ذنب لنا .

فقال لهم صالح : أُنظروا، هل تدركون فصيلها ؟ فعسى أن تدركوه فيُرفَع عنكم العـذاب . فخرجوا يطلبونه، فلما رأوه على الجبل ذهبوا ليأخذوه، فأوحى الله تعالى إلى الجبل أن يتطاول ؛ فتطاول فى السماء حتّى ما يناله الطير؛ وجاء صالح، فلمّا رآه الفصيل بكى حتى سالت دموعه؛ ثم دعا ثلاثا فانفرجت الصخرة حتّى دخلها؛ فقال صالح : بكلّ دعوة أجل يوم فتمتّعوا فى داركم ثلاثةَ أيّام ذلك وعدٌ غيرُ مكذوب .

نرجع إلى رواية الكسائىّ، قال : وصـاح قُدار بأصحابه : هلمّوا . فقـدموا فأمرهم أن يقطّعوا لحم الناقة ؛ فقطّعوا وطبخوا وقعدوا للأكل والشرب ، وصالح لا يعلم بذلك، فنادته الوحوش : يا صالح، هتكتْ ثمود حرمة ربّها، وتعدّوا أمره . فأقبـل بالمؤمنين من قومه؛ فلمّـا رآها بكى وقال : إلهى أسألك أن تنزل على ثمود عذابا من عندك .

فأوحى الله إليـه : أن أنذر قومك بالعذاب . فبشّرَهم بعـذاب الله . فقالوا له : افعـل مابدا لك، فقد عقرناها، وقد أنذرت بالعـذاب منذ بعيد وما نرى له أثرا . فقـال لهم : ﴿ تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ . وبات القـوم ليلتهم ، فلمّـا أصبحوا تفجّرت آثار وطء الناقة بعيون الدم ، وظهـرت الصفرة فى ألوانهم ؛ فقالوا : يا صالح، ما هـذا التغيّر فى ألواننا وبلادنا ؟ قال :

---

(١) كذا ورد هذا الاسم فى تفسير الطبرى .

غَضِب ربُكم عليكم . فأجمعوا على قتله ، وقالوا : إذا قتلناه آمتنع عنّا سحره ولا تُمكنه الإساءة إلينا . فتقدّم التسعة لقتله عند ما أقبل الليل، فوقف لهم جبريل ورمى كلّ واحد منهم بحجر فقتله .

فلمّا كان من الغد نظرتْ ثمود إليهم وقد قُتلوا، فقالوا : هذا من فعل صالح . فعزموا على الهجوم عليه وقتلِه ، فأمره الله تعالى بالخروج من المسجد، فجاءوا ليقتلوه فما رأوه ، وأصبحوا فى اليوم الثانى وقد آحمرّت وجوههم، وفى اليوم الثالث آسودّت، فأيقنوا بعذاب الله ، وحفروا لأنفسهم حفائر، ولأهاليهم وأولادهم ولبسوا الأنطاع، وجلسوا فى الحفائر ينتظرون العذاب، وصالح يخوّفهم و ينذرهم عذابَ الله وهم لا يبالون به .

فلما كان فى اليوم الرابع — وهو صَبيحة الأحد — أرسل الله تعالى جبريل فنشر جناح غضبه ، وأتاهم بشرارة من نار لظى، وجعل يرميهم منها بجمْر متوهِّج كأمثال الجبال، وثمود باركة فى حفائرها .

وأخذ جبريل بتُخوم الأرض، فزُلزلت بيوتهم وقصورهم، ثم نشر جناح غضبه على ديار ثمود، وصاح صيحة، فكانوا كما قال الله تعالى : ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾.

ثم أقبلتْ سحابة سوداء على ديارهم ، فرمتهم بوَهَج الحريق سبعة أيّام حتّى صاروا رمادا .

فلمّا كان فى اليوم الثامن آنجلت السحابة وطلعت الشمس ، وجاء صالح بمن معه من المؤمنين ، فطاف بديارهم ، وآحتملوا ما قدروا عليه من أموالهم وآرتحل بقومه إلى أرض الشام، فنزل بأرض فِلَسْطين، وأقام — عليه السلام — حتى مات .

الباب السابع من القسم الأوّل من الفنّ الخامس
فى أخبار أصحاب البئر المعطَّلة والقصر المَشيد
وما كان من أمرهم وهلاكهم

قال الكسائىّ : قال كعب : لمّـا قبض الله تعالى نبيّه صالحا عليه السلام بأرض فلسطين ، خرج أصحـابه إلى بلاد اليمن فتفرّقوا فرقتين : فنزلت إحداهما بأرض عَدَن ، وهم أصحاب البـئر المعطّلة ، والثانيـة صارت إلى (حضرموت) (والقصر المشيد) وهو قبل البئر، والذى بناه رجل يقال له : جند بن عاد، وذلك لأنه رأى ما نزل بقوم هود من الريح ، فعزم على بناء قصر مشيد ، فبالغ فى تشييده ، وانتقل (٣٦) إليـه، وكان له قوّة عظيمة ، فكان يقتلع الشـجرة ، و يمرّ بيده فى الجبـل فيخرقه وكان مولَعا بالنساء، فتزوّج زيادة عن سبعمائة آمرأة ، ورزق من كلّ آمرأة ذكرا وأنثى ؛ فلمّا كثر ولده وقومه طغى فى الأرض وتجبّر، وكان يقعد فى أعلى قصره مع نسائه فلا يمرّ به أحد إلّا أمر بقتله ؛ فلمّـا كثر فساده أهلكه الله بصيحة جبريل جاءته من قبل السماء فأهلكته هو وأولاده وقومه .

قال الكسائىّ : ولا يجسر أحد أن يدخل إلى القصر ممّا نزل بسكّانه .

قال : ويقال : إنّ فيه حيّة عظيمة ، وإنّه يُسمع من داخله أنين كأنين المريض .

وأما البئر المعطّلة — فهى بأرض عَدَن ، وكان أهلها على دين صالح ، وكان المطر ينقطع عنهم فى بعض الأوقات حتّى يبلغ بهم الجهد ، فيحملون المـاء من بلد بعيد ، فأعطاهم الله تعالى هـذه البئر على ألّا يُشركوا به شيئا ، ويعبدوه حقّ عبادته وكانوا معجَبين بها ، قد بنَوها بألوان الصخور ، وبنَوا حولها حياضا بعدد قبائلهم ؛ وكان لهم مَلِك يسوسهم ، فلما مات حزنوا عليه حزنا عظيما ؛ فأقبل عليهم إبليس وقال :

ما بالكم بهذا الحزن ؟ قالوا : كيف لا نكون كذلك وقد فقدنا مَلِكًا مع إحسانه إلينا . قال : إنّه لم يمت، ولكنّه آحتجب عنكم لغضبه عليكم، ولكونكم لم تعبدوه .

وآنطلق إبليس فاتخذ لهم صنما على صورة المَلِك ، ونصبه على سريره، وقال : هلمّوا إلى الملك فاسمعوا كلامه .

فأقبلوا حتى وقفوا من وراء السِّتر ، ووَقَفَ إبليس فى جوف الصنم شيطانا يكلّمهم بلغة لا ينكرون أنّها لغة الملك؛ ثم قال إبليس : استمعوا . فكلّمهم الشيطان من الصنم وقال : يا آل ثمود، مالى أراكم تبكون ؟ قالوا : لفقدك . قال : قد كذبتم ، لو كنتم تحبّونى كما تقولون كنتم عبدتمونى، وقد كنت فيكم أربعمائة سنة ما فيكم من سجد لى سجدة واحدة، والآن فقد ألبسنى ربّى ثوبَ الألُوهيّة، فصيّرنى فيكم لا آكل ولا أشرب ولا أنام ، وأخبركم بالغيوب، فآعبدونى وسمّونى ربّا، فإنى أقربكم إلى ربى زُلْفَى .

قالوا : يأيها الملك، فلو رأينا وجهك . فرفع إبليس الحجاب حتى رأوه فلم ينكروا من صفاته شيئا، فخرّوا له سجّدا، وآتخذوه ربّا؛ وكان فيهم رجل من خيار قوم صالح آسمه حنظلة بن صفوان ، ففارقهم ولحق بالحوم ، وعَبَدَ الله حينا فرأى فى منامه قائلا يقول له : قد أمرك ربُّك أن تصير إلى قومك وتحذّرهم عذابه إن لم يرجعوا عن عبادة الأصنام ، وتذكّرهم العهودَ فى البئر، وإن لم يؤمنوا غار ماء البئر حتى يموتوا عطشا .

فآنتبه وخرج من ساعته حتى أتى قومه، فأنذرهم ووعظهم ، فهمّوا بقتله فعطّل الله تعالى بئرهم حتّى لم يجدوا فيها قطرة، فأتوا إلى صنمهم فلم يكلّمهم، وأتتهم ضيحة من السماء، فهلكوا عن آخرهم .

ويقال : إنّ سليمان صَفّد شياطين وحبسهم بهذه البئر ؛ والله أعلم .

الباب الثامن من القسم الأوّل من الفنّ الخامس

فى خبر أصحاب الرسّ وما كان من أمرهم

قال الكسائىّ : قال كعب : إن أصحاب الرسّ كانوا بحضرموت ، وكانوا كثيرا، فبنوا هناك مدينة كانت أربعين ميلا فى مثل ذلك، فآحتفروا لها القنوات من تحت الأرض ، وسمّوها رَسّا ، وكان ذلك أيضا آسم مَلِكهم؛ فأقاموا فى بلدهم دهرا طويلا يعبدون الله تعالى حقّ عبادته؛ ثم تغيّروا عن ذلك وعبدوا الأصنام وكان ممّا أحدثوه إتيانُ النساء فى أدبارهنّ والمبادلةُ بهنّ ، فكان كلٌّ منهم يبعث بآمرأته إلى الآخر، فشقّ ذلك على النساء، فأتاهنّ إبليس فى صورة آمرأة وعلّمهنّ السِّحاق ففعلنه، وهم أوّل من أتى النساء فى أدبارهنّ وساحق؛ فآشتهرت هذه القبائح فيهم .

فبعث الله إليهم رسولا آسمه حنظلة . وقيل : خالد بن سنان . وقيل : ابن صفوان . فدعاهم إلى طاعة الله، ونهاهم عن عبادة الأصنام وفعل القبائح وحذّرهم وذكّرهم ما حلّ بمن قبلهم من الأمم ؛ فكذّبوه ؛ فوعظهم دهرا طويلا وهم لا يرجعون ، فضربهم الله بالقحط، فقتلوا نبيّهم وأحرقوه بالنار ؛ فصاح بهم جبريل صيحة فصاروا حجارة سودا، وخُسِفت مدينتهم .

وقيل : إن هذه المدينة لم يرها إلّا ذو القرنين ، وإنّه رآهم حجارة ، ورأى النساء ملتصقات بعضهنّ ببعض ، ورأى الملوك على الأسرّة وبين أيديهم الجنود قائمة، بأيديهم الأعمدة والأسلحة، وقد صاروا كلّهم حجارة سودا .

هذا ما حكاه الكسائىّ .

وقال أبو إسحاق الثعلبىّ — رحمه الله تعالى — قال سعيد بن جبير والكلبىّ (٣٧) والخليل بن أحمد — دخل كلامُ بعضهم فى بعض، وكلٌّ قد أخبر بطائفة من حديث

أصحاب الرسّ : أنّهم بقيّة ثمود وقوم صالح، وهم أصحاب البئر التى ذكرها الله تعالى فى كتابه ﴿ وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ ﴾ .

قال : وكانوا بفَلْج اليمامة نزولا على تلك البئر .

وكلّ ركيّة لم تُطو بالحجارة والآجُرّ فهى رَسّ ، وكان لهم نبيّ يقال له : (حنظلة ابن صفوان) . وكان بأرضهم جبل يقال له : (فَلْج) مُصْعِد فى السماء ميلا وكانت العَنْقاء تأتيه ، وهى أعظم ما يكون من الطير، وفيها من كلّ لون ، وسمّوها العَنْقاء لطول عنقها ، وكانت تكون فى ذلك الجبل وتنقضّ على الطير فتأكلها فجاعت ذات يوم وأعوزَها الطير، فآنقضّت على صبيّ فذهبت به ، فسُمّيت عَنْقاءَ مُغْرِب، لأنّها تُغرب بما تأخذه وتذهب به، ثم آنقضّت على جارية حين ترعرعت فأخذتها فضمّتها إلى جناحين لها صغيرين سوى الجناحين الكبيرين ، فشكوا ذلك إلى نبيّهم ، فقال : اللهم خذها وآقطع نسلها ، وسلّط عليها آفة تذهب بها . فأصابتها صاعقة فآحترقت، فلم يُر لها أثر بعد ذلك .

قال : ثم إن أصحاب الرسّ قتلوا نبيّهم ، فأهلكهم الله تعالى .

قال الثعلبيّ : وقال بعض العلماء : بلغنى أنّه كان رسّان : أمّا أحدهما فكان أهله أهل بذر وعمود، وأصحابَ غنم ومواش ، فبعث الله إليهم نبيّا فقتلوه، ثم بعث الله رسولا آخر وعضّده بولىّ ، فقتلوا الرسول ، وجاهدهم الولىّ حتى أفحمهم ؛ وكانوا يقولون : إلهنا فى البحر . وكانوا على شفير البحر ؛ وكان يخرج إليهم من البحر شيطان فى كلّ شهر خرجةً فيذبحون عنده، ويتّخذون ذلك اليوم عيدا ؛ فقال لهم الولىّ : أرأيتم إن خرج إلهكم الّذى تدعونه وتعبدونه إلىّ وأطاعنى أتجيبونى إلى ما دعوتكم إليه ؟ قالوا : بلى . وأعطوه على ذلك العهود والمواثيق ، فآنتظر حتى خرج ذلك الشيطان على صورة حوت راكبا على أربعة أحوات، وله عنق

منقلب ، وعلى رأسه مثل التاج؛ فلمّا نظروا إليـه خرّوا سجّدا؛ وخرج الولىّ إليـه وقال : ائتنى طوعا أو كرها باسم الله الكريم .

فنزل عنـد ذلك عن أخواته؛ فقال له الولىّ : ائتنى راكبا لئـلّا يكون القوم فى شكّ . فأتى الحوت وأتت به الحيتان حتى أفضـوا إلى البرّ يجرّونه ويجرّهم ؛ ثم كذّبوه بعـد ما رأوا ذلك ، ونقضوا العهود ؛ فأرسل الله تعالى عليهم ريحا تقذفهم فى البحر ومواشيهم وما كانوا يملكون من ذهب وفضّـة وآنية ؛ فأتى الولىّ الصالح إلى البحر حتى أخذ التبر والفضّـة والأوانى ، فقسمها على أصحـابه بالسويّة على الصغير والكبير، وانقطع ذلك النسل .

وأمّا الرسّ الآخر — فهـم قوم كان لهم نهر يدعى الرسّ ، وذلك النهر بمنقَطَع أَذْرَبِيجان ، بينهما رَسُّ أرمينية ، فإذا قطعته مدبرا دخلتَ فى حدّ أرمينيـة وإذا قطعته مقبـلا دخلتَ فى حدّ أَذْرَبِيجان ، وكان مَن حولهم من أهـل أرمينية يعبدون الأوثان ، ومَن قدّامهم من أهـل أَذْرَبِيجان يعبـدون النيران ، وكانوا هم يعبدون الجوارىَ العـذارى ، فإذا تمّت لإحداهنّ ثلاثون سـنة قتلوها واستبدلوا غيرها . وكان عرض نهرهم ثلاثة فراسخ، وكان يرتفع فى كلّ يوم وليلة حتّى يبلغ أنصاف الجبال التى حوله ، ولا ينصبّ فى برّ ولا بحر، وإذا خرج من حدّهم يقف ويدور ثم يرجع إليهم ، فبعث الله إليهم ثلاثين نبيّا فى شهر واحد، فقتلوهم جميعـا فبعث الله إليهم نبيّا وأيّده بنصره، وبعث معه وليّا، فجاهدهم فى الله حقّ جهاده .

ثم بعث الله تعـالى ميكائيل حين نابذوه — وكان ذلك فى أوان وقوع الحبّ فى الزرع ، وكانوا إذ ذاك من أحوج ما يكون إلى المـاء — فبحَرَ(١) نهرَهم فى البحر

(١) بحر نهرهم ، أى شقه .

فانصبّ ما فى أسفله ، وأمّا عيونه من فوق فسدّها ، ثم بعث الله تعالى خمسمائة ألف ملَك من الملائكة أعوانا له ، فنزغوا ما بقى فى نهرهم .

ثم أمر الله تعالى جبريل فنزل فلم يدَع فى أرضهم عينا ولا نهرا إلّا أيبسه بإذن الله تعالى .

وأمَر ملَك الموت فانطلق إلى المواشى فأماتها فى ربضة واحدة .

وأمَر الرياح الأربع : الجنوب والشمال والدّبور والصّبا فضمّت ما كان لهم من متاع ، وألقى الله تعالى عليهم السُّبات .

ثم خفقت الرياح الأربع بذلك المتاع أجمع فشتّته فى رءوس الجبال وبطون الأودية .

وأمر الله الأرض فابتلعت ما كان لهم من حلىّ وتبر وآنية ؛ فأصبحوا لا ماشية عندهم ولا بقر ولا مال يرجعون إليه ولا ماء يشربون ولا طعام يأكلون ، فآمن (٣٨) بالله تعالى عند ذلك قليل منهم ، وهداهم الله تعالى إلى غار فى الجبل له طريق إلى خلفه ، فنجوا ، وكانوا أحدا وعشرين رجلا وأربعَ نسوة وصبيّين ، وكان عدّة الباقين من الرجال والنساء والذرارىّ ستمائة ألف ، فماتوا عطشا وجوعا ، ولم تبق منهم باقية .

ثم عاد القوم إلى منازلهم فوجدوها قد صار أعلاها أسفلها ، فدعا القومُ عند ذلك مخلصين أن يحييهم الله تعالى بماء وزرع وماشية ، وأن يجعل ذلك قليلا لئلّا يطغوا . فأجابهم الله تعالى إلى ذلك ، وأطلق لهم نهرهم ، وزادهم على ما سألوه .

فأقام أولئك القومُ على طاعة الله تعالى باطنا وظاهرا حتى مضوا وانقرضوا ؛ فحدث من بعدهم من نسلهم قوم أطاعوا الله تعالى فى الظاهر ، ونافقوا فى الباطن ؛

وأملى الله تعالى لهم ، ثم بعث الله عليهم عدوّهم ممّن قاربهم وخالفهم ، فأسرع فيهم القتل ، و بقيْت منهم شرذمة ، فسلّط الله عليها الطاعون ، فلم يبق منهم باقية و بقى نهرهم ومنازلهم مائتى عام لا يسكنها أحد .

ثم أتى الله بعد ذلك بقرن فنزلوها وكانوا صالحين سنين ، ثم أحدثوا فاحشة وجعل الرجل منهم يدعو ٱبنته وأخته وزوجته فيُلْقِ بهنّ جاره وأخاه وصديقه يلتمس بذلك البرّ والصلة؛ ثم ٱرتفعوا عن ذلك إلى نوع آخر، ترك الرجال النساء حتى شَبِقْن، وٱشتغلن عن الرجال، بجاءت النساءَ شيطانةٌ فى صورة ٱمرأة — وهى الوَلْهانة بنت إبليس — فشبّهت للنساء ركوبَ بعضهن بعضا ؛ وعلمتهنّ كيف يصنعن؛ فأصل ركوب النساء النساءَ منها؛ فسلّط الله تعالى على ذلك القرن صاعقة من أوّل ليلتهم ، وخسفا فى آخر اللّيل، وصيحة مع الشمس،فلم تبق منهم باقية و بادت مساكنهم .

قال الثعلبىّ : ولا أحسب مساكنهم اليوم مسكونة .

وقال أبو إسحاق الثعلبىّ أيضا : وروى علىّ بن الحسين زين العابدين عن أبيه الحسين بن علىّ بن أبى طالب — رضى الله عنهم — أن رجلا من أشراف بنى تميم يقال له : عمرو، أتاه فقال : يا أمير المؤمنين، أخبرنى عن أصحاب الرس وأى عصر كانوا فيه ؟ وأين كانت منازلهم ؟ ومن كان ملِكهم ؟ وهل بعث الله تعالى إليهم رسولا أو لا ؟ وبماذا هلكوا ؟ فإنّى أجد فى كتاب الله تعالى ذكرهم ولا أجد خبرهم .

فقال له : لقد سألتنى عن حديث ما سألنى عنه أحد قبلك ، ولا يحدّثك به أحد بعدى .

كان من قصّتهم يا أخا تميم أنهـم كانوا يعبدون شجـرة صَنَوْبَر يقال لهـا : ماب درحب[1] ، كان يافث بن نوح غرسها على شـفير عين يقال لهـا : دوسات[1] كانت أُنْبِطتْ لنوح بعد الطوفان ، وكان لهم آثنتا عشرة قرية على شاطئ نهر يقال له الرسّ من بلاد المشرق ، ولم يكن يومئذ فى الأرض نهر أغزر ولا أعذب منه ولا قرى أكثر سكّانا وعمرانا منها ؛ وذلك قبـل سليمان بن داود ، وكان من أعظم مدائنهم اسفيدبا[1] ، وهى التى كان ينزلها ملِكُهم ، وكان يسمى بركون[1] بن عابور بن بلوش بن سارب بن النُّمْروذ بن كنعان ، وفيهـا العين والصَّنَوْبَرة ، وقد غرسوا فى كلّ عين حبّـة من تلك الصنوبرة ، فنبتت الحبّـة وصارت شجرة عظيمة ، وحرّموا ماء تلك العيون والأنهـار ، لا يشربون منها ولا أنعامهم ، ومن فعل ذلك منهم قتلوه ويقولون : هى مياه آلهتنا ، ولا ينبغى لأحد أن ينقص من حياتها ، ويشربون هم وأنعامهم من نهر الرسّ الّذى عليه قُراهم ؛ وقد جعلوا فى كلّ شهر من السنة فى كلّ قرية عيـدا يجتمع أهلها ويضربون على تلك الشجرة مِظَلّة مِن الحرير ، فيهـا من أصناف الصُّـوَر ، ثم يأتون بشياه وبقر فيـذبحونها قربانا للشجرة ، ويشعلون فيها النيران ، فإذا سطع دخان تلك الذبائح وقُتارُها وبخارها فى الهواء ، وحال بينهم وبين النظر إلى السماء ، خرّوا سجّدا ، ويتلون ويتضرّعون إليها أن ترضى عنهم .

وكان الشيطان يجىء فيحرّك أغصانها ويصيح مِن ساقِها صياح الصبىّ : عبادى قد رضيت عنكم ، فطيبوا نفسا ، وقرّوا عينا . فيرفعون عند ذلك رءوسهم ، ويشربون الخمر ، ويضربون بالمعازف ، فيكونون على ذلك يومهم وليلتهم ، ثم ينصرفون ؛ حتى إذا كان عيد قريتهم العظمى ، اجتمع إليه صغيرهم وكبيرهم ، فضربوا عند الصَّنَوْبرة

(١) كذا وردت هـذه الأسماء التى تحت هـذا الرقم فى جميع الأصول . ولم نقف فيما راجعناه من الكتب على ما نطمئن اليه فى تصحيحها وضبطها ، على أن الكتب مختلفة فى هذه الأسماء القديمة اختلافا بيّنا .

والعين سُرادقا من ديباج، عليه من أنواع الصُّوَر، له آثنا عشر بابا، كلّ باب لأهل قرية منهم؛ ويسجدون للصنوبرة خارجا من السرادق، ويقربون لها الذبائح أضعاف ما يقربون للأشجار التى فى قُراهم؛ فيجيءُ إبليس عند ذلك فيحرك الشجرة (٣٩) تحريكا شديدا، ويتكلّم من جوفها كلاما جهرا، ويَعِدُهم ويمنّيهم بأكثر ممّا وعدهم به الشياطين كلُّهم؛ فيرفعون رءوسهم من السجود وبهم من الفرح والنشاط ما لا يفيقون ولا يتكلّمون [معه]؛ فيداومون الشرب والعزف، فيكونون على ذلك آثنى عشر يوما بلياليها بعدد أعيادهم فى السنة؛ ثم ينصرفون؛ فلما طال كفرهم بالله تعالى وعبادتُهم غيره، بعث الله إليهم نبيّا من بنى إسرائيل من ولد يهوذ بن يعقوب، فلبث فيهم زمنا طويلا يدعوهم إلى الله تعالى، ويعرّفهم ربوبيّته؛ فلا يتّبعونه ولا يسمعون مقالته؛ فلما رأى شدّة تماديهم فى البغى والضلالة وتركَهم قبولَ ما دعاهم إليه من الرشد والصلاح، وحضر عيدُ قريتهم العظمى قال: ياربّ إنّ عبادك أبوا تصديقى ودعوتى لهم، فما زادوا إلّا تكذيبى والكفرَ بك، وغدوا يعبدون شجرة لا تنفع ولا تضرّ، فأيْبِس شجرهم أجمع، وأَرِهم قدرتك وسلطانك .

فأصبح القوم وقد يبس شجرهم كلّه، فهالهم ذلك وتضعضعوا، فصاروا فرقتين: فرقة قالت: سِحرُ هذا الرجل الّذى زعم أنّه رسول ربّ السماء، ألهاكم ليصرف وجوهكم عنها إلى إلٰهه؛ وفرقة قالت: بل غضبت آلهتكم حين رأت هذا الرجل يعيبها ويقع فيها، ويدعوكم إلى عبادة غيرها، فحجبت حسنها وبهاءها لكى تغضبوا لها، فتنتصروا منه .

فأجمعوا رأيهم على قتله، فآتخذوا مثال بئر، وآتخذوا أنابيب طوالا من رصاص واسعةَ الأفواه، ثم أرسلوها إلى قرار العين واحدة فوق الأخرى مثل البرابخ، ونزحوا

ماء العين ، ثم حفروا فى قرارها بئرا ضيّقة المدخل عميقة ، وأرسلوا فيها نبيّهم ، وألقوا عليه فيها صخرة عظيمة ؛ ثم أخرجوا الأنابيب من المـاء وقالوا : الآن نرجو رضـا آلهتنا عنّا إذا رأت أنا قد قتلنا من كان يقع فيها ، و يصدّ عن عبادتها .

فبقوا عامّة يومهم يسمعون أنين نبيّهـم ، وهو يقول : سـيّدى ، ترى ضيق مكانى وشـدّة كربى ، فارحم ضـعف ركنى وقلّة حيلتى ، وعجّـل قبض روحى ولا تؤخّر إجابة دعوتى . حتى مات عليه السلام .

فقال الله تعـالى لجبريل : انظر عبادى هؤلاء الذين غرّهم حلمى ، وأمنـوا مكرى ، وعبـدوا غيرى ، وقتلوا رسولى ؛ وأنا المنتقم ممّن عصانى ولم يخش عذابى وإنّى حلفت بعزّتى لأجعلنّهم عبرة ونكالا للعالمين .

فبينما هم فى عيـدهم إذ غشيتهم ريح عاصف حمراء ، فتحيّروا وذُعروا منهـا وانضمّ بعضهم إلى بعض ، ثم صـارت الأرض من تحتهم حَجَـر كبريت يتوقّد ؛ وأظلّتهم سحابة سـوداء ، فألقت عليهم كالقبّـة جمرا يلتهب نارا ، فذابت أبدانهم كما يذوب الرصاص فى النار؛ نعوذ بالله من غضبه ودَرَك نِقْمته (١) .

(١) « ودرك نقمته » ، أى لحاقها بنا .

القسم الثانى من الفن الخامس

فى قصّة إبراهيم الخليل — عليه الصلاة والسلام — وخبره مع نُمْروذ، وقصّة لوط، وخبر إسحاق و يعقوب، وقصّة يوسف وأيّوب وذى الكفل وشعيب

وفيه سبعة أبواب

الباب الأوّل منه فى قصّة إبراهيم الخليل — عليه الصلاة والسلام — وخبر نُمْروذ بن كنعان .

ولنبدأ من هذه القصّة بخبر نمروذ ؛ ثم نذكر قصّة إبراهيم — عليه السلام — لتعلّق قصّته به، لأنّ إبراهيم ولد فى زمانه، وآيتُه الكبرى معه .

ذكر خبر نمروذ بن كنعان

هو نُمْروذ بن كَنْعان بن كُوش، وهو أحد ملوك الدنيا الأربعة الّذين ملكوا شرقها وغربها .

وقد ورد أنهم مؤمنان وكافران : فالمؤمنان سليمان بن داود والإسكندر ذو القرنين المذكورُ فى سورة الكهف ؛ والكافران : شدّاد بن عاد ونُمْروذ ابن كنعان .

وقد قيل : بدل شدّاد بُخْتُنَصّر .

قال الكسائىّ : قال وهب : لمّا أهلك الله تعالى أهل الرسّ بالمسخ ومَن تقدّمهم بما ذكرناه، أنشأ قرونا آخرين، فكان ممّن أنشأ من ولد حام بن نوح كُوش ابن قرط بن حام، وكان جبّارا شديد القوّة عظيم الخَلْق، له مخاليب كالسّباع وهو الذى أنشأ كوثاربًا من أرض العراق، وولد له بها ولد سمّاه كنعان ، وكان له

ولد آخر يقال له : الهاص ؛ فلما مات كوش آستقل الهاص بالمُلك دون كنعان وآستقلّ كنعان بالصيد ، وولع به حتّى ألهاه عن طلب المُلك ؛ وكان مع ذلك شديد البطش والقوّة ، فبينما هو يتصيّد إذ رأى آمرأة ترعى بقرات ، فأعجبته فراودها عن نفسها ، فآمتنعت وآعتذرت بزوجها ؛ فقال : ويلك ، هل على وجه الأرض من يطاولني وأنا من ولد كوش ، ونحن ملوك الأرض ؟ فضحكت المرأة كالمستهزئة ، وقالت : لا تذكر الملوك وأنت رجل صيّاد .

ثم أقبل زوجها فقتله كنعان وأخذ المرأة ووطئها ، فحملت بنُمروذ ، ونقلها كنعان إلى قصره ، فكانت من أحظى نسائه ؛ ثم قتل أخاه بعد ذلك ، وآستقلّ بالمُلك .

ثم رأى فى منامه كأنّه صارع إنسانا فصرعه وقال : أنا مشئوم أهل الأرض ومنزلى الظلمة ، وقد أجّلتك حتّى أخرج من ظلمتى هذه إلى ضوء الدنيا .

فآنتبه مرتاعا ، وأحضر أصحابَ علم النجوم ، وقص رؤياه عليهم ؛ فقالوا : سيولد مولود هو الآن فى بطن أمّه يكون هلاكك على يديه .

وتبيّن حمل الراعية — وكان آسمها شلخاء — وكانت تسمع من بطنها صوتا عجيبا ، فسمعه كنعان فقال : ويحك ، هذا ليس بآدمىّ ؛ وإنما هو شيطان ؛ وهمّ أن يدوس بطنها ليقتل من فيه ؛ فهتف به هاتف : مه يا كنعان ، ليس إلى قتله سبيل .

فلمّا كملت مدّة الحمل وضعته أسود أحول أفطس أزرق العين ؛ وخرجت حيّة من جحر فدخلت فى أنفه ، ففزعت شلخاء ؛ وأخبرت كنعان بخبره ؛ فقال : أقتليه فإنّه شؤم . فقالت : لا تطيب نفسى بقتله . قال : فاحتمليه وآطرحيه فى البرّيّة .

فآحتملته الى البرّيّة ، فمرّت براعى بقرات فعرضته عليه ، فأخذه ، وعادت الى منزلها ؛ فلمّا وضعه الراعى بين البقر نفرت وتفرّقت وعسر عليه جمعها ؛ وأقبلت آمرأته فأخبرها بخبر الغلام ، فقالت : اقتله فإنّه شؤم . فأبى وقال : اطرحيه فى النهر . فطرحته فى نهر عظيم ، فألقاه الماء إلى البرّ ؛ فقيّض الله له نمرة فأرضعته وآنصرفت ؛ فرأته آمرأة من قرية هناك فعجبت وأخبرت أهل القرية ، فخرجوا إليه وآحتملوه وربّوه وسمّوه نمروذ ، فلمّا بلغ جعل يقطع الطريق ويغير على النواحى ، وآجتمع له جمع كثير ، فبلغ خبره كنعان ، فجعل يبعث إليه بقائد بعد قائد وهو يهزمهم ؛ وعظم أمره حتى صار فى جيش عظيم ؛ فسار الى كوثاربا وقاتل كنعان ، فهزم جيوشه وظفر به ؛ وقتله وهو لا يعلم أنه أبوه ، وآحتوى على مُلكه ؛ ثم أخذ فى غزو الملوك حتى ملك الشرق وسائر ممالك الدنيا ؛ ثم رجع الى كوثاربا فآستدعى وزراءه وقال : أريد أن أبنى بنيانا عظيما لم أُسبق إلى مثله . فدلّوه على تارح وذكروا أنّه عارف بأمر النجارة والبناء ؛ فأحضره ومكّنه من خزانته ، وأمره بإنشاء قصر عظيم ؛ فخرج تارح وشرع فى بنائه ، وتأنّق فيه ، وأجرى فيه الأنهار ؛ فلمّا كمل ورآه نُمرُوذ خلع على تارح ، وجعله وزيره .

وأخذ نمروذ فى التكبّر حتى آدّعى الألوهية .

وكان مولعا بعلم النجوم ، فأتقنه ؛ فجاءه إبليس فى صورة شيخ وسجد له وقال : إنك قد أتقنت علم النجوم ؛ وعندى علم ما هو أحسن منه ، وهو السحر والكهانة . فعلّمه ذلك ، ثم حسّن له عبادة الأصنام ، فدعا بتارح وأمره أن يتخذ له صنما على صورته ، ويتخذ لقومه أصناما أخرى ؛ فآتخذها تارح من الجوهر والذهب والفضّة والقوارير والخشب على أقدار الناس ، وكلّها على صورة نُمروذ حتى آتخذ سبعين صنما ، وأمر نمروذ قومه أن يتخذوها ؛ ففعلوا ذلك وآنهمكوا

فى عبادتها ، وكلّمهم الشياطين من أجوافها ؛ فعبدوها حتّى لم يعرفوا سواها وطغَوا وبغَوا ، وأكثروا الفساد فى الأرض ، حتى ضجّت الأرض والسماء والوحش والطير إلى ربّها منهم .

ذكر الآيات التى رآها نمروذ قبل مولد إبراهيم — عليه السلام —

قال : كان أوّل ذلك أنّه صعِد فى بعض الأيّام إلى سريره ، فآنتفض من تحته آنتفاضا شديدا ، وسمع هاتفا يقول : تَعِس من كفر بإله إبراهيم . فقال لتارَحَ وهو واقف عنده : سمعتَ ما سمعتُ ؟ قال : نعم . قال : فمن هو إبراهيم ؟ قال : لا أعرفه .

فأرسل إلى السحرة وسألهم عن إبراهيم ، وأخبرهم بما سمع ؛ فقالوا : لا نعرف إبراهيم ولا إلهه .

ثم توالت عليه الهواتف ، ونطقت الوحش والطير والسباع بمثل ذلك ؛ ثم رأى الرُّؤى فى منامه .

فكان منها أنّه رأى كأنّ القمر قد طلع من ظهر تارح ، وألقى نورَه كالعمود الممدود بين السماء والأرض ؛ وسمع قائلا يقول : ﴿ جَاءَ الْحَقُّ ﴾ ونظر إلى الأصنام (٤١) وهى ترتعد ، فآستيقظ وقصّ رؤياه على تارَح ، فقال : أيّها الملِك ، إنّى فى الأرض كالقمر لكثرة عبادتى لهذه الأصنام . فقال له نمروذ : صدقت .

وانصرف تارَح حتّى دخل بيت الأصنام ، فإذا هى قد سقطت عن كراسيّها منكبّة على أوجهها ؛ فأمر خدَمَها بإعادتها ، وعجب من ذلك .

قال : ثم رأى فى منامه كأنّ نورا ساطعا بين السماء والأرض ، وقوما يسلكون فيه ينزلون إلى الأرض ، ويصعدون إلى السماء ، وإذا برجل من أحسن الناس وجها

فى ذلك النور، وأولئك يقولون : نصرك إلٰه السماء، فبك تحيا الأرض بعد موتها . فآنتبه ودعا بالسَّحَرة والكَهَنة والمنجِّمين ، وذكر لهم رؤياه ، وأقسم إن كتموه تأويلها عذّبهم وجعلهم طعما للسباع . فطلبوا أمانه ، فأمّنهم ، فقالوا : رؤياك تدلّ على مولود من أقرب الناس إليك ، يرث ملكك ، ويرتفع ذكره إلى السماء والشرق والغرب ويُهلكك ، وأنه لا يأتيك ومعه سلاح ولا جند . فتبسّم نمروذ وقال : إن كان كذلك فأمره هيّن . ثم قال لهم : فممّن يكون ؟ قالوا : من ظهر أقرب الناس إليك ، ولا نعلم أكثر من هذا .

ثم قال : ليس أحد أقرب إلىّ من آبنى كوش ووزيرى تارَح ؛ ثم أمر بآبنه كُوشَ فضُرب عنقه ، وأمر بقتل الأطفال حتى قتل مائة ألف طفل ؛ ثم دعا بالمنجّمين فقال : انظروا هل آسترحتُ ممّن كنت أخافه ؟ قالوا : ما حملت به أمه بعد .

وأخذ فى ذبح الأطفال حتى ضجّت آلخلائق إلى الله تعالى .

ذكر حمل أم إبراهيم — عليه السلام — وطلوع نجمه

قال : وعبر تارحُ يوما إلى الأصنام فآضطربت آضطرابا شديدا ؛ فسجد لها فأنطقها الله ، فقالت : يا تارح ، ﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴾ ووافى نمروذَ ما كان يحذره ، فخرج خائفا وجلا حتى دخل على آمرأته وذكر لها ذلك ؛ فقالت : وأنا أخبرك بعجب ، كنت قعدت عن الحيض منذ كذا وكذا ، وقد حضت فى يومى هذا . فقال : اكتمى أمركِ لئلّا يبلغ الملك . فلما طهرتْ هتف به هاتف : يا تارَح صر إلى زوجتك ليخرج النور الّذى على وجهك . فلمّا سمع ذلك مرّ هاربا على وجهه فإذا هو بملك يقول : أين تريد ؟ ارجع فردَّ الأمانة الّتى فى ظهرك .

فآنصرف إلى منزله ولم يجسر أن يقرب آمرأته ؛ فأصبح وإذا بنور ساطع على وجهه، وكان هو الّذى يقرّب إلى الأصنام الطعام والشراب كلّ ليلة، وينصرف الى منزله فتأكله الشياطين ؛ فقرّب الطعام إليها ، فأقبلت الشياطين لتأكله ، فرأوا الملائكة هناك فولّوا هاربين، وبقى الطعام على حاله ؛ فلمّا أصبح تارَحُ رآه على حاله فظنّ أن الأصنام ساخطة عليه، فعكف عليها لترضى عنه ، فأبطأ عن منزله ، فأتته آمرأته ؛ فلمّا خلت به فى بيت الأصنام تحرّكت شهوته، وهمّ بمواقعتها، فقالت : ألا تستحى، أتفعل هذا بين يدى آلهتك ؟ فواقعها، فحملت منه بإبراهيم — عليه السلام — فنُكِّست الأصنام، وظهر نجم إبراهيم وله طرفان : أحدهما بالمشرق والآخر بالمغرب؛ فعجب الناس منه؛ ورآه نمروذ فتحيّر، فلمّا أصبح سأل المنجّمين عنه ، فقالوا : هذا نجمٌ جديد طلع يدلّ على مولود جديد من أولاد الأكابر، يرتفع شأنه ، ويُخشى عليك منه . فهتف به هاتف يقول : يا عدوّ الله ، هذا المولود قد حملت به أمّه والله مُهلكك على يديه .

قال : فلمّا آستكملت أمّه تسعة أشهر قالت لأبيه : إنى أحبّ أن أدخل بيت الأصنام فأسألها أن تخفّف عنّى أمر الولادة؛ فأذِن لها فى ذلك، وتربّص بها إلى اللّيل خوفا أن يعلم الناس بحملها ؛ فلمّا دخلت بيت الأصنام تنكّست عن كراسيها فخرجت فزعة، فإذا هى بنُمروذَ فى قومه ، وبين أيديهم الشُّموع والمَشاعل؛ فقال نمروذ : من هذا ؟ قالت : زوجة عبدك تارَح ؛ فأراد أن يقول : اقبضوها فقال : خلّوها ؛ فأقبلت إلى منزلها مذعورة ، فجاءها الطلق، فأقبل إليها ملَك من عند الله تعالى وقال : لا تخافى وآنهضى فضعى ما فى بطنك . فتبعتْه حتّى أدخلها الغار ، وهو الّذى ولد فيه إدريس ونوح — عليهما السلام — .

ذكر ميلاد إبراهيم — عليه السلام —

(٤٢) قال : ودخلت أمه الغار فوجدت فيه جميع ما تحتاج إليه ، وخفّف الله عنها الطلق ، فولدته فى ليلة جمعة ، وهى ليلة عاشوراء ؛ فلمّا سقط إلى الأرض قطع جبريل سرّته ، وأذّن فى أذنه ، وكساه ثوبا أبيض ؛ ثم عاد بها الملك إلى منزلها فرجعت خفيفة كأن لم تلد ، وقال لها الملَك : اكتمى أمركِ وما قد رأيتِ . فدخلت منزلها ، وجاء تارَح فرآها نشطة خفيفة ، فقالت : إن الذى كان فى بطنى لم يكن ولدا ، و إنّما كانت ريحا وقد آنفشّت عنّى . ففرح بذلك ، وألقى الله تعالى على نمروذ النسيان فى أمر إبراهيم ؛ فلمّا كان فى اليوم الثالث خرجت أمّه إلى الغار فرأت الوحش والسباع على بابه ، فتوهّمتْ أن يكون هلك ؛ فدخلت فرأته على فراش من السندس ، وهو مدهون مكحول ، فتحيّرتْ وعلمت أنّ له ربّا ، ورجعت إلى منزلها وأخبرت تارَحَ الخبر ، فنهاها عن العود إلى الغار ، فكانت تروح إليه سرّا فى كلّ ثلاثة أيّام تنظر إليه وتعود ، حتى تمّ له حولان ، فأتاه جبريل بطعام من الجنّة ، فأطعمه وسقاه ؛ فلمّا آستكمل أربع سنين جاءه ملَك بكسوة من الجنّة ، وسقاه شربة التوحيد وقال : أُخرج الآن منصورا .

ذكر خروج إبراهيم — عليه السلام — من الغار وآستدلاله

قال : ولمّا قال له الملَك ذلك خرج عند غروب الشمس ، فجعل ينظر إلى السموات ، فذلك قوله تعالى : ﴿وَكَذٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هٰذَا رَبِّى﴾ يعنى على سبيل الآستفهام ، أى أهذا ربى؟ . ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى

الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ وهبط جبريل — عليه السلام — فقال له : انطلق إلى أبيك وأمك ولا تخف فإن الله معك . فخرج إبراهيم وجبريل معه حتى وقفه على الباب وقال : هذا بيت أبيك ، فدونك هو . فاستأذن إبراهيم وقال : أأدخل؟ قال تارح : أُدخل . فلما دخل نظر إليه فعجب من حسنه وجماله ، وقامت أمه مسرعة إليه واعتنقته وقالت : ولدى وعزة نمروذ . فقال لها : لا تحلفي بعزة نمروذ ، فإن العزة لله الذى خلقني فى بطنك وأخرجني منك، وكلأني وربّاني وهداني .

فارتعد تارح من كلامه وقال لأمه : أخشى أن تزول عنّى هذه المنزلة بسببه .

ونظر إليه وقال : ما أحسنك ! فلولا ما وقع فى قلبى من محبتك لرفعتُ خبرك إلى نمروذ .

ثم بكى تارح خوفا عليه أن يقتل، فقال له : يا أبت لا تخف علىّ من القتل فإن الله يعصمني من نمروذ . فقال له : ألك رب غير نمروذ ، وله مملكة الأرض شرقها وغربها ، وله ثلاثمائة صنم ؟ فقال إبراهيم : بل ربّى الله الذى لا إله إلا هو خالق السموات والأرض وما بينهما لا شريك له .

وبلغ خبر إبراهيم بعض أقارب تارح، فدخل عليه وقال : ماهذا الغلام الجميل؟ قال : هو ابنى وُلد لى على كبر . قال : فما الذى بلغك من قوله عن نمروذ وأصنامنا ؟ قال تارح : هو ما نالكم ، فكلّموه حتى يعود إلى ديننا . فحاجّه قومه وخوفوه بعذاب نمروذ، وهو يجادلهم ويحتج عليهم ، ويذكر عظمة ربّه حتى عجزوا عنه فذلك قوله تعالى : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ﴾ الآيات إلى قوله : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ﴾ .

فانصرفوا عنه، وخاف تارح أن يسعوا به و بولده إلى نمروذ، فقال : يا إبراهيم كفّ عن هـذا الكلام حتّى أستخلفك على خزانة الأصنام فقـد كَبرتُ . فقال : يا أبت، إنّ المعبود هو الله، والأصنام لا تضرّ ولا تنفع .

فغضب تارح وأقبل على نمروذ ، فسجد له ، وقال : إن المولود الذى كنت تحـذره هو ولدتى ، ولم يولد فى دارى، ولا أعلم به حتّى الآن ، وقـد جاءنى وهو غلام يعقل ويفهم، و يزعم أن له ربا سواك، وقد أعلمتك فاصنع ما أنت صانع .

فلمّا سمع نمروذ ذلك داخله الرعب وقال : صـفه . فوصفه . قال نمروذ : هو الّذى رأيتـه فى منامى . وقال لأعوانه : ائتونى به . فأتوه به ، فردّد النظـر إليه وقال : احبسوه إلى غد؛ فلمّـا أصبح أحضره وقد أمر بتزيين قصره بأعظم زينة، وهوّل عليه بجنوده وأصناف السلاح؛ فالتفت إبراهيم إلى الناس يمينا وشمالا (٤٣) وقال : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ؟ فذلك قوله تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيـهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُـدُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ ثم قال : ﴿ الَّذِى خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَٱجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ ثم التفت وقال: ﴿ وَٱغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ .

فلمّا فرغ من كلامه قال له نمروذ ، يا إبراهيم ، تقع فى دينى وأنا الّذى خلقتك و رزقتك ؟ قال : كذبتَ ، إنّ خالقى و رازقى وخالقَ الخلق و رازقهم ، ﴿ هُوَ ٱللَّهُ الَّذِى لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فبُهت النـاس ، و وقعت فى قلوبهم محبّتـه لحُسنه وحُسن كلامه ؛ فالتفت نمروذ إلى تارح وقال : إنّ ولدك صـغير لا يدرى ما يقـول ولا يجوز لمثلى فى قدرتى وعِظَم مملكتى أن أعجّل عليه؛ فخذه إليك، وأحسن إليـه وحذّره بأسى حتى يرجع عمّا هو فيه .

فأخذه تارح وآنصرف إلى منزله، وقال : يابنيّ، إنّ لى عليك حقّا، وأسألك بحقّ عليك أن تلازمنى فى عملى وبيع هذه الأصنام كما يفعل إخوتك . قال : كيف أبيع ما أبغضه؟ قال : ما عليك أن تبيعها ؟ وأخرج له صنمين صغيرا وكبيرا، وقال : بع هذا بكذا، وهذا بكذا . قال : يا أبت أنت تعبد هذه الأصنام على أنّها ترزقك وهى التّى خلقتك؟ قال : نعم . فقال له ما أخبرنا الله به فى قوله : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّى قَدْ جَاءَنِى مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِى أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ عِصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّى أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ فغضب تارح من قوله وقال : ﴿ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِى يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴾ قال إبراهيم : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ .

وقال : وكان إبراهيم يخرج ومعه غلامان ومعهما صنمان، فيقول : من يشترى ما لا يضر ولا ينفع ولا يدفع الذّباب عن نفسه؛ وكان يغمسهما فى الماء ويقول : اشربا . ويشدّ الحبل فى أرجلهما ويجرّهما، والناس يُعظمون ذلك ولا يجسرون يكلّمونه لمكان أبيه من نمروذ .

ذكر معجزة لإبراهيم — عليه الصلاة والسلام —

قال : وبينما إبراهيم قاعدا إذ جاءته آمرأة عجوز، فقالت : بعنى أحد هذين الصنمين، وآختر لى أجودهما . فقال : هذا أكثر حطبا من هذا . قالت : لست أريده للوقود، وإنّما أريد أن أعبده، فقد كان لى إله سُرق فى جملة ثياب كثيرة

لى، وأنا اريد أن أشترى هذا الصنم فأعبدَه حتى يردَّ علىّ رحلى . قال لها إبراهيم : إنّ الإله الّذى يُسرَق لو كان إلهـا لحفظ الثياب وحفظ نفسه؛ فكم لك تعبدينه ؟ قالت : كنت أعبده ونمروذَ منـذ كذا وكذا سـنة . قال : بئس ما صنعتِ، هلا عبـدتِ ربّ السموات والأرض حتى يردّ عليك ما سُرِق منـك ، فإنْ عاد مالك تؤمنين ؟ قالت : نعم .

فدعا إبراهيم ربّه فإذا بالمسروق بين يديه قد جاء به جبريل؛ فقال لها إبراهيم : هذا رحلك . فأخذته العجوز وكسرت الصنم ، وقالت تبًّـا لك ولمن عبدك دون الله . وآمنت ، وجعلت تطوف فى المدينة وتقول : يأيّها الناس آعبدوا الله الّذى خلقكم و رزقكم ، وذروا ما كنتم عليه من عبادة الأصنام .

فبلغ خبرها نمروذ، فأحضرها وأمر بقطع يديها و رجليها وفقْء عينيها؛ فآجتمع إبراهيم والناس لينظروا إليها — وهو إذ ذاك لم يبلغ الحُـلُم — فدعا لهـا بالصـبر وقال : إلهى إنّك قد هديتها، أسألك أن تجعلها آية . فردّ الله عينيها و يديها و رجليها وآرتفعت فى الهواء وهى تنادى : و يلك يا نمروذ ، أنا الّذى قد فعلتَ بى ما فعلت هاأنا أرقى إلى الجنان .

وكان لنمروذَ خازن يقال له : بهرام[1] ، فقام وقال : آمنتُ أيّتهـا المرأة بالذى خصّك بهذه الكرامة ، وآمن فى ذلك اليوم خلق كثير من وجوه القوم؛ فأمر نُمروذُ فنُشِروا بالمناشـير وألقُوا للأسود فلم تأكلهـم ؛ وآرتجّت المدينـة بزلزلة عظيمة وترادفتْ معجزات إبراهيم — عليه السلام —

(١) فى كتاب الكسائى المنقول عنه هذا الكلام : «ولد» .

ذكر مبعث إبراهيم — عليه السلام —

قال : فلما تمّ لإبراهيم أربعون سنة ، جاءه جبريل بالوحى من الله ، وأرسله إلى (٤٤) نمروذ ، فأقبل إبراهيم ووقف على باب نمروذ ونادى بأعلى صوته : يا قوم ، قولوا : « لا إله إلّا الله وإنّى إبراهيم رسول الله » . فانتشر الصوت على جميعهم ؛ فأحضر نمروذُ الوزراء والبطارقة ، وأجلسهم فى مجالسهم ، وأقام جنوده ، وأحضر الأُسود والفيلَة بسلاسلها ، وأقيمت صفوفا عن يمين الدار ويسارها ؛ وأمر بدخول إبراهيم ؛ فدخل وقال : « بآسم الله العظيم » فلمّا توسّط الدار قال بصوت رفيع : يا قوم قولوا : « لا إله إلّا الله خالق كلّ شىء » .

ثم تقدّم إلى نمروذ ؛ فقال له بعض وزرائه : من أنت ؟ قال : أنا إبراهيمُ بن تارَح رسولُ رب العالمين ، أدعوكم إلى عبادته . قال له : من ربّك ؟ قال : الذى خلق الناس جميعا . قال نمروذ : إنّ مُلكى أعظم من مُلكه . قال إبراهيم : المُلك والسلطان لله رب العالمين . قال : لقد تجرّأت علىّ يا إبراهيم ، وأنت تعلم أنّى خلقتك ورزقتك .

فاضطرب سرير نمروذ ، وقال إبراهيم : كذبت يا نمروذ ، إنّ الله هو الّذى خلقك وخلق الناس أجمعين ، ورزقك ورزقهم ، وأنت تكفر بنعمته وقد رأيت بعض الآيات ؟ قال : هات غير ذلك . فوصف إبراهيم قدرة الله . قال نمروذ : فما الّذى يفعل من قدرته ؟ ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ قال نمروذ : ﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ . قال : كيف تفعل ؟ قال : أخرج من الحبس من قد وجب عليه القتل فأطلقه ، وأقتل الّذى لم يَجِبْ عليه .

قال إبراهيم : إنّ ربّى لا يفعل كذلك ، بل الميّت يحييه ، والحىّ يميته من غير قتل ، ولكن يا نمروذ ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ .

ذكر سؤال إبراهيم — عليه السلام — فى إحياء الموتى

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

قال : فأخذ ديكا أبيضَ وغرابا أسود وحمامة خضراءَ وطاوسا ، وقطع رءوسها ، وخَلَط الدم بالدم والريش بالريش ؛ ثم جزّأها أجزاءً متساوية ، وجعل على كلّ جبل منهنّ جزءا ، وجعل رءوسها بين أصابعه ، ثم دعاها ، فانضمّ كلّ جزء إلى بعضه ، وخرجت الرءوس من بين أصابع إبراهيم ، فصار كل رأس إلى بدنه .

قال : وآلتفت إبراهيم إلى نمروذ وقال : كيف ترى قدرة إلٰهى ؟ قال : ليس هذا ببديع من سحرك . وأمر به فقُيِّد وغُلّت يده ، وأدخل المَضيق تحت الأرض وفيه الحيّات والعقارب فلم يضرّه ذلك .

وجاءه جبريل فبشّره عن الله بالنصر ، وألبسه حلّة خضراء ، وفرش له فرشا من السندس ، وأتاه بطعام فأكل وقال له : اِصبر كما صبر الأنبياء من قبلك .

ذكر آية لإبراهيم — عليه السلام —

قال : وكان إبراهيم يسلِّى أهل السجن ، ويذكّرهم بالجنّة والنار ؛ فقام إليه رجل وقال : يا إبراهيم ، أنا من ملوك العرب ، وأنا آبن مَلِكهم ، وكنّا أربع إخوة فغضب الملك علينا فحبسنى هاهنا ، وحبس الآخر بالمشرق ، والآخر بالمغرب والرابعَ باليمن ، فهل يقدر ربّك أن يجمع بيننا؟ قال : نعم . ودعا إبراهيم ربّه ، فإذا بالأخوين وقد آنقضّا من المشرق والمغرب . فبلغ ذلك نمروذ ، فأحضرهم وقال :

مَن جمع بينكم ؟ قالوا : إلهُنا بدعاء إبراهيم . فأحضَر إبراهيم وقال : ائتنا بالأخ الرابع من اليمن . فقال : إنّه قد مات ودفن . فقال نمروذ : ادع ربّك حتّى يأتينا بقبره .

فدعا إبراهيم ، فأمر الله المَلَك الموكّل بالأرض أن يخترق بالقبر إلى إبراهيم ؛ فخرج القبر من تحت الأرض إلى دار نمروذ ، فقال إبراهيم للثلاثة : هذا قبر أخيكم . فقالوا : أيُّها الملك ، إن كان حقّا ما يقول فليدع ربّه ليحييه وينظر إليه ويكلّمه .

فصلّى إبراهيم ركعتين ، وسأل الله أن يحييه ؛ فانشق القبر ، وخرج الرجل منه وهو يشتعل نارا ويقول : هذا جزاء من عبد الأصنام ورغب عن دين الله .

فقام بهرام الخازن ونزع ما كان عليه من لباس نمروذ ، وآمن بالله وبإبراهيم . فقال له نمروذ : لقد عملَ سحرُه فيك . وأمر بهم نمروذ فشُدّت أيديهم وأرجلهم (٤٥) ووُضعت عليهم أساطين ، فلم يؤلمهم ثقلها ؛ فبُهت نمروذ ثم قال : عودوا لطاعتى فأنا الذى خففت عنكم ثقل هذه . فقال خازنه : قم حتى نضع عليك واحدةً منها وخفّفها عن نفسك .

فغضب نمروذ وأحرقهم بالنار حتى صاروا رمادا ؛ فردّ الله عليهم أرواحهم فقاموا على أرجلهم يقرّون بعظمة الله ؛ فعجب الناس ، ولم يدر نمروذ ما يفعل ؛ فأمر بهم فأُلقوا فى الحبس بين حيّات وعقارب ، فبقوا فيه أربعين يوما ، ولم يطعموا شيئا ؛ فجاءت أمّ إبراهيم إلى نمروذ وسألته فى إطلاقه ، فأمر بإخراجه هو ومن آمن به ، وفى ظنّه أنّهم قد ماتوا ؛ فأخرجهم فإذا هم فى أحسن صورة ؛ فعجب

وقال : يا إبراهيم ، من أطعمك وسقاك ؟ قال : ربّى أطعمنى وسقانى ، فآمِنْ به يا نمروذ ، فقد رأيت آياته وعظمتَه .

فغضب نمروذ ثم أقبل على تارح وقال له : قد كنت أتخوّف من ٱبنك ، لأنّى كنت أظنّ له شوكة من الجنود ، والآن فليس عنده إلّا السحر ، وقد وهبته لك . فأخذه أبوه وأخرجه من دار نمروذ ، وقال له : يا بنىّ ، امش حتى أُدخلك على هذه الأصنام لعلّك تميل إليها . فقال إبراهيم : سوءة لك أيّها الشيخ . ثم قال : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ؟ ﴾ ثم قال : يا قوم قولوا : لا إله إلّا الله وإنّى إبراهيم رسول الله تُفلحوا . فكذّبوه ، فقال له أبوه : يا بنىّ ما تخشى سطوة الملك . فقال : يا أبت إنّ ٱلله يعصمنى من مكايده .

قال : ثم ٱبتلاهم الله — عزّ وجلّ — بالقحط ، وقلّت عندهم الأقوات ؛ وكان بظاهر المدينة كثيب من الرمل ، فتعبّد إبراهيم فيه ، ودعا ربّه أن يحوّله طعاما . فحوّله الله ، فكان المؤمنون ينالون منه ما يريدون ، والكفّار يسجدون لنمروذ ويأخذون منه القوت .

وكان قد جمع الأقوات فى سراديب عنده ، فأطعمهم حتى نفد أكثرها ولم يبقَ إلّا قوتُ أهله وعشيرته ؛ فشرع الناس يؤمنون ويزيدون فى كل يوم ؛ فشقّ ذلك على نمروذ ، وطلب إبراهيم وقال له : اخرج من بلدى فقد أفسدتَ قومى بسحرك . فقال إبراهيم : لِمَ أخرج وأنا أحقّ منك ؟ وخرج من عنده فأحضر نمروذ تارح وقال له : إن ٱبنك قد آذانى فى أهل مملكتى ، ولولا منزلتك عندى لبطشت به . فقال : إنّى قد هجرته ، ولست راضيا بصنعه ، فٱفعل به ما بدا لك .

ذكر خبر تكسير إبراهيم الأصنام وإلقائه فى النار

قال كعب : وكان لأهل كُوثَرَبًّا عيد يخرجون إليه فى كلّ سنة ، فيتعبّدون هناك أيّاما ؛ وكان بعيدا من البلد ؛ فلمّا حضر ذلك العيد قال تارح لإبراهيم : أُخرج معنا إلى عيدنا . ﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ ، يعنى لعبادتكم الأصنام ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ إلى عيدهم ، ولم يبق فى بلدهم إلّا الصّغار والهَرِمون .

فقام إبراهيم ودخل بيت الأصنام — وكان القوم قد وضعوا الطعام بين أيديها — ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾ استهزاء بهم ؛ وكانت فى جانب البيت فأس ، فأخذها وكسر بها هذا الصنم ، وكسر يد هذا الصنم ورجلَ هذا ورأسَ هذا . قال الله عزّ وجلّ : ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ وترك كبيرهم كما أخبر الله تعالى : ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ﴾ ثم علّق الفأس فى عنق الصنم الأكبر ورجع إلى منزله .

وأقبل القوم بعد فراغهم من عيدهم ، فرأوا أصنامهم على ذلك ؛ فقالوا : ﴿مَنْ فَعَلَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ وبلغ الخبر نمروذ . قال : ﴿فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ يعنى عذابه . فلمّا أتوا به ﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ قال بعضهم لبعض : ﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هٰؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ فصاحوا من كلّ ناحية : أفتأمرنا بذلك وأنت تعلم أنّها لا تسمع ولا تبصر . فقال إبراهيم : ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فقال القوم لنمروذ ما أخبرنا الله تعالى عنهم : ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ .

(٤٦) وكان لنمروذ تنّور من حديد يُحرِق فيه من غضب عليـه، فأَمر به فأُسجِر فطَرَح إبراهيم فيـه، فلم تضرّه النار بقدرة الله؛ فلمّا رأى نمروذ ذلك جَمع أهـل مملكته وآستشارهم، فأشاروا أن يحبسه و يجمعَ له الحطب الكثير، و يُضرِمَ فيه النار، ثم يلقيَه فيه إذا صار جمرا . وقالوا: إنّه لا يَقدر يسحر النار الكبيرة، ولا يعمل سحرُه فيها.

فعند ذلك حبَسَه وأمر بجمع الأحطاب؛ فيقال: إنّ الدوابّ آمتنعتْ من حملها إلّا البغال، فأَعقمها الله عقـو بة لذلك؛ فجمعوا من الأحطاب ما لا يُحْصَى كثرة؛ وأَمَر أن تُحْفَر حَفيرةٌ واسعة، و بنى حولها حائطا عاليا، وألقى فيها تلك الأحطاب وأَضرم فيها النار والنِّفْط ثلاثة أيّام، فكان لهبها يصيب الطائر فى الجوّ فيُحْرَق .

قال : وهمّوا بطرح إبراهيم فيها، فلم يقدروا يقربوا منها .

فيقال : إنّ إبليس أتاهم فى صـورة شيخ، وصـنع لهم المنجنيق ، ولم يكونوا يعرفونه قبـل ذلك، ووضعوا إبراهيم فى كفّة المنجنيق ، ورمَوا به وهو يدعو الله أن ينصره عليهم؛ فعارضه جبريل وهو فى الهواء، وقال له : ألكَ حاجة يا إبراهيم ؟ قال : أمّا إليك فلا، بل حسبي الله ونعم الوكيل .

فلمّا قرب من النار قال الله عزّ وجلّ: ﴿ يَا نَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾.

قال آبن عبّاس — رضى الله عنهما — : لو لم يقل « وسلاما » لمـات إبراهيم من شدّة البرد .

فبرد حرُّها وآخضرّت الأشجار التى آحترقت و رسَتْ بعروقها .

فلمّا أصبح نمروذ جلس فى مكان مُشرِف ينظر إلى ما أصاب إبراهيم من النار؛ فكشف عن بصره فإذا هـو برجل فى وسطها على سرير، عليـه ثياب خضر و إلى جنبه رجل آخر؛ وخلقٌ كثير وقوفٌ من ورائهما ؛ فدعا بصاحب المنجنيق

وقال له : كم ألقيتَ فى النـار ؟ قال : إبراهيم وحده . فعجب وعجبت النـاس وقال : اذهبوا وآنظروا مَن القاعد على السرير ومن إلى جنبه وحولَه . فأتوا فإذا هم بإبراهيم على أحسن صورة، فأخبروا نمروذ، فقال: ائتونى به . فقالوا : لانستطيع الوصول إليـه لحرّ النـار . فنادَوه : يا إبراهيم ، اُخرج إلينا . فخـرج إلى نمروذ وقال له : ما أعجب سحرك يا إبراهيم ! قال : ليس هـذا بسحر، وإنمـا هو من قدرة الله تعالى . قال : فمن الّذى عن يمينك ؟ قال : ملَك جاءنى من عنـد ربّى بشّرنى أنّ الله آتخذنى خليلا . فقال نمروذ : لأصعدنّ إلى السماء وأقتل إلٰهك .

ذكر خبر صعود نمروذ إلى السماء على زعمه

قال : وأمر نمروذ أن يُتخـذ له تابوت مربّع ، ويكونَ له بابان : باب إلى السماء وباب إلى الأرض ، وجوّع أربعة نسـور ، وسَمّر أربعـة رماح فى أركان التابوت ، وعلّق اللحمَ فى أعلاها ، وشـدّ النسور بأوساطها إلى الرماح ، وجلس فى التابوت ومعه وزيره، وحمل معه قوسا ونُشّابا، وأطبق البابين، فرفعت النسور رءوسها فنظرتْ إلى اللحم ، فطارت صاعدة ، وآرتفعت فى الهواء؛ فقال لوزيره : افتح الباب الذى يلى الأرض وآنظر كيف هى ؟ قال : أراها كأنّها قرية . قال : فانظر إلى السماء . فقال : هى كما رأيناها ونحن فى الأرض . ولم يزل يصعد حتى قال : أما الدنيا فلا أراها إلا سوادا ودخانا، والسماء كما رأيناها .

وآرتفعت النسور حتى كادت تسقط إلى الأرض؛ فعارضه ملَك وقال: ويلك يا نمروذ، إلى أين؟ قال : أريد محاربة إلٰه إبراهيم . قال: ويحك، إنّ بينك وبين سماء الدنيا خمسمائة عام، ومن فوق ذلك ما لا يعلمـه إلّا الله . فخرّ الوزير ميتا؛ فأخذ نمروذ القوس ووضع فيه السهم، وقال : أنا لك يا إلٰه إبراهيم، ورمى بالسهم إلى الهواء، فيقال : إنّ ذلك السهم عاد إليه ملطّخا بالدم بإذن الله .

وأمر الله جبريل أن يضرب التـابوت بجناحه ، فيلقيَـه فى البحر ؛ فضربه فمرّ يهوى به حتى ألقاه فى البحر ؛ وأمر الله الأمواج أن تلقيه إلى الساحل ؛ فلمّـا وصل إلى البرّ خرج وقد ابيضّت لحيته لمـا عاين من الأهوال ، وتوصّل من بلد إلى بلد حتى أتى المدينة ، فدخل منزله ليـلا فأنكره الناس لشيبه ، ثم عرفوه ؛ وجاءه إبراهيم فقال : كيف رأيتَ قدرة ربّى ؟ قال : قـد قتلتُ ربّك . قال : إنّ ربّى أعظم من ذلك ، ولكن هل لك قوّة — مع كثرة جنودك — أن تقاتلنى ؟ قال : نعم . *

ذكر خبر إرسال البعوض على نمروذ وقومه

(٤٧) قال : وأمر نمروذ جنوده فاجتمعوا لحرب إبراهيم وهم لا يُحصَون كثرة ؛ وخرج إبراهيم فى سبعين من قومه الذين آمنوا فى الصحراء ، فأرسل الله عليهم البعوض حتى امتلأت منـه الدنيا ، ولدغت جيش نمروذ ؛ فمات من لدغها خلق كثير ، والتجأ الباقون إلى الدُّور ، وأغلقوا الأبواب وأسبلوا الستور ؛ فلم تُغن عنهم شيئا ؛ وانفرد نمروذ عن جيشه ، ودخل منزله وأُغلقت الأبواب ، وأرخيت الستور ، واستلقى على سريره ، فجـاءت بعوضة فقعدتْ على لحيتـه ، فهمّ بقتلها ، فدخلت منخـره وصعدت إلى دماغه ؛ فعذّبه الله بها أربعين يوما لا ينام ولا يَطعم ؛ ثم شقّت رأسه وخرجت فى كِبَر الفرخ ، فمات .

وقيل : إنه اتخذ إرزَبّة من حديد ، فكان صـديقه الّذى يضرب بها رأسـه فانفلق رأسُه بضربة فخرجتْ كالفرخ وهى تقول : هكذا يهلك الله أعداءه ، وينصر أنبياءه ، ويسلّط رُسُله على من يشاء .

وأرسل الله الزلازل على المدينة ، فخرّبت .

قال : وجاء لوط وهو ابن أخى إبراهيم ، وآمن به ، وآمنت سارة ، فتزوّج بها إبراهيم .

ذكر هجرة إبراهيم — عليه السلام —

قال : وجمع إبراهيم أصحابه الذين آمنوا به ،وسار يريد الشأم، فجاء إلى (حَرّانَ) فأقام بها مدّة من عمره ، وترك بها طائفة من المؤمنين ، وسار حتى أتى الأُرْدُنّ وكان آسم مَلِكها صادوق ، فمرّ به وهو فى منظرة له ، فنظر إلى سارّة مع إبراهيم فأحضرهما ، وقال لإبراهيم : من أنت ؟ قال : أنا خليل الله إبراهيم . وذكر له ما كان من أمر نمروذ . فقال له : مَن هذه ؟ قال : هى أختى . فقال : زوِّجنيها . قال : هى أعلم بنفسها منّى ، وإنّها لا تحلّ لك . فآغتصبها منه ، وقام إلى مجلس آخر وأمر بحملها إليه . فدعا إبراهيم آللهَ تعالى ، فآرتجّ المجلس بالمَلِك ، ويَبِست يده فقال لسارّة : ألا ترين ما أنا فيه ؟ قالت : لأنّك أغضبتَ خليل الله .

قال : فتضرّع إلى إبراهيم ، فسأل اللهَ فى ردّ يده عليه ، فأوحى الله إليه : لا أطلقه دون أن أخرِجه من مُلكه ويُسلِم ، فأسلَم وخرج عن المُلك ، ووهب سارّة هاجرَ ، وهى أمّ إسماعيل .

قال وآرتحل إبراهيم حتى أتى الأرض المقدّسة فنزلها .

وقد روينا هذه القصة بسندنا إلى البخارىّ — رحمه الله —

وسنذكر الحديث — إن شاء الله تعالى — فى أخبار طرطيس أحد الملوك بمصر ، فقد ورد أنه صاحب القصة ، والله أعلم .

ذكر خبر ميلاد إسماعيل — عليه السلام — ومقامه وأمّه فى البيت المحرّم

قال : وأقام إبراهيم بالأرض المقدّسة ما شاء الله أن يقيم حتى كبرت سارّة وأيست من الولد ، فخافت من آنقطاع نسل إبراهيم — عليه السلام — فوهبته هاجر فقَبِلها ، وواقعها ، فحملت بإسماعيل ، ووضعته كالقمر وفى وجهه نور نبيّنا محمد

صلّى الله عليه وسلّم ، فأحبّته سارّة حتى بلغ من عمره سبع سنين ، فداخلت الغيرة سارّة، ولم تُطق أن ترى إبراهيم مع هاجر، فقالت : يا نبيّ الله، إنى لا أحبّ أن تكون هاجر معى فى الدار، فحوّلها حيث شئت .

فأوحى الله إليه أن انقلها إلى الحرم، وجاءه جبريل بفرس من الجنة ، فقال له : يا إبراهيم ، احمل هاجر وإسماعيل على هذا الفرس . فأركب إبراهيم هاجرَ وإسماعيلَ من ورائها، وسار بهما حتى بلغ الحرم .

فأوحى الله إليه أن انزل بهما هاهنا . فأنزلها بالقرب من البيت، وهو يومئذ أكمة حمراء كالربوة من تخريب الطوفان. ثم قال إبراهيم لهاجر : كونى ها هنا مع ولدك فإنى راجع، فبذلك أمرنى ربّى. فلما أراد إبراهيم أن ينصرف قال: ﴿ رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ إلى قوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ .

ثم رجع وتركهما هناك ولا ثالث لهما إلّا الله تعالى .

فلما علا النهار ، واشتدّ الحرّ، ونفد ما معهما من الماء، قامت هاجر تعدو يمينا وشمالا فى طلب الماء فلم تجده، فعادت إلى إسماعيل فرأته يبحث بأصابعه فى موضع بئر زمزم وقد نبع الماء، فسجدت لله ، وأخذت تجمع الحصا حول العين لئلّا ينتشر الماء وهى تقول : زُمّ زُمّ يا مبارك .

فناداها جبريل : لا تخافى وأبشرى، فإن الله سيعمر هذا المكان .

قال وهب : لولا أن هاجر جمعت الحصا حول الماء لتمّت العين نهرا جاريا على وجه الأرض إلى يوم القيامة .

قال : وأقبل ركب من اليمن يريدون الشام، وطريقُهم على الحرم، فرأوا الطير ٤٨
تهوى إلى الأرض، فقالوا : إن الطير لا تنقض إلّا على الماء والعمارة .

وأقبلوا فرأوا هاجر و إسماعيل والعين؛ فسألوها ، فقالت : أنا جارية خليل الله إبراهيم وهذا ٱبنه ، خلّفنا وٱنصرف إلى الشأم .

فٱستأذنوها فى الماء، فأذنت لهم . ثم قالوا : هل أحد ينازعك على هذا الماء؟ قالت : لا ، فإن الله أخرجه لى ولولدى . قالوا : إن حضرنا بأهالينا وسكنّا فى جوارك هل تمنعينا من هذا الماء ؟ قالت : لا ، فإنه لله يشرب به خلق الله .

فرجعوا إلى بلدهم ، وٱحتملوا أهاليهم وأتوا الحرم بها و بمواشيهم ، فصاروا لها أنسا .

ونشأ إسماعيل حتى بلغ مبلغ الرجال ، فكان يخرج إلى الصيد معهم و يرجع وماتت أمه هاجر، وتزوّج إسماعيل منهم ، و بلغ إبراهيمَ خبرُ موت هاجر، فٱشتاق إلى إسماعيل، فٱستأذن سارّة فى ذلك، فأذنت له ، فجاءه جبريل بفرس فركبه وسار حتى وقف على بيت ولده إسماعيل بالحرم ، فقال : السلام عليكم يا أهل المنزل . فقالت له المرأة : إن صاحب البيت غائب . فقال إبراهيم : إذا رجع فقولى له : ٱبدل عتبة دارك ، فإنّى لا أرضاها لك . وانصرف إلى الشأم .

فلما عاد إسماعيل أخبرته بالخبر، فقال : صفيه لى . فوصفته، فقال : الحق بأهلك . فجاء أهلها وقالوا : ما الذى كرهت منها ؟ قال : لأنها لم تعرف لخليل الله قدرا .

ثم تزوّج ٱمرأة من جُرْهُم، فأولدها إسماعيل ستّة أبطن ، فاشتاق إبراهيم إلى ولده، فجاءه جبريل بفرس فركبه وسار إلى الحرم ، وقد عمر ذلك المكان بجرهم ؛ فوقف على باب إسماعيل وقال : السلام عليكم يا أهل المنزل . فبادرت ٱلمرأة وسلّمت عليه، وقالت : فدتك نفسى، إن صاحب المنزل غائب، و إنه يعود عن قريب . قال : هل عندك طعام ؟ قالت : نعم ، عندنا خير كثير . وجاءته بطبق

عليه لحم مشوىّ من الصيد ، وقدح فيه ماء . قال : فهل غير هذا من حب أو زبيب ! قالت : يا عمّاه ، ما هذا طعام بلدنا ، ولكنّه يُجلب إلينا ، فآنزل بنا وتناول طعامنا . قال : إنّى صائم ، ولكن علىّ ذَرَق(١) الطير فآغسليه . وحوّل قدمه عن الفرس ، ووضعه على المقَام ؛ فغسلته(٢) ، فقال : إذا جاء زوجك فسلّمى عليه وقولى له : الزم عتبة بابكَ فقد رضيتها لك . وآنصرف .

فلمّا رجع إسماعيل من الصيد أخبرتْه الخبر فقال : لقد كنتِ كريمة علىّ وقد صرت الآن أكرمَ بإكرامك أبى خليل الله إبراهيم .

ثم آشتاق إبراهيم إلى ولده ثالثا ، وذلك بعد ثلاث وعشرين يوما ، فجاء إليه ولقيه ، وأمره الله أن يبنى البيت ، فبناه ؛ وأتاه جبريل فعلّمه مناسك الحجّ .

وقد تقدّم ذِكر ذلك مبيّنا فى الباب الثانى من القسم الخامس من الفنّ الأوّل وهو فى السفر الأوّل من كتابنا هذا ، فلا حاجة لنا فى إعادته .

قال : ورجع إبراهيم إلى البيت المقدّس ، وأوحى الله إليه أن يرسل لوطا نبيا إلى سَذُوم ؛ فأرسله .

وكان من أمره ما نذكره فى أخباره فى الباب الّذى يلى هذا الباب — إن شاء الله تعالى — .

ذكر خبر بشارة إبراهيم بإسحاق — عليهما السلام —

قال : وبعث الله الملائكة إلى إبراهيم حين أرسلهم بالعذاب على قوم لوط وأمرهم أن يبشّروه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ؛ فأتوه على صورة البشر وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل ودرديائيل .

(١) فى (ج) : « روث » . (٢) فى كتاب الكسائى : « مغسلت رأسه » .

قال : فأتوه مفاجأة على خيولهم، ودخلوا عليه منزله ففزع منهم، حتى قالوا : ﴿ سَلَامًا ﴾ ، فسكن خوفه، وقال: ﴿ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ ورحّب بهم وأجلسهم وقام إلى زوجته سارّة وأمرها بخدمتهم؛ فقالت : عهدى بك وأنت أغير الناس . قال : هو كما تقولين، وإنّما هؤلاء أضياف أخيار . ثم قام إلى عجل سمين فذبحه وشواه، وقرّبه إليهم، ووقفت سارّة لخدمتهم، فجعل إبراهيم يأكل ولا ينظر إليهم وهو يظنّ أنهم يأكلون ؛ فرأت سارّة أنّهم لا يأكلون ؛ فنبّهته على ذلك ، فقال : ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ ؟ وداخله الخوف من ذلك ، ثم قال : لو علمت أنّكم لا تأكلون ما قطعت العجل عن البقرة .

فمدّ جبريل يده نحو العجل، وقال: قم بإذن الله. فاشتدّ خوف إبراهيم وقال: ﴿ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ .

قال: وكانت سارّة واقفة هناك، فقالت : « أوه » ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ ﴾ أى حاضت ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَى ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ ولم تعلم أنّهم ملائكة ؛ فقال لها جبريل : يا سارّة ، ﴿ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ . قال إبراهيم : ﴿ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴾ ثم عاد جبريل إلى صورته، فعرفه إبراهيم، وعرّفه أنهم يقصدون قوم لوط بالعذاب ؛ فاغتمّ إبراهيم شفقة على لوط وأهله، ثم قال : امضوا حيث تؤمرون .

(٩٤)

وكان من أمر قوم لوط ما نذكره .

قال : وحملت سارة بإسحاق فى الليلة التى خسف الله فيها بقوم لوط ، ووضعته وعلى وجهه نور أضاء منه ما حولها ؛ فدخل إبراهيم وقال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ وربّته سارة حتى بلغ سبع سنين .

ذكر خبر الذبيح وفدائه

قال : وكان إسحاق يخرج مع أبيه إلى بيت المقدس ، فبينا إبراهيم فى مصلّاه إذ غلبته عينه فنام ، فأتاه آت فى منامه وقال : إن الله يأمرك أن تقرّب قربانا . فلمّا أصبح عمد إلى ثور فذبحه وفرّق لحمه على المساكين ، فلما كان الليل رأى فى منامه الذى أتاه وهو يقول : يا إبراهيم ، إنّ الله يأمرك أن تقرّب له قربانا أعظم من الثور . فلمّا آنتبه ذبح جملا وفرّق لحمه على المساكين . ثم رآه فى الليلة الثالثة وهو يقول : إنّ الله يأمرك أن تقرّب قربانا أعظم من الثور والجمل . قال إبراهيم : وما هو ؟ فأشار إلى ولده إسحاق ؛ فآنتبه فزعا ، وأقبل على إسحاق وقال له : ألست تطيعنى يا بنىّ ؟ قال : بلى ، ولو كان فى ذبح نفسى .

فآنصرف إبراهيم إلى منزله ، وأخذ الشّفرة والحبل ، فوضعهما فى مِخلاته ، وقال : يا إسحاق ، امض بنا إلى الجبل .

فلما مضيا أقبل إبليس إلى سارة وقال لها : إنّ إبراهيم قد عزم على ذبح إسحاق فالحقيه وردّيه . قالت : ولِم يذبحه ؟ قال : إنّه زعم أن ربّه أمره بذلك . قالت : إن كان الأمر كذلك فإنّه صواب إذا أراد رضى ربّه . وقالت : اللّهم آصرف نزغ الشيطان . فولّى عنها هاربا ، وتبع إسحاق فناداه : إنّ أباك يريد أن يذبحك . فقال إسحاق لأبيه : يا أبت ألا تسمع إلى هذا الهاتف ما يقول ؟ قال : يا بنىّ آمض ولا تلتفت إليه ، فسأخبرك .

فلما آنتهيا إلى رأس الجبل قال إبراهيم : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَا ذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ ٱللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

فحمد إبراهيم ربّه على ذلك ، فنودى من السماء : أليس آلله قد وصفك بالحلم فكيف لا ترحم هـذا الطفل ؟ قال : إن الله قـد أمرنى بذلك . فقال إسحاق : يا أبت عجّل أمر ربّك قبل أن ينال منّا الشيطان .

فنزع إبراهيم قميصه و ربطه بالحبل ، وكبّه على جبينـه وهو يقول : الحمـد لله باسم الله الفعّال لمـا يريد . ووضع الشـفرة على حلقه ، فلمّـا همّ بذبحـه آنقلبت الشفرة ، فارتعدت يد إبراهيم ، فقال له إسحاق : يا أبت ، حُدَّ الشفرة ، وآصرف وجهك عنّى حتى لا ترحمنى . قال : يا بنيّ ، قد فعلتُ حتى لو قطعتُ بهـا المِجَنّ لقطعتْه بحدها .

ثم وضع إبراهيم الشـفرة على حلقه ثانيـا ، وهمّ بقطع أوداجه ، فانقلبت ، فقـال إبراهيم : لا حول ولا قـوّة إلا بالله . فقـال : أصبت فى قولك يا أبت ولكن حدّ شفرتك لتذبحنى ذبحا ، ولا تجزع . فحدّ إبراهيم المدية حتى جعلها كالنار ووضعها على حلق إسحاق ، فسمع إبراهيم هدّة[1] عظيمة ومناديا يقـول : يا إبراهيم خذ هذا الكبش فاذبحه عن آبنك ، فهو قربان عنه ، وهذا اليوم جعل عيـدا لك ولولدك من بعدك .

فالتفت إبراهيم إلى الجبل ، و إذا هو بكبش أملح أقرن ، قد آنحدر من الجبل وهو يقول : خذنى يا إبراهيم فآذبحنى عن آبنك ، فأنا أحق منه بالذبح ، فأنا كبش هابيل بن آدم .

(١) الهدة : صوت شديد تسمعه من سقوط ركن أو ناحية جبل . و يقال : الهدة صوت ما يقع من السماء .

فحمد إبراهيم ربّه على ذلك ، وذبح الكبش ؛ فأتت نار من السماء بغير دخان فأكلتــه حتى لم يبق إلّا رأسه ؛ وآنصرف إبراهيم و إسحاق ورأس الكبش معهما إلى منزل إبراهيم ، وأخبر سارّة بما جرى .

قال : ثم توفّيت سارّة بعد ذلك ، وتزوّج إبراهيم بامرأة من الكنعانيين وأولَدها ستّة أولاد فى ثلاثة أبطن .

و إبراهيم أوّل من صافح وعانق وفرق الشعر بالمُشط ونَتَف الإبط وآستاك وآكتحل وآختَتَن بالقَدوم .



ذكر وفاة إبراهيم — عليه السلام — :

قال : فبينا إبراهيم على باب داره ، و إذا هو بملَك الموت وقد وافاه فى أحسن صورة ، فسلّم عليه ؛ فأجابه وقال : من أنت ؟ قال : أنا ملَك الموت ، أمرنى الله بقبض رُوحك . فكره إبراهيم الموت ؛ ثم تصوّر له فى صورة شيخ كبير ، ودخل على إبراهيم وقال : هل من طعام ؟ فقُدّم إليه طعام على طبق ، فجعلَ ملك الموت يتناول الطعام ، ويخيِّل الى إبراهيم أنه يلوّث وجهه وعنقه ، وأنّه لا يستقرّ فى بطنه . فقال له إبراهيم : أيّها الشيخ ، ما بال هذا الطعام لا يستقرّ فى بطنك؟ قال : يا خليل الله ، إنى قد شِخْت ، ولستُ أتمكّن منه إلّا على هذا الوجه . قال : فكم تعدّ من السنين؟ قال : قد جزت مائتى سنة . قال إبراهيم : وأنا فى المائتين إلّا سنة ، و إذا مضى علىّ مائتين أصير كذا ؟ [قال : نعم] (1) .

فدعا إبراهيم ربّه أن يقبضه . فجاءه ملك الموت ؛ فقال : يا ملك الموت قد آشتقت إليك منذ رأيت ذلك الشيخ على تلك الصورة ، فآقبض روحى . فقبض روحه صلى الله عليه وسلم .

(1) هذه العبارة لم ترد فى الأصول، وقد أثبتناها عن (قصص الأنبياء للكسائى) المنقول عنه هذا الكلام .

الباب الثانى من القسم الثانى من الفن الخامس

فى قصّة لوط — عليه السلام — وقلب المدائن

هو لوط بن هاران بن تارح ، وتارح هو آزر أبو إبراهيم — عليه السلام — وكان لوط قد شخص مع عمّه إبراهيم — عليهما السلام — من المدائن إلى أرض الشأم، مؤمنا به، مهاجرا معه، ومع إبراهيم تارح وسارة بنتُ ماحور؛ فلمّا انتهوا إلى حرّان هلك تارح بها وهو باق على كفره؛ وسار إبراهيم ولوط وسارة إلى الشأم؛ ثم مضوا إلى مصر وبها فرعون من الفراعنة يقال له : سنان بن علوان ابن عبيد بن عوج بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام؛ ورجعوا إلى أرض الشأم فنزل إبراهيم فلسطين، وأنزل لوطا الأُرْدُنّ، فكان هناك إلى أن بعثه الله نبيا .

قال : وأوحى الله — عزّ وجلّ — إلى إبراهيم أن يرسل لوطا نبيّا إلى (سَذُوم)، وكانت خمس مدائن؛ وهى : (صامورا) (وصابورا)(1) (وسَذُوم) (ودُومة)(2) (وعامورا)، وهى المؤتفكات، وكان أعظمها (سَذُوم) وعلى كلّ مدينة سور عظيم مبنىّ بالحجارة والرّصاص، وعليهم ملك يقال له : (سَذُوم) من بيت نمروذ بن كنعان ، وكان أهل هذه المدائن قد خُصّوا بحذف الحصا والحَبِق(3) فى المجالس وعبادةِ الأصنام ، وكانوا حسان الوجوه ، فاصابهم قحط ، فأتاهم إبليس فقال : إنما أصابكم القحط لأنكم منعتم الناس من دُوركم ولم تمنعوهم من بساتينكم . فقالوا:

(١) لم يذكر الآلوسى (صابورا) ولا (صامورا)، وذكر مكانهما «مبعة» «وصعرة» ج ٣ ص ٥٩٤ .

(٢) فى تفسير الآلوسى ج ٣ ص ٥٩٤ طبع بولاق «دومى» مقصورا .

(٣) كذا ورد هذا اللفظ مضبوطا بالعبارة فى تاج العروس مادة «حبق» وهو الضراط .

كيف السبيل إلى المنع؟ قال : اجعلوا السنّة بينكم إذا دخل بلدكم غريب سلبتموه ونكحتموه فى دبره ، فإذا فعلتم ذلك لم تقحطوا .

فخرجوا إلى ظاهر البلد فتصوّر لهم إبليس فى صورة غلام أمرد ، فنكحوه وسلبوه ، فطاب لهم ذلك حتى صار فيهم عادةً مع الغرباء ، وتعدّوا إلى أهل البلد ، وفشا بينهم ؛ فأرسل الله إليهم لوطا ، فبدأ بمدينة (سَذُوم) وبها الملك ، فلما بلغ وسط السوق قال : يا قوم آتقوا الله وأطيعون وآرجعوا عن هذه المعاصى التى لم تُسبقوا إليها ، وآنتهُوا عن عبادة الأصنام ، فإنّى رسول الله إليكم .

فكان جوابهم أن قالوا : ﴿ آئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ ﴾ .

وبلغ الخبر الملك ، فقال : « آئْتُونِي بِهِ » فلمّا وقف بين يديه سأله : من أين أقبل ؟ ومن أرسله ؟ ولماذا جاء ؟ فأخبره أن الله أرسله . فوقع فى قلبه الخوف والرعب ، وقال : إنما أنا رجل من القوم ، فآدعهم فإن أجابوك فأنا منهم . فدعاهم فقالوا : ﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ . فقال لهم : ﴿ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ ٱلْقَالِينَ * رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ .

فلبث فيهم عشرين سنة يدعوهم إلى الله وهم لا يجيبونه .

ثمّ توفيت آمرأته ، فتزوّج بامرأة من قومه كانت قد آمنت به ، فأقام معها أعواما وهو يدعوهم حتى صار له فيهم أربعون سنة وهو يدعوهم بما أخبر الله به ويقول : ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ الآيات ، وهم لا يزدادون إلا كفرا وإصرارا وتماديا على أفعالهم الذميمة ، فضجّت الأرض منهم .

ذكر خبر نزول العذاب على قوم لوط وقلب المدائن (٥١)

قد ذكرنا فى قصّة إبراهيم أن الله — عز وجلّ — أرسل الملائكة إليه وبشّروه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، وأخبروه بما أمرهم الله به من إهلاك قوم لوط، وقال لهم : امضوا حيث تؤمرون .

فاستوَوا على خيولهم، وساروا إلى المدائن وهم على صفة البشَر، فأتوا المدائن وقت المساء، فرأتهم ابنة لوط — وهى الكبرى من بناته وهى تستقى الماء — فتقدّمت إليهم وقالت : ما لكم تدخلون على قوم فاسقين ؟ ليس يضيفكم إلّا ذلك الشيخ . فعدلت الملائكة إلى لوط، فلما رآهم اغتمّ غمّاً شديدا مخافةً عليهم من شرّ قومه، ثم قال لهم : من أين أقبلتم ؟ قالوا : من موضع بعيد، وقد حللنا بساحتك، فهل لك أن تضيفنا الليلة ؟ قال : نعم، ولكن أخاف عليكم من هؤلاء الفاسقين — عليهم لعنة الله — قال جبريل لإسرافيل : هذه واحدة — وكان الله قد أمرهم ألّا يدمّروا على قومه إلّا بعد أربع شهادات من لوط ولعنته عليهم — ثم أقبلوا إليه وقالوا : يا لوط، قد أقبل علينا الليل، فاعمل على حسب ذلك . قال : قد أخبرتُكم بأنّ قومى يأتون الرجال من العالمين — عليهم لعنة الله — فقال جبريل لإسرافيل : هذه ثانية . ثم قال لهم لوط : انزلوا عن دوابّكم واجلسوا ها هنا حتى يشتدّ الظلام، وتدخلون ولا يشعر بكم أحد منهم — عليهم لعنة الله — قال جبريل : هذه ثالثة . ثم مضى لوط والملائكة وراءه، فدخل المنزل، وأغلق الباب، وقال لامرأته : إنك قد عصيتِ الله أربعين سنة وهؤلاء ضِيفانى قد ملأوا قلبى خوفا، فاكتمى علىّ أمرهم حتى يغفر الله لكِ ما مضى . قالت : نعم . ثم خرجت وبيدها سراج كأنها تُشعَل، فطافت على عدّة

من القوم ، فأخبرتهم بجمالهم وحسنهم ، فعلم لوط بذلك ، فأغلق الباب وأوثقه ؛ فأقبل الفُسّاق وقرعوا الباب ، فناداهم لوط : ﴿ هٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ * قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ ثم كسروا الباب ، ودخلوا ، فقالوا له : ﴿ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ .

فوقف لوط على الباب الذى دونه ضيفانه وقال : لا أسلم ضِيفانى إليكم دون أن تذهب نفسى .

فتقدّم بعضهم ولطم وجهه ، وأخذ بلحيته ، ودفعوه عن الباب ، فقال : أوّه ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ ثم قال : إلهى خذ لى بحقّ من هؤلاء الفسقة وٱلعنهم لعنا كبيرا . فقال جبريل عند ذلك : هذه أربعة . وقام جبريل ففتح الباب وقال للوط : ﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ فهجم القوم . ودخلوا و بادروا نحو الملائكة ، فطمس الله أعينهم ، وٱسودّت وجوههم . قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ فجاءت طائفة أخرى ونادوهم : اخرجوا لندخل . فنادوا : يا قوم ، هؤلاء قوم سحرة سحروا أعيننا فأخرجونا . فأخرجوهم ، وقالوا : يا لوط ، حتى نصبح نريك وبناتك . وخرجوا فقال لوط للملائكة : بماذا أرسلتم ؟ فأخبروه ، فقال : متى ؟ قالوا : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ .

ثم قال له جبريل : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ﴾ فجمع لوط أهله و بناته ومواشيه ، وأخرجه جبريل من المدينة ، وقال له : ﴿ إِنَّ دَابِرَ هٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ ومضى لوط

بمن معه ، وجبريل قد بسط جناح الغضب ، و إسرافيل قد جمع أطراف المدن ودرياثيل قد جعل جناحه تحت الأرض ، وملك الموت قد تهيّأ لقبض أرواحهم حتى إذا برز عمود الصبح صاح جبريل صيحة : يا بئس صباحُ قوم كافرين . وقال ميكائيل : يا بئس صباح قوم فاسقين . وقال درياثيل : يا بئس صباح قوم ظالمين . وقال إسرافيل : يا بئس صباح قوم مجرمين . وقال عزرائيل : يا بئس صباح قوم غافلين .

فاقتلع جبريل هذه المدن عن آخرها ، ثم رفعها حتى بلغ بها الى البحر الأخضر وقلبها ، بجعل عاليها سافلها . قال الله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى * فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ﴾ يعنى رمى الملائكة إيّاهم بالحجارة من فوقهم .

قال : وآستيقظ القوم ، و إذا هم بالأرض تهوى بهم ، والنيران من تحتهم والملائكة تقذفهم بالحجارة .

قال : ومن كان من القوم بغير مدائنهم ممّن كان على دينهم وفعلهم أتاه حجر فقتله .

قال : و بقى يخرج من تحت[1] المدائن دخان منتن ، لا يقدر أحد يشمّه لنتنه ، وبقيت آثار المدائن . قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً (٥٣) لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

قال : ومضى لوط إلى إبراهيم — عليهما السلام — فذلك قوله عز وجل : ﴿ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

---

(١) فى إحدى نسخ الكسائى : « تلك » مكان قوله : « تحت » .

الباب الثالث من القسم الثانى من الفن الخامس

فى خبر إسحاق ويعقوب — عليهما السلام —

قال : ولمّا قبض الله تعالى إبراهيم الخليل — عليه السلام — سكن إسماعيل الحرم ، و إسحاق الشام ومدين ، وسكن معه سائر أولاد إبراهيم ، وبعثه الله إلى الأرض المقدّسة نبيّا ورسولا ، فأقام بينهم نحوا من ثمانين سنة ، وكفّ بصره فبينما هو نائم الى جنب آمرأته إذ تحرّكت شهوته ، فقالت : وفيك بقيّة يا إسحاق؟ فواقعها مرّة فحملت بذكرين : وهما يعقوب والعيص — على ماذكرناه فى الأنساب — وهو فى الباب الرابع من القسم الأوّل من الفنّ الثانى ، وهو فى الجزء الثانى من هذا الكتاب ، وذكرنا أيضا أولاد العيص فيه .

قال : ثم قبض الله تعالى نبيّه إسحاق ، فقسم ما كان له من بقر وخيل وغنم وغير ذلك بالسوية ، ومات ؛ فغلب العيصُ على مال يعقوب ، وآغتصبه إياه وقصد قتله ؛ فقالت له أمه : الحق بخالك (لابان) و إخوته بحرّان ، فإنهم مؤمنون من آل إبراهيم .

فتوجّه يعقوب إلى حرّان ، فأكرمه خاله ، وزوّجه آبنته ، وسلّم إليه ما بيده من المال ، وكانت آبنته هذه الكبرى ، وآسمها (ليا)[1] فرزق منها روبيل[2] وشمعون[3] ، ثم ذكرين : لاوى[4] ويهوذا ، وتوفيت ؛ فزوّجه خاله آبنته الثانية وآسمها

---

(١) كذا ضبط هذا الاسم بكسر اللام فى فهرست تاريخ الطبرى المطبوع فى أوربا . والذى فى التوراة ص ٤٩ « ليئة » بفتح اللام وبالهمز فى آخره . (٢) كذا فى تاريخ العينى . والذى فى التوراة «رأوبين» بفتح الراء . (٣) كذا ضبط هذا الاسم فى القاموس بفتح الشين . وضبط فى التوراة بكسرها ، وهو شمعون الصفا . (٤) فى التوراة : « لاوى » بكسر الواو .

سرورية[1] ، فولدت له ولدين : دانا ونفتالى[2] ؛ ثم توفيت ، فزوّجه الثالثة فأولدها ذكرين يساخر[3] و زبولون ، وماتت ؛ فزوّجه ٱبنته الرابعة ، وٱسمها راحيل — وكانت أحسن بناته — وذلك بعد أن ٱستكمل يعقوب من عمره أربعين سنة ، بخاءه الوحى يومئذ وهو بحرّانَ وقد ماتت أمّه .

ذكر مبعث يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام

قال : ولمـا أتاه الوحى أقبـل على خاله لابان ، وشكره على فعله ، وقال : إن ربّى بعثنى رسولا إلى أرض كنعان . فزوّده بخيل وغنم و بقر وغير ذلك ، وقال : امض لمـا أمرك به ربّك . فخرج يعقوب ومعه أولاده العشرة[4] وامرأتُه يريد أرض كنعان ، فبلغ خبر نبوّته أخاه العيص ، فغضب لذلك ، وعارضه فى طريقه بجموعه ؛ فراسله يعقوب مع ابنه روبيـل ، وذكّره الأخوّة والرحم ، فزبر[5] روبيـل وردّه ؛ ثم التقيا ، فظفّـر الله يعقوب بالعيص بقوّة النبوّة ، فاحتمله وألقـاه على الأرض وجلس على صدره ، وقال له : كيف رأيت صنع الله بك يا عِيص ؟ ثم رقّ له وقام عن صدره وٱعتنقه ، فٱعترف العيص بفضله عليه ، وسأله أن يعفوَ عمّا سلف منه فى حقّه ؛ فاستغفر له يعقوب ودعا له ، وٱنصرف العيص إلى بلده ، وأقبل يعقوب

---

(١) فى تاريخ العينى وتفسير الآلوسى والنيسابورى وغيرها من الكتب أن دانا ونفتالى واثنين آخرين لم يذكرهما المؤلف هنا ، وهما جاد وآشر ، من سريتين ليعقوب ، إحداهما زلفة ، والثانية بلهة . وهذا هو ما يستفاد من التوراة أيضا . (٢) فى تاريخ العينى وتفسير الآلوسى « يفتالى » بالياء مكان النون والذى فى الأصل هو ما فى التوراة . (٣) كذا فى الأصول وتاريخ العينى . والذى فى التوراة « يساكر » بفتح الياء وتشديد السين وكاف بعد الألف . (٤) يلاحظ أن المؤلف لم يذكر فيما سبق من أولاد يعقوب غير ثمانية ، ولم يذكر ولديه من راحيل وهما يوسف و بنيامين فقوله هنا : « العشرة » غير ظاهر ويؤخذ مما يأتى فى صفحة ١٣٠ سطر ١٧ أنه لم يرزق بولديه من راحيل إلا بعد خروجه إلى أرض كنعان وغزوته لملكها . (٥) زبره ، أى انتهره

إلى أرض كنعان ، فبنيت له دار متّسعة ، سكنها بأهـله وأولاده ، وكان بأرض كنعان ملك يقـال له : سحيم ، فدعاه يعقوب إلى الإيمـان بالله ، فلم يكترث به قال : فإنّى مجاهـدك . قال : بمن تجاهـدنى وليس معك أحد ؟ قال : أجاهدك بالله وملائكته وهؤلاء أولادى .

وأقبـل يعقوب بأولاده والملك فى حصنه ، فقال : يابَنِىّ ، جاهـدوا فى الله حقّ جهاده . فقال ابنـه شمعون : أنا أكفيك هذا الحصن . وأقبل وضرب باب الحصن برجله فتساقطت حيطانه ، وصاح صيحة عظيمة فمات الملك وأكثر من بالحصن . ودخل يعقوب الحصن ، وغنم ما كان فيه ؛ فكانت هـذه معجزة ليعقوب ، وبلغ ذلك أهـلَ كنعان ، فوقع الرعب فى قلوبهم ، فآمنوا بيعقوب — عليه السلام — .

البـاب الرابع من القسم الثانى من الفن الخامس

فى قصة يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام

وهـذه القصة تدخل فيهـا بقيّة أخبار يعقوب وما كان من أمره ووفاته وخبر الأسباط أولاده .

ذكـر خبر ميلاد يوسف — عليه السلام —

قال : ولمّـا رجع يعقوب من غزاته دخل على امرأته راحيل فواقعها فحملت بيوسف وبنيامين أخيـه ، فوضعتهما ، فجـاء يوسف كالقمر ، فربّته أمه حتى صار عمره سنتين ، وماتت أمه ؛ فلمّـا بلغ عمره عشر سنين أمر يعقوب بجَذَعة من غنمه ، فذبحت ، وصنعت طعاما ، وجمـعَ أولاده على الطعام يأكلون ، فأقبـل

مسكين وسأل وأكثر السؤال ، وآشتغل يعقوب عنه ولم يأمرهم بإطعامه ، حتى آنصرف السائل .

فلما فرغ يعقوب من أكله قال : أعطيتم السائل شيئا؟ فقالوا : إنك لم تأمرنا بشيء . فجاءه الوحي : يا يعقوب ، قد جاءك مؤمن فقير مريض شمّ رائحة طعامك فلم تطعمه ، وأحرقت قلبه ، فلأحرقنّ قلبك . فآغتم يعقوب .

ذكر رؤيا يوسف — عليه السلام — وكيد إخوته له

قال : ولما بلغ آثنتى عشرة سنةً رأى رؤياه وقصّها على أبيه . قال الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ * قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ إلى قوله : ﴿ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

قال : فسمع إخوتُه الرؤيا ، فداخلهم الحسد، وقالوا ما أخبر الله به عنهم : ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ .

قال : فآتفقوا وجاءوا إلى أبيهم، فقالوا : ﴿ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ * أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ . فقال لهم يعقوب : ﴿ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ * قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴾ .

قال : وأحب يوسف ذلك، فدعا يعقوب بسلّة فيها طعام وكوز ماء، وقال : إذا جاع فأطعموه من هذا الطعام، وإذا عطش فاسقوه؛ وأخذ عليهم العهود بردّه وشيّعهم بنفسه، وجلس على تلّ عال ينظر إليهم حتى غابوا عنه؛ فندم على إرساله ثم رجع إلى منزله ، وجعل إخوة يوسف يُمعنون فى السير، وهو يمشى وراءهم ولا يلحقهم، ويناديهم : « قفوا لى » . فلم يقفوا . ويقول : « اسقونى » . فلم يسقوه؛ وكسر شِمعون الكوز وقال : قل لأحلامك الكاذبة حتى تسقيك . ورمى (لاوى) سلّة الطعام فى الوادى ؛ فعلم يوسف أنهم قد عزموا على أمر، فناداهم وناشدهم الله والرحم، وذكّرهم بعهود أبيه، فلطمه أحدهم فأكبّه؛ وساروا ويوسف يعدو وراءهم حتى بلغوا موضع أغنامهم، فأرادوا قتله؛ فقال لهم يهوذا : إن قتلتموه حلّ بكم ما حلّ بقابيل حين قتل أخاه . فأجمعوا أن يجعلوه فى غيابت الجب وطلبوا له جبّا عميقا فوجدوه، فجرّوه إليه وهو يبكى، فقال لهم يهوذا : يا بنى يعقوب لقد ذهبت الرحمة من قلوبكم . قالوا : فنردّه إلى أبيه فيحدّثه بما فعلناه به ؟ قال : فإن طرحتموه فى الجبّ لا يبلغ قعره حتى يموت ، ولكن دلّوه بحبل . ولم يكن معهم حبل ، فذبحوا شاة ، وقدّوا جلدها كالحبل، ودلّوه به؛ فلما نزل إلى الجبّ امتلأ نورا ، وأتاه جبريل وقال له : لا تخف فإنّ الله معك . وكان فى الجبّ حجر عظيم ، فسطّحه جبريل بجناحه فصار كالطبق وأجلسه فيه ، وأتاه بطعام من الجنّة فأكل ، وأتاه بقميص فلبسه ، وبفراش من الجنة ، وآنسته الملائكة فى الجبّ .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ . ٢

قال : ثم قالوا : ماذا نقول لأبينا ؟ قال بعضهم : إنّه كان يخاف عليـه من الذئب ، فنقول : إن الذئب أكله . فعمدوا إلى جدى فذبحوه على قميصه . وألصقوا بالدم شيئا من شعر الجدى ، ورجعوا إلى أبيهم .

ذكر رجوع إخوة يوسف إلى يعقوب

قال : ولمّـا قرُبوا من عريش يعقوب أخذوا فى البكاء والعويل ، فرأتهم آبنة يعقوب ، فنزلت إلى أبيها باكية ، وقالت : رأيت إخوتى متفرّقين يبكون ، ويرويل يقول : « يا يوسف يا يوسف » . فصاح يعقوب ، وخرّ على وجهه ؛ فدخلوا عليه وقالوا : يا أبانا ، حلت المصيبة وعظمت الرزيّة ﴿ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ (٥٤) عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَـا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ قال الله تعـالى : ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ وأخذ يعقوب القميص ، ونظر إليه فلم ير فيه أثر خدش فقال : يا بَنِىّ ، ما للذئب وأكل أولاد الأنبيـاء ؟ وأخذ يبكى ؛ ثم قال : أُخرجوا فى طلب هـذا الذئب ، وإلّا دعوت عليكم فتهلكوا . فخرجوا فأخذوا ذئبـا عظيما وجعلوا يضربونه ويجرّونه ، حتى جاءوا به إلى أبيهم ، فقال : كيف عرفتموه ؟ قالوا : لأنه ذئب كبير ، وكان يتعرض لنا فى غنمنا

ذكر كلام الذئب بين يدى يعقوب

فقال يعقوب : سبحان من لو شاء لأنطقك بحجّتك . فنطق الذئب وقال . لا إله إلّا الله وحده لا شريك له ، يا نبىّ الله ، إنى ذئب غريب ، فقدت ولدا لى فجئت فى طلبـه حتى بلغت بلدك ، فأخذنى هؤلاء وضربونى وكذبوا علىّ ؛ والذى أنطقنى ما أكلت ولدك ، وكيف يأكل الذئبُ أولادَ الأنبياء ؟ فأطلقه يعقوب .

ذكر خبر خروج يوسف من الجب وبيعه من مالك بن دعر

قال : وأقبل قوم من بلاد اليمن يريدون أرض مصر، فخرج بعضهم فى طلب الماء، فرأى نورا يسطع من البئر، فأدلى دلوه، فتعلق به يوسف، فآجتذبه، فنظر اليه فرآه، فقال للذى كان معه : ﴿ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ ﴾ . فأخرجوه .

قيل : وذلك فى اليوم الرابع من إلقائه فى الجبّ، وكان إخوته على رأس جبل فنظروا إلى آجتماع القافلة على الجبّ ، فعدوا إليهم ، وقالوا : هذا عبد لنا أَبَق منذ أيام، ونحن فى طلبه، فإن أردتم بعناه منكم .

ثم قالوا ليوسف بالعبرانية : إن أنكرت العبوديّة آنتزعناك من أيديهم وقتلناك. فسأله أهل القافلة فقال : « إنى عبد »، أراد لله .

وكان رئيس القافلة مالك بن دُعْر، فاشتراه منهم بأقل من عشرين درهما .

قيل : تنقص درهما . وقيل : تزيد درهمين . وقيل : اشتراه بأربعين درهما والله أعلم . فاقتسموها بينهم .

قال الله تعالى : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ ثم قالوا لمالك : هذا عبد آبِق سارق ، قيّده حتى لا يَهْرُب منك ولا يسرق . فقيده وأركبه ناقة ، وكتب يهوذا كتاب البيع، وساروا حتى بلغت القافلة قبر أم يوسف، فلم يتمالك أن رمى بنفسه على القبر وبكى؛ فافتقدوه فلم يروه، فبعثوا فى طلبه ، فوجدوه وقد آتكأ على القبر ؛ فلطمه واحدمنهم ، وقالوا : هلّا كان هذا البكاء قبل اليوم حتى كنا لا نشتريك ؟ وساروا به حتى دخلوا مصر ، فغيّر مالك لباس يوسف، وعبّر به، فاجتمع الناس على القافلة، ورأوا يوسف فعجبوا لحسنه وجماله .

ذكر خبر بيع يوسف من عزيز مصر

قال : وواعدوا مالكا على بيعه بباب الملك ريّان بن الوليد ، فزيّن يوسف بأحسن زينة، وأقعده على كرسىّ، وأقبل عزيز مصر وآسمه قِطْفِير[1]، وآجتمع التجار وقام الدلّال ونادى عليه؛ فبكى يوسف، وتزايد القوم حتى بلغ يوسف مالا لا يحصى كثرة؛ وآستقرّ بيعه من قِطْفِير[1]، وأحضر الأموال .

وقد آختلف الرواة فى كمّية الثمن، فمنهم من لم يَحُدّه، بل قال : مالا كثيرا .

ومنهم من قال : إنّ عزيز مصر تلقّى القافلة ، وآشتراه من مالك بن دُعْر بعشرين دينارا، ونعلين، وثوبين أبيضين . وقد عُزِى هذا القول إلى آبن عبّاس — رضى الله عنهما — .

ورُوى عن وهب بن منبّه أنه أقيم فى السوق، وتزايد الناس فى ثمنه، فبلغ ثمنُه وزنَه مسكا ووَرِقا وحريرا؛ فآبتاعه العزيز بهذا الثمن .

نرجع إلى سياق الكسائىّ :

قال : فوقف عليه رجل من بلاد كنعان على ناقة ، فمدّت عنقها ، وجعلت تَشَمّ يوسف ، فسأل يوسف صاحب الناقة بالعبرانيّة : من هو ؟ فأخبره أنه من أرض كنعان؛ فقال له : آقرئْ يعقوب سلامى اذا رجعت، ووصف له صفتى . فلمّا عاد الكنعانىّ أخبر يعقوب بذلك ؛ فقال يعقوب : سلنى حاجةً بهذه البشارة . قال : أُدع لى أن الله يُكثِر ولدى ومالى . فقال : اللهمّ أكثر ولده وماله وأدخله الجنة .

(١) كذا وجدنا هذا الاسم مضبوطا بالعبارة فى هامش تاريخ العينىّ ورقة ٩٧ من الجزء الثانى قسم ١ من النسخة المأخوذة بالتصوير الشمسى المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٨٤ تاريخ .

قال : ثم دنا مالك من يوسف(١) فقال له : أنا يوسف بن يعقوب بن إبراهيم الخليل ؛ وأخبره بخبر إخوته . فصلح مالك وقال : والله ما علمت فاستغفر لى فإنى من أولاد مدين بن إبراهيم . فبكى يوسف، وقال له مالك : أسألك أن تدعو الله يرزقنى ولدا . فدعا الله فرزقه أربعة وعشرين ولدا، وعاش مالك حتى رأى يوسف وهو عزيز مصر . ٢٥

قال . ودخل قطفير منزله و يوسف معه، فرأته زَلِيخا — وكانت أحسن نساء زمانها — فقال لها زوجها قطفير : قد اشتريت هذا الغلام لنتّخذه ولدا فإنا لم نرزق ولدا . قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ .

ذكر خبر يوسف وزليخا

قال : ولمّا رأته زليخا عجبت لحسنه، ولاطفته، وقالت : لا ينبغى لمثلك أن يباع عبدا . و يوسف ساكت ؛ وكان لا يأكل من ذبائحهم . فقالت له : لم لا تأكل من ذبيحتنا وتقبل كرامتنا ولى هذا البستان أريد أن تحفظه . فقال يوسف : أفعل ذلك . فكان يوسف يتعاهده حتى عمر ببركته، وهو يأكل من نباته ، فوقعت محبّته فى قلب زليخا، فكتمت ذلك حتى كاد يظهر عليها ، فأتتها دايتها، وقالت : يا سيدة نساء مصر، اخبرينى بقصّتك . فذكرت ما بها من حبّ يوسف؛ فأمرتها أن تتزيّن بأحسن زينتها؛ ففعلت، وجلست على سرير وأحضرت يوسف، فوقف بين يديها وهو لا يعلم ما يراد منه ؛ وأغلقت الداية أبواب المجلس من خارج؛ فعلم عند ذلك مراد زليخا — وكان عمره ثمان عشرة سنة — ؛ قال

(١) لعل صواب العبارة « ثم دنا يوسف من مالك » عكس ما هنا ، كما يدل عليه سياق ما يأتى .

الله تعـالى : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّالِمُونَ ﴾ .

قال : فرمت بتاجها وهمت به . قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ .

قالوا : همّ بضربها . وقيل : بردعها . وقيل : لمـا حصل عنده من الهمّ . ولا تعويل على ما نقله أهل التاريخ : أنه همّ بها كما همّت به .

قالوا : وكان البرهان الذى رآه أنه سمع صوتا من ورائه ، فٱلتفت ، فرأى صورة يعقوب وهو عاضّ على يديه يقول : « الله الله يا يوسف » .

وقيل : خرجت كفّ من الحائط مكتوب عليها : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ ؛ ثم ٱنصرفت الكفّ وعادت زليخا لمراودته ، فخرجت الكف ثانية مكتوب عليها : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ ثم عادت فخرجت الكف ثالثة وعليها مكتوب : ﴿ وَٱتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ .

قال : فلمّـا نظر يوسف إلى البرهان ، بادر إلى الباب ؛ فعـدت زليخا خلفه فلحقته عند الباب ، فجذبت قميصه فقدّته من دُبُر ؛ وإذا قطفير قد أقبل . قال الله تعالى : ﴿ وَٱسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى ٱلْبَابِ ﴾ .

قال : فلمّـا نظرت زليخا إليـه لطمت وجهها ، وقالت : أيّها العزيز ، هذا يوسف الّذى ٱتخذناه ولدا دخل يراودنى عن نفسى .

ثم قالت : ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ﴾ فهمّ قطفير أن يضرب يوسف بسيف ، فأنجاه الله منه ؛

وكان فى المجلس صغير آبن شهرين — وهو آبن داية زليخا — فتكلّم بإذن الله وقال : لا تعجل يا قطفير ، أنا سمعت تخريق الثوب . قال الله تعالى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ثم لم ينطق الصبيّ بعد ذلك حتى بلغ حدّ النطق ، وهذا الصبيّ أحد من تكلّم فى المهد . ﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ ؛ وأقبل على يوسف وقال : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذَا ﴾ الحديث لا يسمعه أحد . وقال لزليخا : ﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ .

وخرج قطفير من منزله ، وعادت زليخا لمراودته ؛ فامتنع عليها .

ذكر خبر النسوة اللاتى قطّعن أيديهنّ

قال : وفشا فى المدينة ، وشاع عند نساء الأكابر خبرها ، فعتبنها عليه ، وهو
(٥٦) قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ فلمّا بلغها ذلك من قولهنّ ﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً ﴾ .

قال : استدعت آمرأة الكاتب والوزير وصاحب الخراج وصاحب الديوان .
وقيل : إنّ النساء آللاتى تكلّمن فى أمر زليخا آمرأة الساقى وآمرأة الخباز وآمراة صاحب الديوان وآمرأة صاحب السجن وآمرأة الحاجب ؛ والله أعلم .

قيل : إنها قدمت إليهنّ صوانىّ الأترج وصحاف العسل : ﴿ وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾ وزيّنت يوسف ، وقالت : إنّك عصيتنى فيما مضى ، فإذا دعوتك الآن فآخرج . فأجابها إلى ذلك ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ

إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾.

قال: كنّ يأكلن الأُتْرُجّ بالسكاكين فنالهنّ من الدهش والحيرة ما(1) قطّعن أيديهنّ وتلوّثت بالدماء ولم يشعرن؛ فقالت لهنّ زليخا ما حكاه الله عنها : ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾.

وقيل : إنّ النساء خلون به ليعذّلنه(2) لها، فراودته كلّ واحدة منهنّ عن نفسه لنفسها، ثم انصرفن إلى منازلهنّ.

ثم دعته زليخا و راودته، وتوعّدته بالسجن إن لم يفعل؛ فقال يوسف ما أخبر الله به عنه : ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾.

قال : فلمّا أيست زليخا منه مضت إلى الملك ريّان بن الوليد — وكانت لا تُرَدّ عنه — فقالت : إنّي اشتريت عبدا، وقد استعصى عليّ، ولا ينفع فيه الضرب والتوبيخ، وأريد أن أحبسه مع العصاة . فأمر الملك بحبسه، وأن يفرج عنه متى اختارت ؛ فأمرت السجّان أن يضيّق عليه في محبسه ومأكله ومشربه ؛ ففعل ذلك؛ فأنكره العزيز، وأمر أن يُنقل إلى أجود أماكن السجن، و يُفكّ قيده، وقال له : لولا أن زليخا تستوحش من إخراجك لأخرجتك ، ولكن اصبر حتى ترضى عنك و يطيب قلبها .

(١) يلاحظ أن المؤلف في هذه العبارة قد حذف عائد « ما » وهو قوله «بسببه» أو «به» مثلا. ويستفاد من كتب القواعد أن حذف العائد المجرور بالحرف جائز إذا تعين الجار كما هنا ، ومنه قول الشاعر:
* وأى الدهر ذو لم يحسدوني * أى فيه انظر حاشية الصبان ج ١ ص ١٦٨ طبع بولاق .

(٢) يقال : «عذله» بتشديد اللام وتخفيفها ، أى أقامه وسوّاه .

ذكر إلهام يوسف — عليه السلام — التعبير

ونزل جبريل على يوسف — عليه السلام — وبشّره أنّ الله قد ألهمه تعبير الرؤيا فعرفه بإذن الله عزّ وجلّ، وأنبت الله له شجرة فى محبسه يخرج منها ما يشتهيه .

ذكر خبر الخبّاز والساقى

قال : وغضب الملك ريّان[1] بن الوليد على ساقيه شرهيا، وصاحب مطبخه شرهاً[2]، فأمر بحبسهما، فحبسا فى السجن الذى فيه يوسف، فرأى الساقى رؤيا فسأل أهل السجن عن تأويلها، فدلّوه على يوسف؛ فأتاه وقال : قد رأيت رؤيا . فقال له يوسف : قصّها . فقال : رأيت كأنّى فى بستان فيه كَرمة حسنة؛ وفيها عناقيد سود؛ فقطعت منها ثلاث عناقيد وعصرتها فى كأس الملك، ورأيت الملك على سريره فى بستانه، فناولته الكأس فشربه، وآنتبهت .

فقال صاحب المطبخ: وأنا رأيت مثل هذه الرؤيا، رأيت كأنى أخبز فى ثلاثة تنانير : أحمر وأسود وأصفر، ورأيت كأنّى أحمل ذلك الخبز فى ثلاث سلال إلى دار الملك، وإذا بطائر على رأسى يقول لى : قف فإنّى طائر من طيور السماء ثم سقط على رأسى فجعل يأكل من ذلك الخبز، والناس ينظرون إليه وإلىّ، وانتبهت فزعا .

فقال يوسف : بئسما رأيت . ثم قال للساقى : إنّك تقيم فى السجن ثلاثة أيّام ويخرجك الملك فيسلّم إليك خزانته، وتكون ساقيه وصاحب خزانته . وأنت يا خباز بعد ثلاثة أيام تُضرب رقبتك وتُصلب وتأكل الطير من رأسك . فقال الخباز : إنى لم أر شيئا، وإنّما وَضعتُ رؤياى هذه . فقال : ﴿قُضِىَ الْأَمْرُ الَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.

(١) كذا ورد هذان الاسمان اللذان تحت هذا الرقم فى الأصول . ولم نجد فيما راجعناه من الكتب ما نطمئن اليه فى تصحيحهما ؛ بل الكتب فيهما وفى أمثالهما من هذه الأسماء القديمة مختلفة كل الاختلاف .

ثم قال يوسف للساقى : ﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ وأَعلِمه أنِّى محبوس ظلما . فقال له : ما أُبقِى جهدا .

فلمّـا كان بعد ثلاثة أيّام كان من أمر السّاقى والخباز ما قاله لهما يوسف .

ثم هبط جبريل على يوسف وقال : إن الله يقول لك : نسيتَ نعمائى عليك فقلتَ للساقى يذكرك عند ربه ، وهما كافران ، فأنزلت حاجتك بمن كفر بنعمتى (٥٧) وعبد الأصنام دونى .

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ ﴾ .

قيل : الذى أنساه الشيطان ذكر ربه هو الساقى ، ﴿ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ وهو يبكى ويستغفر ويتضرع إلى الله ؛ فأوحى الله إليه : أنى قد غفرت لك ذنبك ، وأنه سيخرجك من السجن ، ويجمع بينك وبين أبيك وإخوتك وتصدق رؤياك . فخرّ ساجدا لله تعالى .

ذكر رؤيا الملك وتعبيرها وما كان من أمر يوسف وولايته

قال : وقدّر الله عزّ وجلّ أن الملك — وهو الريّان بن الوليد بن ثروان بن أواشة بن قاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن نوح عليه السلام — رأى فى تلك الليلة رؤيا هالته ؛ فدعا بالمعبّرين ، فقالوا : إن هذه ﴿ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴾ . فغضب الملك وقطع أرزاقهم ؛ وذكّر الله الساقى ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴾ فتقدّم إلى الملك وذكر له خبر يوسف — وكان بين المدّتين (١) سبعُ سنين وسبعة

(١) عبارة الكسائى : «بين هذا الحديث وبين هذه الرؤيا» وهى أشهر .

أشهر — فأرسله الملك إليــه وقال : أخبره برؤياى وأتنى بتأويلها . فأقبل الساقى إلى السجن وآجتمع بيوسف ، وآعتــذر له ، وأخبره برؤيا الملك ، وقال : هــل عندك تعبــير ذلك؟ قال : لا أفعــل حتى ترجع إلى الملك وتسأله ﴿ مَا بَالُ النِّسْوَةِ ٱللَّاتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ ؛ فرجع الساقى إلى الملك وأخبره ، فآستدعى النسوة ، فأتى بمن كان يعيش منهن ، فقال الملك : ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ . فلما قلن ذلك قال الملك : ﴿ ٱئْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾ ؛ فلمّــا دخل عليه أجلســه معه على السرير ، وسأله عن آسمه ونسبه ، فآنتسب له ، وذكر قصّته مع إخوته ؛ فقال له الملك : قد سمعتَ ما رأيتُ فى منامى . ثم قصّها عليه ، فقال : رأيت سبع بقرات سمان فى نهاية الحسن ، ولكل بقرة قرون كبيرة ، فحملتنى واحدة على قرنيها ، فجعلت أصير من بقرة إلى بقرة حتّى طفت على الجميــع ؛ فبينما أنا كذلك وإذا بسبع بقرات عِجاف مهازيل ، فعمدتْ فأكلتْ كلُّ واحدة من المهازيل واحدة من السمان ، وبقيت الّتى أنا على قرنيهــا فلمّــا تقدّمت المهزولة لأكلها ، رمتنى عن قرنيهــا ، فأكلتْها المهــزولة ؛ ثم صار للمهازيل أجنحة ، فطارت ثلاثٌ نحو المشرق وثلاث نحو المغرب ، وبقيت هناك واحدة ؛ فبينما أنا كذلك وإذا أنا بسبع سنبلات فى نهاية الخضرة خرجن من ذلك الوادى ، ثم لاحت فيهن سبع سنبلات يابسات ، فآلتففن على الخضر حتى غلبن على خضرتهن ، وإذا بملك قد أقبــل وقال : يا ريّان ، خذ هــذا الرجل فأقعده على سريرك ، فإنّه لا يصلح ما رأيت إلّا على يديه ؛ فهذا ما رأيت .

فقال يوسف : أما الســبع بقرات السمان فهى ســبع سنينَ يكونُ فيها زرع وخصب ﴿ فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِى سُنْبُلِهِ ﴾ فإنّه أبقى له .

وأما البقرات العجاف، فإنّها سبعُ سنين فيها قحط وضيق، فتأكل ما حصدتم في سنين الخصب ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ في بيوتكم .

وأما السنابل الخضر، فهي سِنو الخصب، واليابسة سِنو الجوع، والرجل الذى قال لك، أقعده على سريرك، فيكون صلاح ذلك على يديه فأنا هو ؛ وقد أمرك ربى بهذا ؛ فهذا تأويل رؤياك .

قال : فقال له ريّان : أشر علىّ الآن بمن أقدمه فى هذا الأمر . فقال يوسف : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ .

قال : كيف يتهيّأ لك وأنت رجل عبرانىّ لا تعرف لغة أهل مصر ؟ فقال : إنّ الله ألهمنى جميع هذه الألسنة يوم دخلت مصر . فنزع الملك خاتمه، وجعله فى اصبع يوسف، وقال لأصحابه : هذا عزيز مصر وخليفتى، فآسمعوا له وأطيعوا .

قال الثعلبىّ : قال أهل الكتاب : لما تمت ليوسف فى الأرض ثلاثون سنة آستوزره فرعون مصر . وكان مرادهم — والله أعلم — أنه لما آستكمل ثلاثين سنة من عمره .

وحكى الثعلبىّ أن الملك عزل العزيز وولّى يوسف، ثم هلك العزيز عن قريب وكان يوسف يوم قضائه تُضرب له قبّة من الديباج يجلس فيها للحكومة بين الناس وبقيّة الأيام يدور فى عمله و يأمر بالزراعة والحرث وعمر البيوت لخزن الحبوب (٥٨) بسنابلها، حتى ملأها، وخزن الأتبان حتى آنقضت سِنو الخصب ودخلت سِنو القحط، فنهى عن الزراعة فيها لعلمه أن الأرض لا تثمر فيها شيئا ؛ فأكلوا ما عندهم حتى نفد ؛ فالتجأوا إلى الملك، فقال الملك : عليكم بالعزيز فإن فى يده خزائن الطعام. فجاءوه، فباعهم فى السنة الأولى بالدنانير والدراهم، وفى السنة الثانية بالحلىّ

والجواهر ، وفى الثالثة بالأراضى والعقار ، وفى الرابعة بالإماء والعبيد ، وفى الخامسة بأولادهم ، وفى السنة السادسة بأنفسهم ، حتى صاروا ملكا له وعبيدا ، وأطعمهم فى السنة السابعة لأنهم صاروا عبيده و إماءه ؛ والله أعلم .

ذكر حاجة زليخا إلى الطعام وزواج يوسف بها

يقال : إن زليخا أصابها من الحاجة ما أصاب غيرها ، وٱبتاعت الطعام بجميع مالها ، و بقيت منفردة ، فلم تجد بدًا من التعرض ليوسف ، فقعدت على طريقه و إذا هو قد أقبل فى مواكب عظيمة ، فقامت وقالت : يايوسف ، سبحان من أعز العبيد بالطاعة ، وأذل السادات بالمعصية ، أنا أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك من أولاد النبيين .

فسألها يوسف . من أنت ؟ فقالت : زليخا ؛ و بكت وذكرت حاجتها إلى الطعام ؛ فصرفها إلى منزلها ، وردّ عليها أملاكها وأموالها ، و بعث لها بمال جزيل وطعام كثير ؛ ثم ٱستأذن الله تعالى فى زواجها ؛ فأذن له ؛ فتزوجها ، وردّ الله عليها حسنها وجمالها ؛ فلما دخل عليها وجدها بكرا ؛ فعجب من ذلك ؛ فقالت : يانبيّ الله « والذى هدانى إلى دينك ما مسّنى ذكر قطّ ، وما قدر علىّ العزيز » .

فيقال : إنه رزق منها عشرة أولاد فى خمسة أبطن .

وقد حكى الثعلبىّ أنّ العزيز قطفير لمّا هلك بعد عزله زوّج المَلِكُ يوسفَ بامرأته زليخا ، وسماها الثعلبىّ فى كتابه : « راعيل » .

قال : وٱنتشر القحط حتى بلغ أرض كنعان ؛ فقال يعقوب لبنيه : يابنىّ ، إنكم ترون مانحن فيه من الضرّ ، وقد بلغنى أنّ عزيز مصر تقصده الناس فيمتارون منه

ويحسن إليهم، وأنه مؤمن بإله إبراهيم، فاحملوا ماعندكم من البضاعة وتوجهوا إليه. ففعلوا ذلك وساروا.

قال: وأقبل مالك بن دُعْر على يوسف ومعه أولاده، وهم أربعة وعشرون ولدا، كلّهم ذكور، فوقف بين يديه وحيّاه بتحيّة المُلك، وقال: أيّها العزيز أتعرفنى؟ قال: إنّى أشبّهك برجل حملنى إلى ها هنا. قال: أنا هو.

فقرّبه وسأله عن الفتية، فقال: هم أولادى رُزقتهم ببركة دعائك. فكساه وكساهم، وكفاهم من الطعام، وسأله: هل مرّ بأرض كنعان؟ قال: نعم وإنّهم لفى جهد، وقد رأيت الذين باعوك منّى مقبلين عليك يريدون أن يمتاروا. ففرح يوسف.

ذكر دخول إخوة يوسف — عليه السلام — فى المرّة الأولى

قال: وأقبل إخوة يوسف فدخلوا مصر ليلا، وأناخوا رواحلهم بباب قصر أخيهم، فأشرف عليهم وقال: من أنتم؟ قالوا: نحن أولاد يعقوب النبىّ، قدمنا من أرض كنعان لنشترى القوت. فسكت، وأمر بتزيين قصره، وبات إخوته على الباب.

وأصبح يوسف فجلس على السرير، وتتوّج وتمنطق وتطوّق، ثم امر بإخوته، فدخلوا عليه — وهم عشرة، وتأخر عنهم بنيامين عند أبيه —.

قال الله تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾.

فسلّموا عليه، وحيّوه بتحيّة الملوك، فردّ عليهم وقال لهم: إنكم أولاد يعقوب النبىّ، فكيف لى بصدقكم؟ فقال له روبيل: نحن نأتيك بأخينا الّذى عند أبينا يخبرك بمثل ما أخبرناك به.

فأمر بأخذ بضاعتهم، وأن يكال لهم الطعام بقدر كفايتهم.

ثم قال لأعـوانه : ٱجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ . قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُـونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ * فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْـدِي وَلَا تَقْرَبُونِ * قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ * وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ ٱجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

فوضعت فى رحل يهوذا ؛ ثم سار القوم حتى أتوا إلى أرض كنعان ، فدخلوا على أبيهم ؛ فسألهم عن حالهم وما كان من أمرهم ؛ وفتحوا رحالهم ، فوجدوا بضاعتهم ردّت إليهم ؛ فدخلوا على أبيهم وقالوا : يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَـا .

فقال : إنّ هذا الطعام حرام عليكم إلّا أن تؤدّوا ثمنه .

(٥٩) فقالوا : كيف نرجع إليه وقد ضمنّا له أن نأتيه بأخينا بنيامين ؟

ثم قالوا ما أخبر الله تعالى به عنهم : ﴿ يَا أَبَانَا مُنِـعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

فقـال له يهوذا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ * قَالَ لَنْ أُرْسِـلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ ٱللهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ .

ودعا يعقوب بقميص يوسف الّذى وردوا به عليـه بالدم ، فألبسـه بنيامين وودّعهـم وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَٱدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ ٱللهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ؛ ثم ساروا .

ذكر خبر دخولهم عليه فى المرّة الثانية

قال : فلمّا بلغوا مصر ودخلوا على يوسف قرّبهم ، ونظر إلى أخيه بنيامين وأدناه وأجلسه بين يديه .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ .

ثم قال له : أرى كلّ واحد من هؤلاء مع أخيه، فما بالك منفردا ؟ فقال : أيّها العزيز، كان لى أخ ، ولا أدرى ما أصابه ، غير أنّه خرج مع هؤلاء الإخوة إلى الغنم ، فذكروا أنّ الذئب أكله، وردّوا قميصه هذا الّذى علىّ وهو ملطّخ بالدم .

فقال لهم يوسف : يا أولاد يعقوب ، إنّ فيكم من يصيح بالأسد فيخرّ ميتا ومن يأخذ برجل الذئب فيشقّه آثنين، وفيكم من يقتلع الشجرة من أصلها ، وفيكم من يعدو مع الفرس فيسبقه .

قالوا : نعم أيها العزيز . فقال : سوءة لكم ولقوّتكم إذ يعدو الذئب على أخيكم فيأكله . فقالوا : إذا جاء القضاء ذهبت القوى .

فسكت يوسف ، ثم أمر لهم بخمس موائد، وأمر كلّ آثنين منهم أن يجلسا على مائدة، ثم وضعت أخرى بين يدى بنيامين، فبكى؛ فقال له : ما يبكيك؟ قال : أيّها العزيز، إخوتى يا كلون كلّ واحد مع أخيه ، وأنا وحدى ، ولو كان أخى يوسف باقيا أكل معى .

فقال يوسف : يا فتى، أنا لك كالأخ . ثم نزل عن السرير وأكل معه .

فلماّ فرغوا من الأكل جعل يوسف يسألهم عن أرض كنعان وهم يخبرونه .

ثم خرج صبىّ من القصر يتثنّى، فنظر إليه بنيامين وبكى؛ فقال له يوسف : ممّ بكيت؟ قال : هذا الصبىّ يشبه أخى يوسف، فبكيتُ لأجله .

فقال يوسف : هل فيكم مَن حزِن على يوسف ؟ قالوا : نعم، كلّنا حزنًا عليه وبنيامين أشدّ منّا حزنا .

ثم قال : فما الّذى حملتم من البضاعة؟ قالوا : لم نحمل شيئا ، لأنه لم يكن لنا شىء، غير أنا رددنا عليك البضاعة التى وجدناها فى رحالنا، لأنها ثمن الطعام الّذى حملناه من عندك .

فأمر أن يُعطَوا من الطعام ما تحمله إبلهم، وأمر غلمانه أن يجعلوا الصُّواع فى رحل بنيامين؛ فكانوا يكيلون وإخوة يوسف يَخيطون الأعدال، حتى فرغوا .

ورحل إخوة يوسف وهم لا يشعرون بالصُّواع .

وقال الثعلبىّ : كانت السقاية مِشربةً يَشرب فيها الملك ، وكانت كأسا من ذهب مكلَّلةً بالجوهر، جعلها يوسف مكيالا يكال بها .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ * قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ * قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ * قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ * قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ * قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ ﴾ .

فعند ذلك أمر يوسف أن تفتَّش رحالهم . قال الله تعالى ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ الآية .

قال : فلما نظروا ذلك ضربوا بأيديهم على جباههم ، وقالوا : ثكلتك أمّك فضحتنا يا بنيامين . قال : إنى لم أفعل ذلك . قالوا : من وضعه فى رحلك ؟

قال : الّذى جعل البضاعة فى رحالكم . فسكتوا ، ثم قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ .

قال الثعلبىّ : وٱختلف العلماء فى السرقة التى وُصف بها يوسف ، فقال سعيد وقتادة : سرق يوسفُ صنما لجدّه أبى أمّه وكان من ذهب ، فكسره وألقاه فى الطريق . (٦٠)

وقال ابن جريج : أمرته أمّه — وكانت مسلمة — أن يسرق صنما لخاله كان يعبده .

وقال مجاهد : جاء سائل يوما ، فسرق يوسف بيضة من البيت .

وقال ابن عيينة : دجاجة ، فناولها السائلَ ، فعيّروه .

وقال وهب : كان يخبأ الطعام من المائدة للفقراء .

وقال الضحاك وغيره : كان أوّلَ ما دخل على يوسف من البلاء أن عمّته بنتَ إسحاق كانت أكبرَ ولد إسحاق ، وكانت لها منطقة إسحاق ، وكانوا يتوارثونها بالكِبر ، وكانت راحيل أمّ يوسف قد ماتت ، فحضنته عمّته وأحبّته حبّا شديدا فكانت لا تصبر عنه ؛ فلما ترعرع وبلغ سُنَيّات وقع حبّه فى قلب يعقوب ؛ فأتاها وقال : يا أختاه سلّمى إلىّ يوسف ، فوالله ما أصبر عنه ساعةً واحدة . فقالت : ما أنا بتاركته .

فلما غلبها يعقوب قالت : فدعه عندى أياما أنظر إليه ، لعل ذلك يسليني عنه . ففعل ذلك يعقوب ؛ فلمّا خرج يعقوب من عندها عمدت إلى منطقة إسحاق فحزمتْها على يوسف تحت ثيابه وهو صغير ، ثم قالت : لقد فقدتُ منطقة إسحاق

فانظروا من أخذها . فالتُمِست فلم توجد ؛ فقالت : اكشفوا أهل البيت . فكشفوهم ، فوجدوها مع يوسف ؛ فقالت : والله إنّه ليُسلَّمٌ لى أصنع فيه ما شئت — وكان ذلك حُكمَ آل إبراهيم فى السارق — فأتاها يعقوب ، فأخبرته بذلك ؛ فقال : إن كان فعل ذلك فهو يُسلَّمٌ إليك ، ما أستطيع غير ذلك .

فأمسكته بعلّة المنطقة ، فما قدر يعقوب عليه حتى ماتت ، فهو الذى قال له إخوته : إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ . قَالُوا يَأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ * فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا أى يتناجون قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ * ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَأَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ .

قال : ثم تشاوروا فقالوا : إن هذا الملك وأهلَ مصر كفرة يعبدون الأصنام فتعالوا نتظاهر عليهم .

قال روبيل : أنا أكفيكم الملك وأعوانه .

وقال شمعون : أنا أكفيكم أمر العزيز وأعوانه .

وقال يهوذا : أنا أكفيكم الأسواق .

فعلم يوسف بذلك ، فأحضرهم وقال : يا بنى يعقوب ، ما الذى غرّكم منّى ؟ أحسنتُ إليكم مرّة بعد مرة ، وتفضّلت عليكم ، وجنى أخوكم جناية فتشاورتم فى هلاك المدينة وأهلها ، أتظنون أن هذه القوة لكم دون غيركم ؟ ثم ضرب برجله

السُّدّة التي كان عليها فطحطحها وكسر صفائح رخامها ؛ ثم قال : لولا أنكم من أولاد الأنبياء لصحت بكم صيحة تخزون على أذقانكم .

قال : وكان يهوذا قد عزم على أن يفعل شيئا ، وكان على كتفه شعرةٌ إذا غضب خرجت من جبته فيقطر منها الدم ، ثم يصيح صيحة فلا يسمعها أحد إلّا سقط مغشيًّا عليه ، وكان لا يسكن غضبه إلا أن يمسّه أحد من آل يعقوب ، فدعا يوسف بآبنه مَنَسًّا وقال : اذهب الى ذلك الكهل فمَسَّه بيدك ، وتنحّ عنه من حيث لا يشعر بك . ففعل ذلك ، فسكن غضبه ، فقال يهوذا لإخوته : من الذى مسّنى منكم فقد سكن غضبي . قالوا : لم يمسّك غيرُ ذاك الصبي . فقال : والله لقد مسّتنى يد من آل يعقوب .

فلمّا عسر عليهم ما عزموا عليه ، عزموا على العود إلى أبيهم ، وتركوا روبيل عند بنيامين .

قال : فلمّا آنصرفوا دخل يوسف إلى منزله وأحضر بنيامين ، وقال : أتعرفنى؟ قال : نعم ، أنت العزيز ، والله ماسرقتُ ، فلا تعجل علىّ ، فإنك موصوف بالإحسان . فضمّه يوسف إلى صدره ، وقال له : أنا أخوك يوسف . ثم كساه وسأله عن أبيه ، فأخبره بما يقاسيه من أجله .

قال : ورجع إخوة يوسف إلى أبيهم فذكروا ما كان من خبر بنيامين ، وأن روبيل أقام عنده .

قال : وكيف يسرق ولدى وهو من الذرّيّة الطيّبة؟ فقالوا له : وَٱسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ إلى قوله : مَا لَا تَعْلَمُونَ .

قال : وأخذ فى البكاء حتى ضجر منه جيرانه، فأوحى الله إليــه : أن كفّ عن
بكائك فإنى سأردّ عليك بصرك، وأجمع بينك وبين ولدك . فسكن وهدأ، ثم قال
لبنيه : احملوا كتابى إلى العزيز . ودعا بأبنته (دِينةَ) وقال لهـا : اكتبى، بأسم إله
إبراهيم، من يعقوب إلى عزيز مصر، إن الله أكرمنى بولد كان أحبَّ أولادى إلىّ
٦١ وقد فقـدته وبكيت عليــه حتى عميت ، وكنت آنس بأخيه بنيامين الّذى حبستَه
عنـدك ؛ وعجبتُ من أمر الصُّواع ؛ فإن أولاد الأنبيـاء لا يفعلون ذلك ، و إنه
مكذوب عليــه ؛ فإذا أتاك كتابى هذا فتفضّل علىّ بولدى و ردّه علىّ فإنى أدعو الله
أن يزيدك فضلا وكرامة .

وسـلّم الكتاب اليهـم ، وقال : يَا بَنِيَّ ٱذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيـهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ ٱللهِ الآية .

ذكر خبر دخولهم عليه فى الدفعة الثالثة

قال : وساروا حتى دخلوا مصر، فاستقبلهم روبيل ودخل معهـم ، فَلَمَّـا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَأَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ؛ وناولوه الكتاب ؛ فقبّله وقرأه، ثم قال لهم : لو كنتم حملتم إلىّ هذا الكتاب قبل اليوم دفعته لكم ، ولكنّى قد ألقيت حديثه إلى الملك ، وأنا أكلّمه فيه .

ذكر خبر حديث الصاع

قال : ثم أمر يوسفُ بإحضار الصاع بين يديه وقال : اجتمعوا حتى أسأل هـذا الصاع عنكم . فنقر الصاع قَطنّ ، فقال : يا بنى يعقوب ، إنّ هـذا الصاع يقول : إنكم تشهدون بالزور ؛ وإنكم كذبتم فى قولكم : إن الذئب أكل أخاكم .

قالوا : ما شهدنا بالزور قط ، وما قلنا فى يوسف إلّا الحقّ . فنقر الصاعَ وقال : أتدرون ما يقول ؟ إنه يقول : إنكم حسدتم أخاكم، وأخرجتموه من عند أبيه وأردتم قتله ، ثم ألقيتموه فى الجب المظلم البعيد القعر . ثم نقر ثالثا وقال : إنه يقول ، ما كذبتُك فيما أقول، ولقد أخرجوا أخاهم من الجب فباعوه بعشرين درهما عددا تنقص درهما ، وأوصوا مشتريه أن يقيّده حتى يبلغ أرض مصر . فتغيّرتْ وجوه القوم ، وقالوا : ما نعرف شيئا من هذا . ثم نقره رابعا وقال : إنه يقول : وكتبوا كتاب البيع بخطّ يهوذا . فقال : أيّها العزيز، إنى لم أكتب شيئا وأنكره . فقال : مكانكم حتى أعود إليكم . ودخل على زليخا وقال : هاتى تلك الصحيفة . فأخرجتها له؛ فأخرجها إلى يهوذا وقال : أتعرف خطّك؟ قال : نعم . فألقاها إليه فرآها وهى خطّه؛ فقال : هى خطّى، "غير أنّى لم أكتبه باختيارى، وإنما كتبته على عبد أبَق منّا"[1] .

فغضب يوسف وقال: ألستم تزعمون أنكم من أولاد الأنبياء،ثم تفعلوا مثل هذا.

ثم قال لأعوانه : انصبوا عشرة أشجار على باب المدينة حتى أضرب أعناق هؤلاء وأصلّبهم ،وأجعلّهم حديثا لأهل مصر . فبكوا وقالوا : اقتلنا كيف شئت ولا تصلّبنا .

وأقبل بعضهم على بعض وقالوا : هذا جزاؤنا بما عاملْنا به أخانا . فلمّا أقرّوا كلّهم بالذنب ، رفع التاجَ عن رأسه ، وقال : هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ، وكان فى رأسه شامة مثلُها فى رأس يعقوب ؛ فلمّا نظروا إلى الشامة عرفوها وقالوا : ءَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهٰذَا أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللّٰهُ عَلَيْنَا إلى قوله : وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ .

(١) يلاحظ أن وجه المقابلة غير ظاهر بين قوله : «لم أكتبه باختيارى» وقوله : «وإنما كتبته على عبد أبق منا» .

فعمد يوسف إلى قميصه، وجعله فى قصبة من فضة، ودفعه إلى يهوذا وخلع عليهم وطيّبهم، وقال : اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ . فخرجوا، وسبقهم يهوذا بالقميص . قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴾ .

قال : لما فصلت العير من أرض مصر حملت الريح رائحة القميص فشمّها يعقوب، فقال ذلك . ومعنى (تفنّدون) ، أى تكذّبون . فقال له أهله : — وقيل : بنو بنيه — تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ، معناه فى حبّك القديم ليوسف .

فلما وصل يهوذا بالقميص ودخل على يعقوب ألقاه على وجهه وقال : خذها بشارة . فعاد بصره من ساعته، وخرّ ساجدا لله . قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ الآية .

وجاء بنوه وقالوا : يا نبىّ الله، نحن الذين غيّبنا يوسف عنك، ونحن الذين نبيّناك بخبره وهو عزيز مصر . ثم قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .

قال : وجاءه جبريل بناقة من نوق الجنّة، فاستوى عليها، وخرج من أرض كنعان يريد مصر ومعه أولاده وأهله، وهم ثمانية وسبعون إنسانا، فدعا لهم يعقوب فما دخل أولاده مصر إلّا وقد غفر لهم ؛ وخرج يوسف لملتقى أبيه ومعه خلق كثير فلما رآه يوسف ترجّل عن فرسه وأبرك يعقوب ناقته، واعتنقا وبكيا، وقال يوسف : ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ .

قال الله تعالى : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ يعنى الأب والخال ، ﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ .

قال : وكان بين مفارقته ووقتِ الآجتماع أربع وثلاثون سنة .

وقال الحسن : كان بين خروج يوسف إلى يوم الآلتقاء معه ثمانون سنة لم تجفّ عيناه .

وأقام يعقوب بمصر أربعين سنة . وقيل : أربعا وعشرين سنة؛ ثم أمره الله أن يرتحل الى أرض كنعان لآقتراب أجله ؛ فارتحل ومات هناك ، ودفن إلى جانب أبيه إسحاق .

وحكى الثعلبيّ — رحمه الله — أن يعقوب مات بمصر ، وأوصى يوسف أن يحمل جسده إلى الأرض المقدّسة حتى يدفنه عند أبيه إسحاق وجدّه إبراهيم ؛ ففعل ذلك ، ونقله فى تابوت من ساج إلى البيت المقدّس ، وخرج معه فى عسكره وإخوته وعظماء أهل مصر ، ووافق ذلك اليومُ وفاةَ عيصو ، فدفنا فى يوم واحد ، وكان عمرهما جميعا مائة سنة وسبعا وأربعين سنة ، لأنّهما وُلدا فى بطن واحد ، وقُبرا فى قبر واحد .

ذكر دعوة يوسف — عليه السلام — وآرتحاله عن بلد الريّان

قال : ثم إنّ يوسف — عليه السلام — دعا أهل مصر إلى الإيمان سرّا وعلانية ، فآمن به كثير منهم ، وكسروا الأصنام ، وصارت الغلبة للسلمين ؛ فآستدعاه ريان بن الوليد وقال له : أيها العزيز ، إن أهل مصر كانوا يحبّونك وقد كرهوك بسبب أديانهم ، فما لك وأديانَهم ؟ فقال يوسف : قد بلغنى ذلك

وأنا رادّ عليك ما خوّلتنيه ، ومتحول عنك وعن قومك بأهل ملّتى، فإنى لا أحبّ أن أكون من عبدة الأوثان .

وخرج يوسف هو وأولاده وإخوته وقومه الذين آمنوا حتى نزل الموضع الذى آستقبل أباه يعقوب عنده ؛ فجاءه جبريل وخرق له نهرا من النيل إلى هناك ، وهو نهر الفَيُّوم، ولحق به كثير من الناس ، وآمنوا ، وآبتنى مدينتين وسمّاهما بالحرمين وكان لا يدخلهما أحد إلّا يلبّى يقول : « لبّيك يا مفضّل إبراهيم بالنبوة لبّيك » . ولم يكن بأرض مصر أعمر منهما ، وسار يوسف فى قومه سِيرة الأنبياء حتى مات .

ذكر خبر وفاة يوسف — عليه السلام —

قال : ولمّا أدركته الوفاة أوصى إلى آبنه (أَفْرايِم) أن يسوس قومه بالواجب وأن يكون معاندا لأهل مصر الذين يعبدون الأوثان ، ويجاهدهم فى الله حقّ جهاده ؛ ثم توفّى، وكانت زَليخا قد ماتت قبله ، وما تزوّج بعدها .

قال الثعلبىّ : قال أهل التاريخ : عاش يوسف بعد يعقوب ثلاثا وعشرين سنة، ومات وهو آبن مائة وعشرين سنة .

قالوا : ودفن فى بلده فعمَر الجانب الذى يليها وأخصب ، وقَحِط الجانب الآخر، فشكا أهله إلى الملك، فبعث إلى أفرايم أن ينقله فيدفنه فى الجانب الآخر وإن لم يفعل قاتله ؛ فدفنه هناك ، فخَصَب ذلك الجانب ، وقَحَط الآخر، فكان يدفن سنة فى هذا الجانب، وسنة فى الآخر؛ ثم اجتمعت الاراء أن يدفن فى وسط النهر؛ ففعلوا ذلك ، فخَصَب الجانبان ببركته، ولم يزل فى نهر النيل حتى بعث الله موسى — عليه السلام — فأمره الله أن يحمل تابوت يوسف ؛ فأخرجه ونقله إلى بيت المقدس، فدفنه هناك، وموضع قبره معروف .

الباب الخامس من القسم الثانى من الفنّ الخامس

فى قصّة أيوب — عليه السلام — وآبتلائه وعافيته

عن وهب بن منبّه أنه لم يكن بعد يوسف نبيّ إلّا أيوب، وهو أيّوب بن أموص آبن عيصو بن إسحاق بن إبراهيم .

وكان أموص كثير المال والماشية، لم يكن فى أرض الشام أغنى منه؛ فلما مات صار ذلك جميعه لأيوب؛ وكان أيوب يومئذ آبن ثلاثين سنة، فأحبّ الزواج فخطب رحمة بنتَ أفرايم بنِ يوسف؛ فتزوّجها ، وكانت أشبه الخَلْق بيوسف وكانت كثيرة العبادة، فرزقه الله منها آثنى عشر بطنا، فى كلّ بطن ذكر وأنثى؛ ثم بعثه الله تعالى إلى قومه رسولا — وهم أهل حَوْران والبَثَنية — ورزقه الله حُسن الخلق (٦٣) والرفق ، فشرع لقومه الشرائع ، و بنى المساجد ، ووضع موائده للفقراء والأضياف ؛ وأمر وكلاءه ألّا يمنعوا أحدا من زراعته وثماره ، فكان الطير والوحش و جميعُ الأنعام تأكل من زرعه و بركة الله تزداد صباحا ومساء ؛ وكانت كلّ مواشيه تحمل فى كلّ سنة بتوءم .

وكان أيّوب إذا أقبل الليل جمع من يلوذ به فى مسجده ، و يصلّون بصلاته ويسبّحون بتسبيحه حتى يصبح ، فحسده إبليس ؛ وكان لا يمر بشىء من ماله وماشيته إلا رآه وهو مختوم بخاتم الشكر ؛ وكان إذ ذاك يصعد إلى السموات ويقف فى أى مكان أحبّ منها ، حتى رفع الله عيسى بن مريم ، فحُجب عن أربع سموات منها ؛ حتى بعث آلله نبينا محمدا صلّى الله عليه وسلّم ، فحُجب عن جميعها فصعد إبليس فى زمن أيّوب — عليه السلام — وقال : يارب إنى طفت الأرض ففتنت من أطاعنى إلّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ . فنودى : يا ملعون ، هل علمت

بعبدى أيّوب ؟ وهل نلت منه مع طول عبادته ؟ وهل تستطيع أن تغيّره عن عبادتى؟ فقال إبليس : إلهى إنك ذكرته بالخير، وقد نظرتُ فى أمره فإذا هو عبد عافيتَه بعافيتك ، ورزقته شكرك ، ولم تختبره بالبلاء ؛ فلو ٱبتليته بالمصائب لوجدته بخلاف ما هو عليه ، فلو سلّطتنى على ماله لرأيتَه كيف ينساك .

فسلّطه الله على ماله ؛ فٱنقضّ وجمع العفاريت ، وأخبرهم أنه سُلّط على مال أيوب ، وحضّهم على زرعه وأشجاره ومواشيه ، فأحرقوا الأشجار ، وصاحوا بالمواشى صيحة فماتت برعاتها .

قيل : وكان له ألفُ فرس وألف رَمَكة وألف بغل وبغلة ، وثلاثةُ آلاف بعير ، وألف وخمسمائة ناقة ، وألف ثور ، وألف بقرة ، وعشرة آلاف شاة وخمسمائة فدّان ، وثلاثمائة أتان ، مع ما يتبع ذلك من النّتاج ؛ فهلك جميع ذلك ؛ ثم أقبل إبليس إلى أيوب فى صورة راع من رعاته ، وخيّل له أن عليه وهَجَ الحريق وقد ٱسودّ وجهه ، وهو ينادى : يا أيّوب ، أدركنى فأنا الناجى دون غيرى ما رأيتُ قطّ مثل هذا اليوم ، رأيت نارا أقبلت من السماء فأحرقت أموالك ، وسمعت نداء من السماء : هذا جزاء من كان مرائيا فى عمله يريد به الناس دون الله . وسمعتُ النار تقول : أنا نار الغضب . فأقبل أيوب على صلاته ، ولم يكترث به حتى فرغ منها ، وقال : يا هذا ، لقد كثّرت علىّ ، ليست الأموال لى ، بل هى لربّى يفعل فيها ما يشاء . فقال إبليس : صدقت .

وماج الناس بعضهم فى بعض ، وقالوا : هلاّ قبضها قبضا جميلا .

فشقّ ذلك على أيّوب من قولهم ، ولم يجبهم ، غير أنه قال : الحمد لله على قضائه وقدره . وٱنصرف إبليس عنه ، وصعد الى السماء ، فنودى : يا ملعون

كيف وجدت عبدى أيّوب وصبرَه على ذهاب أمواله؟ فقال إبليس : إلهى إنك قد متّعته بالأولاد، فلو سلّطتنى عليهم لوجدتّه غير صابر . فنودى : يا ملعون اذهب فقد سلّطتك عليهم . فآنقضّ إبليس على باب قصر أيّوب الّذى فيه أولاده فزلزله حتّى سقط عليهم، وشدخهم بالخشب، ومثّل بهم كلّ مُثْلة؛ فأوحى الله إلى الأرض : احفظى أولاد أيّوب فإنّى بالغ فيهم مشيئتى .

وأقبل إبليس إلى أيوب وقال له : لو رأيت قصورك كيف تهدّمت، وأولادك وماحلّ بهم . ولم يزل يعدّد له ماحلّ بهم حتى أبكاه؛ ثم ندم على بكائه، فآستغفر وخرّ ساجدا، وأقبل على إبليس وقال : يا ملعون، انصرف عنّى خائبا؛ فإن أولادى كانوا عارية عندى لله .

فانصرف وصعد إلى السماء، ووقف موقفه، فنودى : يا ملعون، كيف رأيت عبدى أيوب وآستغفاره عند بكائه؟ فقال : إلهى إنّك قد متّعته بعافية نفسه، وفيها عوض عن المال، فلو سلّطتنى على بدنه لكان لا يصبر . فنودى : يا ملعون اذهب فقد سلّطتك على جسده إلّا عينيه ولسانَه وقلبَه وسمعَه . فآنقضّ إبليس عليه وهو فى مسجده يتضرّع الى الله و يشكره على جميع بلائه؛ فلمّا سمع إبليس ذلك منه آغتاظ، ولم يتركه يرفع رأسه من السجود حتى نفخ فى مَنخريه كالنار الملتهبة؛ فآسودّ وجهه، ومرّت النفخة فى سائر جسده؛ فتمعّط منها شَعره، وتقرّح جميعُ بدنه، وورِم فى اليوم الثانى، وعظم فى الثالث، وآسودّ فى الرابع، وآمتلأ قيحا فى الخامس، ووقع فيه الدود فى السادس، وسال منه الصديد فى اليوم السابع ووقع فيه الحُكاك، فجعل يحكّه حتى سقطت أظافيره، فحكّ بدنه بالخروق والمُسوح والحجارة، وكان إذا سقطت دودة من بدنه ردّها إلى موضعها، ويقول : كلى إلى أن يأذن الله بالفرج .

فقالت له رحمة : يا أيوب، ذهب المـال والولد، وبدء الضرّ فى الجسد .

فقال لهـا : يا رحمة ، إنّ الله ٱبتلى الأنبياء من قبل فصـبروا، و إن الله وعد الصابرين خيرا، وخرّ ساجدا لله تعالى، وقال : إلهى لو جعلت ثوب البـلاء سرمدا وحرمتنى العافيـة ، ومزّقتنى كلّ ممزّق ، ما ٱزددت إلّا شكرا ؛ إلٰهى لا تشمت بى عدوّى إبليس .

ثم قال لرحمـة : انقلينى الى موضع غيرِ مسجدى ، فإنّى لا أحبّ أن يتـلوّث المســجد .

فٱنطلقت إلى قوم كان أيوب يحسن إليهم؛ فٱلتمست منهم أن يعينوها على إخراجه من المسجد؛ فقالوا : إنه قد غضب عليه ربُّه بما كان فيه من الرياء، فليت كان بيننا و بينه بعـد المشرقين . فرجعت رحمـة واحتملته إلى الموضع الّذى كان يضع فيه الموائد للناس بالفضاء .

ثم قال لها : يا رحمة، إن الصدقة لا تحلّ علينا، فاحتالى فى خدمة الناس . وبكى وبكت ، فكانت تخدم أهل البلد فى سقى المـاء وكنس البيوت و إخراج الكناسات الى المزابل ، وتتكسّب من ذلك ما تنفقه على أيوب ؛ فأقبـل إبليس فى صـورة شيخ، فوقف على أهل القرية وقال : كيف تطيب نفوسكم بمخالطة ٱمرأة تعالج من زوجها هذا القيح والصديد وتدخل بيوتكم، وتدخل يدها فى طعامكم وشرابكم؟ !

فوقع ذلك فى قلوبهم ومنعوها أن تدخل بيوتهم .

قال : وٱشتد بأيوب البلاء، ونتن حتى لم يقدر أحد من أهل القرية أن يستقر فى بيته لشـدّة رائحته؛ فاجتمعوا على أن يرسلوا عليـه الكلاب لتأكله؛ فأرسلوها فعدت حتى قربت منه وولّت هاربة ولم ترجع إلى القرية .

ثم قال لرحمة : إن القوم قد كرهونى ، فآحتالى فى نقلى عنهم .

فتوجّهت وآتخذت له عريشا ، وآستعانت بمن يحمله ؛ فأعانها الله بأربعة من الملائكة ، فحملوه بأطراف النِّطْع إلى العريش ، وعزّوه فى مصيبته ودعوا له بالعافية ، وآتخذت له رحمة فى العريش رمادا ، فألقى نفسه عليه ؛ ثم توجّهت فى طلب القوت ، فردّها أهل القرية ، وقالوا : إن أيّوب سَخِط عليه ربّه . فعادت إليه باكية ، وقالت : إن أهل القرية غلّقوا أبوابهم دونى . فقال : إن الله لا يُغلِق بابه دوننا . فحملته إلى قرية أخرى ، وصنعت له عريشا ودخلت القرية ، فقرّبوها وأكرموها ، وحمّلتْ فى ذلك اليوم عشرة أقراص من خمسة بيوت ؛ ثم شمّ أهلُ القرية رائحة أيّوب بعد ذلك ، فمنعوا رحمة أن تدخل إليهم ، وقالوا : نحن نواسيك من طعامنا بشىء . فرضيت بذلك ؛ فبينما هى تتردّد إلى أيوب إذ عرض لها إبليس فى صورة طبيب وقال : إنى أقبلت من أرض فلسطين لما سمعت خبر زوجك ، وقد جئت لأداويه ، وأنا صائر إليه غدا فيجب أن تخبريه ، وقولى له : يحتال فى عصفور أو طائر فيذبحه ولا يذكر آسم الله عليه ، ويأكله ويشرب عليه قدحا من خمر ، ففرجه فى ذلك . فجاءت رحمة إلى أيوب وأخبرته بذلك ، فتبيّن الغضبُ على وجهه ، وأخبرها أنه إبليس وحذّرها أن تعود لمثل ذلك ؛ ثم أقبلت بعد ذلك إلى أيوب بشىء من الطعام فعرض لها إبليس فى صورة رجل بهىّ على حمار ، فقال : كأنى أعرفك ، ألست رحمة آمرأة أيوب ؟ قالت : بلى . قال : إنى أعرفكم وأنتم أهل غَناء ويسار فما الّذى غيّر حالكم ؟ فذكرت ما أصاب أيّوب من البلاء فى المال والولد والنفس قال : وفى أىّ شىء أصابتكم هذه المصائب ؟ قالت : لأن الله أراد أن يعظم لنا الأجر على قدر بلائه .

قال إبليس : بئس ما قلت، ولكن للسماء إله وللأرض إله ؛ فأمّا إله السماء فهو الله ؛ وأمّا إله الأرض فأنا، فأردتكم لنفسى فعبدتم إله السماء ولم تعبدونى ففعلت بكم ما فعلت ، وسلبتكم نعمكم ، وكلُّ ذلك عندى، فاتّبعينى حتى تنظرى إلى ذلك، فإنّه عندى فى وادى كذا وكذا .

فلما سمعت (رحمةُ) ذلك منه عجبت ، واتبعته غيرَ بعيد حتى وقفها على ذلك الوادى ، وسحر عينيها حتى رأت ما كانت فقدته من أموالهم . فقال : أنا صادق أم لا ؟ فقالت : لا أدرى حتى أرجع إلى أيّوب . فرجعت وأخبرته بذلك، فتألم وأنكر عليها وغضب؛ فسألته أن يعفو عنها ولا تعود؛ فقال : قد نهيتك مرّة وهذه أخرى ، وأقسم إن عافاه الله ليجلدنها مائة جلدةٍ على كلامها لإبليس .

قال : ولبث أيوب فى بلائه ثمانى عشرة سنةً حتى لم يبق إلّا عيناه تدوران فى رأسه، ولسانه ينطق به، وقلبه على حالته، وأذناه يسمع بهما .

قال: وعجزت (رحمة) فى بعض الأيام عن تحصيل القوت،وطافت القريةَ حتى أتت إلى امرأة عجوز فشكت لها ذلك؛ فقالت العجوز : يا رحمة، قد زوّجت ابنتى ، فهل لك أن تعطينى ضفيرتين من ضفائرك لأزين بهما ابنتى ، وأعطيك رغيفين . فأجابتها رحمة إلى ذلك ، وأخذت الرغيفين ، وجاءت بهما إلى أيوب؛ (٦٤) فأنكرهما أيوب وقال : من أين لك هذين؟ فأخبرته بالقصة؛ فصاح أيوب وقال ما أخبر الله تعالى : ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ ﴾ .

فأوحى الله إليه : يا أيّوب، قد سمعت كلامك ، وسأجزيك على قدر صبرك ؛ وأمّا رحمة فلأرضينّها بالجنة .

ذكر كشف البلاء عن أيّوب — عليه السلام —

قال : فلما كان يوم الجمعة عند زوال الشمس، هبط عليه جبريل فسلّم عليه فردّ عليه وقال : من أنت ؟ قال : أنا جبريل، و بشّره بالشفاء، وأن الله قد وهب له أهلَه وماله وولده ومِثلَهم معهم لتكون آية ، فبكى أيّوب من شدّة الفرح وقال : الحمد لله الذى لم يشمت بى عدوّى إبليس . فقال له جبريل : قم يا أيّوب . فلم يستطع ؛ فأخذ بيده وقال : قم بإذن الله . فقام على قدميه ، فقال له جبريل : أُركض برجلك هذه الأرض . فركضها ، فنبعت عين من الماء تحت قدميه أشدّ بياضا من الثلج وأحلى من العسل وأذكى من المسك ؛ فشرب منه شربة فسقط ما فى بدنه من الدود، ثم أمره جبريل فآغتسل من تلك العين، فخرج ووجهه كالقمر وعاد إليه حسنه وجماله ؛ ثم ناوله جبريل خلعتين، فآتزر بواحدة وآرتدى بالأخرى ؛ وناوله نعلين من الذهب شِراكهما من الياقوت؛ وناوله سفرجلةً من الجنّة؛ ثم قام إلى الصلاة، فأقبلت رحمة وقد طردها الناس من كل الأبواب؛ فلما صارت إلى ذلك المكان رأته وقد تغيّر، فظنت أنها قد أخطأت الطريق ؛ فقالت : أيها المصلّى كلّمنى . فلم يكلّمها، وثبت فى صلاته ؛ فقال له جبريل : كلّمها . فقال : ما حاجتك ؟ قالت : هل عندك علم بأيوب آلمبتلَى فإنّى خلّفته هاهنا ولست أراه .

فتبسّم أيوب وقال : إن رأيته عرفتِه ؟ فقالت : والله إنّك لأشبه الناس به قبل بلائه . فضحك وقال : أنا أيوب . فبادرت إليه وآعتنقته، و بشرهما جبريل بأولادهما وما فقداه من الأموال وغيرها ومثلِهم معهم ، وأمطر الله عليهم جرادا من ذهب ؛ وكان له بيْدَران ، فأرسل الله سحابتين فأفرغتا فى أحدهما ذهبا وفى الآخر فضة حتى فاض أحدهما على الآخر .

قيل : إنه كان له بعد العافيــة أربعةُ آلاف وكيل ، رزقُ كلّ واحد فى الشهر مائةُ مثقال من الذهب ، وبين يديه آثنــا عشر من البنين ، ومثلهم من البنــات وملّكه الله جميع بلاد الشام، وأعطاه مثلَ عمره الّذى عُمِّره فى المــاضى .

فلمــا أدركته الوفاة أوصى أولادَه أن يخلفوه فى ماله كما كان يفعل مع الفقراء والمساكين والأيتام والأرامل؛ ثم مات، وتوفيت آمرأته قبله .

وقيل : بعده بقليل؛ فدفن إلى جانب العين التى أذهب الله بلاءه فيها .

قال الثعلبىّ — رحمه الله تعالى — : وكانت مدّة آبتلائه ثمانى عشرة سنة .

الباب السادس من القسم الثانى من الفن الخامس

فى خــــبر (ذى الكفل)

اختلف العلماء فى (ذى الكفل) من هو؟ فقال الكسائى : هو ابن أيوب — عليهما السلام — وذكر قصته فقال :

لمــا قبض الله — عزّ وجلّ — أيوب عليه الســلام سار آبنه حوميــل — وهو أكبر أولاده — فى الناس سيرة أبيه ، حتى خرج عليهم ملِك من ملوك الشام يقال له : لام بن دعام ، فغلَب على بلاد الشام ، و بعث إلى حوميل يقول : إنكم ضيّقتم علينا بلاد الشام ، وأريد منكم نصف أموالكم وتزوّجونى أختكم حتى أقرّكم على ما أنتم عليه، وإلّا سرتُ إليكم بخيلى ورَجلى وجعلتكم غنيمة .

فأرسل إليه حوميل يقول: إن هذه الأموال التى فى أيدينا ليس لأحد فيها حق إلا الفقراءِ والمساكينِ والأيتامِ والأرامل؛ وأما أختنا فإنّك من غير ديننا، فلا نزوّجها لك؛ وأما تخويفك لنا بخيلك ورَجلك، فنحن نتوكّل على الله ربّنا، وهو حسبنا .

بجمع الملك جنوده وقصدهم، فالتقوا وٱقتتلوا قتالا شديدا، فكانت الكسرة على أولاد أيوب، وأسر بشير بن أيوب وجماعةٌ معه؛ وٱنقلب حوميل بنفسه وجمع مالا عظيما ليحمله إلى الملك ويخلّص أخاه منه؛ فبينما هو فى ذلك إذ أتاه آت فى منامه فقال: لا تحمل هذا المال، ولا تخف على أخيك، فإن هذا الملك يؤمن، وتكون عاقبة أمره خيرا. (٦٦)

فلما أصبح قصّ رؤياه على إخوته، ففرحوا؛ فبلغ الملكَ توقّفُه فى حمل المال فأرسل إليه يقول: احمل ما تكفل به أخاك من المال وإلّا أحرقتُه بالنار. فبعث إليه: إنى قد أُمرت ألّا أحمل لك شيئا، فٱصنع ما أنت صانع. فغضب الملك وأمر أن تجمع الأحطاب؛ فجُمعت وأُلقيَ فيها النارُ والنِّفْط، وأمر ببشير فأُلقى فيها فلم تُحرِقه؛ فعجب الملكُ من ذلك، وآمن بالله، واختلط بعضهم ببعض، وزوّجوه أختهم، وسمى بشير ذا الكفل، وأرسله الله إلى الشأم؛ وكان الملِك يقاتل بين يديه الكفار، فلم يزل كذلك حتى مات أولاد أيّوب؛ ثم مات الملِك وغلب العمالقةُ على الشأم، إلى أن بعث الله — عزّ وجلّ — شعيبا رسولا.

وحكى الثعلبى فى تفسيره وقصصه فى قصّة ذى الكفل غير ما تقدّم، وساق القصّة تلوَ قصة اليسع، فقال: قال مجاهد: لما كبر اليسع قال: لو أنى استخلفت رجلا على الناس فعمل عليهم فى حياتى حتى أنظر كيف يعمل. فجمع الناس وقال: من يتكفّل لى بثلاثةٍ أستخلفه: يصوم النهار، ويقوم الليل، ولا يغضب.

فقام رجل شاب تزدريه العين قال: أنا. فردّه ذلك اليوم؛ وقال مثل ذلك فى اليوم الآخر؛ فسكت الناس، وقام ذلك الرجل فقال: أنا. فاستخلَفَه؛ فجعل إبليس يقول للشياطين: عليكم بفلان. فأعياهم؛ فقال: دعونى وإياه. فجاءه

فى صورة شيخ فقير حين أخذ مضجعه للقائلة ، وكان لا ينام بالليل إلّا تلك النومة ؛ فدقّ الباب ؛ فقال : من هذا ؟ فقال : شيخ مظلوم . ففتح الباب ، فجعل يقص عليه قصته ، فقال : إن بينى وبين قوم خصومة ، وإنهم ظلمونى وفعلوا وفعلوا وفعلوا ؛ وجعل يطوّل عليه حتى حضر الرواح وذهبت القائلة ؛ فقال له : إذا رحتُ فإنّى قد آخذ بحقك . فانطلق وراح ، فكان فى مجلسه ، فجعل ينظر هل يرى الشيخ ؟ فلم يره ؛ فلما رجع وأخذ مضجعه أتاه ودقّ الباب ، فقال : من هذا ؟ قال : أنا الشيخ المظلوم . فقال : ألم أقل لك : إذا قعدتُ فأتنى . قال : إنهم أخبث قوم إذا عرفوا أنك قاعد قالوا : نحن نطيعك ونعطيك حقّك ، وإذا قمتَ جحدونى .

قال : فانطلق ، فإذا رحتُ فأتنى ، ففاتته القائلة ، فراح فجعل ينظر فلا يراه وشقّ عليه النعاس ، فقال لبعض أهله : لا تدعنّ أحدا يقرب هذا الباب حتى أنام فإنى قد شق علىّ النعاس . فلما كانت تلك الساعة جاء فلم يأذن له الرجل ، فنظر فرأى كوّة فى البيت ، فتسوّرها فإذا هو فى البيت ، وإذا هو يدقّ الباب من داخل ؛ فاستيقظ ذو الكفل ، وقال : يا فلان ، ألم آمرك ألّا تأذن لأحد علىّ ؟ فقال : أمّا من قبلى فما أتيتَ ، فانظر من أين أتيت .

فقام إلى الباب فإذا هو مغلق والرجل معه فى البيت ، فقال له : أتنام والخصوم ببابك ؟ فقال : فعلتها يا عدوّ الله . قال : نعم ، أعيتنى فى كل شىء ، ففعلت ما ترى لأغضبك ، فعصمك الله منى ، فسمّى ذا الكفل ، لأنه متكفّل بأمر فوفى به .

وروى الثعلبىّ أيضا بسند رفعه إلى ابن عمر — رضى الله عنهما — قال : سمعت رسول الله — صلّى الله عليه وسلّم — يحدّث حديثا لو لم أسمعه إلّا مرة أو مرتين لم أحدّث به ، سمعته منه أكثر من سبع مرات .

قال : كان فى بنى إسرائيــل رجل يقال له : ذو الكفل ، لا يتزع عن ذنب عمله ، فأتبع آمرأة فأعطاها ستين دينارا على أن تعطيه نفسها ؛ فلما قعد منها مقعد الرجل من المرأة أرعدت و بكت ؛ فقال : ما يبكيك ؟ قالت : من هــذا العمل ما عملته قطّ . قال : أكرهتك ؟ قالت : لا ، ولكن حملتنى عليه الحاجة . قال : اذهبى فهى لك . ثم قال : والله لا أعصى الله أبدا . فمات من ليلته . فقيــل : «مات ذو الكفل» فوجدوا على باب داره مكتوبا : إنّ الله قد غفر لذى الكفل .

وقال أبو موسى الأشــعرىّ — رضى الله عنــه — إنّ ذا الكفل لم يكن نبيّاً ولكنه كان عبدا صالحا ، تكفّل بعمل رجل صالح عند موته ، فكان يصلّى لله تعالى فى كل يوم مائة صلاة ، فأحسن الله — عز وجل — عليه الثناء .

وقيل : كان رجلا عفيفا ، تكفل بشأن رجل وقع فى بلاء ، فأنجاه الله تعالى .

وقيل : ذو الكفل ، هو إلياس النبىّ عليه السلام .

وقيل : هو زكريا النبىّ عليه السلام ؛ والله تعالى أعلم .

الباب السابع من القسم الثانى من الفن الخامس
فى خبر شعيب النبى عليــه الســلام

هو شعيب بن صنعون بن عفّا بن ثابت بن مدين بن إبراهيم عليه السلام .

قال : وعاش مدين عمرا طويلا ، وكان قد تزوّج آمرأة من العمالقة فولدت له (٦٧) أربعة بنين ، ونسلوا فكثر عددهم فى حياة مدين ، فلما رأى كثرة عقبه جمعهم وأشار عليهم أن يبنوا مدينــة و يحصّنوها من العمالقــة ؛ ففعلوا ذلك ، وجعلوا أبوابها من الحــديد ، وسموها مدين بآسم أبيهم ، وجعــلوها محالّ لقبائلهم ، فرغبت العمالقة

فى مجاورتهم ، وآمتلأت المدينة من العمالقة ومن أهلها حتى ضاقت بهم، فخرجت العمالقة من مدين ونزلوا بالأيكة ، — وكانت غَيضةً عن يمين مدين — فبنوا هناك الدور لأنفسهم ، واختلطوا بأهل مدين، وكان أهـل مدين يعبدون الله ، وأصحاب الأيكة يعبدون الأصنام ، ولا يعدو بعضهم على بعض؛ وكان صنعون والد شعيب من العبّاد والعلماء بمدين ، وتحتـه آمرأة من العمالقـة ، فولدت له شعيبا فى نهاية الجمال ؛ فلمّا كبِر أعطاه الله فهما وعلما ؛ وكان قليل الكلام دائم الفكر ؛ وكان أبوه إذا تأمّل ضعفه ونحافتـه يقول : اللهم إنك كثّرت الشـعوب والقبائل فى أرض مدين ، فبارك لى فى شعيبى هـذا ، يعنى ولده . فرأى فى منامه أن الله تعـالى قد بارك لك فى شعيبك هـذا ، وقد جعله نبيا إلى أهل مدين . فسمّى شعيبا لذلك.

وتوفّى والده فقام شعيب مقامه ، و برّز بالزهد على أهل زمانه ، وآشتهر بالعبادة.

قال : وكان ملكُ الأيكة — وآسمه أبو جاد — قد آتخذ لقومه أصناما ، وهى ثلاثون صنما ، عشرة من الذهب حلّاها بالجوهر خاصّة به و بأولاده ، والبقية من الفضة والنحاس والحجارة والحديد والخشب لبقية الناس .

قال كعب فى تفسير (أبجد) : إنها أسمـاء ملوك مدين .

وقيل : بل ملوك الأيكة ،وهم أبو جاد وهوّز وحطّى وكلمن وسعفص وقرشت.

قال : وكان أهلُ مدين أصحابَ تجارات يشترون الحنطة والشعير وغيرَهما من الحبوب ، ويجلبون ذلك من سائر البـلدان يتربّصون به الغلاء ، وهم أوّل من تربّص ؛ وكان لهم مكيالان : وافٍ يكتالون به لأنفسهم عنـد الشراء ، وناقصٌ يكيلون به للإعطاء ، وكذلك فى وزنهم ؛ فكانوا على ذلك وشعيب بين أظهرهم وهو لا يخالطهم ، وله غنم ورثها من أبيه يأكل من منافعها ، وهو عظيم المحلّ عندهم .

فبينما هو ذات يوم على باب منزله مشتغل بالذكر، إذ جاءه رجل غريب فقال : إنّ هؤلاء القومَ يظلمون الناس، وإنى اشتريت منهم مائة مكيال بمائة دينار وقبضوا الثمن وزيادة، والذى كالَه منهم نقص عشرين مكيالا . فقال له شعيب : ارجع إليهم فلعلّهم قد غلطوا عليك . قال : قد راجعتهم فضربونى وسبّونى، وقالوا : هذه سنّتنا فى بلدنا . والتمس الرجل من شعيب أن يساعده عليهم، فخرج شعيب معه حتى صار إلى سوقهم، وسألهم عن قصّته فلم ينكروها، وقالوا : ألم تعلم يا شعيب أنّ هذه سنّة آبائنا فى بلدنا ؟ قال ليس هـذا من السنة . فعذلهم، فلم يرجعوا إلى قوله وضربوا الرجل حتى أدموه، وانصرف شعيب إلى منزله .

ذكر مبعث شعيب — عليه السلام —

قال : فأتاه جبريل فى الحال، وأخبره أنّ الله قد بعثه رسولا إلى أهـل مدين وأصحاب الأيكة وغيرهم ممّن يعبـدون الأصنام، وأمره أن يدعوهم إلى عبادة الله وطاعته، وألّا يبخسوا الناس أشياءهم .

قال : وأقبل شعيب إلى أهل مدين وقال لهم ما أخبر الله تعالى به فى كتابه : ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُـدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّى أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ * وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّـاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ .

فلما سمعوا ذلك منه أجابوه بمـا أخبر الله به عنهم : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِى أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَاحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِى إِلَّا بِٱللَّهِ

عليه توكلت وإليه أنيب * ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد * واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود ﴾ .

ثم انصرف عنهم، وعاد إليهم من الغد وقد اجتمعوا مع ملكهم أبي جاد ؛ فوقف عليهم ونهاهم عن عبادة الأصنام وبخس المكيال والميزان ؛ فقالوا له : ﴿ يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك (٦٨) وما أنت علينا بعزيز * قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا إن ربي بما تعملون محيط ﴾ .

فاستهزأ القوم به ، فقال : ﴿ ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إني معكم رقيب ﴾ .

فكذبه سفهاء قومه، كما أخبر الله عنهم : ﴿ كذب أصحاب الأيكة المرسلين * إذ قال لهم شعيب ألا تتقون * إني لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين * أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين * وزنوا بالقسطاس المستقيم * ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين * واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين * قالوا إنما أنت من المسحرين * وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين * فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين * قال ربي أعلم بما تعملون ﴾ .

ثم قال له الملك : قد بلغت رسالتك بزعمك، وقد سمعناها وأبينا، فلا تعد إلينا فترى ما لا طاقة لك به . فقال : أنا رسول الله إليكم، وإني أعود أدعوكم حتى ترجعوا إلى طاعة الله . فغضب الملك ، وانصرف عنهم شعيب ؛ وآمن به رجل من وزراء الملك ، واستكتمه إيمانه ، فكتمه شعيب ؛ ثم عاد من الغد وقد خرج الملك

ومن معه إلى سوقهم ، وأخرجوا أصنامهم ونصبوها ؛ وأمر الملك فى أهــل مدين والأيكة : من سجد لأصنامنا فهو منّا ، ومن أبى عذّبناه عذابا شديدا . فسجد القوم بأجمعهم للأصنام ؛ فناداهم شعيب : إنّ هــذه الأصنام لا تضرّ ولا تنفع ، فاتركوا عبادتها . وحذرهم عذاب الله . فقالوا : إنك تدعونا بغير حجة ، فهل لك حجة على دعواك النبوة ؟ قال لهم شعيب : إن نطقت هذه الأصنام بصدق مقالتى أتؤمنون؟ قالوا : نعم . ورضى الملك بذلك ؛ فتقدّم شعيب إلى الأصــنام وقال لهــا : أيتها الأصنام ، من ربّك؟ ومن أنا؟ تكلّمى بإذن الله . فنطقت بإذن الله وقالت : ربّنا الله وخالقنا وخالقُ كلّ شىء ، وأنت رسول الله ونبيّــه . وتنكّست عن كراسيّهــا ولم يبق منها صنم صحيح ؛ وأرسل الله على قوم شعيب ريحا كادت تنسفهم نســفا فأسرع الملك ومن معه إلى منازلهم ، وآمن بشعيب خلق كثير ؛ ثم أصبح الملك ومن معه فخرجوا إلى سوقهم ، ونصبوا ما كان قد بقى عندهم من الأصنام ، وأمرهم بالسجود لها ؛ فأتاهم شعيب ونهاهم وحذرهم فلم يرجعوا إليــه ، وأمر الملك أصحابه أن يقعدوا لشعيب ولمن معه كلّ مرصد ، ويؤذوهم أشدّ الأذى ؛ ثم قال الملك وقومه : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ إلى قوله : ﴿ رَبَّنَــا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ .

قال : وإذا بريح قــد هاجت عليهم فيهــا من الحرّ والكرب ما لا طاقة لهم به حتى رموا أنفسهــم فى الآبار والسراديب ، واشــتدّ الحرّ ودام عليهــم مدّة وهم لا يزدادون إلا عتوّا وتمرّدا ، وشعيب يدعوهم ويحذّرهم العذاب ؛ فيقولون : لسنا نرى من عذاب ربّك إلا هذا الحرّ ، ونحن نصبر عليه .

وأقاموا كذلك أعواما كثيرة وهم لا يؤمنون ؛ فأرســل الله عليهم الذباب الأزرق ، فكان يلدغهم كالعقارب ، وربمــا قتل أولادهم ؛ ثم تضاعف الحرّ عليهم

فتحولوا من مدين إلى الأيكة ، فتضاعف الحـر عليهم ، وتقلوا من الأودية إلى العياض والحر يشتد عليهم ، حتى اسودت وجوههم ، فاقبـل إليهم شعيب ودعاهم إلى الإيمـان ، فنادوه : يا شعيب ، إن كان ما نلقاه لكفرنا بك و بربك فزدنا منه فإنا لا نؤمن . فأوحى الله إليه أنه مهلكهم ، فتحوّل عنهم .

ذكر خبر الظُّلَّة

قال الله تعـالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

قال : ولمـا كان من غد يوم مقالتهـم ما قالوه لشعيب وهو يوم الأربعـاء و إذا بسحابة سوداء قـد ارتفعت فأظلتهم ، فاجتمعوا تحتها يستظلون بها من الحر فانطبقت عليهم حتى لم يبصر بعضهم بعضا ، واشـتد الحر ، ثم رمت بوهجها وحرها حتى أنضجت أكبادهم وأحرقتهم وجميـع ما كان على وجه الأرض ، وشعيب والمؤمنون ينظرون إلى ما نزل بهـم ، ويتأملون مصارعهم ، ولم ينلهم من ذلك مكروه . قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ ﴾ يعني صيحة جبريل ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ ثم أقبل شعيب والمؤمنون ينظرون إلى مصارع القوم . قال الله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ معناها ، كيف أحزن عليهم .

(٦٩) ثم قسم شعيب أموال الكفار على قومه ، وتزوج بامرأة من أولاد المؤمنين ، و رزقه الله رزقا حسنا ، ولم يزل بأرض مدين حتى كف بصره ، وجاء موسى بن عمران من أرض مصر ، وزوجه ابنته — على ما نذكره إن شاء الله تعالى — .

القسم الثالث من الفنّ الخامس

يشتمل على قصة موسى بن عمران عليه السلام وخبره مع فرعون ؛ وخبر يوشع بن نون و إلياس واليسع وغيلا واشمويل وداود وطالوت وجالوت وسليمان بن داود ويونس بن متى و جرجيس و بلوقيا وزكريا وعمران ومريم وعيسى ، عليهم السلام ، وأخبار الحواريين ؛ وفيه ستة أبواب ؛ والله أعلم بالصواب

الباب الأوّل من القسم الثالث من الفن الخامس

فى قصة موسى بن عمران وهارون — عليهما السلام — وخبر فرعون وابتداء أمره وغرقه ، وأخبار بنى إسرائيل ، وخبر قارون ، وخروج موسى عليه السلام .

ولنبدأ بخبر فرعون وابتداء أمره ، وكيف توصل إلى الملك ، ثم نذكر قصة موسى عليه السلام معه ، ليكون الكلام فى ذلك على سياقه .

فأمّا فرعون ، فهو الوليد بن مصعب .

قال وهب : كان مصعب بن نُسَيم[1] بمصر يرعى البقر لقومه ، وله آمرأة يقال لها : راعونة ، وهما من العمالقة ؛ فأتت عليه مائة وسبعون سنة لم يرزق ولدا ، فبينما هو فى بريّة مصر إذا ببقرة قد ولدت عجلا ؛ فتأوّه وحسد البقرة ؛ فنادته : يا مصعب لا تعجل ، فسيولد لك ولد مشئوم يكون من أهل جهنم . فرجع وذكر ذلك لآمرأته ، و واقعها فحملت بفرعون ، ومات أبوه قبل ولادتها ؛ ثم ولدته أمّه وسمّته الوليد ، وأخذت فى إرضاعه وتربيته حتى كبر ، فأسلمته إلى النجارين ؛ فأتقن صناعة النجارة ؛ ثم ولع بالقمار ، فعاتبته أمّه ؛ فقال : كفّى عنى فأنا عون نفسى .

---

(١) كذا ورد هذا الاسم مضبوطا بضم النون وفتح السين فى « ب » المنسوب خطها إلى المؤلف .

فلزمه هــذا اللقب ، فكان يُعرف بعون نفســه ، فقامر فى بعض الأيام ، فقمروه فى قميصه ، و بقى فى خلق لا يستره ؛ فاستحيا من الناس أن يروه كذلك ؛ فهرب حتى صار إلى قرية من قرى مصر ؛ فعرض نفســه على بقّال ، فخدمه ، وكان يضرب المشترين و يؤذيهم حتى نفروا من البقّال ؛ فطردوه فعاد إلى مصر ؛ وكانوا يقولون : (فَرَّ عَوْن) .

قال : ورجع إليها وهو لا يملك إلّا درهما واحدا ، فاشــترى به بقلا و بطيخا وقعد يبيعه ، فجاءه عريف الطريق وطالبه بحق الطريق ؛ قال : وما هو ؟ قال : درهم . فتلاحيا ؛ فترك فرعون رحله ومضى ، وجعل يسرق وينقب ، فيهرب مرة و يؤخذ أخرى .

فاتفق أن رجلا من العمالقة جمح به فرسه فعجز عن ضبطه ، فوثب فرعون إلى الفرس وضبطه بلجامه ؛ فقال له العمليقى : أراك جلدا قويّا . فآتخذه سائسا ؛ فجعل يخدمه حتى مات الرجل وليس له وارث ؛ فاحتوى فرعون على جميع ماله وحمله إلى أمه ، وأكل ذلك المــال حتى فنى ، وضاق به الأمر ، فوقع فى قلبه أن يجلس على باب مقابر مصر و يطلب أرباب الجنائز بشىء ، و يُظهر أنه بإذن الملك ؛ ففعل ذلك مدّة حتى آجتمع له مال عظيم ، وآتخــذ له أعوانا وحفدا[1] يعينونه على ذلك ، وكان الملك بعد أن أهلك الله الريان بن الوليد نتوارثه الفراعنة ؛ وآستقرّ فى سنجاب بن الوليد ، وكان مكرما لبنى إسرائيل ، وكانوا يعبدون آلله علانية و يتلون الصحف جهرا .

قال : فماتت آبنــة للملك ؛ فحملت إلى المقــبرة ، فتعلق بها أعوان فرعون على العادة لأخذ القطيعة ؛ فاتصــل الخبر بالملك ؛ فأمر بإحضاره وأراد قتله ؛ فقص

---

(١) الحفد : الخدم .

عليه قصّته، وفدى نفسه بمـا جمعه من المـال؛ فعظم عند الملك وأقرّه على عمله؛ فقــرّر فرعون عنــد ذلك على جنائز الملوك ألف درهم، وعلى جنائز الوزراء سبعمائة والقوّاد خمسمائة، ثم إلى المـائة، إلى الخمسين، إلى عشرة، إلى ثلاثة؛ فآجتمع الناس إلى الملك وحرّفوا رأيه عن هــذه الحالة وقبّحوها عليــه؛ فصرفه الملك عنها وأبطلها؛ وحمل إليه فرعون أموالا جمّة، وقال له: أيها الملك، إنّ جدّى كان على حرس أبيك، فآجعل ذلك إلىّ. فولّاه الحرس وأمره أن يشدّد فيه، ويقتل كلّ من لقيه بالليل كائنا من كان؛ وجعل الملك معه عدّة من الرجال والأعوان؛ فخرج فرعون وآتخذ لنفسه قبّة فى وسط البلد، وكان يوجّه أعوانه، فمن أتوه به فى الليل أمر بقتله؛ فتقدّم عند الملك بذلك، لأنه أخاف أعداء الملك، وأمن الملكُ جانبهم بسببه، وخافه الناس، وجعل لنفسه حاجبا، ونفذت كلمته.

ذكر خبر قتل الملك وآستيلاء فرعون على ملكه وما كان من أمره

(٧٠) قال: وآتفق مرض بعض وزراء الملك — وكان الملك يأنس إليه ويقتدى برأيه — فأحبّ أن يزوره بالليل؛ فخرج منفردا وليس معه أحد من خدمه؛ فأخذه أعوان فرعون وأتوه به وهو يقول: ويلكم، أنا الملك سنجاب، وهم يظنون أنه يخدعهم بذلك، حتى أتوا به إلى فرعون، فأمر بقتــله، فقتل؛ وبادر فرعون بمن معه — وكان فيهم كثرة — ودخل القصر، وكان لا يمنع منه؛ فآستوى على سرير الملك ووضع التاج على رأسه، وفتح الخزائن، وأحضر الوزراء وفرّق فيهم الأموال فرضُوا به، وصاروا أولياء له.

قال: وأتاه إبليس وسجد بين يديه، وسمّاه إلٰهـا وربّا؛ ثم سجد له هامان وكان غلاما لسنجاب — وسجــد الوزراء والملوك والأعوان وغيرهم؛ وبعث

إلى أسباط بنى إسرائيل، فدعاهم إلى الطاعة والسجود له ؛ فسجدوا وقصدوا بالسجود الله تعالى .

ثم أقبل فرعون بعد ذلك على إبليس وقال : أيها الشيخ ، إنك كنت مباركا وأنت أول من سجد لى، ثم جرى القوم بعدك على سنتك، فمن أنت؟ قال: أنا رجل من أهل مصر أشير على الملوك بمصالحهم . ثم قال لفرعون : اتخذ لقومك أصناما وآحملهم على عبادتها، وآتخذ لك صنما آنفرد به أنت، وآجعله إلها وربا . فوافقه فرعون على ذلك، وآتخذ له ثورا من ذهب يعبده ، وأمر الناس بعبادة الأصنام ؛ فعبدوها ؛ فكان فرعون يعبد الثور ، والقبط يعبدون الأصنام ، وبنو إسرائيل يعبدون الله ؛ فبلغه ذلك ، فأحضر عُبّادهم وقال : قد بلغنى أنكم مطيعون لى فى الظاهر، مخالفون لى فى الباطن، فاسجدوا لى . فأبوا ذلك، وكان فيهم جماعة من أولاد يوسف ويهوذا، فقتلهم، ثم قتل خلقا كثيرا، وتبعه الباقون وأسرّوا الإيمان، ثم إنّ فرعون آستعبد الناس ووضع عليهم الخراج الكثير، وشقّ عليهم فى الأعمال.

هذا ما حكاه الكسائى — رحمه الله — فى خبر فرعون وآبتداء أمره وسبب ملكه.

وحكى أبو إسحاق الثعلبى — رحمه الله — فى كتابه المترجم (بيواقيت البيان فى قصص القرآن) : أنّ فرعون موسى هو أبو العباس الوليد بن مصعب بن الريّان ابن أراشة بن ثروان بن عمرو بن فاران بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام، وكنّاه بهذه الكنية .

قال : وملك بعد أخيه قابوس بن مصعب؛ وذلك أنه لما مات الريان بن الوليد فرعونُ يوسف — عليه السلام — وذكر أنّه قد آمن بيوسف ومات قبل وفاة يوسف — عليه السلام — ملك بعده قابوس بن مصعب صاحب يوسف

الثانى ؛ فدعاه يوسفُ إلى الإسلام ، فأبى ، وكان جبّارا ، وقبض ٱلله تعالى يوسف فى ملكه ، وطالت أيّام ملكه ، ثم هلك ؛ وقام بالملك بعده أخوه أبو العباس الوليد ابن مصعب ، ولم يذكر خلاف ذلك .

وقد قيل فى ٱسمه ونسبه وسبب ملكه غير ذلك ، وسيرد — إن شاء الله تعالى — فى أخبار ملوك مصر الفراعنة ما ستقف عليه هناك — إن شاء الله تعالى — والله أعلم .

ذكر خبر آسية بنتِ مزاحم وزواج فرعون بها

قال : وكانت آسية بنتُ مزاحم من الصدّيقات ، وهى مختلَف فى نبوّتها ولا خلاف أنّها صدّيقة ، وكانت بارعة الجمال ، فبلغ فرعونَ خبرها و جمالها ، فأرسل إلى أبيها مزاحم (أن ٱبعث إلىّ بآسية فإنها أمتى) . فدخل على فرعون وقال : إن ابنتى صغيرة لا تصلح . فكذّبه فرعون وقال : قد عرفت وقت ولادتها . فقال : أيها الملك ، فٱجعل لها مهرا . فغضب فرعون وقال : احملها إلىّ ، فإن رضيتُها أكرمتها ، وإلّا رددتها إليك . فقال له عمران : أيها الملك ، لا تفضحنى فى ٱبنة أخى ، ولكن أكرمها بخلعة ومهر . فأجابه إلى ذلك ؛ فانصرف مزاحم وأخبر آسية بذلك وقال : إن ٱمتنعتِ يكون ذلك هلاكى وهلاكِ . قالت فكيف تكون مؤمنةٌ عند كافر ؟ فلم يزل بها حتى أجابت على كره منها ؛ وحمل إليها فرعون عشرة آلاف أوقية من الذهب ، ومثل ذلك من الفضّة ، و جملةً من أنواع الثياب والطُّرَف ؛ وحُملت إلى فرعون ، فحماها الله منه حتى رضى منها بالنظر . وكان فرعون قد رأى قبل ذلك من الآيات ما دلّه على أن زوال ملكه يكون على يد فتى من بنى إسرائيل ؛ فقال : ائتونى بعمران لأنه كبير فيهم لأصطنع إليه و إليهم معروفا . فأُتى به ، فخلع عليه وتوّجه ، وجعله سيّد وزرائه ، حتى كان هامان وغيرُه يحسدونه .

ذكر شيء من الايات التى رآها فرعون قبل مولد موسى عليه السلام ٧١

فمن ذلك أنه هتفت به الهواتف تقول : ويلك يا فرعون ، قد قرب زوال ملكك على يد فتى من بنى إسرائيل .

ثم رأى الرُّؤى التى أزعجته وأفزعته ؛ فكان منها أنه رأى شابا وقد دخل عليه وبيده عصا ، فضربه بها على رأسه وقال : ويلك يا فرعون ، ما أقل حياءك من خالق السموات ، كلّما رأيت آية ازددت كفرا . ونظر إلى آسية فى المنام ولها جناحان تطير بهما بين السماء والأرض حتى دخلت السماء ؛ ورأى الأرض قد انفرجت وأدخلته فى جوفها ؛ فانتبه فزعا ، وقصّ رؤياه على أهل العبارة ، فقالوا : إنّها تدلّ على مولود يولَد يسلُبك ملكك ، ويزعم أنه رسول إله السماء والأرض ويكون هلاكك وقومك على يديه .

وكان فرعون قبل ذلك إذا عبّر عليهم رؤيا يقولون : هذه أضغاث أحلام ويكتمونه ما تدلّ عليه .

ذكر خبر قتل الأطفال

قال : فاستشار فرعون وزراءه وأهلَ مملكته ، فأشاروا عليه بقتل من يولد من الذكور ؛ فقتل اثنى عشرة ألف امرأة وسبعين ألف طفل ؛ وكان يعذّب الحوامل حتى يسقطن ، حتى ضجّت الملائكة إلى ربّها ؛ فأوحى الله إليهم بأن له أجلا وبشّرهم بموسى ؛ وكان فرعون قد منع وزراءه وكبار أهل مملكته من الاجتماع بأهاليهم والخلوة بهنّ ، لأنه كان قد بلغه أن المولود يكون من أقرب الناس إليه ؛ وكان عمران ممن مُنع ؛ وكان فرعون إذا نام لا يفارقه حتى يستيقظ ؛ فبينما عمران ذات ليلة على كرسيه عند رأس فرعون إذا هو بامرأته وقد حُملت إليه على جناح ملَك من

الملائكة؛ فلما نظر عمران إليها فزع وقال : ما حاجتك ها هنا ؟ فسكتت ؛ فقال له الملك : إن الله يأمرك يا عمران أن تأتى زوجتك على فراش فرعون ليكون ذلك هوانا له . فواقعها فحملت بموسى؛ ثم اغتسلا فى الحوض الذى فى دار فرعون؛ ثم حملها الملك وردّها إلى منزلها ؛ وكان على باب فرعون ألف حاجب، والأبواب مغلّقة، فلم يُغن عنه ذلك؛ ولما أصبح فرعون دخل عليه المنجّمون وقالوا : إن الذى تخافه قد حملتْ به أمّه وقد طلع نجمه . فأمر فرعون القوابل والحواضن أن يدرن على نساء بنى إسرائيل ؛ ففعلن ذلك ، ولم يعبرن بيت عمران لعلمهنّ بملازمته لفرعون ليلا ونهارا ؛ فلما تمت أيّامها جاءها الطلق نصف الليل، وليس عندها إلا ابنتها، فوضعتْه ووجهه يتلألأ نورا .

ذكر خبر ميلاد موسى وما كان من أمره وإلقائه فى التابوت

قال : وأصبحت أمّ موسى وهى شديدة الفرح به والخوف عليه؛ وسمع فرعون فى تلك الليلة هاتفا يقول : ولد موسى وهلكت يا فرعون وتنكّست الأصنام . فشدّد فرعون فى طلب المولود ، فكانت أمّه ترضعه ، وإذا خرجت فى حاجة ألقته فى التنّور بمهده وغطّته؛ ففعلت ذلك فى بعض الأيّام، وكانت أخته قد عجنتْ وأرادت أن تخبز، فسجرت التنور وهى لا تعلم أن موسى فيه؛ وجاء هامان والدايات فدخلوا دار عمران فلم يجدوا شيئا ، ونظروا إلى التنور والنار تعلو منه ، فانصرفوا؛ وجاءت أمّ موسى فرأت الأعوان والحرس قد خرجوا من منزلها ، فكاد روحها يزهق من الغمّ؛ فدخلت المنزل بسرعة نحو التنور، فرأت النار فيه؛ فلطمت وجهها وقالت : ما نفعنى الحذر ، أحرقتم ولدى . وانطلقتْ إلى التنور فرأت موسى ولم تمسّه النار ؛ فأخرجته؛ ولما تم له أربعون يوما فزعتْ عليه ، فاتخذت له تابوتا

ووضعته فيه، وألقته فى اليمّ؛ وكان أبوه قد مات قبل ذلك ودفن، فلذلك اشتدّ خوف أمّ موسى .

قال الله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ ﴾ .

قال : فلمّا أتت به لتلقيه فى النيل تصوّر لها إبليس فى صورة حيّة سوداء وقال : إن ألقيته فى اليمّ ابتلعتُه . فعلمتْ أنه إبليس؛ فسمعت النداء : ﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ .

قال : فطرحته فى النيل . فقيل : إنه بقى فى الماء أربعين ليلة .

وقيل : ثلاثا .

وقيل : ليلة واحدة .

ذكر دخول التابوت فى دار فرعون ورجوع موسى إلى أمّه

قال : وأصبح فرعون فى اليوم الذى دخل فيه التابوت إلى قصره ، فصعد أعلى القصر وأشرف فرأى التابوت والموجَ يلعب به؛ (٧٢) وكان لفرعون سبع بنات من غير آسية ، بكلّ واحدة منهنّ نوع من البلاء والمرض ؛ وكان الأطبّاء قالوا له : إنّ دواءهنّ أن يغتسلن فى النيل . فصنع لهنّ نهرا من النيل وأجراه فى وسط القصر يصب فى حوض عظيم؛ فكانت بناته يغتسلن فيه؛ فأمر الله الريح أن تلقى التابوت فى ذلك النهر وبنات فرعون فيه ؛ فبادرت الكبرى وفتحته فإذا فيه موسى وله شعاع ونور ؛ فلما لمسته أذهب الله ما بها من البلاء والمرض؛ فلمسته بنات فرعون واحدة بعد أخرى، فذهب ما بهنّ من الأمراض؛ وأقبلن بالتابوت إلى آسية؛ فلما رأته قبلته ولم تعلم أنه ابن عمّها ؛ ثم أعادته إلى التابوت ؛ وحملته جارية معها

ومضت به إلى فرعون ؛ فلمّـا نظر إليه أُرعد منه وقال : يا آسية ، إنى أخاف أن يكون هذا عدوّى ، ولا بدّ لى من قتـله . فقالت له : قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا .

وحكى الثعلبىّ أنها لمـا قالت : قُـرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ ، قال فرعون : قرّة عين لكِ ، أمّا أنا فلا حاجة لى فيه .

قال أبو إسحاق : قال رسـول الله صلّى الله عليه وسـلّم : " والذى يُحلَف به لو أقرّ فرعون أن يكون له قرّة عين كما أقرّت به لهـداه الله تعالى كما هدى به آمرأته ولكن الله تعالى حرمه ذلك " .

قال الكسائىّ : ولم تزل تتلطّف بفرعون حتى تركه ، وأحضرت له المراضع فلم يرضعهنّ . قال الله تعالى : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ ﴾ .

وأرسلت أمّ موسى آبنتها كلثم(١) ، قال الله تعـالى : ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِـهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

قال : فدخلت قصر فرعون فرأته فى حجر آسية وقد آمتنع أن يرضع ؛ فتقدّمت إليها ، فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ .

قال : ولم تعلم آسية أنها آبنةُ عمّها لرثاثة ثيابها ، لأنها دخلت فى حلبة المراضع ؛ فالتفت إليها فرعون وقال : مَـن هؤلاء القوم الّذين يكفلونه ؟ قالت : قوم من آل إبراهيم . قال : اذهبى وائتنى بهـم . فرجعت إلى أمّها وأخـبرتها ؛ فدخلت على فرعون وموسى بين يديه ، فعرفتها آسيةُ وقالت : خذى هذا الصبىّ وأرضعيه . فلما أخذته آلتقم ثديها و رضع منه ، وفرعون لا يعلم أنّها آمرأة عمران ؛ فقالت لها

(١) كذا ورد هذا الاسم فى الأصول وتاريخ العينى .

آسية : أحبّ أن تكونين عندى إلى أن يستغنى هذا الغلام عن الرضاع . فأقامت عند آسية سنتين حتى فطمته وفارقته مستبشرة فرحة .

وحكى الثعلبىّ أنها لم تقم عنـد آسية ، بل أخذته وصارت إلى منزلها فأرضعته إلى أن تمّ رضاعه، وأعادته إلى آسية؛ والله أعلم .

ذكر شىء من عجائب موسى — عليه السلام — وآياته

قال : فلمّا صار موسى من أبناء ثلاث سنين ، اسـتدعاه فرعون وأجلسه فى حجره وجعل يلاعبـه ؛ فقبض على لحية فرعون؛ فتألّم لذلك وقال : لا شكّ أنّ هـذا عدوّى . وهمّ بقتله ؛ فقالت له آسية : إن الصبيان لهم جراءة ولعب من غير معرفة ولا عقل، وأنا أريك أنه لا يعقل؛ وأمرت بإحضار طست وطرحت فيه درّة وجمرة، وقدّمتـه إلى موسى، فأراد أن يأخذ الدرّة ؛ فصرف جبريل يده عنها إلى الجمرة ، فأخذها ورفعها إلى فيـه ، فاحترق لسانه ، فقذفها من فيـه وبكى بكاء شـديدا ؛ فقالت آسـية لفرعون : علمتَ أنه لا يميّز بين الدرّة والجمرة ؟ فسكن عند ذلك .

قال : فلمّـا تمّ لموسى سبع سنين ، جلس فى بعض الأيّام مع فرعون على سريره فقرصه فرعون، فغضب موسى ونزل عن السرير وضرب قوائمه برجله ، فكسر قائمتين منه ، فسقط فرعون عنه ، وانهشم أنفه وسال الدم على لحيته ؛ فبادر موسى ودخل على آسـية وأعلمها بالخبر ، وتبعه فرعون إليها وأراد قتله ؛ فقالت : ألا يسرّك أن يكون ولدك بهذه القوّة يدفع أعداءك عنك؟ ولاطفته حتى سكن غضبه .

ثم ظهر له من المعجزات والآيات ما لا يظهـر إلّا للأنبياء وفرعون يكرمه ؛ والله الموفّق .

ذكر خبر القبطىّ وخروج موسى من مصر

قال : ولمّا كبر موسى صار يركب من مراكب فرعون ويلبس من ملابسه ؛ وكان يدعى : موسى بن فرعون ؛ فامتنع بسببه الظلم عن بنى إسرائيل ، ولم يعلم إلّا أنّ ذلك من قبل الرضاعة ؛ وٱتفق ركوب فرعون ، فركب موسى فى أثره والمدينة مغلّقة الأسواق ، وليس بها أحد ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ فكان ٱلذى من شيعته فتى من بنى إسرائيل ، والذى من عدوّه رجل من القبط ، وهو طبّاخ لفرعون ، وقد (٧٣) أخذ حطبا للطعام ، وهو يريد الإسرائيلىّ على حمله وقد ٱمتنع ؛ فلما مرّ بهما ٱستغاثه الإسرائيلىّ ؛ فقال للطبّاخ : اتركه . فٱمتنع من تركه ؛ فوكزه موسى فى صدره فمات ؛ فندم موسى على قتله ؛ قال الله تعالى ﴿ فَٱسْتَغَاثَهُ ٱلَّذِى مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ الآيات .

قال : فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ .

وجاء القبط وشكوا إلى فرعون أنّ بنى إسرائيل قتلوا رجلا منهم ؛ فأمرهم أن يطوفوا على قاتله ؛ وخرج موسى فى اليوم الثانى ، فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنْصَرَهُ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ على قبطىّ آخر ، والقبطىّ يقول : هذا الّذى قتل ٱبن عمّى بالأمس . فقال الإسرائيلىّ : أعنّى يا موسى على هذا ، فإنّه يريد أن يحملنى إلى دار فرعون قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُبِينٌ .

قال : ثم لم يجد موسى بدّا من نُصرة الإسرائيلىّ ، فحسر عن ذراعيه ، ودنا من القبطىّ ؛ فظنّ الإسرائيلىّ أنّ موسى يريد أن يبطش به ، فقال ما أخبر الله به عنه :

﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ .

فلما سمع القبطى كلام الإسرائيلى لموسى تحقق أن موسى قاتل ٱبن عمه ؛ فدخل إلى دار فرعون وأخبرهُ أن موسى هو الّذى قتل القبطى ؛ قال: ومن أعلمك؟ فقصّ عليه القصة ؛ فأذن فرعون لأولياء المقتول فى قتل موسى حيث وجدوه ؛ لجاء حزقيل — وكان مؤمنا من آل فرعون — وأعلم موسى بالخبر .

قال الله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ .

ومضى بغير زاد ولا راحلة ؛ فمرّ براعٍ فى طريقه ، فأعطاه موسى ثيابه ، وأخذ جبّة الراعى وكساه ، وسار فوصل إلى مدين فى اليوم السابع وقد أجهده الجوع .

قال : وكان موسى يسير بالليل ودليله النجم ، فإذا جاء الصبح جاءه أسدان يدلّانه على الطريق ؛ فكان هذا دأبه وهُما كذلك حتى ورد مدين ؛ والله الهادى .

ذكر خبر ورود موسى مدين وما كان بينه وبين شعيب وزواجه ٱبنته

قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ وكانتا ٱبنتى شعيب عليه السلام .

قال : وكان الرعاء إذا سقوا غطّوا البئر بصخرة لا يرفعها إلّا جماعة ؛ فلمّا آنصرفوا تقدّم موسى إلى الصخرة فوكزها برجله ، فدحاها أربعين ذراعا على ضعفه من الجوع وسقى غنمهما .

قال الله تعالى : ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ .

قال : فتمنّى موسى فى ذلك الوقت شبعةً من خبز الشعير، وآنصرفت المرأتان إلى أبيهما وأخبرتاه بالخبر، فأرسل إحداهما إليه وقال : ائتيني به . قال الله تعالى : ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ .

فقام موسى ، وكانت تمرّ بين يديه فكشف الريحُ عن ساقيها ؛ فقال لها : تأخّرى وراثى ودلّيني على الطريق . فتأخّرت وكانت تقول : عن يمينك وعن شمالك . حتى دخلا مدين؛ وجاء إلى شعيب — وهو شيخ كبير وقد كفّ بصره — فسلّم عليه؛ فردّ عليه ورحّب به وسأله عن خبره . قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

ثم دعا شعيب بالطعام فأكل ؛ فقالت آبنته : يَا أَبَتِ ٱسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ أرادت بالقوّة رفع الحجر عن رأس البئر وآستقاءه بالدلو العظيمة، وأمانته أنّه أخّرها إلى خلفه .

فرغب فيه وقال : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ * قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ .

فتزوج موسى صفورا[1] — وهى الصغرى منهما — وطلب عصا؛ فقالت له: ادخل بيت أبى الذى يأوى فيه فخذ عصاك . وكان فيه عصىّ كثيرة — فدخل (٧٤) موسى البيت وأخذ من العصىّ عصا حمراء؛ فقال له شعيب : هذه من أشجار الجنة أهداها الله إلى آدم ، ثم صارت إلى شيث وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، وكلهم توكّأوا عليها ، فلا تخرجنّها من يدك . ثم أوصاه وحذّره من أهل مدين ، وقال : إنّهم قوم حسدة ، وإذا رأوك قد كفيتنى أمر غنمى حسدونى عليك ، فدلّوك على وادى كذا وكذا ، وهو كثير المرعى، وإنما فيه حيّة عظيمة تبتلع الغنم، فإن دلّوك عليه فلا تمرّ به، فإنّى أخاف عليك وعلى غنمى .

فخرج موسى بالغنم — وكانت يومئذ أربعين رأسا — وقال فى نفسه : إنّ من أعظم الجهاد قتلَ هذه الحيّة . وتوجه بالغنم إلى ذلك الوادى؛ فلمّا قاربه أقبلت الحيّة إلى الغنم ، فقتلها موسى ورعى غنمه إلى آخر النهار، وعاد إلى شعيب وأعلمه الخبر ؛ ففرح بقتلها ، وفرح أهل مدين وعظّموا موسى وأجلّوه؛ وقام موسى بغنم شعيب يرعاها ويسقيها، حتى انقضت المدّة التى بينهما ، وبلغت أربعمائة رأس وعزم موسى على المسير .

ذكر خبر خروج موسى — عليه السلام — من أرض مدين ومناجاته ومبعثه إلى فرعون

قال : ولما أراد موسى الانصراف بكى شعيب وقال : يا موسى ، إنّى قد كبرت وضعفت ، فلا تضيّعنى مع كبر سنّى وكثرة حسّادى ، وتترك غنمى شاردةً لا راعى لها . قال موسى : إنّها لا تحتاج إلى راع ، وقد طالت غيبتى عن أمّى

(١) كذا ورد هذا الاسم فى التوراة وتاريخ العينى .

وخالتي وهارونَ أخى وأختى . فقال شعيب : إنى أكره أن أمنعك . وأوصاه بابنته وأوصاها ألّا تخالفه؛ وسار موسى — عليه السلام — بأهله يريد أرض مصر حتى بلغ جانب وادى طُوًى فى عشيّة شديدة البرد؛ وجاء الليل وهبّت الرياح وغيّمت السماء، فأنزل موسى أهله وضرب خيمته على شفير الوادى، وأدخل أهله فيها؛ وهطلت السماء بالمطر؛ وكانت امرأته حاملا، فجاءها الطلق، فجمع حطبا وقدح الزنادَ فلم يور، فرماه وخرج من البيت، فرأى نارا .

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوا إِنِّى آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِىَ مِنْ شَاطِئِ ٱلْوَادِى ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَارَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّى أَنَا ٱللهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ .

ولم يكن هناك نار بل نور .

قال الثعلبىّ : واختلفوا فى الشجرة ما كانت، فقيل: العوسجة . وقيل : العُنّاب .

قال الكسائىّ : وأمر موسى بخلع نعليه ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِىَ يَا مُوسَى * إِنِّى أَنَا رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِى ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴾ .

قال : لأنه كان يركزها فى الأرض ويعلّق عليها كساءه وإداوته ونعليه، ويقاتل بها السباع، ويستظلّ بها من الشمس .

قال الله تعالى : ﴿ أَلْقِهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾ على مثال الثعبان العظيم .

قال : فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ .

فلما أمعن فى الهرب قال له جبريل : أتهرب من ربك وهو يكلمك ؟ قال : ما فررت إلّا من الموت . ورجع وهى بحالها ؛ قال الله تعالى : ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴾ .

فأدخل يده فى فيها فإذا هى عصا ؛ ثم قال الله له : ﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ﴾ فذهب الخوف عن موسى ؛ ثم أمره الله تعالى أن يذهب إلى فرعون ، فقال : ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ . قال موسى : رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا . قال الله تعالى : ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾ .

قال : ثم تذكر موسى ما كان منه فقال : رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ . فنودى : يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ . ثم ذكره الله منته عليه فقال : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴾ الآيات ؛ ثم قال الله تعالى : ﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى * قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى * فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ (٧٥)
مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴾ .

قال : وكان الخطاب لموسى وحده ، والرسالة له ولهارون .

قال : وأمّا ابنة شعيب فاشتدّ بها الطلق ، وسمع سكّان الوادى من الجنّ أنينها ، فأتوها وأوقدوا النار عندها ، وقبلوها ؛ وقيض الله تعالى لها من ردّها إلى أبيها ، والله المعين .

ذكر خبر مسير موسى إلى مصر واجتماعه بأخيه هارون وأمّه

قال الكسائىّ : وسار موسى من الطُّور حتى بلغ العمران؛ وكان هارون يومئذ وزيرا لفرعون على عادة أبيه لا يفارقه ليلا ولا نهارا ؛ فبينما هو نائم إلى جنب سرير فرعون إذ أتاه آت فى منامه ومعه شراب فى كأس من الياقوت ، وقال : يا هارون اشرب هـذه الشربة فهى بشارة بقدوم أخيـك من أرض مدين ، وأنت شريكه فى الرسالة إلى فرعون .

فانتبـه هارون فزِعا وظنّ ذلك من الشيطان ، وعاد إلى النوم، فعاوده القائل ثلاث مرّات ؛ ثم قال له : قم إلى أخيك — وكانت الأبواب مغلّقة — فاحتمله الملَك إلى قارعة الطريق وقال له : امض واستقبل أخاك . ثم أتاه جبريل بوحى الله وبشّره بالرسالة ، وحمـله إلى شاطئ النيل، وموسى إلى الجانب الآخر؛ فكان يكلّمه والريح تحمـل كلامه إلى هارون ؛ ثم أذن الله لهما أن يلتقيا ؛ فجاء موسى إلى الجانب الآخر، فالتقيا ؛ وبشّره بشركته فى الرسالة ؛ ثم أقبـلا إلى أمهما وجبريل معهما ، فطرق هارون الباب وأمّه فى صـلاتها، فقامت من محرابها وقالت : من بالباب؟ فقال موسى : أنا ولدك موسى وأخى هارون . ففتحت الباب، ووقعت مغشيّا عليها من الفرح؛ ثم أفاقت؛ وذكر لها موسى ما كان من أمره؛ فسجدتْ لله تعالى؛ ثم حمل جبريل هارونَ وأعاده عنـد رأس فرعونَ؛ وأقام موسى بقيّة ليلته عنـد أمّه ، وخرج من الغـد متنكّرا ، تنظر إلى ما أحدثه فرعون فى أرض مصر ورجع حتى أقبلت الليلة الثانية ، فخرج وجاء إلى قصر فرعون وبه الحجّاب والحرس والجنود، فقرع الباب بعصاه، فانفتح ودخل حتى بلغ القبّة الأُرجوانيّة، فانفتحت وعبرها وفرعون نائم بها، وهارون عند رأسه؛ فقام إليه هارونَ وقال : لقد عجلتَ يا أخى . وأخرجه؛ فانصرف، وغُلّقت الأبواب كما كانت .

فلمّا كان من الغد جاء إلى فرعون فعرفه بعضهم، وأنكره البعض، وجاء بعض الوزراء إلى فرعون وأخبره به، فأرعدت فرائصه، وأمر هامانَ أن يخرجَ إليه؛ فخرج وساله عن اسمه، فأخبره أنه موسى؛ فعاد هامان إلى فرعون وأعلمه أنه هو؛ فنظر إلى هارون وقال: أيَقدَم أخوك ولم تعلمني به؟ فقال: أردت ذلك وإنما خشيت غضبك.

ذكر خبر دخول موسى – عليه السلام – إلى فرعون وما كان من أمره معه

قال: وأمر فرعون أن يزيّن قصره، وجلس والتاج على رأسه، ووقف الوزراء عن يمينه وشماله، وأُحضِر موسى؛ فلمّا رآه عرَفه، ثم قال له: من أنت؟ قال: أنا عبد الله ورسوله وكليمه. قال: أنت عبد فرعون. قال: إن الله أعزّ من أن يكون له نِدّ. قال له فرعون: إلى من أُرسلت؟ قال: إليك وإلى جميع أهل مصر. قال: فماذا؟ قال: أن يقولوا لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأنّى موسى عبده ورسوله. قال: فما حجّتك؟ فإنّ لكلّ مدّعٍ بيّنة. قال: إن أتيتك ببيّنة تؤمن؟ قال: نعم. قال موسى: ياهارون، انزل عن الكرسيّ وبلّغ فرعون الرسالة. فنزل وقال: يا فرعون. إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى. فقال فرعون: فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى، الآيات.

فغضب فرعون على هارون، وأمر هامانَ بنزع ما عليه من اللباس؛ فنزعه حتى بقي بالسراويل، فألبسه موسى مدرّعة الصوف؛ فاقشعرّ جلده؛ فنزل جبريل بقميص كوّنه الله تعالى فكان وألبسه إياه؛ فقال فرعون لهامان: احمل موسى

وأخاه إلى منزلك ودارهما، فإن أطاعانى مكّنتهما من خزائنى ، ولا أقطع أمرا دونهما . ففعل ذلك ، فقالا له : يا هامان آشترِ نفسك من ربّك . فضحك من قولهما، ثم أحضرهما من الغد إلى فرعون، فأقبل على موسى وقال : ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ * (٧٦) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ أى عن النبوّة ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ثم قال : تذبّح أبناءهم وتستحيى نساءهم، فشكوك إلى ربّ العالمين . وكان فرعون متكئا ، فاستوى جالسا وقال : ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ . فآلتفت فرعون لمن حوله وقال : ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ . قال موسى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ . قال فرعون : ﴿ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ . قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

ذكر خبر العصا حين صارت ثعبانا واليد البيضاء

قال : وبينا هما فى المخاطبة وإذا بالعصا آضطربت فى كف موسى ؛ فناداه جبريل : أطلقها يانبىّ الله . فألقاها موسى ﴿ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ كأعظم ما يكون، ثم تمثّل مثال الجمل البُختىّ وقام على رجليه حتى أشرف برأسه على حيطان القصر وتنفّس نارا ودخانا ، وعطف على قبّة فرعون فضربها فطحطحها ، وجعلت لا تمرّ بشىء إلا آبتلعته ، وهاجت كالجمل المغتلم ولها صوت كالرعد ، وأقبلت إلى قبّة فرعون وهو فيها ، فوضعت لحيها الأسفل تحت القبة ، ولحيها الأعلى فوقها ، ورفعت القبّة

ثمانين ذراعا فى الهواء ، وقالت : يا فرعون ، وعزّة ربّى لو أذن لى لابتلعتك بقصورك وأموالك . فلمّا نظر فرعون إلى ذلك وثبَ عن سريره — وهو أعرج — وجعل يعدو ويقول : يا موسى بحقّ التربية والرضاع ، وبحقّ آسية كفّها عنّا . فناداها ، فأقبلت ، فأدخل يده فى فيها ، وقبض على لسانها فإذا هى عصا كما كانت ؛ فعاد فرعون إلى مكانه وقال : يا موسى ، لقد تعلّمتَ بعدى سحرا عظيما . قال : يا فرعون ، ﴿ أَسِحْرٌ هٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُونَ ﴾ . قال فرعون : هل عندك سحر غير هذا ؟ قال : نعم ؛ فأدخل يده فى جيبه ، ثم أخرجها وعليها نور وشعاع ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ * قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ .

ذكر خبر السّحرة واجتماعهم وما كان من أمرهم وإيمانهم

قال : فأمر فرعون بجمع السّحرة ؛ فاجتمع إليه سبعون ألف ساحر ؛ فاختار منهم سبعين ساحرا — وهم أحذق الخلْق — .

وحكى الثعلبىّ عن عطاء قال : كان رئيسا السحرة بأقصى مدائن الصعيد وكانا أخوين ؛ فلما جاءهما رسول فرعون قالا لأمّهما : دلّينا على قبر أبينا . فدلّتهما عليه ؛ فأتيـاه فصاحا باسمه ، فأجابهما ؛ فقالا له : إن الملك قد وجّه إلينا أن نَقدَم إليه ، لأنّه أتاه رجلان ليس معهما رجال ولا سلاح ، ولهما عزّ ومنعة ، وقد ضاق الملك ذرعا بهما ، ومعهما عصا إذا ألقياها لا يقوم لها شىء حتى تبتلع الحديد والخشب والحجارة . فأجابهما أبوهما : أنظرا إذا هما ناما ، فإن قدرتما أن تسُلّا العصا فسُلّاها ، فإنّ الساحر لا يعمل سحرُه وهو نائم ، فإن عملت العصا وهما نائمان فذلك

أمر رب العالمين فلا طاقة لكما به ولا للملك ولا لجميع أهل الدنيا . فأتياهما خفية وهما نائمان ليأخذاها ، فصدتهما .

قال الكسائى : وبعث فرعون إلى موسى فأحضره وقال ما أخبر الله تعالى به عنه : ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ .

قال : ويوم الزينة هو أول يوم من السنة ؛ فلما كان فى ذلك اليوم اجتمع الناس من أطراف أرض مصر فى صعيد واحد ، فأخذ فرعون يقول للسحرة : اجتهدوا أن تغلبوا موسى . قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ . قال فرعون : نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ .

وأقبل موسى وهارون وقد أحدقت بهما الملائكة ، فرأى موسى الوادى وقد امتلأ من الحبال والعصى ؛ فقال موسى : وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى . (٧٧)

قال : وكان فى السحرة ساحران عظيمان — وهما رأس السحرة — فقالا : يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى . فهم موسى أن يلقى ، فمنعه جبريل ، وأجرى الله على لسانه فقال : بَلْ أَلْقُوا ؛ فألقوا وسحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم . قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ . فامتلأ الوادى من الحيات ، وجعلت يركب بعضها بعضا ؛ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا

صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ فعندها زال خوفه وقال : مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ . ثم ألقى عصاه فى وسط الوادى ، فانكشف سحر السحرة ، وبطل ما أظهروه من التخييل ، فإذا هى حبال وعصى ، وصارت عصا موسى ثعبانا له سبعة أرؤس ، وعلى ظهره مثل الأزجة[1] ، فابتلعت الحبالَ والعصىَّ وجميعَ ما كان فى الوادى من الزينة ؛ فقام فرعون ووزراؤه فوقفوا على تل ينظرون فعل الحيــة وهم خائفون ، ثم حملت على السبعين رجلا فولّوا هاربين على وجوههم ؛ ثم اجتمعوا بأجمعهم وقالوا : ماهذا بسحر . وخرّوا سجّدا ، قال الله تعالى : ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ .

قال : فاغتمّ فرعون لذلك وقال للسحرة : ﴿ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

وأمر أن يفعل بهم ذلك ؛ فقالوا ما أخبر الله به تعالى عنهم : ﴿ لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ .

ثم صُلبوا على سبعين جذعا بعد أن قطّع فرعون أيديهم وأرجلهم .

ذكر خبر حزقيل مؤمن آل فرعون

قد قيل : إن خبر مؤمن آل فرعون كان قبل خبر السحرة ، وسياق الآيات يدل على أن خطابه لفرعون كان بعد خبرهم ، وذلك أنه لما كان من أمر السحرة

(١) زاد الكسائى بعد هذه الكلمة : « والأسنة »

ماذكرناه، قال الملأُ من قوم فرعون ما أخبر الله تعالى به عنهم ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ . وقال الله تعالى إخبارا عن فرعون : ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ .

قال : فلمّا عزم فرعون على قتل موسى، أقبل حزقيل على القوم — وكانَ خازنَ فرعون وزوجَ ماشطةِ بناته — فقال ما أخبر الله تعالى عنه : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ۞ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ ٱللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ﴾ .

ففزع فرعون من قوله وقال : مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ .

نخوّفهم المؤمن وقال ما أخبر الله تعالى به عنه : ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ۞ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ۞ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ۞ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ .

فلما سمع فرعون كلامه غضب وقال : كأنّك ممن اتبع موسى ، فارجع عن ذلك وإلّا عاقبتك بأنواع العذاب . فقال له حزقيل : يَا قَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ، الآيات .

ثم قال : ﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ * لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ * فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ ؛ ولحق بموسى وهارون، وفارق فرعونَ وقومه ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ .

وحكى الثعلبيّ أنّ فرعون قتله مع السحرة صَلبا ؛ ثم ذكر بعد ذلك أنه كان مع موسى عليه السلام لمّا فرق الله له البحر، والله تعالى أعلم .

ذكر خبر بناء الصرح وما قيل فيه

قال : ولما انقضى أمر السحرة أقبل فرعون على هامان وقال : ﴿ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ .

قال : فجمع هامان خمسين ألف صانع وصنع القِرْميد — وهو الآجُرّ، وهامان أوّل من صنعه — فكانوا يبنون فيه ليلا ونهارا لا يَفتُرون ؛ فلمّا تكامل الصرح وارتفع ارتفاعا عظيما ، أمر الله عزّ وجلّ جبريل فهدمه وجعل عاليَه سافلَه ومات كلُّ من كان فيه على دين فرعون، والمؤمنون يزيدون ويجتمعون إلى موسى عليه السلام .

وحكى أبو إسحاق الثعلبيّ — رحمه الله — أن الصرح اجتمع فيه لبنائه خمسون ألف بنّاء سوى الأتباع والأجراء ممّن يطبخ الآجُرّ والجِصّ وينجر الخشب والأبواب ويضرب المسامير ؛ فلم يزل يبنى ذلك الصرح ؛ ويسّر الله تعالى له أمره

آستدراجا منه ، فأتى الأمر فيه على ما يريد ، إلى أن فرغ فى سبع سنين، فارتفع آرتفاعا لم يبلغه بنيانُ أحد من الخلق منذ خلق الله السموات والأرض؛ فشقّ ذلك على موسى ، فأوحى الله تعالى إليه : أن دعه وما يريد فإنّى مستدرجه ومبطل كلّ ما عمله فى ساعة واحدة .

قال : فلمّا تم بنيانه بعث الله عزّ وجلّ جبريل فضرب بجناحه الصرح، نقَذَف به على عسكر فرعون، فقتل منهم ألفى ألف رجل .

قالوا : ولم يبق أحد ممّن عمل فيه إلا أصابه موت أو حريق أو عاهة .

قال : وكان تدمير الله تعالى الصرحَ فيما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس .

قال : فلمّا رأى فرعون ذلك من أمر الله، وعلم أنّ حيلته لم تغن عنه شيئا عزم على قتال موسى ومن معه، وأمر أصحابه فنصبوا له الحرب ؛ فلما رأى آلله تعالى ذلك من فعل فرعون وقومه ، وأنه حَقّت عليهم كلمة العذاب، ابتلاهم الله تعالى بالعذاب والآيات .

ذكر خبر الآيات التسع

قال الكسائى : ثم أخذ الله تعالى قوم فرعون بالآيات التسع ، فكان أوّل ماجاءهم الطوفان، فدام عليهم ثمانية أيام لا يرون فيها شمسا، حتى آمتلأت الأسواق والدُّور، وأخذتْ فى الخراب؛ فآلتجأوا إلى فرعون، فقال : سأكشف ذلك عنكم . ودعا موسى وسأله أن يدعو برفع الطوفان ليؤمن به ؛ فطمع موسى فى ذلك، فسأل الله تعالى، فرفع ذلك عنهم ، فآزدادوا كفرا، فبعث الله تعالى عليهم الجراد فأكل أشجارهم وزرعهم، ودام ثمانية أيام، ففزعوا إلى فرعون، فوعدهم بصرفه عنهم وضمن لموسى إن صرفه عنهم آمن به؛ فدعا ربّه، فأرسل الله على الجراد ريحا باردة

فقتلتـه ، فلم يؤمنوا ، فبعث الله عليهم القُمّل فأكل جميع ما فى بيوتهم ، وقرض ثيابهم وأبدانهم وشعورهم ، فضجّوا إلى فرعون ، فسأل موسى ووعده الإيمان ، فسأل الله تعالى ، فصرفه عنهم بعد ثمانية أيام وأماته ، فازدادوا كفرا ؛ فأرسل الله تعالى عليهم الضفادع ، فكانت تدخل فى طعامهم وشرابهم ، وكانت لها رائحة منتنة فدامت ثمانية أيام ؛ فسأل موسى ؛ فلما كشفها الله عنهم لم يؤمنوا وآزدادوا كفرا ؛ فأمر الله تعالى موسى : أن آضرب بعصاك النيل . فضرب به فتحوّل دما عبيطا ، فاشتدّ بهم العطش ، فكان الإسرائيلىّ والفرعونىّ يأتيان إلى موضع واحد ، فإذا أخذه الإسرائيلىّ يكون ماء ، وإذا أخذه الفرعونىّ كان دما ، فدام ذلك ثمانية أيام حتى أجهدهم العطش وأشرفوا على الهلاك ؛ فلمّا كشفه الله عنهم بدعوة موسى آزدادوا كفرا .

ذكر خبر مسخ قوم فرعون

قال : ولما لم يؤمنوا بهذه الآيات ، قال موسى : رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ؛ وكان الدعاء من موسى ، والتأمين لهارون ؛ فأوحى الله إليهما : ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا ﴾ الآية .

قال : فطمس الله تعالى على كثير منهم ، حتى أصبح الرجال والنساء والصبيان والأموال كلّها حجارة ، فلم يؤمنوا ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ .

قال عمر بن عبد العزيز فى تفسيره : كان أوّل الآيات العصا ، واليد البيضاء والطُّوفان والجراد والقُمّل والضفادع والدم والطَّمس والبحر حتى صار يَبَسا .

هذا ملخّص ما حكاه الكسائىّ .

وحكى أبو إسحاق الثعلبيّ فى قصصه عن ابن عبّاس وسعيد بن جُبير وقتادة ومحمد بن إسحاق وغيرهم من أصحاب الأخبار — دخل حديث بعضهم فى حديث بعض — قالوا : لما آمنت السحرة وصلبهم فرعون، وانصرف موسى وهارون إلى عسكر بنى إسرائيل، أمر فرعون أن يكلّفوا بنى إسرائيل ما لا يطيقونه، فكان الرجل من القبط يجىء إلى الرجل من بنى إسرائيل فيقول له : انطلق معى فاكنس حِشّى (١) واعلف دوابّى واستق لى . وتجىء القبطية إلى الكريمة من بنى إسرائيل فتكلّفها ما لا تُطيق، ولا يطعمونهم فى ذلك كلّه خبزا، واذا انتصف النهار يقولون لهم : اذهبوا فاكسبوا لأنفسكم . فشكوا ذلك إلى موسى ، فقال لهم : ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ . قالوا : يا موسى : ﴿أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ ، كنا نطعَم اذا استعملونا من قبل أن تجيئنا ، فلمّا جئتنا استعملونا ولا يُطعِمونا . فقال لهم موسى : ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ يعنى فرعون والقبط ، ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ .

قالوا : فلمّا أبى فرعون وقومُه إلّا الإقامة على الكفر ، والتمادىَ فى الشر والظلم، دعا موسى ربّه وقال : ربّ إن عبدك فرعون طغى فى الأرض وبغى وعتا وإن قومه نقضوا عهدك وأخلفوا وعدك، ربّ خذهم بعقوبة تجعلها عليهم نقمة ولقومى عظة ، ولمن بعدهم من الأمم عبرة . فتابع الله عليهم الآيات المفصّلات بعضها فى إثر بعض، فأخذهم بالسنين ونقص من الثمرات ، ثم بعث عليهم الطوفان (وهو الماء) أرسل عليهم السماء حتى كادوا يهلكون، وبيوتُ بنى إسرائيل وبيوتُ القبط مشبّكة مختلطة بعضُها فى بعض، فامتلأت بيوتُ القبط حتى قاموا فى الماء

(١) الحش : يكنى به عن بيت الخلاء، وهو مثلث الحاء .

إلى تَرَاقيهم، فمن جلس منهم غرق، ولم يدخل بيوتَ بنى إسرائيل من المـاء قطرة وفاض المـاء على وجه أراضيهم كذلك، فلم يقدروا على أنْ يحرثوا ولا يعملوا شيئا؛ ودام ذلك عليهم سبعة أيّام من السبت إلى السبت؛ فقالوا لموسى : ادع لنا ربّك يكشف عنّـا هذا البلاء ونؤمن بك ونرسـل معك بنى إسرائيـل . فدعا موسى ربّه فرفع عنهـم الطوفان، فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معـه بنى إسرائيل، وعادوا أشرّ مما كانوا عليه .

وٱختلف العلماء فى الطوفان ماهو؛ فقال ٱبن عبّاس — رضى الله عنهما — : هو المـاء أرسله الله تعالى عليهم .

وقال مقاتل : هو المـاء طغى فوق حروثهم فأهلكها .

وقال الضحّاك : هو الغرق .

وقال مجاهد وعطاء : هو الموت الذريع .

وقال وهب : هو الطاعون بلغـة أهل اليمن ، أرسـل الله الطّوفان على أبكار آل فرعون فقبضهنّ فى ليلة واحدة، فلم يُبق منهنّ واحدة ولا دابة .

وقال أبو قِلابة : الطّوفان هو الجُدَرِىّ ، والله تعالى أعلم .

قالوا : وأنبت الله تعالى لهم فى تلك السنة من الكلإ والزرع ما لم يَنبُت قبل ذلك ، فأعشبت بلادهم وأخصبتْ ، فقالوا : هـذا ما كنّا نتمنّاه ، وما كان هـذا المـاء إلّا نعمةً لنا وخِصبا . فأقاموا شهرا فى عافيـة ؛ ثم بُعث عليهم الجرادُ فأكل زرعهم وثمـارهم وأوراق أشجارهم والزهرَ، حتّى إن كان ليأكل الأبواب والثياب والأمتعة وسـقوف البيوت والخشب والمسـامير حتى سقطتْ دورهم ، والجراد لا يدخل ببوت بنى إسرائيل ولا يصيبهم من ذلك شىء؛ فعَجّوا وضَجّوا، وقالوا :

يَا مُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ؛ فأعطوه عهد ٱلله وميثاقه ؛ فدعا موسى ربّه ، فكشف الله تعالى عنهم الجراد بعد ما أقام عليهم سبعة أيّام من السبت إلى السبت .

ويقال : إن موسى برز إلى الفضاء، فأشار إلى المشرق بالعصا فذهب الجراد من حيث جاء كأن لم يكن قطّ .

قالوا : فأقاموا شهرا فى عافيــة ؛ ثم بعث الله عليهم القُمَّل ، وذلك أن موسى أُمر أن يمشى إلى كثيب أعفَر بقــرية من قرى مصر تدعى : (عين شمس) فمشى موسى إلى ذلك الكثيب — وكان عظيما — فضربه بعصاه ، فأنثال عليهم القُمَّل فتتبّع ما بقى من حروثهم وأشجارهم ونباتهم فأكله ولحس الأرض كلّها ، وكان يدخل بين ثوب أحدهم وبين جلده فيعَضّه ، وكان يأكل أحدهم الطعامَ فيمتلئ قُمَّلا ، حتى إن أحدهم ليبنى الأسطوانة بالجِصّ فيُزلِّقها حتى لا يَرتقِى فوقها شىء ، ثم يرفع فوقها طعامه ، فإذا صعد إليه ليأكله وجده ملآن قُمَّلا ، فما أصيبوا ببلاء كان أشدّ عليهم من القُمَّل ؛ وأخذ القمل شعورهم وأشــفارَ عيونهم وحواجبهم ، ولصق بجلودهم كالجُدَرِىّ ، ومنعهم النوم والقرار، ولم يستطيعوا له حيلة .

وقد آختلفوا فى القُمَّل ما هو ؟ فروى عن أبى طلحة أنّه الذباب لا أجنحة له .

وروى مَعمَرٌ عن قَتادة قال : القمّل أولاد الجراد .

وعن عبد الرحمن بن أسلم قال : هو البراغيث .

وقال عطاء : هو القَمْل ؛ دليــله قراءة الحسن : « والقَمْل » بفتح القــاف وسكون الميم .

وقال أبو عبيدة : هو الحَمْنان، وهو ضرب من القردان .

وقال سعيد بن جُبير عن ابن عبّاس — رضى الله عنهم — : القُمّل، هو السوس الذى يخرج من الحنطة والحبوب، فكان الرجل يُخرج عشرة أقفزة فلا يردّ منها إلّا ثلاثة أقفزة؛ فلما رأوا ذلك شكوا إلى موسى وصاحوا وقالوا : يأيّها الساحر أى أيّها العالم إنا نتوب إلى الله ولا نعود، فادع لنا ربّك يكشف عنا هذا البلاء. فدعا موسى ربه، فرفع الله تعالى عنهم القُمّل بعد ما أقام عليهم سبعة أيّام من السبت إلى السبت، ثم نكثوا العهد، وعادوا إلى خبث أعمالهم، وقالوا : ما كنّا قطّ أحقّ أن نستيقن أن موسى ساحر إلّا اليوم، فيجعل الرملَ والرماد دوابّ، فعلى ماذا نؤمن به ونرسلَ معه بنى إسرائيل؟ فقد أهلك زرعنا وحروثنا، وأذهب أموالنا، فما عسى أن يفعل أكثر مما فعل، وعزّة فرعون لا نصدّقه أبدا ولا نتبعه. فدعا عليهم موسى بعد ما أقاموا شهرا فى عافية — وقيل أربعين يوما — فأوحى الله تعالى إليه وأمره أن يقوم على ضفّة النيل فيَغرز عصاه فيه، ويشيرَ بالعصا إلى أدناه وأقصاه وأعلاه وأسفله؛ ففعل موسى ذلك، فتداعت إليه الضفادع بالنّقيق من كلّ جانب حتى أعلم بعضها بعضا، وأسمع أدناها أقصاها؛ ثم خرجت من النيل مثل البحر تدبّ سراعا نحو باب المدينة، فدخلت عليهم فى بيوتهم بغتة، وامتلأت منها أفنيتُهم وأبنيتُهم وأطعمتهم؛ وكان أحدهم لا يكشف ثوبا ولا إناء ولا طعاما ولا شرابا إلّا وجد فيه ضفادع؛ وكان الرجل يجلس الى ذقنه فى الضفادع، ويهمّ أن يتكلّم فيثب الضفدع فى فيه؛ وكان أحدهم ينام على فراشه وسريره فيستيقظ وقد ركبته الضفادع ذراعا بعضها فوق بعض، وصارت عليه حتى لا يستطيع أن ينصرف إلى شقّه الاخر؛ وكان أحدهم يفتح فاه لأكلته فتستبق الضفادع إلى فيه؛ وكانوا لا يعجنون إلّا انشدخت فيه، ولا يطبخون إلا امتلأت القدر بالضفادع؛ وكانت تثب فى نيرانهم فتطفئها، وفى طعامهم فتفسده؛ فلقُوا منها أذى شديدا.

وروى عن عكرمة عن ٱبن عبّاس — رضى الله عنهم — قال : كانت الضفادع بريّة ، فلمّا أرسلها الله على فرعون سمعت وأطاعت ، فجعلت تقذف أنفسها فى القدر وهى تفور ، وفى التنانير وهى مسجورة ، فأثابها الله بحسن طاعتها بَرْدَ المـاء .

قال : فضجوا إلى فرعون من أمر الضفادع ، وضاق عليهم أمرُهم حتى كادوا يهلكون ، وصارت المدينة وطرقها مملوءةً جِيَفًا من كثرة ما يطأونها بأقدامهم ، فلما رأوا ذلك بكَوا وشكَوا ذلك إلى موسى ، وقالوا : اكشف عنّا هـذا البلاء فإنا نتوب هـذه المرّة ولا نعود . فأخذ بذلك عهودهم ومواثيقهم ، ثم دعا الله تعالى فكشف عنهم الضفادع ، فما كان منها حيًّا لحق بالنيل ، وأرسل الله تعالى ريحا على الميت منها فنحّته عن مدينتهم بعد ما قامت عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت فأقاموا شهرا فى عافية ؛ وقيل : أربعين يوما . ثم نقضوا العهود وعادوا إلى كفرهم وتكذيبهم ؛ فدعا عليهم موسى ، فأرسل الله تعالى عليهم الدم ، وذلك أنّ الله تعالى أمر موسى أن يذهب إلى شاطئ النيل ويضربه بعصاه ؛ ففعل ذلك ، فسال النيل عليهـم دما ، وصارت مياههم كلّها دما عبيطا ، فما يشربون من الأنهار والآبار إلّا وجدوا دما أحمرَ عَبيطا ؛ فشكَوا ذلك إلى فرعون وقالوا ؛ إنّا قد ٱبتُلينا بهـذا الدم ، وليس لنـا شراب . فقال : إنّه قد سحركم . فكان يُجمَـع بين الرجلين على الإناء : القبطىّ والإسرائيلىّ فيُسقَيان من ماء واحد ، فيخرج ماء القبطى دما ، وماء الإسرائيـلىّ عذبا ؛ وكانا يقومان إلى الجرّة فيهـا المـاء ، فتُخرِج للإسرائيـلىّ ماء وللقبطىّ دما ، حتى إنّ المرأة من آل فرعون كانت تأتى المرأة من بنى إسرائيل حين جهَدَهم العطش فتقول : اسقينى من مائك . فتغرف لها من جرّتها ، وتصبّ لها من قربتها ، فيعود فى الإناء دما ، حتى إن كانت المرأة تقول لهـا : اجعليـه فى فيك

ثم مجّه فى فمى . فتاخذ فى فيها ماء، فإذا مجّته فى فيها صار دما، والنيل على ذلك يسقى الزرع والشجر؛ فإذا ذهبوا ليستقوا من بين الزرع عاد الماء دما عبيطا .

(٨١) قالوا : وإنّ فرعون آعتراه العطش فى تلك الأيام، حتى إنه آضطر إلى مضغ الأشجار الرطبة، فكان إذا مضغها يصير ماؤها فى فيه ملحا أُجاجا ومرّا زُعاقا؛ فمكثوا فى ذلك سبعة أيّام لا يأكلون ولا يشربون إلّا الدم؛ فقالوا لموسى : ادع لنا ربّك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل . فدعا موسى ربّه فكشف عنهم ذلك، وأمر أن يَضْرِب بعصاه النيل ضربة أخرى؛ ففعل فتحوّل صافيا كما كان، فلم يؤمنوا ولم يفوا بما عاهدوا عليه، وذلك قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ ﴾ .

وقال نَوْفٌ البِكَالِىّ — وهو آبن آمرأة كعب الأحبار — : مكث موسى فى آل فرعون عشرين سنة بعد ما غلب على السحرة يُريهم الآيات : الجراد والقُمَّل والضّفادع والدم .

وقال الضحّاك : لمّا يئس موسى من إيمان فرعون وقومه، ورأى أنهم لا يزدادون إلا الطغيان والكفر والتمادى، دعا عليهم موسى وأمّن هارون . رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ . فأجاب الله دعاءه، كما قال تعالى : ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا ﴾ الآية .

قال : وكان لفرعون وأصحابه من زهرة الدنيا وزينتها من الذهب والفضّة واليواقيت وأنواع الجواهر والحلىّ ما لا يحصيه إلا الله تعالى؛ وكان أصل ذلك المال مما جمعه يوسف — عليه السلام — فى زمانه أيّام القحط، فبقى ذلك

فى أيدى القبط، فأوحى الله تعالى إلى موسى : أنّى مورث بنى إسرائيل ما فى أيدى آل فرعون من العُروض والحلىّ ، وجاعلُه لهم جَهازا وعَتادا إلى الأرض المقدّسة فاجعل لذلك عيدا تعتكف عليه أنت وقومك تشكروننى وتذكروننى فيه وتعظّموننى ذلك اليوم ، وتعبدوننى فيه لما أريكم من الظَّفَر ونجاة الأولياء وهلاك الأعداء واستعيروا لعيدكم من آل فرعون الحلىّ وأنواع الزينة، فإنّهم لا يمتنعون عليكم للبلاء الحالّ بهم فى ذلك الوقت، ولما قذفت لكم فى قلوبهم من الرعب . ففعل موسى ذلك كما أمره الله تعالى ، فأمر فرعونُ بزينة أهله وولده وما كان فى خزائنه من أنواع الحلىّ ، فأُعيرت بنى إسرائيل لما أراد الله تعالى بذلك أن يَفىء على موسى وقومه أفضلَ أموال أعدائه بغير قتال ولا إيجاف خيل ولا رَجل ؛ فلمّا دعا موسى عليهم مسخ الله تعالى الأموالَ الّتى بقيتْ فى أيديهم حجارة حتى النخل والرقيق .

وقال محمد بن كعب : سألنى عمر بن عبد العزيز عن الآيات الّتى أراهن الله تعالى فرعونَ وقومه؛ فقلت : الطُّوفان والجراد والقُمّل والضفادع والدم والعصا واليد البيضاء والطَّمْس وفَلْق البحر .

قال عمر : كيف يكون الفقه إلاّ هكذا . ثم دعا بخريطة فيها أشياء ممّا كان أصيب لعبد العزيز بن مروان لمّا كان على مصر من بقايا آل فرعون ، فأخرج البيضة مقسومة نصفين كأنّها الحجر، والجوزة مشقوقة نصفين وكأنّها الحجر، والحِمّصةَ والعدسة.

وروى ابن إسحاق عن رجل من أهل الشام كان بمصر قال : ورأيتُ نخلةً مصروعة كأنها الحجر .

قال : ورأيتُ إنسانا وما شككتُ أنه إنسان وإنّه لَحجَر؛ وكان المسخ فى أرقّائهم دون أحرارهم ، إذ العبيد من جملة أموالهم ؛ فلم يَبقَ لهم مال إلّا مسخه الله تعالى ما خلا الذى فى أيدى بنى إسرائيل من الحلىّ والجواهر وأنواع الزينة .

قال آبن عبّاس — رضى الله عنهما — : أوّل الايات العصا ، وآخرها الطمس ؛ وبلغنا أن الدنانير والدراهم صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وأنصافا وأثلاثا ، وجُعِل سكّرهم حجارة ، وبعض المسخ من الآدميين باقٍ مشاهَد إلى وقتنا هذا ، وقد شاهدتُ أنا منه شخصا شكل خادم وهو جالس على كرسىّ بقرب البيت الأخضر ببلاد الجيزية ، وذلك فى شهور سنة سبع عشرة وسبعمائة ، ولعلّه من ذلك المسخ ؛ والله أعلم .

ذكر خبر قتل الماشطة

قال : وكانت لبنات فرعون ماشطة — وهى امرأة حِزْقيل المؤمن — فبينما هى تَمشُط إحدى بناته إذ سقط المُشْط من يدها ؛ فقالت : تَعِس من كفر بالله . فقالت لها آبنة فرعون : إنما تريدين من كفر بأبى . فقالت : إنّما عَنيتُ من كفر بإله موسى . فقامت إلى أبيها وأخبرته ؛ فغضب وأحضرها وقال : ما الّذى بلغنى عنك؟ قالت : صدقوا ، أنا مؤمنة بإله موسى ، فَٱقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ . فشدّها إلى أوتاد من حديد ، وأحضر أولادها الثلاثة ، وعرض عليها أن تؤمن به ؛
(٨٣) فأبت ، فذبحهم على صدرها وهى تحمَد الله تعالى ؛ ثم طرحها فى تنور من نحاس وأحرقها فيه وأحرق أولادها .

ذكر خبر قتل آسية بنت مزاحم آمرأةِ فرعون

قال : لما قتل فرعون الماشطة ، سمعت آسيةُ الملائكة تعدها بالجنة ، فقامت من مجلسها وهى تقول : يا إله موسى ألبسنى الصبر وآرزقنى الشهادة وآبْنِ لِى عِنْدَكَ بَيْتًا فِى الْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ، وخرجت على فرعون وهى حاسرة عن وجهها ، وقالت له : يا ملعون ، الى كم تقتل أولياء الله

وتأكل رزق الله وتكفر نعمته ولا تشكره، وترى آياته ولا تعتبر بها؟ فقال لوزرائه: قد أفسد علىّ موسى حتّى آسية؛ وآستشارهم فى أمرها؛ فأشاروا عليه بقتلها، فأمر بنزع ما عليها، وشدّها إلى أوتاد فى الأرض، وضرب وتدين فى صدرها فماتت — رضى الله عنها — .

ذكر خبر آنقطاع النيل وكيف أجراه الله عزّ وجلّ لفرعون

قال الكسائىّ: ثم بعث الله تعالى الظُّلمة على أهل مصر ثلاثة أيام، فلم يعرفوا اللّيل من النهار، وآنقطع عنهم النيل حتى أضرّ بهم العطش؛ فشكوا ذلك إلى فرعون فأمر بجمع الجنود وخرج ليُجْرِيه؛ فلمّا قرب من مكانه آنفرد عن القوم ونزل عن فرسه وقال: إلهى إنك إله السماء والأرض لا إله إلا أنت، وحلمك الذى يحملنى أن أسألك ما ليس لى بحق، والخَلق خَلقُك، وقد علمتَ ماهم فيه من العطش وأنت المتكفّل بأرزاقهم؛ اللهم أجرلهم النيل. فما فرغ من كلامه حتى آنصبّ النيل، وركب فرسه والنيلُ يجرى معه إن سار سار وإن وقف وقف، حتى دخل مصر، فسجد القوم له، وازدادوا كفرا؛ وعجب موسى وهارون لذلك.

ذكر خبر غرق فرعون وقومه

قال الكسائىّ: ولما رجع فرعون بجنوده وقد أجرى لهم النيلَ بزعمهم، دخل عليه جبريل فى صورة آدمىّ حسن الهيئة، فقال له: من أنت؟ قال: عبد من عبيد الملك جئتُك مستعديا على عبد من عبيدى مكّنتُه من نعمتى، وأحسنتُ إليه كثيرا، فآستكبر وبغى وجحدنى حقّى وتسمّى بآسمى، وآدّعى فى جميع ما أنعمتُ عليه به أنّه له، وأنّه لا منعم عليه به. قال فرعون: بئس ذلك من العبيد. قال جبريل: فما جزاؤه عندك؟ قال: يُغرَق فى هذا البحر. فقال له جبريل: أسألك

أن تكتب لى خطّك بذلك . فكتب له فرعون خطًّا، وأخذه جبريل وجاء به إلى موسى ، وأمَرَه عن الله عزّ وجلّ أن يرتحل بقومه عن مصر؛ فنادى موسى فى بنى إسرائيل وأمرهم بالرحيل؛ فارتحلوا وهم يومئذ سِتُّمائة ألف .

قال الثعلبيّ : سِتُّمائة ألف وعشرون ألفا لا يُعَدّ فيهم آبن سبعين سنة ولا آبن عشرين سنة؛ ولكنّ هؤلاء المُقاتِلةُ سوى الذرّيّة . وأهل التوراة يقولون: إنه لا يُعَدّ فيهم آبن خمسين سنة ولا ابن عشرين سنة ، لا خلاف عندهم فى هذا ويزعمون أنه نصّ التوراة .

قال الكسائى : فلما سمع فرعون بارتحالهم أمر باجتماع جنوده؛ قال الله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ • إِنَّ هٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ • وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ • وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴾ . فاجتمعوا وهم لا يُحصَون كثرة .

قيل : إنّ هامان كان على مقدّمة فرعون بألف ألف وسِتّمائة ألف .

وقال الثعلبيّ : ألف ألف وسبعمائة ألف رجل على ألف ألف وسبعمائة ألف حصان .

قال : وقال آبن جريج : أرسل فرعون فى أثر موسى وقومه ألفَ ألف وخمسَمائة ألف مَلِك مسوَّر ، مع كل ملك ألفُ رجل ؛ ثم خرج فرعون خلفهم فى الدُّهْم ، وكان فى عسكره مائة ألف حصان أدهمَ سوى سائر الشِّيات ، وذلك حين طلعت الشمس وأشرقت ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴾ .

قال الكسائىّ : وساروا حتى قربوا من موسى ومن معه ، فقالوا : يا موسى ، قد لحقَنا فرعونُ بجنوده ، والبحر أمامنا والسيف وراءنا . قالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ .

فأوحى الله تعالى إلى موسى : ﴿ أَنِ آضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾ فضربه ﴿ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ . وصار فيه آثنا عشر طريقا للأسباط الاثنى عشر

فجعلوا يسيرون وموسى أمامهم وهارون وراءهم، وجعل الله بينهم فتحا ليرى بعضهم بعضا ، وجاء فرعون ومن معه إلى البحر ورأى تلك الطرق فيه، فقال لهامان : (٨٣) هذه تفرقت من هيبتي . وقصد الاقتحام فلم يطاوعه فرسه — وكان حصانا — ونفر من العُبور؛ فأتاه جبريل على رَمَكة فى صورة آدمىّ ، فدنا من فرعون وقال : ما يمنعك من العُبور ؟ وتقدّم إلى جنبه ، فاشتمّ فرسُ فرعون رائحة الرَّمَكة فتبعها ودخل فرعونُ وجنوده وجبريل أمامهم وميكائيل يسوق الناس، حتى لم يبق من جنود فرعون أحد على الساحل، فجاءه جبريل بخطّه ؛ فلما رآه فرعون علم أنه هالك وانضمّت الطرق ، وأُغرِق الناس، وفرعونُ ينظر إليهم ؛ قال الله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ . فقال له جبريل : ٱلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ .

ثم غرق فرعون وجميع من معه وبنو إسرائيل ينظرون إليهم ؛ ثم قال بنو إسرائيل : إنّ فرعون لم يَغرَق . فأمر الله تعالى البحر فألقاه على الساحل . قال الله تعالى : ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾ .

قال : فلمّا عبر موسى البحر ببنى إسرائيل إلى الطُّور ، إذا هم فى طريقهم بقوم يعبدون الأصنام ، قال الله تعالى : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِى إِسْرَائِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى ٱجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

ثم قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ، وذكّرهم بنعم الله تعالى عليهم ، وأمرهم بالتوبة والاستغفار ؛ ثم ساروا وفى قلوبهم حبّ الأصنام حتى قربوا من الطُّور .

ذكر خبر ذهاب موسى – عليه السلام – لميقات ربه وطلبه الرؤية وخبر الصاعقة والإفاقة

حكى أبو إسحاق الثعلبيّ فى تفسير قوله تعالى . ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾

قال : كان ذلك فى شهر ذى القعدة وعشر من ذى الحجّة .

قال : وذلك أنّ موسى – عليه السلام – كان قد وعد بنى إسرائيل وهو بمصر إذا خرجوا منها وهلك عدوّهم أن يأتيهم بكتاب فيه ما يأتون وما يذرون ؛ فلمّا أهلك الله تعالى فرعون وقومه وآستنقذ بنى إسرائيل من أيديهم ، وأمنهم من عدوّهم ، ولم يكن لهم كتاب ولا شريعة ينتهون إليها ، قالوا : يا موسى آئتنا بالكتاب الذى وعدتنا به . فسأل موسى ربّه تعالى ذلك ؛ فأمره أن يصوم ثلاثين ليلة ثم يتطهّر(١) و يطهّر ثيابه و يأتى طورسيناء ليكلّمه و يعطيه الكتاب ؛ فصام ثلاثين يوما ؛ فلمّا صعد الجبل أنكر خلوف فمه ، فآستاك بعود خرنوب .

وقال أبو العالية : أخذ من لحاء الشجر فمضّه ؛ فقالت له الملائكة : كنّا نشمّ من فمك رائحة المسك فأفسدته بالسواك . فأوحى الله تعالى إليه أن صم عشرة أيّام أخر ، وقال له : أما علمتَ يا موسى أنّ خلوف فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك ؟

قال : وكانت فتنة بنى إسرائيل فى العشر ليالى التى زادها الله تعالى ؛ فلما مضت أربعون ليلة تطهّر موسى وطهّر ثيابه لميقات ربّه ؛ فلمّا أتى طورسيناء كلّمه ربّه وناجاه ، وقرّبه وأدناه ، كما قال تعالى : ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ .

---

(١) فى (أ) « يفطر » مكان « يتطهر » .

قال وهب : كان بين الله تعالى و بين موسى سبعون حجابا ، فرفعها كلها إلّا حجابا واحدا ، فسمع موسى كلام الله تعالى واشتاق إلى رؤيته وطمع فيها ، فقال ما أخبر الله — عزّ وجلّ — به عنه فى كتابه ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ . فقال الله تعالى له : ﴿ لَنْ تَرَانِي ﴾ وليس يطيق البشر النظرَ إلىّ فى الدنيا ، من نظر إلىّ مات . قال : إلٰهى سمعت كلامك فاشتقت إلى النظر إليك ، ولأن أنظر إليك ثم أموتَ أحبُّ إلىّ من أن أعيش ولا أراك . فقال له تعالى : ﴿ ٱنْظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ ﴾ وهو أعظم جبل يقال له : (الزَّبِير) .

قال : وذلك أنّ الجبال لمّا علمت أن الله تعالى يريد أن يتجلّى لجبل منها تعاظمتْ وتشامخت رجاء أن يتجلّى الله تعالى لها ، وجعل الزَّبِيرُ يتواضع من بينها فلما رأى الله تعالى تواضعه رفعه من بينها ، وخصّه بالتجلّى ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ . فتجلّى الله تعالى للجبل .

قال : وٱختلف العلماء فى معنى التجلّى ؛

قال ٱبن عباس : ظهر نورُه للجبل .

وقال الضحّاك : أظهر الله تعالى من نور الحُجُب مثلَ منخر الثور . (٨٤)

وقال عبد الله بن سلام وكعب : ما تجلّى من عظمة الله تعالى للجبل إلّا مثل سَمّ الخياط حتى صار دكّا .

وقال السدّىّ : ما تجلّى منه إلّا قدر الخنصر .

وقال الحسن : أوحى الله تعالى إلى الجبل فقال : هل تطيق رؤيتى ؟ فغار الجبل وساخ فى الأرض وموسى ينظر إليه حتى ذهب أجمع .

قال أبو إسحاق : قال أبو بكر محمد بن عمر الوزاق : حُكِى لى عن سهل بن سعد الساعدىّ أنّ الله تعالى أظهر من سبعين ألف حجاب نورا قدر درهم ، فجعل الجبل دكّا .

قال أبو بكر : فعذُب إذ ذاك كلُّ ماء، وأفاق كلُّ مجنون، و برأ كلّ مريض وزال الشوك عن الأشجار ، واخضرّت الأرض واهتزّت ، وخمدت نيران المجوس وخرّت الأصنام لوجوهها .

وقال السّدىّ : ما تجلّى للجبل إلّا مقدار جناح بعوضة، فصار الجبل دكّا .

قال ابن عباس — رضى الله عنهما — : ترابا .

وقال سفيان : ساخ حتى وقع فى البحر .

وقال عطية العوفىّ : صار رملا هائلا .

وقال الكلبىّ : ﴿ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ ، أى كُسّر جبالا صغارا .

وعن أنس بن مالك ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ قال : صار بعظمة الله ستّة أجبل ، فوقعت ثلاثة بالمدينة : أُحُد، ووَرِقان[1]، ورَضْوَى[2] . ووقعت ثلاثة بمكّة : ثَوْر ، وثَبِير وحِراء . ﴿ وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾ . قال ابن عبّاس — رضى الله عنهما — : مغشيّا عليه .

وقال قتادة : ميّتا .

وقال الكلبىّ : خرّ موسى صعقا : يوم الخميس يوم عرفة ، وأعطى التوراة يوم الجمعة يوم النحر .

---

(١) فى الأصل : « وقانا » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا .

(٢) فى الأصل : « ورووضا » ؛ وهو تحريف .

قال الواقدىّ : لمّا خرّ موسى صعقا قالت الملائكة : ما لآبن عمران وسؤال الرؤيــة .

قال وهب : لما سأل موسى الرؤية أرسل الله تعالى الضَّباب والصواعق والظُّلمة والرعد والبرق فأحاطت بالجبل الّذى عليه موسى، وأمر آلله تعالى ملائكة السمٰوات أن يُعرَضوا على موسى أربعةَ فراسخ من كلّ ناحية؛ فمرّت ملائكة سماء الدنيا كثيران البقر، تُتابِع أفواهُهم التقديسَ والتسبيح بصوت عظيم كصوت الرعد الشديد؛ ثم أمر الله تعالى ملائكة السماء الثانية : أن آهبطوا على موسى . فهبطوا عليه مثل أسد لهم نحيب بالتسبيح والتقديس؛ ففزع موسى مما رأى وسمع وآقشعرّ جلده، ثم قال : ندمتُ على مسألتى ، فهل ينجينى من مكانىَ الّذى أنا فيه شىء؟ فقال له حَبْر الملائكة ورأسُهم : يا موسى آصبر لما رأيت، فقليل من كثير رأيتَ . ثم هبطتْ ملائكة السماء الثالثة كأمثال النسور، لهم قَصْف ورَجْف بالتسبيح والتهليل والتقديس كجلَب الجيش العظيم وكلَهَب النار؛ ثم هبطتْ عليه ملائكة السماء الرابعة لا يشبههم شىء من الّذين مرّوا به قبلهم، ألوانهم كلهب النار، وسائر خَلقهم كالثلج الأبيض، أصواتهم عالية بالتسبيح والتقديس لا يقاربهم شىء من أصوات الّذين مرّوا به قبلهم؛ ثم هبطتْ عليه ملائكة السماء الخامسة فى سبعة ألوان، فلم يستطع موسى أن يُتبِعهم الطَّرْف، لم يرَ مثلهم ولا سمع مثل أصواتهم، وآمتلأ جوف موسى فزعا، وآشتدّ حزنه وكثر بكاؤه؛ ثم قال له حبر الملائكة ورأسُهم : يآبن عمران، مكانك حتّى ترى ما لا تصبر عليه؛ ثم أمر الله تعالى ملائكة السماء السادسة أن آهبطوا على عبدى الّذى أراد أن يرانى؛ فعُرِضوا عليه وفى يد كلّ منهم حربة مِثلُ النخلة الطويلة، نارُها أشدّ ضوءا من الشمس، ولباسهم كلهب النّيران، إذا سبّحوا وقدّسوا جاوَبَهم من كان قبلهم

من ملائكة السموات ، كلّهم يقولون بشدّة أصواتهم : سبّوح قدّوس ربّ العزّة أبدا لا يموت . وفى رأس كل ملَك منهم أربعة أوجه ؛ فلمّا رآهم رفع صوته يسبّح معهم ويبكى ويقول : ربّ اذكرنى ولا تنس عبدك ، لا أدرى هل أتخلّص مما أنا فيه أم لا ، إن خرجتُ احترقت وإن مكثتُ مِت . فقال له كبير الملائكة ورئيسهم : قد أوشكت يا بن عمران أن يشتدّ خوفك وينخلع قلبك ، فاصبر للذى سألت .

ثم أمر الله تعالى أن يُحمل عرشُه فى ملائكة السماء السابعة ، فقال : أرُوه إيّاه . فلما بدا نور العرش انفرج الجبل من عظمة ربّ العزّة ، ورددت ملائكة السموات أصواتهم جميعا ؛ فارتجّ الجبل ، واندكّت كلّ شجرة كانت فيه ، وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ليس معه رُوحه ؛ فقلب الله تعالى الحجر الذى كان موسى عليه وجعله كهيئة القبّة لئلا يحترق موسى ؛ وأرسل الله عليه روحَ الحياة برحمته ؛ فقام موسى يسبّح الله تعالى ويقول : آمنتُ أنّك ربّى وصدّقتُ أنه لا يراك أحد ، فنجّنى ، ومَن نظر إلى ملائكتك انخلع قلبه ، فما أعظمك وأعظم ملائكتك ! أنت ربّ الأرباب وإله الآلهة وملك الملوك ، لا يعدلك شىء ، ولا يقوم لك شىء ، تبت إليك ، الحمد لك لا شريك لك ربّ العالمين .

ذكر خبر الألواح ونزول التوراة والعشر كلمات

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ * قَالَ يَا مُوسَى إِنِّى اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِى وَبِكَلَامِى فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ * وَكَتَبْنَا لَهُ فِى الْأَلْوَاحِ ٨٥
مِنْ كُلِّ شَىْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ .

قال الثعلبي : ثم بعث الله جبريل — عليه السلام — إلى جنّة عدن فقطع منها شجرة ، فاتخذ منها تسعة ألواح ، طول كلّ لوح عشر أذرع بذراع موسى ، وكذلك عرضـه ، وكانت الشجرة من زمرّد أخضر ؛ ثم أمر الله تعالى جبريل أن يأتيـه بسبعة أغصان من سدرة المنتهى ؛[1] بجاء بهـا ، فصارت جميعها نورا ، وصار النور قلمـا طاف فيا بين السماء والأرض فكَتَب التـوراة ، وموسى يسمع صرير القلم ؛ فكتب الله تعـالى له ﴿ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَـةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ وذلك يوم الجمعة ، فأشرقت الأرض بالنور ؛ ثم أمر الله تعالى موسى أن يأخذها بقوّة ويقرئها قومه ؛ فوضعت الألواح على السماء فلم تطق حملها لثقل العهود والمواثيق ؛ فقـالت : يا ربّ كيف أطيق حمل كتابك الكريم الثقيل المبـارك ؟ وهل خلقت خلقا يطيق حمل ذلك؟ فبعث الله تعـالى جبريل وأمره أن يحمـل الألواح فيبلغها موسى ، فـلم يطق حملها ، فقال : يا ربّ من يطيق حمل هـذه الألواح بمـا فيها من النور والبيان والعهود؟ وهل خلقتَ خلقا يطيق حملها؟ فأمدّه الله تعالى بملائكة يحملونها بعدد كلّ حرف من التوراة ؛ فحملوها حتى بلّغوها موسى ؛ فعرضوا له الألواح على الجبل ، فانصدع الجبلُ وخشع ، وقال : ياربّ من يطيق حمـل هذه الألواح بمـا فيها ؟ فلمـا وضعتها الملائكة على الجبل بين يدى موسى — وذلك عند صلاة العصر — قبض موسى عليهـا فلم يُطق حملَها ، فلم يزل يدعو حتّى هيأ الله تعالى له حملها ؛ فحمَلَها ، فذلك قوله تعالى : ﴿ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ .

قال : وأمّا العشر كلمات الّتى كتبها الله تعالى لنبيّه موسى فى الألواح — وهى معظم التوراة ، وعليها مدار كلّ شريعة — فهى : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ ، هذا

(١) إلى هنا انتهى ما لدينا من النسخة المشار إليها بحرف (ب) .

كتاب من الله الملك الجبّار العزيز القهار لعبده ورسوله موسى بن عمران ، سبّحني وقدّسني ، لا إله إلّا أنا فاعبدني ولا تشرك بي شيئا ، واشكر لي ولوالديك إليّ المصير ، أحيك حياة طيّبة ؛ ولا تقتل النفس التي حرّم الله عليك فتضيق عليك السماءُ بأقطارها والأرضُ برحبها ؛ ولا تحلف باسمي كاذبا فإني لا أطهّر ولا أزكّي من لم يعظّم اسمي ؛ ولا تشهد بما لا يعي سمعُك ولا تنظر عينُك ولم يقف قلبُك عليه فإني أقف أهلَ الشهادات على شهاداتهم يوم القيامة ، وأسائلهم عنها ؛ ولا تحسد الناس على ما آتيتُهم من فضلي ورزقي ، فإن الحاسد عدوّ لنعمتي ، ساخط لقسمتي ؛ ولا تزنِ ولا تسرق فأحجبَ عنك وجهي ، وأُغلِقَ دون دعوتك أبواب السموات ؛ ولا تذبح لغيري ، فإنه لا يصعد إليّ من قُربان الأرض إلّا ما ذُكر عليه اسمي ؛ ولا تغدرنّ بحليلة جارك فإنّه أكبر مقتا عندي ؛ وأَحِبَّ للناس ما تحبّ لنفسك .

فهذه العشر كلمات ؛ وقد أنزل الله — عزّ وجلّ — على نبيّنا محمد — صلى الله عليه وسلم — مثلها في ثماني عشرة آية ، وهي قوله تعالى في سورة بني إسرائيل :

﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا * رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا * وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا * وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا * وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا * إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا * وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ

خطئاً كبيراً * ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا * ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً * ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا * وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا (٨٦) بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا * ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا * ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا * كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها * ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً ﴾ ثم جمعها في آيتين من سورة الأنعام ، وهي قوله تعالى : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون * ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴾ .

وقد روى أبو إسحاق الثعلبي — رحمه الله — عن ابن عباس — رضي الله عنهما — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما أعطى الله موسى الألواح نظر فيها وقال : يارب لقد أكرمتني بكرامة لم تكرم بها أحدا قبلي . ﴿ قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك ﴾ .

وأخرج الحافظ[1] : تموت على حبّ محمد عليه السلام . قال موسى : ياربّ وما محمد؟ قال : أحمد الذى أثبتّ آسمه على عرشى من قبل أن أخلق السموات والأرض بألفى عام، و إنه لنبيّى وحبيبى وخِيرتى من خلق، هو أحبّ إلىّ من جميع خلق ومن جميع ملائكتى . قال : يا ربّ إن كان محمد أحبَّ إليك من جميع خلقك فهل خلقتَ أمة أكرم عليك من أمتى . ؟ قال الله تعالى : إنّ فضل أمة محمد — عليه السلام — على سائر الأمم كفضله على سائر الخَلْق . قال : ياربّ ليتنى رأيتهم . قال : إنّك لن تراهم ، ولو أردتَ أن تسمع كلامهم لسمعتَ . قال : يا ربّ فإنّى أريد أن أسمع كلامهم . قال : يا أمة محمد . فأجبنا كلُّنا من أصلاب آبائنا وأرحام أمهاتنا : لَبَّيْكَ اللّهمّ لبّيك لا شريك لك . قال الله تعالى : يا أمة محمد . إنّ رحمتى سبقت غضبى، وعفوى عقابى، قد أعطيتكم من قبل أن تسالونى، وقد أجبتكم من قبل أن تدعونى، وقد غفرت لكم من قبل أن تعصونى، من جاء يوم القيامة يشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمدا عبدى ورسولى دخل الجنة ولو كانت ذنوبه أكثرَ من زَبَد البحر . وهذا قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ .

وروى الثعلبىّ أيضا بسند رفعه إلى (كعب الأحبار) أنّه رأى حَبرا من أحبار اليهود يبكى، فقال له : ما يبكيك . ؟ فقال له : ذكرتُ بعض الأمر . فقال كعب : أَنشُدُك اللهَ إن أخبرتُك بما أبكاك أتصدّقنى ؟ قال : نعم . قال : أنشدك الله هل تجد فى كتاب الله المنزل أنّ موسى نظر فى التوراة فقال : إنى أجد أمة هى خير أمة أُخرجتْ للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، يؤمنون بالكتاب الأول

(١) فى الأصول « وأخذ » ؛ وهو تصحيف لا يستقيم معناه مع بقية الكلام . ولعل صوابه ما أثبتنا .

وبالكتاب الآخر، ويقاتلون أهلَ الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الدجّال . فقال موسى : يا ربّ آجعلهم أمّتى . قال : هى أمّة أحمدَ يا موسى . فقال له الحبر : نعم . قال كعب : أنشدك بالله هل تجد فى كتاب الله المنزّل أنّ موسى نظر فى التوراة فقال : إنى أجد أمّة هم الحامدون ، الرُّعاة الشُّمُس[1] المحكّمون ، إذا أرادوا أمرا قالوا : " نفعله إن شاء الله تعالى " فاجعلهم أمّتى . قال : هى أمّة أحمد ياموسى . قال له الحَبر : نعم . قال : أنشدك الله هل تجد فى كتاب الله المنزّل أنّ موسى نظر فى التوراة فقال : ربّ إنّى أجد أمّة يأكلون كفّاراتهم وصدقاتهم .

قال : «وكان الأوّلون يُحرِقون صدقاتهم بالنار، غير أنّ موسى كان يجمع صدقات بنى إسرائيل فلا يجد عبدا مملوكا ولا أمة إلّا آشتراه ثم أعتقه من تلك الصدقة وما فضل حفر له حفيرة عميقة وألقاه فيها، ثم دفنه كيلا يرجعوا فيه » وهم المسبِّحون والمسبَّح لهم ، وهم الشافعون والمشفَّع لهم . قال موسى : يا ربّ آجعلهم أمّتى . قال : هم أمّة أحمد يا موسى . قال الحَبر : نعم . قال كعب : أنشدك الله أتجد فى التوراة أنّ موسى نظر فى التوراة فقال : إنّى أجد أمّة إذا أشرف أحدهم على شَرَف كبّر اللهَ تعالى ، وإذا هبط واديا حَمِد الله تعالى ؛ الصعيد لهم طَهور والأرضُ لهم مسجد حيثما كانوا ، يتطهّرون من الجنابة ، طُهُورهم بالصعيد كطُهورهم بالماء حين لا يجدون الماء ؛ غُرٌّ محجّلون من آثار الوضوء، فآجعلهم أمّتى . قال : هى أمّة أحمد يا موسى . قال الحَبر : نعم . قال كعب : أنشدك الله

(٨٧) هل تجد فى كتاب الله المنزل أنّ موسى نظر فى التوراة فقال : يا ربّ إنّى أجد أمّة إذا همّ أحدهم بحسنة ولم يعملها تُكتَبُ له ، فإنْ عملها ضوعفتْ عشرَ أمثالها إلى سبعمِائة ضعف ، وإذا همّ بسيئة ولم يعملها لم تُكتَب عليه ، وإن عملها تُكتَب عليه

(١) يريد بالشمس بضم الشين : الأعزاء الذين لا ينقادون للذلة ويشمسون ، أى يمتنعون ويأبون.

سيّئة مثلَها . فاجعلهم أمتى . قال : هى أمة أحمد يا موسى . قال الحبر : نعم . قال كعب : أنشدك الله أتجد فى كتاب الله المنزّل أنّ موسى نظر فى التوراة فقال : ربّ إنّى أجد أمّة مرحومة ضعفاء "يرثون الكتاب الّذين آصطفينا"(١) ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ فلا أجد أحدا منهم إلّا مرحوما فآجعلهم أمتى . قال : هى أمة أحمد يا موسى . قال الحَبر : نعم . قال كعب : أنشدك الله هل تجد فى كتاب الله المنزّل أنّ موسى نظر فى التوراة فقال : ياربّ إنّى أجد أمّة مرحومة ، مصاحفُهم فى صدورهم ، يلبسون ألوان ثياب أهل الجنّة يُصَفّون فى صلاتهم صفوفا كصفوف الملائكة ، أصواتهم فى مساجدهم كدَوىّ النحل ، لا يدخل النار منهم أحد إلّا من الحساب مثل ما يُرَى الحجر من وراء الشجر . فاجعلهم أمتى . قال : هى أمة أحمد يا موسى . قال الحَبر : نعم . قال : فعجب موسى من الخير الذى أعطاه الله محمدا وأمّته ، وقال : يا ليتنى من أصحاب محمد . فأوحى الله تعالى إليه ثلاث آيات يرضيه بهنّ ﴿ يَا مُوسَى إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِى وَبِكَلَامِى ﴾ إلى قوله : ﴿ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ ﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ .

قال : فرضىَ موسى كلَّ الرضا .

ولنصل هذا الفصل بما ورد فى تفسير قوله تعالى : ﴿ سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ وقوله : ﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ .

قال الثعلبىّ : قال أهل المعانى : هذا كقول القائل لمن يخاطبه : « سأريك غدا إلى ما تصير إليه حالُ من يخالف أمرى » على وجه الوعيد والتهديد .

(١) كذا وردت هذه العبارة التى بين هاتين العلامتين فى الأصول . ويلاحظ أن قوله تعالى « الذين » غير واضح موقعها من الإعراب فيها بخلاف موقعها من الآية المقتبسة منها وهى قوله تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين آصطفينا من عبادنا » .

وقال مجاهد : سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ، يعنى مَصِيرَهم فى الآخرة .

وقال الحسن : جهنّم .

وقال قتادة وغيره : سأدخلكم الشامَ فأريكم منازل الكافرين الذين هم سكّانها من الجبابرة والعمالقة .

وقال عطيّة العوفىّ : معناه سأريكم دار فرعون وقومِه، وهى مصر .

قال أبو العالية : رُفعت مصر لموسى حتّى نظر إليها .

وقال السدّىّ : دار الفاسقين : مصارع الفاسقين، ما يمرّون عليه إذا سافروا من منازل عاد وثمود والقرونِ الذين أُهلكوا .

وقال ابن كيسان : دار الفاسقين، يعنى إلى ما يصير قرارهم فى الأرض .

وقيل : الدار الهلاك، وجمعه أدوار ؛ وذلك أن الله تعالى لمّا أغرق فرعون وقومَه أمر البحر أن يقذف أجسادهم إلى الساحل ؛ ففعل ، فنظر إليهم بنو إسرائيل، فأراهم هلاكَ الفاسقين .

وقال يمان : يعنى مسكن فرعون .

وأما ما ورد فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى ﴾، يعنى بنى إسرائيل ﴿ أُمَّةٌ ﴾ جماعة ﴿ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ ﴾، أى يرشدون إلى الحق .

وقيل : معناه يهتدون ويستقيمون عليه ويعملون به ﴿ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ أى ينصفون من أنفسهم لا يجورون .

قال السدّى : هم قوم بينكم و بينهم نهر من شُهْد .

وقال ٱبن جريج : بلغنى أن بنى إسرائيل لمّا قتلوا أنبياءهم وكفروا — وكانوا ٱثنى عشر سبطا — تبرأ سبط منهم ، وٱعتذروا وسألوا الله تعالى أن يفرّق بينهم و بينهم . ففتح ٱلله تعالى لهم نَفَقا فى الأرض، فساروا فيه سنةً ونصفا حتى خرجوا من وراء الصّين ؛ فهم هنالك حنفاءُ مسلمون مستقبلون قبلتنا .

قال الكلبىّ و ربيع والضحّاك وعطاء : هم قوم من المغرب خلف الصين على نهر يحوى(١) الرمل يسمى نَهر أوران(٢)، وليس لأحدهم مال دون صاحبه ؛ يُمطَرون بالليل ، و يصحَون بالنهار و يزرعون ، لا يصل إليهم منّا أحد ولا منهم إلينا وهم على الحقّ .

قال : وذكر عن النبىّ — صلّى الله عليه وسلّم — أن جبريل ذهب به ليلةَ أُسرِىَ به إليهم، فكلّمهم، فقال لهم جبريل : هل تعرفون من تكلّمون؟ فالوا : لا . قال : هذا محمّد النبىّ الأمّىّ . فآمنوا به وقالوا : يا رسول الله، إن موسى أوصانا (٥٨) وقال : من أدرك منكم أحمدَ فليقرأ منّى عليه السلام . فردّ رسول الله — صلّى الله عليه وسلّم — على موسى وعليهم السلام، ثم أقرأهم عشرَ سور من القرآن نزلت بمكة ولم تكن نزلت فريضةٌ سوى الصلاة والزكاة، فأمرهم بالصلاة والزكاة، وأمرهم أن يقيموا مكانهم ، وكانوا يَسبِتون، فأمرهم أن يُجمّعوا و يتركوا السبت .

حكاه أبو إسحاق الثعلبىُّ فى تفسيره .

نرجع إلى تتمّة أخبار موسى — عليه السلام — .

(١) كذا فى (ج) . والذى فى (١) « بجرى الرمل » .

(٢) كذا فى (١) . والذى فى (ج) «أرداف » مضبوطا بالقلم بفتح الهمزة وسكون الراء .

ذكر خبر السامرى واتخاذه العجل وافتتان بنى إسرائيل به

قال الكسائىّ والثعلبىّ وغيرُهما من أهل السير ما مختصره ومعناه : إن موسى — عليه السلام — لمّا توجّه إلى البقعة المباركة التى كلّمه الله تعالى فيها لميقات ربّه ، استخلَف أخاه هارونَ على بنى إسرائيل ، وكان السامرىّ فيهم .

واختُلِف فيه ، فقال قتادة والسدّىّ : كان السامرىّ من عظماء بنى إسرائيل من قبيلة يقال لها : (سامِرة)(١) ولكنه عدوّ لله منافق .

وقال سعيد : كان السامرىّ من (كرمان) .

وقال غيرهم : كان رجلا صائغا من أهل باجَرْما ، واسمه مِيخَا .

وقال ابن عبّاس — رضى الله عنهما — : اسمه موسى بن ظَفَر ، وكان رجلا منافقا وقد أظهر الإسلام ؛ وكان من قوم يعبدون البقر ، فدخل قلبَه حبُّ البقر ، فلما ذهب موسى — عليه السلام — لميقات ربّه — وكان قد واعد قومَه ثلاثين ليلةً فأتمّها الله بعشر ، كما أخبر الله عزّ وجلّ — فعَدّ بنو إسرائيل ثلاثين ، فلمّا لم يرجع إليهم موسى افتتنوا وقالوا : إنّ موسى أخلفنا الوعد ؛ فاغتنمها السامرىُّ ففعل ما فعل .

وقال قوم : إنهم عَدّوا الليلةَ يوما واليومَ يوما ؛ وكان موسى قد واعدهم أربعين ، فلمّا مضت عشرين يوما افتتنوا . فأتاهم السامرىُّ وقال : إنّ موسى قد احتبس عنكم ، فينبغى لكم أن تتّخذوا إلٰها ، فإنّ موسى ليس يرجع إليكم ، وقد تمّ الميقات . وإنما طمع فيهم السامرىُّ لأنّهم فى اليوم الذى أنجاهم الله من فرعون وطلعوا من البحر ، كان من أمرهم ما أخبر الله تعالى عنهم فى قوله : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا

(١) فى شرح القاموس أن اسم هذه القبيلة «سامر» بدون هاء .

إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ فطمع السامرىُّ فيهم وآغتنمها ، فلمّا تأخر موسى عن الميقات — وكان بنو إسرائيل قد آستعاروا حلىّ آل فرعون كما قدّمنا ؛ فلمّا فصل موسى قال هارون لبنى إسرائيل : إنّ حلىّ القبط الّذى آستعرتموه غنيمة ، و إنّه لا يحلّ لكم ؛ فآجمعوه فآحفروا له حفيرة وآدفنوه حتى يرجع موسى فيرى فيه رأيه . ففعلوا ذلك ، وجاءهم السامرىّ ومعه القبضة الّتى قبضها من أثر حافر فرس جبريل — عليه السلام — .

قالوا : وكان لجبريل — عليه السلام — فرس أنثى بلقاءُ يقال لها : « فرس الحياة » لا تصيب شيئا إلّا حيي ؛ فلما رأى السامرىّ جبريلَ على تلك الفرس عرفه وقال : إن لهذا الفرس لشأنا . وأخذ قبضة من تراب حافرها حين عبر جبريلُ البحر .

قالوا : وإنّما عرف السامرىُّ خبر الفرس دون غيره من بنى إسرائيل، لأنّ فرعون لمّا أمر بذبح أولاد بنى إسرائيل جعلت المرأة إذا ولدت الغلام آنطلقتْ به سرّا فى جوف الليل الى صحراء أو واد أو غار فى جبل فآخفته ؛ فقيّض الله تعالى له ملَكا من الملائكة يطعمه و يسقيه حتى لا يختلط بالناس ، وكان الذى وَلِىَ كفالة السامرىِّ جبريل عليه السلام، فجعل يمصّ من إحدى إبهاميه سمنا ، ومن الأخرى عسلا ، فمن ثمّ عرفه ، ومن ثمّ الصبىّ إذا جاع يمصّ إبهامه فيَرْوَى من المص .

نرجع الى خبر بنى إسرائيل مع السامرىّ .

قال : فلمّا أمرهم هارون بجمع الحلىّ و جمعوه ، جاء السامرىّ بالقبضة فقال لهارون : يا نبىّ آلله ، أأقذفها فيه ؟ فظنّ هارون أنّها من الحلىّ، وأنّه يريد بها ما يريد أصحابه، فقال له : اِقذف . فقذفها فى الحفرة على الحلىّ ، فصارَ عجلا جسدا له خُوار .

وقال ابن عبّاس — رضى الله عنهما — : أوقد هارون نارا وأمرهم أن يقذفوا الحلىّ فيها؛ فقذف السامرىّ تلك القبضة فيها وقال : «كن عجلا جسدا له خوار» . فكان كذلك للبلاء والفتنة .

ويقال : إنّ الّذى قال لبنى إسرائيل : «إنّ الغنيمة لا تحل لكم» هو (٨٩) السامرىّ ، فصدّقوه وجمعوها ، فدفعوها إليه فصاغ منها عجلا فى ثلاثة أيام ثم قذف فيه القبضة، فجثا وخار خَوْرةً ثم لم يعد

وقال السدّىّ : كان يخور ويمشى؛ فلمّا أخرج السامرىُّ العجلَ وكان من ذهب مرصّع بالجحارة كأحسن ما يكون، قال هذا إلهكم وإله موسى . فشبّه السامرىّ على أوغاد بنى إسرائيل وجُهّالهم حتى أضلّهم وقال لهم : إنّ موسى قد أخطأ ربّه فأتاكم ربُّه أراد أن يريكم أنه قادر على أن يدعوكم إلى نفسه بنفسه، وأنه لم يبعث موسى لحاجة منه إليه ، وأنه قد أظهر لكم العجلَ ليكلّمكم من وسطه كما كلّم موسى من الشجرة .

قالوا : فلمّا رأوا العجل وسمعوا قول السامرىّ ، افتتنوا غير آثنى عشر ألفا وكان مع هارون ستُّمائة ألف، فعكفوا عليه يعبدونه من دون الله تعالى، وأحبّوه حبّا ما أحبّوا مثلَه شيئا قطّ ؛ فقال لهم هارون : يا بنى إسرائيل إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي * قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى .

فأقام هارون بمن معه من المسلمين، وأقام من يعبد العجل على عبادته؛ وخشى هارون إن سار بمن معه من المسلمين إلى المفتتنين الضالّين أن يقول له موسى : فرقت بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ .

قال راشد بن سعد : لما واعد الله تعالى موسى أربعين يوما قال الله تعالى : يا موسى ، إنّ قومك قد ٱفتتنوا من بعدك . قال : ياربّ كيف يفتتنون وقد نجّيتهم من فرعون ومن البحر ، وأنعمت عليهم؟ قال : إنهم ٱتخذوا العجل إلٰها من دونى وهو عجل جسد له خُوار . قال : يا ربّ مَن نفخ فيه الرُّوح ؟ قال : أنا . قال : أنت — وعزّتك — فتنتَهم ، إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِى مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ .

قال : فلمّا رجع موسى من الميقات الى قومه وقرب منهم ، سمع اللغط حول العجل وكانوا يرقصون حوله ، ولم يخبر موسى أصحابَه السبعين بما أخبره به ربّه تعالى من حديث العجل ، فقالوا : هذا قتالٌ فى المحلّة . قال موسى لهم : لا ولكنّها أصوات الفتنة، افتتن القومُ بعدنا بعبادة غير الله تعالى .

ذكر خبر رجوع موسى إلى قومه وما كان من أمرهم

قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنْ بَعْدِى أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ وذلك أنّه لما رآهم حول العجل وما يصنعون فيه ألقى الألواح من يده فتكسّرت ، فصعد عامّة الكلام الذى فيها ، ولم يبقَ إلّا سُدسها ، ثم أعيدت له فى لوحين .

رُوى عن ٱبن عبّاس — رضى الله عنهما — أنّ رسول الله — صلّى الله عليه وسلّم — قال : ليس المُعاين كالمخبَر ، قال الله تعالى لموسى : إن القوم قد ٱفتتنوا فلم يُلقِ الألواح ، فلمّا عاين ألقى الألواح فكسرها .

قالوا : فلما رأى موسى ماصنع قومُه بعده من عبادة العجل ، أخذ شعر رأس أخيه هارون بيمينه ، ولحيتَه بشماله وقال له : يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا

أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ، هلّا قاتلتَهم إذ علمتَ أنّى لو كنت فيما بينهم لقاتلتُهم على كفرهم ؟ فقال هارون : يَابْنَ أُمَّ ؛ قال المفسّرون : كان هارون أخا موسى لأبيه وأمّه ، ولكنّه أراد بقوله : يَابْنَ أُمَّ تقريبه وٱستعطافه عليه ، لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ ، إنْ أُقاتلهمْ أن يصيروا حزبين يقتل بعضهم بعضا ، فتقول : فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ، ولم تحفظ وصيّتي حين قلت لك : اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ . وقال : إِنَّ الْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . فقال موسى : رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ .

قال : ثم أقبل موسى على السامرىّ فقال له : ما خطبك يا سامرى ، أى ما أمرُك وشأنُك ؟ فقال السامرىّ : بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ ، أى أخذتُ ترابا من أثر فرس جبريل فَنَبَذْتُهَا وطرحتها فى العجل وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ، أى زيّنت .

قال : فلمّا علم بنو إسرائيل أنهم قد أخطأوا وضلّوا فى عبادتهم العجل ، ندموا على ذلك وٱستغفروا ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ ﴾ ؛ فقال لهم موسى : يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِٱتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ . قالوا : كيف نتوب ؟ قال : فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، أى يقتل البرىءُ المجرمَ ، ذَٰلِكُمْ يعنى القتل خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ .

قال ابن عباس — رضى الله عنهما — : أبى الله أن يقبل توبة بنى إسرائيل (٩٠) إلّا بالحال التى كرهوا أن يقاتلوهم حين عبدوا العجل .

وقال قتادة : جعل الله توبة عبدة العجل القتلَ لأنّهم ٱرتدّوا ، والكفر مبيح للدّم .

وقال الكسائىّ : لمّا قال موسى لبنى إسرائيل : ﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ ، سألوه أن يتوب الله تعالى عليهم ؛ فسأل الله تعالى ، فأوحى الله تعالى إليه أنّه لا توبة لهم ، لأنّ فى قلوبهم حبّ العجل ، فاجمع رماد العجل وألقه فى الماء ، وأمرهم أن يشربوا منه فإنه يظهر ما فى قلوبهم على وجوههم . ففعل ذلك ؛ فلمّا شربوا لم يبق أحد ممّا فى قلبه مرض إلا ٱصفرّ وجهه ولونُه وورم بطنُه ، ودام ذلك بهم ، فقالوا : يا موسى ، هل شىء غير التوبة الخالصة وقد أخلصنا فى توبتنا حتى لو أمرتنا بقتل أنفسنا فعلنا ؟ فأوحى الله إليه : ياموسى قد رضيتُ بحكمهم على أنفسهم ، فقل لهم : يقتلوا أنفسهم إن كانوا صادقين فى توبتهم . فقال لهم موسى ما أمرهم الله به : ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ . فقالوا : كيف نقتل أنفسنا ؟ قال : يقوم من لم يعبد العجلَ إلى من عبده فيقتله . فقاموا بالسيوف والخناجر إلى ٱلّذين عبدوه وأرسل الله عليهم ظُلمةً فلم يُبصر بعضهم بعضا ، حتى كان الرجل يأتى إلى أخيه وأبيه وٱبن عمه وقرابته فيقتله وهو لا يعرفه ، ولم يعمل السلاح فيمن لم يعبد العجل حتى خاضوا فى الدماء ، وصاح النساء والصبيانُ إلى موسى : « العفوَ يا نبىّ الله » فدعا موسى اللهَ بالعفو عنهم ؛ فلم يعمل السلاحُ فيهم بعد ذلك ، وقبل الله تعالى توبتهم ، وٱرتفعت الظُّلمة عنهم .

قالوا : ثم همّ موسى بقتل السامرى، فأوحى الله تعالى إليه : لا تقتله فإنه سخى، ولكن أخرجه عن قومك . فلعنه موسى وقال له ما أخبر الله تعالى به عنه : ﴿ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ ﴾ أى لعذابك فى القيامة . ﴿ وَانْظُرْ إِلَى إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ .

قال : وأمر موسى بنى إسرائيل ألّا يخالطوا السامرى ولا يقاربوه؛ فصار السامرى وحشيًّا لا يألف ولا يؤلف ولا يدنو من الناس ولا يمسّ أحدا منهم فمن مسّه قُرض ذلك الموضع بالمقراض، فكان ذلك دأبه حتى هلك .

ذكر خبر امتناع بنى إسرائيل من قبول أحكام التوراة ورفع الجبل عليهم وإيمانهم

قال الكسائى : ثم أقبل موسى على بنى إسرائيل بالتوراة وقال : هذا كتاب ربّكم فيه الحلال والحرام والأحكام والسنن والفرائض ورجم الزانى والزانية المحصَنين وقطع يد السارق، والقصاص فى كل ذنب يكون منكم . فضجّوا من ذلك وقالوا : لا حاجة لنا فى هذه الأحكام، وما كنا فيه من عبادة العجل كان أرفق بنا من هذا .

قال : فلما امتنعوا من قبول أحكام الله عز وجل قال موسى : يارب قد علمت أنهم ردّوا كتابك وكذّبوا بآياتك . فأمر الله تعالى جبريل ان يرفع عليهم جبل طورسيناء فى الهواء؛ قال الله عز وجل : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ ﴾ ﴿ وَاسْمَعُوا[1] قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ ؛

(١) يلاحظ أن قوله تعالى : « واسمعوا » الخ .ليس من تتمة الآية السابقة ، بل هو من تتمة آية أخرى فى سورة البقرة، وهى قوله تعالى : «و إذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا » الخ .

فجعل الجبل يدنو منهم حتى ظنوا أنه يسقط عليهم؛ فآمنوا وخروا سجّدا على أنصاف وجوههم وهم ينظرون إلى الجبل بالنصف الآخر؛ فلأجل ذلك سجود اليهود كذلك . وردّ الجبل عنهم .

ذكر خبر الحجر الذى وضع موسى — عليه السلام — ثيابه عليه

قال : وكانوا إذا اغتسلوا لا يستترون عوراتهم ، وإذا اغتسل موسى يستتر فظنوا أن فى بدنه عيبا ، فتكلموا بذلك ، وكان موسى — عليه السلام — إذا اغتسل وضع ثوبه على حجر وقرعه بعصاه فيتفجر الماء منه ، فيغتسل ثم يلبس ثوبه؛ ففعل ذلك فى بعض الأيام، فلما أراد أن يلبس ثوبه انقلع الحجر من موضعه ومر على وجه الأرض وعليه ثوب موسى؛ فعدا موسى خلفه وهو يقول : « ثوبى ياحجر ثوبى يا حجر » ولم يزل يعدو حتى وقف على بنى إسرائيل، فنظروا إلى موسى ولا عيب فيه، فندموا على ما كان منهم؛ قال الله تعالى : ﴿ فَبَرَّأَهُ ٱللهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ ٱللهِ وَجِيهًا ﴾ .

ذكر خبر طلب بنى إسرائيل رؤية الله تعالى وهلاكهم بالصاعقة، وكيف أحياهم الله — عزّ وجلّ — وبعثهم من بعد موتهم.

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى ٱللهَ جَهْرَةً (٩١)
فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

وذلك أن الله تعالى أمر موسى — عليه السلام — أن يأتيه فى ناس من بنى إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ؛ فاختار موسى — عليه السلام — سبعين رجلا من قومه من خيارهم، وكان قد اختار من كلّ سبط ستّة نفر، فصاروا اثنين وسبعين، فقال : إنما أمرت بسبعين، فليتخلف منكم رجلان . فتشاحنوا على

ذلك ، فقال موسى : إن لمن قعد مثل أجر من خرج . فقعد يوشع بن نون وكالب ٱبن يوقنا[1]، فقال موسى للسبعين : صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم . ففعلوا ذلك فخرج بهم موسى عليه السلام إلى طورسيناء لميقات ربه ؛ فلما بلغوا ذلك الموضع قالوا لموسى : اطلب لنا نسمع كلام ربنا . فقال : أَفعل . فلما دنا موسى من الجبل وقع عمود الغمام عليه وتغشّى الجبلَ كلَّه ، فدخل فى الغمام وقال للقوم : أُدنوا . وكان موسى عليه السلام إذا كلمه ربه عز وجل — وقع على وجهه نور ساطع لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر إليه ؛ فضرب دونه الحجاب ، ودنا القوم حتى دخلوا فى الغمام وخروا سجّدا ، وسمعوه وهو يكلّم موسى يأمره وينهاه ؛ فأسمعهم الله تعالى : إنى أنا الله لا إله إلا أنا ذو المُلك ، أخرجتكم من أرض مصر فاعبدونى ولا تعبدوا غيرى . فلما فرغ موسى وٱنكشف الغمام أقبل إليهم فقالوا : لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى ٱللهَ جَهْرَةً ، أى لن نصدّقك ، فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ ، وهى نار جاءت من السماء فأحرقتهم جميعا .

وقال وهب بن منبّه : أرسل الله عليهم جندا من السماء ، فلما سمعوا حسّها ماتوا فى يوم وليلة .

فلما هلكوا جعل موسى — عليه السلام — يبكى ويتضرع ويقول : يا رب ما ذا أقول لبنى إسرائيل إذا أتيتُهم وقد أهلكتَ خيارهم ، ولو شئت أهلكتهم من قبل وإياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ، فلم يزل يناشد ربه حتى أحياهم الله — عزّ وجلّ — رجلا بعد رجل ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون . حكاه الثعلبىّ فى تفسيره .

---

(١) كذا فى النسخة التى بين أيدينا من كتاب الكسائى وتاريخ العينى .

وقال الكسائىّ فى هذه القصة : أقبل بنو إسرائيل على موسى وقالوا : أرنا آلله جهرة . فأوحى الله تعالى إليه : أ كلّهم يريد ذلك ؟ — وهو أعلم — فقال الصالحون منهم : إن الله أجل من أن نراه فى الدنيا .

وقال الباقون : إنما آمتنع هؤلاء لضعف قلوبهم . فأُوحى الله تعالى إليه : أن آختر منهم سبعين رجلا وسر بهم إلى جبل الطور ؛ فسار بهم ، و وقع الغمام على الجبل حتى أظله، وأتاه موسى وهم معه ؛ فأمر الله تعالى الملائكة أن تهبط إلى الجبل بزيّها وصوَرها ؛ فلما نظر بنو إسرائيل إليهم أخذتهم الرِّعدة والخوف، وندموا على ما كان منهم، ونودوا من قبل السماء : يا بنى إسرائيل . فصعقوا كلّهم وماتوا. وساق نحو ما تقدّم .

قال : ورجعوا إلى قومهم وخبّروهم بما رأوا .

ذكر خبر قارون

قال المفسرون : إنّ قارون كان آبن عمّ موسى ، لأنه قارون بن يصهر آبن قاهث .

وقال ابن إسحاق : هو عمّ موسى ، لأن يصهر بن قاهث تزوّج شميث(١) بنت ماويب بن بركيا بن يقشان بن إبراهيم، فولدت له عمران بن يصهر وقارون آبن يصهر .

فعلى هذا القول يكون عم موسى ؛ وعلى قول الآخرين يكون آبن عمه، وعليه عامّة أصحاب التواريخ ؛ وعليه أهل الكتاب، لا خلاف عندهم فى ذلك

(١) كذا فى تاريخ العينى ورقة ٣٠٠ من الجزء الثانى قسم ثان . والذى فى الأصول : سميت بنت ماويب بن توكيا بن يعشان .

قالوا : وكان قارون أعلم بنى إسرائيل بعد موسى وهارون وأفضلهم وأجملهم .

قال قتادة : وكان يسمى المنوّر[1] لحسن صورته ، ولم يكن فى بنى إسرائيل أقرأ للتوراة منه ، ولكن عدوّ الله نافق كما نافق السامرى ، فبغى على قومه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ﴾ .

قال الثعلبى : واختلفوا فى معنى هذا البغى ما هو ، قال ابن عباس — رضى الله عنهما — : كان فرعون قد ملّك قارون على بنى إسرائيل ، وكان يبغى عليهم ويظلمهم .

وقال عطاء الخراسانى وشهر بن حوشب : زاد عليهم فى الثياب شبرا .

وقال شيبان عن قتادة : بغى عليهم بالكبر والبَذَخ .

وقال سعيد عنه : بكثرة المال . وكان أغنى أهل زمانه وأثراهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ ﴾ أى تثقل وتميل بهم إذا حملوها لثقلها .

واختلف المفسرون فى عدد العصبة ، فقال مجاهد : ما بين العشرة إلى الخمسة .

وقال قتادة : ما بين العشرة إلى الأربعين .

وقال عكرمة : منهم من يقول : سبعين .

وقال الضحاك : ما بين الثلاثة إلى العشرة .

وقيل : هم ستون .

وروى جرير عن منصور عن خيثمة قال : وجدت فى الإنجيل أن مفاتيح خزائن قارون كانت وِقْرَ ستين بغلا غُرّا محجّلة ما يزيد منها مفتاح على إصبع (٩٢) لكل مفتاح منها كنز .

(١) فى الأصل « الميسور » ؛ وهو تحريف .

ويقال : إن قارون كان أينما ذهب يحمل معه مفاتيح كنوزه — وكانت من حديد — فلما ثقلت عليه جعلها من الخشب، فثقلت عليه، فجعلها من جلود البقر على طول الأصابع، تُحمل معه على أربعين بغلا .

وقال بعضهم : أراد بالمفاتيح الخزائن . وإليه ذهب أبو صالح .

وقال أبو رزين : لو كان مفتاح واحد لأهل الكوفة كان كافيا .

وٱختلفوا فى سبب ٱجتماع تلك الأموال لقارون ؛ فقيل : كان عنده علم الكيمياء .

قال سعيد بن المسيّب : كان موسى يَعلَمَ الكيمياء، فعلّم يوشعَ ثلث العلم، وعلّم كالب ثلثه، وعلّم قارون ثلثه؛ فخدعهما قارونُ حتى أضافا علمهما إلى علمه .

وحكى الكسائىّ : كان قارون من فقراء بنى إسرائيل، فأوحى الله إلى موسى أن يحلّىَ تابوت التوراة بالذهب، وعلّمه صنعة الكيمياء ؛ فجاء قارون إلى أم كلثم أخت موسى — وقد قيل : إنها كانت زوجته — فسألها : من أين لموسى هذا الذهب ؟ فقالت : إن الله تعالى قد علّمه صنعة الكيمياء . وكان موسى قد علّمها الصنعة، فتعلّمها قارون منها .

قالوا : فكان ذلك سبب أمواله، فذلك قوله كما أخبر الله تعالى عنه : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى ﴾ .

وقيل : معناه على علم عندى بالتصرّف فى التجارات والزراعات وسائر أنواع المكاسب والمطالب .

وقيل فى سبب جمعه تلك الأموال ما رواه الثعلبىّ بسنده عن أبى سليمان الدارانى أنه قال : تَبَدَّى إبليس لقارون وكان قارون قد أقام فى جبل أربعين سنة حتى

غلب بنى إسرائيل فى العبادة، فبعث إبليس إليـه شياطينه فلم يقـدروا عليه؛ فأتاه وجعل يتعبد معه، وجعل قارون يتعبّد و إبليس يقهره فى العبادة و يفوقه؛ فخضع له قارون؛ فقال له إبليس : ياقارون، قد رضينا بهذا الذى نحن فيـه ، لا نشهد لبنى إسرائيل جماعة، ولا نعود مريضا، ولا نشهد جنازة ؟

قال : فأحدره من الجبل إلى البيعة، فكانا يؤتيان بالطعام، فقال له إبليس : ياقارون، قد رضينا أن نكون هكذا كَلًّا على بنى إسرائيل ؟ فقال له قارون : فأىّ رأى عندك ؟ قال : نكسب يوم الجمعة، ونتعبد بقية الجمعة .

قال : فكسبوا يوم الجمعة وتعبدوا بقيتها؛ فقال إبليس : قد رضينا أن نكون هكذا ؟ قال قارون : فأىّ رأى عندك؟ قال : نكسب يوما ونتعبّد يوما فنتصدّق ونُعطى .

قال : فلما كسبوا يوما وتعبّدوا يوما خَنَس إبليس وتركه ، ففُتحت على قارون أبوابُ الدنيا، فبلغ مالُه — على ما رواه الثعلبىّ بسنده الى المسيِّب بن شريك قال: مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ ، وكانت أربعمائة ألف ألف فى أربعين جرابا .

قال: فبغى وطغى حين آستغنى، فكان أوّل طغيانه وعصيانه أنه تكبّر وآستطال على الناس بكثرة الأموال ، وكان يخرج فى زينته .

قال مجاهد: خرج على بَراذينَ بِيض عليها سروج الأرجوان وعليه المعصفَرات .

وقال آبن أسلم : خرج فى سبعين ألفا عليهم المعصفَرات .

قال : وذلك أوّل يوم ظهرت فيه المعصفَرات فى الأرض .

وقال مقاتل : خرج على بغـلة شهباءَ على سرج من الذهب عليـه الأرجوان ومعه ألف فارس عليهم الديباج وعلى دوابّهم الأرجوانُ؛ ومعه سِتُّمائة جارية بِيض عليهنّ الحلىّ والثياب الحمر، وهنّ على البغال الشهب .

وحكى الكسائىّ أن قارون آتخذ سريرا من الذهب يصعد إليه بمراقٍ ، وعليه أنواع من فُرُش الديباج، وعلى رأسه تاج من الذهب مرصّع بالجوهر .

قالوا : فلما خرج فى بعض الأيام فى زينة عظيمة، تمنّى أهلُ الجهالة والخسارة مثـلَ الّذى أُوتيَه، وقالوا ما أخبر الله تعالى به عنهم : ﴿ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِىَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ فأنكر عليهم أهل العلم بالله تعالى، وقالوا لهم : اتقوا الله وآعملوا ما أمركم به، وآنتهوا عما نهاكم الله عنه، فإن ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا من لذّات الدنيا وشهواتها؛ قال الله تعـالى : ﴿ وَلَا يُلَقَّاهَا ﴾ ، أى لايوفّق لهـذه الكلمة ﴿ إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ ، أى على طاعة الله وعن زينة الحياة الدنيا .

قالوا : ثم أوحى الله تعـالى إلى نبيّه موسى — عليه السلام — أن يأمر قومه أن يعلّقوا فى آذانهـم خيوطا أربعة، فى كل طَرَف خيط أخضر كلون السماء فقال موسى : يا رب لم أمرتَ بنى إسرائيل بتعليق هذه الخيوط الخضر فى آذانهم؟ فقال تعالى : إن بنى إسرائيـل فى غفلة ، وقد أردتُ أن أجعل لهم علَمًا فى ثيابهم ليذكرونى به إذا نظروا إلى السماء، ويعلموا أنى منزِل منها كلامى . فقال موسى : يا رب أفلا تأمرهم أن يجعـلوا أرديتهم كلها خضرا ، فإن بنى إسرائيل تحقِر هـذه الخيوط ؟ فقال له : ياموسى، إن الصغير من أمرى ليس بصغير، و إن لم يطيعونى فى الأمر الصغير لم يطيعونى فى الأمر الكبير . (٩٣)

قال : فـدعا موسى بنى إسرائيـل وأعلمهم بأمر الله تعـالى ، ففعـلوا ذلك وآستكبر قارون فلم يطعه ، وقال : إنمـا يفعل هذا الأرباب بعبيدهم لكى يتمـيزوا من غيرهم . فكان هذا أيضا من بغيه وعصيانه .

قالوا : ولمـا قطع موسى البحر ببنى إسرائيـل جُعلت الحُبورة — وهى رآسة المذبح وبيت القربان — لهارون عليه السـلام ؛ وكان بنو إسرائيل يأتون بهديهم فيدفعونه إلى هارون، فيضعه على المذبح، فتنزل نار من السماء فتأكله، فوجَد قارونُ فى نفسـه من ذلك ، وأتى موسى وقال له : يا موسى ، لك الرسالة ، ولهارون الحُبورة، وليس لى من ذلك شىء، وأنا أقرأُ للتوراة منكما، لا صبر لى على هـذا . فقال موسى : واللہ ما أنا جعلتهـا فى هارون ، بل الله جعلهـا له . فقال قارون : والله لا أصدّقك فى ذلك حتى تريَنى بيّنة .

قال : فجمع موسى رؤساء بنى إسرائيل وقال : هاتوا عصيّكم . فجاءوا بهـا فحزمها وألقاها فى قبّته التى كان يعبد الله تعالى فيها ؛ وجعلوا يحرسون عصيّهم حتى أصبحوا ، فأصبحت عصا هارون قد اهتزّ لها ورق أخضر، وكانت من شجر اللوز فقال موسى : ياقارون ، أترى هذا من فعـلى ؟ قال قارون : والله ما هذا بأعجب مما تصنع من السحر . وذهب قارون مغاضبا، واعتزل موسى بأتباعه ؛ وجعل موسى يداريه للقرابة التى بينهـما وهو يؤذيه فى كل وقت ، ولا يزداد كلّ يوم إلا عتوّا وتجبّرا ومخالَفة .

ويقال : إنه بنى دارا وجعـل بابها من الذهب ، وضرب على جدرانها صفائح الذهب ، وكان المـلأ من بنى إسرائيل يغدون عليـه ويروحون فيطعمهم الطعام ويحدّثونه ويضاحكونه .

قال ابن عباس — رضى الله عنهما — : ثم أنزل الله تعالى الزكاة على موسى ؛ فلما وجبت الزكاة على بنى إسرائيل أتى قارون موسى فصالحه عن كلّ ألف دينار على دينار، وعن كلّ ألف درهم على درهم، وعن كلّ ألف شاة على شاة، وعن كلّ ألف

شيء شيئا، ثم رجع إلى بيته فحسبه فوجده كثيرا، فلم تسمح بذلك نفسه، فجمع بنى إسرائيل وقال لهم: ياقوم، إن موسى قد أمركم بكل شيء فأطعتموه، وهو الآن يريد أن يأخذ أموالكم. فقالوا له: أنت كبيرنا وسيدنا فمر بما شئت. فقال: آمركم أن تجيئوا بفلانة البغيّ فنجعل لها جُعلا على أن تقذف موسى بنفسها، فإذا فعلت ذلك خرج عليه بنو إسرائيل ورفضوه فاسترحنا منه. فأتوا بها، فجعل لها قارون ألف درهم. وقيل: ألف دينار. وقيل: طَسْتا من ذهب. وقيل: حُكْمَها، وقال لها: إنى أموّلك وأخلطك بنسائى على أن تقذفى موسى غدا إذا كان بنو إسرائيل متجمّعين. فلما كان الغد جمع قارونُ بنى إسرائيل، ثم أتى موسى فقال: إنّ بنى إسرائيل قد اجتمعوا ينظرون خروجك لتأمرهم وتنهاهم وتبيّن لهم اعلام دينهم وأحكامَهم وأحكام شرعهم. فخرج إليهم موسى وهم فى بَرَاح من الأرض، فقام فيهم خطيبا ووعظهم، وقال فيما قال: يا بنى إسرائيل، من سرق قُطعتْ يده، ومن افترى جلدناه ثمانين جلدة، ومن زنى وليس له امرأة جلدناه مائة جلدة، وإن كانت له امرأة رجمناه حتى يموت. فقال له قارون: وإن كنت أنت؟ قال: وإن كنتُ أنا. قال: فإنّ بنى إسرائيل يزعمون أنك فجرتَ بفلانة. قال موسى: أنا؟ قال: نعم. قال: أُدعها فإن قالت فهو كما قالت. فدُعيتْ، فلما جاءت قال لها موسى: يافلانة، أنا فعلت بك ما يقول هؤلاء؟ وعظّم عليها وسألها بالذى فلق البحر لبنى إسرائيل وأنزل التوراة على موسى إلّا صدقت. فلما ناشدها موسى تداركها الله تعالى بالتوفيق وقالت: لأن أحدث اليوم توبة أفضل من أن أوذىَ رسول الله. وقالت: لاوالله بل كذبوا، ولكن جعل لى قارون جُعلا على أن أقذفك بنفسى. فلما تكلّمت بهذا الكلام سُقط فى يد قارون ونكّس رأسه، وسكت الملأ وعرف قارونُ أنه قد وقع فى مهلكة، وخرّ موسى ساجدا لله تعالى.

وقال الكسائىّ فى قصّة هذه المرأة : إن قارون بعث إلى آمرأة فاسقة كان موسى قد نفاها من عسكره، فقال لها : إنى أريد أن أتزوّج بك وأنقذك من هذا الفقر إن عملتِ ما أقول . قالت : وما هو ؟ قال : إذا اجتمع بنو إسرائيل عندى فآحضرى وقولى : إن موسى دعانى إلى نفسه فلم أطاوعه، فأخرجنى من عسكره فانصرفت ودخلت على قارون من الغد — وقد آجتمع بنو إسرائيل عنده — فقالت : يابنى إسرائيل، هذا مالقىَ الأخيار من الأشرار؛ اعلموا أن قارون دعانى بالأمس وقال لى كذا وكذا، وأمرنى أن أكذب على نبىّ الله موسى؛ وكَذّب قارون إنما أخرجنى موسى من عسكره لفسادى، وقد تبت إلى الله تعالى من ذلك . فلما سمع قارون ذلك ندم ، ولامه بنو إسرائيل، و بلغ موسى الخبر فغضب ودعا على قارون .

قالوا : وجعل موسى يبكى و يقول : يارب إن عدوّك هذا قد آذانى وأراد فضيحتى ، اللهم إن كنت رسولك فاغضب لى وسلّطنى عليه . فأوحى الله تعالى إليه : ارفع رأسك وأْمر الأرض بما شئت تطعك . فقال موسى : يابنى إسرائيل إن الله قد بعثنى إلى قارون كما بعثنى إلى فرعون ، فمن كان معه فليَثْبُت مكانه ومن كان معى فليعتزل عنه . فآعتزل بنو إسرائيل قارونَ ولم يبق منهم إلا رجلان ثم قال موسى : ياأرض خذيهم . فأخذتهم إلى كعابهم . ثم قال : ياأرض خذيهم . فأخذتهم إلى ركبهم . ثم قال : ياأرض خذيهم . فأخذتهم إلى حُقِيِّهم . ثم قال : ياأرض خذيهم . فأخذتهم إلى أعناقهم؛ وقارون وصاحباه فى كل ذلك يتضرعون إلى موسى ويناشدونه ؛ حتى روى فى بعض الأخبار : أنه ناشده سبعين مرة وموسى فى جميع ذلك لايلتفت إليه ، لشدّة غضبه عليه . ثم قال : يا أرض خذيهم . فآنطبقت عليهم الأرض ؛ فأوحى الله إلى موسى : استغاثوا بك سبعين

مرّة فلم ترحمهم ولم تغثهم، أما وعزتى وجلالى لو إياى دعَوا لوجدونى قريبا مجيبا . قال قتادة[1] : ذُكر لنا أن الله تعالى يخسف بهم فى كل يوم قامة ، وأنه يتخلخل فيها لا يبلغ قعرها إلى يوم القيامة .

قالوا : فلما خسف الله تعالى بقارون وصاحبيه أصبحت بنو إسرائيل يتناجون فيما بينهم : إن موسى دعا على قارون ليستبدّ بداره وكنوزه وأمواله . فدعا موسى حتى خسف الله تعالى بدار قارون وأمواله الأرض؛ وأوحى الله تعالى إلى موسى : أنى لا أعبِّد الأرض لأحد بعدك أبدا؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنْتَصِرِينَ ﴾ .

قال : فلما حلّت نقمة الله تعالى بقارون حمد المؤمنون الله تعالى، وندم الذين كانوا يتمنّون ماله وحاله ، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله : ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَافِرُونَ ﴾ . والله الفعّال .

ذكر خبر موسى والخضر — عليهما السلام —

وهذا الخبر إنما رجعتُ فيه وآعتمدت على ما ورد فى الحديث الصحيح النبوىّ مما خرّجه البخارىّ — رحمه الله تعالى — فى صحيحه، ورويناه بسندنا عنه بسنده عن آبن عباس عن أبىّ بن كعب — رضى الله عنهم — عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم : أن موسى[2] — عليه السلام — قام خطيبا فى بنى إسرائيل ، فسئل : أىّ الناس

(١) يتخلخل : يتقلقل ويضطرب .

(٢) يلاحظ أن فى رواية هذا الحديث هنا اختلافا يسيرا عما ورد فى البخارى فى كتاب تفسير القرآن انظر الجزء الخامس ص ٢١٤ طبع بولاق سنة ١٢٩٦ ﻫ .

أعلم ؟ قال : أنا . فعتب الله تعالى عليه إذ لم يردّ العلم إليه؛ فقال : بلى، عبد بمجمع البحرين هو أعلم منك .

وورد فى الحديث الآخر من رواية البخارىّ : بلى عبدنا خَضِر . قال : أىْ ربّ ومن لى به ؟ قال سفيان من روايته : أىْ ربّ وكيف لى به ؟ قال : تأخذ حوتا فتجعله فى مِكْتَل فحيثما فقدتَ الحوت فهو ثَمّ . وربما قال : فهو ثَمّة . فأخذ حوتا فجعله فى مِكْتَل، ثم آنطلق هو وفتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما ؛ فرقد موسى عليه السلام ، وآضطرب الحوت فخرج فسقط فى البحر: ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾(١)؛ فأمسك الله عن الحوت جِرية الماء فصار مثل الطاق؛ فآنطلقا يمشيان بقيّة يومهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغد قال لفتاه: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾؛ ولم يجد موسى النَّصَب حتى جاوز حيث أمره الله تعالى؛ قال له فتاه : ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ ؛ فكان للحوت سَرَبا ولهما عَجَبا .

قال له موسى : ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ .

فرجعا يقصّان آثارهما حتى آنتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجًّى بثوب، فسلّم موسى، فردّ عليه فقال : وأنّى بأرضك السلام . قال : أنا موسى . قال : موسى بنى إسرائيل ؟ قال : نعم ، أتيتك لتعلّمنى ممّا عُلِّمتَ رُشدا . قال : يا موسى إنى على علم من علم الله علّمنيه اللهُ لا تعلمه ، وأنت على علم من علم الله علّمكه اللهُ لا أعلمه . ﴿قَالَ هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ . ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ

(١) فى البخارى : « فصار عليه مثل الطاق » .

تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴾ . إلى قوله : ﴿ أَمْرًا ﴾ ، فانطلقا يمشيان على ساحل البحر ، فمرّت بهما سفينة فكلّموهم أن يحملوهم ، فعرفوا الخَضِر فحملوه بغير نَوْل ؛ فلما ركبا فى السفينة جاء عصفور[1] فوقع على حرف السفينة فنقر فى البحر نقرة أو نقرتين[2] فقال له الخَضِر : يا موسى ، ما نقص علمى وعلمُك من علم الله إلّا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر . « فأخذ الفأس[3] فنزع لوحا » .

قال : فلم يَفجأ[4] موسى إلّا وقد قلع لوحا بالقدوم ؛ فقال له موسى : ما صنعتَ ؟ قومٌ حملونا بغير نَوْل عمدتَ إلى سفينتهم فخرقتها ﴿ لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ . وكانت الأولى من موسى نسيانا . فلمّا خرجا من البحر مرّا بغلام يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخَضِر برأسه يقلعه بيده هكذا — وأومأ سفيانُ بأطراف أصابعه كأنّه يقطف شيئا — قال له موسى : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ ﴾ مائلا ، ﴿ فَأَقَامَهُ ﴾ — أومأ بيده هكذا وأشار سفيان كأنّه يمسح شيئا إلى فوق — قال : قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيّفونا عمدتَ إلى حائطهم ، ﴿ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا * قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ .

---

(١) وردت قصة العصفور هذه فى البخارىّ مؤخرة عن هذا الموضع بقليل ، أى بعد ذكر خرق السفينة .

(٢) لم يرد فى البخارى قوله : « أو نقرتين » انظر القسطلانى ج ٧ ص ٢٦١ .

(٣) هذه العبارة التى بين هاتين العلامتين لم ترد فى البخارى أثناء هذا الحديث الوارد فى كتاب تفسير القرآن .

(٤) عبارة البخارى « لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحا » الخ .

قال النبيّ — صلّى الله عليه وسلّم — : « وددنا أنّ موسى كان صبر فقصّ علينا من خبرهما » .

قال سفيان : قال النبيّ — صلّى الله عليه وسلّم — : « يرحم الله موسى لو كان صبر لقصّ علينا من أمرهما » .

وقرأ ابن عبّاس — رضى الله عنهما — : « أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَصْبًا * وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ كَافِرًا وَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ » .

ثم قال لى سفيان : سمعتُه منه مرّتين وحفظتُه منه .

هذا حديث البخارىّ عن علىّ[1] بن عبد الله عن سفيان عن عمرو بن دينار عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبىّ بن كعب ؛ وقصّتهما فى كتاب الله تعالى : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا * وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ الآيات ، إلى قوله : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ .

وحكى أبو إسحاق الثعلبىّ — رحمه الله — فى قصصه أنّ الخضر — عليه السلام — اسمُه بَلْيَا[2] بن ملكان بن فالغ بن عابر بن شالَخ بن أَرْفَخْشَذ بن سام بن نوح عليه السلام .

و روى حديثا عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : إنما سمّى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء ، و إذا هى تهتزّ تحته خضراء .

(١) لم يرد اسم على بن عبد الله فى سند هذا الحديث الوارد فى البخارى ج ٥ ص ٢١٤ طبع بولاق سنة ١٢٩٦ هـ و إنما رواه الحميدى عن سفيان .

(٢) كذا ورد هذا الاسم فى تاريخ العينى مضبوطا بالعبارة

وروى عن مجاهد قال : إنما سمّى الخضر لأنه حيثما صلّى آخضرّ ما حوله .

قال الثعلبىّ : وكان الخضر فى أيام أفريدون الملك على قول عامّة أهل الكتب الأُوَل .

قال : وقيل إنه كان على مقدّمة ذى القرنين الأكبر الذى كان فى أيام ابراهيم — عليه السلام — وذلك فى أيام مسيره فى البلاد ، وأنه بلغ مع ذى القرنين نهرَ الحياة وشرب من مائه وهو لا يعلم ولا يعلم ذو القرنين ، فخُلِّد ، وهو حىّ إلى الآن ؛ والله أعلم .

وسنذكر — إن شاء الله تعالى — فى السِّفر الذى يلى هذا السفرَ خبرَه فى ظفره بماء الحياة فى أخبار ذى القرنين .

ذكر خبر البقرة وقتل عاميل

قال أبو إسحاق الثعلبىّ — رحمه الله تعالى — فى تفسيره عن السّدىّ وغيره : إن رجلا كان فى بنى إسرائيل كان بارّا بأبيه ، وبلغ من برّه به أن رجلا أتاه بلؤلؤة فآبتاعها منه بخمسين ألفا ، وكان فيها فضل وربح ؛ فقال له البائع : اعطنى الثمن . فقال : إن أبى نائم ، ومفتاح الصندوق تحت رأسه ، فأمهلنى حتى يستيقظ فأعطيك الثمن . فقال له البائع : أيقظ أباك وأعطنى المال . قال : ما كنت لأفعل ولكن أزيدك عشرة آلاف وأنظرنى حتى ينتبه . فقال الرجل : أنا أعطيك عشرة آلاف إن أيقظتَ أباك وعجّلت النقد . فقال : أنا أزيدك عشرين ألفا إن آنتظرتَ آنتباهه . ففعل ولم يوقظ أباه ؛ فلما آستيقظ أبوه أخبره بذلك ، فدعا له وجزاه خيرا ، وقال له : أحسنتَ يابنىّ ، وهذه البقرة لك بما صنعت . وكانت بقيّة بقر كانت لهم .

قال : وقال ابن عبّاس ووهبٌ وغيرُهما : كان فى بنى إسرائيل رجل صالح له ٱبن طفل، وكان له عجلة، فأتى بها إلى غَيضة وقال: اللهم إنى ٱستودعتك هذه العجلة لٱبنى حتى يكبر. ومات الرجل، فشبّت العجلة فى الغيضة وصارت عَوانا وكانت تَهرُب من كلّ من رامها؛ فلما كبِر الٱبن — وكان برّا بوالدته، وكان يقسم الليلَ ثلاثة أثلاث : يصلى ثلثا، وينام ثلثا، ويجلس عند رأس أمّه ثلثا؛ فإذا أصبح ٱنطلق وٱحتطب على ظهره، ويأتى به السوق فيبيعُه بما شاء الله، ثم يتصدق بثلثه، ويأكل ثلثه، ويعطى والدته ثلثه .

وحكى الكسائىّ عن وهب قال : كان فى بنى إسرائيل عبد صالح، فمات وترك ٱمرأته حاملا، فولدت غلاما، فسمّته ميشى، فكبِر . وكان يحتطب من المواضع المباحة، وينفق على نفسه وأمه، وكان كثير العبادة؛ فلم يزل كذلك حتى كبِر وضعف وعجز عن الٱحتطاب .

قالوا : فقالت له أمه : إن أباك ورّثك عجلة وذهب بها إلى غَيضة كذا وٱستودعها الله — عزّ وجلّ — فانطلِق إليها وٱدع إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب أن يردّها عليك، وإنّ من علامتها أنك إذا نظرت إليها يخيّل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها — وكانت تسمّى المُذهَبة لحسنها وصُفرتها وصفاء لونها — فأتى الفتى إلى الغَيضة، فرآها ترعى، فصاح بها وقال: أعزم عليكِ بإله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب . فأقبلتْ تسعى حتى قامت بين يديه، فقبض على عنقها وقادها، فتكلّمتْ بإذن الله — عزّ وجلّ — وقالت : أيها الفتى البارّ بوالدته، اركبنى فإنّ ذلك أهوَن عليك . فقال : إنّ أمى لم تأمرنى بذلك، ولكن قالت : خذ بعنقها . فقالت البقرة : وإله بنى إسرائيل لو ركبتَنى ما كنتَ تقدر

علىّ أبدا ، فانطلق فإنّك لو أمرت الجبـل أن ينقطع من أصـله وينطلقَ معك لفعل، ابرّك بوالدتك . فسار الفتى بهـا ، فاستقبله عدوّ الله إبليس فى صورة راع فقال : أيهـا الفتى ، إنّى رجل من رعاة البقـر ، اشتقتُ إلى أهلى فأخذتُ ثورا من ثيرانى ، فحملتُ عليـه زادى ومتاعى ، حتى إذا بلغتُ شـطر الطريق ذهبت لأقضى حاجتى، فعدا الثورُ وسط الجبل وما قدرتُ عليه ، وإنى أخشى على نفسى الهَلَكة ، فإن رأيتَ أن تحملنى على بقرتك . فلم يفعل الفتى وقال له : اذهب فتوكّل على الله — عزّ وجلّ — فلو علم الله منك الصدق لبلّغك بلا زاد ولا راحلة . فقال له إبليس : إن شئتَ فبعنيهـا بحكمك ، وإن شئتَ فاحملنى عليهـا وأعطيك عشرا مثلهـا . فقال الفتى : إن أمّى لم تأمرنى بذلك . فبينا الفتى كذلك إذ طار طائر من بين يديه ، فنفرت البقرة هاربةً فى الفلاة ، وغاب الراعى ، فدعا الفتى باسم إله إبراهيم ، فرجعت إليه وقالت : أيها الفتى البارُّ بوالدته ، ألم تر إلى الطائر الذى طار ، إنه إبليس عدوّ الله اختلسنى ، أما إنه لو ركبنى ما قدرت علىّ أبدا ، فلمّا دعوتَ بإله إبراهيم جاء ملَك وانتزعنى من يد إبليس وردّنى إليـك لبِرّك بأمّك وطاعتك لهـا . فجاء بها الفتى إلى أمّـه ، فقالت له أمّه : إنك فقـير لا مال لك ويشقّ عليك الاحتطاب بالنهار والقيامُ بالليل ، فانطلق فبع هذه البقرة وخذ ثمنها . قال : بكم أبيعها ؟ قالت : بثـلاثة دنانير ، ولا تبعها بغـير رضاى ومشورتى . فكان ثمن البقـرة فى ذلك الوقت ثلاثةَ دنانير ، فانطلق بهـا الفتى إلى السـوق فبعث الله — عزّ وجلّ — ملَكا ليرى فى خَلْقـه قدرته ، وليَخبُرَ الفتى كيف برّه بوالدته ، وكان الله تعالى به خبيرا ؛ فقال له الملَك : بكم تبيع هـذه البقرة ؟ قال : بثلاثة دنانير، وأشترط عليك رضا والدتى . فقال له الملَك : فأنا أعطيك ستة دنانيرَ ولا تستأمر أمّك . فقال الفتى : لو أعطيتنى وزنَهـا ذهبا لم آخذه إلّا برضا أمّى .

فردّها إلى أمه ، وأخبرها الخبر ، فقالت : ارجع فبعها بستة دنانير على رضًا منّى فانطلق بها إلى السوق ، وأتى الملَك ، فقال : استأمرتَ والدتك ؟ فقال الفتى : إنها أمرتنى ألا أنقُصَها عن ستة دنانير على أن أستأمرها . فقال الملَك : فإنى أعطيك آثنى عشر دينارا على ألّا تستأمرها . فأبى ورجع إلى امه فاخبرها بذلك ؛ فقالت : إنّ ذلك الرجل الذى يأتيك هو ملَك من الملائكة يأتيك فى صورة آدمىّ ليختبرك ، فإذا أتاك فقل له : أتأمرنا أن نبيع هذه البقرة أم لا ؟ ففعل الفتى ذلك ؛ فقال له الملَك : اذهب إلى أمّك فقل لها : أمسكى هذه البقرة ، فإن موسى بن عمران يشتريها منكم لقتيل يُقتل من بنى إسرائيل ، فلا تبيعوها إلّا بملء مَسْكها دنانير . فأمسكوا البقرة ، وقدّر الله على بنى إسرائيل ذبح تلك البقرة بعينها مكافأة له على برّه بأمه ؛ وذلك أنه وُجد قتيل فى بنى إسرائيل آسمه (عاميل) ولم يُدرَ قاتلُه .

وآختلفوا فى قاتله والسبب فى قتله ؛ فقال عطاء والسدّىّ : كان فى بنى إسرائيل رجل كثير المال ، وله آبن عم مسكين لا وارث له غيره ، فلما أبطأ عليه موتُه قتَلَه ليرثَه .

قال : وقال بعضهم : كان تحت عاميلَ بنتُ عمٍ له تُضرَب مثلا فى بنى إسرائيل بالحسن والجمال ، فقتله آبن عمّها لينكحها .

وقال الكلبىّ : قتله آبن أخيه لينكح آبنته ، فلمّا قتله حمله من قريته إلى قرية أخرى وألقاه هناك .

وقيل : ألقاه بين قريتين .

وقال عكرمة : كان لبنى إسرائيل مسجد له اثنا عشر بابا ، لكل سِبْط منهم باب ، فوُجد قتيل على باب سِبْط ، وجُرّ إلى باب سِبْط آخر ، فاختصم السِّبطان فيه .

وقال ابن سيرين : قتله القاتل ثم احتمله فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح يطلب بثأره ودمه و يدّعيه عليه .

قالوا : فجاء أولياء القتيل إلى موسى — عليه السلام — وأتوه بأناس وادّعوا عليهم القتل، وسألوه القصاص ؛ فسألهم موسى عن ذلك، فجحدوا، فاشتبه أمر القتيل على موسى — عليه السلام — ووقع بينهم خلاف .

قال الكلبيّ : وذلك قبل نزول القسامة فى التوراة ، فسألوا موسى — عليه السلام — أن يدعو الله ليبيّن لهم ذلك ؛ فسأل موسى — عليه السلام — ربّه عزّ وجلّ؛ فأمرهم بذبح بقرة؛ فقال لهم موسى ما أخبر الله تعالى به فى قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ ﴾ ، أى تستهزئ بنا حين نسألك عن القتيل وتأمرنا بذبح البقرة ؛ وإنما قالوا ذلك لتباعد ما بين الأمرين فى الظاهر ، ولم يدروا ما الحكمة فيه . قال موسى: ﴿ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ ﴾، أى من المستهزئين بالمؤمنين؛ فلما علم القوم أنّ ذبح البقرة عزمٌ من الله عزّ وجلّ، سألوه الوصف، فذلك قوله تعالى : ﴿ قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ﴾ .

قال: ولو أنهم عمدوا إلى أدنى بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكن شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم؛ و إنما كان تشديدهم تقديرا من الله ـ عزّ وجلّ ـ وحكمة .

قال : ومعنى ﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ ، أى سَلْ؛ وهكذا فى مصحف عبد الله : «سل لنا ربّك يبيّن لنا ما هى وما سنّها» . قال موسى: إنه ــ يعنى الله عزّ وجلّ ــ يقول : ﴿ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ﴾ : لا كبيرة ولا صغيرة ﴿ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ أى نَصَفٌ بين السنّين .

وقال الأخفش: العَوان التى نُتِجتْ مرارا، وجمعه عُون. ﴿ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾: من ذبح البقرة، ولا تكرروا القول . ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ .

قال ابن عبّاس : شديدة الصُّفرة .

وقال قتادة وأبو العالية والربيع : صاف .

وقال سعيد بن جبير : صفراء القرنين والظِّلْف .

وقال الحسن : سوداء . والعرب تسمّى الأسودَ أصفر .

وقال العتبىّ : غلط من قال : الصفراء هاهنا السوداء، لأن هذا غلط فى نعوت البقر، وإنما هو من نعوت الإبل، وذلك أن السود من الإبل يشوب سوادَها صُفرة.

وقال آخر : إنه لو أراد السواد لما أكّده بالفُقوع . لأنّ الفاقع : البالغ فى الصفرة ، كما يقال : أبيض يَقَق ، وأسوَدُ حالِك ، وأحمرُ قانئ ، وأخضر ناضر . ﴿ تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ إليها، ويعجبهم حسنها وصفاء لونها، لأن العين تسرّ وتُولَع بالنظر إلى الشىء الحسن .

وقال علىّ — رضى الله عنه — : من لبس نعلا صفراءَ قلّ همّه . لأنّ الله تعالى يقول : ﴿ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ﴾ أسائمة أم عاملة ﴿ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ أى إلى وصفها .

قال رسول الله —صلّى الله عليه وسلّم— : "وآيم الله لو لم يستثنوا لما بُيِّنتْ لهم آخرَ الأبد " . ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ ﴾ ، أى مذلّلة للعمل . ﴿ تُثِيرُ الْأَرْضَ ﴾، أى تقلبها للزراعة ﴿ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ ﴾ أى بريئة من العيوب

وقال الحسن : مسلّمة القوائم ، ليس فيها أثر العمل . ﴿ لَا شِيَةَ فِيهَا ﴾ ، قال عطاء : لا عيب فيها .

وقال قتادة : لا بياض فيها أصلا .

وقال مجاهد : لا بياض فيها ولا سواد .

وقال محمد بن كعب : لا لون فيها يخالف معظم لونها . فلما قال هذا ﴿ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ ، أى بالوصف البيّن التام ؛ فطلبوها فلم يجدوا كمال وصفها إلّا عند الفتى البارّ بوالدته ، فاشتروها منه بملء مَسْكِها ذهبا .

وقال السدّى : اشتروها بوزنها عشر مرّات ذهبا .

وقيل : اشتروها بوزنها مرّة ؛ قاله أبو عبيد .

وقيل : بوزنها مرّتين .

وقال الكسائى : إنهم أتوا إلى ميشَى فى بيع البقرة فقال : لا أبيعها إلّا بحضرة موسى ، فرضوا بذلك ، وأخرج البقرة إلى موسى ، قال : بكم تبيعها ؟ قال : المساومة
(٩٨) بينى وبينك لا خير فيها ، لا أبيعها إلّا بملء جلدها ذهبا . فقال موسى لبنى إسرائيل : ذلك لتشديدكم على أنفسكم فشدّد الله عليكم . فضمنوا له ذلك ، قال الله تعالى : ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ من غلاء ثمنها .

وقال محمد بن كعب : وما كادوا يجدونها بأجتماع أوصافها .

وقال الكسائى : بوفاء المال ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ ، يعنى عاميل . ﴿ فَادَّارَأْتُمْ ﴾ : اختلفتم ، قاله ابن عبّاس ومجاهد .

وقال الضحّاك : اختصمتم .

وقال عبد العزيز بن يحيى : شككتم .

وقال الربيع بن أنس : تدافعتم . وأصل الدَّرْء : الدفع ، يعنى أَلقى هـذا على هذا وهذا على ذاك ، فدافع كلُّ واحد عن نفسه لقوله تعالى : ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ ، أى يدفعون . قال الله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ يعنى القتيل ببعض البقرة .

وٱختلفوا فى هذا البعض ما هو .

فقال ٱبن عباس : ضربوه بالعظم الّذى يلى الغُضْروف ، وهو المقبل .

وقال الضحّاك : بلسانها .

قال الحسين بن الفضل : وهذا أَولى الأقوال ، لأنّ المرادَ كان من إحياء القتيل كلامُه ، واللسان آلته .

وقال سعيد بن جبير : بعَجْبِ ذَنَبها .

قال يمـان بن زرياب : وهـو أولى التأويلات بالصواب ، لأنّ العُصعُص أساس البدن الّذى رُكِّبَ عليه الخلق ، وأنّه أوّل ما يُخلَق ، وآخِرُ ما يَبلى .

وقال مجاهد : بذَنَبها .

وقال عكرمة والكلبىّ : بفخذها الأيمن .

وقال السدّىّ : بالبَضعة الّتى بين كتفيها .

وقيل : بأذنها . ففعلوا ذلك ، فقام القتيل — بإذن الله عزّ وجلّ — وأوداجه تَشخُبُ دما ، وقال : قتلنى فـلان . ثم مات وسقط مكانه ؛ قال الله تعـالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُحْيِي ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

قال الكلبىّ : ثم قالوا بعد ذلك : « لم نقتله نحن » وأنكروا، فلم يكونوا قطّ أقسى قلبا ولا أشدّ تكذيبا منهم لنبيّهم عند ذلك ، ولذلك يقول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ .

قال الكلبىّ : يبست واشتدّت .

وقال أبو عبيدة : جفّت من الشدّة فلم تلن .

وقيل : غلظت .

وقيل : اشتدّت .

وقال الزّجاج : تأويل القسوة ذهاب اللّين والرحمة والخشوع والخضوع .

قوله : ﴿ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ ﴾ ، أى من بعد ظهور الدّلالات ، فهى فى غلظها وشدّتها ﴿ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ ، أى بل أشدّ قسوة .

ثم عدّد الله تعالى الحجارة وفضّلها على القلب القاسى ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ ، أى ينزل من أعلى الجبل إلى أسفله ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

ذكر بناء بيت المقدس وخبر القربان والتابوت والسكينة وصفة النار

وهذا البيت ليس هو البيت المقدّس الموجود الآن ، وإنما هو الذى تسميه اليهود : « قبة الزمان » ويزعمون أن ذلك نص التوراة ، وكان من خبر هذه القصة ما رواه الثعلبىّ بإسناده عن وهب بن منبّه قال : أوحى الله تعالى إلى موسى — عليه السلام — أن يتّخذ مسجدا لجماعتهم ، وبيتَ قدس للتوراة ، وتابوتا للسكينة وقبابا للقربان ، وأن يجعل لذلك المسجد سرادقات باطنها وظاهرها من الجلود

الملبسة عليها ، وأن تكون تلك الجلود من جلود ذبائح القربان ، وحبالها من أصواف تلك الذبائح ؛ وعهد إليه ألا تغزل تلك الحبالَ حائض ، ولا يدبغَ تلك الجلودَ جُنُب ؛ وأمره أن ينصب تلك السرادقات على عَمَد من نحاس ، طول كلّ عمود منها أربعون ذراعا ، ويجعل فيها آثنى عشر قسما مُشرَجا [1] ، إذا نُقِضتْ صارت اثنى عشر جزءا. يَحمل كلّ جزء بما فيه من العمد سبط من الأسباط من بنى إسرائيل ؛ وأمره أن يجعل سعةَ ذلك السرادق سِتَّمائة ذراع ، وأن ينصب فيه سبعَ قباب ، ستٌّ قباب منها مشبكةٌ بقضبان الذهب والفضة ، كلّ واحدة منهن منصوبة على عمود من فضة طول كل عمود منها أربعون ذراعا ، وعليها أربعة دسوتِ ثياب ، الباطن منها سندس أخضر ، والثانى أُرجُوان أحمر ، والثالث ديباج أصفر ، والرابع من جلود القربان وقايةً لها من المطر والغبار ، وحبالها التى تُمدّ بها من صوف القربان ، وأن يجعل (٩٩) سعتها أربعين ذراعا ، وأن ينصب فى جوفها موائد من فضّة مربّعةً مرصّعة يوضع عليها القربان ، سعة كلّ مائدة منها أربع أذرع ، كلّ مائدة منها على أربع قوائم من فضّة ، طول كلّ قائمة ثلاث أذرع ، لا ينال الرجل منها إلّا قائما ؛ وأمره أن ينصب بيت المقدس على عمود من ذهب ، طوله سبعون ذراعا ، وأن يضعه على سبيكة من ذهب أحمرَ طولها تسعون ذراعا ، مرصّعةٍ بألوان الجواهر ، وأن يجعل أسفله مشبَّكا بقضبان الذهب والفضّة ، وأن يجعل حباله التى يُمدّ بها من صوف القربان مصبوغةً بألوان من أحمر وأصفر وأخضر ؛ وأن يُلبِسه سبعةً من الحُلَل ، الباطن منها سندس أخضر ، والثانى أرجوان أحمر ، والثالث ديباج أصفر ، والرابع من الحرير الأبيض ، وسائرُها من الدِّيباج والوشى ؛ والظاهر غاشيةٌ له من جلود القربان وقايةً له من الأذى والندى ؛ وأمره أن يجعل سعته سبعين ذراعا ، وأن يفرش القباب

(١) مشرجا ، أى دوخل بين عراه وضم بعضها إلى بعض .

بالقزّ الأحمر، وأمره أن ينصب فيه تابوتا من ذهب كتابوت الميثاق، مرصَّعا بأنواع الجواهر والياقوت والزمرد الأخضر، وقوائمه من الذهب، وأن يجعل سعته سبع أذرع فى أربع أذرع، وعلوَّه قامةَ موسى عليه السلام، وأن يجعل له أربعة أبواب: باب تدخل منه الملائكة، وباب يدخل منه موسى، وباب يدخل منه هارون، وباب يدخل منه أولاد هارون، وهم سَدَنة ذلك البيت وخُزّان التابوت، وأمر الله نبيّه موسى أن يأخذ من كلّ محتلم من بنى إسرائيل مثقالا من الذهب فينفقه على هذا البيت، وأن يجعل باقىَ المال الذى يحتاج إليه فى ذلك من الحلىّ والحلل التى ورثها موسى وأصحابه من فرعون وأصحابه؛ ففعل موسى ذلك، فبلغ عدد رجال بنى إسرائيل ستمائة ألف وسبعمائة وخمسين رجلا فأخذ منهم ذلك المال.

وأوحى الله تعالى إليه أنى منزّل عليكم من السماء نارا لا دخان لها ولا تُحرِق شيئا، ولا تنطفئ أبدا، لتأكل القرابين المتقبَّلة، وتُسرَج منها القناديلُ التى فى بيت المقدس، وكانت من ذهب معلّقةً بسلاسلَ من ذهب، منظومةً باليواقيت واللآلئ وأنواع الجواهر؛ وأمره أن يضع فى وسط البيت صخرةً عظيمة من الرُّخام، وينقرَ فيها نُقرةً لتكون كانونَ تلك النار التى يُنزَل بها من السماء؛ فدعا موسى أخاه هارون وقال له: إن الله تعالى قد آصطفانى بنار يُنزِلها من السماء لتأكل القرابين المقبولة ولتُسرَج منها القناديل، وأوصانى بها، وإنى قد آصطفيتك لها وأوصيتك بها. فدعا هارون آبنيه وقال لهما: إن الله تعالى قد آصطفى موسى بأمر وأوصاه به، وإنه قد آصطفانى له وأوصانى به، وإنى قد آصطفيتكما وأوصيتكما به. وكان أولاد هارون هم الذين يلون سِدانة بيت المقدس وأمرَ القربان والنيران؛ فشربا ذات ليلة ثم ثَمِلا، ثم دخلا البيت وأسرجا القناديل من هذه النار التى فى الدنيا، فغضب

الله عليهما، وسلطر عليهما تلك النار حتى أحرقتهما، وموسى وهارون يدفعان عنهما النار فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً ؛ فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : هكذا أفعل بمن عصانى ممن يعرفنى، فكيف أفعل بمن لا يعرفنى، والله أعلم .

ذكر ما أنعم الله تعالى به على بنى إسرائيل بعد خروجهم من مصر

قال الله عز وجل: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ .

قال أبو إسحاق الثعلبى : اختلفوا فى معنى الملوك ؛ فروى عن أبى سعيد الخدرى — رضى الله عنه — عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "كانت بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم وامرأة فهو ملك" .

وقال أبو عبد الرحمن الحُبُلى : سمعتُ عبد الله بن عمرو بن العاص — وسأله رجل فقال : ألسنا من فقراء المهاجرين؟ — فقال له عبد الله : ألك امرأة تأوى إليها ؟ قال : نعم . قال : ألك مسكن تسكنه؟ قال : نعم . قال : فأنت من الأغنياء . قال : وإن لى خادما . قال : فأنت من الملوك .

وقال الضحّاك : كانت منازلهم واسعة ، فيها مياه جارية، فمن كان مسكنه واسعا وفيه ماء جارٍ فهو ملك .

وقال قتادة : وكانوا أول من مَلَكَ الخَدَم، وأول من سُخِّر لهم الخدم من بنى آدم .

وقال السدّى : يعنى وجعلكم أحرارا تملكون أنفسكم بعد ما كنتم فى أيدى القبط بمنزلة أهل الجزية ، فأخرجكم الله تعالى من ذلك الذلّ .

﴿ وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾، يعنى من عالَم زمانكم .

وقال مجاهد : يعنى المنّ والسلوى والحجر والغمام .

قال : ثم أوحى الله تعالى إلى موسى أن يسير ببنى إسرائيل إلى الأرض المقدّسة ويجاهد الجبّارين، فأخرجهم موسى — عليه السلام — لذلك، فقال : ﴿ يَا قَوْمِ ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ .

قال الثعلبيّ : اختلفوا فى الأرض المقدّسة ما هى .

فقال مجاهد : هى الطُّور وما حوله .

وقال الضحاك : هى إيلياء و بيت المقدس .

وقال عكرمة والسدّىّ وآبن يزيد : هى أريحا .

وقال الكلبىّ : دمشق وفلسطين و بعض الأُرْدُنّ .

وقال قتادة : الشأم كلّه .

قال الكسائىّ : فلمّا أخبرهم موسى بذلك قالوا : يا موسى إنّك قلت لنا حين أخرجتنا من مصر : إنّ الله تعالى بعثك لتنقذنا من عذاب فرعون، والآن فإنك تحملنا على ما هو أشقّ منه ، و بيننا و بين الأرض المقدّسة المَفاوزُ والقفار، وكيف ندخلها ولا زاد معنا ولا ماء ؟ فأوحى الله تعالى إليه : ياموسى، قل لهم: إنى منزّل عليهم المنّ والسلوى ، وقد أمرت الحجر أن يتفجّر لهم بالماء العذب ، وأمرت الغمام أن يظلّهم و يسير معهم حيث ساروا، وألا تنقب خِفافُهم ونعالُهم ؛ وأمرت ثيابَهم أن يلبسها صغيرهم وكبيرهم .

فلما سمعوا ذلك طابت نفوسهم ، وساروا نحو الأرض المقدسة والغمام يظلّهم فى مسيرهم ، والسماء تمطر عليهم بالمنّ، والريحُ بالسلوى، و يجدون كلّ ما يحتاجون إليه، و يضىء لهم بالليل عمود من النور، وتهبّ الريح على السلوى فتمعّط ريشها فيطبخونها بغير تعب؛ و يقرع موسى — عليه السلام — الحجر فتتفجّر لهم آثنتا عشرة

عينا، تجرى كلّ عين إلى سبط من الأسباط ؛ وثيابهم جدد بيض لا تَخْلُق ، وهم فى خفض ودعة .

وقال أبو إسحاق الثعلبىّ ، كان ما أنعم الله تعالى به عليهم أنهم قالوا لموسى فى التِّيه : أهلكتَنا وأخرجتَنا من العمران إلى مَفاوِزَ لا ظلّ فيها . فأنزل الله تعالى عليهم غمامةً بيضاء رقيقةً ليست بغمام المطر أرقّ وأطيب وأبرد، فأظلّتهم وكانت تسير معهم إذا ساروا ، وتدور عليهم من فوقهم إذا داروا ؛ وجعل لهم عمودا من نور يضىء لهم بالليل إذا لم يكن ضوء القمر ؛ فقالوا : هذا الظلّ والنور قد حصلا ، فأين الطعام ؟ فأنزل الله عليهم المنّ .

واختلفوا فيه ؛ فقال مجاهد : هو شىء كالصمغ يقع على الأشجار ، وطعمه كالشُّهْد .

وقال الضحّاك[1] : هو الطَّرَنْجَبِين .

وقال وهب : الخبز الرُّقاق .

وقال السدّىّ : عسل كان يقع فى السَّحَر من الليل فيأكلون منه .

وقال عكرمة : أنزل الله — عزّ وجلّ — عليهم مِثلَ الزيت الغليظ .

وقيل : هو الزنجبيل .

وقال الزجّاج : جملة المنّ : ما يمنّ الله عزّ وجلّ به ممّا لا تعب فيه ولا نصب .

فكان ينزل عليهم كلّ ليلة ويقع على أشجارهم مِثلَ الثلج، لكلّ إنسان منهم صاع كلّ ليلة ؛ فقالوا : يا موسى ، قتلَنا هذا المنّ بحلاوته، فادع لنا ربّك أن يُطعِمنا اللحم . فدعا موسى عليه السلام، فأنزل الله — عزّ وجلّ — عليهم السَّلْوَى .

---

(١) كذا فى تاريخ العينى ؛ والذى فى كلا الأصلين : « مجاهد » ؛ وهو تبديل من الناسخ ، فإن مجاهدا هو صاحب القول السابق .

قالوا : وآختلفوا فيه؛ فقال آبن عباس — رضى الله عنهما — وأكثر المفسرين : هو طائر يشبه السُّمانَى .

وقال أبو العالية ومقاتل : بعث الله — عزّ وجلّ — السحابة فمطرت السُّمانَى فى عرض مِيل وقدرِ طولِ رمح فى السماء بعضه على بعض .

وقال عكرمة : طير يكون بالهند أكبر من العصفور .

فكان يأخذ كلُّ واحد منهم ما يكفيه يوما وليلة من المنّ والسلوى ، فإذا كان يوم الجمعة أخذوا ما يكفيهم عن يومين، لأنه لم يكن ينزل عليهم يوم السبت ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ ولا تدّخروا لغد . فخنوا لغد فقطع الله ذلك عنهم ، ودوّد وفسد ما آدّخروا ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ معناه وما ضرّونا بالمعصية ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ روى عن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن رسول الله — صلّى الله عليه وسلم — أنه قال : لولا بنو إسرائيل لم يَخْنُز الطعام، ولم يخبث اللحم، ولولا حوّاء لم تخن أنثى زوجها .

ثم قالوا : يا موسى ، من أين لنا الشراب ؟ فآستسقى لهم موسى ؛ فأوحى الله تعالى إليه : أنِ آضرب بعصاك الحجر .

قال الثعلبىّ : وآختلف العلماء فى الحجر؛ فقال وهب : كان موسى — عليه السلام — يقرع لهم أقربَ حجر من عرض الحجارة فينفجّر عيونا ، لكلّ سبط عين، وكانوا آثنى عشر سبطا ، ثم تسيل كلّ عين فى جدول إلى سبط؛ فقالوا : إن فقد موسى عصاه متنا عطشا . فأوحى آلله تعالى إليه : لا تقرعنّ الحجارة بالعصا ولكن كلّمها تُطعك لعلّهم يعتبرون . فكان يفعل ذلك . فقالوا : كيف بنا (١٠١ ب)
لو مضينا إلى الرمل و إلى الأرض التى ليس فيها حجارة ؟ فأمر موسى فحَمل معه حجرا، فحيثما نزل ألقاه .

وقال آخرون : كان حجرا مخصوصا بعينه ، والدليل عليه قوله : « الحجر » فأدخل الألف واللام للتعريف والتخصيص ؛ وأمر أن يحمله ، فكان موسى عليه السلام يضعه فى مخلاته ، وإذا آحتاجوا إلى الماء أخرجه وضربه بعصاه وسقاهم .

وقال أبو روق : كان الحجر من الغضار ، وكان فيه آثنتا عشرة حفرة ينبع من كلّ حفرة ماء عذب ، فيأخذونه ، فإذا فرغوا وأراد موسى حمله ضربه بعصاه ؛ فيذهب الماء ؛ فكان كلّ يوم يستق منه ستمائة ألف .

وقال سعيد بن جبير : هو الحجر الذى وضع موسى عليه ثوبه لغسله ففرّ بثوبه ؛ فلما وقف أتاه جبريل فقال : يا موسى ، إن الله تعالى يقول لك : ارفع هذا الحجر فإنّ لى فيه قدرة ، ولك فيه معجزة .

وقد تقدّم ذكر خبر الحجر .

وورد أيضا فى صحيح البخارىّ نحو ما تقدّم .

قال أبو إسحاق الثعلبىّ : وكان مما أنعم الله تعالى به على بنى إسرائيل أنهم قالوا لموسى عليه السلام : من أين لنا اللباس؟ فخلّد الله تعالى ثيابهم التى عليهم حتى إنها لا تزيد على الأيام ومرورها إلّا جدّة وطراوة ، ولا تخلق ولا تبلى ، وتنمو على صبيانهم كما ينمون .

قال : ثم سئم بنو إسرائيل المنّ والسلوى ، فقالوا ما أخبر الله تعالى به عنهم : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾ .

وآختلف فى الفوم ما هو ؟ فقال آبن عبّاس : هو الخبز ، تقول العرب : « فوّموا لنا » ، أى آختبزوا .

وقال عطاء وأبو مالك : هو الحنطة، وهى لغة قديمة .

وقال العتبىّ : هو الحبوب كلّها .

وقال الكلبىّ والنضر بن شميل والكسائىّ والمؤرّج : هو الثُّوم .

فقال لهم موسى عند ذلك : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَى بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ﴾ .

قالوا : مصرا من الأمصار، ولذلك نوّنه؛ ولو أراد مصر بعينها لقال : «مصر» ولم يصرفه، كقوله تعالى : ﴿ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ آمِنِينَ ﴾ .

وقال الضحّاك : هى مصر فرعون .

واليهود يزعمون أنّ موسى — عليه السلام — وبنى إسرائيل حُرِّم عليهم بنصّ التوراة الدخولُ إلى مصر حين خرجوا منها عند أتباع فرعون لهم وغرقه ، وأنهم لم يدخلوها بعد ذلك . والله أعلم .

ولنرجع إلى أخبار النقباء وقتال الجبّارين .

ذكر خبر النقباء ومسيرهم إلى أريحا ، وقصّة عُوج بن عُوق[1] وخبر التّيه

قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللّٰهُ مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ .

قال الثعلبىّ : وذلك أن الله تعالى وعد موسى — عليه السلام — أن يورثه وقومَه الأرض المقدّسة ، وهى الشأم ، وكان يسكنها الكنعانيّون الجبّارون ووعدهم أن يهلكهم ويجعل أرض الشأم مسكن بنى إسرائيل ؛ فلمّا آستقرّت ببنى إسرائيل الدارُ بمصر أمرهم الله تعالى بالمسير إلى أريحا .

(١) كذا فى القاموس وشرحه . وفى الأصل : « عنق » بالنون .

" هكذا قال الثعلبي : بمصر[1] " .

واليهود تنكر ذلك ، ويقولون : إن نص التوراة عندهم أن الله تعالى لما أغرق فرعون وقومه ونجّى موسى وبنى إسرائيل ، تنقلوا من مكان إلى آخر . ويذكرون أسماء الأماكن بالعبرانية — وليست تعرف الآن — وكان فى خلال مسيرهم خبر التيه ، وكلّ ما تقدّم ذكره من الأخبار يزعمون أنه فى التيه ؛ والله أعلم .

نعود إلى سياق الثعلبى .

قال : فأمرهم الله تعالى بالمسير إلى أريحا وأرض الشام ، وهى الأرض المقدّسة وقال : يا موسى ، إنى قد كتبتها لكم دارا وقرارا ، فاخرج إليها وجاهد من فيها من العدو ، فإنى ناصركم عليهم ، وخذ من قومك اثنى عشر نقيبا ، من كل سبط نقيبا يكون كفيلا على قومه بالوفاء منهم على[2] ما أمروا به .

فاختار موسى — عليه السلام — النقباء .

قال : وهذه أسماؤهم[3] : « من سبط روبيل شامل بن زكور . ومن سبط شمعون سافاط بن حرى . ومن سبط يهوذا كالب بن يوقنا . ومن سبط أبين حامل بن بكر

(١) تشعر هذه العبارة التى بين هاتين العلامتين بأن قوله « بمصر » محل نظر . (٢) فى تفسير الآلوسى عند تفسير قوله تعالى : « ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل » الخ : « فيما أمروا به » .

(٣) وردت أسماء هذه النقباء فى التوراة صفحة ٢١٤ هكذا : « من رأوبين أليصور بن شديئور ومن شمعون شلوميئيل بن صوريشدّاى ، ومن يهوذا نحشون بن عميناداب ، ومن يساكر نثنائيل بن صوغر ومن زبولون أليآب بن حيلون ، ومن بنى يوسف من أفرائيم اليشاماع بن عميهود ، ومن منسى جمليئيل ابن فدهصور ، ومن بنيامين أبيدان بن جدعونى ، ومن دان أخيعازر بن عميشدّاى ، ومن أشير فجعيئيل بن عكران ، ومن جاد ألياساف بن دعوئيل ، ومن نفتالى أخيرع بن عينان » . وهى مخالفة كل المخالفة لما هنا كما ترى . وقد أورد العينى فى تاريخه هذه الأسماء هكذا : « من سبط روبيل شامل بن زكور ومن سبط شمعون شافاط بن حورى ، ومن سبط يهوذا كالب بن يوقنا ، ومن سبط يساخر شالخ بن ماعون ومن سبط دانى جبعدد بن عميشدى ، ومن سبط جاد خايل بن يوسف ، ومن سبط زبولون حوا بن سودا ، ومن سبط أشير شالون بن مليكا ، ومن سبط نفتالى حولا بن مليكا ، ومن سبط يوسف عليه السلام وهما سبطان سبط افرايم وسبط منشى ، فاختار من سبط افرايم يوشع بن نون ، ومن سبط منشى جدى بن موشى ، ومن سبط بنيامين بلطم بن زافون » .

ابن سورا . ومن سبط يوسف وهو سبط افرايم يوشع بن نون . ومن سبط بنيامين قلطم بن رفوق . ومن سبط زبولون خدى بن سورى . ومن سبط يوسف وهو سبط منشى بن يوسف جدى بن سوشى . ومن سبط أشير شيانون بن ملكيل.
(١٠٢) ومن سبط نفتالى حنا بن وقشى . ومن سبط دان جملائيل بن حمل . ومن سبط لاوى حولى بن مليكا » .

قال : فسار موسى ببنى إسرائيل حتى إذا دنَوا من أرض كنعان — وهى أريحا — بعث هؤلاء النقباءَ إليها يتجسّسون له الأخبار ويعلمون علمها ؛ فلقيهم رجل من الجبّارين يقال له : عُوج بن عُوق، وكان طوله ثلاثةَ آلاف وعشرين ألف ذراع وثلاثمائة ذراع وثلاثا وثلاثين ذراعا .

قال ابن عمر — رضى الله عنهما — : وكان عوج يحتجز بالسحاب ويشرب منه، ويتناول الحوت من قرار البحر فيشويه بعين الشمس يرفعه إليها، ثم يأكله . ويُروى أنه أتى نوحا — عليه السلام — يوم الطُّوفان فقال له : احملنى معك فى السفينة . فقال له : اذهب يا عدوّ الله فإنى لم أُومَر بك ؛ وطبّق الماء ما على وجه الأرض من سهل وجبل فما جاوز ركبتى عُوج .

وعاش عُوج ثلاثة آلاف سنة حتى أهلكه الله على يدى موسى .

قال : وكان لموسى عسكر فرسخ فى فرسخ، فجاء عُوج حتى نظر إليهم، ثم جاء إلى الجبل وقوّر منه صخرة على قدر العسكر، ثم حملها ليُطبقها على العسكر، فبعث الله عليه الهدهد ومعه الطيور، وجعلت تنقر بمناقيرها حتى قوّرت الصخرة وانثقبتْ حتى وقعت فى عنق عُوج ، فطوّقتْه وصرعتْه ، فأقبل موسى وطوله عشرُ أذرع وطول عصاه عشرُ أذرع ، ونزا فى السماء عشرَ أذرع ، فما أصاب إلّا كعبَه وهو مصروع بالأرض، فقتله .

قالوا : وأقبلتْ جماعة كثيرة ومعهم الخناجر حتى حزّوا رأسه ، فلمــا قُتل وقع على نيل مصر فسكّره(١) سنة .

قالوا : وكانت أمّ عُوج يقال لها : عناق ، وهى إحدى بنات آدم لصلبه ، ويقال : إنهــا كانت أوّل من بغتْ على وجه الأرض ، وكان كلّ إصبع من أصابعها ثلاثَ أذرع فى ذراعين ، فى كلّ إصبع ظُفران حادّان مثل المِنجلين ، وكان موضع مقعدها جَريب من الأرض ، فلمّا بغتْ بعث الله تعالى إليها أســودا كالفِيَلة وذئابا كالإبل ، ونسورا كالحُمُر ، وسلّطها عليها فقتلوها وأكلوها .

قالوا : فلمّا لقى عُوج النقباء لقيهم وعلى رأسه حُزمة حطب ، فأخذهم وجعلهم فى حُزمته ، وآنطلق بهم إلى آمرأته ، وقال : انظرى إلى هؤلاء الّذين يريدون قتالنا . فطرحهم بين يديها وقال : ألا أطحنهم برجلى ؟ قالت آمرأته : لا ، بل خلّ عنهم حتى يُخبِروا قومهم بما رأوا . ففعل ، وجعلوا يتعرّفون أحوالهم .

وكان لا يحمل عنقودَ عنبهم إلّا خمسة أنفس بينهم فى خَشَبة ، ويدخل فى قشر شطر الرمّانة إذا نُزِعَ حبُّها خمسة أنفس .

قال : فلمّا خرج النقباء قال بعضهم لبعض : ياقوم إنكم إن أخبرتم بنى إسرائيل خبر القوم آرتدّوا عن نبىّ الله ، ولكن آ كتموا وأخبروا موسى وهارون فيكونا هما يَريان رأيهما . فأخذ بعضهم على بعض الميثاق بذلك ؛ ثم آنصرفوا إلى موسى — عليه السلام — وجاءوا بحبّة من عنبهم وِقْرَ رجل ، ثم إنهم نكثوا العهد ، وجعل كلّ واحد منهم يَنهى سبطه عن قتالهم ، ويخبرهم بما رأى ، إلّا يوشع وكالَب .

قال : فلمّــا سمع القوم ذلك من النقباء رفعوا أصواتهم بالبكاء وقالوا : ياليتنا متنا فى أرض مصر ، وليتنا نموت فى هــذه البرّيّة ولا يدخلنا الله أرضهم ، فتكون نساؤنا وأولادنا وأموالنا غنيمةً لهم .

(١) سكره : سدّه .

وجعل الرجل يقول لأصحابه : تعالَوا نجعل علينا رأسا وننصرف إلى مصر؛ فذلك قوله تعالى إخبارا عنهم : ﴿ يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾ .

فلما قالوا ذلك وهمّوا بالانصراف إلى مصر، خرّ موسى وهارون — عليهما السلام — سجّدا ، وخرق يوشع وكالب ثيابهما ، وهما اللذان أخبر الله تعالى عنهما بقوله : ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ ، أى يخافون الله .

وقرأ سعيد بن جبير (يُخافون) بضم الياء .

قال : كانا من الجبّارين ، فأسلما واتبعا موسى . ﴿ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ﴾ ، لأن الله تعالى منجز وعده ؛ وإنا أتيناهم فكانت أجسامهم عظيمة قويّة ، وقلوبهم ضعيفة ، فلا تخشوهم ، ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ . فأراد بنو إسرائيل أن يرجموهما بالحجارة ، وقالوا : ﴿ يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ .

فلما قالوا ذلك غضب موسى وقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ . وكانت عجلةً عجلها موسى — عليه السلام — فظهر الغمام على قبّة الزمان ، وأوحى الله تعالى إلى موسى : إلى متى يعصينى هذا الشعب ، وإلى متى لا يصدّقون بالآيات ؟ لأقتلنهم جميعا ، ولأجعلنّ بدلهم شعبا أشدّ وأكثر منهم .

(١٠٣) قال موسى : إلهى لو أنك قتلت هذا الشعب كلّه كرجل واحد قالت الأمم الذين سمعوا : إنما قتل هذا الشعبَ من أجل أنه لم يستطع أن يدخلهم الأرض المقدّسة ، فقتلهم فى البرّية ، وإنك طويلٌ صبرُك ، كثيرةٌ نعمُك ، وأنت تغفر الذنوب ، وتحفظ الآباء على الأبناء وأبناء الأبناء ، فاغفر لهم ولا توبقهم .

فقال الله تعالى : قد غفرت لهم بكلمتك، ولكن بعد ما سمّيتهم فاسقين ودعوتَ عليهم ، لأحرّمنّ عليهم دخول الأرض المقدّسة غيرَ عبدَىّ يوشع وكالب ولأتيهنّهم فى هذه البرّية أربعين سنة ، ولتُلقَيَنّ جِيَفُهم فى هذه القفار ؛ وأمّا بنوهم الّذين لم يعملوا الخير والشرّ فإنهم يدخلون الأرض المقدّسة ، فذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ فى ستّة فراسخ ، يسيرون كلّ يوم جادّين ، حتى إذا سئموا وأمسَوا ، فإذا هم فى الموضع الّذى ٱرتحلوا منه وكانوا ستّمائة ألف مقاتل ، مات النقباء العشرة الّذين أفشَوا الخبر بغتة، وكلّ من دخل التيه ممّن جاوز عشرين سنة مات فى التّيه غيرَ يوشع وكالب، ولم يدخل أريحا أحد ممن قال : إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا .

فلما هلكوا وٱنقضت أربعون سنة ، ونشأت النواشئ من ذراريّهم ، ساروا إلى حرب الجبّارين ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَاسِقِينَ ﴾ . والله المعين .

ذكر مسير موسى — عليه السلام — وبنى إسرائيل لحرب الجبّارين ودخولهم القرية

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

اختلف المفسّرون فى القرية :

قال ٱبن عبّاس : هى أريحا ، وهى قرية الجبّارين ، وكان فيها بقيّة من عاد يقال لهم : العمالقة .

وقيل : هى بلقاء

وقال ٱبن كيسان : هى الشأم .

وقال الضحّاك : الرملة والأُرْدُنُّ وفلسطين وتَدْمُر .

وقال مجاهد : بيت المقدس .

وقال مقاتل : إيلياء . وقوله : رَغَدًا ، أى موسّعا عليكم .

والباب : باب من أبواب القرية ، وكان لها سبعة أبواب .

وقال مجاهد : هو باب فى بيت المقدس يُعرَف إلى اليوم بباب حِطّة .

وقيل : هو باب القبّة الّتى كان موسى يصلّى إليها .

وعن مجاهد أيضا : أنه باب فى الجبل الّذى كلّم الله تعالى عليه موسى كالفُرضة.

وقوله : سُجَّدًا ، أى منحنين متواضعين .

وقال وهب : قيل لهم : ادخلوا البـاب فإذا دخلتموه فٱسجدوا شكرا لله عزّ وجلّ ، وذلك أنّ موسى — عليه السـلام — لمـا ٱنقضت مدّة التّيه سار بالأبناء إلى القرية ودخلها ، ودخل المؤمنون سجّدا كما أمرهم الله تعالى . وقوله : ﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾ ، قال قتادة : حُطّت عنّا خطايانا ، أمِروا بالٱستغفار .

قال ٱبن عبّاس : يعنى لا إله إلا الله ، لأنها تحطّ الذنوب .

﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾ .

قال مجاهد : طُؤطِئَ لهم الباب ليخفضوا رءوسهم ، فلم يخفضوا ولم يركعوا ولم يسجدوا ، ودخلوا يزحفون على أستاههم ، وقالوا قولا غير الذى قيـل لهم ، وذلك أنهـم أمِروا أن يقـولوا : حِطّة ، فقالوا : (هطا سمعاثا) ، يعنون حنطةً حمراء ٱستخفافا بأمر الله تعالى ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ ، وذلك أنّ الله تعالى أرسـل عليهم ظُلمة وطاعونا ، فهلك منهم فى ساعة واحدة سبعون ألفا .

قال الكسائى : وغلب موسى على مدينة أريحا ، وهرب من كان بها من الجبّارين .

وقيل : إنما دخل موسى الآن أرض كنعان ، وإن مدينة أريحا فتحها يوشع ابن نون بعد وفاة موسى — عليه السلام — على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى فى أخبار يوشع .

ذكر خبر مدينة بلقاء وخبر بَلْعَم بن باعُورا وما يتّصل بذلك

قالوا : ولمّا دخل موسى ببنى إسرائيل أرض كنعان ، سار منها يريد مدينة بلقاء .

قال مقاتل : سمّيت بلقاء لأنّ ملكها كان يقال له : بالق ، وكان بها بَلْعَم بن باعورا ، وهو الذى أنزل الله تعالى فيه : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَٱنْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ الآيات .

وقيل : نزلت الآيات فى غيره — على ما نذكره إن شاء الله تعالى آخر القصّة — .

وٱختُلف أيضا فى اسمه ونسبه .

فقال ٱبن عبّاس — رضى الله عنهما — : هو بَلْعَم بنُ باعُورا .

وقال ٱبن مسعود — رضى الله عنه — : بلعم بن أبر .

وقال مجاهد : بلعام بن باعر .

وقال الثعلبىّ : قال أكثر المفسّرين : هو بلعام بن باعورا بن أيدن بن مآرب ابن لوط ، وكان من الكنعانيّين .

وقال عطية عن ٱبن عبّاس : هو من بنى إسرائيل .

وقال على بن أبى طلحة عنه : هو من الكنعانيّين من مدينة الجبّارِين .

وقال مقاتل : هو من مدينة بلقاء .

قالوا : فلمّا أقبل موسى ببنى إسرائيل إلى مدينة بلقاء، كان أهلها يعبدون الأصنام، فلمّا بلغ الملِكَ مسيرُ موسى — عليه السلام — إليه آستشار أكابرَ دولته؛ فقالوا له : إنّ فرعون لم يطقه مع كثرة جنوده، فأنت أَولى ألّا تطيقه، غير أنّ هاهنا رجلا يعرف ببَلْعام مجابَ الدعوة ، التمِس منه أن يدعو عليهم ليكفيك ربّك أمرَ موسى . فبعث الملكُ إليه وأحضره وتحدّث معه فى أمر موسى ؛ فقال : حتى أستأذن ربّى . ودخل بلعم مصلّاه وآستاذن فى الخروج ، فأوحى إليه أن هذا العسكر هم بنو إسرائيل، وعليهم موسى رسولى، ولا تخرج إليهم . فقال بلعم لرسل الملك : إنّ ربى قد منعنى من ذلك، فآنصرفوا وعرّفوا الملِك .

وكان لبلعم آمرأة، فأهدَى لها الملكُ هديّة نفيسة، وسألها أن تكلّم زوجها فى التوجّه مع الملِك ؛ فسألته؛ فقال : قد آستأذنتُ ربّى فنهانى . فلم تزل به حتى آستأذن الله ثانيا؛ فأوحى الله إليه : أنى نهيتك عن ذلك، والآن قد جعلتُ الأمر إليك . فطابت نفسه بالخروج مع الملِك . حكاه الكسائىّ .

وقال الثعلبىّ فى تفسيره، وعزاه إلى آبن عباس وآبن إسحاق والسدّىّ وغيرهم : إن موسى — عليه السلام — لما قصد حرب الجبّارِين ونزل أرضَ كنعانَ من أرض الشأم، أتى قومُ بَلْعام — وكان عنده آسم الله الأعظم — فقالوا : إن موسى رجلٌ حديد، ومعه جنود كثيرة ، وإنه قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويُحِلُّها بنى إسرائيل، وإنّا قومك وبنو عمّك ، وليس لنا منزل، وأنت رجل مجاب الدعوة فآخرج وآدع الله أن يردّ عنّا موسى وقومَه . فقال : ويلكم، هو نبىّ الله ومعه الملائكة والمؤمنون، كيف أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم؟! وإنى إن فعلتُ ذلك ذهبت

دنياى وآخرتى . فراجعوه فى ذلك ، فقال : حتى أؤامر ربّى . — وكان لا يدعو حتى ينظر ما يؤمَر به فى المنـام — فآمَرَ فى الدعاء عليهم ، فقيـل له فى المنام : لا تدعُ عليهم . فقال لقومه : إنى قد نُهيت عن الدعاء عليهم . فأهدَوا إليـه هديّة فقبلها، ثم راجعوه فى الدعاء عليهم، فقال : حتى أؤامر . فآمر فلم يجرِ إليـه شىء فقـال : قد آمرت فلم يجرِ إلىّ شىء . فقالوا : لو كره ربُّك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهـاك فى المرّة الأولى . فلم يزالوا به يرققونه ويتضرعون إليـه حتى فتنوه فافتتن؛ فركب أتانا له متوجها إلى جبل يطلعه على عسكر بنى إسرائيـل يقال له : (حَبَّان)؛ فلمـا سار عليها غير كثير ربَضتْ، فنزل عنها فضربها، حتى إذا آلمهـا قامت ، فركبها فلم تسر به كثيرا حتى ربضت ، فنزل عنها وضربهـا حتى إذا آلمها أُذن لها بالكلام ، فتكلّمتْ حجّة عليـه ، فقالت : ويحك يا بلعم ، أين تذهب ؟ ألا ترى الملائكة أمامى يردّوننى عن وجهى هـذا ؟ تذهب إلى نبى الله والمؤمنين تدعو عليهم ؟ فلم ينزع عنها؛ فخـلّى الله سبيلها؛ فانطلقت حتى إذا أشرفتْ به على جبل (حَبّان) جعل يدعو عليهـم، فلا يدعو بشرّ إلا صُرف به لسانُه إلى قومه؛ ولا يدعو لقومه بخـير إلّا صُرِف لسانُه إلى بنى إسرائيل؛ فقـال قومه : يا بَلْعَم أتدرى ما تصنع ؟ إنمـا تدعو لهم وتدعو علينا . قال : فهذا مالا أملك . وآندلع لسانه فوقع على صدره ، فقال لهم : قد ذهبت منى الآن الدنيـا والآخرة، ولم يبق إلّا المكر والحيلة، فسأمكر لكم وأحتال، جمّلوا النساء وزيّنوهنّ وأعطوهنّ السِّلَع، ثم أرسلوهنّ إلى العسكر يبعنها فيه، ومروهنّ فلا تمنع آمرأة نفسها من رجلٍ أرادها؛ فإنّهم إن زنى منهم رجل واحد كُفيتموهم . ففعلوا؛ فلما دخل النساء العسكرَ مرّت آمرأة من الكنعانيين آسمها كُسْتَى[1] بنت صعور برجل من عظماء بنى إسرائيل يقال له :

(١) كذا ضبط هذا الاسم فى تاريخ العينى فى الأجزاء المكتوبة بخط المؤلف ضبطا بالقلم .

زمرى بن شلوم رأس سبط شمعون بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم — عليهم السلام — فقام إليها فأخذ بيدها حين أعجبه جمالُها، ثم أقبل حتى وقف على موسى فقال له : إنى أظنك ستقول : هذه حرام عليك . قال موسى : أجل ، هى حرام عليك، لا تقربها . قال : فوالله لا نطيعك فى هـذا . ثم دخل بها قبّته فوقع عليها (١٠٥) فأرسـل الله تعالى الطاعون على بنى إسرائيل فى الوقت ؛ وكان فنحاص بن العَيزار ابن هارون صاحب أمر موسى رجلا قد أُعطِىَ بَسْطة فى الخَلْق وقوة فى البطش وكان غائبا حين صنع زمرى بن شـلوم ماصنع ، فجـاء والطاعونُ يجـوس فى بنى إسرائيل فأخبر الخبر ، فأخذ حربتـه ، وكانت كلّهـا من حديد ، ثم دخل عليهما القبّة وهمـا مضطجعان فنظمهما بحربته ، ثم خرج بهما رافعا حربته إلى السماء قد أخذها بذراعه ، واعتمد بمرفقه على خاصرته ، وأسـند الحربة إلى لحيته — وكان بِكرَ العيزار — وجعل يقول : اللهـمّ هكذا تفعل بمن يعصيك ؛ ورُفع الطاعون ، فحُسب من هلك من بنى إسرائيل فى الطاعون — فيما بين أن أصاب المرأة إلى أن قتله فنحاص — فوجدوه قد أهلك منهم سبعين ألفا فى ساعة واحدة من النهار .

قال : فمن هناك يُعطى بنو إسرائيل ولَدَ فنحاص من كلّ ذبيحة ذبحوها الخاصرة[(١)] والذراع واللَّحية ، لاعتماده بالحربة على خاصرته ، وأخذه إياها بذراعه ، وإسـناده إياها إلى لحيته ، والبِكرَ من كل أموالهم وأنفسهم ، لأنه كان بِكرَ العَيزار بن هارون .

قال الثعلبىّ أيضـا : وقال مقاتل : إن ملك البَلْقاء قال لبلعام : ادع الله على موسى . فقال : إنه من أهـل دينى فلا أدعو عليه . فنحت الملكُ خشبة ليصلبه فلمـا رأى ذلك خرج على أتان له ليدعوَ عليه ، فلما عاين عسكرَهم قامت به الأتان

(١) كذا فى كتاب الثعلبى المنقول عنه هـذا الكلام ص ١٨٢ طبع المطبعة البهية . والذى فى كلا الأصلين : «القبة» وهو تبديل من الناسخ اذ لا يناسب معناه سياق ما هنا .

وقد وقفت، فضربها، فقالت : لِمَ تضربنى وأنا مأمورة؟ فلا تظلمنى، وهـذه نارٌ أمامى قد منعتْنى أن أمشىَ . فرجع فأخبر الملك؛ فقال : لتدعونّ عليه أو لأصلبنّك . فدعا على موسى باسم الله الأعظم ألّا يدخل المدينـة، فٱستُجيب له، ووقع موسى فى التِّيه بدعائه، فقال موسى : ياربّ بأىّ ذنب وقعنا فى التِّيه . فقال : بدعاء بلعام. قال : ربّ بمـا سمعتَ دعاءه علىّ فاسمع دعائى عليـه . فدعا موسى أن ينزع منـه الاسم الأعظم والإيمـان . فسلخه الله ممـا كان عليه ، ونزع منه المعرفة، فخرجت كحمامة بيضاء، فذلك قوله عز وجل ﴿ فَٱنْسَلَخَ مِنْهَا ﴾ .

وقال عبدالله بن عمرو بن العاص وسعيد بن المسيِّب وأبو روق وزيد بن أسلم: نزلت هذه الآية فى أميّة بن أبى الصَّلْت ، وكانت قصـته أنه كان فى ٱبتداء أمره قد قرأ الكتب وعلم أن الله عزّ وجلّ مرسِـل رسولا فى ذلك الوقت، ورجا أن يكون هو ذلك الرسول، فلما أرسل الله تعالى محمدا — صلى الله عليه وسلم — حسده وكان قد قصد بعض الملوك، فلما رجع مرّ بقتلَى بَدْر، فسأل عنهم؛ فقيل : قتلهم محمد . فقال : لو كان نبيّا ما قتل أقرباءه . فلما مات أتت أختُه فارعةُ رسولَ الله — صلّى الله عليه وسلّم — فسألها رسول الله — صلّى الله عليه وسلّم — عن وفاة أخيها؛ فقالت : بينا هو راقـد أتاه ٱثنان فكشفا سقفَ البيت ونزلا ، فقعد أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه ، فقال الّذى عند رجليه للّذى عند رأسه : أَوَعَى ؟ قال : وَعَى . قال : أَزَكَا(١) قال : أَبَى . [قالت](٢) : فسألته عن ذلك ؟ فقال : خير أريد بى فصُرِف عنّى . ثم غُشِى عليه ، فلمّا أفاق قال :

(١) كذا فى كتاب الثعلبى المنقول عنه هذا الكلام ص ١٨٢ طبع المطبعـة البهية . والذى فى كلتا النسختين : « إن كان » ؛ وهو تحريف .

(٢) لم ترد هذه الكلمة التى بين مربعين فى كلا الأصلين ؛ وقد أثبتناها عن كتاب أبى إسحاق الثعلبى فى قصص الأنبياء المنقول عنه هذا الكلام .

كلُّ عيش وإن تَطاوَلَ دهرا * صائرٌ أمرُه إلى أن يزولا
ليتنى كنت قبلَ ما قد بدا لى * فى قِلال الجبال أرعَى الوُعولا
إنّ يوم الحساب يوم عظيم * شاب فيه الصغير يوما ثقيلا

ثم قال لها رسول الله — صلّى الله عليه وسلّم — أنشدينى من شعر أخيك . فأنشدته :

لك الحمدُ والنَّعماءُ والفضلُ ربَّنا * ولا شىء أعلى منك جَدًّا وأمجدُ
مليكٌ على عرش السماء مهيمنٌ * لعزّته تعنو الوجوهُ وتسجدُ

وهى قصيدة طويلة ، حتى أتت على آخرها .

وأنشدته قصيدته الّتى يقول فيها :

يوقَف الناسُ للحساب جميعا * فشَقىٌّ معذَّبٌ وسَعيدُ

ثم أنشدته قصيدتَه الّتى يقول فيها :

عند ذى العرش تُعرَضون عليه * يعلم الجهر والسِّرارَ الخفيّا
يوم نأتى الرحمنَ وهو رحيمٌ * إنّه كان وعدُه مأتيّا
يوم آتيه — مثلَ ما قال — فردًا * ثم لا أدرِ(١) راشدا أم غَوِيّا
أسعيدا إسعادَه أنا أرجو * أو مُهانا بما اكتسبتُ شقيّا
إنْ أُؤاخَذْ بما اجترمتُ فإنّى * سوف ألْقَى من العذاب فَرِيّا
ربِّ إن تَعفُ فالمعافاة ظنّى * أو تعاقب فلم تعاقب بريّا

فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : آمن شعرُه وكفر قلبُه . وأنزل الله تعالى فيه : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا ﴾ الآيات .

---

(١) يلاحظ أنه حذف الياء من قوله : «أدرى» لضرورة الوزن .

ومنهــم من قال : إنّ الآيات نزلت فى آلبسوس ، وكان رجلا أُعطِىَ ثلاث دعوات مستجابة ، وكانت له آمرأة ، وكان له منها ولد ، فقالت : اجعل لى منها دعوةً واحدة . فقال : لكِ فيهــا دعوة، فما تريدين ؟ قالت : أُدعُ الله أن يجعلنى أجملَ آمرأة فى بنى إسرائيل . فدعا لهــا، فصارت أجمل آمرأة فى بنى إسرائيل؛ فلما علمتْ أنّه ليس فيهم مِثلُها رغبتْ عنه ، فغضب ودعا عليها ، فصارت كلبــة نبّاحة ، فجاء بنوها وقالوا : ليس لنــا على هذا قرار، قد صارت أُمُّنا كلبــة نبّاحة والناس يعيّروننا بهــا ، فآدع الله أن يردّها إلى الحال الّتى كانت عليهــا . فدعا الله تعالى، فعادت كما كانت، فذهبت فيها الدعوات .

وقال أبو سعيد : نزلت فى أبى عامر بن نعمان بن صيفىّ الراهب الذى سمّــاه رسولُ آلله صلّى الله عليه وسلّم: الفاسق، وكان قد ترهّب فى الجاهليّة ولبس المُسوحَ وقدم المدينة، فقال للنبىّ صلّى الله عليه وسلّم : ما هــذا الذى جئتَ به ؟ فقال : جئتُ بالحنيفيّة دينِ إبراهيم . قال : فأنا عليها . فقال له النبىّ صلّى الله عليه وسلّم : لستَ عليها، ولكنّك أدخلتَ فيها ما ليس منها . ثم خرج إلى كفّار قريش .

وأخباره تُذكَر — إن شــاء الله — فى سيرة ســيّدنا رسول الله — صــلى الله عليه وسلّم .

فهذا ما قيل فى تفسير هذه الآية .

قال الكسائىّ : ونادى موسى فى قومه بعد رفع الطاعون عنهم : «أن آحملوا» . فحملوا وآقتتلوا ، فقُتِل الملك وبَلْعَم، وآنهزم الباقون ، وغنم بنو إسرائيل من النساء والولدان شيئا كثيرا . والله تعالى أعلم بالصواب .

ذكر خبر وفاة هارون عليه الصلاة والسلام

قال الكسائىّ : — وذكر وفاة هارون إثْر خبر البقرة وقتل عاميل — قال : لمّا كان بعد قتل عاميل نظر هارون إلى جبل فى التِّيه بعيد من العسكر، فقال : يا موسى، ألا نمضى إلى ذلك الجبل فننظر إلى خضرته ونضارته . فمضيا من الغد ومعهما أولاد هارون، فأتوه فإذا هو جبل كثير المياه والعشب والكهوف وفيه كهف واسع يسطع نورا، فدخلوه وإذا هم بسرير من ذهب عليه أنواع من الفرش، فصعد هارون إليه ونام، بجاء طوله، فهمّ أن ينزل، فأتاه ملَك الموت فى صورة شابّ حسن، فقبض روحه، وغسّلته الملائكة، وصلّى موسى عليه، وسدّوا باب الكهف، وعاد موسى إلى بنى إسرائيل، فسألوه عن هارون، فأخبرهم بوفاته قالوا : بل قتلتَه . فقال : ما ذا لقيتُ منكم يا سفهاءَ بنى إسرائيل، أقتل أخى وشقيقى؟ ثم دعا ربَّه أن يريهم إيّاه على صورته . فأمر الله تعالى الملائكةَ أن يُخرجوا سريره من الكهف، فأخرجوه وحملوه فى الهواء حتى نظرت إليه بنو إسرائيل، ثم نادت الملائكة : يا بنى إسرائيل، هذا سرير هارون قد قبضه الله تعالى إليه .

وقال أبو إسحاق الثعلبىّ فى تفسيره فى وفاة هارون — عليه السلام — قال السدّىّ : أوحى الله تعالى إلى موسى — عليه السلام — أنى متوفى هارون، فأت به جبل كذا وكذا . فانطلق موسى وهارون — عليهما السلام — نحو ذلك الجبل فإذا هما بشجرة لم يَريا شجرةً مثلَها، وإذا بيتٌ مبنى، وفيه سرير عليه فراش وإذا فيه ريح طيّبة، فلما نظر هارون إلى ذلك أعجبه وقال : ياموسى، إنّى أحبّ أن أنام على هذا السرير . قال : نم عليه . قال : إنى أخاف أن يأتى ربّ هذا البيت فيغضب علىّ . قال موسى : لا ترهَب، أنا أكفيك رب هذا البيت، فنم .

قال : يا موسى، بل نم معى، فإن جاء ربّ البيت غضب علىّ وعليك جميعا . فلما ناما أخذ هارونَ الموتُ ، فلما وجد حِسَّه قال : يا موسى خدعتَنى . فلمّا قُبِض — عليه السلام — رُفع ذلك البيت، وذهبت تلك الشجرة، ورُفع السرير به إلى السماء، فلما رجع موسى إلى بنى إسرائيل وليس معه هارون، قالوا : إن موسى قَتَل هارون وحسده لحبّ بنى إسرائيل له . فلمّا أكثروا عليه قام فصلّى ركعتين، ثم دعا الله تعالى، فنزل السرير حتى نظروا إليه بين السماء والأرض، فصدّقوه . (١٠٧)

وقال الثعلبىّ أيضا . وقال عمرو بن ميمون : مات هارون — عليه السلام — فى التِّيه، ومات قبل موسى، وكانا خرجا فى التِّيه إلى بعض تلك الكهوف. فمات هارون، فدفنه موسى، وآنصرف إلى بنى إسرائيل، فقالوا : ما فعل هارون؟ قال : مات . قالوا : كذبت، ولكنّك قتلتَه لحبّنا إيّاه — وكان محبّبا فى بنى إسرائيل — فتضرّع موسى إلى الله تعالى وشكا ما لقى من بنى إسرائيل، فأوحى الله إليه : أن آنطلق بهم إلى قبره، فإنّى باعثه حتى يخبرهم أنه مات موتا وأنك لم تقتله . فانطلق بهم موسى إلى قبره، فنادى : يا هارون . فخرج من قبره ينفض رأسه ، فقال : أنا قاتلك ؟ قال : لا، ولكنّى مِتُّ . قال : فعُد إلى مَضجَعك . فعاد — عليه السلام — وآنصرفوا .

ذكر وفاة موسى بن عمران — عليه الصلاة والسلام —

قال أبو إسحاق الثعلبىّ — رحمه الله — قال آبن إسحاق : كان موسى — عليه السلام — قد كره الموت وأعظَمَه ، فأراد الله تعالى أن يحبّب إليه الموت ويكرّه إليه الحياة، وكان يوشع بن نون يغدو عليه ويروح، فيقول له موسى : يانبىّ الله ما أحدث الله إليك. فيقول له يوشع : يانبىّ الله، ألم أصحبك كذا وكذا سنة، فهل

كنتُ أسالك عن شيء ممّا أحدث ٱلله إليك حتى تكون أنت تبتدئ به وتذكره ؟ ولا يَذكر له شيئا .

فلما رأى موسى ذلك كره الحياة وأحبّ الموت .

وعن وهب أنه قال — وذكر من كرامة موسى عليه السلام — أنه ضاق ببني إسرائيل ذرعا لمّا كثّروا عليه ، فأوحى الله تعالى إلى ألف نبيّ أن يكونوا أعوانا له ؛ فلمّا مال ٱلناس إليهم وَجَد موسى فى نفسه ، فأماتهم الله تعالى لكرامته فى يوم واحد .

وٱلذى صحّ لنا من خبر وفاة موسى — عليه السلام — ماثبت فى صحيح البخارىّ وهو ما حدّثنا به الشيخان ٱلمُسْنِدان المعمَّران : شهابُ الدين أبو العبّاس أحمد بن أبى طالب نعمة بن حسن بن علىّ بن سنان الشُّحْنة الصالحىّ الحجّار، وستُّ الوزراء أمّ محمد (وزيرةُ)[1] ابنةُ الشيخ الإمام العالم شمس الدين أبى حفص عمر ابن القاضى وجيه ٱلدين أسعد بن المنجا التنوخىّ ٱلدمشقيّان ، قراءة عليهما ، وأنا أسمع بالمدينة المنصوريّة بخُطّ (بين القصرين بالقاهرة المعزّيّة) ، وذلك فى يوم السبت السابع من جمادى الأولى سنة خمس عشرة وسبعمائة ، بقراءة الشيخ علاء ٱلدين علىّ بن المارديني ، قالا : حدّثنا الشيخ سراج الدين أبو عبد الله الحسين بن المبارك بن محمد بن يحيى الزبيدىّ ، قال : أخبرنا الشيخ أبو الوقت عبد ٱلأوّل بن عيسى بن شعيب السِّجزىّ الصوفىّ ثم الهَروىّ ، قال : أخبرنا الإمام جمال الدين أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفر بن محمد بن داود الداودىّ ، قال : أخبرنا الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن حمويه التنوخىّ ، قال : أخبرنا الإمام أبو عبد الله محمد ٱبن يوسف بن مطر الفهرىّ ، قال : حدّثنا الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن

(١) كتبها فى الدرر الكامنة أم عبد الله .

إبراهيم بن المغيرة بن الأحنف الجعفيّ مولاهم البخاريّ — رحمه الله — قال : حدّثنا محمود، حدّثنا عبد الرزاق قال : أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة — رضي الله عنه — قال : أُرسل مَلَكُ الموت إلى موسى عليه السلام فلما جاءه صكّه ، فرجع إلى ربّه فقال : أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت ، فردّ الله عليه عينه وقال : ارجع فقل له يضع يده على متن ثور فله بكل ما غطّت به يده بكل شعرة سنة . قال : أي رب ثم ماذا؟ قال : ثم الموت . قال : فالآن . فسأل الله أن يدنيَه من الأرض المقدّسة رمية بحجر . قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : فلو كنت ثَمّ لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر.

قال الثعلبي : وكان عمر موسى — عليه السلام — مائة وعشرين سنة ، عشرون منها في مُلك أفريدون ، ومائة سنة في مُلك منوجهر ، وبعث الله تعالى بعد موسى يوشع عليهما السلام .

كمل الجزء الثالث عشر من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب البكري التيميّ القرشي المعروف بالنويريّ — رحمه الله تعالى — ويليه الجزء الرابع عشر، وأوّله : الباب الثاني من القسم الثالث من الفن الخامس فيما كان بعد موسى بن عمران عليهما السلام، وهو أخبار يوشع بن نون وحزقيل وإلياس واليسع وغيلا واشمويل وداود وطالوت وجالوت وسليمان بن داود عليهم السلام .

والحمد لله رب العالمين .

استدراك

قد وقعت بعض أخطاء مطبعية يسيرة فى هـذا الجزء ، فرأينا أن نستدرك ما عثرنا عليه منها بعد الطبع ، وهى فى ثلاثة مواضع :

(١) وقع فى صفحة ٢٨ سطر ٥ قوله : « إبناء » . والصواب « بناء » بغير ألف فى أوله .

(٢) وفى صفحة ١٧٣ سطر ٩ قوله : « وخروج » . والصواب : « وحروب » كما فى بعض النسخ .

(٣) وفى صفحة ٢٢٠ سطر ٣ ما نصه : "أجد أمة مرحومة ضعفاء يرثون الكتاب الذين اصطفينا فمنهم ظالم لنفسه" الخ . وقد كتبنا فى الحاشية رقم ١ من هذه الصفحة ما يفيد أن قوله : «الذين» غير واضح موقعها من الإعراب فى هذه العبارة بخلاف موقعها من الآية المقتبسة منها ، وهى قوله تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » اهـ . وقد تبين لنا أن قوله : « الذين اصطفينا » زائدة فى هذه العبارة التى وردت فى كلام المؤلف ، فقد ورد هذا الكلام فى كتاب الثعلبى المنقول عنه هذا الكلام — مع اختلاف فى بعض ألفاظه ، فليلاحظ — ونصه : " أجد أمة مرحومة أصفياء يرثون الكتاب فمنهم ظالم لنفسه " الخ .

مطابع كوستاتسوماس وشركاه
٥ شارع وقف الخربوطلي بالظاهر ج.ع.م
تليفون ٩٠٠١١٨ ص.ت ٦٣٤١١

تراثنا

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى

٦٧٧ - ٧٣٣ هـ

الجزء الرابع عشر

نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب

مع استدراكات وفهارس جامعة

وزارة الثقافة والارشاد القومى
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

مطابع كوستاتسوماس وشركاه
٩ شارع زقاق المزربطلي بالظاهر ت ٩٠٠٦١٨
القاهرة

فهرس

الجزء الرابع عشر

من

كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى

صفحة

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الثانى

من القسم الثالث من الفن الخامس

فيما كان بعد موسى بن عِمْران عليهما السلام

وهو أخبار يُوشَعَ بنِ نُون وحَزْقِيلَ وإلْيَاسَ والْيَسَعَ وعَيْلَى[1] وأشْمَوِيلَ وداودَ وطالوتَ وجالوتَ وسليمانَ بنِ داودَ عليهم السلام

ذكر خبر يُوشَعَ[2] بن نُون — عليه السلام — وفتح أَرِيحَا وغيرها

قال أبو إسحاق الثَّعْلبيّ — رحمه الله تعالى — : اختلف العلماء فيمن تولّى حرب الجبّارين وفيمن كان على يده الفتح، فقال قومٌ : إنما فَتَح أَرِيحا[3] موسى

ملاحظة — الأرقام الموجودة بالهامش تشير الى رقم الصفحة وعدد الجزء من نسخة أ التى اعتمدنا عليها فى الطبع، وقد راجعنا هـذا الجزء أيضا على نسختين أخريين رمزنا لهما بحرفى ب ، ج ونسخة ج بها عدّة خروم .

(١) كذا فى الأصل وقصص الأنبياء للثعلبى وتاريخ الطبرى (ص ٥٥١ من القسم الأوّل) . وفى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٤٥٠ وما بعدها) « عالى » .

(٢) هكذا يرد هذا الاسم فى الكتب العربية والشعر العربى؛ قال أبو تمام :

فوالله ما أدرى أأحلام نائم ❊ ألمت بنا أم كان فى الركب يوشع

وفى الكتاب المقدّس فى كل المواضع التى ورد فيها : « يشوع بن نون » .

(٣) أريحا (بالفتح ثم الكسر وياء ساكنة والحاء المهملة والقصر، وقد رواه بعضهم بالخاء المعجمة لغة عبرانية) : مدينة الجبارين فى الغور من أرض الأردن بالشام ، بينها وبين بيت المقدس يوم للفارس فى جبال صعبة المسلك . سميت فيما قيل بأريحا بن مالك بن أرفخشذ ...) . (راجع معجم البلدان لياقوت) .

– عليه السلام – وكان يُوشَعُ على مقدّمته فسار إليها بمن بَقِىَ من بنى إسرائيل ولم يَمُت فى التِّيه ، فدخلها يُوشَعُ بهم وقتل الجبّارين(١) الذين كانوا فيها ، ودخلها موسى ببنى إسرائيل ، فأقام فيها ما شاء الله تعالى أن يقيم ، ثم قبضه الله تعالى ، ولم يعلم أحدٌ من الناس أين قبره . قال : وهذا أولى الأقاويل بالصدق . وقال الآخرون : إنما قَتَل الجبّارِين يُوشَعُ ولم يسر إليهم إلّا بعد موت موسى . وقالوا : إنما مات موسى وهارون – عليهما السلام – فى التِّيه .

قالوا : فلما انقضت مدّة التِّيه ومات موسى – عليه السلام – بعث الله تعالى يُوشَعَ بن نُون نبيّا ، فأخبرهم أنه نبىّ الله تعالى ، وأنّ الله – عزّ وجل – قد أمره بقتال الجبّارين ، فصدّقوه وبايعوه . فتوجه ببنى إسرائيل الى أُريحا ومعه تابوت(٢) الميثاق ، فأحاط بمدينة أُريحا ستّة أشهر ، فلمّا كان فى الشهر السابع نفخوا فى القُرُون(٣) وضجَّ الشعبُ ضجّة واحدة(٤) ، فسقط سُور المدينة ، فدخلوها وقاتلوا الجبّارين ، فهزموهم وهجموا عليهم يقتّلونهم ، فكانت العِصَابةُ من بنى إسرائيل يجتمعون على عُنُق الرجل يضربونها لا يقطعونها ، وكان القتال يومَ الجمعة ، فبقيت منهم بقيّة وكادت الشمسُ تغرُب وتدخل ليلةُ السبت ، فخشِىَ يُوشَعُ أن يُعجِزوه ، فقال : اللهمّ ارْدُدِ الشمس علىّ ، وقال للشمس : إنك فى طاعة الله ، وأنا فى طاعة الله . فسأل الشمس

(١) الجبارون أو الجبابرة الذين كانوا بالشام هم من العماليق ، ويقال لهم الكنعانيون . (راجع تاريخ الطبرى ص ٢١٣ من القسم الأوّل طبع أوربا) .

(٢) سيذكر المؤلف وصف هذا التابوت فيما سيأتى . وراجع وصفه أيضا فى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ١٣٢ طبع بيروت سنة ١٨٨٦ م) .

(٣) يريد بالقرون الأبواق (راجع الكتاب المقدّس ج ١ ص ٣٥٦) .

(٤) فى قصص الأنبياء لأبى إسحاق الثعلبى (ص ١٩٥ طبع بلاق) : « نفخوا فى القرون وصاحوا صيحة واحدة » . وفى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٣٥٦) : «فهتف الشعب ونفخوا فى الأبواق» .

أن تقف والقمر أن يُقيم حتى ينتقم من أعداء الله قبل غروب الشمس، فرُدّت عليه الشمس وزِيدَ له في النهار ساعةً واحدةً حتى قتلهم أجمعين .

قالوا : ثم أرسل ملوك الأرمانيين[1] بعضهم الى بعض — وكانوا خمسةً[2] — فجمعوا كلمتهم على حرب يُوشَع وقومِه ، فهزَمت بنو إسرائيل الملوك حتى أهبطوهم إلى ثنيّة حَوْران[3]، فرماهم الله تعالى بأحجار البَرَد ، فكان من قتله البَرَد أكثر ممن قتله بنو إسرائيل بالسيف، وهربت الملوك الخمسةُ، فآختفوا فى غارٍ، فأمر بهم يُوشَعُ فأُخرجوا، فقتلهم وصلّبهم ، ثم أنزلهم وطرحهم فى ذلك الغار ، وتتبع سائرَ ملوك الشأم فآستباح منهم أحدًا وثلاثين ملِكا حتى غلب على جميع أرض الشأم، وصار الشأم كلُّه لبنى إسرائيل، وفرّق عمّاله فى نواحى الشأم .

وحكى الكِسائىّ فى (كتاب المبتدإ) أنّ يُوشَع أخذ فى الجهاد بعد وفاة موسى عليه السلام حتى فتح الله على يديه نيِّفًا وثلاثين مدينة من مدن الكفّار بأرض الشأم . قال: ثم سار ببنى إسرائيل الى أَريحا لقتال الجبّارين ، وكانوا قد عادوا إليها بعد أن فتحها موسى، فقاتلهم يومَ الجمعة، وساق نحو ما تقدّم من حبس الشمس. قال . وفسد على أهل علم النجوم علوم كثيرة من ذلك اليوم .

قال الكِسائىّ : ولما فرغ يُوشَعُ بن نُون من قتال الجبّارين بأَريحا سار ببنى إسرائيل الى أرض بنى كَنْعان، فقاتلهم حتى قتل أكثر من ثلاثين ملِكا، وفتح ثلاثين حصنا .

(١) فى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ١٨ ، ٣٦٣) : «ملوك الأموريين» وهم من ذرية كنعان.

(٢) وهم : ملك أورشليم ، وملك حبرون وملك يرموث وملك لاكيش وملك عجلون . (راجع الكتاب المقدّس ج ١ ص ٣٦٥) .

(٣) فى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٣٦٤) : « وفيما هم منهزمون من وجه إسرائيل وهم فى منهبط بيت حورون ... » . وحوران (بالفتح) : كورة واسعة من أعمال دمشق من جهة القبلة ذات قرى كثيرة ومزارع (راجع معجم البلدان لياقوت) .

قال الثعلبيّ في تفسيره : ولمّا قتل يُوشَعُ الملوكَ وآستباحَ الأموال جمع الغنائم فلم تُنْزَلِ النار، فأوحى الله تعالى إلى يُوشَع أنّ فيها غُلُولا[1]، فمُرهم فليبايعوك فبايعوه، فآلتصقتْ يدُ رجل منهم بيده، فقال : هَلُمّ ما عندك ! . فأتاه برأس ثور من ذهب مكلّل بالياقوت والجوهر كان قد غلّه، فجعله في القُرْبان وجعل الرجلَ معه، فجاءت النار فأكلت الرجلَ والقُربان .

قالوا : ثم مات يُوشَع فدُفن في جبل أفرائيم[2]، وكان عمره مائةً وستّا[3] وعشرين سنة، وتدبيرُه أمرَ بني إسرائيل بعد وفاة موسى — عليه السلام — تسعا وعشرين سنة . وقال الكسائيّ : أربعين سنة. والله تعالى أعلم .

ولمّا مات آستُخلف على بني إسرائيل كالبُ بن يوقَنّا[4]، وهو من أولاد يَهُوذَا بن يعقوب، وكان من الزّهاد، فسار فيهم أجمل سيرة حتى قبضه الله تعالى .

فآستُخلف عليهم آبنه برشاناس[5] وكان نظيرَ يوسف الصدّيق — عليه السلام — في حُسنه وجماله، فافتتن الناسُ به، فسأل آلله تعالى أن يغيّر خلقته، فأصابه

---

(١) الغلول : الخيانة في المغانم .

(٢) كذا ورد هذا الاسم في الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٣٧٩، ٣٩٠)، وورد في ا، ب خاليا من الاعجام . وهذا الجبل إلى جنوبي سهل يزرعيل . وكان يطلق هـذا الاسم على سلسلة هضاب في أملاك أفرايم تمتد إلى تخوم بنيامين . أما تربة هـذا الجبل فخصبة بالإجمال إلا ما كان منها إلى جهة الأردن فانه صخريّ صعب المرتقى، وكذلك ما كان منه إلى جهة البحر الميت فانه غاية في القحل . (راجع قاموس الكتاب المقدّس للدكتور جورج بوست) .

(٣) في الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٣٩٥) : «آبن مئة وعشر سنين» .

(٤) في الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٣٧٣) : «كالب بن يفنا» .

(٥) في تاريخ الطبري (ص ٥٣٩ من القسم الأوّل) : «أن كالب بن يوقنا لما قبضه الله بعد يوشع خلف فيهم بعني في بني إسرائيل حزقيل بن بوذى» .

الجُدَرِىّ ، فتغيّرتْ خلقته ، فأنكره الناس وأكثروا من سؤاله عن خبره ، فشقّ ذلك عليه وشغله عن عبادته ، فسأل الله تعالى أن يزيده تشويها ، فاسترخَى وجهُه ، وظهرت له أسنان طوال ، وقَبُح حتى كره الناسُ أن ينظروا إليه ، وعرفوا منه الأجتهاد فى عبادة الله تعالى وطاعته ، فاختاروه وسمعوا له وأطاعوا ، ولم يزل بين أظهرهم أربعين سنة ثم قبضه الله تعالى .

فقام بأمرهم العَيْزار[1] بن هارون بن عِمْران ، وكان قد أسنّ ولا ولد له ، فجعلوا يقولون : ما حُرِم الولَد إلّا لذنب عظيم . فسأل الله الولَد ، فرزقه ولدا بعد كِبَرِ سنّه وإياسِ زوجته صَفُّورِيَّة[2] بنت عمّة موسى بن عِمْران وجدّد له قوّة ، ولها جمالا وحُسنا ، وسمّى ولدَه « سَباسَبا[3] » وجاء عالما بالتوراة ، فآستخلفه والده على بنى إسرائيل ، فقام بأمرهم ، وتزوّج بآمرأة يقال لها صَفُّورِيّة ، فأولدها إلياس . هكذا نقل الكِسائىّ .

وقال الثعْلبىّ فى قصصه فى خبر آبن كالب وسمّاه « بُوساقُوس » : وأنه لمّا آفتتن الناسُ به سأل آلله تعالى أن يغيّر صورته مع سلامة حواسه وجوارحه فأصابه الجُدَرِىّ . وقال : إنه لبث فيهم مائة سنة ، ثم قبضه الله — عزّ وجلّ — ولم يذكر العَيْزَار وآبنَه ، بل ذكر خبر حَزْقِيل . والله تعالى أعلم .

---

(١) فى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٣٩٠) : « ألعازار » .

(٢) فى تاريخ الطبرى (ص ٤٤٣ من القسم الأوّل) والكتاب المقدّس (ج ١ ص ١٢١) وقاموس الكتاب المقدّس للدكتور جورج بوست (ج ٢ ص ٨) : « صفورة » .

(٣) فى قصص الأنبياء للكسائى (ورقة ٢٠٩) من النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٧٠٢ أدب : « بسابسا » .

ذكر خبر حَزْقِيل عليه السلام

قال أبو إسحاق الثعلبيّ — رحمه الله تعالى — قالت العلماء لمّا قبض الله تعالى كالبَ وابْنَه، بعث الله — عزّ وجل — حَزْقِيل[1] إلى بنى إسرائيل، وهو حَزْقِيل بن بُوذِى، و يلقب بابن العجوز .

قال: و إنما لُقِّب بذلك لأن أمه سألت الله تعالى الولد وقد كَبِرتْ وعَقِمتْ، فوهبه الله تعالى لها، وهو الذى أحيا الله تعالى القوم بعد وفاتهم بدعائه، وهم الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ[2] ﴾ .

قال قال أكثر المفسرين : كانت قريةٌ يقال لها دَاوَرْدَانُ[3] قِبَلَ واسط وقع بها الطاعون، فخرج منها طائفةٌ هاربين من الطاعون وبقيت طائفة، فهلك أكثر مَنْ بقى فى القرية، وسَلِم الذين خرجوا، فلمّا ارتفع الطاعون رجعوا سالمين. فقال الذين بقوا: أصحابنا كانوا أحزمَ منّا، لو صنعنا كما صنعوا لبقينا، ولئن وقع الطاعون بها ثانية لنخرجنّ إلى الأرض التى لا وباء فيها . فوقع الطاعون من قابل، فهرب عامّة أهلها، فخرجوا حتى نزلوا وادياً أفيح[4]، فلمّا نزلوا المكان الذى يبغون فيه الحياة والنجاة، إذا هم بملَك[5] من أسفل الوادى وآخر من أعلاه يناديهم كل واحد منهما أن موتوا فماتوا .

(١) فى الكتاب المقدس (ج ٢ ص ٥٣٨) : «حزقيال» .

(٢) سورة البقرة آية ٢٤٣، و راجع تفسير هذه الآية الكريمة بتفصيل واف فى الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (ج ٣ ص ٢٣٠ — ٢٣٦ طبع دار الكتب المصرية) وغيره من التفاسير .

(٣) داوردان (بفتح الواو وسكون الراء وآخره نون): من نواحى شرقى واسط بينهما فرسخ . (راجع معجم البلدان) .

(٤) أفيح : واسع .

(٥) هذه عبارة الثعلبى فى قصص الأنبياء . وفى الأصلين : « فإذا ملك من أسفل الوادى وآخر من أعلاه ينادون موتوا جميعا » .

وقال الضحاك ومقاتل والكلبيّ : إنّما فرّ هؤلاء من الجهاد ، وذلك أنّ ملكا من ملوك بنى إسرائيل أمرهم أن يخرجوا إلى قتال عدوّهم ، فخرجوا فعسكروا ثم جبُنوا وكرِهوا الموت وآعتلّوا وقالوا لملكهم : إنّ الأرض التى نأتيها بها الوباء فلا نأتيها حتى ينقطع منها الوباء ؛ فأرسل الله تعالى عليهم الموت ، فلمّا رأوا أنّ الموت كثُر فيهم خرجوا من ديارهم فرارًا منه . فلمّا رأى الملك دلك قال : اللهمّ ربّ يعقوب وإله موسى ، قد نرى معصية عبادك فأرِهم آية فى أنفسهم حتى يعلموا أنهم لا يستطيعون الفِرار من حكمك وقضائك . فلما خرجوا قال الله لهم : موتوا ، فماتوا جميعا وماتت دوابهم كموت رجل واحد ، فما أتت عليهم ثلاثةُ أيام حتى آنتفخوا وأَرْوَحَتْ[1] أجسادهم ، فخرج إليهم الناس فعجزوا عن دفنهم ، فحظَروا عليهم حظيرة[2] دون السِّباع وتركوهم فيها .

قال : وآختلفوا فى مبلغ عددهم[3] ، فقال عطاء الخُرَاسانىّ : كانوا ثلاثةَ آلاف ، وقال آبن عباس ووهب : أربعةَ آلاف . وقال مُقاتل والكلبيّ : ثمانيةَ آلاف ، وقال أبو روْق : عشرةَ آلاف . وقال أبو مالك : ثلاثين ألفا . وقال السُّدىّ : بضعةً وثلاثين ألفا . وقال آبن جُرَيج : أربعين ألفا . وقال عطاء بن أبى رَبَاح : سبعين ألفا .

---

(١) أروحت أجسادهم : تغيرت رائحتها وآنتنت .

(٢) الحظيرة : ما أحاط بالشىء ، وتكون من قصب وخشب أو شجر ، وتعمل للإبل لتقيها البرد والريح .

(٣) فى الجامع لأحكام القرآن للقرطبى (ج ٣ ص ٢٣١) : « والصحيح أنهم زادوا على عشرة آلاف لقوله تعالى : « وهم ألوف » وهو جمع الكثرة ، ولا يقال فى عشرة فما دونها ألوف . وقال آبن زيد فى لفظة ألوف : إنما معناها وهم مؤتلفون ، أى لم تخرجهم فرقة قومهم ولا فتنة بينهم إنما كانوا مؤتلفين » .

قالوا : فأتت عليهم مدّة وقد بَليتْ أجسادهم ، وعَرِيتْ عظامهم ، وتقطّعت أوصالُهم ، فمرَّ بهم حَزْقِيل النبيّ — عليه السلام — فوقف عليهم متفكّرًا متعجّبا ، فأوحى الله تعالى إليه : يا حَزْقيل ، تريد أن أرِيَك كيف أحيِي الموتَى ؟ قال نعم ، فأحياهم الله جميعا .

قال : هذا قول السُّدّىّ وجماعةٍ من المفسّرين . وقال هلال بن يَسَاف وجماعةٌ من العلماء : دعا حَزْقِيل ربّه أن يحييهم فقال : يا ربّ لو شئتَ أحييتَ هؤلاء فعمروا بلادك وعبدوك . فقال الله — عزّ وجل — أوَ تحبّ أن أفعل ؟ قال نعم ، فأحياهم .

وقال عَطاءٌ ومُقاتل والكلبىّ : بل كانوا قومَ حَزْقِيل ، فأحياهم الله — عزّ وجل — بعد ثمانية أيام ؛ وذلك أنهم لمّا أصابهم ذلك خرج حَزْقِيل فى طلبهم ١١٠/١١
فوجدهم مَوْتَى ، فبكى وقال : يارِبّ كنتُ فى قوم يحمدونك ويقدّسونك ويكبّرونك ويهلّلونك فبقيتُ وحيدًا لا قومَ لى . فأوحى الله تعالى إليه : إنى قد جعلتُ حياتَهم إليك . فقال حَزْقِيل : احْيَوْا بإذن الله تعالى ، فعاشوا .

وقال وهب : أصابهم بلاءٌ وشدّةٌ من الزمان ، فشكَوْا ما أصابهم فقالوا : يا ليتنا مِتنا فآسترحنا ممّا نحن فيه . فأوحى الله — عزّ وجل — إلى حَزْقيل : إنّ قومَك قد صَجِروا من البلاء ، وزعموا أنهم وَدُّوا لو ماتوا فآستراحوا ، وأىّ راحة لهم فى الموت ! أيظنّون أنّى لا أقدر أن أبعثهم بعد الموت ! فآنطلق إلى جبّانة كذا ، فإنّ فيها قوما أمواتًا . فأتاهم ، فقال الله — عزّ وجل — : قُم فنادِهم — وكانت أجسامهم وعظامهم قد تفرّقت ، فرّقتها الطير والريح — فنادى حَزْقيل : أيتها العظام ، إنّ الله يأمرك أن تكتسىَ اللحم . فآكتست جميعا اللحم ، وبعد اللحم جلدًا ودمًا وعَصَبا

وعروقا، فكانت أجسادا، ثم نادى : أيتها الأرواح، إنّ ٱلله تعالى يأمرك أن تعودى فى أجسادك . فقاموا جميعا عليهم ثيابهم التى كانوا فيها، وكبّروا تكبيرة واحدة .

قال: وزعم منصور بن ٱلمعتمر عن مُجاهد أنهم قالوا حين أُحْيُوا : سبحانك ربّنا وبحمدك لا إله إلا أنت، فرجعوا إلى قومهم بعد ما أحياهم ٱلله ــ عزّ وجل ــ وعاشوا دهرًا يعرفون أنهم كانوا أمواتا، سحْنةُ الموت على وجوههم، لا يلبَسون ثوبا إلا عاد رِيعًا مِثلَ الكفن، حتى ماتوا لآجالهم التى كَتب الله لهم . وقال ٱبنُ عَبّاس ــ رضى الله عنهما ــ فإنها لتُوجد اليوم فى ذلك السِّبط من اليهود تلك الريح .

قالَ قَتَادةُ : مقتهم ٱلله ــ عزّ وجل ــ على فِرارهم من الموت فأماتهم عقوبةً لهم، ثم بعثهم إلى بقيّة آجالهم ليستوفُوها، ولو كانت آجال القوم جاءت ما بُعثوا بعد موتهم . فلمّا أحياهم الله ــ عزّ وجل ــ قال : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(١) . ثم تلا الثعلبىُّ هذه القصّة بقصّة إلياس، وذكرها الكِسائىّ تلو قصّة العَيْزار . والله الموفق للصواب .

ذكر خبر إلياس عليه السلام

قال الله عزّ وجل : ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾(٢) . قال الكسائىّ ــ رحمه الله تعالى ــ قال كعب(٣) : لمّا وُلد إلياس ــ عليه السلام ــ ونسبه أنه إلياس ٱبن سباسبا(٤) بن العَيْزار بن هارون . قال : وأمّه صفُّوريّة ، وجدّته أمّ أبيه

(١) سورة البقرة آية ٢٤٤

(٢) سورة ص آية ١٢٣

(٣) الذى فى الكسائى « وهب » وهو ٱبن منبه .

(٤) انظر الحاشية رقم ٣ ص ٥ من هذا الجزء .

صَفُّورِيّةَ بنت موسى بن عِمْران — عليه السلام — ظهر ليلة مولده أنوار أضاءت منها محاريب بنى إسرائيل . فلما نظرتْ ملوكُ بنى اسرائيل ذلك علموا أنه قد حدث حادث ، فتعرّفوا الخبر ، فقيل لهم . وُلِد مولود من ولد هارون ابنِ عِمْران[1] .

قال : وكان إلياس على صورة موسى وقوّته ، ونشأ أحسن نشأة . وبنو إسرائيل يقولون : هذا الذى بشَّرَنا به العَيْزَار ، أن الله يُهلك الملوك والجبابرة على يديه .

قال . فلمّا بلغ سبعَ سنين — وكان يحفظ التوراة — قال : يابنى إسرائيل، إنى أُريكم من نفسى عَجَبًا . فصاح بهم صيحةً ٱنتشرت فيهم فأَرعبتْ قلوبهم . فلما سكنتْ روعتُهم همّوا بقتله ، وقال بعضهم . هو ساحر، فهرب منهم وصعد إلى جبل وهم يتبعونه . فلمّا قَرُبوا منه ٱنفرج له الجبل فدخل فيه، وٱنصرف القوم . فنُمِى الخبر إلى بعض ملوكهم فعذّبهم ، ثم ٱنفرج الجبل ، وأقام إلياس به يأكل من المباحات حتى ٱستكمل أربعين سنة، والناس قد أخذوا فى عبادة الأصنام وخاضوا فى المعاصى، فبعثه ٱلله تعالى نبيًّا ورسولا ، وجاءه جبريل بالوحى، وأَمَره عن الله تعالى أن يتوجّه إلى الملوك والجبابرة الذين يعبدون الأصنام ويدعوَهم إلى طاعة الله تعالى وعبادته ، وأن يُرسِلوا معه بنى إسرائيل وأعطاه القوّة، وأمر النار والجبال والوحش بطاعته . فٱنطلق إلياس إليهم وهم فى سبعين قرية، كلّ قرية منها مدينةٌ، فى كلّ مدينة جبّارٌ يَسُوسهم، وكلّهم يعبدون صنما يُدعَى « بَعْلا » وهو على صورة ٱمرأة ، فصار إلياس إلى قرية من قُراهم ، وكان فيها ملك يقال له

(١) انظر الحاشية رقم ٢ ص ٥ من هذا الجزء .

«آجاب»[١]، فوقف بالقُرب من قصره، وقرأ التوراة بأطيب نغمة، فسمعه الملك، فقال لامرأته: ألَا تسمعين؟ ما أطيبَ هذا الصوت! فقامت المرأة إليه وأشرفت عليه من أعلى القصر وسألته عن حاله وخبره، فأخبرها أنه رسول الله. قالت: وما حُجّتك على دعواك؟ فاستدعى النار فجاءت إليه وشهدتْ بنبوّته وصدّقته، فأخبرت المرأةُ زوجها بما رأت منه، فجاء إليه وآمن به هو وامرأتُه، وأوصاه بالصبر والجهاد، وانصرف إلياس. حتى إذا كان يومُ اجتماع القوم وقد خرجوا بزينتهم ونصبوا صنمهم بَعْلًا وقف عليهم ودعاهم إلى الإيمان، فقال فيما أخبر الله تعالى به عنه: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ * أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ * اللَّهَ[٢] رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ[٣]﴾. فقالوا له: من أنت؟ فقال: أنسيتموني بعد أن كنتُ فيكم ومعكم! أنا إلياس. فحثَوا في وجهه التراب ورمَوْه بالحجارة من كلّ جانب. وكان ملكهم الأكبر يقال له «عاميل»، فأمر بزيت فغُلِيَ في قدْر نحاس وقال لإلياس[٤]: إنْ رجعتَ وإلّا طرحتُك فيه! . فقال: أنا وحيدٌ في أرضكم، فريدٌ في جمعكم، ولكنّي أُريكم آيةً تدلّ على صدق دعوايَ أنّي رسول الله إليكم. فقال له الملك نعم. فقال إلياس: أيتها النار انْخمِدي

(١) كذا في الأصل وقصص الأنبياء للكسائي. نسخة مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية برقم ٣٤٦٦ أدب ورقة ٢٠٥ وما بعدها. وفي قصص الأنبياء للثعلبي (ص ١٩٩): «لاجب» بالجيم المعجمة. وفي ورقة ٩٠ من نسخة مخطوطة منها محفوظة بدار الكتب المصرية برقم ١٤٧ م أدب: «أجب» مضبوطا بالقلم بضم الهمزة وفتح الجيم. وفي تاريخ الطبري (ص ٥٤٠ من القسم الأول): «اجاب» بالحاء المهملة.

(٢) من أوّل قوله: «الله ربكم» الى أوّل الكلام على ذكر نبوّة اليسع عليه السلام (في أوّل الصفحة ٢٨ من هذه الطبعة) لم يرد في ب.

(٣) سورة الصافات آية ١٢٣ وما بعدها.

(٤) في أ «للناس» وهو تحريف.

بإذن الله تعالى، نَخَمَدت وسكن غَلَيان الزيت، فعجب النَّاسُ من ذلك . قال الملك : قد أتيتَ بحجّة، ولكن أمهلنا يومًا لننظر فى أمرك . ففارقهم وأتاهم من الغد ودعاهم، فجمع الملك ملوكَ قومه وعلماءَهم وقال : ما تقولون فى هذا الرجل ؟ فقال العلماء : إنّا نرى فى التوراة صفةَ هذا الرجل أنّه يُبْعَثُ نبيًا تُسَخَّر له النار والأُسود والجبال ، وأنه لا يسمع أحدٌ صوته إلّا ذلّ وخضع له . فقال بعض علمائهم : أيها الملك ، كَذَب هؤلاء فيما ذكروه ، وهذا ساحر، فلا يهولنّك أمره . فبسط العذاب على أولئك النفر، فاشتدّ ذلك على إلياس ، وخالفه الملك « آجاب » الذى كان قد آمَنَ به ، ففارقته زوجته ولحِقتْ بإلياس؟ وكانت من الصالحات .

قال . واتّخذ إلياس عَرِيشًا بالقُرْب من قصر الملك «عَاميل» ،فأشرفتْ امرأةُ عاميل عليه فى بعض الليالى وهو يعبد الله تعالى، فنظرتْ الى عمود من نور من لدن العريش فى السماء، فآمنتْ ولحِقتْ به ، فأمر زوجُها أن تُلْقَى فى النار ، فأُلقيتْ فيها ، فدعا إلياس — عليه السلام — الله تعالى لها ، فلم تعمل النار فيها شيئا ، فأطلقها الملك، فلَحِقَتْ بإلياس . ثم مات ولدٌ لعاميل الملِكِ فجزِع عليه وتضرّع إلى صنمه فلم يُغْنِ عنه شيئا ، فغضب وقال لإلياس : إن ٱبنى قد مات وعجَزَ إلٰهى عن إحيائه ، فهل تقدِر أن تُحيِيَه ؟ فقال : هذا على ربِّى هيِّن، ودعا الله تعالى ، فقام الغلام يشهد أن لا إله إلا الله، وأن إلياس عبدُه ورسولُه ، فآمن الملِك وخرج عن المُلْك وتبع إلياسَ ولبس الصوف وعبدَ اللهَ تعالى حتى مات، وماتت زوجتُه وٱبنُه . وٱستمرّ القوم فى ضلالهم وكفرهم ما شاء الله، و إلياس يدعوهم فلا يجيبونه ، فأوحى الله تعالى إليه أنِ ٱدْعُهم وأَنذِرْهم ، فإن آمنوا و إلّا حبستُ عنهم الغيث وٱبتليتُهم بالقحط . فدعاهم فقالوا : إنّا لا نؤمن بك ولا بربّك ، فٱصنع ما أنت صانع . فحبس الله — عزّ وجلّ — عنهم المطر، وغارت العيون وجَفّت الأشجار، فأكلوا

ما عندهم حتى نفِد، ثم أكلوا المواشىَ حتى أكلوا الكلاب والسنانير والفيران، وبلغ بهم الجوع حتى كانوا يأكلون مَنْ مات منهم ، وإلياس بينهم وهم لا يرونه ، ويدعونه وهو لا يجيبهم ، وكان الله تعالى قد جعل أمر أرزاقهم إليه، فأوحى الله إليه أن السماءُ والأرض ومن عليها قد بكت على هؤلاء ، وقد هلك كثير من خَلْقى بسببهم ، وكلٌّ يدعوك ولا ترحمهم ، فأنصِف خَلْقى يا إلياس ، فإنى أُعْصَى فأَرزُق ، وأُكْفَر فأحلُمُ . ففزع إلياس وقال : يارِبّ ماغضبتُ إلا لك ، وأنت أعلم بمصالح عبادك . فأوحى آلله اليــه أنْ سِرْ إليهم وآدْعُهم ، فإن آمنوا و إلا كنتُ أرأفَ بهم منك .

قال : فآنطلق إلياس حتى صار إلى أول قرية من قُرى مدينتهم ، فمرّ بعجوز فقال لها : هل عندك طعام ؟ فقالت : وحق إلٰهى بَعْلٍ ما دقتُ الخبز منذ مدّة . قال : فهلّا تؤمنين بالله ! فقالت : إنّ آبنى آليَسَعَ على دين إلياس ، ولا أراه ينتفع به وقد أشرف على الموت من الجوع . فقال له إلياس : يا آليَسَع ، أتحبّ أن تأكل الخبزَ ؟ فصاح : كيف لى بالخبز ! ومات ، فبكت العجوزُ ولطمت . فقال لها : إنْ أحياه آلله وجاءكِ بمـا تأكلين أتؤمنين بالله ؟ قالت نعم . فدعا اللهَ تعالى ، فقام آليَسَـع وهو يشهد أن لا إله إلا آلله وأن إلياس رسول الله ، ورزقهم آلله تعالى خبزا ولبنا ، فأكلوا ، وآمنت العجوز ، وخرجت تُنذر قومها ، فخنقوها فماتت ، فآغتمّ آليَسَعُ لذلك . فقال له إلياس : إن آلله سـيحييها ويجعلكما آيةً لقومكما . وخرج إلياس إلى قومه وقد آجتمعوا عليها يريدون أكلها ، فصاح بهم ، فتفرّقوا عنها وقالوا : إنك أنت إلياسُ حقّا ، فدعا آلله تعالى فأحياها ، فأقبل القوم عليه وقالوا : ألَا ترى ما نحن فيه منذ سبع سنين ! قال : فهلّا دعوتم صنمكم بَعْلًا ليكشف عنكم ! قالوا : قـد دعوناه فلم يُغنِ شيئا . قال : فإن أغاثكم آلله تعالى أتؤمنـون ؟ قالوا نعم . فسأل الله تعالى فأمطرهم ، وجرت أنهارُهم وأنبتت أرضُهم ، وأحيا الله من مات منهم من الجوع .

فازدادوا كفرًا وعتوًّا ، فحذّرهم إلياس وأنذرهم وذكّرهم بنعمة الله عليهم. فقالوا : إنّ القحط قد ارتفع عنّا وهيهات أن يعود أبدا ، وإن عاد فلا نبالى ، قد جمعنا فى منازلنا ما يكفينا زمنا طويلا . فدعا اللهَ عليهم واعتزلهم ، وقال : قد بلّغت الرسالة . وأنك لاحق بالملائكة[1] . فاستخلف اليَسَعَ على المؤمنين ، فقال اليسعُ : يا نبيّ الله ، إنى ضعيف بين قوم كافرين . فأوحى الله تعالى الى اليَسَع بذلك ، وخرج إلياس عن ديار قومه فى يوم جمعة ، فإذا هو بفرس يلتهب نورًا ، وله أجنحة ملوّنة ، فناداه : أقبل يا نبيّ الله . فاستوى على ظهره ، وجاءه جبريل فقال : يا إلياس طِرْ مع الملائكة حيث شئتَ ، فقد كساك الله الريش ، وقطع عنك لذة المطعَم والمشرَب وجعلك آدميا مَلَكيًّا سماويًّا أرضيًّا .

قال : ونشَرَ الفرس أجنحته فهو يطير مع الملائكة ، ثم أرسل الله — عز وجل — العذاب على قومه ، فأحدقتْ بهم سحابةٌ من جهنم ، واعتزلهم المؤمنون ، فأحدقت السحابة بالكَفَرة ، فأمطرت عليهم حجارة من العذاب . قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ﴾[2] . قال : ثم انكشفتْ عن ديارهم وقد صاروا حُمَمًا سُودًا ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ . إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾[3] .

قال : وأقام اليَسَعُ مع بنى إسرائيل حتى قبضه الله تعالى .

---

(١) كذا فى الأصل . وهو غير واضح . وعبارة الكسائى فى كتابه قصص الأنبياء ورقة ٢٠٨ : « ... فقالوا يا إلياس إن الأرض لا يعود قحطها وأما نحن فلا نبالى لأنا جمعنا فى منازلنا ما يكفينا طويلا فعلم أنهم مهلكون فقال : إلهى قد بلغت الرسالة وقد اقترب أجلهم وعذابهم ، اللهم فأخرجنى من بينهم ثم أنزل عليهم عذابا . فأوحى الله اليه أن يا إلياس إنك قد أديت الرسالة وفعلت ما أمرت به فاستخلف الآن موضعك اليسع بن أخطوب فانه قد جعلته لك خليفة على بنى اسرائيل المؤمنين ... الخ » .

(٢) سورة الفرقان آية ٤٠ (٣) سورة الصافات آيتى ١٢٧ ، ١٢٨

هذا ما أورده الكسائى فى أخبار إلياس وأليسع عليهما السلام .

وأمّا ما حكاه الثعلبىّ — رحمه الله — فى هذه القصة، فإنه قال

قال ابن إسحاق والعلماء من أصحاب الأخبار : لمّا قبض الله حزقيل النبىّ — عليه السلام — عظمت الأحداث فى بنى إسرائيل وظهر فيهم الفساد، ونسوا عهد الله تعالى إليهم فى التوراة حتى نصبوا الأوثان وعبدوها من دون الله — عز وجل — فبعث الله تعالى إليهم إلياس نبيًّا . قال الثعلبىّ : وهو إلياس ابن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون عليه السلام .

قال : وإنما كانت الأنبياء بعد موسى — عليه السلام — يبعثون إليهم بتجديد ما نسوا وضيعوا من أحكام التوراة ، و بنو إسرائيل يومئذ متفرقون فى أرض الشأم وفيهم ملوك كثيرة . وذلك أن يوشع لمّا فتح أرض الشأم بوّأها بنى إسرائيل وقسمها بينهم ، فأحلّ سبطا منهم بعلبكّ ونواحيها ، وهم سبط إلياس ، فبعثه الله تعالى إليهم نبيًّا ، وعليهم يومئذ ملك يقال له « آجاب »(١) قد أضلّ قومه وجبرهم على عبادة الأصنام ، وكان يعبد هو وقومه صنما يقال له « بعل » وكان طوله عشرين ذراعا ، وكانت له أربعة وجوه ، فجعل إلياس يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وهم فى ذلك لايسمعون منه شيئا إلّا ما كان من أمر الملك الذى كان ببعلبكّ فإنه صدّقه وآمن به ، وكان إلياس — عليه السلام — يقوّم أمره ويسدّده ويرشده ، وكان لآجاب الملك هذا امرأة يقال لها «أرايل»(٢) ، وكان يستخلفها على رعيته إذا غاب عنهم فى غزاة

(١) راجع الحاشية رقم ١ ص ١١ من هذا الجزء .

(٢) فى قصص الأنبياء للثعلبى المطبوعة (ص ١٩٩) : «أربيل» ، بالراء المهملة . وفى تاريخ الطبرى (ص ٥٤٠ ، ٧٩٨ من القسم الأول) «أزبل» بالزاى المعجمة وحذف الياء . وذكرت فى الأصول فيما يأتى كما وردت فى هامش تاريخ الطبرى والنسخة المخطوطة من قصص الأنبياء للثعلبى بأمم : «أزبيل» بالزاى المعجمة و إثبات الياء .

أو غيرها، فكانت تبرُز للناس كما يبرُز زوجها وتركَب كما يركَب، وتجلس فى مجلس القضاء فتَقضِى بين الناس، وكانت قتّالةً للأنبياء، وكان لها كاتب وهو مؤمن حكيم يكتمها إيمانَه، وكان الكاتب قد خَلَّص من يدها ثلثمائة نبيٍّ كانت تريد قتلَ كلِّ واحد منهم إذا بُعث، سوى الذين قتلتْهم ممن يكثُر عددهم؛ وكانت فى نفسها غيرَ مُحْصَنَةٍ ولم يكن على وجه الأرض أفحشُ منها، وهى مع ذلك قد تزوجت سبعةَ ملوك من ملوك بنى إسرائيل وقتلتهم كلَّهم بالاغتيال؛ وكانت معمَّرة حتى يقال: إنها ولَدتْ سبعين ولدا. وكان لآجاب هذا جارٌ من بنى إسرائيل رجل صالح يقال له «مزدكى» وكانت له جُنَينة يعيش منها ويُقبِل على عمارتها ومَرَمّتها، وكانت الجُنَينة إلى جانب قصر الملك وآمرأته، فكانا يُشرِفان على تلك الجُنَينة ويتنزّهان فيها، ويأكلان ويشربان ويَقيلان فيها، وكان «آجاب» فى ذلك يُحسِن جوار «مزدكى» صاحبها ويُحسِن إليه، وآمرأته «أرابل» تحسُده على ذلك لأجل تلك الجُنَينة، وتحتال فى أن تغتصبها منه لمّا تسمع الناس يذكرون الجُنَينة[1]، ويتعجّبون من حسنها ويقولون: ما أحرى أن تكون هذه الجُنَينة لأهل هذا القصر، ويتعجّبون من الملك وآمرأته كيف لم يَغصباها صاحبَها. فلم تزل المرأة تحتال على العبد الصالح «مزدكى» أن تقتله وتأخذ جُنَينته، والملك ينهاها عن ذلك. ثم آتفق خروج الملك إلى سفر بعيد وطالت غيبته، فآغتنمت المرأةُ غَيبة الملك وآحتالت على «مزدكى» صاحب الجُنَينة، وهو غافل عما تريد مُقبِلٌ على عبادة ربه وإصلاح جنينته، ١١٣
فجمعت «أرابل» جمعًا من الناس وأمرتْهم أن يشهدوا على «مزدكى» أنه سبَّ ٢١
زوجها الملكَ «آجاب»، فأجابوها إلى ملتمسها من الشهادة عليه، وكان حُكمهم فى ذلك

(١) فى الأصل: «يذكرون من ذكر الجنينة». وعبارة الثعلبى: «وآمرأته أربيل تحسده على ذلك لأجل تلك الجنينة وتحتال على غصبها لما سمعت الناس يذكرون الجنينة من حسنها».

الزمان على من سبّ الملكَ القتل إذا قامت البينة عليه بذلك ؛ فأحضرتْ «مزدكى» وقالت : بلغنى أنك سببت الملك وعبته، فأنكر ذلك . فقالت : إنّ عليك شهوداً، وأحضرت الشهود فشهدوا عليــه بحضرة الناس، فأمرت بقتل « مزدكى »، فقُتل، وأُخذت جُنَيْنتُه غَصْبا، فغضب الله – عزّ وجل – عليهم للعبد الصالح . فلمّا قدم الملكُ من سفره قال لها : ما وُفِّقتِ وما أصبت، ولا أرانا نُفلح بعده أبدا، و إنْ كنّا عن جُنَيْنته لأغنياء ، قد كنّا نتنزّه فيها، وقد جاوَرَنا وتحرّم بنا منذ زمان طويل ، فأحسنّا جِوَارَه، وكفَفنا عنه الأذى لوجوب حقّه علينا ، فختمتِ أمره بأسوأ حال الجوار . وما حملكِ على آجترائك عليــه إلّا سَفَهُك وســوء رأيك وقلّةُ عقلك وقلّةُ تفكّرك فى العواقب . فقالت : إنما غضبتُ لك وحكمتُ بحكمك . قال : أو ما كان يَسَعُه حلمُك و يَحْدُوكِ عِظَمُ خَطَرِكِ على العفو عن رجلٍ واحدٍ فتحفظين له جواره! . قالت : قد كان ما كان .

فبعث الله تعالى إلياس – عليــه السلام – إلى « آجاب » الملكِ وقومه، وأمره أن يخبرهم أنّ الله تعالى قد غضب لوليّه حين قتلوه بين أظهُرِهم ظلما ، وآلى على نفســه أنهما ان لم يتوبا عن صنيعهما ولم يردّا الجُنَيْنــة على ورثة « مزدكى » أن يُهلكهما ، يعنى «آجاب» وآمرأته ، فى جوف الجنينة أشر ما يكون بســفك دمهما ، ثم يدعهما جيفتين مُلقاتين فيهــا حتى تتعرّى عظامُهما من لحومهما، ولا يُمتَّعان بها إلا قليلا .

قال : فجاء إلياس – عليه السلام – إلى الملك وأخبره بما أَوحى الله – عزّ وجل – إليه فى أمره وأمر آمرأته والجُنَيْنة . فلمّا سمع الملك ذلك آشتدّ غضبه عليه، ثم قال له : يا إلياس، والله ما أَرى ما تدعونا اليه إلّا باطلا، والله ما أرى فلانا وفلانا – سمّى ملوكا منهم قد عبدوا الأوثان – إلّا على مثل ما نحن عليه، يأكلون ويشربون

ويتنعّمون مملّكين، ما يَنقُص من دنياهم أمرُهم الذى تزعم أنه باطل، وما نرى لنا عليهم من فضل .

قال : وهمّ الملك بتعذيب إلياس وقتله . فلمّا سمع إلياس — عليه السلام — ذلك وأحس بالشرّ، رفضه وخرج عنه . فلحق بشواهق الجبال، ودعا الملكُ[1] الناسَ إلى عبادة بَعْل ، وآرتقى إلياسُ — عليه السلام — أصعب جبل وأشمخَه ، فدخل مغارةً فيه . فيقال : إنه بَقِيَ فيه سبع سنين شَرِيدا طَرِيدا خائفا ، يأوى الشِّعاب والكهوف، ويأكل من نبات الأرض وثمار الشجر وهم فى طلبه قد وضعوا عليه العيون يتوكّفون[2] أخباره ويجتهدون فى أخذه، والله تعالى يستره ويدفع عنه . فلمّا تمّت له سبعُ سنين أذِن الله تعالى فى إظهاره عليهم، وشفا غيظَه منهم، فأمرض الله تعالى آبنا لآجاب الملك وكان أحبّ ولده إليه وأعزّهم عليه وأشبههم به ، فأَدنَف[3] حتى يُئس منه ؛ فدعا صنمه بَعْلا[4] ، وكانوا قد فُتِنوا به وعظّموه حتى جعلوا له أر بعمائة سادِن وكّلوهم به وجعلوهم أنبياءه ، وكان الشيطان يوسوس إليهم بشريعة من الضلالة، فيبيّنونها للناس فيعملون بها، ويسمّونهم الأنبياء . فلمّا آشتدّ مرض آبنِ الملكِ طَلب إليهم أن يشفَعوا الى بَعْل ، ويطلبوا لآبنه من قِبَله الشفاء والعافية ، فدعَوْه فلم يجبهم . ومنع الله تعالى بقدرته الشيطان عن صنمهم فلم يمكنه الوُلوجُ فى جوفه ، وهم مجتهـدون فى التضرّع إليـه ، وهو لا يزداد مع ذلك إلّا خمودا[5] . فلمّا طال عليهم ذلك قالوا لآجاب : إن فى ناحية الشأم آلهةً أخرى،وهى

(١) فى قصص الأنبياء للثعلبي المخطوطة : «وعاد الملك الى عبادة بعل» .

(٢) يتوكفون أخباره : ينتظرونها ويسألون عنها

(٣) أدنف المريض : ثقل ودنا من الموت، وأدنفه المرض، فهو لازم متعدّ .

(٤) فى قصص الأنبياء المطبوعة والمخطوطة : «حتى سموا مدينتهم به فقالوا لها بعلبك وجعلوا...الخ» .

(٥) فى الأصل : «إلا جمودا» والتصويب من قصص الأنبياء المخطوطة للثعلبي .

فى العِظَم مثلُ إلٰهك ، فابعَثْ إليها أنبياءك فليشفعوا لك إليها ، فلعلها أن تشفع لكَ إلى إلٰهك بَعْلٍ فإنه غضبان عليك ، ولولا غضبه عليك لقد كان أجابك وشَفَى لك آبنَك . قال آجاب : ومن أجل ماذا غضب علىّ وأنا أُطيعه وأطلب رضاه منذ كنت لم أُسخطه ساعةً قطّ ؟ قالوا : من أجل أنّك لم تقتل إلياس وفرّطتَ فيه حتى نجا سليما وهو كافر بإلٰهك يعبد غيره ، فذلك الذى أغضبه عليك . قال آجاب : وكيف لى أن أقتل إلياس يومى هذا وأنا مشغول عن طلبه بوجع آبنى وليس لإلياسَ مطلب ، ولا يُعرَف له موضع فيُقصَد ، فلو عُوفِىَ آبنى لتفرّغتُ لطلبه ، ولم يكن لى همٌّ ولا شغل غيره حتى آخُذَه فاقتله فاريحَ إلٰهى منه وأُرضيَه .

قال : ثم آندفعتْ أنبياؤه الأربعمائة لَيشفعوا الى الأرباب التى بالشام ويسألوها أن تشفع إلى صنم الملِك ليشفى آبنه ، فآنطلقوا حتى إذا كانوا بحِيال الجبل الذى فيه إلياس أوحَى الله — عزّ وجل — إلى إلياس أن يهبط من الجبل ويعارضَهم ويستوقفَهم ويكلّمَهم ، وقال له : لا تخَفْ فإنّى ساصرف عنك شرّهم ، وأُلقِى الرعبَ فى قلوبهم . فنزل إلياس — عليه السلام — من الجبل ، فلمّا لقيهم آستوقفهم فوقفوا ، وقال لهم : إنّ الله — عزّ وجل — أرسلنى إليكم وإلى مَن وراءكم ، فآستمعوا أيّها القوم رسالةَ ربكم لتبلغوا صاحبكم ، فآرجعوا إليه وقولوا له : إنّ الله تعالى يقول لك : ألستَ تعلم يا آجاب أنّى أنا الله لا إلٰه إلّا أنا إلٰهُ بنى إسرائيل الذى خلقهم ورزقهم وأحياهم وأماتهم ، أجَهلُك وقلّةُ علمك حملك على أن تُشرك بى وتطلبَ الشفاء لآبنك من غيرى ممن لا يملكون لأنفسهم شيئا إلّا ما شئتُ . إنى حلفتُ بآسمى لأغيظنّك فى آبنك ولأُميتنّه فى فوره هذا حتى تعلم أنّ أحدًا لا يملك له شيئا دونى . فلمّا قال لهم إلياس هذا رجعوا وقد مُلِئوا منه رعبًا . فلمّا صاروا إلى الملك قالوا له ذلك ، وأخبروه أنّ إلياس آنحطّ عليهم ، وهو رجلٌ نحيفٌ طُوالٌ قد قَشِفَ

وقَحِلَ[1] وتمعّط[2] شعره وتقشّر[3] جلدُه، عليه جبّة من شعر وعباءة قد خلّها[4] على صدره بخلال؛ فاستوقفنا، فلمّا صار معنا قُذِفَتْ فى قلوبنا الهيبة والرُّعب، وانقطعت ألسنتنا، ونحن فى هذا العدد الكثير وهو واحد، فلم نقدر على أن نكلّمه ونراجعه ونملأ أعيننا منه حتى رجعنا إليك، وقصّوا عليه كلامَ إلياس عليه السلام. فقال آجاب: لا ننتفع بالحياة ما دام إلياس حيّا. ما الذى منعكم أن تبطشوا به حين لقيتموه وتُوثِقوه وتأتونى به، وأنتم تعلمون أنه طلِبَتى وعدوّى. قالوا: أخبرناك بالذى منعنا منه ومن كلامه والبطش به. قال آجاب: ما يُطاق إذًا إلياس إلّا بالمكر والخديعة. فقيّض له خمسين رجلا من قومه ذوى قوة وبأس، وعهِد إليهم عهده وأمرهم بالاحتيال له والاغتيال به[5] وأن يُطمِعوه فى أنهم قد آمنوا به هم ومَن وراءهم ليستنيم إليهم ويغترّ بهم، فيمكّنهم من نفسه، فيأتوا به الملك. فانطلقوا حتى ارتقوا ذلك الجبل الذى فيه إلياس — عليه السلام — ثم تفرّقوا [فيه][6] وهم ينادونه بأعلى أصواتهم ويقولون: يا نبيّ الله، ابرُزْ لنا وأنت آمِنٌ على نفسك [فإنا قد آمنا بك وصدّقناك، وملكنا آجاب][6]، وجميع بنى إسرائيل يقرءون عليك السلام ويقولون: قد بلّغتنا رسالةَ ربّك، وعرفنا ما قلتَ، وآمنّا بك، وأجبناك إلى ما دعوتنا؛ فهلمّ إلينا فأنت نبيّنا ورسولُ ربّنا، [فأقِمْ][6] بين أظهرنا واحكم فينا؛ فإنا ننقاد لما أمرتنا، وننتهى عمّا نهيتنا، وليس يسعك أن تتخلّف عنّا مع إيماننا وطاعتنا، فتداركنا وارجِع إلينا. وكلّ هذا كان منهم مُماكرةً وخديعةً. فلمّا سمع إلياس — عليه

(١) قحل من باب علم: يبس. ومنه تقحل الشيخ اذا يبس جلده على عظمه من البؤس والكبر.
(٢) تمعط الشعر: تمرّط وسقط من داء يعرض له.
(٣) فى قصص الأنبياء للثعلبي المخطوطة: «واقشعر» وفى المطبوعة: «ويبس».
(٤) خلّ الكساء وغيره: جمع أطرافه بخلال.
(٥) كذا فى قصص الأنبياء المخطوطة للثعلبي. ولعل المراد من قوله «والاغتيال به» أخذه من حيث لا يدرى ثم المجىء به. وفى أ: «والاحتيال به».
(٦) زيادة عن قصص الأنبياء الثعلبي.

السلام — مقالتهم وقعتْ بقلبه وطمِع فى إيمانهم وخاف الله تعالى وأشفق من سُخْطه إن هو لم يَظْهَر لهم ولم يُجبهم بعد الذى سمع منهم . فلمّا أجمع على أن يبرُز لهم رجع إلى نفسه فقال : لو أنّى دعوتُ الله — عزّ وجلّ — وسألتُه أن يُعلمنى ما فى أنفسهم ويُطْلِعَنى على حقيقة أمرهم . فقال : اللهمّ إن كانوا صادقين فيما يقولون فأْذَنْ لى فى البروز إليهم ، وإن كانوا كاذبين فاكفنيهم وارمِهم بنار تُحرِقهم . فما استتمّ قوله حتى حُصِبُوا(١) بالنار من فوقهم ، فاحترقوا أجمعين .

قال : وبلغ اجابَ الخبرُ فلم يرتدع ، واحتال ثانيا فى أمر إلياس ، وجهّز فئةً أخرى مثلَ عدد أولئك أقوى منهم وأمكنَ فى الحيلة والرأى ، فأقبلوا حتى ارتقَوْا قُلَل تلك الجبال [متفرقين](٢) ، وجعلوا ينادون : يا نبىّ الله ، إنّا نعوذ بالله وبك من غضب الله وسَطَواته : إنّا لسنا كالذين أتوك من قبلنا ، إنّ أولئك فرقة نافقتْ وخالفتْنا ، فصاروا إليك ليكيدوك(٣) من غير رأينا ولا علمٍ منّا ، وذلك أنهم حسدونا وحسدوك ، وخرجوا إليك سرًّا ، ولو علمنا بهم لقتلناهم ولكفيناك مؤنتهم ، والآن فقد كفاك ربك أمرهم وأهلكهم بسوء نيّاتهم وانتقم لنا ولك منهم . فلمّا سمع إلياس — عليه السلام — مقالتهم دعا الله تعالى بدعوته الأولى ، فأمطر الله عليهم النار ، فاحترقوا عن آخرهم ، كلّ ذلك وابن الملك فى البلاء الشديد من وجعه — كما وعده الله تعالى على لسان نبيّه إلياس — لا يُقضَى عليه فيموت ، ولا يخفّف عنه من عذابه .

قال : فلمّا سمع الملك بهلاك أصحابه ثانيا ازداد غضبا إلى غضبه ، وأراد أن يخرج فى(٤) طلب إلياس بنفسه ، إلا أنه شغله عن ذلك مرضُ ابنه فلم يمكنه ، فوجّه نحو إلياسَ الكاتبَ المؤمنَ الذى هو كاتب امرأته رجاءَ أن يأنس به إلياس فينزل

(١) حصبوا بالنار : رموا بها .   (٢) زيادة عن قصص الأنبياء للثعلبى .
(٣) فى قصص الأنبياء للثعلبى : « ليكروا بك » .
(٤) كذا فى قصص الأنبياء للثعلبى . وفى الأصل : « إلى طلب إلياس ... » .

معه، وأظهر للكاتب أنه لا يريد بإلياس سوءا . وإنما أظهر له ذلك لما اطّلع عليه من إيمانه، وكان الملك مع اطّلاعه يغُضّ عنه لما هو عليه من الكفاية والأمانة والحكمة وسَداد الرأى، فوجّهه نحوه، وأرسل معه فئة من أصحابه، وأوعز إلى الفئة دون الكاتب أن يُوثقوا إلياس ويأتوه به إن أراد أن يتخلّف عنهم، وإن جاء مع الكاتب واثقا به آنسًا بمكانه لم يُوحِشوه ولم يروّعوه، ثم أظهر الملك للكاتب ١١٥/١١

الإنابة وقال : إنه قد آن لى أن أتوب وأتعظ، وقد أصابتنا بلايا من حريق أصحابنا والبلاءِ الذى فيه ابنى ؛ وقد عرفتُ أن ذلك بدعوة إلياس، ولستُ آمَنُ أن يدعوَ على جميع مَن بقى منّا فنهلك بدعوته. فآنطلق إليه وأخبره أنّا قد تُبنا وأنبنا، وأنه لا يصلحنا فى توبتنا وما نريد من رضا ربّنا وخلع أصنامنا إلّا أن يكون إلياس بين أظهرنا يأمرنا وينهانا، ويُخبِرنا بما يرضَى به ربُّنا . وأمر الملك قومه فآعتزلوا الأصنام، وقال له : أخبر إلياس بأنّا قد خلعنا آلهتنا التى كنا نعبد وأرجأنا[(١)] أمرها حتى ينزل إلياس إلينا، فيكون هو الذى يُحرقها ويُهلكها وكان ذلك مكرا من الملك . فآنطلق الكاتب والفئةُ حتى علَوُا الجبل الذى فيه إلياس — عليه السلام — ثم ناداه الكاتب، فعرف إلياس صوتَه، فتاقتْ نفسُه إليه وأنِسَ بمكانه وكان مشتاقا إلى لقائه، فأوحى الله تعالى إلى إلياس أنِ آبرُز إلى أخيك الصالح فآلقه وجدِّد العهدَ به، فبرز إليه إلياس وسلَّم عليه وصافحه، وقال له : ما الخبر؟ قال له المؤمن : إنّه قد بعثنى إليك هذا الجبّار الطاغيةُ وقومُه، ثم قصّ عليه ما قالوا، ثم قال : وإنّى خائف إن رجعتُ إليه ولستَ معى أن يقتلنى، فمُرْنى بما شئتَ أن أفعلَه وأنتهى إليه، [إن شئتَ انقطعتُ إليك وكنتُ معك وتركتُه، وإن شئتَ جاهدتُه معك][(٢)]

(١) كذا فى قصص الأنبياء للثعلبى المخطوطة . وفى المطبوعة : «وقد أهملنا أمرها» . وفى الأصل : «وأرجينا أمرنا» .

(٢) زيادة عن الثعلبى فى قصص الأنبياء المخطوطة والمطبوعة .

وإنّ شئتَ فأرسلنى إليه بما تحبّ فأبلغه رسالتك ، وإن شئتَ دعوتَ ربّك أن يجعل لنا من أمرنا فرجا ومخرجا .

قال : فأوحى الله — عزّ وجل — إلى إلياس عليه السلام أنّ كلّ شىء جاءوك به مكرٌ وخديعةٌ ليَظفَروا بك، وأن «آجاب» إن أخبرته رسلهُ أنك قد لَقِيتَ هذا الرجل ولم يأتِ بك إليه اتّهمه وعرَف أنه قد داهن فى أمرك ، فلم يأمن أن يقتله ، فانطلِق معه فإنّ فى انطلاقك معه عذره وبراءته عند آجاب، وإنى سأشغَل عنكما آجاب ، وأضاعِفُ على ابنه البلاء حتى لا يكون له همٌّ غيره ، وأُميته على شرّ حال، فإذا مات فارجع عنه ولا تُقِم . فانطلَق معهم حتى قَدِموا على آجاب ، فلمّا قدموا عليه شدّد الله تعالى على ابنه الوجع، وأخذه الموت، فشَغَل الله تعالى آجاب وأصحابه بذلك عن إلياس، فرجع إلياس سالما إلى مكانه . فلمّا مات ابن آجاب وفرغوا منه وقلّ جزعه ، انتبَه لإلياس وسأل عنه الكاتبَ الذى جاء به ، فقال : ليس لى به علم، وذلك أنّه شغلنى عنه موتُ ابنك والجزعُ عليه، ولم أكن أحسبك إلّا قد استوثقتَ منه . فأضرب عنه آجاب وتركه لما كان فيه من الحزن على ابنه.

فلمّا طال الأمر على إلياس ملّ الكُمُونَ فى الجبال والمُقامَ بها واشتاق إلى العُمْران وإلى الناس فنزل من الجبل، وانطلق حتى نزل بامرأة من بنى إسرائيل، وهى أمّ يونس ابن متَّى [ذى النون . فاستخفى عندها ستة أشهر] [(1)]، ويونس يومئذ مولودٌ يرضع، وكانت أمّ يونس تخدمُه بنفسها، وتواسيه بذات يدها، ولا تدّخر عنه كرامة تقدِر عليها.

ثم إنّ إلياس سئم ضِيق البيوت بعد مُقامه بالجبال وسَعَتها ، فأحبّ أن يلتحق بالجبال فخرج وعاد إلى مكانه، فجزِعتْ أمّ يُونس لفراقه وأوحشها فقدُه، ثم لم تلبث إلّا يسيرا حتى مات ابنها [يونس] [(1)] حين فطمتْه ، فعظمتْ مصيبتها فيه ، فخرجتْ فى طلب إلياس ، فلم تزل ترقى الجبال وتطُوف [فيها] [(1)] حتى عثرت عليه ووجدتْه ، فقالت :

(1) زيادة عن قصص الأنبياء للثعلبى .

إنّى قد فُجِعتُ بموت ٱبنى بعـدَك ، فعظمت فيه مُصيبتى، وٱشتدّ لفقده بلائى ، وليس لى ولد غيرُه، فٱرحمنى وٱدْعُ ربّك — جلّ جلاله — فيحيى لى ٱبنى، ويجبر مصيبتى ، وإنى قد تركته مسجًّى لم أدفنه، وإنى قد أخفيتُ مكانه . فقال لهـا إلياس : ليس هذا ممّـا أُمِرتُ به ، وإنمـا أنا عبـد مأمور أعمل بمـا يأمرنى به ربّى ، ولم يأمرنى بهـذا . فجزعتِ المرأة وتضرّعتْ، فعطّف الله سبحانه وتعالى قلبَ إلياس عليها، فقال لها : ومتى مات ٱبنُكِ ؟ قالت : منذ سبعة أيام . فٱنطلق إلياس معها وسار سبعة أيام أخرى حتى ٱنتهى إلى منزلهـا فوجد ٱبنَها يونس ميتًا منذ أربعة عشر يوما ، فتوضّأ وصلّى ودعا الله فأحيا الله تعالى يونسَ بنَ متّى بدعوة إلياس . فلمّا عاش وجلس وثب إلياس وٱنصرف وعاد إلى موضعه . والله أعلم .

ذكر دعاء إلياس على قومه ، وما حلّ بهم من القحط وخبرِ ٱليَسَع حين ٱتّبـع إليـاس

قال : ولـمّـا طال عصيان قومه ضاق إليـاس بذلك ذرْعًا وأجهده البـلاء ، فأُوحى الله تعالى إليه بعد سبع سنين وهو خائف مجهودٌ : يا إلياس ، ما هذا الحزن والجزع الذى أنت فيه ! ألستَ أمينى على وحيى، وحُجّتى فى أرضى، وصفوتى من ١١٩ / ١١
خلقى ! فسلْنى أُعطِك فإنّى ذو الرحمة الواسعة والفضل العظيم . قال : تُميتُنى فتُلحقنى بآبائى، فإنّى قد مَللتُ بنى إسرائيل ومَلّونى ،وأبغضتُهم فيك وأبغضونى. فأوحى الله تعالى إليـه : يا إلياس، ما هذا باليوم الذى أُعرِى منك الأرضَ وأهلَها ، وإنمـا قوامُها وصلاحُها بك وبأشباهك إن كنتم صبرتم قليلا ، ولكنْ تسألنى فأعطيك. قال إلياس : فإن لم تُمتنى يا إلهى فأَعطِنى ثأرى من بنى إسرائيل . قال الله تعالى

وأى شىء تريد أن أعطيك يا إلياس؟ قال : تمكننى من خزائن السماء سبعَ سنين ، فلا تُنشِئ[1] عليهم سحابةً إلّا بدعوتى ، ولا تُمطِر عليهم سبعَ سنين قطرةً إلّا بشفاعتى ، فإنهم لا يُذِلّهم إلّا ذلك . قال الله تعالى : يا إلياس ، أنا أرحم بخَلقى من ذلك وإن كانوا ظالمين . قال : ستَّ سنين . قال : أنا أرحم بخَلقى من ذلك وإن كانوا ظالمين . قال : فخمس سنين . قال : أنا أرحم بخَلقى من ذلك وإن كانوا ظالمين ، ولكنى أُعطيك ثلاثَ سنين أجعل خزائن المطر بيدك ، فلا تَنشأُ[1] عليهم سحابةٌ إلّا بدعوتك ، ولا تنزِل عليهم قطرةٌ إلّا بشفاعتك . قال إلياس : فبأىّ شىء أعيش ؟ قال : أُسخِّر جيشا من الطير تنقل إليك طعامَك وشرابك من الريف والأرض التى لم تَقْحَط . قال إلياس : قد رضيت . قال : فأمسك الله — عزّ وجل — عنهم المطر حتى هلكت الماشيةُ والدوابُّ والهوامُّ والشجرُ وجُهِد الناس جَهْدًا شديدًا و إلياسُ على حالته مُستخفٍ من قومه يوضع له الرزقُ حيثما كان ، وقد عرفه بذلك قومُه ، فكانوا إذا وجدوا ريحَ الخبز فى بيت قالوا : لقد دخل إلياس هذا البيتَ وطلبوه ، ولقِىَ أهلُ ذلك المنزل منهم شرًّا .

قال ابنُ عباس — رضى الله عنهما — : أصاب بنى إسرائيل ثلاثَ سنين القحطُ ، فمرّ إلياس — عليه السلام — بعجوز فقال لها : هل عندكِ طعام ؟ قالت : نعم ، شىء من دقيق و زيت قليل . فجاءته بشىء من الدقيق والزيت ، فدعا فيهما بالبركة ومسّهما[2] ، فبارك الله فى ذلك حتى ملأت جُرُبَها دقيقا وملأت

(١) نشأت السحابة : ارتفعت وبدت ، وأنشأها الله : رفعها وأبداها .

(٢) كذا فى قصص الأنبياء للثعلبى . وعبارة الأصل : « فدعا بهما ودعا فيه بالبركة ومسه ... الخ » .

خَوابِيها زيتا. فلمّا رأوْا ذلك عندها قالوا: من أين لكِ هذا؟ قالت: مرّ بى رجل من حاله كذا وكذا، فوصفت صفتَه، فعرفوه وقالوا: ذلك إلياس؛ فطلبوه فوجدوه فهرَب منهم.

ثم أوَى ليلةً إلى بيت امرأة من بنى إسرائيل لها ابن يقال له: ٱلْيَسَع ابن أخطوب به ضرّ، فآوته وأخفتْ أمرَه، فدعا له فعُوفىَ من الضرّ الذى كان به، واتّبع ٱلْيَسَعُ إلياسَ وآمن به وصدّقه ولزمه، وكان يذهب به حيثما ذهب، وكان إلياس قد أسنّ وكبِر، وكان ٱلْيَسَعُ غلاما شابًّا.

ذكر رفع البلاء عن قوم إلياس بدعوته واستمرارهم على الكفر ورفع إلياس وهلاك آجاب الملك وامرأته، ونبوّة ٱلْيَسَع

قال: ثم أوحَى الله تعالى إلى إلياس — عليه السلام — إنك قد أهلكتَ كثيرا من الخلق ممن لم يَعْصِ سوى بنى إسرائيل من البهائم والدوابّ والطير والهوامّ والشجر بحبس المطر عن بنى إسرائيل. فيزعمون — والله أعلم — أنّ إلياسَ قال: يارب دَعْنى أكُنِ الذى أدعو لهم وآتيهم بالفرج ممّا هم فيه من البلاء الذى أصابهم لعلّهم أن يرجعوا ويَنزِعوا عمّا هم عليه من عبادة غيرك. قيل له: نعم. فجاء إلياس — عليه السلام — إلى بنى إسرائيل فقال لهم: إنكم قد هلكتم جوعا وجَهْدًا، وهلكت البهائمُ والدّوابّ والطيرُ والهَوَامُّ والشجرُ بخطاياكم، وإنكم على باطل وغرور. فإن كنتم تحبّون أن تعلموا ذلك فآخرجوا بأصنامكم هذه، فإن آستجابت لكم فذلك كما تقولون، وإن هى لم تفعل علمتم أنكم على باطل فنزعتم، ودعوتُ الله — عزّ وجلّ — ففرّج عنكم ما أنتم فيه من البلاء. قالوا: أنصفتَ. فخرجوا بأوثانهم فدعَوْها

فلم تستجب لهم، ولم تفرج عنهم ما كانوا فيه [من البلاء][1] . ثم قالوا لإلياس : يا إلياس، إن الله قد أهلكنا، فادعُ الله لنا . فدعا اللهَ تعالى لهم ومعه[2] اليسع بالفرج مما هم فيه وأن يُسقَوْا، فخرجت سحابةٌ مثل التُّرْس على ظهر البحر وهم ينظرون، فأقبلت نحوهم وطبّقت الآفاق، ثم أرسل الله تعالى عليهم المطر [فأغاثهم][3] وحيِيَتْ بلادهم .

١١٧/١١ فلمّا كشف الله تعالى عنهم الضُّرّ نقضوا العهد ولم يَنْزِعوا عن كفرهم ، ولم يُقلِعوا عن ضلالتهم ، وأقاموا على أخبث ما كانوا عليه . فلمّا رأى إلياس — عليه السلام — ذلك دعا الله تعالى أن يريحه منهم؛ فقيل له — كما يزعمون — : أُنْظُرْ[4] يومَ كذا وكذا فاخْرُجْ فيه[5] إلى موضع كذا، فما جاءك من شيء فاركبه ولا تَهَبْه . فخرج إلياس ومعه اليسع بن أخطوب، حتى إذا كانا بالموضع الذى أُمِر إلياس به ، أقبَلَ فرس من نار حتى وقف بين يديه ، فوثب عليه إلياس ، فانطلق الفرسُ به ، فناداه اليسع ، يا إلياس : ما تأمرنى ؟ فقذف اليه إلياس بكسائه من الجوّ الأعلى ، وكان ذلك علامةَ استخلافه إيّاه على بنى إسرائيل، فكان [ذلك][3] آخر العهد به . ورفع الله — عزّ وجلّ — إلياسَ من بين أظهُرِهم ، وقطع عنه لذّة المطعم والمَشرَب ، وكساه الرِّيش ، فكان إنسيّا مَلَكيّا أرضيّا سماويًّا ، وسلّط الله على آجاب الملِك وقومه عدوّا لهم فقصدهم من حيث لم يَشعُروا [به][3] حتى رَهِقَهم ، فقَتَل

(١) زيادة عن قصص الأنبياء للثعلبى .

(٢) هذه عبارة الثعلبى . وفى الأصل : « ومعهم » .

(٣) زيادة عن الثعلبى .

(٤) أنظر : بمعنى انتظر .

(٥) كذا فى قصص الأنبياء للثعلبى . وفى الأصل : « فيهم » .

آجاب وآمرأته أزايل فى بستان مزدكى ، فلم تزل جيفتاهما ملقاتين فى تلك الجُنَينة حتى بَلِيتْ لحومُهما ورَمّت عظامُهما (١) .

ذكر نبوّة آليَسَع عليه السلام

قال أبو إسحاق — رحمه الله تعالى — : ولمّا رفع الله تعالى إلياسَ — عليه السلام — نبّأ آليَسَعَ و بعثه رسولا إلى بنى إسرائيل ، وأوحى إليه وأيّده بما أيّد به عبدَه إلياس ؛ فآمنتْ به بنو إسرائيل ، وكانوا يعظّمونه و ينتهُون إلى أمره ، وحُكْمُ الله تعالى قائمٌ فيهم إلى أن فارقهم آليَسَع عليه السلام .

قال أبو إسحاق الثعلبيّ — رحمه الله — بسند رفعه إلى عبد العزيز بن أبى رؤاد قال : إلياسُ والخضِرُ — عليهما السلام — يصومان شهرَ رمضان ببيت المقدس ، ويوافيان الموسمَ فى كلّ عام .

و روى بسند رفعه إلى زيد مَوْلَى عون الطُّفَاوىّ (٢) عن رجل من أهل عَسْقلان أنّه كان يمشى بالأُرْدُنّ نصفَ النهار ، فرأى رجلا فقال له : يا عبد الله ، من أنت؟ قال : فجعل لا يكلّمنى . فقلتُ : يا عبد الله ، من أنت ؟ قال : أنا إلياس . قال فوقعتْ علىّ رِعْدة ، فقلتُ : أُدعُ اللهَ يَرفع عنّى ما أجد حتى أفهم حديثَك وأعقِلَ عنك . قال : فدعا لى بثمانِ دَعَوات : يا برّ، يا رحيم ، يا حنّان ، يا منّان ، يا حىّ ، يا قيوم ، ودعوتين بالسريانية لم أفهمهما . قال : فرفع الله عنّى ما كنتُ أجد ، فوضع كفّه بين كَتِفىّ ، فوجدتُ بَرْدَها بين ثدييّ . قال فقلت : يُوحَى إليك اليوم ؟ قال : منذ بعث الله محمدًا رسوله فإنه ليس يُوحَى إلىّ . قال قلتُ له : كم من الأنبياء اليومَ أحياء؟ قال : أربعة ، آثنان فى الأرض ، وآثنان فى السماء ، فى السماء عيسى

(١) رمّ العظم : بلى فهو رميم (٢) الطفاوى (بضم الطاء) : نسبة الى طفاوة من قيس عيلان .

وإدريس ، وفى الأرض إليـاس والخضر . قلتُ : كم الأبدال[1] ؟ قال : ستون رجلا ، خمسون منهم من لَدُن عَرِيش مِصر إلى شاطئ الفُرات ، ورجلان بالمَصِّيصة[2] ، ورجلان بعَسْقلان ، وستة فى سائر البلدان ، كلما أذهب الله واحداً جاء بآخر [مكانه][3] بهم يدفع الله عن الناس [البلاء][3] وبهم يُمْطَرون . قلت : فالخضر أين يكون ؟ قال : فى جزائر البحر . قلتُ : فهـل تلقاه ؟ قال نعم . قلت : أين ؟ قال : بالمَوْسم . قلتُ : فما يكون من حديثكما ؟ قال : يأخذ من شِعْرى وآخذ من شَعْره . قال : وذلك حين كان بين مَرْوان بن الحَكَم وبين أهل الشام قتـال . قال : فقلتُ : ما تقول فى مَرْوانَ بنِ الحَكَم ؟ قال : ما تصـنع به ! [رجلٌ جبّار][3] عاتٍ على الله — عزّ وجلّ — القاتل والمقتول والشاهد فى النار .

(١) الأبدال : قوم من الصالحين لاتخلو الدنيا منهم ، بهم يقيم الله عز وجل الارض . قال ابن دريد : هم سبعون رجلا فيما زعموا لا تخلو منهم الأرض : أربعون رجلا منهم بالشام وثلاثون بغيرها . قال غيره : لا يموت أحدهم إلا قام بدله آخر من سائر الناس . ونقل المناوى عن أبى البقاء قال : « كأنهم أرادوا أبدال الأنبياء وخلفاءهم ، وهم عند القوم سبعة لا يزيدون ولا ينقصون ، يحفظ الله بهم الأقاليم السبعة ، لكل بدل إقليم فيه ولايته ؛ منهم واحد على قدم الخليل وله الإقليم الأول ، والثانى على قـدم الكليم ، والثالث على قدم هارون ، والرابع على قدم إدريس ، والخامس على قدم يوسف ، والسادس على قدم عيسى ، والسابع على قدم آدم — عليهم السلام — على ترتيب الأقاليم ، وهم عارفون بما أودع الله فى الكواكب السيارة من الأسرار والحركات والمنازل وغيرها . ولهم من الأسماء أسماء الصفات وكل واحد بحسب ما يعطيه حقيقة ذلك الأسم الإلهى من الشمول والإحاطة ومنه يكون تلقيه » اهـ . وعلامتهم ألا يولد لهم . وقد أفردهم بالتصنيف جماعة منهم السخاوى والجلال السيوطى وغير واحد . وللعزّ بن عبد السلام رسالة فى الرد على من يقول بوجودهم وأقام النكير على قولهم : بهم يحفظ الله الأرض . (راجع شرح القاموس للزبيدى فى مادة بدل) .

(٢) المصيصة (بالفتح ثم الكسر والتشديد وياء ساكنة وصاد أخرى) : مدينة على شاطئ جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس . (راجع معجم البلدان لياقوت) .

(٣) الزيادة عن قصص الأنبياء للثعلبى .

قال قلت : فإنى قد شهِدتُ فلم أطعُن برمح ولم أرمِ بسهم ولم أضرب بسيف، وأنا أستغفر الله — عزّ وجلّ — أن أعود إلى ذلك المقام أو مثله أبدا . قال : أحسنتَ، هكذا فكن .

قال : فإنى وإيّاه قاعدان إذ وُضِع بين يديه رغيفان أشدّ بياضا من الثلج، أكلتُ أنا وهو رغيفا وبعضَ آخرَ ثم رُفع، فما رأيتُ أحداً وضعه ولا أحدا رفعه .

قال : وله ناقة ترعى فى وادى الأُرْدُنّ، فرفع رأسه إليها، فما دعاها حتى جاءت فبرَكَتْ بين يديه فركبها. قلتُ: أُريد أن أصحبك . قال : إنك لا تقدِر على صُحبتى. قلتُ : إنى خِلْوٌ مالى زوجة ولا عيال . قال : تزوّجْ ، وإيّاكَ والنساءَ الأربعَ، إيّاك والناشِز(١)، والمختلِعة(٢)، والملاعنة(٣)، والمبارِئة(٤)، وتزوّج ما بدا لك من النساء .

قال : قلت : فإنى أحبّ لقاءك . قال : إذا رأيتنى فقد رأيتنى، ثم قال : إنى أريد أن أعتكف فى بيت المَقْدِس فى شهر رمضان . قال : ثم حالت بينى وبينه شجرة، فوالله ما أدرى كيف ذهب .

فهذا ما أورده فى خبر إلياس وأليسع — عليهما السلام — . والله أعلم .

(١) الناشز : المرأة التى تكره زوجها وتبغضه وتستعصى عليه فيضربها و يجفوها

(٢) المختلعة : المرأة التى تبذل مالا لزوجها ليطلقها .

(٣) الملاعنة : المرأة التى يرميها زوجها برجل أنه زنى بها ، فالإمام يلاعن بينهما ، ويبدأ بالرجل ويقفه حتى يقول : أشهد بالله أنها زنت بفلان و إنه لصادق فيما رماها به . فإذا قال ذلك أربع مرات قال فى الخامسة : وعليه لعنة الله إن كان من الكاذبين فيما رماها به من الزنى . ثم تقام المرأة فتقول أيضا أربع مرات : أشهد بالله إنه لمن الكاذبين فيما رمانى به من الزنى، ثم تقول فى الخامسة : وعلىّ غضب الله إن كان من الصادقين، فإذا فعلت ذلك بانت منه ولم تحل له أبدا، و إن كانت حاملا فجاءت بولد فهو ولدها، ولا يلحق بالزوج لأن السنة تنفيه عنه .

(٤) المبارئة : المرأة التى تبرئ الرجل من حقوقها للفارقة .

ذكر خبر عَيْلى[1] وأشمويل[2] وما يتّصل بذلك

قال أبو إسحاق الثعلبيّ — رحمه الله — قال وهبُ بنُ مُنبِّه : لمّا قبض الله تعالى آلْيَسَعَ — عليه السلام — اخلفت فى بنى إسرائيل الخلوف ، وعَظُمتْ فيهم الخطايا ، وكان عندهم تابوت يتوارثونه صاغرًا عن كابر ، فيه السَّكينة[3] وبقيّة[4] ممّا ترك آلُ موسى وآلُ هارون ، وكانوا لا يلقاهم عدوّ فيقدّمون التابوتَ إلّا هَزَم الله ذلك العدو . وكان الله — تبارك وتعالى — قد بارك لهم فى جَبَلهم ، لا يدخله عدوّ ، ولا يحتاجون معه إلى غيره . وكان أحدهم — فيما يذكرون — يضع الترابَ على الصَّخْرة ثم ينثر فيه الحَبّ فيُخرِج اللهُ تعالى له ما يأكله سنةً هو وعيالُه . ويكون لأحدهم الزيتونةُ فيعتصر منها ما يأكله سنةً هو وعيالُه . فلمّا عَظُمتْ أحداثهم وكثرتْ ذنوبهم وتركوا عهدَ الله إليهم سلّط الله عليهم العمالقة — وهم قوم [كانوا][5] يسكنون غَزّةَ وعَسْقلان وساحلَ بحر الروم ما بين مصرَ وفَلَسْطين — وكان جالوت الملك منهم فظهروا على بنى إسرائيل ، وغلبوهم على كثير من أرضهم وسَبَوْا كثيرًا من ذراريهم وأسروا من أبناء ملوكهم أربعمائة وأربعين غلاما ، فضربوا عليهم الجزية ،

---

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ١ من هذا الجزء .

(٢) فى تاريخ الطبرى (ص ٥٤٧ وما بعدها) « أشمويل » و « شمويل » . وفى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٤٤٥) : « صموئيل » .

(٣) ورد فى الجزء الثالث من تفسير القرطبى (ص ٢٤٨ — ٢٤٩) أقوال المفسرين فى السكينة واختلافهم فى تفسيرها ثم قال المؤلف : قال ابن عطية : والصحيح أن التابوت كانت فيه أشياء فاضلة من بقايا الأنبياء وآثارهم ، فكانت النفوس تسكن إلى ذلك وتأنس به وتقوى . وسيذكر المؤلف تفسيرها فيما بعد .

(٤) ذكر القرطبى فى الجزء الثالث من تفسيره (ص ٢٤٩ — ٢٥٠) أقوال المفسرين أيضا فى البقية واختلافهم فى تفسيرها ثم قال : وقال أبو صالح : البقية : عصا موسى وثيابه وثياب هارون ولوحان من التوراة . وسيذكر المؤلف تفسيرها فيما بعد .

(٥) زيادة عن الثعلبى .

وأخذوا توراتهم ، ومكثوا على آضطراب من أمرهم وآختلاف من حالهم يتمادَوْن أحيانا فى غيّهم وضلالتهم ، فسلّط الله عليهم مَن ينتقم منهم ليراجعوا التوبة ، حتى بعث الله تعالى فيهم طالوتَ ملكا . وكانت مدّةُ ما بين وفاة يُوشَع بن نُون إلى نبوّة أشمويل أربعمائة سنة وستين سنة ، وكان آخرَ ملوكهم فى هذه المدّة رجل يقال له «إيلاف» وكان يُدبّر أمرهم فى ملكه شيخ يقال له «عَيْلَى» الكاهن ، وكان حِبْرَهم وصاحبَ قُرْبانهم ، وكانوا ينتهون إلى رأيه .

ذكر آبتداء أمر أشمويل وكيف كانت نبوّته

قال الثعلبىّ قال وهب : كان لأبى أشمويل آمرأتان ، إحداهما عجوزٌ عاقرٌ لم تلد ، وهى أمّ أشمويل ، والأخرى وَلدتْ عشرةَ أولاد . وكان لبنى إسرائيل عيدٌ من أعيادهم قد قاموا بشرائطه وقرّبوا فيه القرابين ، فحضر أبو أشمويل وآمرأتاه وأولاده العشرة ذلك العيد ، فلمّا قرّبوا قُربانهم أخذ كلّ واحد منهم نصيبه ، فكان لأمّ الأولاد عشرةُ أنصباء ، وللعجوز نصيبٌ واحد ، فعمل الشيطان بينهما ما يعمل بين الضرائر من الحسد والبغى ، فقالت أمّ الأولاد [للعجوز] (١) : الحمد لله الذى كثّرنى بولدى وقلّلكِ ، فوَجَمَتْ العجوز وُجوما شديدًا . فلمّا كان عند السَّحَر عَمَدت العجوزُ إلى متعبَّدها فقالت : اللهمّ بعلمك وسَمْعك كانت مقالةُ صاحبتى وآستطالتُها علىّ بنعمتك التى أنعمتَ عليها ، وأنت آبتدأتَها بالنعمة والإحسان ، فآرحمْ ضَعْفى وآرحمنى وآرزقنى ولدًا تقيّا رضيّا أجعله لك ذُخرا فى مسجد من مساجدك ، يعبدك ولا يكفرك ، ويطيعك ولا يجحدك . وإذا رحمتَ ضَعفى ومسكنتى وأجبتَ دعوتى ، فآجعل لما علامةً أعرفها بها . فلمّا أصبحت حاضت وكانت من قبلُ قد يئست من الحيض ، فألمّ بها زوجها ، فحملتْ وكتمتْ أمرَها ، ولقى بنو إسرائيل

(١) زيادة عن الثعلبى

فى ذلك الوقت من عدوّهم بلاء وشدّة ، ولم يكن فى بنى إسرائيل من يدبر أمرهم ، فكانوا يسألون الله تعالى أن يبعث لهم نبيّا يشير عليهم ويجاهدون عدوّهم معه ، وكان سِبْط النبوّة قد هَلَك ، فلم يبق منهم إلّا هذه ٱلمرأة الحُبلى ؛ فلمّا علموا بحَبَلها تعجّبوا وقالوا : إنما حَبِلتْ بنبىّ ، لأن الآيسات لا يَحبَلن إلّا بالأنبياء ، فأخذوها وحبسوها فى بيتٍ رَهْبَةَ أن تَلِدَ جاريةً فتُبدِلَ بها غلاما ، لما ترى من رغبة بنى إسرائيل فى ولدها ، فجعلت ٱلمرأة تدعو الله تعالى أن يرزقها غلاما ، فولدتْ غلاما فسمّته « أشمويل » وقيل فيه « شِمْعون » . وتقول : سمع الله دعائى . ١١٩/١١

وٱختُلِف فى نسبه ، فالذى يقول ٱسمه شِمْعون يقول : هو شمْعون بنُ صفيّة بن علقمة بن أبى ياسف بن قارون بن يَصْهُر بن قاهث بن لَاوِى بن يعقوب .

وقال سائر المفسّرين[1] : هو أشمويل ، وهو بالعربية إسماعيل بن بالِى ابن علقمة بن حام بن النهر بن بهر بن صوف بن علقمة بن ماحت بن عموصا ابن عَزَرِيَا .

قال مُقاتل : هو من نسل هارون — عليه السلام — . وقال مجاهد : أشمويل ابن هلقانا . والله أعلم .

قالوا : فلمّا كبِر الغلام أسلمته أمّه يتعلّم التوراة فى بيت المقدس وكَفَله عَيْلَى ، فلمّا بلغ أشمويلُ الوقتَ الذى يبعثه ٱلله — عزّ وجلّ — نبيّا أتاه جبريل

(١) ورد نسب أشمويل فى تاريخ الطبرى (ص ٥٤٧ من القسم الأوّل) هكذا : « شمويل بن بالى بن علقمة بن يرخام بن أليهو بن تهو بن صوف » . وورد فى قصص الأنبياء للثعلبى هكذا : « شمويل وهو بالعبرانية إسماعيل بن بالى بن علقمة بن ماجد بن عموصا بن النهر بن ضون بن علقمة صاحب عموصا ابن عزريا » . وفى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٤٤٤) : « صموئيل بن ألقانة بن يروحام بن أليهو ابن توحو بن صوف الأفرايمى » .

وهو نائم إلى جنب عَيْلَى الكاهن؛ وعَيْلَى لا يأمن عليه أحدًا، فدعاه بلحن الشيخ: يا أشمويل، فقام فزِعا إلى الشيخ فقال: يا أبتاه، دعوتنى؟ فكره الشيخ أن يقول لا فيفزع الغلام؛ فقال: يا بُنىّ ارجعْ. فرجع فنام، ثم دعاه ثانيا، فأتاه فقال: أدعوتنى؟ فقال الشيخ: ما شأنُك؟ فقال: أمَا دعوتنى؟ قال: لا. قال أشمويل: فإنى سمعتُ صوتا فى البيت، وليس فيه غيرُنا. فقال: ارجعْ فتوضّأْ وصلِّ، فإذا دُعيتَ بآسمك فأجب وقل. لَبَّيك، أنا طَوْعُك، فمُرْنى أفعلْ ما تأمرنى. ففعل الغلام ذلك، فنودى الثالثة، فقال: لَبَّيك أنا طوعُك، فمُرْنى أفعلْ ما تأمرنى. فظهر له جبريل وقال: اذهبْ إلى قومك فبلِّغهم رسالة ربّك، فإنّ الله تعالى قد بعثك إليهم نبيًّا، وإن الله تعالى ذَرَأك يومَ ذرأك [للنبوة][(1)] ورَحِمَ وَحْدَةَ أمِّك فى ذلك اليوم الذى تاهت عليها ضَرَّتُها، ولا أحد اليوم أشدَّ عَضُدًا[(2)] ولا أطيبُ وِلادةً منك، فآنطلِقْ إلى عَيْلَى [فقل له][(1)] إنك كنتَ خليفة آلله على عباده، فبقيتَ زمانا تأمر بأمره، وحاكما بكتابه، وحافظا لحدوده؛ فلمّا آمتدّ سنّك، ودقّ عَظمُك، وذهبتْ قوتك، وفَنِيَ عمرُك، وقَرُب أجلُك؛ وصرت أفقرَ ما تكون إلى الله تعالى، ولم تزل فقيرًا إليه، عطّلتَ الحدود، وعَمِلْتَ بالرِّشا، وأضعتَ حكومات الخلق، حتى عزّ الباطلُ وأهلُه، وذَلَّ الحقُّ وحِزْبُه، وظهر المكر، وخفِيَ المعروف، وفشا الكذب، وقلّ الصدق، وما آللهُ عاهَدَك على هذا، ولا عليه آستخلَفَك، فبئس ما خَتَمتَ به عَمَلَك، والله لا يحبّ الخائنين. فبلِّغه هذه الرسالة، وقمْ بعده بالخلافة؛ فلمّا بلّغ أشمويلُ عَيْلَى هذه الرسالة فَزِع وجَزِع.

---

(١) التكملة عن قصص الأنبياء للثعلبى.

(٢) عبارة الثعلبى فى قصص الأنبياء: «فلا أحد اليوم أشدّ منها عضدا ولا ملاذا».

قالوا : وكان السبب فيما عاتب الله تعالى عبده عَيْلَى ووبّخه عليه أنه كان له ٱبنان شابّان، فأحْدَثا شيئا فى القُرْبان لم يكن فيه، وذلك أنه كان فى مِسْوَاط القُرْبان (١) الذى يَسُوطونه به كُلّابان (٢). فما أخرجا كان للكاهن الذى كان يَسُوطه، فجعل ٱبناه لهما كلاليب، فأوحى ٱلله تعالى إلى أشمويل : ٱنطلق إلى عَيْلَى فقل له : مَنعك حبُّ الولد أن تزجر ٱبنيك أن يُحدِثا فى قُرْبانى وأن يعصيانى، فلأنزعنّ الكَهانة منك ومن ولديك ولأُهلِكَنّك و إياهما . فأخبر أشمويلُ عَيْلَى بذلك، ففزِع فزعا شديدا وسار إليهم عدوّهم، فأمر عَيْلَى ٱبنيه أن يَخْرجا بالناس و يقاتلا ذلك العدوّ، فخرجا وأخرجا معهما التابوت، فجعل عَيْلَى يتوقع الخبر، فجاءه رجل وهو قاعد على كرسيّه فأخبره أنّ الناس قد ٱنهزموا، وأن ٱبنيه قُتِلا . قال : فما فُعِل بالتابوت؟ قال : ذهب به العدو . فشَهَق عَيْلَى ووقع ميّتا . فلمّا بلغ مِلكَهم إيلاقَ أن التابوت ٱستُلِب، وأن عَيْلَى قد مات كمدًا مالت عنقه فمات كمدا .

قالوا : فلمّا ماتا وأُخذ التابوت مَرِج (٣) أمرُ بنى إسرائيل وٱجترأ عليهم عدوّهم فقالوا لأشمويل ما أخبر الله تعالى به عنهم فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (٤) الآيات . وذلك بعد مادبّر أشمويلُ أمرَهم عشر سنين .

(١) المسواط (كمحراب) : خشبة يحرّك بها ما فى القدر ليختلط .

(٢) هذه عبارة الثعلبى فى قصص الأنبياء . والذى فى الأصل : « كان فى مسواط القربان الذى يسوط به كلابين فما أخرجا كان للكاهن الذى يسوطه » .

(٣) مرج، أى ٱختلط وٱضطرب وفسد .

(٤) سورة البقرة آية ٢٤٦ .

وإنما كان قِوَامُ أمرِ بنى إسرائيل بالاجتماع على الملوك وطاعة الملوك أنبياءَهم، وكان الملِك هو الذى يسير بالجنود ويقاتِل العدوّ، والنبىّ يقيم له أمرَه ويُشير عليه ويرشده، ويأتيه بالخبر من الله تعالى .

قال وهب : بعث الله تعالى أشمويلَ نبيًّا ، فلبثوا أربعين سنةً بأحسن حال، وكان من أمر جالُوتَ الملِك والعَمالِقة ما كان، فسألوه أن يَبعث لهم مِلِكا، فقال لهم: ﴿ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ﴾ . فأجابوه بما قصّ الله تعالى فى كتابه : ﴿ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (١) الآية .

قال : فلمّا أخذ أشمويلُ ميثاقَهم فى الطاعة والجهاد سأل الله تعالى أن يبعث لهم ملِكا . والله أعلم بالصواب .

ذكر خبر الملك طالوتَ وإتيانِ التابوت وخبر جالوت

١٢٠ / ١١

قالوا : ولما سألوا أشمويلَ أن يبعث لهم ملِكا ، سأل الله تعالى فى ذلك ، فأُتِىَ بعصًا وقَرْنٍ (٢) فيه دُهن القُدُس، وقيل له : إنّ صاحبكم الذى يكون مَلِكا طوله طولُ هذه العصا ، وقيل له : أنظر إلى القَرْن الذى فيه الدُّهن فإذا دَخَل عليك رجل فنَشّ (٣) الدُّهن الذى فى القَرْن فهو مَلِكُ بنى إسرائيل، فادْهُن به رأسه، وملّكه عليهم؛ فقاسوا أنفسهم بالعصا فلم يكونوا مِثلَها، وكان طالوت — واسمه بالسُّريانيّة «شارك» (٤)

(١) سورة البقرة آية ٢٤٦ .

(٢) القرن (بفتح القاف والراء المهملة) : الجعبة ما كانت .

(٣) نش الدهن : صوّت عند الغليان .

(٤) فى قصص الأنبياء للثعلبي المخطوطة «شازك» بالزاى المعجمة والكاف . وفى المطبوعة : «سادل» بالدال المهملة واللام .

و بالعبرانية شاول بن قيس بن أنيال بن ضرار بن أحرب بن أفيح بن آيش بن بنيامين ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم — رجلا دباغا يعمل الأدم . قال وهب وعكرمة والسدى : كان سقاء يسقى على حمار من النيل، فضل حماره، فخرج فى طلبه . وقال وهب : بل ضلت حمر لأبى طالوت، فأرسله وغلاما له يطلبانها، فمرا ببيت أشمويل فقال الغلام لطالوت : لو دخلنا على هذا النبى فسألناه عن أمر حمرنا ليرشدنا ويدعو لنا بخير . فقال نعم . فدخلا عليه، فبينما هما عنده يذكران شأن الحمر إذ نش الدهن فى القرن فقام أشمويل وقاس طالوت بالعصا، فكانت على طوله، فقال لطالوت قرب رأسك . فقربه فدهنه بدهن القدس، ثم قال له : أنت ملك بنى إسرائيل، وقد أمرنى الله تعالى أن أملكك عليهم . فقال طالوت : أنا ؟ قال نعم . قال : أو ما علمت أن سبطى(٢) أدنى الأسباط فى بنى إسرائيل؟ قال بلى . قال : أفما علمت أن بيتى أدنى بيوت بنى إسرائيل؟ قال بلى . قال : فبأى آية أكون ملكا ؟ قال : بآية أنك ترجع وقد وجد أبوك حمره . فكان كذلك .

ثم قال لبنى إسرائيل: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾(٣)؛ وإنما قالوا ذلك لأنه كان فى بنى إسرائيل سبطان : سبط نبوة، وسبط مملكة؛ فكان سبط النبوة سبط لاوى بن يعقوب،

---

(١) ورد هذا النسب فى قصص الأنبياء للثعلبى المطبوع هكذا : «شاول بن قيس بن أفيل بن صاروا ابن نحورت بن أفيح بن أنيس بن بنيامين بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام» وورد فى النسخة المخطوطة منه هكذا : «شامل بن قيس بن اينال بن ضرار بن يحرب بن أفيح بن آش بن بنيامين» وورد فى الكتاب المقدس (ج ١ ص ٤٥٧) هكذا : «شاول بن قيس بن أبيئيل بن صرور بن بكورت ابن أفيح ابن رجل من بنيامين» .

(٢) السبط من اليهود كالقبيلة من العرب .

(٣) سورة البقرة آية ٢٤٧ .

منهم موسى وهارون — عليهما السلام — وسِبْطُ المملكة سِبْطُ يهوذَا بن يعقوب، منهم سليمان بن داود؛ ولم يكن طالوت من سِبط النبوة ولا المملكة، وإنما كان من سِبْط بَنْيامين بن يعقوب، وكانوا عَمِلوا ذنبا عظيما؛ كانوا ينكحون النساء على ظهر الطريق نهارا، فغضب الله تعالى عليهم، ونزع النبوّة والمملكة منهم، فأنكر بنو إسرائيل ذلك وقالوا: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ ٱلْمَالِ﴾ قال أشمويل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً﴾، أى فضيلة وسعة ﴿فِي ٱلْعِلْمِ﴾ وذلك أنه كان أعلمَ بنى إسرائيل فى وقته. وقال الكلبيّ: «فِي العِلْمِ» بالحرب. ﴿وَٱلْجِسْمِ﴾ يعنى بالطُّول والقوّة؛ وكان يفوق الناسَ برأسه ومَنْكِبَيْه؛ وإنما سُمِّىَ طالوتَ لطُوله. وقال آبن كَيْسان: بالجمال، وكان أجملَ رجل فى بنى إسرائيل وأعلمَهم ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[(1)]. قالوا: فما آية ذلك؟ ﴿قَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِن رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[(2)].

ذكر قصة التابوت وصفته وما قيل فيه

قال أبو إسحاق الثعْلبيّ — رحمه الله —: قال أهل التفسير وأصحابُ الأخبار. إنّ ٱلله تعالى أهبط تابوتا على آدمَ حين أُهْبِط آدمَ إلى الأرض، فيه صُوَر الأنبياء من أولاده، وفيه بيوت بعدد الرُّسُل منهم، وآخرُ البيوت بيت محمد — صلى الله عليه وسلم — وهو من ياقوتة حمراء، وإذا هو قائم يصلّى وعن يمينه الكَهْلُ المطيع،

---

(١) سورة البقرة آية ٢٤٧.

(٢) سورة البقرة آية ٢٤٨.

مكتوبٌ على جبينه : هذا أوّل من يتّبعه من أمّته « أبو بكر الصدّيق » وعن يساره «الفاروق» ، مكتوبٌ على جبينه : قرْن من حديد لا تأخذه فى آلله لومةُ لائم ، ومن ورائه ذو النّـورَين آخذٌ بحُجْزته(١) ، مكتوبٌ على جبينه : بارٌّ من البَرَرَة ، ومن بين يديه «علىّ بن أبى طالب» شاهرٌ سيفَه على عاتقه ، مكتوبٌ على جبينه : هذا أخوه وابنُ عمه المؤيّد بالنصر من عنـد الله . وحوله عمومته والخلفاء والنُّقَباء والكَبْكَبَة(٢) ١٢١/١١
الخضراء — وهم أنصار الله وأنصار رسوله — نورُ حوافرِ دوابّهم يومَ القيامة مِثلُ نور الشمس فى الدنيا .

وكان التابوت نحوًا من ثلاثة أذرع فى ذراعين ، وكان من عود الشِّمْشار(٣) الذى تُتخذ منه الأمشاط ، مموّها بالذهب ، فكان عند آدم إلى أن مات ، ثم عند شيث ، ثم توارثه أولادُ آدم إلى أن بلغ إبراهيمَ — عليه السلام — فلمّـا مات كان عنـد إسماعيل ، ثم كان عند قَيْذَار بن إسمـاعيل ، فتنازعه ولدُ إسحاق وقالوا : إنّ النبوّة قد صُرفتْ عنكم ، وليس لكم إلّا هذا النور الواحد ، [يعنى نور محمد صلى الله عليه وسلم](٤) فأعطِنا التابوت . فكان قَيْذَار يمتنع عليهم ويقول : إنه وصيّة لأبى ، ولا أعطيه أحدًا من العالمين .

قال : فذهب ذات يوم يفتح التابوت ، فتعسّر عليه فتحُه ، فنـاداه منادٍ من السماء : مهلا يا قَيْذار ، فليس لك إلى فتح هـذا التابوت سبيل ، إنه وصيّة نبىّ ،

(١) أخذ بحجزة فلان : استظهر به واستنصر .

(٢) الكبكبة : الجماعة .

(٣) الشمشار : شجر البقس ، يشبه ورقه ورق الآس ، وعوده أصفر صلب ، وله حب أسود . منابته بلاد الروم ، تتخذ منه المغالق والأبواب لمتانته وصلابته . وفى القاموس : «الشمشاذ» بالذال المعجمة (راجع مفردات ابن البيطار وشرح القاموس مادة بقس) .

(٤) زيادة عن قصص الأنبياء للثعلبى .

لا يفتحه إلا نبيّ ، فادفعه لابن عمك يعقوبَ إسرائيل الله ، فحمل قَيْذار التابوتَ على عنقه وخرج يريد أرض كَنْعان وكان بها يعقوب — عليه السلام — فلمّا قَرُب منه صرّ التابوتُ صَرّة سمعها يعقوب ، فقال لبنيه : أُقسم بالله لقد جاءكم قَيْذار بالتابوت فقوموا نحوه . فقام يعقوب وأولاده جميعا إليه ، فلمّا نظر يعقوب إلى قَيْذار آستَعْبَرَ باكيا وقال : يا قَيْذار ، مالى أراك متغيّرا وقوّتك ضعيفة ، أَرَهِقَكَ عدوّ أم أتيتَ معصيةً بعد أبيك إسماعيل ؟ قال : ما رَهِقَنى عدوّ ولا أتيتُ معصيةً ولكن نُقِل من ظهرى نورُ محمد ، فلذلك تغيّر لَوْنى وضَعُفَ رُكْنى ، قال : أفى بنات إسحاق ؟ قال : لا ، فى العربيّة الجُرْهُميّة ، وهى العامريّة ، فقال يعقوب : بَخٍ بَخٍ ! شرفا لمحمدٍ ، لم يكن الله — عزّ وجل — لِيُجْرِيَه إلا فى العربيّات الطاهرات يا قيذار ، وأنا مُبشّرك ببشارة ، قال : وما هى ؟ قال : اعلم أن العامريّة قد ولدت لك البارحة غلاما . قال قيذار : وما علّمك يابن عمّى وأنت بأرض الشأم وهى بأرض الحَرَم ؟ قال يعقوب : علمتُ ذلك لأنى رأيتُ أبوابَ السماء قد فُتحت ، ورأيتُ نورًا كالقمر الممدودِ بين السماء والأرض ، ورأيتُ الملائكة ينزلون من السماء بالبركات والرحمة ، فعلمتُ أنّ ذلك من أجل محمد — صلى الله عليه وسلّم — فسلم قيذارُ التابوتَ إلى يعقوب ورجع إلى أهله ، فوجدها قد ولدت غلاما ، فسمّاه « حَمَلا » وفيه نور محمد صلى الله عليه وسلم .

قالوا : وكان التابوت فى بنى إسرائيل إلى أن وصل إلى موسى — عليه السلام — فكان موسى يضع فيه التوراة ومتاعا من متاعه ، وكان عنده إلى أن مات ، ثم تداوله أنبياء بنى إسرائيل إلى وقت أشمويل ، وكان فيه ما ذكر الله تعالى ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ .

قال الثعلبيّ: وٱختلفوا فى السكينة ما هى؟ فقال علىّ بن أبى طالب: السكينة ريحٌ خَجُوج(١) هفّافة لهـا رأسان [كرأس الهرّة](٢) ووجه كوجه الإنسان. وقال مجاهد: رأس كرأس الهِرّة، وذَنب كذَنب الهرّة وجناحان. وقال ٱبن إسحـاق عن وهب عن بعض علمـاء بنى إسرائيـل: السكينة، رأس هرّة ميّتة كانت إذا صرّخت فى التابوت بصُراخ هِرّ أيقنوا بالنصر وجاءهم الفتح.

وقال السُّدّىّ عن أبى مالك عن ٱبن عبّاس: هى طَسْت من ذهب من الجنة كانت تُغسَل فيه قلوب الأنبياء. وقال بكّار بن عبد الله عن وهب: رُوحٌ من الله تكلم، إذا ٱختلفوا فى شىء تخبرهم ببيان ما يريدون. وقال عطاء بن أبى رَبَاح: هى ما يعرِفون من الآيات فيسكنون إليها. وقال قَتادة والكلبىّ: فَعِيلة من السكون أى طُمَأنينة من ربكم، وفى أىّ مكان كان التابوت ٱطمأنّوا ﴿ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ ﴾.

قالوا: كان فيه عصا موسى ورُضاض(٣) الألواح، وذلك أنّ موسى لمّا ألقى الألواح تكسرتْ فوقع بعضها، وجمع ما بقِىَ فجعله فى التابوت. وكان فيه أيضا لَوْحان من التوراة، وقَفِيزٌ من المنّ الذى كان ينزل عليهم، ونَعلا موسى، وعِمامةُ هارون وعصاه. وكان التابوت عند بنى إسرائيل؛ وكانوا إذا ٱختلفوا فى شىء تكلّم وحكم بينهم، وإذا حضروا القتال قدّموه بين أيديهم يستفتحون(٤) به على عدوّهم، فلما عصَوْا وأفسدوا سلّط الله ــ عزّ وجلّ ــ عليهم العمالقة فاستلبوا التابوت كما تقدّم.

(١) ريح خجوج: تخج فى هبوبها، أى تلتوى.

(٢) زيادة عن قصص الأنبياء للثعلبى.

(٣) رضاض الشىء (بضادين معجمتين وضم الراء المهملة): دقاق الشىء وفتاته، أى ما رضّ منه.

(٤) استفتح فلان: طلب الفتح وٱستنصر، ومنه قوله تعالى: « إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح » أى إن طلبتم الظفر.

ذكر إتيان التابوت إلى بنى إسرائيل وسبب عَوْده

١٢٣/١١ قال أبو إسحاق : لمّا سلب العمالقةُ قومَ جالوتَ التابوت كان جالوتُ صغيراً، فأتَوْا بالتابوت قرية من قُرى فَلَسْطين يقال لها أَشدود(١)، وجعلوه فى بيت صنم لهم ووضعوه تحت الصنم الأعظم، فأصبحوا من الغد والصنم تحته، فأخذوه ووضعوه فوقه، وسمّروا قدمَي الصنم على التابوت، فأصبحوا من الغد وقد قُطعتْ يدُ الصنم ورجلاه، وأصبحَ ملقىً تحت التابوت وأصبحت أصنامهم كلُّها منكّسة، فأخرجوه من بيت الصنم ووضعوه فى ناحيـة من مدينتهم، فأخذ أهلَ تلك الناحيـة وجعٌ فى أعناقهـم حتى هلك أكثرهم، فقال بعضهـم لبعض : أليس قـد علمتم أن إله بنى إسرائيل لا يقوم له شىء، فأخرِجوه عن مدينتكم، فأخرجوه إلى قرية أخرى، فبعث الله — عزّ وجلّ — على تلك القرية فأرا(٢)، يبيت الرجل صحيحا فيقرِضـه الفأر فيصبح ميتـا قد أكلت ما فى جوفـه، فأخرجوه منهـا إلى الصحراء ودفنوه فى مَخْرَأةٍ لهم، فكان كلُّ من تبرّز هناك أخذه الباسُور والقُولَنج(٣)، فتحيّروا، فقالت لهم امرأة كانت عندهم من سَبْيِ بنى إسرائيل من أولاد الأنبياء : لا تزالون ترَوْن ما تكرهون ما دام هـذا التابوتُ فيـكم، فأخرِجوه عنكم، فأتَوْا بعَجَلةٍ بإشارة تلك المرأة فحملوا التابوتَ عليهـا، ثم علّقوها على ثورين، ثم ضربوا جُنُوبَهما، فأقبل الثوران يسيران، ووكّل الله تعالى بهما أربعةً من الملائكة يسوقونهما، فلم يمرّ التابوت

---

(١) كذا فى قاموس العهـد الجديد للدكتور جورج بوست (ج ١ ص ١٠١، ٢٧٦ طبع بيروت سنة ١٨٩٤) وهى إحدى مدن الفلسطينيين الخمس المتحالفة وقد خرجت فى نصيب يهوذا، وهى المركز الخصوصى لعبادة داجون، وأما موقعها فعلى ٣ أميال من البحر المتوسط بين غزة ويافا، وهى الآن قرية حقيرة تسمى أسدود وفى جوارها خرائب كثيرة . وفى الأصل : «أردود» .

(٢) هذه عبارة الثعلبى فى قصص الأنبياء . وعبارة الأصل محرفة .

(٣) القولنج : مرض معوىّ مؤلم يعسر معه خروج الثفل والريح، معرّب .

بشيء من الأرض إلّا كان مقدّسا ، فأقبلا حتى وقفا على أرض فيها حصاد لبنى إسرائيل فكسرا نُيرَيهما وقطعا حبالها، ووضعا التابوت فيها ورجعا إلى أرضهما، فلم يُرع بنى إسرائيل إلّا التابوت، فكبّروا وحمدوا الله تعالى .

وقال الكِسائى : إنهم لمّا دفنوه إلى جنب الحش (١) وأخذهم الباسور أعادوه إلى الكنيسة . فغزاهم بعض الفراعنة فهزمهم ودخل الكنيسة، وأخذوا التابوت وهمّوا بفتحه فلم يقدروا فهموا بكسره فلم يقدروا (٢)، فتركوه ؛ فكان القوم يتشاءمون به لما كان يصيبهم من البلاء، فحوّلوه إلى خمس مدائن، فقال أهل المدينة الخامسة : إن هذا البلاء يصيبكم بسبب هذا التابوت فأخرجوه . وساق نحو ما تقدّم .

وقوله تعالى : ﴿ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ أى تسوقه . فعند ذلك أقرّوا بمُلك طالوت .

وقال ابن عبّاس — رضى الله عنهما — : جاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والأرض وهم ينظرون إليه حتى وضعوه فى دار طالوت، فأقرّوا بمُلكه . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .

قال ابن عبّاس — رضى الله عنهما — إنّ التابوت وعصا موسى فى بحيرة طَبَرِيّة (٤)، وإنهما يخرجان يوم القيامة . والله أعلم .

---

(١) الحش (بالتثليث) : البستان ، وقيل : النخل المجتمع ، ويكنى به عن بيت الخلا لما كان من عاداتهم التغوط فى البساتين .

(٢) هذه عبارة الكسائى فى قصص الأنبياء . وفى الأصلين : « فهم بكسره فلم يقدر » .

(٣) سورة آل عمران آية ٤٩ .

(٤) بحيرة طبرية ، هى كالبركة تحيط بها الجبال ويصب فيها فضلات أنهر كثيرة تجىء من جهة بانياس والساحل والأردن الأكبر ، وينفصل منها نهر عظيم فيسق أرض الأردن الأصغر ، وهو بلاد الغور ، ويصب فى البحيرة المنتنة قرب أريحا . ومدينة طبرية فى لحف الجبل مشرفة على البحيرة ، ماؤها عذب شروب ليس بصادق الحلاوة ثقيل . وفى وسط هذه البحيرة حجر ناتئ يزعمون أنه قبر سليمان بن داود عليه السلام . وبين البحيرة وبيت المقدس نحو من خمسين ميلا . (راجع معجم البلدان لياقوت) .

ذكر مسير طالوت بالجنود وخبر النهر الذى ٱبتُلُوا به

قالوا : فلمّا أقرّوا بمُلك طالوت سألوه أن يغزو بهم، وهم يومئذ سبعون ألفَ مُقاتل. وقيل: ثمانون ألفًا لم يتخلّف عنه إلّا كبيرٌ لهَرَمه أو مريضٌ لمرضه أو ضريرٌ لضُرّه أو معذورٌ لعُذره؛ وذلك أنهم لما رأَوا التابوت قالوا : قد أتانا التابوت وهو النصر لا شكّ فيه؛ فسارعوا إلى الجهاد، فقال طالوت : لا حاجة لى فى كل ما أرى ، لا يخرج معى رجلٌ بنَى بناءً لم يفرُغ منه ، ولا صاحبُ تجارةٍ مشتغلٌ بها، ولا رجلٌ عليه دينٌ، ولا رجلٌ تزوّج بامرأة ولم يبْنِ بها؛ ولا يتْبعْنى إلّا الشابّ النشيط الفارغ(1) . فأجتمع له ثمانون ألفا على شرطه — وكانوا فى حرّ شديد فشكَوْا قلّة المياه فيما بينهم وبين عدوّهم، وقالوا : إنّ المياه لا تحملنا، فٱدع الله تعالى أن يُجرِىَ لنا نهرا . فقال لهم طالوت : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى ﴾ أى من أهل دِينى وطاعتى؛ ﴿ وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّى ﴾ ؛ ثم ٱستثنى فقال : ﴿ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾ .

قال الكِسَائىّ : لمّا سألوه أن يُجرِىَ لهم نهرا قال : أفعل — إن شاء الله — وسار بهم حتى إذا كانوا فى بَرِّيّة وفقدوا الماء وأجْهدهم العطش ، أتوه، فدعا أن يجرى ٱلله تعالى لهم نهرا ؛ فأوحَى الله إليه ما أخبر به فى كتابه ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ ﴾(2) الآية . قال : وهو نهر الأُرْدُنّ من بلاد فَلَسْطين . وقال الثعلبىّ : قال ٱبن عبّاس والسُّدّىّ : هو نهر فلسطين . وقال قَتَادة والربيع : هو نهرٌ بين الأُرْدُنّ وفلسطينَ، عَذْب. قال الكِسَائىّ : قالوا : وما تُغْنى عنّا الغُرْفة ثم عَرَض لهم النهر فٱنهمكوا فى شربه . قال الله تعالى : ﴿ فَشَرِبُوا مِنْهُ

(1) الفارع : المرتفع الهنىّ الحسن .

(2) سورة البقرة آية ٢٤٩ .

إلا قليلًا منهم ﴾ قال : واختلفوا فى القليل الذين لم يشربوا ؛ فقال السدّى : كانوا أربعة آلاف . وقال غيره : كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر ؛ وهو الصحيح ، لقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لأهل بدر : " أنتم اليوم على عدّة أصحاب طالوت حين عبروا النهر " وكان أهل بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر .

قالوا : فلم يزد هؤلاء على الغرفة فكانت كفايةً لهم ولدوابّهم ؛ فمن اغترف غرفة كما أمر الله ، نوّر الله قلبه وصحّ إيمانه ، وعبر النهر سالما . والذين شربوا وخالفوا أمر الله – عزّ وجل – اسودّت شفاههم وغلبهم العطش فلم يرووا وبقوا على شطّ النهر وجبُنوا عن لقاء العدوّ ؛ فقال طالوت للذين عصوا ربهم : ارجعوا فلا حاجة لى بكم فرجعوا . قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ (١) و إنما قال ذلك الذين عصوا وشربوا ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٢) .

ذكر خبر دواد حين قتل جالوت الملك

قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ ﴾ (٣) .

قال أبو إسحاق الثعلبى – رحمه الله – : قال المفسرون بألفاظ مختلفة ومعانٍ متفقة : عبر النهر مع طالوت إيشى أبو داود فى ثلاثة عشر ابناً له ، وكان داود

(١) سورة البقرة آية ٢٤٩ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٥٠ .

(٣) سورة البقرة آية ٢٥١ ، وقد وردت هذه الآية الكريمة فى الأصول قبل هذا العنوان . ووردت فى الثعلبى الذى ينقل عنه المؤلف كما أثبتناها هنا وهو الأنسب .

أصغرهم، فأتاه ذات يوم فقال: يا أبتاه، ما أرمي بقذّافتي(١) شيئا إلّا صرعته. فقال: أبشر يا بنيّ فإن الله — عزّ وجل — جعل رزقك في قذّافتك؛ ثم أتاه مرّة أخرى فقال: يا أبتاه، لقد دخلتُ بين الجبال فوجدتُ أسدًا رابضا، فركبتُه وأخذتُ بأذنيه فلم يهجني(٢)، فقال: أبشر يا بنيّ فإنّ هذا خير يريده الله بك. ثم أتاه يوما آخر فقال: يا أبتاه، إني لأمشي بين الجبال فأسبّح فما يبقى جبلٌ إلّا سبّح معي. فقال: أبشر يا بنيّ فإنّ هذا خيرٌ أعطاكه الله عزّ وجل.

قالوا: فأرسل جالوتُ إلى طالوت، أن ابرُزْ إليّ أو أبرِزْ إليّ مَن يقاتلني، فإن قتلني فلكم مُلكي، وإن قتلته فلي ملككم. فشقّ ذلك على طالوت، فنادَى في عسكره: مَن قتل جالوتَ زوّجتُه ابنتي وناصفْتُه مُلكي. فهاب الناسُ جالوتَ فلم يجبه أحد؛ فسأل طالوتُ نبيّهم — عليه السلام — أن يدعو، فدعا الله — عزّ وجل — في ذلك، فأُتِي بقَرن فيه دُهْن القدس، وتنُّورٍ من حديد، فقيل له: إنّ صاحبكم الذي يقتل جالوتَ هو الذي يوضع هذا القرنُ على رأسه فيغلي الدُّهن ثم يَدهُن به رأسَه ولا يسيل على وجهه، يكونُ على رأسه كهيئة الإكليل، ويدخل في هذا التنّور فيملأه لا يتقلقل فيه؛ فدعا طالوتُ بني إسرائيل، فجرّبهم فلم يوافقه منهم أحد، فأوحَى الله — عزّ وجل — إلى نبيّهم أن في ولد إيشَى من يقتُلُ الله به جالوت. فدعا طالوتُ إيشَى وقال له: اعرِض عليّ بنيك. فأخرَجَ له اثني عشر رجلا أمثال السواري، وفيهم رجل فارعٌ عليهم؛ فجعل يعرضهم على القَرن فلا يَرَى شيئا، فيقول لذلك الجسيم: ارجع فيردّده على التنّور. فأوحَى الله — عزّ وجل — إليه: إنّا لا نأخذ الرجال على صُوَرهم، ولكنّا نأخذهم على صلاح قلوبهم. فقال لإيشَى

(١) القذافة: المقلاع.

(٢) لم يهجه: لم يثره ولم ينفره.

هل بقى لك ولد غيرهم؟ فقال لا . فقال النبي : رب إنه زعم أن لا ولد له غيرهم . فقال كذب . فقال النبي : إن ربي كذبك . قال : صدق الله يا نبي الله ، إن لى ابنا صغيرا يقال له داود استحييت أن يراه الناس لقصر قامته وحقارته ، فخلفته في الغنم يرعاها وهو في شعب كذا . وكان داود — عليه السلام — رجلا قصيرا مسقاما مصفارا أزرق أشقر.(١) فدعاه طالوت . ويقال : بل خرج طالوت إليه فوجد الوادي قد حال بينه وبين الزريبة التي كان يريح إليها ، فوجده يحمل شاتين شاتين فيجيزهما السيل ولا يخوض بهما الماء؛ فلما رآه [أشمويل](٢) قال: هذا هو لا شك فيه ، هذا يرحم البهائم فهو بالناس أرحم . فدعاه ووضع القرن على رأسه ففاض؛ فقال له طالوت : هل لك أن تقتل جالوت وأزوجك ابنتي وأجرى حكمك في ملكي ؟ قال نعم . قال : وهل آنست من نفسك شيئا تتقوى به على قتله ؟ قال : نعم، أنا أرعى فيجيء الأسد أو النمر أو الذئب فيأخذ شاة فأقوم له فأفتح لحييه عنها وأخرقهما إلى قفاه . فرده إلى عسكره؛ فمر داود — عليه السلام — في الطريق بحجر فناداه : ياداود، احملني فإني حجر هارون الذي قتل بي ملك كذا، فحمله في مخلاته . [ثم مر بحجر آخر فناداه : يا داود، احملني فإني حجر موسى — عليه السلام — الذي قتل به ملك كذا وكذا، فحمله في مخلاته](٢). ثم مر بحجر آخر فقال: احملني فإني حجرك الذي تقتل به جالوت، وقد خبأني الله لك ، فوضعه في مخلاته . فلما تصافوا للقتال وبرز جالوت وسأل المبارزة، انتدب له داود، فأعطاه طالوت فرسا ودرعا وسلاحا ، فلبس السلاح وركب الفرس ، وسار قريبا ، ثم انصرف فرجع إلى الملك ، فقال من حوله : جبن الغلام . فجاء فوقف على الملك فقال :

---

(١) عبارة الثعلبي : « وكان داود — عليه السلام — رجلا قصيرا سقيما مصفرا أزرق العينين » .

(٢) التكملة عن قصص الأنبياء للثعلبي .

ما شأنك ؟ قال : إنّ الله — عزّ وجل — إن لم ينصرنى لم يغنِ عنّى هذا السلاحُ شيئا ، فدعنى أقاتل كما أريد . قال نعم . فأخذ داود مِخلاته فتقلّدها ، وأخذ المِقلاع ومضى نحو جالوت ، وكان جالوت من أشدّ النـاس وأقواهم ، وكان يهزم الجيوش وحده ، وكان له بَيْضة فيهـا ثلاثمائة مَنٍّ حديدا ، فلمّا نظر إلى داود أُلقِى فى قلبـه الرُّعبُ ، فقال له : أنت تبرُزُ لى ؟ قال نعم — وكان جالوت على فرس أبلق ، عليـه السلاح التامّ — قال : تأتينى بالمِقـلاع والحجر كما يُؤتَى الكلبُ ؟ قال : نعم ، لأنت شرٌّ من الكلب . قال : لا جَرَم لأُقَسِّمَنّ لحمك بين سباع الأرض وطير السماء . فقال داود : [باسم الله و][1] يقسِّم الله لحمَك . وقال : بسم إلٰه إبراهيم ، وأخرج حجرا ، ثم أخرج الآخرَ وقال : بآسم إلٰه إسحاق ، ووضـعه فى مِقْلاعه ، ثم أخرج الثالثَ وقال : بآسم إلٰه يعقوب ، ووضـعه فى مِقْلاعه ، فصارت كلُّها حجرا واحدا ، ودوّر المقلاعَ ورماه به ، فسخَّر اللهُ تعالى له الريحَ حتى أصاب الحجرُ أنفَ البَيضـة وخالط دماغَه فخرج من قفاه ، وقتـل من ورائه ثلاثين رجلا ، وهزم الله تعالى الجيشَ وخرّ جالوتُ قتيلا ، فأخذه داودُ يجرّه حتى ألقاه بين يدَىْ طالوتَ .

وقال الكسائىّ فى هـذه القصة : كان مع طالوتَ سبعةُ إخوة لداود ، وكان داود عند أبيه وهو صغير ، فقال له أبوه : قد أبطأ علىّ خبر إخوتك مع طالوت ، فاحمل إليهم طعاما وتعرّفْ لى خبرَهم . فمضى داود ومعه مِخلاة له فيها الطعام ، وقد شدّ وسطَه بمقلاع ، فبينا هو يسير إذ ناداه حجر من الأرض : خذنى فأنا حجر أبيك إبراهيم . فأخذه ، ثم ناداه حجـر آخر خذنى فأنا حجـر أبيك إسحاق . فأخذه ،

(١) كذا فى قصص الأنبياء للثعلبى . وفى الأصل : « لو يقسم »

ثم ناداه حجر آخر: خُذنى فأنا حجر أبيك يعقوب . فأخذه وسار حتى أتى العسكر، فنزل على إخوته ، فلمّـا كان من الغـد تهيّأ الجيشان للحاربة ، فقال طالوت: أيها الناس، من كفانى منكم أمرَ جالوت زوّجتُه ٱبنتى، وأشركتُه فى مُلكى، وجعلتُه خليفتى من بعدى. فلم يجبه أحد إلّا داود؛ فخلع عليه وأركبه وطاف به فى معسكره؛ فلمّـا كان من الغـد ركبوا ، وأقبل جالوتُ بجيوشه وهو على فيل ، وكان طوله ثمـانيةَ عشر ذراعا ، وطول داود عشرة أذرع ، فقال المؤمنون : ﴿ رَبَّنَـا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾[1] الآية .

فبرز جالوتُ بين الصفَّين فبرَز له داودُ ، فقـال له جالوت : إنك صـغير ولا سلاحَ معك فٱرجع ، فأبى ذلك، وأخذ تلك الأحجار فوضعها فى مقلاعه ورمى بها ، فوقع أحدها بمَيْمنة جالوت فهزمها، والثانى فى المَيْسرة فٱنهزموا، والثالث وقع على أنف بَيْضة جالوت فخرج من قفاه، فسقط جالوتُ ميّتا، وٱنهزم أصحابُه .

قالوا : ولمّـا قتل داودُ جالوتَ ذكر الناسُ داودَ وعظُم فى أنفسهم، فجاء إلى طالوت وقال له : أنجِزْ لى ما وعدتَنى، وأعطِنى ٱمرأتى . فقال له طالوت : أتريد ٱبنةَ الملِك بغير صَدَاق، عجِّل صَدَاق ٱبنتى وشأنَك بها . فقال له داود : ما شرطتَ علىّ صَدَاقا ، وليس لى شىء ، فتحكّم فى الصداق[2] ما شئتَ وأَقرِضنى مَهرَها وعلىّ الأداء والوفاء لك . فقال طالوت : أَصدِقْها نصيبَك من المُلك . فقالت بنو إسرائيل: لا تظلمه وأنجِزْ له ما وعدتَه به .

فلمّـا رأى طالوتُ ميلَ بنى إسرائيل إلى داود وحُسْنَ رأيهم فيـه قال : لا حاجة لٱبنتى فى المـال، ولا أكلِّفك إلّا ما تُطيق، أنت رجل جرىء، وفى جبالنا

(١) سورة البقرة آية ٢٥٠

(٢) عبارة الأصول: «فتحكم من الصداق ماشئت» وعبارة الثعلبي: «فتحكم فى الصداق بما تريد».

أعداء من المشركين غُلْفٌ[(١)] فانطلقْ وجاهِدْهم ، فإذا قتلتَ منهم مائتى رجل وجئتنى برءوسهم زوّجتُك ابنتى . فأتاهم داود، وجعل كلّما قتل منهم رجلا احتزّ رأسه ونظمه فى خيط حتى نظَم رءوسهم فجاء بهما إلى طالوت، فألقاها إليه وقال : ادفع إلىّ امرأتى ، فزوّجه ابنته وأجرى خاتَمه فى مُلكه ، فمال الناس إلى داود وأحبّوه وأكثروا من ذكره، فوجد طالوتُ من ذلك فى نفسه وحسَده وأراد قتله .

قال وهب بن مُنبِّه : وكانت الملوك يومئذ يتوكّأون على عِصِىٍّ فيغرِزون فى أطرافها أزِجة من حديد ، وكان بيد طالوت منهما واحدةٌ، فى رأسها رمّانة من ذهب وفى أسفلها زُجٌّ من حديد، وداود جالس قريبا منه فى ناحية البيت، فرماه بها بغتة ليقتله بها ، فلمّا أحسّ داود بذلك حاد عن طريقها ، وأمال نفسه عنها من غير أن يبرح من موضعه ، فارتكزتْ فى الجدار، فقال له داود : عمدتَ إلى قتلى؟ قال طالوت : لا ، ولكن أردتُ أن أقف على ثباتك فى الطِّعان وربْط جأشك للاقران . قال داود : فألفيتَه على ما قدّرتَه فىّ ؟ قال: نعم، ولعلك فزِعت . قال : معاذ الله أن أخاف إلا اللهَ تعالى وأرجوَ إلا الله ، ولا يدفع الشرَّ إلا الله . فانتزعها من الجدار ثم هزّها هزّة منكرة وقال له : أثبتْ كما ثبتُّ لك ، فأيقن طالوتُ بالهلاك ؛ فقال له : أنشُدُك اللهَ والحُرمةَ التى بينى و بينك إلا ما صفحتَ ؛ فقال داود: إن الله تعالى كتب فى التوراة أن اجز السيئة مثلَها ، واحدةً بواحدة والبادى أظلم؛ فقال طالوت: ألا تقول قول هابيل لأخيه قابيل: ﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾[(٢)] . قال داود: قد عفوتُ عنك لوجه الله تعالى .

---

(١) هذه عبارة الثعلبى فى النسخة المطبوعة . وفى الأصلين : «وجئتنى بغلفهم زوّجتك ابنتى ، فأتاهم داود وجعل كلما قتل منهم نظم غلفته فى خيط حتى نظم غلفهم» والغلف جمع أغلف ، والأغلف : الذى لم يختن .

(٢) سورة المائدة آية ٢٨

فلبِث طالوتُ زمنا يريد قتلَ داود، فعزم على أن يأتيه و يغتاله فى داره، فأخبر بذلك بنتَ طالوتَ رجلٌ يقال له : ذو العينين، فقالت لداود . إنك مقتولٌ الليلة؛ قال : ومَن يقتلنى ؟ قالت : أبى ، وأخبرته الخبر وقالت : لا عليك أن تغيب الليلةَ حتى تنظر مِصْداقَ ذلك . فأخذ داودُ زِقَّ خمرٍ فوضعَه فى مَضْجَعه على السرير وسَجّاه ودخل تحت السرير ودخل طالوتُ نصفَ الليل، فعمد إليه فضربه ضربةً بالسيف فسالتِ الخمرُ، فلمّا وَجَد ريحها قال : رحم الله داود، ما كان أكثرَ شربه للخمر ، وخرج ، فلمّا أصبح علم أنه لم يصنع شيئا، فقال : إنّ رجلا طلبتُ منه ما طلبتُ لخليق ألّا يَدَعنى حتى يطلب منى ثأرَه ؛ فاشتدّ حُجّابه وحُرّاسُه وأغلق دونه الأبوابَ ، فأتاه داود ليلةً وقد هدأتِ العيونُ وأَعْمَى الله الحُجّاب عنه وفتح له الأبواب ، ودخل عليه وهو نائم على فراشه فوضع سَهما عند رأسه وسهما عند رجليه وسهما عن يمينه وسهما عن شماله ثم خرج. فلمّا استيقظ طالوت بَصُر بالسهام فعرفها، فقال : رحم الله داود فهو خير منّى، ظفرتُ به فقصدتُ قتلَه ، وظفر بى فكفّ عنّى، لو شاء لوَضَع هذا السهمَ فى حلقى وما أنا بالذى آمَنُه . فلمّا كانت الليلةُ القابلة أتاه ثانيا، وأعمى الله الحُجّاب، فدخل وهو نائم، فأخذ إبريقَ طالوتَ الذى كان يتوضأ به وكوزَه الذى يشرب منه، وقطع شَعَرات من لحيته وشيئا من هُدْب ثيابه، ثم خرج وهرب وتَوارَى ؛ فلمّا أصبح ورأى ذلك نَصب على داود العيونَ وطلبه أشدَّ الطلب فلم يقدر عليه ، ثم رَكِبَ طالوتُ يوما فوجد داود يمشى فى البرّيّة فقال . اليوم أقتلُ داود ، وكان داودُ إذا فزِع لم يُدرَك ، فركَض داود حتى دخل غارا ، فأمر الله العنكبوتَ أن تَنْسِج ، فنَسَجت عليه بيتا ، وجاء طالوتُ إلى الغار فنظر الى بيتِ العنكبوت فقال : لو كان هاهنا لخَرَق بيتَ العنكبوت، فتركه ومضى، وانطلق داود إلى الجبل ومعه المتعبّدون، فجعل يتعبّد فيه.

وطَعن العلماءُ والعبّادُ على طالوتَ فى شأن داود، فجعل طالوت لا ينهاه أحد عن داود إلّا قتله . وأغرِىَ بقتل العلماء، فلم يكن يقــدر فى بنى إسرائيل على عالم [ويُطيق قتله إلّا قتله] (١) ولم يكن طالوت يحارب جيشا إلّا هزمه، حتى أُتِىَ بآمرأة تعلم آسم الله الأعظم، فأمر جبّاره بقتلها ، فرحمها الجبّار وقال : لعلّنا نحتاج إلى عالم فتركها .

ثم وقع فى قلب طالوت التوبةُ، وندم على ما فعل، وأقبل على البكاء حتى رحمه الناس ، وكان كلَّ ليـلة يخرج إلى القبور ويبكى وينادى : أَنْشُد اللهَ عبدا يعلم لى التوبةَ إلّا أخبرنى . فلمّـا كَثُر عليهم [بكاؤه] (١) ناداه منادٍ من قبر : يا طالوت، أما ترضَى [أنك] (١) قتلتنا حتى تؤذينَـا أمواتا ، فازداد بكاءً وحزنا ، فقال له الجبّار : مالك أيها الملك ؟ قال : هل تعلم لى فى الأرض عالمـا أسأله ؟ هل لى من توبة؟ قال الجبّار : هل تدرى ما مَثَلُك ؟ إنمـا مَثَلُك مَثَلُ ملِكٍ نزل قريةً عِشَاءً، فصاح ديك فتطيّر به ، فقال : لا تتركوا فى هــذه القرية ديكا إلّا ذبحتموه . فلمّـا أراد أن ينـام قال لأصحابه : إذا صاح الدّيك فأيقظونا حتى ندّلج . فقـالوا له : وهل تركتَ ديكا يُسمَع صـوته ؟ وأنت هل تركتَ فى الأرض عالمـا ؟! فآزداد طالوتُ حُزنا وبكاء، فلمّـا رأى الجبّار ذلك قال له : أرأيتَك إن دللتُـك على عالم لعلّك أن تقتله ؟ قال لا . فتوثّق منه الجبّار وأخبره أنّ المرأة العالمةَ عنده ؛ قال : فآنطلِق بى إليها حتى أسألهـا هل لى من توبة ؟ — وكان إنمـا يعلم ذلك أهـلُ بيت لهم علمٌ بالآسم الأعظم — (٢) فلمّا بلغ طالوتُ البابَ قال له الجبّار : إنها إن رأتك فزِعتْ ، فخلّفه خَلْفَه، ثم دخل عليها فقال لها : ألستُ أعظمَ عليكِ حُرمة ، أنجيتُكِ من القتـل وآويتُكِ عنـدى ؟ قالت بلى . قال : فإنّ لى إليكِ حاجة . قالت :

(١) التكملة من قصص الأنبياء للثعلبى .

(٢) عبارة الثعلبى : « وكانت تعـلم الآسم الأعظم، وكان إنمـا يعلم بهذا الآسم أهل بيت لها فنيت رجالهم وعلمت نساؤهم » .

وما هى ؟ قال: هذا طالوت يسأل هل له من توبة ؟ فقالت: لا وآلله ما لطالوت من توبة ، ولكن هل تعلمون مكانَ قبرِ أشمويل ؟ قال نعم . قالت : فآنطلقوا بى إلى قبره ، ففعلوا، فصلّت ثم نادت : يا صاحب القبر أُخرج . فخرج أشمويل من قبره ينفُض رأسه من التراب. فلمّا نظر إليهم ثلاثتهم . المرأة والجبّار وطالوت قال : مالكم ! أقامت القيامة؟ قالت: لا، ولكنّ طالوت يسألكَ هل له من توبة؟ قال أشمويل : ياطالوت، ما فعلتَ بعدى؟ قال: لم أَدَع من الشرّ شيئا إلّا فعلتُه، وقد جئت أطلب التوبة . قال : كم لك من الولد ؟ قال : عشرةُ رجالٍ . قال : ما أعلم لك من توبة إلّا أن تتخلّى عن مالك وتخرجَ أنت وولدُك فى سبيل الله ، ثم تُقدّم ولدَك حتى يُقتَلوا بين يديك ، ثم تُقاتِلَ أنت حتى تُقتَلَ آخرهم . ثم رجع أشمويل إلى القبر وسقط ميّتا ، ورجع طالوت أحزَنَ ما كان ، رهبةَ ألّا يتابعه أولادُه ، وقد بكى حتى سقطت أشفارُ عينيه ، ونحَل جسمُه . فدخل عليه أولاده فقال لهم : أرأيتم لو دُفعتُ إلى النار هل كنتم تنقذوننى ؟ قالوا : بلى، ننقذك بما قدَرنا عليه . قال : فإنها النار إن لم تفعلوا ما أقول . قالوا : فآعرِضْ علينا ، فذكَر لهم القصة . قالوا : فإنك لمقتول؟ ! قال نعم . قالوا : فلا خير لنا فى الحياة بعدك ، قد طابت أنفسُنا بالذى سألتَ . فتجهّز للغزو بماله وولده ، فتقدّم ولدُه فقاتلوا بين يديه حتى قُتلوا ، ثم تقدّم فقاتلَ بعدهم حتى قُتل. فجاء قاتله إلى داود يبشّره وقال : قد قتلتُ عدوّك . فقال داود : ما أنت بالذى تحيا بعده . فضرب عنقَه .

وحكى الكسائىّ: أنّ طالوت لمّا حسد داود على ما أُوتى من القوّة، وهمّ بالغدر مرارا فلم يَظْفَر به وظفر به داود فأبقَى عليه، آعتذر له طالوت وآتفقا، ثم مات أشمويل، فانضمّ بنو إسرائيل إلى داود وآختلفوا على طالوت وحاربوه، فآستقلّ داود بالمُلك، وجاهدَ بنى إسرائيل وقهر الأعداء . والله تعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

ذكر خلافة داود عليه السلام ونبوّته ومبعثه إلى بنى اسرائيل وما خصه الله عز وجل به

هو داود بن إيشى[١] بن عويل بن باعد بن سلمون بن يحسون بن عمى بن مارب ابن أَرَم بن حَصْرُون بن فارص بن يَهُوذَا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل — عليهم السلام — قال الله تعالى : ﴿ يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ﴾[٢] قال الكسائىّ : لمّا مات أشمويل تفرّق بنو إسرائيل وآشتغلوا باللهو، فبعث الله تعالى داود — عليه السلام — وأعطاه سبعين سطرا من الزّبور، وأعطاه حُسن الصوت، فكان إذا سبّح سبّحت الجبال معه والطير والوحش؛ قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ۝ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾[٣] أى مطيع.

وقال أبو إسحاق الثعلبىّ : قالت العلماء بأخبار الأنبياء : لمّا آستُشهِد طالوت أتى بنو إسرائيل إلى داود فأعطَوْه خزانة طالوت وملّكوه على أنفسهم، وذلك بعد قتل جالوت بسبع سنين، ولم يجتمع بنو إسرائيل بعد يُوشَع بن نُون على ملِكٍ واحدٍ إلّا على داود عليه السلام.

قال : وخصّ آلله تعالى نبيّه داود بخصائص :

منها : أنه أنزل عليه الزّبور بالعبرانية خمسين ومائة سورة ، فى خمسين منها ما يكون من بُخْتَنَصر وأهلِ بابِل؛ وفى خمسين ما يكون من أهل إِبْرُون ؛

---

(١) كذا فى الأصول وتاريخ الطبرى (ص ٥٦١ من القسم الأوّل) والجامع لأحكام القرآن للقرطبى (ج ٣ ص ٢٥٧) وذكر أنه بكسر الهمزه . وفى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٤٧٢) : «يسى» بفتح الياء والسين المشدّدة . وقد ورد نسب داود — عليه السلام — فى الكتاب المقدّس (ج ٣ ص ٢) هكذا : «داود بن يسى بن عوبيد بن بوعز بن سلمون بن نحشون بن عميناداب بن أرام بن حصرون ابن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليه السلام» . وورد نسبه فى تاريخ الطبرى (ص ٥٥٩ من القسم الأول) هكذا : داود بن إيشى بن عوبد بن باعز بن سلمون بن نحشون بن عمى ناذب ابن رام بن حصرون بن نارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن ابراهيم» .

(٢) سورة ص آية ٢٦ (٣) سورة ص آيتى ١٨، ١٩

وفى خمسين منها موعظة وحكمة ؛ ولم يكن فيها حلال ولا حرام ، ولا حدود ولا أحكام ؛ وذلك قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾[1] .

ومنها : الصوت الطيّب، والنغمة اللذيذة ، والترجيع فى الألحان؛ ولم يُعْط الله تعالى أحدا من خلقه مثلَ صوته، فكان يقرأ الزّبور بسبعين لحنا بحيث يعرق المحموم ويُفيق المَغْشيّ عليه .

١٢٧/١١ وكان إذا قرأ الزبور برز إلى البرّية، فيقوم ويقرأ ويقوم معه علماء بنى إسرائيل خلفه ، ويقوم الناس خلفَ العلماء ، وتقوم الجنّ خلفَ الناس، وتقوم الشياطين خلف الجنّ ، وتدنو الوحوش والسباع حتى تؤخذ بأعناقها، وتُظلّه الطيرُ مُصيخة[2] ، ويركد الماء الجارى ويسكن الريح .

قال الثعلبى : وما صُنعت المزامير والبرابط[3] والصُّنوج إلّا على صوته ، وذلك أنّ إبليس حسده واشتدّ عليه أمره، فقال لعفاريته : ترون ما دهاكم؟ فقالوا : مُرنا بما شئتَ . قال : فإنه لا يصرف الناس عن داود إلّا ما يُضادّه ويُحاذه[4] فى مثل حاله . فهيّأ المزامير والأعواد والأوتار والملاهى على أجناس أصوات داود — عليه السلام — فسمعها سفهاء الناس فمالوا إليها واغترّوا بها .

ومنها : تسبيح الجبال والطير معه ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾[5]. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾[6] . يقال: إن داود كان اذا تخلّل الجبالَ يسبّح اللهَ تعالى جعلت الجبالُ

---

(١) سورة النساء آية ١٦٣ (٢) كذا فى قصص الأنبياء للثعلبى المخطوطة . ومصيخة أى مصغية مستمعة . وفى الأصل : « مسبحة » وهو تحريف .

(٣) البرابط : الميدان . (٤) يحاذه : يحاديه .

(٥) سورة سبأ آية ١٠ (٦) سورة ص آية ١٨

تجاوبه بالتسبيح نحوَ ما يسبّح . ثم قال فى نفسه ليلةً من الليالى : لأعبُدنّ الله عبادةً لم يُعْبَد مثلَها ، فصعِد الجبلَ ، فلمّا كان فى جوف الليل وهو على جبل داخلتْه وَحْشة ، فأوحى الله إلى الجبال : أن آنِسِى داود ، فآصطكّت الجبالُ بالتسبيح والتهليل . فقال داود فى نفسه : كيف يُسمع صوتى مع هذه الأصوات ؟ فهبَط عليه ملَك وأخذ بعَضُده حتى انتهى به إلى البحر، فوكَزَه برجله فانفرج له البحر، فانتهى إلى الأرض فوكزها برجله فانفرجت له الأرض ، حتى انتهى إلى الحوت فوكزه برجله ، فانتهى الى الصخرة ، فوكز الصخرة برجله ، فانفلقت فخرجت منها دودة تَنِش(١) ، فقال : إن الله تعالى يسمع نَشِيش هذه الدودة فى هذا الموضع . قال آبن عباس — رضى الله عنهما — : كان داود يفهم تسبيح الحجر والشجر والمدر .

ومنها : أن الله تعالى أكرمه بالحكمة وفصل الخطاب . قالوا : والحكمة : الإصابة فى الأمور . واختلفوا فى فصل الخطاب، قال ابن عباس — رضى الله عنهما — : بيان الكلام . وقال ابن مسعود والحسن : المعنى علمُ الحُكْمِ والنظرُ فى القضاء، كان لا يَتتعتَع(٢) فى القضاء بين الناس . وقال علىّ بن أبى طالب — رضى الله عنه — : هو البيِّنة على المدّعِى وآليمينُ على المدّعَى عليه . وقال كعب : الشهود والأيمان . وقال الشعبىّ : سمعتُ زيادا يقول : فصل الخطاب الذى أُعطِىَ داودَ : أمّا بعد . قال الأستاذ : وهو أوّل من قالها .

ومنها : السلسلة التى أعطاه الله إيّاها، ليَعرِف المُحِقَّ من المبطل و المحاكَمة إليه . قال الثعلبىّ : روى الضحّاك عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : إنّ الله تعالى أعطى داود سلسلة موصولة بالمجرّة والفلك، ورأسها عند محراب داود

(١) تنش : تصوّت .

(٢) يتتعتع : يتردّد .

حيث يُتحاكَم إليه، وكانت قوّتُها قوّةَ الحديد، ولَوْنُها لونَ النار، وحَلَقُها مستديرة، مفصَّلةٌ بالجوهر، مدسّرة بقُضبان اللؤلؤ الرَّطْب، فلا يحدث فى الهواء حَدَث إلّا صلصلت السلسلةُ، فيعلم داود ذلك الحَدَث؛ ولا يلمَسها ذو عاهة إلّا برِىءَ، وكان علامة دخول قومه فى الدّين أن يمسّوها بأيديهم ويمسحوا بأكفّهم على صدورهم. وكانوا يتحاكمون إليه، فمن تعدّى على صاحبه أو أنكره حقا أتَوْا السلسلة، فمن كان صادقا مُحقّا مدّ يده إلى السلسلة فنالها، ومن كان كاذبا ظالما لم ينلها؛ فكانت كذلك إلى أن ظهر فيهم المكر والخديعة.

قال: فبلَغنا أن بعض ملوكهم أودعَ رجلا جوهرةً ثمينة، فلمّا آستردّها منه أنكره ذلك، فتحاكما إلى السلسلة، فعلم الذى كانت عنده الجوهرة أن يده لا تَنال السلسلة، فعمَد إلى عُكّازة فنقَرها ثم ضمّنها الجوهرة وآعتمد عليها حتى حضر معه غريمه عند السلسلة(١)، فقال لصاحبها: ما أعرف لك من وديعة، إن كنتَ صادقا فتناوَل السلسلة، فتناولها بيده وقال للنكر: قم أنت أيضا فتناوَلْها، فقال لصاحب الجوهرة: إلزمْ عُكّازتى هذه حتى أتناول السلسلة. فأخذها وقام الرجل وقال:
١٢٨/١١ اللهم إن كنت تعلم أنّ هذه الوديعة التى يدّعيها علىّ قد وصلتْ إليه فقرِّب منّى السلسلة. فمدّ يده وتناولها، فشكّ القومُ وتعجّبوا، فأصبحوا وقد رفع الله تلك السلسلة.

وقال الكسائىّ فى خبر السلسلة: أوحى الله تعالى إلى داود أن ينصب سلسلةً من حديد ويعلّق فيها جرسا، ففعل ذلك؛ وساق فى خبرها نحو ما تقدّم فى أمر المُحقّ والمُبطل.

---

(١) كذا فى الثعلبى. وفى الأصول: «حتى حضروا الى السلسلة».

قال : وجاء خصمان فادّعى أحدهما على الآخر أنه أودعه جوهرا؛ فاعترف به وقال : أعدته إليه ، فتقدم المدّعي وتناول السلسلة فدنت منه حتى تناولها ، ثم قال للمدّعى عليه : تناولها . وكان قد أخذ الوديعة فجعلها فى قناة مجوفة ، فناولها للمدّعي وقال : الزم عصاىَ هذه ، ومدّ يده إلى السلسلة فدنت منه حتى كاد يتناولها ؛ ثم آرتفعت وتدلّت إليه مرارا ، ثم تناولها ، فقال داود للمدّعي : لعلّ هذا قد سلّم وديعتك لأهلك . فرجع وسأل أهله ، فقالوا : مادفع إلينا شيئا . فعاد وأعلم داود ، فأخذ داود القناة وشقها ، فطلعت الوديعةُ منها ؛ وآرتفعت السلسلةُ من ذلك اليوم.

قال الثعلبي : وكان عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — إذا آشتبه عليه أمر الخصمين قال : ما أحوجكما إلى سلسلة بنى إسرائيل؟ كانت تأخذ بعنق الظالم فتجره إلى الحق جرّا . والله أعلم بالصواب .

ومنها : القوة فى العبادة وشدّة الاجتهاد؛ قال الله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ ﴾[1]، أي القوة فى العبادة ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أى توّاب مطيع مسبّح .

وكان داود يقوم الليل، ويصوم يوما ويُفطر يوما، وما مرّت ساعةٌ من الليل إلّا وفيها من آل داود قائم يصلّى، ولا يومٌ من الأيام إلّا وفيه منهم صائم .

ومنها : قوة المملكة . قال الله تعالى : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾[2] أى قوّيناه ، وقرأ الحسن : (وَشَدَّدْنَا مُلْكَهُ) بالتشديد . قال آبن عباس : كان أشدّ ملوك الأرض سلطانا ، كان يحرس محرابَه كلّ ليلة ثلاثةٌ وثلاثون ألف رجل . وقال السُّدّى : كان يحرسه فى كل يوم وليلة أربعةُ آلاف .

---

(١) سورة ص آية ١٧
(٢) سورة ص آية ٢٠

وروى عن ابن عباس — رضي الله عنهما — أن رجلا من بنى إسرائيل آستعدى على رجل من عظمائهم عند داود؛ فقال المستعدى: إن هذا قد غصبنى بقرى (١). فسأل داودُ الرجلَ بجحده، وسأل الآخرَ البيّنة فلم تكن له بيّنة، فقال لهما داود: قوما حتى أنظرَ فى أمركما. فقاما من عنده، فأوحى اللهُ تعالى إلى داود فى منامه أن يقتل الذى آستُعدِى عليه، فقال: هذه رؤيا [ولستُ أعجل حتى أتبيّن] (٢) فأوحى الله تعالى إليه مرة ثانية أن يقتله [فقال: هذه رؤيا، فأوحى الله تعالى إليه مرة ثالثة أن يقتله] (٢) أو تأتيه العقوبة من الله. فأرسل داود إلى الرجل فقال: إن الله تعالى قد أوحى إلىّ أن أقتلك. فقال: تقتلنى بغير بيّنة ولا تثبُّت؟. فقال نعم، والله لأُنفّذنّ أمرَ الله فيك. فلمّا عرف الرجل أنه قاتلُه قال: لا تَعْجَل حتى أخبرَك. إنّى والله ما أُخِذتُ بهذا الذنب، ولكنّى [كنتُ] (٢) اغتلتُ والدَ (٣) هذا فقتلتُه. فأمر به داودُ فقتل؛ فآشتدّت هيبتُه عند بنى إسرائيل وآشتدّ ملكه.

ويقال: كان لداود إذا جلس للحكم عن يمينه ألف رجل من الأنبياء، وعن يساره ألفُ رجل من الأحبار.

ومنها: شدّة البطش. فرُوِىَ أنه ما فرّ ولا آنحاز من عدوّ له قطّ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح عن داود عليه السلام: "كان يصوم يوما ويُفطِر يوما" (٤).

---

(١) فى نسخة الثعلبى المخطوطة والمطبوعة: «بقرى».

(٢) التكلة عن الثعلبى.

(٣) فى نسخة الثعلبى المطبوعة: «ولد».

(٤) هذا الحديث ورد فى الأصلين فى هذا الموضع ولا محل له فى الكلام هنا، وقد خلت منه نسختا الثعلبى المخطوطة والمطبوعة، وكان الأولى أن يذكره أثناء كلامه على داود فى قوة العبادة وشدة الاجتهاد.

ومنها : إلانةُ الحديد له . قال الله تعالى :﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾[1] . قالوا : وكان سبب ذلك أنّ داود — عليه السلام — لمّا ملك أمر بني إسرائيل، كان من عادته أن يخرج للناس متنكّرا، فإذا رأى رجلا لا يعرفه تقدّم إليه وسأله ، فيقول له : ما تقول في داود واليكم هذا؟ أيّ رجل هو ؟ فيثْنون عليه ويقولون خيرا؛ فبينما هو ذاتَ يوم إذ قيّض الله له مَلَكا في صورة آدميّ، فتقدّم داود إليه ، فسأله على عادته ، فقال له : نِعْمَ الرجلُ هو لولا خَصْلة فيه . فراع داودَ ذلك ، فقال : ماهي ياعبدَ الله ؟ قال : إنه يأكل ويُطعِم عيالَه من بيت المال . قال : فتنبّه داود لذلك ، وسأل اللهَ تعالى أن يسبّب له سببا يستغني به عن بيت المال، فألانَ الله له الحديد، فصار في يده مثلَ الشَّمْع والعجين والطِّين المبلول، فكان يصرفه بيده كيف شاء من غير إدخال نار ولا ضربٍ بحديد .

وعلّمه الله تعالى صنعةَ الدروع فهو أوّل من اتّخذها وكانت قبل ذلك صفائح. وقيل : إنه كان يبيع كل دِرْع منها بأربعة آلاف ، فيأكل ويُطعِم عياله ويتصدّق منها على الفقراء والمساكين، وذلك قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ ﴾[2] الآية . وقوله : ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ ﴾ أي دروعا كواملَ واسعات ﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾، أي لا تجعل المسامير دقاقا فتنفلق، ولا غِلاظا فتكْسِر الحَلَق. فكان يفعل ذلك حتى جَمع منه مالا .

وروى أنّ لقمان الحكيمَ رأى داود وهو يعمل الدُّروع ، فعجب من ذلك ولم يدر ما هو ؟ فأراد أن يسأله ، فسكت حتى فَرَغ داود من نسج الدروع، فقام وصبّها على نفسه وقال : نِعم القميصُ هذا للرجل المحارب . فعلم لقمانُ ما يراد به، فقال : الصمتُ حكمة وقليلٌ فاعلهُ . والله أعلم .

(١) سورة سبأ آية ١٠
(٢) سورة الأنبياء آية ٨٠

ذكر خبر داود عليه السلام حين ٱبتُلى بالخَطيئة

قال الثعلبيّ — رحمه الله — : اختلف العلماء فى سبب ٱمتحان الله تعالى نبيّه داود — عليه السلام — فقيل : إنه تمنّى يوما من الأيام على ربّه تعالى منزلة آبائه إبراهيمَ وإسحاق ويعقوب، وسأله أن يمتحنه نحو الذى كان يمتحنهم به، ويعطيَه من الفضل نحوَ الذى أعطاهم. قال: ورَوَى السُّدّىّ والكلبىّ ومُقاتِل عن أشياخهم دخل حديث بعضهم فى حديث بعض، قالوا : كان داود — عليه السلام — قسّم الدهر ثلاثةَ أيام(١) : يوما يَقضِى فيه بين الناس، ويوما لعبادة ربّه، ويوما يخلو فيه بنسائه وأولاده وأشغاله ؛ وكان يجد فيما يقرأ من الكتب فضلَ إبراهيم وإسحاق ويعقوب — عليهم السلام — فقال : يا ربِّ إنّ الخير كلَّه ذهب به آبائى الذين كانوا من قبلى . فأوحى الله تعالى إليه : أنهم ابتُلُوا ببلايا لم تُبْتَلَ بها فصبَروا عليها ؛ ٱبتُلِىَ إبراهيمُ بالنُّمرود وبذبح ٱبنه، وٱبتُلِىَ إسحاقُ بالذّبح وبذهاب بصره، وٱبتُلِىَ يعقوبُ بالحُزن على يوسف، وإنك لم تُبْتَلَ بشىء من ذلك . فقال داود عليه السلام : ربِّ فٱبتَلِنِى بمثل ما ٱبتليتَهم وأعطنى مثلَ ما أعطيتَهم . فأوحى الله تعالى إليه : إنك مُبتَلًى فى شهر كذا فى يوم كذا فٱحترِس . فلمّا كان ذلك اليوم الذى وعده الله عز وجل دخل داود محرابَه وأغلقَ بابه، وجعل يصلّى ويقرأ الزبور ، فبينا هو كذلك إذ جاءه الشيطان، تمثّل له فى صورة حمامةٍ من ذهب، فيها من كل لونٍ حَسَن؛ فوقعت بين رجليه ، فمدّ يدّه ليأخذها . وفى بعض الروايات : « ليدفعها إلى ٱبن له صغير » ، فلمّا أهوى إليها طارت غير بعيد من غير أن تؤيسه من نفسها ؛ فامتدّ إليها ليأخذها، فتنحّت، فتبعها فطارت حتى وقعت [فى كُوّة](٢)، فذهب ليأخذها

(١) كذا فى الثعلبى . وفى الأصلين : « أقسام » .

(٢) التكملة عن الثعلبى .

فطارت من الكُوّة ، فنظر داود عليه السلام أين تقع فيبعثُ إليها من يصيدها ؛ فأبصر آمرأةً فى بستان على شطّ بركةٍ لها تغتسل، هذا قول الكلبيّ. وقال السُّدّىّ: رآها تغتسل على سطح لها . وقال الكسائىّ : سقط الطائر على شجرة إلى جانب الحوض الذى تغتسل فيه نساءُ بنى إسرائيل . قالوا : فرأى داودُ آمرأةً من أجمل النساء خَلْقاً ، فعجب من حُسنها ، وحانت منها آلتفاتة ، فأبصرت ظِلّه ، فنفضتْ شَعرها فتغطّى بدنُها ، فزاده ذلك إعجابا بها ، فسأل عنها ، فقيل هى بَتْشَابَعُ بنتُ سالغ [(١)] ، آمرأة أُورِيّا بن حُنانا ، وزوجها فى غزاةٍ بالبلقاء [(٢)] بَعْث مع يُوآب [(٣)] ابن صُرُويَة آبن أخت داود ، فكتب داود إلى آبن أخته : أن آبعث أُورِيّا إلى موضع كذا وكذا، وقدِّمه قبلَ التابوت ؛ وكل من قُدِّم على التابوت لا يحلّ له أن يرجع وراءه [حتى يفتح الله على يديه] [(٤)] أو يُستشهَد ، فبعثه أيوب وقدّمه ، ففُتِح له ، فكتب إلى داود بذلك،فكتب إليه أيضا : أن آبعثه إلى عدوّ كذا وكذا، فبعثه، ففُتِح له ؛ فكتب إلى داود بذلك، فكتب إليه أيضا : أن آبعثه إلى عدوّ كذا أشدَّ منه بأسا . فبعثه ؛ فقتِل فى المرّة الثالثة . فلمّا آنقضت عِدّة المرأة تزوّجها داود — عليه السلام — وهى أمّ سليمان عليه السلام .

وقال آخرون : كان سببُ آمتحانه أن نفسَه حدّثته أنه يُطيق قطع يوم بغير مقارفة سوء .

---

(١) كذا فى قصص الأنبياء للثعلبى المخطوطة ؛ وفى المطبوعة « سابغ بنت شائع » . وفى الكتاب المقدس (ج ١ ص ١٥٧) : « بتشابع بنت أليعام » . وفى الأصول : « ميشابع بنت سايع » .

(٢) البلقاء : كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادى القرى . قصبتها عمان .

(٣) كذا فى الكتاب المقدس (ج ١ ص ٥٠٣) . وفى الأصول : « أيوب بن صوريا » . وانظر الحاشية رقم ٣ ص ٧١ من هذا الجزء .

(٤) التكملة عن قصص الأنبياء للثعلبى .

وقد رَوَى الثعلبيّ فى ذلك بسند [سعيد بن](١) مطر عن الحسن قال . إن داود — عليه السلام — جزّأ الدهرَ أربعةَ أجزاء : يوما لنسائه ، و يوما للعبادة ، و يوما للقضاء بين الناس ، و يوما لبنى إسرائيل(٢) يذاكرهم ويذاكرونه ، ويُبْكيهم ويُبكونه . فلمّا كان يوم بنى إسرائيل ذكروا فقالوا : هل يأتى على الإنسان يوم لا يصيب فيه ذنبا ؟ فأضمر داود فى نفسه أنه سيُطيق ذلك . فلمّا كان يومُ عبادته غلّق أبوابه ، وأمر ألّا يدخل عليه أحد ، وأكبَّ على قراءة الزَّبور ؛ فبينما هو يقرأ إذا حمامةٌ من ذهب فيها من كل لونٍ حَسَن وقد وقعت بين يديه ، فأهوَى إليها ليأخذها ، فطارت فوقعت غيرَ بعيد ، ولم تؤيسه من نفسها ، فما زال يتبعها حتى أشرف على ١٣٠/١١
امرأة تغتسل ، فأعجبه خَلْقُها ؛ فلمّا رأت ظِلّه فى الأرض جلّلت نفسَها بشَعرها ، فزاده ذلك إعجابا بها ؛ وكان قد بَعث زوجَها على بعض جيوشه ، فكتب إليه : أن يسِرْ إلى مكان كذا وكذا — مكان إذا سار إليه قُتِل ولم يرجع — ففعل ، فأصيب ، فخطبها داود وتزوّجها .

وقال بعضهم فى سبب ذلك ما رواه أبو إسحاق بسنده عن قَتادة عن الحسن قال : قال داود — عليه السلام — لبنى إسرائيل حين ملك : والله لأعدلنّ بينكم . ولم يستثن ؛ فابْتُلِىَ .

وقال أبو بكر الورّاق : كان سبب ذلك أن داود عليه السلام كان كثير العبادة ، فأعجب بعمله وقال : هل فى الأرض أحدٌ يعمل عملى ؟ فأتاه جبريل عليه السلام فقال : إن الله عز وجل يقول : أُعجِبتَ بعبادتك والعجب

---

(١) التكملة عن الثعلبى .

(٢) كذا فى قصص الأنبياء للثعلبى . وفى الأصل : « بنى إسرائيل » .

يأكل العبادة ، فإن أُعجِبتَ ثانيا وكَلْتُك إلى نفسك . فقال : يا ربّ كِلْني إلى نفسي مسنة . قال : إنها لكثيرة . قال : شهرا . قال : إنه لكثير . قال : فأسبوعا . قال : إنه لكثير . قال : فيوما . قال : إنه لكثير . قال : فساعة . قال : فشأنك بها . فوكّل الأحراس ولَبِس الصوف ودخل المحراب ووضع الزبور بين يديه ، فبينا هو فى نسكه وعبادته إذ وقع الطائر بين يديه ؛ وكان من أمر المرأة ما كان .

قالوا : فلمّا دخل داود عليه السلام بامرأة أُورِيّا لم يلبث إلا يسيرا حتى بعث الله عز وجل مَلَكين فى صورة إنسيّين ، يطلبان أن يدخلا عليه ، فوجداه فى يوم عبادته ، فمنعهما الحرس أن يدخلا عليه ؛ فتسوّرا المحراب عليه ، فما شعر وهو يصلّى إلّا وهما بين يديه جالسان ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ ﴾ (١) أى تجر ﴿ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ * ﴾ (٢) أى وسط الطريق ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ كنى بالنّعاج عن النساء ، والعرب تفعل ذلك . ﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ . قال ابن عباس : أعطنيها . وقال ابن جُبير عنه : تحوّل لى عنها . وقال أبو العالية : ضمّها إلىّ حتى أكفُلَها . وقال ابن كَيْسان : إجْعَلْها كِفْلى ، أى نصيبى . ﴿ وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ (٣) ، أى غلبنى . وقرأ عُبَيد بن عُمَير : وعازّنى ، من المعازّة ، وهى المغالبة . قال داود : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ ﴾

---

(١) سورة ص آية ٢١
(٢) سورة ص آية ٢٢
(٣) سورة ص آية ٢٣

أى الشركاء ﴿لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾(١). وروى السُّدِّىّ أن أحدهما لما قال : ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِى ﴾ الآية، قال داود — عليه السلام — للآخر : ما تقول ؟ قال : إن لى تسعا وتسعين نعجة ولأخى هذا نعجةٌ واحدة، وأنا أريد أن آخذها منه فأكمّل نعاجى مائة وهو كاره . قال داود : وهو كاره ؟ قال نعم . قال : إذًا لا ندعُك وذلك ، وإن رُمْتَ ذلك ضربْنا منك هذا وهذا، يعنى طرَف الأنف وأصلَ الجبهة . فقال: يا داود، أنت أحقُّ أن يُضرَبَ منك هذا وهذا، حيث لك تسع وتسعون آمرأة ولم يكن لأُوريّاء إلا آمرأةٌ واحدة، فلم تزل به تعرّضه للقتل حتى قُتل وتزوّجتَ آمرأته . فنظر داود — عليه السلام — فلم يرَ أحدا، فعرف ما قد وقع فيه ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ ﴾ أى أيقن ﴿ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ أى آبتليناه . قال سعيد بن جُبَير : إنما كانت فتنة داود النظر . قال الثعلبىّ : ولم يتعمد النظرَ إلى المرأة، ولكنه أعاد النظر إليها(٢) فصارت عليه .

قال : فهذه أقاويل السلف من أهل التفسير فى قصة آمتحان الله تعالى داود عليه السلام . وقد رُوِى عن علىّ بن أبى طالب — رضى الله عنه — قال : « من حدّث بحديث داود على ما يرويه القُصّاص معتقدا صحته جلدتُه حدّين لعظيم ما آرتكَب وجليل ما آحتقَب(٣) من الوِزْر والإثم، يَرمى مَنْ قد رفع الله محلّه وأنابه من خلقه رحمةً للعالمين وحجةً للمجتهدين » ! .

وقال القائلون بتنزيه المرسلين فى هذه القصة: إن ذنب داود — عليه السلام — إنما كان أنه تمنّى أن تكون له آمرأةُ أُورِيّاء حلالاً له ، وحدّث نفسه بذلك ، فآتفق

(١) سورة ص آية ٢٤

(٢) وذلك مصداق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تتبع النظرة النظرة فان لك الأولى وعليك الأخيرة » .

(٣) احتقب الشىء : احتمله خلفه ، ويريد هنا اكتسب الإثم .

غَزْو أُورِيّاء وتقدُّمُه فى الحرب وهلاكُه . فلمّا بلغه قتلُه لم يجزَع عليه ولم يتوجّع له كما [كان][1] يجزَع على غيره من جُنده إذا هلك ، [ووافق قتله مُرادَه ، ثم تزوج آمرأته فعاتبه الله على ذلك ؛ لأن ذنوب الأنبياء و إن صغرت][1] فهى عظيمة عند الله تعالى .

وقال بعضهم : ذنب داود أن أُورِيّاء كان قد خطب تلك المرأةَ ووطّن نفسه عليها ، فلما غاب فى غَزاته خطبها داود ، فتزوجت منه لجلالته ؛ فآغتمّ لذلك أُورِيّاء غمّا شديدا ، فعاتبه الله تعالى على ذلك ، حيث لم يترك هذه الواحدة لخاطبها الأول ، وقد كانت عنده تسع وتسعون آمرأة .

قالوا : فلما علم داود أنه آبتُلِىَ سجد فمكث أربعين ليلةً ساجدًا باكيا حتى نبت الزرعُ من دموعه ، وأكلت الأرض من جبينه ، وهو يقول فى سجوده : ربِّ داودَ زل داودُ زَلّةً أبعد مما بين المشرق والمغرب ، ربِّ إن لم ترحم ضَعْفَ داود وتَغفِرْ ذنبَه جعلتَ ذنبَه حديثًا فى الخُلُوف من بعده . فجاء جبريل — عليه السلام — بعد أربعين ليلة فقال : يا داود ، إن الله تعالى قد غَفَر لك الهمّ الذى هَمَمْتَ به . فقال داود : عرفتُ أن الربّ قادر على أن يغفر لى ، وقد عرفتُ أن الله عَدْلٌ لايَميل ، فكيف بفلان إذا جاء يومَ القيامة فقال : يا ربِّ ، دمى الذى عند داود؟ فقال جبريل : ما سألتُ ربك عن ذلك ، ولئن شئتَ لأفعلنّ . قال نعم . فعرَج جبريل — عليه السلام — وسجد داود فمكث ما شاء الله ، ثم نزل جبريل فقال : قد سألتُ ياداود ربّك عن الذى أرسلتَنى فيه فقال : قل لداود : إن الله يجمعكما يوم القيامة ، فيقول له : هَبْ لى دَمَك الذى عند داود ؛ فيقول : هو لك ياربِّ ، فيقول : فإن لك فى الجنة ما شئتَ وما آشتهيتَ عوَضًا .

---

(١) التكملة عن الثعلبى .

ورَوَى الثعلبيّ بسند رفعه إلى ابن عبّاس وكعب الأحبار ووهب بن مُنَبِّه ، قالوا جميعا : إن داود — عليه السلام — لما دخل عليه الملَكان فقضَى على نفسه تحوّلا عن صورتهما ، فعرَجا وهما يقولان : قضَى الرجل على نفسه . وعلِم داود أنه عُنِيَ به ، فخرّ ساجدًا أربعين يوما لا يأكل ولا يشرب ولا يرفع رأسه إلّا لحاجة أو لوقت صلاة مكتوبة ثم يعود ساجدا ، لا يرفع رأسه إلّا لحاجة لا بدّ منها ثم يعود ، فسجد تمامَ أربعين يوما لا يأكل ولا يشرب وهو يبكى حتى نبت العُشْبُ حول رأسه ، وهو ينادى ربه — عز وجل — ويسأله التوبة ويدعو بدعاء طويل ذكره الثعلبيّ (١) ، فى آخر كل كلمة منه : سبحان خالق النور .

قال : فأتاه نداء : يا داود ، أجائع أنت فتُطْعَم ، أظمآنٌ أنت فتُسْقَى ، أمظلوم أنت فتُنْصَر ، ولم يجبه فى ذكر خطيئته بشىء . فصاح صيحةً هاج منها ما حوله ؛ ثم نادى : يارب الذنب الذى أصبتُه . فنُودِىَ : ياداود ، ارفع رأسك فقد غفرتُ لك . فلم يرفع رأسه حتى جاء جبريل — عليه السلام — فرفعه .

قال وَهْبٌ : إن داود — عليه السلام — أتاه نِدَاء : إنّى قد غفرتُ لك قال : يارب ، كيف وأنت لا تظلم أحدا؟ قال : اذْهَبْ إلى قبر أوريّاء ، فناده وأنا أُسمِعه نداءك ، فتحلّلْ منه . فانطلَق حتى أتى قبرَه وقد لبس المُسُوح ، فجلس ثم نادى : يا أُوريّاء . فقال : لبّيك ، مَن هذا الذى قطع علىّ لذّتى وأيقظنى؟ قال : أنا داود . قال : ما جاء بك يانبىَّ الله؟ قال : أسألك أن تجعلنى فى حِلّ مما كان منّى إليك . قال : وما كان منك إلىّ؟ قال : عرّضتُك للقتل . قال : عرّضتنى للجنّة ،

(١) سيأتى فى الصفحة التالية بعض هذا الدعاء .

فأنت فى حلّ . فأوحى الله تعالى إليه : يا داود، ألم تعلم أنى حَكَمٌ عدلٌ لا أقضى بالغيب والتغرير(١) ! ألّا أعلمته أنك قد تزوّجت آمرأته ! .

قال: فرجع إليه فناداه، فأجابه فقال : من هذا الذى قطع علىّ لذّتى؟ قال : أنا داود . قال: يانبىّ الله، أليس قد عفوتُ عنك! قال: نعم، ولكن إنما فعلتُ ذلك لمكان آمرأتك فتزوّجتُها ، فسكت ولم يُجبه، وعاوده فلم يجبه، فقام عند قبره وحثا التراب(٢) على رأسه ثم نادى : الويلُ لداود ثم الويلُ لداود إذا نُصبت الموازين القِسْطُ [ليوم القيامة](٣)، سبحان خالق النور . الويل لداود ثم الويل الطويل له حين يُؤخَذ بذَقَنه فيُدفع إلى المظلوم، سبحان خالق النور . الويل لداود ثم الويل الطويل له حين يُسْحَبُ على وجهه مع الخاطئين إلى النار، سبحان خالق النور . الويل لداود ثم الويل الطويل له حين تقربه الزبانية مع الظالمين إلى النار ، سبحان خالق النور .

قال : فأتاه نداء من السماء : ياداود، قد غفرتُ لك ذنبك، ورَحِمتُ بكاءك، وآستجبتُ دعاءك ، وأقلتُ عثرتك . قال: يارب، كيف لى أن تعفوَ عنّى وصاحبى لم يعفُ عنّى؟ قال : يا داود ، أُعطيه يوم القيامة ما لم ترَعيناه ، ولم تَسمع أذناه ، فأقول له : رَضيتَ عبدى ؟ فيقول : يا ربّ ، من أين لى هذا ولم يبلُغه عملى؟ فأقول له : هذا عِوَض منّ عبدى(٤) داود، فأستوهبُك منه فيَهَبُك لى . قال: يارب، الآن قد عرفتُ أنك قد غفرتَ لى . فذلك قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ(٥) * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ﴾، أى ذلك الذنب ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ(٦) ﴾ أى وإنّ له بعد المغفرة عندنا يومَ القيامة حُسْنَ مرجع .

(١) كذا فى نسخة الثعلبى المخطوطة . وفى المطبوعة : «إلا بالحق» . وفى الأصول : «بالتعنت» .
(٢) كذا فى الثعلبى . وفى الأصول : « ويجعل التراب » .
(٣) التكلة عن نسخة الثعلبى المطبوعة .
(٤) أى من أجل عبدى داود .
(٥) سورة ص آية ٢٤
(٦) سورة ص آية ٢٥

قال الثعلبيّ ورفَعَه إلى وهب بن مُنَبِّه قال : إن داود — عليه السلام — لما تاب اللهُ تعالى عليه بكى على خطيئته ثلاثين سنةً لا تَرْقَأُ له دمعةٌ ليلا ولا نهارا، وكان أصاب الخطيئة وهو ٱبن سبعين سنة ، فقسم الدهرَ بعد الخطيئة على أربعة أيام ، فجعل يوما للقضاء بين بنى إسرائيل، ويوما لنسائه، ويوما يَسِيحُ فى الفيافى والجبال والساحل ، ويوما يخلو فى دار له فيها أربعةُ آلاف محراب ؛ فيجتمع إليه الرُّهبان، فينوح معهم على نفسه ، ويساعدونه على ذلك . فإذا كان يومُ سياحته يخرج فى الفيافى ، فيرفع صوته بالمزامير ، فيبكى وتبكى معه الشجر والرمال والطير والوحوش حتى يَسِيلَ من دموعهم مثلُ الأنهار ؛ ثم يجىء إلى الساحل فيبكى وتبكى معه الحِيتان ودوابُّ البحر والسباعُ وطيرُ الماء، فإذا أمسى رجع، فإذا كان يوم نَوْحه نادَى منادٍ: إن اليوم نوح داود على نفسه فليَحْضُرْ مَن يساعده . قال: فيدخل الدارَ التى فيها المحاريب، فتُبْسَط له فُرُشٌ من مُسوح حَشْوُها ليف فيجلس عليها ، ويجىء الرُّهبان وهم أربعة آلاف ، عليهم البرانس وفى أيديهم العِصِىّ، فيجلسون فى تلك المحاريب ثم يرفع داود صوته بالنَّوح والبكاء، ويرفعُ الرهبانُ معه أصواتَهم، فلا يزال يبكى حتى تَغْرق الفُرُشُ من دموعه، ويقعَ داود مثلَ الفَرْخ يضطرب، فيجىء ٱبنُه سليمانُ فيحمله ، فيأخذ داود من تلك الدموع بكفَّيه ، ثم يمسح بها وجهه ويقول : يارب ٱغفر ما تَرَى . قال: فلو عُدِلَ بكاءُ داودَ ببكاء أهل الدنيا لَعَدَلَه .

وقال ثابت: ماشرب داود شرابا بعد المغفرة إلّا ونصفُه ممزوجٌ بدموع عينيه.

وعن الأوزاعىّ قال : بلغنا أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : "خدت الدموعُ فى وجه داود — عليه السلام — خَديد الماء فى الأرض" .

ذكر ميلاد سليمان بن داود عليهما السلام

قال الكسائى: كان لداود — عليه السلام — عِدّةٌ من الولد، فسأل الله تعالى أن يرزقه ولدًا يرث مُلْكَه، فرزقه الله تعالى سليمان. فنُودِىَ إبليس عند ما حَمَلتْ به أمه: يا ملعون، قد حُمِل فى هذه الليلة برجل يكون طولُ حزنك على يديه، ويكون أولادُك له خُدّاما. ففزِع من ذلك وجمع الشياطين وأخبرَهم بأمر المولود وما سمعه وقال: إنه لا يكون إلّا من داود، فإنه خيرُ أهل الأرض.

قال: فلما وضعتْه أمه أتت الملائكةُ إلى داود وقالوا: أقرّ الله عينَك به. فبادر داود إلى منزله فرأى أعلام الملائكة منصوبةً، فخرّ داود شكرا لله تعالى، وقرّب قُربانا عظيما. ثم جاءه إبليس وقال: يا داود، أقرّ الله عينَك بولدك، غير أنه يقتلك ويَسلُبك مُلْكك، فاقتُله صغيرا وإلّا قتَلك كبيرا، فغضب منه ولعنه، فانصرف وقد خاب أملُه.

قال: ونشأ سليمان، فكان داود إذا تلا الزبور حفظ ما يتلوه لوقته، وحفظ التوراة، وكان يحكم بحضرة أبيه.

ذكر خبر أَبْشالوم بن داود

قال الكسائى: كان من خبر «أَبْشَالوم»[1] أنه لما كان من أمر فتنة داود — عليه السلام — ما قدّمناه، تكلّم بعضُ بنى إسرائيل فى ذلك وجاءوا إلى «أبشالوم» وهو ابن بنت طالوت، وقالوا: إن أباك قد كَبِر وعَجَز عن سياستنا، وقد وقع

(١) كذا فى الكتاب المقدس (ج١ ص٥٠٥). وفى تاريخ الطبرى (ص٥٧٠ من القسم الأوّل) «أبشا» وفى قصص الأنبياء للثعلبى: «شالون» وقيل «إيشا». وفى قصص الأنبياء للكسائى: «انشالوم». وفى الأصل: «إيشالوم».

فى هذه الخطيئة ، وأنت أكبرُ أولاده ، والرأى أن ندعوَ الناس إليك وتقومَ مقامَه ، فتبِع رأيَهم وتولّى المُلْك . فخاف داود على نفسه من سفهاء بنى إسرائيل ، ففارق منزلَه واعتزل القوم برجالٍ من أصحابه . ثم جاء رجل من بنى إسرائيل اسمه أُحيتوفل[1] إلى أَبْشالُوم وقال : إنه لا يستقيم أمرُك إلّا بعد وفاة أبيك ، والرأى أن تُعاجِله وتقتلَه ما دام فى الخطيئة ، فهمّ بذلك ثم صرفه الله عنه . فلما غفر الله تعالى لداود ورجع إلى قومه اعتزل ابنُـه « أَبْشالوم » فى طائفة من بنى إسرائيل . فلمّا وُلِد سليمان أرسل داودُ ابنَ أختٍ[2] له يقال له : « يُوآب[3] » إلى ابنه « أبشالوم » وقال : مِرْ إليه فإنه اعتزلنى خوفا على نفسه ، وما كنتُ بالذى أقتل ولدى وقد تاب الله تعالى علىّ ورزقنى هذا الولدَ المبارَك ، فإن ظَفِرتَ به فأْتنى به مكرَّما ، وإيّاك أن تقتله ، فإنك إن قتلتَه قتلتُك به . فسار إليه فى نفر من أصحابه ، فالتقَوْا واقتتلوا قتالا شديدا ، فانهزم أبشالوم ومن معه . فبينا هو فى هزيمته إذ مرّ بشجرة فعلِق برنُسُه بها ، وخرج الفرس من تحتـه ، فأدركه يوآب فحمله الحَرَج[4] على قتله فقتله وتركه معلّقا فى الشجرة ، ورجع إلى داودَ فأخبره الخبر ، فغضب وقال : إنى قاتلُك به لا محالة عاجلا أو آجلا .

قال الثعلبىّ : فلما حضرتْ داودَ الوفاةُ أمر سليمان أن يقتله ، فقتله بعد فراغه من دفن أبيه .

---

(١) كذا فى الكتاب المقدس (ج ١ ص ٥٣٠) . وفى الأصول : « نوفل » .

(٢) كذا فى الأصول والكتاب المقدس (ج ١ ص ٥٠٤) . وفى الثعلبى : « ابن أخ » وهو خطأ .

(٣) ورد هذا الاسم فى الأصول وقصص الأنبياء للكسائى هكذا : « نوال » . وفى قصص الأنبياء للثعلبى المطبوعة : « نواب » . والتصويب عن الكتاب المقدس (ج ١ ص ٥٢٥) والنسخة المخطوطة من قصص الأنبياء للثعلبى . وهو « يوآب بن صروية » .

(٤) الحرج : الضيق .

ذكر خبر الزرع الذى رعته الغنم وما حكم فيه سليمان عليه السلام

قال الكسائىّ : وبينا داود — عليه السلام — فى يوم قضائه وسليمانُ بين ١٣٣/١١
يديه، إذ تقدّم إليه قوم فقالوا : يا نبىّ الله ، إنّا قوم حرثنا أرضا لنا وزرعناها وسقيناها حتى بلغت الحصَاد، فجاء هؤلاء وأرسلوا أغنامهم فيها بالليل، فرعتْها جميعا حتّى لم يبق منها شىء . فقال داود لأصحاب الغنم : ما تقولون؟ قالوا : صدقوا . فقال لأصحاب الزرع : كم قيمةُ زرعكم؟ قالوا : كذا وكذا . وقال لأرباب الغنم : كم قيمة أغنامكم؟ فذكروا قيمتها، فتقاربت القيمّ، فقال : ادفعوا أغنامكم إليهم بقيمة زرعهم. فقال سليمان : يا أبت إن أذِنتَ لى تكلّمتُ . قال: يابُنَىّ تكلم بما عندك. فقال سليمان لأرباب الغنم : ادفعوا أغنامكم إلى هؤلاء ينتفعوا بأصوافها وألبانها ونتاجِها ، وخذوا أنتم أرضَهم فآحرُثوها وآزرعوها وآسقوها حتى يقومَ الزرعُ على سُوقه، فإذا بلغ الحَصادَ فسلّموا إليهم أرضهم بزرعها وخذوا أغنامكم ، فرضُوا جميعا بذلك . قال الله تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾[1] .

قال : ولما نظر مشايخ بنى إسرائيل إلى جلوس سليمان عن يمين أبيه مع صغر سنّه حسدوه على ذلك. فأوحى الله إلى داود أن يقيم سليمان خطيبا ليُسمِعهم من الحكمة ما أَلهمه الله ليعلموا فضلَه عليهم. فجمع داودُ الناسَ حتى العُبّاد والرُّهبانَ وأهلَ السياحة إلى محرابه، وكانت سِنُّ سليمان يومئذ آثنتى عشرةَ سنة، فأخرجه داود إليهم وألبسه لباسَ النبيّين من الصوف الأبيض وقال : هذا آبنى قد أخرجتُه إليكم خطيبا ليُورِد عليكم مما علّمه الله تعالى . فجلس على منبر أبيه وحمد الله تعالى ووحّده، ووصف عجائب خَلْقه وصُنْعه ؛ فسجدوا شكرا لله، ونظروا إليه بعد ذلك

(١) سورة الأنبياء آية ٧٩ .

بالعين الرفيعة وأجلُّوه، وأعطى سليمانُ فى حياة أبيه من العلم ما فَسّر لبنى إسرائيل خطبةَ آدم ووصيةَ شيثٍ ورفعَ إدريسَ وغيرَ ذلك .

ذكر خبر الذين ٱعتدَوْا فى السبت

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾(١) . وقال تعالى : ﴿ وَٱسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ ﴾(٢) الآية .

قال الكسائىّ : وكان فى زمن داود — عليه السلام — قومٌ من بنى إسرائيل من أبناء الذين كانوا مع موسى؛ وكانوا ينزلون على ساحل البحر بقرية يقال لها : «أيْلة»(٣) وكان الله قد حرّم على بنى إسرائيل أن يشتغلوا يوم السبت، وأوجبَ عليهم فيه العبادة ؛ لأنّ موسى — عليه السلام — أمرهم بالعبادة يومَ الجمعة فأبَوْا وقالوا : لا ينبغى لنا أن نشتغل بعبادة الرب إلا فى اليوم الذى فرَغ فيه من الخلق، وهو يوم السبت . فلمّا ٱختاروه شدّد الله عليهم فيه ؛ قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾(٤) . وكان موسى يأمر قومه بتعظيمه؛ فكانوا كذلك مدّة ، وكان على ساحل البحر إلى جانب أيْلة حَجَران أبيضان، وكانت الحيتان تخرج إلى أصلهما ليلةَ السبت ويومَ السبت، لأنها كانت لا تصاد، فإذا أقبلتْ ليلةُ الأحد

(١) سورة البقرة آية ٦٥

(٢) سورة الأعراف آية ١٦٣

(٣) أيلة : فرضة شهيرة فى أدوم واقعة على شاطئ الخليج الشرقى من البحر الأحمر، هربها الاسرائيليون، وكانت ذات شأن فى زمن سليمان . (راجع قاموس الكتاب المقدّس للدكتور جورج بوست) .

(٤) سورة النحل آية ١٢٤

خرجتْ منهما إلى البحر، فيتعذّر عليهم صيدها فيه إلّا بمشقّة، فذلك قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ﴾ (١) . فجعل فُسّاق أهل « أيلة » يقول بعضهم لبعض : إنّما حرّم آلله تعالى الأصطيادَ على آبائنا وأجدادنا لا علينا ، ونحن لا ذنب لنا ، وهذه الحِيتان تكثر يومَ السبت وليلتَه ، فمن المُحال تركُها ؛ فآصطادوها وطبخوها وشَوَوْا منها ، فشمّ المؤمنون رائحتَها في يوم السبت ، فخرجوا إلى الفُسّاق ووعظوهم وحذّروهم ، فلم يكترثوا لذلك ولم ينتهوا عنه ، فاجتمع المؤمنون على أبواب القرية بالسلاح ومنعوهم من دخولها ، فآشتدّ ذلك على الفُسّاق وشق عليهم أن يمتنعوا من الأصطياد في يوم السبت لكثرة الحِيتان فيه دون غيره من الأيام ، فقالوا : إنّ هذه [القرية] (٢) مشتركة بيننا [وبينكم] (٢) ولا يحلّ لكم أن تمنعونا منها ، فإمّا أن تصبروا على أفعالنا أو تُقاسِمونا القرية فننفرد عنكم . فتراضَوْا على ذلك وقاسموهم القرية ، وبنَوْا بينهم حيطانًا عالية وبابًا يدخلون منه غيرَ بابهم ، وآنفردت كلُّ طائفة ، وآشتغل الفُسّاق باللهو واللعب والأصطياد ، وحفروا أنهارًا صغارًا من البحر إلى أبواب دُورهم ، فكانت الحِيتان تأتيها في يوم السبت ، فإذا غَرُبت الشمس همّت الحِيتان بالرجوع إلى البحر ، فيسُدّون أفواهَ تلك الأنهار ممّا يلي البحر ، ويصطيدون تلك الحِيتان . هذا والمؤمنون يخوّفونهم عذابَ الله فلا يرجعون . فلمّا طال ذلك وتكرّر منهم قال بعض المؤمنين لبعض : إلى كم ننصح هؤلاء ولا يزيدون إلا تماديا وعتُوًّا ! قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا آللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ (٣) الآية ،

(١) سورة الأعراف آية ١٦٣

(٢) التكلة عن الكسائى .

(٣) سورة الأعراف آية ١٦٤

قال : واستغنى الفُسّاق وكثُرت أموالهم، واشتروا الضِّياع وانهمكوا على الفسق فبلغ ذلك داودَ — عليه السلام — فلعنهم ودعا عليهم . فبينا هم فى منازلهم فى شر ما هم فيـه إذ زُلزلت قريتُهم زلزلة عظيمة ، ففزِع المؤمنون وخرجوا من بيوتهم ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾(١) وقال تعالى : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾. فالذين لُعنوا على لسان داود هم هؤلاء الذين اعتـدَوْا فى السبت، والذين لُعنوا على لسان عيسى الذين سألوه نزولَ المـائدة، فلمّا نزلت عليهم كفروا .

١٣٤/١١

قال : فمسخ الله هؤلاء الذين اعتدَوْا فى السبت قِردة، ومسخ أصحابَ المـائدة خنازير — وسنذكر إن شاء الله خبر أصحاب المـائدة فى موضعه من أخبار عيسى عليه السلام — قال : فكان أحدُهم يأتى حميمَه من المؤمنين وعيناه تذرِفان دمعا فيقول له : أنت فلان؟ فيشير برأسه، أى نعم . فيقول لهم المؤمنون : قد أنذرنا كم عذاب ربكم وعقوبتَه فلم تتعظوا، فنزل بكم ما نزل .

قال الثعلبىّ قال قَتادة : صارت الشُّبّان قِردة، والشيوخُ خنازير ، فما نجا إلّا الذين نَهَوْا وهلك سائرُهم . قال: ثم برز الممسوخون من المدينة وهاموا على وجوههم متحيِّرين، فمكثـوا ثلاثة أيام ثم هلكوا ، وكذلك لم يلبث مَسْخٌ فوق ثلاثة أيام ، ولم يتوالدوا ولم يتناسلوا ؛ ثم بعث الله تعالى عليهم ريحا ومطرا فقذفهم فى البحر ، فإذا كان يوم القيامة أعادهم الله إلى صُـوَرِهم الأولى البشرية ، فيـدخلهم النار . والله أعلم .

---

(١) سورة الأعراف آية ١٦٥ .
(٢) سورة المـائدة آية ٨٧ .

ذكر استخلاف داودَ ابنَه سليمانَ عليهما السلام

وخبر الصحيفة وابتداء أمر الخاتم

قال الكسائى — رحمه الله — : ولمّا أتى على سليمان بضعٌ وعشرون سنة نزل جبريل على داود بصحيفة ، وأَمَرَه عن الله تعالى أن يجمع أولاده ويقرأ عليهم ما فى الصحيفة من المسائل، فمن أجاب عمّا فيها فهو الخليفة من بعده . فأحضر داود أولاده، وكان سليمان أصغرَهم سناً، وقرأ عليهم ما فى الصحيفة، فاقرّوا بالعجز عن معرفتها ، وذلك بحضور مشيخة بنى إسرائيل، فقال داود — عليه السلام — لسليمان — عليه السلام — : أجب عن هذه المسائل . فقال : أرجو أن يَهْدِيَنى الله تعالى إلى جوابها . فقال : يا سليمان، ما الشيء؟ قال : المؤمن. قال: فما بعضُ الشيء ؟ قال : الفاجر . قال : فما لا شيء ؟ قال : الكافر . قال : فما كلّ شيء ؟ قال : الماء . قال : فما أكبر شيء ؟ قال : الشِّرْك . قال : فما أقلّ شيء؟ قال: اليقين . قال : فما أمرّ شيء ؟ قال : الفقر بعد الغنى . قال : فما أحلى شيء ؟ قال : المال والولد . قال : فما أقبح شيء؟ قال : الكفر بعد الإيمان . قال : فما أحسن شيء ؟ قال : الرُّوح فى الجسد . قال : فما أوحشُ شيء؟ قال : الجسد بلا رُوح . قال : فما أقربُ شيء؟ قال : الآخرة [من الدنيا](1) . قال : فما أبعدُ شيء؟ قال : الدنيا من الآخرة . قال : فما أشرّ شيء؟ قال : المرأة السوء . قال : فما خير شيء؟ قال : المرأة الصالحة .

قال : وكان داود يصدّقه عَقِبَ كل مسئلة، ثم التفت إلى بنى إسرائيل فقال: ما أنكرتم من قول ابنى؟ قالوا : ما أخطأ فى شيء متّعك الله به، و بارك لنا ولك فيه. قال: أترضَون أن يكون خليفتى عليكم ؟ قالوا نعم . هذا ما أورده الكسائىّ رحمه الله.

(١) الزيادة عن قصص الأنبياء للكسائى .

وقـد ذكر الثعلبىّ فى هذه القصة زيادات نذكرها . قال أبو إسحاق الثعلبىّ — رحمه الله تعالى — قال أبو هريرة — رضى الله عنه — : نزل كتاب من السماء مختوم بخاتم من الذهب على داود فيـه ثلاثَ عشرةَ مسألة(١)، فأوحى الله تعالى إليه أن آسأل عنها آبنك سليمان، فإن هو أخرجها فهو الخليفة من بعدك . قال : و إن داود — عليـه السلام — دعا سبعين قسِّيسًا وسبعين حبرا ، ولم يذكر أولاده . قال : وأجلسَ سليمانَ بين أيديهـم وقال له : يا بُنَىّ ، إن الله أنزل من السماء كتابا فيـه مسائل ، وأُمِرتُ أن أسألك عنها ، فإن أخرجتَها فأنت الخليفة من بعـدى . قال سليمان : اسأل يا نبىّ الله عما بدا لك ، وما توفيقى إلا بالله .

قال داود : أخبرنى يا بُنَىّ ، ما أقربُ الأشياء ؟ وما أبعدُ الأشياء ؟ وما آنَسُ الأشياء ؟ وما أَوحشُ الأشياء ؟ وما أحسنُ الأشياء ؟ وما أقبحُ الأشياء ؟ وما أقلّ الأشياء ؟ وما أكثرُ الأشياء ؟ وما القائمان ؟ وما المختلفان ؟ وما المتباغضان ؟ وما الأمرُ الذى إن ركبه الرجل حَمِـدَ آخِرَه ؟ وما الأمرُ الذى إن ركبه الرجل ذمّ آخـــره ؟ .

قال سليمان : أمّا أقربُ الأشياء فالآخرة . وأما أبعدُ الأشياء فما فاتك من الدنيا . وأما آنسُ الأشياء فجسد فيه روح . وأما أوحشُ الأشياء فالجسد بلا روح(٢) . وأما أحسنُ الأشياء فالإيمان بعـد الكفر . وأما أقبحُ الأشياء فالكفر بعـد الإيمان . وأما أقـلّ الأشياء فاليقين . وأما أكثرُ الأشياء فالشكّ . وأما القائمان : فالسماء

---

(١) كذا فى الأصول وقصص الأنبياء للثعلبى . غير أن الثعلبى قد ذكر فى كتابه من المسائل أربع عشرة مسألة، ومن الأجوبة أربعة عشر جوابا ، فزاد فى المسائل قوله : وما الساعيان ، وزاد فى الأجوبة قوله : وأما الساعيان فالشمس والقمر .

(٢) هذه عبارة الثعلبى فى النسخة المخطوطة والمطبوعة . وفى الأصول : « فالروح فى الجسد » وهو خطأ من الناسخ .

والأرض . وأما المختلفان : فالليل والنهار . وأما المتباغضان : فالموت والحياة . وأما الأمرُ الذى اذا ركبه الرجل حَمِدَ آخره فالحلم . وأما الأمرُ الذى اذا ركبه الرجل ذمّ آخره فالحدّة عند الغضب .

قال : ففكّوا الخاتم ، فإذا جواب المسائل سَوَاءٌ على ما نزل من السماء . فقال القِسِّيسُون والأخبار : لا نرضى حتى نسأله عن مسألة ، فإن هو أخرجها فهو الخليفة. قال : سلوه . قال سليمان : سلونى وما توفيقى إلا بالله . قالوا : ما الشيءُ الذى إذا صَلَح صَلَح كلُّ شيء من الإنسان ، و إذا فسد فسد كلُّ شيء منه ؟ قال : هو القلب . فقام داود وصعِد المنبر وحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال : إن الله ١٣٥/١١ أمرنى أن أستخلف عليكم سليمان . قال : فضجّت بنو إسرائيل وقالوا : غلام حَدَثٌ يُسْتَخْلَفُ علينا وفينا من هو أعلم وأفضل منه ! فبلغ ذلك داودَ، فدعا رءوس أسباط بنى إسرائيل وقال: إنه بلغتْنى مقالتكم ، فأَرُونى عِصِيّكم، فأىّ عصا أثمرتْ فإنّ صاحبها ولىّ هذا الأمر [بعدى]؛ فقالوا : قد رضِينا . فجاءوا بعِصِيهم؛ فقال لهم داود : ليكتبْ كل رجل منكم آسمه على عصاه؛ فكتبوا . ثم جاء سليمان بعصاه فكتب عليها آسمه ؛ ثم أُدخلتْ بيتا وأُغلِقَ عليها الباب وسُكِّرَ بالأقفال ، وحرسه رءوسُ أسباط بنى إسرائيل . فلما أصبح صلّى بهم الغداة؛ ثم أقبل وفتح الباب وأخرج عِصِيّهم كما هى ، وعصا سليمانَ قد أثمرتْ وأورقتْ . قال : فسلّموا ذلك لداود ، فأخذ آبنَه سليمانَ ثم سار به فى بنى إسرائيل فقال : هذا خليفتى فيكم من بعدى .

قال وهب بن مُنَبِّه : لما آستخلف داودُ آبنه وعظه فقال : يا بنىّ ، إياك والهَزْلَ ؛ فإنّ نفعه قليل ويَهيجُ العداوةَ بين الإخوان . و إيّاك والغضب ؛ فإن الغضب يستخفّ صاحبه ، وعليك بتقوى الله وطاعته ؛ فإنهما يغلبان كل شىء . و إيّاك

وكثرةَ الغَيرةِ على أهلك من غير شيء؛ فإن ذلك يورث سوءَ الظنّ بالناس وإن كانوا بُرآء. وآقطع طمَعك عن الناس؛ فإنه هو الغنى. وإياك والطمعَ فهو الفقر الحاضر. وإياك وما يُعتذَر منـه من القول والفعل. وعوِّد نفسَك ولسانَك الصدق؛ وآلزم الإحسان؛ فإن آستطعتَ أن يكون يومُك خيرا من أمسك فافعـل. وصلّ صلاةَ مودِّع، ولا تجالس السفهاء، ولا تردّ على عالم ولا تُمـارِه فى الدِّين؛ وإذا غضِبتَ فالصِق نفسَك بالأرض وتحوَّلْ من مكانك. وآرجُ رحمةَ الله فإنهـا واسعة وَسعتْ كلّ شىء.

قالوا: ثم إن سليمان بعـد أن آستُخلِف أخفَى أمرَه وتزوّج آمرأةً وآستتر عن الناس، وأقبلَ على العـلم والعبادة. ثم إن آمرأته قالت له ذات يوم: بأبى أنت وأمّى، ما أكمَلَ خِصالَك وأطيبَ ريحَـك! ولا أعلم لك خَصلةً أكرهُها إلا أنك فى مئونة أبى[1]، فلو أنك دخلتَ السـوق فتعرضتَ لرزق الله لرجوتُ ألّا يخيّبك الله. قال سليمـان: إنى والله ما عَمِلتُ عملًا ولا أُحسِنه، ثم دخل السّـوق صبيحةَ يومه ذلك فلم يقـدر على شىء، فرجع فأخبرها. فقـالت له: يكون غدا إن شاء الله.

فلمـا كان فى اليوم الثانى مضى حتى آنتهى إلى ساحل البحر وإذا هو بصياد، فقال له: هل لك أن أعينك وتُعطِيَنى شـيئا؟ قال نعم، فأعانه. فلما فرغ أعطاه الصياد سمكتين، فأخذهما وحَمِـد الله تعالى، ثم إنه شقّ بطنَ إحداهمـا فإذا هو بخاتَم فى بطنها، فأخذه وصرّه فى ثوبه، وحَمِـد الله تعـالى، وجاء بالسمكتين إلى منزله، ففرِحت آمرأته بذلك، فأخرج الخاتَم [ولبسه فى إصبعه][2]؛ فعكفت عليه

(١) كذا فى نسختى الثعلبى المخطوطة والمطبوعة. وفى الأصول: «أبيك».

(٢) زيادة عن نسخة الثعلبى المطبوعة.

الطير والريح، ووقع عليه بهاء المُلك؛ ولم يلبث أبوه أن مات. [فلما ملك حمل المرأة وأبويها إلى إصطخر(١)] .

وقد قيل فى أمر الخاتم غير ذلك — على ما أورده الكسائى — وسنذكره إن شاء الله تعالى بعد هذا فى أخبار سليمان عليه السلام .

ذكر وفاة داود عليه السلام

قال الكسائى : كان داود — عليه السلام — شديدَ الغَيرة على النساء، ويُغلق الأبواب عليهنّ إذا خرج ، ويحمل المفاتيح معه . فقيل : إنه رجع يوما ففتح باب نسائه ، فرأى رجلا فى داره ذا مَهَابة(٢) . فقال له داود — وغضب — : مَن أنت ؟ ومَن أدخلك دارى ؟ قال : أدخلَنى الدار مَن هو أولى بها منك، أنا الذى لا أهاب الملوك، ولا يمنعُنى دونَهم الحُجّاب والجنود، وأفرق بين الجمع، أنا مَلَك الموت . فآرتعد داود وقال : دَعْنى أدخل إلى أهلى لأودّعهم . قال : لا سبيل إلى ذلك يا داود . فبكى وقال : مَن لبنى اسرائيل من بعدى؟ قال: آبنُك سليمان. قال: الآن طابت نفسى، امْضِ لما أُمرتَ به؛ فقبض رُوحَه — عليه السلام — وغسّله سليمانُ وإخوتُه، وكفّنه بأكفان نزلت عليه من الجنة، وحمله إلى ق ،

(١) زيادة عن نسخة الثعلبى المخطوطة . وإصطخر : مدينة بفارس قرب مدينة برسبوليس (مدينة الفرس) التى كانت عاصمة تلك البلاد قديما . وهى واقعة فى الشمال الشرقى من شيراز ، على ٣٥ ميلا منها فى الطريق إلى أصبهان ؛ دخلها اسكندر المقدونى وحرق قصر ملوك الفرس فيها سنة ٣٣١ قبل الميلاد . واسمها الآن « تشهيل منار» أى ذات الأربعين عمودا . (راجع معجم الخريطة التاريخية للممالك الاسلامية للرحوم أمين واصف) .

(٢) كذا فى الكسائى . وفى الأصول : « فى نهاية الجمال » .

ودُفن دون غار إبراهيم — عليه السلام — قال : وعكفت الطير على قبره أربعين يوما .

قال الثعلبيّ فى خبر وفاة داود : إن داود كانت له وصيفةٌ تُغلق الأبواب كل ليلة وتأتيه بالمفاتيح ثم تنام، ويُقبِل داود على وِرْده فى العبادة . فأغلقت ذاتَ ليلة الأبواب وجاءت بالمفاتيح ثم ذهبت لتنام ، فرأت رجلا قائما فى وسط الدار فقالت : ما أدخلك هذه الدار ! فإن صاحبها رجل غيور ، فخذ حِذْرك . فقال : أنا الذى أدخل على الملوك بغير إذن . فسمعه داود، وكان فى المحراب يصلّى، ففزِع واضطرب وقال : علىّ به ، فأتاه . فقال : ما أدخلك هذه الدار فى هذا الوقت بغير إذن ؟! فقال : أنا الذى أدخل على الملوك بغير إذن . قال : فأنت مَلَكُ الموت؟ قال نعم . قال : أجئتَ داعياً أم ناعيا ؟ قال : بل ناعيا . قال: فهلّا أرسلتَ إلىّ قبل ذلك وآذنتنى لأستعدّ للموت ؟ قال : كم أرسلتُ إليك يا داود فلم تنتبه . قال : ومَن كانت رسُلُك ؟ قال : ياداود ، أين أبوك إيشى ؟ وأين أمّك؟ وأين أخوك ؟ وأين قَهْرَمانُك فلان ؟ قال ماتوا كلهم . قال : أمَا علمتَ أنهم رُسُلى، وأن النوبة تبلُغُك ! ثم قبضه .

قال أهل التاريخ : كان عمر داود مائة سنة، ومدّةُ ملكه أربعين سنه .

وقد تقدّم خبر آدمَ فيما وَهَب له من عمره .(1)

(1) هنا ينتهى السفر الحادى عشر من هذا الكتاب من النسختين المأخوذتين بالتصوير الشمسى المحفوظين بدار الكتب المصرية تحت رقمى ٥٤٩ و ٥٩٢ معارف عامة . وصورة ما جاء فى آخر هذا السفر من النسخة الأولى : « كمل السفر الحادى عشر على يد كاتبه نور الدين العاملى غفر الله له ولوالديه فى تاسع عشر ذى القعدة سنة ٩٦٦ هـ » . وصورة ما ورد فى النسخة الثانية : « كمل السفر الحادى عشر من نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى وذلك فى مستهل شهر رجب الفرد سنة ٩٦٦ هـ على يد كاتبه الشيخ عبد الرحمن بن الشيخ ابراهيم الجوهرى الحنفى ، غفر الله له ولوالديه آمين »

ذكر نبوّة[1] سليمان بن داود عليهما السلام وملكه

قال الكسائىّ — رحمه الله — ولما قام سليمان — عليه السلام — من ١/١٢
عزاء أبيه داود وتفرّق الطير عن قبره ، دخل محرابَ أبيه ، فهبَط عليه جبريل — عليه السلام — وقال له : إن الله تعالى يخصّك بالسلام ويقول لك : المُلك أحبّ إليك أو العِلم ؟ . فخرّ سليمان ساجدا لله تعالى وقال : العلم أحبّ إلىّ من المُلك ، لأنه أنفع الأشياء . فأوحَى الله تعالى إليه : إنك تواضعتَ وآخترتَ العلم على المُلك ، فقد وهبتُ لك العِلم والمُلك ، وأضفتُ إلى ذلك كمالَ العقل وزينة الخُلُق ، ونزعتُ عنك العُجْب[2] ، وسأطوى لك الدنيا بأسرها حتى تطأها بجيشك وتشاهدَ عجائبها . فخرّ سليمان ساجدًا لربه ، و رفع رأسه فإذا الرياح الثمانية قد وقفت بين يديه وقالت له : إن الله سخّرنا لك ، فاركبْنا إذا شئتَ إلى أىّ موضع شئتَ . وأقبلتِ الوحوشُ والسِّباع فوقفت بين يديه وقالت : إن الله أمرنا بالطاعة لك . وأقبلت الطير وقالت : قد أُمرنا أن نُظلّك بأجنحتنا ولا نخالفك فى أمر . وفوّض الله — عزّ وجلّ — إلى سليمان أمرَ الدنيا شرقِها وغربِها

ذكر حشرِ الطير لسليمان بن داود عليهما السلام وكلامها له

قال الكسائىّ . ولما آتاه الله النبوّة والملك أحبّ أن يستنطق الطير ، فحُشرت إليه ، فكان جبريلُ يحشُر طيرَ المشرق والمغرب من البرّ[3] ، وميكائيلُ يحشُر طيرَ الهواء والجبال . فنظر سليمان إلى عجائب خَلْقها ، وجعل يسأل كل واحد منها عن مسكنه

(١) ابتداء الجزء الثانى عشر من تجزئة الأصل . وقد افتتحه المؤلف بالبسملة والصلاة على النبىّ صلى الله عليه وسلم .

(٢) فى الكسائى : « الشحّ » .

(٣) فى قصص الأنبياء للكسائى : « الأرض »

ومعاشه فيخبره ، وكان بين يديه سبعةُ ألوية من ألوية الأنبياء ، يُمسكها سبعةٌ من الملائكة .

قال : ولما حُشرت الطيرُ له جاءته فَوْجا فَوْجا ، فسلّمت عليه «الخُطّافة» بثلاث لغات (١) وقالت : يانبيّ ٱلله ، أنا ممن ٱختارني نوح وحملني في السفينة ، ومنّي تناسَل كلُّ خُطّافة في الدنيا ، ودعا لي آدمُ وقال : إنكِ تُدرِكين من أولادي مَن خلافتُه مثلُ خلافتي ، تُحْشَر إليه الوحوش والطيورُ والمَرَدَةُ ، فإذا رأيتِه فاقرئيه منّي السلام . وقالت له : يا نبيّ الله ، إن معي سُورةً تعجَب الملائكةُ من نُورها ، ما أُعطِيتْ لأحدٍ من بني آدم غيرَ أبيك إبراهيم ، فإنها نزلت كرامةً له يوم أُلقيَ في النار ، فهل لك أن تسمعها منّي ؟ قال نعم . فقرأت سورة ﴿ ٱلْحَمْدُ ﴾ حتى بلغت ﴿ وَلَا ٱلضَّالِّينَ ﴾ ومدّت صوتها بآمين وسجدت ، وسجد معها سليمان عليه السلام .

ثم تقدّم « النَّسر » وهو يومئذ في صورة عظيمة فقال : السلام عليك يا ملِك الدنيا ، ما رأيتُ مُلْكا أعظم من مُلْكك ، وإني صحِبتُ آدم وساعدتُه على كثرة حزنه ، وأنا أول من علِم بهبُوطه إلى الأرض ، وكنتُ معه إلى أن تاب ٱلله عليه وقال : إنه يكون من ذرّيتي من يحشر له الطير ، فإذا رأيتَه فأقرئه منّي السلام ؛ وقد أدّيتُ إليك وديعته ، فٱصطنِعني (٢) يانبيّ ٱلله ، فإني عليم بمعادن الأرض وجبالها ، ومعي آيةٌ عظيمة لا يفترُّ لساني عنها ، وهي : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ (٣) . ثم سجد وسجد معه سليمان ؛ فلمّا رفع رأسه جعله سليمانُ ملِكا على سائر الطيور .

(١) في الكسائي : « بثلاث لغات باللغات التي سلمت بها على آدم ونوح وابراهيم عليهم السلام » .

(٢) كذا في نسخة أ وفي نسخة ب « مفاوز » .

(٣) سورة النساء آية ٨٧

ثم تقدمت « العُقَاب »[١] فوقفت بين يديه وسلّمت عليه وقالت : يا نبيّ الله، إن الله حين خلقني كنتُ أعظم خلقًا من هذا، غير أن حُزني على هابيل يوم قتله قابيلُ صيّرني الى ما ترى، ولقد توحّشت الأرض والجبال يوم قُتِل. ومعى آية أعطانيها ربى، وهى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾[٢] . ثم قالت : سلّطنى على من شئت، فإنى قوية سميعة .

ثم تقدّمت « العنقاء » وهى يومئذ شديدة البياض ، وصدرُها كالذهب الأحمر، ووجهها كوجه الإنسان، ولها ذوائب كذوائب النساء، ورجلان صفراوان، ولها تحت أجنحتها يدان ، فى كل يد ثلاثون إصبعا ، فوقفت بين يديه وسلّمت وقالت : إن الله فضّلك على كثير من الملوك حين أبرزنى اليك فى صورتى هذه ، فمرنى بما شئت ، فوالله ما نطقتُ لأحد إلا لصفوة الله آدم ، فإنى وقفت بين يديه وتعجّب من حسن صورتى ، وقال : ما أشبهك بطيور الجنان ! فمنذ كم خلقك ربك؟ قلت : منذ ألفى عام . ثم تبخترت بين يديه فقال : أيها الطائر، إنك مُعْجَبٌ بخلقك ، والعُجْب يهلك صاحبه، لقد فاز المفلحون وخسر المبطلونْ .

وللعنقاء خبر عجيب نذكره — إن شاء الله — فى آخر خبر الطير على ما تقف عليه إن شاء الله تعالى .

ثم تقدّم «الغُراب» فسلّم وقال : يا نبيّ الله، لقد فضّلك الله على كثير من ولد آدم ، وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما ، و إنى كنت أبيض

---

(١) العقاب : طائر من العتاق مؤنثة ، وقيل : العقاب يقع على الذكر والأنثى إلا أن يقولوا : هذا عقاب ذكر .

(٢) سورة الأعلى آيتى ١٤ و ١٥

قبل ذلك ، فصرت كما ترى ، لما سمعتهم يقولون : اتخذ الرحمن ولدا . وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا . ولقد دعا لى أبوك آدم ونوح بطول العمر ؛ وسمعت أباك إبراهيم يتلو آية يخضع لها كل شىء ، وهى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ (١) .

ثم تقدمت «الحمامة» فسلمت عليه وقالت : يانبىّ الله ، أنا الحمامة التى اختارنى أبوك آدم لنفسه إلفا وأنيسا ، وكنت آنسُ به و بتسبيحه ؛ وكان اذا ذكر الجنة يصيح صيحة عظيمة و يقول : أترانى أرجع إليها؟ وإن لم أرجع إليها كنت من الخاسرين . واعلم يا نبىّ الله أنه قد علمنى كلمات حفظتها عنه ، وهى : الله لا إله إلا هو وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده و رسوله سيد الأولين والآخرين . وقد أقبلتُ إليك طائعة لأمرك ، فمرنى بما شئت .

ثم تقدّم « الهُدْهُد » فسلّم عليه وسجد بين يديه وقال : ما أحببتُ أحدًا كما أحببتك ، لأنى رأيت الدنيا ضاحكة لك ، وقد أعطاك الله مُلكا عظيما ، فاتخذنى رسولا آتك بالأخبار ، وأدلك على مواضع الماء . فقال له : أراك أكيس الطيور ، وأرى فخاخ بنى إسرائيل تصطادك ، ولا تغنى عنك كياستك شيئا . قال الهدهد : يا نبىّ الله ، الحيلة لا تنفع مع القضاء والقدر ، وإن الله يضيف إلى عقل المخلوق سبعين ضِعفا ثم ينفّذ فيه حكمه وقضاءه . قال : صدقت . ثم سجد بين يديه مرارا .

ثم تقدّم إليه « الديك » وهو آخر من تقدم ، فوقف بين يديه وهو فى نهاية الحسن ، وضرب بجناحيه ، وصاح صيحة أسمع الملائكة والطيور و جميع من حضر

(١) سورة المدثر آية ٣٨

وقال فى صياحه : يا غافلين اذكروا ٱلله . ثم قال : يا نبيّ الله، إنى كنت مع أبيك آدم وكنت أوقظه أوقات الصلوات ، ومع نوح فى الفُلك ، ومع أبيك إبراهيم ٣/١٢ وكنت أسمعه يقول : « اللهمّ مالكَ المُلْكِ تؤتى الملك مَن تشاء ، وتنزِع الملك ممن تشاء ، وتُعِزّ من تشاء ، وتُذِلّ من تشاء ، بيدِك الخير إنك على كل شىء قدير » . وٱعلم يا نبيّ ٱلله أنى ما صحت صيحة إلا أفزعت بها الجن والشياطين . ففرِح سليمان به وأمره أن يكون معه حيثما كان . ووقف كل طير بين يديه ، وفرغ من حَشْر الطيور وعرفها بأسمائها ومنطقها ، وكانوا يعبدون الله بالليل والنهار ، وكذلك الوحوش والسباع ، حتى عَرَف كل واحد منهم بٱسمه وصفته ونعته[1] .

ذكر خبر العنقاء فى القضاء والقدر

قال أبو إسحاق الثعلبيّ — رحمه الله تعالى — بسند رفعه الى جعفر بن محمد الصادق قال : عاتب سليمان الطير فى بعض عتابه فقال لها : إنك تأتين كذا، وتفعلين كذا ، فقالت له : والله ربِّ السماء والثَّرَى، إنا لنحرص على الهدى، ولكن قضاءَ الله يأتى إلى منتهى علمه وقَدَره . قال سليمان : صدقت ، لاحيلة فى القضاء . فقالت العنقاء : لست أُومن بهذا . قال لها سليمان : أفلا أخبرك بأعجب العجب ؟ قالت بلى . قال : إنه وُلد الليلة غلامٌ فى المغرب، وجارية فى المشرق، هذا ٱبن ملك

---

(١) هذه عبارة الكسائى فى النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية برقم ٦٦ ٣٩٤ أدب ، وعبارة الأصول : « قال : ولما فرغ من حشر الطير وعرفها بأسمائها ولغاتها وكانوا يأتونه بالليل والنهار ، وكذلك الوحوش والسباع حتى عرفها بأسمائها والله أعلم » .

وهـذه بنت ملك ، يجتمعان في أمنع المواضع وأهولها على سِفاح بقَدَر الله تعالى فيهما . قالت العنقاء : يا نبيّ الله ، وقد وُلدا ؟ قال : نعم الليلةَ . قالت : فهل أُخبرتَ بهما ؟ من هما وما اسمهما واسم أبويهما ؟ قال : بلى ، اسمهما كذا وكذا ، واسم أبويهما كذا وكذا . قالت : يا نبيّ الله ، فإنى أفرّق بينهما وأبطل القَدَر . قال : فإنك لا تقدرين على ذلك . قالت بلى . فأشهد سليمان عليها الطير وكفلتها البُومة . ومرّت العنقاء وكانت فى كبر الجمل عِظَما ، ووجهها وجه إنسان ، ويداها وأصابعها كذلك ، فحلّقت فى الهواء حتى أشرفت على الدنيا وأبصرت كل دار فيها ، وأبصرت الجارية فى مهدها قد احتوشتها الظئور والخَوَل ، فاختلست المهد والجاريةَ وطارت ، ومرّت حتى انتهت بها إلى جبل شاهق فى السماء ، أصله فى جوف البحر ، وعليه شجرة عالية فى السماء ، لا ينالها طائر إلا بجهد ، لها ألف غصن ، كل غصن كأعظم شجرة فى الأرض ، كثيرة الورق ، فاتخذت لها فيه وكرا عجيبا واسعا وطيئا ، وأرضعتها واحتضنتها تحت جناحها ، وصارت تأتيها بأنواع الأطعمة والأشربة ، وتكنّها من الحرّ والبرد ، وتؤنسها بالليل ، ولا تخبر أحدًا بشأنها ، وتغدو إلى سليمان وتروح إلى وكرها . وعلم سليمان بذلك ولم يبده لها ، وبلغ الغلام مبلغ الرجال ، وكان ملكا من ملوك الدنيا ، وكان يلهج بالصيد ويحبّه ويطلبه حتى نال منه عظيما . فقال يوما لأصحابه : كل صيد البر وفلواته ومفازاته قد تمكنت من صَيده ، فلو ركبت البحر لأنال من صيده فإنه كثير الصيد كثير العجائب ! . فقال وزير من وزرائه : نِعْمَ ما رأيتَ ، وهو أكثر ما خلق الله صيدا . فأمره بجهازه ، وهيأ السفن وجعل يختار من كل شىء يملكه ، وأخذ من الوزراء والندماء والمُشيرين والجوارى والغلمان والطباخين والخبازين والبُزاة والصقور وغير ذلك مما يريده ويشتهيه من الملاهى

والشراب ، وركب ومرّ فى البحر يتصيّد ويتلذذ لا يعرف شيئا غير ذلك ، حتى سار مسيرة شهر ، فأرسل الله تعالى على سفينته ريحا عاصفا خفيفة ساقتها حتى وصلت بها الى جبل العنقاء الذى فيه الجارية ، وذلك مسيرة خمسين سنة فى خمسين ليلة ، ثم ركدت سفينته بإذن الله تعالى ، وأصبح الغلام فرأى سفينته راكدة ، فأخرج رأسه من السفينة ، فرأى الجبل وهو فى لون الزعفران [صفرة](١)، وطوله لا يُدْرَى أين منتهاه ولا عرضه ، ورأى الشجرة فإذا هى كثيرة الأغصان والورق ، وورقها عرض آذان الفيَلة ليس لها ثمر ، بيضاء الساق ، فقال : إنى أرى عجبا ، أرى جبلا شاهقا لم أر مثله ، وأرى شجرة حسنة قد أعجبنى منظرها . فحرّك سفينته نحو الجبل ، فسمعت الجارية التى فى عُشّ العنقاء صوت الماء وكلام الناس ، ولم تكن سمعت قبل ذلك شيئا من ذلك ؛ فأخرجت رأسها ٤/١٢ من العُشّ ، فتطلّعت فرأى الملك صورتها فى الماء ، ورأى عجبًا من جمالها وكثرة شعرها وذوائبها ؛ فرفع رأسه إلى الشجرة فرأى الجارية ، فأبصر أمرا عظيما فأخذه القلق ، فناداها : مَنْ أنتِ ؟ فأفهمها الله تعالى لغته وقالت : لا أدرى ما تقول ولا مَنْ أنت إلا أنى أراك يشبه وجهك وجهى وكلامك كلامى ، وإنى لا أعرف شيئا غير العنقاء ، وهى أمى التى ربّتنى وتسمينى بنتها . فقال لها الغلام : وأين العنقاء أمك ؟ قالت : فى نوبتها . قال : وما نوبتها ؟ قالت : تغدو كل يوم إلى ملكها سليمان فتسلّم عليه وتقيم عنده إلى الليل ، ثم تروح وتجيئنى وتحدثنى بما فعل سليمان وبما حكم وقضى ، وإنه لملك عظيم ، على ما تصف أمى العنقاء ، وإنها تخبرنى أنه يشبهنى إلا أنها تخبر أنه أحسن وجها وأتمّ منى .

(١) الزيادة عن قصص الأنبياء للكسائى .

قال : فانذعر الغلام وفزِع، ثم قال : قــد عرفته، هو الذى قتل أبى وسبى ذرّيته، وإنى لمن طُلَقائه وممن يؤدّى إليه الخراج، ورسله الطير والرياح ، ثم بكى الغلام. فقالت الجارية : وما يبكيك؟ قال : أبكى على وَحْدتك فى مثل هذا الموضع الذى ليس به أنيس ولا أحد، وإن مثلك فى الدنيا عدد الشجر والمدر، وكلهم فى مقاصير الذهب والفضــة والعيش الهنىء واللّذة الحسنة مع الأزواج يتعانقون ويتنعّمون ، ويتــوالدون أولادا مثــل خلقتك وخلقتى، أرأيتِ إن هاجت الريح وأزعجتك من وَكْرك مَنْ يمسكك أن تقعى فى البحر؛ فإن وقعت فى البحر فمن ذا الذى يُخرجك. قال : ففزِعت من قوله وقالت : وكيف لى أن يكون معى إنسىّ مثلُك يحــدّثنى مثل حديثك، ويحفظنى من خوف ما ذكرت . فقال لها الغلام : أولا تعلمين أن الله الذى آتخذ سليمان نبيّا وسخّر له الطير والرياح هو الذى رَحِمَك وساقنى إليك إلفًا وصاحبا وأنيسا، وأنى من أبناء الملوك . قالت الجارية : وكيف تصير إلىّ وأصير إليك، وهذه العنقاء تنام وتحضُننى إلى صدرها بين جناحيها ؟ قال الغلام : تُكثرين جزعك ووحشتك وبكاءك على العنقاء ليلتَك هــذه إذا آنصرفت إليك ، فإذا قالت لك : ما تخشَيْن وما شأنُك ، فاخبريها بحديثك، ثم آنظرى إلى ما يكون ردّها عليك فتخبرينى به . فواحت العنقاء فوجدتها حزينة كئيبة. فقالت لها : يا بُنَيّة، ماشأنك؟ قالت : الوَحْدة والوَحْشــة ، وإنى لجزِعة على نفسى لذلك . فقالت لهــا : يا بُنَيّة لا تخافى ولا تحزنى ، فإنى أستأذن سليمان أن آتيه يومًا وأتخلّف عنه يوما . فلمّــا أصبحت أخبرت الغلام بجوابها . فقال لهــا : لا تُريدى هــذا ، ولكنْ سأنحر مــن دوابى هــذه فرسا وأبقر بطنه وأخرج ما فى جوفه وأقــيّره وأطيّنه وأدخل أنا فى جوفه، وألقيه على قُرقور[1] سفينتى هــذه ، فإذا جاءتك العنقاء فقولى لها : إنى

(١) القرقور : ضرب من السفن كبار؛ ولكن سياق كلام المؤلف يدل على أنه أراد به رأس السفينة .

أرى عجبا، حلقة ملقاة على هذه السفينة، فلو اختطفتها وحملتها إلى وكرى هذا، فانظر وأستأنس بها، كان أحب إلىّ من كينونتك عندى نهارا وإمساكك عنى خبر سليمان . فرجعت العنقاء فوجدتها فى مثل حالها، وشغل سليمان عنها، فلم تصل إليه فى استئذانها إياه بالمقام يوما فى منزلها . فقالت لها : إن نبىّ الله شغل عنى اليوم بالحكم بين الآدميين فلم أصل اليه . قالت لها : فإنى لا أريد أن تتخلفى عنه نهارا لمكان أخبار سليمان، وإنى أرى فى البحر عجبا، شيئا مرتفعا ما هو ؟ قالت العنقاء: هذه سفينة قوم سيارة ركبوا البحر . قالت : فما هذا الذى أرى ملقًى على رأس هذه السفينة؟ قالت: كأنه ميتة رموها . قالت: فاحمليها إلىّ لأستأنس بها وأنظر إليها . فانقضت العنقاء فاختطفت الفرس والغلام فى بطنها فحملتها إلى عشها . فقالت : يا أماه، ما أحسن هذا! وضحكت، ففرحت العنقاء بذلك وقالت: يا بنية، لو علمت لقد كنت آتيك بمثل هذا منذ حين . ثم طارت العنقاء إلى نوبتها إلى سليمان، وخرج الغلام من جوف الفرس فلاعبها ومسها ولامسها وافتضها فأحبلها ، وفرح كل واحد منهما بصاحبه واستأنس به .

وجاء الخبر إلى سليمان باجتماعهما من قبل الريح، ووافت العنقاء، وكان مجلس سليمان يومئذ مجلس الطير، فدعا بعرفاء الطير وأمرهم ألا يدعوا طائرا إلا حشروه، ففعلوا، ثم أمر عرفاء الجن فحشروا الجن من ساكنى البحار والجزائر والهواء والفلوات والأمصار، ففعلوا وحشروهم ، وأحضروا الإنس وكل دابة ، واشتد الخوف وقالوا : نشهد بالله أن لنبى الله أمرا قد أهمه . فأول سهم خرج فى تقديم الطير سهم الحدأة ، وكانت الطير لا تتقدم إلا بسهام، فتقدمت الحدأة واستعدت على زوجها، وكان قد جحدها ولدها، فقالت: يا نبى الله، إنه سفدنى، حتى احتضنت بيضى وأخرجت ولدى جحدنى. فأمر سليمان بولدها فأتى به، فوجد الشبه واحدا، ٥/١٢

فألحقه بالذكر وقال لها : لا تمكّنيه من السِّفاد أبدًا حتى تُشهدى على ذلك الطير لكيلا يجحدك بعدها أبدا . فإذا سفدها ذكرُها صاحت وقالت : ياطيور سفدنى اشهدى، يا معشر الطير اشهدى .

ثم خرج سهم العنقاء فتقدّمت، فقال لها سليمان : ما قولك فى القدَر؟ قالت : يا نبىّ الله، إن لى من القوة والاستطاعة ما أدفع الشر وآتى الخير . قال لها : وأين شرطُك الذى بينى وبينك أنك تفرقين بقوّتك واستطاعتك بين الجارية والغلام ؟ قالت : قد فعلتُ . قال سليمان : الله أكبر ! فأتينى بها الساعة والخَلْقُ شهودٌ لأعلمَ تصديق ذلك، وأمر عَريف الطير ألّا يفارقها حتى يوافىَ بها . فمرّت العنقاء، وكانت الجارية اذا قرُبت منها العنقاء تسمع حفيف أجنحتها ، فيبادر الغلام فيدخل جوف فرسه، فقالت كالفَزِعة : إن لكِ لشأنا إذ رجعتِ نهارا . قالت : لعمرى إن لى لشأنا، إن سليمان قد أمرنى بإحضارك الساعةَ لأمرٍ جرى بينى وبينه فى أمرك، فأنا أرجو نُصرتى اليوم فيك . قالت : فكيف تحملينى ؟ قالت : على ظهرى . قالت : وهل أستقرّ على ظهرك وأنا أرى أهوال البحر فلا آمن أن أزِلّ وأسقُط فأهلِك ! قالت : ففى منقارى . قالت : وهل أصبر فى منقارك ! قالت : فكيف أصنع ؟ لابدّ من إحضارك إلى سليمان، وهذا عَريف الطير معى، وقد دعا بكفيلى البُومة . قالت : أدخل جوف هذا الفرس، ثم تحملين الفرس على ظهرك أو فى منقارك، فلا أرى شيئا ولا أسقُط ولا أفزَع . قالت : أصبتِ . فدخلت فى جوف الفرس واجتمعت مع الغلام، وحملت العنقاء الفرس بما فيه فى منقارها، وطارت حتى وقعت بين يدى سليمان، فقالت : يا نبىّ الله، هى الآن فى جوف الفرس، فأين الغلام ! فتبسّم سليمان — عليه السلام — طويلًا وقال لها : أتؤمنين

(١) كذا فى الثعلبى . وفى الأصل : « يا كفور شهرتى » .

بقَدَر الله تعالى وقضائه ! إنه لاحيلةَ[1] لأحد فى دفع قضاء الله تعالى وقدره وعلمه السابق الكائن من خير وشرّ . قالت العنقاء : أومن بالله وأقول : إن المشيئة للعباد والقوّة، فمن شاء فليعمل خيرا ومن شاء فليعمل شرّا . قال سليمان : كذبتِ ماجعل الله من المشيئة إلى العباد شيئا، ولكن مَنْ شاء الله أن يكون سعيدا كان سعيدا، ومن شاء أن يكون كافرا كان كافرا، فلا يقدر أحد أن يدفع قضاء الله وَقَدَره بحيلة ولا بفعل ولا بعلم، وإن الغلام الذى قد وُلِد بالمغرب والجاريةَ التى وُلدت بالمشرق قد آجتمعا الآن فى مكان واحد على سِفَاح، وقد حملت منه الجارية ولدا . قالت العنقاء : لا تَقُلْ يا نبىّ آلله هذا، فإن الجارية معى فى جوف فرسى هذا . قال سليمان : الله أكبر ! أين البُومة المتكفّلة بالعنقاء؟ قالت: هأنا . قال سليمان : على مثل قول العنقاء أنت ؟ قالت نعم . قال سليمان : ياقَدَرَآلله السابقَ قبل الخلق أخرجهما على قضاء الله وقدره . قال : فأخرجهما جميعا من جوف الفرس .

فأما العنقاء فتاهت وفزِعت فطارت فى السماء وأخذت نحو المغرب، وآختفت فى بحر من بحار المغرب وآمنت بالقدر وحلفت لاينظر[2] الطير فى وجهها أبدا آستحياء منها .

وأمّا البُومةُ فلزِمت الآجام والجبال وقالت : أمّا بالنهار فلا خروج ولا سبيل إلى المعاش . فهى إذا خرجت نهارا وبّختها الطير وآجتمعت عليها وقالت لها : يا قَدَرِيّة، فهى تخضع لهذا .

هذا ما كان من شأن العنقاء فى القضاء والقدر . فلنرجع إلى أخبار سليمان عليه السلام .

(١) كذا فى نسخة الثعلبى المطبوعة . وفى الأصول والنسخة المخطوطة من الثعلبى : « للروحانيين » .

(٢) فى قصص الأنبياء للثعلبى : « ألا تنظر فى وجه طير » .

ذكر خبر خاتم سليمان عليه السلام

قال الكسائىّ : وأوحى الله تعالى إلى جبريل — عليه السلام — أنه قد سبق
٦/١٢ فى علمى أنى أملّك سليمان الدنيا ، ليعلم الجن والإنس أنى لم أخلق خلقاً هو أفضل من ذرّية آدم ؛ وأمره أن يأخذ خاتمَ الخلافة من الجنة ويأتيه به . فجاء جبريل إلى سليمان ومعه الخاتم وهو يضىء كالكوكب الدرّىّ ، ورائحته كالمسك ، وعليه كتابة[1] بغير قلم ، وهى : لا إله إلا الله محمد رسول الله . فأعطاه لسليمان وقال له : هنيئا لك يابن داود بهذه الهديّة ، وكان فى يوم الجمعة لسبع وعشرين خلت من المحرّم[2] . فلما صار الخاتمُ فى كفّ سليمان لم يتمكن من النظر إليه حتى قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وكذلك كل من كان ينظر إليه[3] .

قال وقيل : إن الخاتمَ أُنزل من تحت العرش من نور برهان الله ، وقيل لسليمان : لا تنزعه من كفّك إلا بأمانة ، وجعل الله عزّه فيه ، فتختّم سليمان به وصعد على كرسيّه واستقبل الناسَ بوجهه ورفع اليه الخاتم وهو يلمع ، وقال : هذا الخاتم جمع فيه عزّى وسلطانى وفضّلنى به ربى على العالمين ، وسلّطنى على كل شيطان مريد . ثم سجد شكرا لله تعالى وسجد معه الناس . ثم نزل عليه بعد نزول الخاتم ﴿ بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ فكان لا يقرؤها على شىء إلا خضع وذلّ ، فتلاها على بنى اسرائيل فلم يسمعها أحد إلا امتلأ فرحا . ثم أمر بعد ذلك باتخاذ البَيْض والسيوف ، فكان عنده اثنا عشر ألف درع من نَسْج داود .

---

(١) راجع الكسائى فى هذا الموضع ففيه تفصيل عما هنا .

(٢) عبارة الكسائى : « لثلاث بقين من شهر رمضان » .

(٣) هذه عبارة الكسائىّ . وفى الأصول : « فلما صار الخاتم فى كفه لم يتمكن من النظر اليه حتى قال : لا اله إلا الله محمد رسول الله » .

وقيل : إن داود لم يعمل أكثر من سبع أذرع ، ثم قال سليمان : يابني إسرائيل ، إني أمرت بمجاهدة أعداء الله؛ ثم جمع الخيول(١) وشرع في الاستعداد للحرب .

ذكر خبر حشر الجن لسليمان بن داود عليهما السلام

قال الكسائي : وأمر الله — عز وجل — جبريلَ — عليه السلام — أن يحشر الجنّ ، فنشر جناحه الأيمنَ على شرق الأرض ، والأيسرَ على غربها ، ونادى : أيتها الجنّ والشياطين ، أجيبوا سليمان بن داود بإذن الله ، فخرجت من سائر الأماكن وهي تقول : لَبَّيك لَبَّيك يا حجة الله . فحشرها الى سليمان طائعةً ذليلة تَسُوقها الملائكة ، وهي يومئذ أربعمائة وعشرون فرقة ، كل فرقة تَدِين بدين غير دين الأخرى ، فوقفت بأجمعها بين يدَيْ سليمان ، فنظر الى عجائب صُوَرها وسجد لله شكرا؛ ثم قام على قدميه والخاتم في إصبعه ، فلما نظرت إليه الجنّ خرّت ساجدة ثم رفعت رءوسها وقالت : يابن داود ، قد حُشِرنا إليك وأُمِرنا بالطاعة لك ، فختم على أكتافهم بخاتمه وجندهم وصفّد مَرَدَتهم بالحديد ولم يتخلّف منهم إلا صخر الجنيّ تغيّب في جزيرة ، وسنذكر خبره إن شاء الله تعالى . قال : وبقي إبليس بغير أعوان وفرّق سليمان الشياطين في الأعمال المختلفة . من الحديد والنحاس وقَطْع الصخور والأشجار وعمارة القُرَى والمدن والحصون ، وأمرهم بعمل القدور والجفَان ؛ قال الله تعالى : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ﴾(٢) . قيل : كان يأكل من كل جَفْنة ألفُ إنسان . وشغل

(١) في الكسائي : « الجنود » .
(٢) سورة سبأ آية ١٣

طائفة منهم بغوص البحار واستخراج الأصداف والجواهر منها، وأمر بعضهم بحفر الآبار وشق الأنهار والقنوات، وبعضهم بإخراج الكنوز والمعادن، وغير ذلك من الأعمال.

ثم حُشر له بعد ذلك الهوامّ من الحيّات والعقارب وغيرها من الحشرات وسُخّرت له. فسأل كلا منها عن اسمها [وضرّها ونفعها](١) ومأكلها ومشربها ومسكنها ومقدار أعمارها وعادتها وغيرِ ذلك من أحوالها، فأخبرته، ثم صرفهم وأمرهم ونهاهم. والله أعلم.

ذكر خبر مطابخه عليه السلام

قال الكسائي: وأمر سليمان أن تُصْنَع الأطعمة للخلق الذين معه، حتى كان طبّاخوه ينادون في عسكره: مَنْ أراد طعاماً فليأت حتى نصنعه له كما يريد، فإن سليمان نَصَبنا لذلك. وكانت موائده منصوبة، كل مائدة طول ميل وأطول، ومعه عدّة من الطبّاخين، مع كل طباخ شيطان يُعينه، ورتب في كل مخبز ألف خباز، وفي كل مطبخ ألف طباخ.

قال ويقال: إنه كان يُذْبَح في مطبخه في كل يوم من الإبل والبقر والغنم زيادة على ثلاثين ألف رأس، ويستعمل في مطابخه كل يوم كذا وكذا كُرّا من الملح، وكانت موائده منصوبة لعامّة الناس فقيرِهم وغنيّهم، وكان يُؤْتَى للطير في كل يوم من الحبوب سبعون ألف كُر — والكر عشرة أجربة، والجريب ثلاثون قفيزا(٢) — وكانت تظل البلاد بأجنحتها.

(١) زيادة عن الكسائي.

(٢) القفيز: مكيال ثمانية مكاكيك. والمكوك صاع ونصف. ويقدر الصاع بالكيل المصري بقدحين وثلث.

٧/١٢ ذكر خبر الرزق الذى سأل سليمان الله تعالى أن يجريه على يديه

قال الكسائى : ولما نظر سليمان — عليه السلام — إلى عِظَم ما آتاه الله — عز وجل — من المُلك، سأل الله تعالى أن يجعل أرزاق المخلوقات على يديه. فأوحى الله تعالى إليه : إنك لا تطيق ذلك . قال : يا رب فيوما واحدا ؛ فأوحى الله إليه : إنك لا تطيق ذلك . قال : يا رب فساعة واحدة ؛ فأوحى الله إليه : إنى قد أعطيتك ذلك ، فاستعد الآن لأرزاق خلقى واجمع لهم. فأخذ فى الاستعداد حتى جمع ما يُنيف على حمل مائة ألف بغل وبعير، وسار يريد ساحل البحر، حتى أتاه ووضع ما جمعه هناك، ونادى مناديه فى سكّان البحر احضُروا لقبض أرزاقكم. فاجتمع الحيتان والضفادع ودوابُّ البحر على صُوَر مختلفة، وإذا بحوت قد أخرج رأسه وقال : اشبعنى يابن داود ، وهو على مثال الجبل . فقال سليمان . دونك الطعام ، فأكل جميع ذلك، ثم قال : زِدْنى يا نبىّ الله، والله ما أصابنى الجوع منذ خلقنى ربى كما أصابنى اليوم حين جُعِل رزقى على يديك. فعجب سليمان منه وقال: هل فى البحر مثلُك ؟ فقال : إنى لفى زُمرة من الحيتان فيها سبعون ألف زمرة ، كل زمرة مثلُ عدد الرمل ؛ وفى البحر حيتان لو دخلت أنا فى جوف أحدها ما كنت إلا كخردلة فى أرض فَلاة. فبكى سليمان عند ذلك وقال: رب أقِلْنى عثرتى. فأقاله الله تعالى، ثم أوحى إليه : أنْ قِف يابن داود حتى ترى جنودى، فإنّ ما رأيت قليل . فوقف وإذا بالبحر قد اضطرب اضطرابا عظيما وخرج منه شىء أعظمُ من الجبل يشقّ البحر شقّا وهو يقول : سبحانَ من تكفّل بأرزاق العباد ، ثم نادى : يابن داود ، لولا اليَدُ الباسطة عليك لكنتَ أضعف الخلائق ، وإنك لم تقدر أن تُشبع حُوتا واحدا ولا نال كلٌّ طُعمه، فكيف تقدر أن تتكفّل بأرزاق الخلائق ! . ثم مرّ ذلك الحوت، فنظر سليمان إلى خَلْق عظيم، وقال : إلهى، هل خلقتَ خلقا

أ كبرَ من هذا ؟ فأوحى الله تعالى إليه : إنّ فى البحر مَن يحتاج أن يأكل سبعين ألفا مثل هــذا ولا يُشبِعه، ولا يُشبِعه إلا نعمتى ولطفى . فعلِم سليمان أنّ الذى أُعطِيَه ليس بشىء فى قدرة الله عز وجل . والله الواسع المتفضّل .

ذكر خبر بناء بيت المَقْدِس وٱبتداء أمره

قال أبو إسحاق الثعلبىّ — رحمه الله — فى سبب بنــاء بيت المَقْدِس : إن الله تعالى بارك فى نســل إبراهيم — عليــه السلام — حتى جعلهم فى الكثرة غاية لا يُحصَوْن . فلما كان زمن داود — عليه السلام — لبِث فيهم مــدّةً مديدةً بأرض فَلَسْطِين وهم يزدادون كلّ يوم كثرةً ، فأُعجِبَ داودُ بكثرتهم فأراد أن يعــلَمَ عدد بنى إسرائيل فأمر بعدّهم ، و بعث لذلك عُرَفاء ونُقَباء ، وأمرهم أن يرفعوا إليه ما بلَغ من عِدّتهم ، فكانوا يَعُــدّون زماناً من الدهر حتى عَجَزوا وأيِســوا أن يحيط علمهم بعــدد بنى إسرائيل . فأوحى الله تعالى إلى داود : إنى وعدت أباك إبراهيم يومَ أمرته بذبح ٱبنه فصدّقنى وٱتمر بأمرى أنْ أبارك له فى ذرّيته حتى يصيروا أكثر من عدد نجوم السماء ، حتى لا يحصيهم العادّون . و إنى قد أقسمتُ أن أبتليهم ببليّة يقلّ منها عددهم ، و يذهب عنك إعجابك بكثرتهم . وخيّره بين أن يبتليهم بالجوع والقحط ثلاث سنين ، وبين أنْ يسلّط عليهم عدوهم ثلاثة أشهر ، وبين أن يسلّط عليهم الطاعون ثلاثة أيام . بخمع داود بنى إسرائيل وأخبرهم بما أوحى الله تعالى إليه وخيّره بينه . فقالوا : أنت أعلم بما هو أيسر لنا ، وأنت نبيُّنا فٱنظُرْ لنا غيرَ الجوع فلا صبرَ لنا عليه ، وتسليطُ العدوّ أمر فاضح . فإن كان ولا بدّ فالموت ، لأنه بيده لا بيد غيره . فأمرهم داود أن يتجهّزوا للمــوت ، فٱغتسلوا وتحنّطوا ولبســوا الأكفان و برزوا إلى صعيد بيت المقدس قبــل بناء المسجد بالذرارىّ والأهلين ، وأمرهم داود أن

يَضِجُّوا إلى الله تعالى وأن يتضرّعوا إليه لعله أن يرحمهم . فأرسل الله عليهم الطاعون فأُهْلِكَ منهم فى يومٍ وليـلةٍ أُلوفٌ كثيرةٌ لا يُدرَى عددُهم ، ولم يفـرُغوا من دفنهم ٨/١٢ إلا بعد مدّة شهرين .

فلما أصبحوا فى اليوم الثانى خرّ داود ساجدًا يبتهل إلى الله تعالى ، فآستجاب الله تعالى منه و كشَف عنهم الطاعون و رفع عنهـم الموت . و رأى داود الملائكة سالّين سيوفَهم فأغمدوها وهم يرقَوْن فى سُـلَّم من ذهب من الصخرة إلى السماء . فقال داود لبنى إسرائيل : إن الله قد منّ عليكم ورحمكم فجـدّدوا له شكرا . قالوا : وكيف تأمُرنا ؟ قال : آمركم أن تتّخذوا من هـذا الصعيد الذى رحمكم الله فيـه مسجدًا لا يزال فيه منكم وممن بعدكم ذكر الله تعالى . فأخذ داود فى بنائه . فلمّا أرادوا أن يبتدئوا البناء جاء رجلٌ صالح فقير يختبرهم ليعلم كيف إخلاصهم فى بنيانهم ، فقال لبنى إسرائيل : إنّ لى فيه موضعًا أنا محتاج إليـه ، فلا يحلّ لكم أن تحجبونى عن حقى . قالوا له : يا هذا ، ما من أحد من بنى إسرائيل إلا وله فى هـذا الصعيد حقّ مثلُ حقّك ، فلا تكن أبخَلَ الناس ولا تضايقْنا فيه . فقال : أنا أعرف حقى وأنتم لا تعرفون حقكم . قالوا له : إمّا أن ترضَى وتطيب نفسًا و إلا أخذناه كَرها . قال لهم : أوَتجدون ذلك فى حكم الله تعالى وحكم داود ؟ ! قال : فرفعـوا خبره إلى داود فقال : أرْضُوه . فقالوا : نعم نأخذه منه يانبيّ الله بثمنه . قال : خذوه بمـائة شاة . فقال الرجل : زدْنى يا نبيّ الله ؛ فقال : بمـائة بقرة . قال ؟ زدنى يانبيّ الله ؛ قال فمائة بعير . قال : زدنى يا نبيّ الله ، فإنما تشتريه لله تعالى . فقال داود : أمّا إذ قلتَ هـذا فآحتكم أُعطِك . قال : تشتريه منى بحائط مثـله زيتونًا ونخلًا وعنبًا ؟ قال نعم . قال : أنت تشـتريه لله تعالى فلا تبخَل . قال : سَـل ما شئت أُعطِك ، و إن شئتَ أُوجِرْك نفسى . قال : أوَ تفعل ذلك يا نبيّ الله ؟

قال : نعم إذا شئت . قال : أنت أكرم على الله تعالى من ذلك ، ولكن تبنى حولَه جِدارًا ثم تملؤه ذهبًا وإن شئت ورِقا . قال داود : هو هيّن . فالتفت الرجل إلى بنى إسرائيل وقال : هذا هو التائب والمخلص . ثم قال لداود : لَأنْ يغفر الله تعالى لى ذنبًا واحدًا أحبُّ إلَيّ من كل ما وهبتَ لى ، ولكن كنت أختبركم . فأخذوا فى بناء بيت المقدس، وذلك فيما قيل لإحدى عشرة سنة مضت من خلافة داود . وكان داود ينقل لهم الحجارة على عاتقه، وكذلك خيارُ[1] بنى إسرائيل حتى رفعوه قامة . فأوحى الله تعالى إليه : إن هذا بيت مقدّس، وأنت سفّاك للدماء، ولست بانيَه، ولكن آبنٌ لك أملّكه بعدك آسمُه سليمان أُسلّمه من سفك الدماء وأقضى إتمامَه على يديه ويكون له صيتُه وذكرُه .

قال : فصلّوْا فيه زمانًا إلى أن توفّى الله نبيّه داود وآستخلف سليمان وأمره بإتمام بناء بيت المقدس . فجمع سليمان الإنس والجنّ والشياطين وقَسَم عليهم الأعمال ، فخصّ كلّ طائفة منهم بعمل . فأرسل الجن والشياطين فى تحصيل الرُّخام والمها[2] الأبيض الصافى من معادنه ، وأمر ببناء المدينة بالرُّخام والصُّفّاح، وجعلها آثنى عشر رَبضا[3] ، وأنزل كلّ رَبَض منها سِبْطا من الأسباط . فلمّا فرغ من المدينة آبتدأ فى بناء المسجد ، فوجه الشياطين فِرَقا ، فريقًا منهم يستخرجون الذهب والفضّة من معادنها ، وفريقا يغوصون فى البحر و يستخرجون أنواع الدُّرّ و يقلعون الجواهر والحجارة من أماكنها ، وفريقا يأتونه بالمسك والعنبر وسائر أنواع الطِّيب من أماكنها ، فأُتِىَ من ذلك بشىء لا يحصيه إلا الله تعالى . ثم أحضر الصُّنّاع

(١) فى نسخة الثعلبى المطبوعة : «أخيار» .

(٢) المها : البلور .

(٣) الربض (بالتحريك) هنا : الناحية .

وأمرهم بنحت تلك الحجارة وتنضيدها ألواحا، وإصلاح تلك الجواهر وتثقيبها؛ فكانوا يعالجونها فتصوّت صوتًا شديدا لصلابتها . فكره سليمان تلك الأصوات، فدعا الجنّ فقال لهم : هل لكم حيلة فى نحت هذه الجواهر من غير تصويت ؟ فقالوا : يانبى الله، ليس فى الجنّ أكثرُ تجارب ولا أكثرُ علمًا من صخر، فاستدعاه . وكان من أمره فى حضوره إليه والتلطف فى تحصيل حجر السامور ما نذكره — إن شاء الله تعالى — فى أخبار صخر .

قالوا : فلمّا أُتِىَ بحجر السامور، وهو حجر المـاس، استعمله فى أدوات الصُّنّاع، فسهّل عليهم نحت الحجارة .

قالوا : فبنى سليمان المسجدَ بالرُّخام الأبيض والأصفر والأخضر، وعمّده بأساطين المَهَا الصافى، وفصّصه بألواح الجواهر الثمينة، وفصّص سقوفه وحيطانه باللآلىء واليواقيت وسائر الجواهر، وبسط أرضه بألواح الفَيْروزَج ، فلم يكن يومئذ بيت فى الأرض أبهى ولا أنور من ذلك المسجد ، وكان يضىء فى الظلمة كالقمر ليلة البدر .

قالوا : فلما فرغ من بنائه جمع أحبار بنى إسرائيل فأعلمهم أنه بناه لله ٩/١٢
تعالى ، وأنّ كلّ شىء فيه خالص لله تعالى . واتّخذ ذلك اليوم عيدا ، فلم يُتَّخَذْ فى الأرض قطُّ أعظمُ منه ولا من الأطعمة التى عُمِلتْ فيه . قيل : إنه ذبح من الخراف خمسين ألفا، ومن البقر خمسة وعشرين ألفا معلوفة ، ومن الغنم أربعمائة ألف شاة .

قالوا : ومن أعاجيب ما اتّخذ سليمان ببيت المَقْدس أنه بنى بيتًا وطيّن حيطانه بالخُضرة وصَقَله ؛ فكان إذا دخله الوَرِع البارّ استبان خيالُه فى ذلك الحائط أبيض؛

و إذا دخله الفاجر ٱستبان خيالُه فى الحائط أسود . فارتدع عند ذلك كثير من الناس عن الفجور والخيانة : ونصب فى زاوية من زوايا المسجد عصا آبنُوس، فكان مَنْ مسّها من أولاد الأنبياء لم تضرّه، ومن مسّها من غيرهم ٱحترقت يدُه :

قالوا : ولمّـا فرغ من بناء بيت المقدس قرّب قرباناً على الصخرة، ثم قال : اللّهمّ أنت وهبت لى هذا المُلك منّاً منك علىّ، وجعلتنى خليفتك فى أرضك، وأكرمتنى به من قبل أن أكون شيئا، فلك الحمـدُ. اللّهمّ إنى أسألك لمن دخل هذا المسجدَ خصالاً : ألّا يدخله أحدٌ فيصلىَ فيه ركعتين مخلصًا فيهما إلا خرج من ذنو به كيوم ولدته أمّه ، ولا يدخله مستتيب إلا تُبْتَ عليـه، ولا خائفٌ إلا أمّنته، ولا سقيم إلا شَفَيته، ولا مُجدبٌ إلا أخصبته وأغنيته . و إذا أجبتَ دعونى فآجعلْ علامتها أن تقبل قُرْبانى . قال : فنزلت نارٌ من السماء فسدّت ما بين الخافقين ثم ٱمتدّ منها عنق فاحتمل القُرْبان وصعد به الى السماء .

وقال سعيد بن المسيّب : لمّا فرغ سليمان من بناء بيت المقدس تغلّقت أبوابه، فعالجها سليمان فـلم تنفتح حتى قال فى دُعائه : بصـلوات أبى داود إلا ما فُتحت الأبوابُ ، ففُتحت. ففرّغ له سليمان — عليه السـلام — عشرة آلاف من قرّاء بنى إسرائيل، خمسةَ آلاف بالليل، وخمسةَ آلاف بالنهار، فلا تأتى ساعةٌ من ليل أو نهار إلا والله عز وجل يعبَد فيها فيه .

وحكى الكسائىّ فى خبر بناء بيت المقـدس قال : فأوحى الله تعالى إلى سليمان — عليه السـلام — أن تبنىَ بيتَ المقـدس وترفعَ قواعدَه كما رفع إبراهيم قواعد البيت العتيق، وأن تبنيه على صخرة المعراج. فأمر سليمانُ الجانّ أن تقطع الصخور وتنقـل الرُّخام والأحجـار والعَمد وآلات العمارة إليه؛ ثم أمر بالبناء على الأساس

الذى كان داود وضعه . فلما كمل البناء آنهار وآنهدم ؛ فأمر أن يُحْفَر أساسُه حتى يبلغ الماء ، وعقد البناء بالحجارة المنحوتة بعضها على بعض ، فغلب الماءُ على البناء فما آنعقد الأساس . فأمر أن تُصْنَع قِلالُ النحاس والرَّصاص ، وختمها بخاتَمه ، وجعلها تحت الأساس . ثم أمر بالبناء فوقها فبنيت وآرتفع البناء ، وعمل فيه عشرة آلاف عمود من الرُّخام الملوّن ، على كلِّ عمود سارية من الذهب ، وسارية من الفضة ؛ ومحاريب الذهب والفضة ، وكمل البناء والزخرفة فى أربعين يوما .

قال : وكان يعمل فيه فى كل يوم ألفُ عِفْريت من الجن وألفُ شيطان وألفٌ من الإنس . وفرغ منه يوم عرفة ، وآتخذ له قناديلَ من الذهب بسلاسل الفضّة .

قال الثعلبىّ : فكان بيتُ المَقْدِس على مابناه سليمان إلى أن غزاه بُخْتَنَصَّر ، فخرّب المدينةَ وهدمها ، ونقض المسجد ، وأخذ ما كان فى سقوفه وحيطانه من الذهب والفضة والدرّ والياقوت وسائر الجواهر ، فحمل ذلك معه إلى دار مملكته من أرض العراق . قال : ثم لم يزل خرابًا إلى أن بُنِيَ فى الإسلام .

قال الكسائىّ : ثم أمر آلله سليمانَ بجهاد العدوّ ، فرغب فى جمع الخيل ، فأُهديت إليه من جهة ملوك الأطراف الخيولُ المسوّمة ، فآجتمع له ما يُنيف عن سبعين ألف فرس بسروج الذهب والفضة بأجلّة الديباج . وسار صوب بلاد الشام . وكان إذا خرج للغزو لا يستصحب شيطانًا ولا جِنّيًّا بل العبّاد من بنى إسرائيل . والله المعين .

ذكر خبر وادى النمــل وما قيـــل فيه

قال : ولمّا سار سليمان لقصد الغزو مرّ فى طريقه بوادى النمل . قال الثعلبىّ : إنه مرّ بوادى السدير[1] (واد من الطائف) فأتى وادىَ النمل[2] . قال الكسائىّ : فنظر إليهم و إذا هم يزيدون على مائة ألف كُردوس[3] مثلَ السحاب ، وهم زُرق العيون ، ولهم أيدٍ وأرجُل . فقال سليمان : إنى أرى سحابة فى الأرض لا أعلم ما هى . فحملت إليه الريح قول النملة كما أخبر الله تعالى عنها : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾[4] . قال : ونزل الناسُ معه ، فقال : أتدرون ما هذا السواد ؟ هذه أمّة من الأمم يقال لها النمل ، وأخبرهم بقول النملة ، وسجد وسجدوا شكرًا لله تعالى . ودخلت النملُ مساكنَها زُمرةً بعد زُمرة ، والنملة تناديهم : الوَحَا الوَحَا[5] فقد وافتكم الخيل . فصاح بها سليمانُ وأراها الخاتَم فجاءته خاضعةً ، فوقفت بين يديه وهى أكبر من الذئب ، فسجدتْ بين يديه ثم قالت : يانبىّ الله ، ما سجدتُ قبلك إلا لأبيك إبراهيم ، وهأنا بين يديك مُرْنى بأمرك . فقال : ما الذى تكلّمتِ به قبل وصولى إليك؟ قالت : يا نبى الله ، إنى رأيتك فى مَوْكِبك وعسكرك ، فناديتُ النملَ أن يدخلوا مساكنهم لئلّا يحطمهم جُنْدُك ، وأنا كمثل غيرى من الملوك أُريد الإصلاح لقومى . فقال لها : كم عددكم ؟

١٠ / ١٢

(١) فى التفسير الكبير المسمى بالبحر المحيط لأبى حيان (ج ٧ ص ٦٠) : « وادى السدر من الطائف »

(٢) وادى النمل : بين بيت جبرون وعسقلان كما ذكره ياقوت فى معجم البلدان .

(٣) كردوس : فرقة .

(٤) سورة النمل آية ١٨ ، ١٩ .

(٥) الوحا الوحا (بمدّ وبقصر) أى أسرعوا أسرعوا .

وما تأكلون وما تشربون؟ قالت : يا نبيّ الله ، لو أمرتَ الجنّ والشياطينَ أن يحشرونا إليك لعجَزوا ، وليس على وجه الأرض وادٍ ولا جبلٌ ولا غابةٌ إلا وفى أكنافها مثل سُلطانك كراديس من النمل . ولو تفرّق كُردوس واحد فى الأرض لمَـا وسِعته ولقد خُلقنا قبل أبيك آدم، و إنا لنأكل كل رزق ربنا ونشكره . فأمرها أن تَعرِض النمل عليه . فنادتهم، فمرّوا به زُمرةً بعد زُمرة، وسلّموا عليه بلُغاتهم وهو ينظر إليهم . فقالت مَلِكةُ النمـل : يا نبيّ الله، مِنّا ما يأوى الجبالَ ، ومِنّا ما يأوى قُرْبَ المياه والأشجار والزرع، وفى الهواء وهى الطيّارة، فإذا نبتت أجنحتها هلكت واختطفتها الطير. والنملة لا تموت حتى يخرج من ظهرها كراديسُ من النمل . وليس على ظهر الأرض أحرصُ من النمـلة، و إنها لتجمع فى صيفها ما يملأ بيتها وهى مع ذلك تظن أنها لا تَشْبَعُ . وتسبيحُها تسأل ربّها أن يُوسّـع الرزقَ على خلقه . قال الثعلبيّ قال الضحّاك : اسم النملة [التى كلمت سليمان](١) «طاحية»(٢) وقيل : «حرمى»(٣) . والله أعلم .

ذكر خبر البعوض وما قيـل فيه

قال الكسائىّ : ولمـا نظر سليمان إلى كثرة النمل قال : إلٰهى هل خلقت أكثر من النمـل؟ فأوحى الله إليـه : نعم وسترى ذلك . ثم أمر الله تعالى مَلكَ البَعُوض أن يحشرها لسليمان ، فحشرها من شرق الأرض وغربها . فأقبلت كراديس البَعُوض

---

(١) زيادة عن الثعلبيّ .

(٢) كذا فى نسخة الثعلبي المخطوطة والجزء الخامس من تفسيره المسمى «الكشف والبيان فى تفسير القرآن» المحفوظ بدار الكتب المصرية برقم ٧٩٧ تفسير . وفى شرح القاموس مادة «طخى» بالخاء المعجمة والنسخة المطبوعة من الثعلبيّ : «طاخية» وقال صاحب شرح القاموس نقلا عن النهاية : اسمها «عيجلوف» . وفى الأصول : «طاجية» بالجيم المعجمة .

(٣) كذا فى الثعلبي المخطوطة والمطبوعة . وفى شرح القاموس نقلا عن أعلام السهيلى : «حرميا» وفى الأصول : «جرما» .

كالسحاب يتبع بعضُها بعضًا حتى وقف منهم كُرْدُوس على سليمان ، وأقبل مِلكُهم وقال : يا نبيّ الله ، مالكَ ولِلضُّعفَاء من خَلْق ربِّك ألهيتهم عن التسبيح ! . يابنَ داود ، إنّا فى هـذه الأرض قبـل أبيك آدم بألفَىْ عام ما عُرِضْنا على آدمىّ غيرك ، نأكل من رزق ربنا ، ولا نفتُرُعن ذكره صباحًا ولا مساء . قال : أخبِرونى كم أنتم ؟ وأين مأواكم ؟ ومن أين تُرْزَقون ؟ قال مِلكُهم : يا نبىّ الله ، تحت يدى سبعون سحابةً ، كلُّ سحابة تملأ المشرق والمغرب ، لكلّ زُمرةٍ موضع معلوم ، تأكل كل واحدةٍ رزقَها ، ولولا خوف المعاد لأكلنا ما فى الدنيا . ثم سجدوا وآنصرفوا . وكان سليمان إذا أراد أن يُدرك قومًا بعث إليهم البعوضَ فيأكل جميع ما فى مدينتهم .

ذكر خبر الخيل وما قيل فيها

قال الله تعالى : ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾[1] . قال أبو الحسن علىّ بن ابراهيم الحَوْفى[2] فى "كتاب البرهان فى علوم القرآن" فى تفسيره هـذه الآية : الصافن من الخيـل الذى يجمع بين يديه . وقال الفرّاء : الصافن هو القائم . وقال مجـاهد : صُفُون الفرس إذا رفع إحدى رجليـه حتى يكون على طَرَف الحافر . قال ابن زيد : الخيل أخرجها الشيطان لسليمان من مَرْج من مُروج البحر . والصَّفْن أن يقوم الفرس على ثلاث و يرفعَ رجلاً واحدة ، يكون طرف الحـافر على الأرض . قال : وكانت لهـا أجنحة . قال : والجيـاد السِّراع . وذُكر أنها كانت عشرين فرسا ذوات أجنحة . قال وقوله : "إنى أحببت ١١/١٢

---

(١) سورة ص آية ٣١ وما بعدها .

(٢) الحوفى (بفتح الحاء المهملة وسكون الواو) نسبة الى الحوف : ناحية عمان .

حبّ الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب" إنه لَهَا عن الصلاة حتى فاتته ، قال قَتَادةُ والسُّدىّ : الخير : الخيل . وروى عن علىّ — رضى الله عنه — أنه سئل عن الصلاة الوسطى فقال : هى العصر ، وهى التى فُتِن بها سليمان . "حَتَّى توارت بالحجاب" ، يعنى الشمس حتى تغيب فى مَغيبها . وقوله "رُدُّوهَا عَلَيَّ" أى الخيل التى عُرِضتْ علىّ فشغلتنى عن الصلاة . "فطفق مسحا بالسوق والأعناق" ، أى جعل يمسح فيها السُّوق وهو جمع ساق . قال بعضهم : عقرها وضرب أعناقها ؛ قاله قَتَادة والحسن والسُّدىّ . وقال ٱبن عباس — رضى الله عنهما — : جعل يمسّح أعرافها وعراقيبها بيده حبًّا لها . وقيل : كشف عن عراقيبها وضرب أعناقها وقال : لا تَشغلينى عن عبادة ربّى مرّة أُخرى . قال أبو إسحاق : يجوز أن يكون الله أباح له ذلك لأنه لا يجعل التوبة من الذنب بذنب أعظمَ منه ، والله أعلم .

وقال الثعلبىّ — رحمه الله — فى قصّة الخيل قال الكلبىّ : غزا سليمانُ أهلَ نَصيبين ، فأصاب منهم ألفَ فرس . وقال مُقاتل : ورِث سليمان من أبيه داود ألف فرس ، كان داود أصابها من العمالقة .

قالوا : فصلّى سليمان الصلاة الأولى وقعد على كرسيّه ، فعُرض عليه منها تسعمائة[1] فرس ؛ فتنبّه لصلاة العصر ، فإذا الشّمس قد غابت وفاتته الصلاة ولم يعلم بذلك ، فاغتمّ وقال : ردّوها علىّ ، فردّت عليه ، فعرقبها بالسيف ، وقرّبها إلى الله — عز وجل — وبقى منها مائة فرس . فما فى أيدى الناس من الخيل العراب فهى من نسل تلك المائة . وقال كعبٌ : كانت الأفراس أربعةَ عشر فرسًا ، فأمر بضرب أعناقها وسُوقها بالسيف وقتلها ؛ فسلبه الله مُلْكه أربعة عشر يومًا ؛ لأنه ظلَم

(١) كذا فى الثعلبى وكتب التفسير . وفى الأصول : « أربعمائة » وهو لا يتفق مع السياق .

الخيل بقتلها . قال الثعلبي وقال قوم : " فطفق مسحًا بالسوق والأعناق " حبسها فى سبيل الله وكوى سوقها وأعناقها بميسم(١) الصدقة . وروى عن على بن أبى طالب — رضى الله عنه — أن الله تعالى أمر الملائكة الموكلين بالشمس فردوها ، وصلى سليمان العصر فى وقتها .

ذكر خبر بساط سليمان عليه السلام

قال الكسائى : وكان سليمان إذا ركب الريح تقدم أمام بساطه البعوض ثم الزنابير وكل ما يطير فى الهواء ، ثم الشياطين . وكان إذا أراد أن يركب الريح دعا الرياح الثمانية : الشمال والجنوب والصبا والدبور والصرصر والعقيم والكرس والراكى(٢) ، فيبسط بعضها على بعض ؛ ثم يبسط بساطه على هذه الرياح ، وكان من السندس الأخضر ، أخضر البطن أحمر الظهر ، أهداه الله تعالى اليه من الجنة ، لا يعلم طوله وعرضه إلا الله تعالى ؛ وقيل : كان طوله ثلاثمائة وسبعين فرسخًا فى عرض عشرة آلاف ذراع . وكان سليمان إذا ركبه جعل اللون الأخضر مما يلى الأرض ، فإذا رفع الناس رءوسهم اليه يرونه على لون السماء . وكان يجلس على كرسيه وعن يمينه و يساره القضاة والعلماء والأحبار من بنى اسرائيل على كراسى معدة لهم ، وهو جالس فى وسط البساط وزمام الريح بيده ، و يتغدى على مسيرة شهر ويتعشى على مسيرة شهر ؛ قال الله تعالى : ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾(٣) .

قال : وكان سليمان إذا ركب الرياح على بساطه يرى كل شىء عليه من الجن والإنس والشياطين والهوام وغيرهم ، والطير تظله ، ولا يقف على مدينة إلا فتحها .

(١) الميسم (بكسر الميم وفتح السين المهملة) : حديدة تكوى بها إبل الصدقة وغيرها لتعرف وتميز عن غيرها من الإبل المملوكة .

(٢) كذا فى الأصول . وفى الكسائى : « الكريس والدالى » .

(٣) سورة سبأ آية ١٢

ذكر خـــبر صخر الجـــنى

قال : وجمع سليمان — عليه السـلام — عفاريت الجنّ والشياطين وأمرهم بإحضار صخر الجنىّ، فقالوا : يانبىّ الله، إنّ الله قد أعطاه قوة جماعةٍ منّا، ويصعب علينا حمله إليك، وما لنا إلا أمر واحد وهو أنه يأتى فى كل شهر الى عينٍ فى جزيرة فيشرب ماءها . والرأى أن ننزفه منها ونملأها خمرا، فإذا جاء وشربه وسكر ذهبت قوّته فنحمله ونأتيك به . ثم خرجوا ففعلوا ذلك، وآختفَوْا فى تلك الجزيرة. فجاء صخر ليشربَ فآشتمّ رائحـةَ الخمر وقال : أيتهـا الخمرة إنك لطيّبة غيرَ أنك تسلُبين العقل وتجعلين الحليم جاهلا، وأمرُكِ كلُّه ندامةٌ، وآنصرف ولم يشرب . ثم عاد فى اليوم الثانى وقد أجهده العطش فقال : ما من قضاء يأتى من الله إلا كان مبرمًا، ثم نزل على العين فشرب حتى آمتلأ ، ثم قام ليخرج فسقط، فتبادرت العفاريتُ إليه ومعهـم طابَعُ خاتم سليمان . فلما رآه ذَلّ وخَضَع ، فحملوه حتى وقفوه بين يدَىْ سليمان وهو يُخرج من فِيهِ لَهَبَ النيران، ومن منخريه الدُّخان . فلما عاين الخاتَمَ ضعُفت قوته وخرّ ساجدًا على وجهه ، ثم رفع رأسه وقال: يا نبىّ الله، سيزول هذا المُلْك عنك ولا يبقى إلا ذكرُه . قال : صـدقت . ثم قال له : يا نبىّ الله، ما الذى أحوجك إلىّ وأنا بالبعد منك لا أختلط بالآدميين ؟ فقال له سليمان : إنّ الناس قد اشتكَوْا من وقع الحـديد وصوته على الحجر . فقال : عليك بوَكْرِ العُقَاب وعُشّه وبيضه، فليس شىء من الطيور أبصرَ منـه ، فأُتِىَ به . فوضـعه فى البرّيّة وغطّاه بجام من القوارير شـديد الصفاء فوضعه على عُشّ العقاب . فجاء العقاب فلم يرعُشّه، فطار فى الهواء حتى نظر إلى عُشّـه فى تلك البرّيّة ، فآنقضّ عليـه وضرب الجام برجله ليكسِرَه فلم يقـدر على ذلك، فطار وتعـلّق فى الهواء وغاب يومه وليلته، ثم أقبل صبيحة اليوم الثانى وفى منقاره قطعة من حجر السامور، فآنقضّ على الجام بذلك الحجر

فضربه به ، فانشق الحام نصفين ولم يُسْمَع له صوت ، وأخذ العقاب عُشّه و بيضهُ وترك حجر السامور هناك ، فأخذه صخر وهو فى صفاء المرآة وحرّ النار . فدعا سليمان بالعقاب وسأله عن حجر السامور من أين آحتمله ، فأخبره أنه من جبلٍ شامخٍ . فبعث سليمان الجن والشياطين فحملوا منه ما قَـدَرُوا ، فكان يقطع به الأحجـار والصخور والجَزْعَ من غير أن يُسْمَع له وَقْع .

قال : ثم قال صخر : يانبيّ الله ، أتحبّ أن أتّخذ لك مدينـةً ؟ قال نعم ؛ فاتخذَها . فعجب سليمان من ذلك ، وأمره أن يتّخذ له مدينةً دون تلك المدينة حتى يحملها معه على بساطه حيثما ذهب . فقال : يا نبيّ الله ، لك كلّما أردتَ السفر مدينةٌ على أيّ لون شئت . فبنى له مدينة فى طول عسكره وعرضه ، وجعل لكل سِبْط من الأسـباط قصرًا فى طول ألف ذراع وعرضه مثلُ ذلك ، وفى كل قصر بيوت وغُرَف ، ثم بنى بعد ذلك مجلسًا من القوارير فى طول ألف ذراع ، وعرضه مثل ذلك ، يجلس فيه العلماء والقضاة . وبنى لسليمان قصرًا عجيبا فى طول خمسة آلاف ذراع ؛ وعرضه مثلها ، وزخرفه بألوان القوارير ورصّعه بأنواع الجواهر ، وجعـل فيه جميع الصور والتماثيل وأتقن صنعته . وكان ممـا صنع صخر لسليمان الكرسيّ .

ذكر صفة كرسيّ سليمان عليه السلام وما آنتهى إليه أمره

قالوا : وكان مما عمله صخر الجنيّ لسليمان — عليه السلام — الكرسيّ ، وكان سليمان أمره بآتخاذه ليجلس عليه للقضاء ، وأمره بأن يعمله بديعًا مهولًا بحيث إنه إذا رآه مبطل أو شاهدُ زور آرتدعَ وتهيّب .

قال : فعمِل له الكرسيّ وكان من أنياب الفِيَلة وفصّصه بالياقوت واللؤلؤ والزَّبَرْجَد وأنواع الجوهر ، وحفّه بأربع نخلات من ذهب ، شماريخها من الياقوت

الأحمر والزَّبَرْجَد الأخضر ، على رأس نخلتين طاووسان من ذهب ، وعلى رأس النخلتين الأخريين نسران من ذهب ، بعضها يقابل بعضا ، وجعل مقابل جنبي الكرسيّ أسدين من ذهب ، على رأس كل أسد منهما عمود من الزُّمرد الأخضر ، وعقد على النخلات أشجار كروم من الذهب ، عناقيدها من الياقوت الأحمر .

قالوا : وكان سليمان إذا أراد صعوده وضع قدميْه على الدرجة السفلى فيستدير الكرسيّ كله بما فيه دوَرَان الرحا المسرعة ، وتنشر تلك النسور والطواويس أجنحتها ، ويبسط الأسدان أيديهما ويضربان الأرض بأذنابهما ، وكذلك كان يفعل فى كل درجة يصعد فيها سليمان . فإذا آستوى سليمان بأعلاه أخذ النسران اللذان على النخلتين تاج سليمان فوضعاه على رأس سليمان ، ثم يستدير الكرسيّ بما فيه ويدور معه النسران والطاووسان ، والأسدان مائلان برءوسهما إلى سليمان ، ينضحن عليه من أجوافها المسك والعنبر ، ثم تناوله حمامة من ذهب جاثمةٌ على عمود من جوهر من أعمدة الكرسيّ التوراةَ ، فيفتحها سليمان — عليه السلام — ويقرؤها على الناس ويدعوهم إلى فصل القضاء . فإذا دعا بالبيّنات [و] تقدّمت الشهود لإقامة الشهادات دار الكرسيّ بما فيه من جميع ما حوله دوَرَان الرحا المسرعة .

١٣ / ١٤

قال أبو إسحاق الثعلبيّ قال معاوية لوَهْب بن مُنَبِّه : ما الذى كان يُدير ذلك الكرسيّ ؟ قال : بلبلتان(١) من ذهب . قال : فإذا دار الكرسيّ بسط الأسدان أيديهما ويضربان الأرض بأذنابهما ، وينشر النسران والطاووسان أجنحتها فتفزّع منهما الشهود ويداخلهم الرعب الشديد ، فلا يشهدون إلا بالحق .

---

(١) فى قصص الأنبياء للثعلبيّ المخطوطة : « تنين عظيم » .

قال : فلما توفى الله سليمان — عليه السلام — وجاء بختنصر إلى بيت المقدس أخذ الكرسى وحمله الى أنطاكية(١)، وأراد أن يصعد عليه ولم يكن له علم بالصعود عليه ولا معرفة بأحواله . فلما وضع قدمه على الدرجة رفع الأسد يده اليمنى فضربه ضربة شديدة دقه و رماه ، فحمل بختنصر، فلم يزل يعرج منها و يتوجع إلى أن مات . و بقى الكرسى بأنطاكية حتى غزاهم ملك من ملوك الشام يقال له كداس بن سدارس فهزم خليفة بختنصر و رد الكرسى الى بيت المقدس ، فلم يستطع أحد من الملوك الصعود اليه . فوضع تحت الصخرة فغاب فلم يعرف له خبر ولا يدرى أين هو . والله أعلم بالصواب .

ذكر خبر بلقيس وابتداء أمرها

قال الكسائى قال كعب : هى بلقيس بنة ذى شرح(٢) ، وهى متولدة من الإنس والجن . وأمها عميرة بنت ملك الجن . وكان لاتصال ذى شرح والد بلقيس بعميرة بنت ملك الجن سبب عجيب نذكره على ما حكاه الكسائى ، قال : أهلك الله تعالى مساكن سبأ بسيل العرم ، على ما نذكر ذلك فى كتابنا هذا إن شاء الله تعالى ، وهو يلى أخبار ملوك قحطان ، وذلك فى الباب الثانى من القسم الرابع من الفن الخامس

(١) كانت فى القديم حاضرة سوريا ، وهى واقعة على منعطف من نهر العاصى ، وقد فاقت قديما غيرها من المدائن فى الثروة والعلوم والتجارة ، وكان لأهاليها امتيازات مدنية خصوصية حتى انها كانت الثالثة بين مدن مقاطعات الرومان العظيمة . وقد اشتهرت بحسن موقعها وطيب هوائها ، وكانت محفوفة بغياض السرو الكثيفة ومجارى المياه العذبة . (راجع قاموس الكتاب المقدس للدكتور جورج بوست) .

(٢) كذا فى كتاب الإكليل للهمدانى (ج ٨ ص ٣٠ طبع بنداد) ونسخة ب فى بعض المواضع مضبوطا بالقلم بفتح الشين المعجمة وسكون الراء المهملة . وفى نسختى أ ، ج : « ذو أشرح » . وفى تاريخ الطبرى (ص ٥٧٦ من القسم الأول) : « هى فيما يقول أهل الأنساب : بلقمة بنة اليشرح ، ويقول بعضهم : ابنة ايلى شرح ، و يقول بعضهم : ابنة ذى شرح بن ذى جدن بن ايلى شرح بن الحارث بن قيس ... الخ » . وفى الكسائى : « ذو سرح » بالسين المهملة .

فى السفر الثالث عشر من هذه النسخة[1] . قال : فلما آنقرضوا وأبادهم الفناء توارثها بعدهم جماعةٌ من الملوك ليس هذا موضع ذكرهم ، حتى آنتهى المُلْك إلى رجل فظّ غليظ يقال له شَرَاحِى الحِمْيَرِىّ . وكان من عادته مع قومه أنه آفترض على أهل مملكته فى كل أسبوع أن يأتوه بجارية من بناتهم فيفتضّها ثم يردّها الى أهلها . وكان ذو شَرْح وزيره وهو من أبناء ملوك حِمْير من ولد سبأ ، وكان لذى شرح ألفُ قصر وألفُ فرس عتيق[2] وألف سيف يمان ، وكان يرجع الى حُسْنٍ وجمالٍ وعقل ، وكان مُولَعا بالصيد ، فكانت الجنّ تتصور له فى صورة الظبى ، فإذا صادهم وهمّ بذبحهم كلّموه وقالوا له : لا تَعجَلْ فإنّا إنما جئنا لننظر الى محاسن وجهك . وكانت الجنّ تؤذى أهل اليمن ، فأقسم ذو شرح أن يقتل ملك الجنّ ويتزوج بآبنته . قال : وكان آسم ملك الجنّ عُمَير ، وكان حسن الوجه ، وآبنتُه عَمِيرة . فمرّ ذو شرح ذاتَ يوم فى واد من بلاد اليمن كثير الأشجار فنزل به ، حتى جنّه الليل ، وكان فى جمع قليل من أصحابه ، وكان الوادى الذى نزل به من مساكن الجنّ . فلما مضى بعض الليل سمع هَمْهَمَة الجنّ ، فقام ونادى : يامعشر الجنّ ، قد نزلتُ بكم الليلةَ على أن تُضيفونى فإنى جارٌ لكم ، فأسمعونى من أشعاركم . قال : فأنشدته الجنّ من أشعارها ، وجاءته عَمِيرة بنت عُمَير مَلك الجن على أحسن صورةٍ . فلما نظر إليها ذَهِلَ عقلهُ من حسنها ، وغابت عن عينه فشُغِفَ بحبها فقال : يامعشر الجنّ ، إن أنتم زوّجتموها منى وإلّا كنتِ حرباً لكم ما عشت أبدًا . فنادوه : ياذا شَرْح ، إنك آدمىّ فكيف تقاتل الجنّ ومسكنُهم الهواء وظلمات الأرض ! مهلًا أيها الآدمىّ لا تعرّض نفسك الى ما لا تقدر عليه وآرجع ، فإن قُدّر لك أمر فسوف تناله . فلما سمع ذلك أيِس

(١) يقع هذا فى نحو الجزء السابع عشر من أجزاء هذه الطبعة .

(٢) فرس عتيق ، أى رائع .

من التزويج وأخذ فى مستأنف أمره فى مؤالفة الجنّ ، فكان يُهاديهم بما يصلُح لهم من الهدايا ، فصافاه عُمَير ملك الجنّ وآخاه وأَلِفه حتى صار عنده كالأخ . فلما رأى ذلك ذو شَرْح وأنه قد تمكّن من ملك الجنّ قال له : هل لك أن تزوّجنى ٱبنتك عميرة ليكون لى فى ذلك شرفٌ الى الممات ! فورغب فيه عُمَير ملك الجنّ لحسنه و جماله وشرفه وماله ، فزوّجه ٱبنتــه بحضرة سادات الجنّ . وٱنصرف ذو شَرْح الى مدينة سبأ وآهدى هدايا كثيرة الى ملك الجن وساداتِ قومه ، ثم زُفّت إليــه فوطئها فحَمَلتْ منه . ١٤/١٢

ذكر خبر ميلاد بلقيس وكيف كان وسبب مُلْكها

قال : وَوَلَدت عَميرة بنت ملك الجنّ بِلقِيس بنت ذى شرح على أحسن ما تكون من الصُّوَر ، ثم ماتت أمها بعد ذلك بقليل ، فربتها الجن . فلما بلغت مبلغ النساء قالت لأبيها : إنّى كرهت المُقَام عنــد الجن فٱحملنى الى بلاد الإنْس فإنهم أحبّ الىّ . فقال لها : إنّ للإنس مَلِكًا ظالمـا وذكر لها سنته فى بلاد قومه ، وأنه يفتضّ الأبكار ثم يردّهن الى أهلهنّ . قالت : لا تخش ذلك علىّ وٱنقلنى ، وسترى ما يكون منّى . فبنى لها قصرًا خارجَ مدينــة سبأ من أعظم ما يكون من الأبنية ، وٱتّخذ لهــا عريشًا من العاج والآبِنوس والذهب والفضة ، ونقلها الى القصر وٱتّخذ لهــا أوانىَ الجوهر . فأقامت بِلقيس فى قصرها زمنـًا طويلا ، وٱنتشر خبرها إلى ملك سـبأ ، فركب فى موكبه حتى وقف على باب القصر ورأى حُسْنَ بنائه ، فرجع وأرسل بجارية من جواريه إلى بِلقيس ، فدخلت عليها ونظرت إليهــا و إلى ما فى قصرها من التُّحَف العظيمة وما عندها من جوارى الإنس والجنّ ، فعادت إلى الملك وأخبرته بمـا هى عليــه من الجمال وأنها ٱبنــة وزيره . فأحضره وأنكر عليــه وقال : كيف ٱتّخذتَ

تملك هـذا القصر ولك مثل هـذه البنت وأنت وزيرى ولم تعلمنى ولا آستأذنتنى فى بناته !. فقال : أيها الملك ، أمّا القصر فإنى أنفقت عليه المـال الذى ورثتـه من أبى . وأمّا البنت فإنها آبنة عميرة بنت ملك الجن، ورغبتْ فى السكن فى بلاد الإنس، فحملتُها الى هـذا المكان ، فهذه قصتها . فقال : صدقتَ فزوِّجنيها ولا بدّ من ذلك . فقال : أحتاج فى ذلك إلى إذنها . قال : إستأذنْها . فجاء اليها وقال : يا بُنَيّـة ، قد وقعتُ فيما كنت أخشاه عليكِ ، وذكر لهـا مقالة الملك . فقالت : زوِّجنى منه ولا تخف، فإنه لا يصل إلىّ . فزوّجها منه بحضور أكابر أهل المملكة . ولـمّا تمّ التزويج كتب الملك كتابا إليهـا يقول : إنى قد عشقتُ آسمَكِ قبـل أن أنظر إليك ، فإذا قرأتِ هـذه الرقعة فعجِّلى بحضورك إلىّ . فكتبتْ إليـه : إنى لمشتاقة إلى وجهك أشوقَ منك إلىّ ، غير أن قصرى هـذا هو من بناء الجن، وفيه عجائبُ كثيرة ، وقد جمعتُ فيه مالا يصلح إلا لمثلك، فإن رأيتَ أن تتحوّل إلى قصرى فآفعلْ . فلمـا ورد جوابها عليـه ركب لوقته فى حَشَمه وجنوده وسادات قومه . فبلغ بلقيس فقالت لأبيها : امضِ إلى الملك وقُـلْ له : إنّ آبنتى من بنـات الجن ولم تنظر قطُّ الى مثل هـذه الجنود، ففَرِّق هؤلاء وآدخل إليها منفردا . فقال ذلك للملك ، ففرّق جنوده وأتى إليهـا بمفرده، ودخل القصر وله سبعة أبواب . وكانت بلقيس قد جعلت عند كل باب جاريةً من بنـات الجن من أحسن ما تكون من النساء ، وفى أيديهنّ أطباق الذّهب فيهـا الدنانير والدراهم والطِّيب، وأمرتهن أن ينثُرنَ ذلك على الملك . فلمـا دخل توهّم أنّ كل واحدة منهنّ آمرأتُه وهمّ بالنزول عليها، فتقول : أنا خادمتها وهى أمامك ، حتى آنتهى إلى آخر الأبواب ، فتقدّمت إليه جارية وأصعدته إلى العرش ، فنظر الى القصر وما فيه من الآلات والزينـة ، فرأى ما لم يخطُر بباله . ثم أقبلتْ بلقيس والجوارى بين يديهـا ينثُرن على الملك من

أنواع النّثار وعلى رأسها تاجٌ، فصعِدت على عرشها. فلمّا رآها الملك فُتِن بها وكاد يَذْهَل عقلُه. وأخذت فى مخادعته وملاعبته، ثم أمرتْ بالطعام فأُحْضِر بين يديه. فآمتنع من الأكل وقال: ما أُريد أن أغفُل عن وجهك. فأمرتْ بإحضار الشراب فأُتِىَ به فى آلات الجوهر النفيس. وأخذا فى الشرب، فلم تزل به حتى أسكرته وغاب عن عقله ووقع على قفاه لا يعقل من أمره شيئا. فذبحته بِلْقيس، ثم دعتْ بأبيها وأعلمته بما فعلت. ففرِح وكتب إلى خُزّان الملِك عن الملِك: إنّى قد أحببتُ النزول بهذا القصر فآجمعوا ما فى الخزائن من الأموال وأَنْفِذوه إلى عندى[1]. فجمعوا الأموال وأنفذوها الى القصر. ثم أمرتْ بعد ذلك بآتخاذ الأطعمة فصُنعتْ ودعتْ ساداتِ ملوكِ اليمن. فلمّا جلسوا قُدِّمتْ إليهم الأطعمةُ فأكلوا، ثم قُدِّم إليهم الشراب فشربوا. فلما أخذ منهم أشرفتْ بِلقيس عليهم وقالت: إنّ الملك يأمركم أن توجِّهوا إليه بنسائكم وبناتكم. فغضبوا وقالوا: أمَا يكفيه أنه فضَح بناتِ العرب حتى طمِع فينا نحن! فقالت لهم: لا تغضَبوا حتى أرجع إليه وأُعرِّفه غضبكم. ثم أمرتْ أن يُعاد عليهم الشراب ثانيًا فشربوا ساعةً، فعادت إليهم وقالت: قد أخبرتُ الملِك بغضبكم ومقالتكم فقال: لا بدّ من ذلك. فآزداد القوم غضبًا وصاحوا. فقالت: على رِسْلكم حتى أراجعه وأسأله. ومضتْ وعادت فقالت: إنى عدتُ الى الملك فوجدته قد نام، فما رأيكم فى أمر أفعلُه وأريحكم مما أنتم فيه من شرّه على أن تملِّكونى على أنفسكم؟ قالوا نعم. فحلَّفتهم على ذلك وأخذت عليهم العهود والمواثيق، وغابتْ ساعةً وعادتْ ومعها رأسُ الملك فألقتهُ إليهم، ففرحوا بذلك واستبشروا وملَّكوها عليهم. فملكت بِضْعَ عشرةَ سنةً حتى بعث الله سليمان نبيًّا.

(١) فى الكسائىّ: «وأتونى بها» وهى أفصح لغة.

ذكر خبر سليمان وبلقيس وسبب زواجه بها

قال : وكان سببُ اتصال خبرها بسليمان عليه السلامُ أنه بينما هو يسير على بِساطه ، وكان الهُدْهُدُ دليلَه على الماء لأنه يراه من عِدّة فراسخ ، فارتفع فى الهواء لطلب الماء ، فنظر الى هُدْهُدٍ قد أقبل من ناحية اليمن ، فالتقيا . فقال له الهدهدُ السليمانىّ : من أين أنتَ ؟ قال : من اليمن . وسأله الآخر فقال : أنا من الشام من طيور الملك سليمان . قال : ومَنْ سليمان؟ قال : نبىّ الله ملك الجنّ والإنس والطير وجميع المخلوقات . قال : إنّ هذا مَلِكٌ عظيم . قال : وهل فى اليمن مَلِكٌ؟ قال : نعم ، مَلِكةٌ يقال لها « بِلقيس » تحت يدها عشرة آلاف قائد ، تحت يد كلّ قائد كذا وكذا ألفا من العساكر .

وحكى الثعلبىّ أنه قال لمّا أخبره بمُلْك سليمان : إن لصاحبكم مُلْكا عظيما ، ولكن ليس مُلْكُ بِلقيس دونه ، فإنها ملكةُ اليمن وتحت يدها اثنا عشر ألفَ قَيْل مع كل قَيْل مائةُ ألف مقاتل — والقيل هو القائد بلغة أهل اليمن — فهل أنت مُنطلِق معى حتّى تراها؟ قال نعم . فانطلقَ الهدهدان حتى أتيا بلادَ اليمن وصارا إلى قصرها ، فنظر اليها [الهدهد السليمانىّ][1] وإلى قصرها ومُلْكها . وحضر وقتُ الصلاة لسليمان فلم يجد الهدهد ، فقال ما أخبر الله به عنه : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾[2] أى بحجة بيّنة . ثم دعا العُقاب وقال : أنت عَريف الطير، فتعرّفْ لى خبر الهدهد . فطار فى الشرق والغرب ، وإذا هو بالهدهد قد أقبل من جهة اليمن ، فجاء به إلى سليمان ، فاستخبره عن سبب غيبته فقال : « أحطْتُ بما لم تُحِط به وجِئتُكَ من سَبَإٍ بِنَبَإٍ

(١) زيادة يقتضيها السياق . (٢) سورة النمل آيتى ٢٠ ، ٢١

بقين . إنى وجدتُ آمرأةً تملكهم وأُوتيتْ من كلّ شىء ولهـا عرشٌ عظيم » .
وذكر صفة عرشها وما فيه من أصناف الجواهر وغيرها ثم قال: «وجدتُها وقومها
يسجُدون للشمس من دون الله» وخرّ ساجدًا لله ، ثم رفع رأسه وقال : « ألّا يسجُدوا
لله الذى يُخرِجُ الخَبْ‌ء[(١)] فى السمٰوات والأرض » . قال سليمان : « سننظُر أصدقتَ
أم كنتَ من الكاذبين » ! ، ثم سأله عن المـاء فقال : هو تحت قائمـة كرسيّك .
فأمر سليمان بتحويل البساط ، فحُوّل ونقر الهدهدُ بمنقاره فخرج المـاء ، فشرب الناس
وصلّوا . ثم قال للهدهد : « اذهبْ بكتابى هـذا فألقه إليهم ثم تولّ عنهم فانظُرْ
ماذا يرجعون » وأقبل سليمان على آصف بن برخيا وقال : أكتُبْ إلى هذه المرأة
كتابا لطيفا . فدعا بصحيفةٍ من فضّة وكتب : « بسم الله الرحمن الرحيم . إنه من ١٦٠/١٢
سليمان. ألّا تعلُوا علىّ وأتونى مسلمين » . وختم الكتاب وبعثه مع الهدهد فى زُمرة من
الطير ، فأقبلوا نحو اليمن وانقضّوا على قصرها ، ودخل الهدهد إلى قُبّتها من كَوّة[(٢)] من
كوى القُبّـة وهى نائمة ، وقـد وضعتْ خاتم مُلكها على صدرها ، فوضع الكتاب
على نحرها وطار . فلما آستيقظتْ أخذت الكتاب وجمعتْ قومها ثم قالت : « إنّى
أُلقِىَ إلىّ كتابٌ كريم » وفتحتْه وقالت : إنه من سليمان ، وقرأتْه عليهم وعلمتْ أنه
من قِبَل رجل عظيم . وجمعتْ أكابرَ قومها وأهلَ العقل والعلم الذين فى مملكتها
و « قالت يأيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنتُ قاطعةً أمرًا حتى تشهدون . قالوا
نحن أولو قوّة وأولو بأس شديد والأمرُ إليكِ فانظرى ماذا تأمرين » . فعلمتْ عند
ذلك أنهم قد أخطئوا الرأىَ فى عزمهم على الحرب و « قالتْ إنّ الملوك إذا دخلوا
قرية أفسدوها وجعلوا أعزّة أهلها أذلّة وكذلك يفعلون . وإنّى مُرسلةٌ إليهم بهدية
فناظرةٌ بم يرجع المرسلون » .

(١) خبء الأرض : نباتها . وخبء السماء : مطرها . (٢) الكوة : الخرق فى الحائط .

قال : وأرادتْ أن تختبر حالَ سليمان عليه السلامُ فقالت : إنْ طلب الدنيا أرضيناه بالمال وصرفنا أذاه عنّا، وإنْ كان من الأنبياء ولم ترغّبه الدنيا لم يكن لنا أمرٌ إلا الطاعةُ له ، فمضَوْا على رأيها، فأمرتْ باتّخاذ الهدايا. فعاد الهدهد إلى سليمان وأخبره بما كان من أمرها مع قومها . فأمر سليمان أن يُفرَش مَيْدانه بِلَبِن الذهب والفِضّة، وأن يُبْنى حولَ الميدان حائطٌ من الفضة شُرُفاته من الذهب، على كل شُرْفةٍ تاجٌ من الذهب مرصّع بالجوهر، وأمر الجنّ أن يأتوا بأولادهم من الذكور والإناث، وأمر بإحضار كل فرس عجيب الخلْق .

قال الثعلبيّ : إنّ سليمان عليه السلامُ سأل الجنّ عن أحسن دوابّ رأَوْها في البحر. قالوا : رأينا دوابَّ في بحر كذا وكذا منمّرة منقّطة مختلفة ألوانُها، لها أجنحة وأعرافٌ ونواصٍ . قال : عَلَيّ بها الساعةَ ، فأتَوْه بها . قال : شُدّوها عن يمين المَيْدان ويساره، ففعلوا . قالوا : وأمر سليمان الشياطين أن يُظهروا من التهويلات ما لم يُظهروه قبل ذلك اليوم .

قال الكِسائيّ : وكانت بِلقيس قد أعدّتْ مائةَ لَبِنةٍ من الذهب، ومائةَ لَبِنةٍ من الفضّة ، ومائةَ غلام أمرد ، لكل غلام ضفائرُ كضفائر النساء ، ومائةَ وصيفةٍ مضمومات الشعر .

قال الثعلبيّ : واختلفوا في عددهم، فقال الكلبيّ: عشرة غِلْمانٍ وعشر جوارٍ. وقال مُقاتل : مائةُ وصيفٍ ومائةُ وصيفة . وقال مجاهد : مائتا غلام ومائتا جارية. وقال وهب : خمسمائة غلام وخمسمائة جارية . وألبستْ الغلمانَ ثيابَ الوصائف، وألبست الوصائفَ ثيابَ الغلمان .

وقال الثعلبيّ : قال وَهْبٌ وغيره من أهل الكُتُب : عَمَدتْ بِلْقيسُ إلى خمسمائة جارية وخمسمائة غلام، فألبست الجواريَ لباسَ الغِلمان، وألبست الغِلمان

لباس الجوارى ، وجعلت فى سواعدهم أساور من ذهب ، وفى أعناقهم أطواقاً من ذهب ، وفى آذانهم أقراطاً وشنوفاً (١) من ذهب مرصعات بألوان الجواهر ، وحملت الجوارى على خمسمائة رمكة (٢) ، والغلمان على خمسمائة برذون ، على كل فرس لجام من ذهب مرصع بالجواهر ، وغواشيها من الديباج الملون ، وبعثت إليه خمسمائة لبنة من ذهب ، وخمسمائة لبنة من فضة .

قالوا : وعمدت الى تاج من ذهب مرصع بالجواهر ، ومائة فرس من جياد خيول اليمن ، عليها براقع الحرير وأجلة الديباج ، وبعثت بحقة من ذهب فيها درة غير مثقوبة ، وجزع يمانى منقوب معوج الثقب ، [وقارورة] (٣) وبعثت ذلك مع وزيرها ، وكتبت جواب كتاب سليمان وقالت : قد بعثت إليك بمائتى وصيف ووصيفة على سن واحدة ، وأحب أن تميز ذكورهم من إناثهم من غير أن تكشف عنهم ، ودرة غير مثقوبة تأمر من يثقبها من غير أن تستعين بأحد من الإنس والجن والشياطين ، وجزع مثقوب تدخل فيه خيطاً ، وقارورة تملؤها ماء ما نزل من السماء ولا نبع من الأرض .

فلما جاء الرسول ونظر الى ميدان سليمان وحيطانه وما على شرفاتها من التيجان والخيول حول الميدان ، دخل على سليمان بالجوارى والغلمان والحقة والقارورة ، ولم يظهر الذهب والفضة والخيل لأنه استحقرها بالنسبة إلى ما رآه .

(١) الاشناف جمع شنف (بفتح الشين المعجمة وسكون النون) وهو ما يعلق فى أعلى الأذن . وأما ما يعلق فى أسفلها فهو قرط (بضم القاف وسكون الراء المهملة) .

(٢) الرمكة : الفرس .

(٣) زيادة يقتضيها الكلام الآتى .

وقال الثعلبيّ : إنه كان ممـا بعثته خمسمائة لَبِنة من ذهب ، وخمسمائة لبنة من فضة . قال : فلمّـا دنا القوم من الميدان ونظروا الى مُلْك سـليمان ورأَوْا الدوابّ ١٧/١٢
تَرُوثُ على لَبِن الذهب والفضـة رمَوْا ما معهم من الهدايا . قال : وفى بعض الروايات أنّ سـليمان لمـا أمر بفراش الميـدان بلَبِن الذَّهَب والفضـة أمرهم أن يتركوا على طريقهم موضعًا على قدر اللَّبِنات التى معهم . فلمّـا رأت الرسل موضع اللَّبِنات خاليًا وكل الأرض مفروشـة خافوا أن يُتَّهموا بذلك ، وطرحوا ما معهـم فى ذلك المكان .

قال : ثم مرّوا على الشياطين ، فلمّـا نظروا إليهم فزعوا . فقيل لهم : جُوزُوا فلا بأس عليكم . وكانوا يمرّون على كُرْدُوسٍ كُرْدوس (١) من الجنّ والإنس والطير والسباع والوحش حتى وقفوا بين يدى سليمان عليه السلام :

قال الكِسائىّ : فقُدّم الكتابُ إلى سليمان ، فأخبر سليمانُ الرسولَ بمـا فيه قبل فتحه وقراءته ، وميّز الوُصَـفاء من الوصائف ، وأمر دودةً فثقبتْ الدُّرّة وأدخلت الخيط فى الجَزْع ، وأمر أن تُساق الخيلُ حتى تعرق وتُملأ القارورةُ من عَرَقها ، وأقبل على وزير بِلْقيس وقال : ارجعْ إلى صاحبتك بمـا جئتَ به من الهديّة وقُلْ لهـا : « أَتُمِدُّونَنِي بِمَـالٍ فَمَـا آتَانِيَ ٱللهُ خَيْرٌ مِمَّـا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ . ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ » .

قال : فعاد الوزير إليها بما جاء به من الهديّة وأخبرها بما كان من أمر سليمان . فقالت لقومها : هل علمتم الآن أنّ رأيى كان أصوب من رأيكم فى ترك المحاربة ؟ ومن أين لنا طاقةٌ بحرب نبيّ ! ! ثم جمعتْ أموالها وكنوزها وآستصحبت ذلك معها

(١) الكردوس : الكتيبة من الخيالة .

إلا عَرْشَها فإنّها تركتْه بقصرها وأغلقتْ عليه سبعةَ أبوابٍ وسارتْ إلى سليمان ومعها ملوكُ اليمن وأكابرُها وساداتُها، فبلغ ذلك سليمانَ .

قال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله تعالى : شخصتْ بِلقيس إلى سليمان عليه السلام فى اثنَىْ عشر ألف قَيْلٍ من ملوك اليمن ، تحت يد كل قَيْل منهم مائة ألف . قال ابن عبّاس رضى الله عنهما : وكان سليمان رجلاً مَهيباً ، لا يُبتدأ بشىء حتى يكون هو الذى يسأل عنه . فخرج يوماً فجلس على سرير مُلْكه فرأى رَهْجاً(١) قريباً منه، فقال : ما هذا؟ قالوا : بلقيس . قال: وقد نزلتْ منّا بهذا المكان ؟ قالوا نعم . قال ابن عبّاس رضى الله عنهما : كما بين الكوفة والحِيرة قَدْرُ فرسخ .

قال : فأقبل حينئذ سليمانُ على جنوده فقال : « يأيها المَلَأُ أَيُّكُم يأتيني بعرشها قبلَ أنْ يأتُونى مُسْلمينَ. قال عفريتٌ من الجنّ أنا آتيكَ به قبلَ أنْ تقومَ مِنْ مَقامكَ وإنّى عليه لَقَوىٌّ أمينٌ » قال : أريد أسرعَ من ذلك. « قَالَ الّذى عِنْدَه عِلْمٌ من الكِتَابِ — وهو آصف بن بَرْخيا — أنا آتيك به قبلَ أنْ يرتدّ إليك طَرْفُكَ » . قال: وكان عنده اسمُ الله الأعظم . «فلمّا رآه مُسْتقرًا عِندَهُ قالَ هذا مِنْ فَضْلِ ربّى لِيبْلُوَنِى أأشْكُرُ أمْ أكْفُرُ ومَنْ شكَرَ فإنّما يَشْكُرُ لنَفْسِه ومَنْ كفَرَ فإنّ ربِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ» . ثم قال سليمان : « نَكِّروا لها عَرْشَها نَنْظُرْ أَتَهْتَدِى أمْ تَكُونَ مِنَ الّذين لا يَهْتَدُونَ » . فأقبل عفريتٌ من الجنّ وقال : يا نبيّ الله ، إنّ رجليها كحافر حمارٍ . قال له سليمان : إنْ كان ذلك كما قلتَ وإلا عاقبتُك . قال : يا نبىّ الله ، أُريد أن أتخذ لك صَرْحًا(٢) من قَوارير ، وأجرىَ فيه ماءً ، وأنزل فيه الحيتانَ والسمك ، فلا يشكّ مَنْ رآه أنه

(١) الرهج : الغبار أو ما أثيرته .

(٢) الصرح : القصر

ماءٌ جارٍ، فاتّخذه كذلك . فلمّا فرغ منه شكره. فقال : يا نبيّ الله، أُعفُ عنّى فإنّى كذبتُ على بلقيس فى رِجليْها ، فعفا سليمان عنه .

وأقبلت بلقيس فجعلتْ تنظـر إلى الجنّ والإنس والطـير والوحش وغيرهم، وهم قيامٌ لا يضرّ بعضهم بعضا . فلما قاربتِ الصَّرحَ الممرَّد إذا بعَرْشها، فتعجبتْ. فقيـل : أهكذا عَرْشُـك ؟ قالت : كأنّه هو ، وعلمتْ أنّه هو ، وأنه من قدرة الأنبيـاء .

قال : فلمّا أقبلتْ إلى الصرح حَسِبتْه لُجّة وكشفتْ عن ساقَيْها. فناداها سليمان : إنه صرحٌ ممرّد من قوارير . فأرسلت ثوبها على ساقَيْها حياءً من سليمان، ثم «قالت رَبِّ إنّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وأسْلمتُ مَعَ سُلَيْمانَ لِلّهِ رَبِّ العالمينَ » ثم أسلم قومُها .

قال الثعلبيّ : اختلف العلماء فى أمرها بعـد إسلامها ، فقال أكثرهم : لمّـا أسلمت بلقيس أراد سليمان أن يتزوّجها . فلمّا همّ بذلك كَرِه ما رأى من كثرة شعر ساقَيْها وقال : ما أقبحَ هذا ! . فسأل الإنس : بِمَ يذهب هذا ؟ فقالوا : بالموسى. فقالت المرأة : لم يَمَسَّنِى الحديدُ قطُّ، فكرِهه سليمان. فسأل الجنّ، فقالوا : لا ندرى. فسأل الشياطين فمكروا عليـه ، فلمّا ألحّ عليهم قالوا : نحن نحتال عليـه حتى يكون كالفضّـة البيضاء ، فاتّخذوا لهـا النُّورةَ(١) والحمّام . قال ابن عباس رضى الله عنهما : هو أوّل يوم اتُّخِـذَت فيه النُّـورة . وقال الكسائىّ فى سـياقة خبره : ثم قالت ١٨ / ١٢
بلقيس : يا نبيّ الله، أرى خاتَمَك منقوشا، فما الذى عليه ؟ قال : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » قالت ومَنْ محمد ؟ قال : نبيّ يخرج فى آخر الزمان ، فآمنتْ

(١) النورة : حجر الكلس ثم غلب على أخلاط تضاف إلى الكلس من زرنيخ وغيره ويستعمل لإزالة الشـعر .

بلقيس به . ثم قال لها بعد إيمانها : أتحبين أن ترجعي إلى بلادك وما كنت فيه؟ قالت : لا، بل أكون معك من بعض نسائك، فتزوج بها سليمان عليه السلام .

هذا ما أورده الكسائي . وفيه زيادات نقلها أبو إسحاق الثعلبي قد ذكرناها في أثناء القصة ونبهنا عليها ونسبناها إلى قائلها . وحكى الثعلبي أيضا في هذه القصة زيادات قد رأينا إثباتها؛ فمن ذلك وصف قصرها وعرشها .

ذكر صفة القصر الذى بنته بلقيس وصفة عرشها

قال أبو إسحاق الثعلبي قال الشعبي : يروى أن بلقيس لما ملكت أمرت بحمل إليها خمسمائة أسطوانة من الرخام ، كل أسطوانة خمسون ذراعا ، وأمرت بها فنصبت على تل قريب من مدينة صنعاء ، وخطت بين كل أسطوانتين عشرة أذرع ، ثم جعلت على ذلك سقفا مبسوطا بألواح الرخام وألحم بعضها إلى بعض بالرصاص حتى صارت كأنها لوح واحد . ثم بنت فوق ذلك قصرا مربعا من آجر وجعلت فى كل زاوية من زواياه قبة من ذهب مشرفة فى الهواء، وفيما بين ذلك مجالس حيطانها من ذهب وفضة مرصعة بأنواع الجواهر الملونة، فكانت الشمس إذا طلعت على ذلك القصر التهب الذهب والجوهر فيكاد يغشى العيون وتحار فيه الأبصار . وجعلت باب ذلك القصر مما يلى المدينة بدرج من الرخام الأبيض والأحمر والأخضر، وفى جانبه حجرا لحجابها وبوابيها وحرسها وخدمها وحشمها على قدر مراتبهم .

قال : وأما صفة عرشها فكان مقدمه من ذهب مفصص بالياقوت الأحمر والزمرد الأخضر، ومؤخره من فضة مكلل بأنواع الجواهر، وله أربع قوائم :

قائمةٌ من ياقوت أحمرَ، وقائمةٌ من ياقوت أصفرَ، وقائمةٌ من زُمرُّد أخضرَ، وقائمةٌ من دُرٍّ أصفرَ، وصفائح السرير من ذهب . وعليه سبعةُ بيوت، على كل بيت بابٌ مُغْلَقٌ، وكان ثمانين ذراعا فى ثمانين ذراعا، وطولُه فى الهواء ثمانون ذراعا، فذلك قوله : ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ . أىْ سرير ضخم

ذكر خبر وادى القِرَدَة

قال الكسائىّ : وبينا سليمان عليه السلامُ مع بِلْقِيسَ ذاتَ يوم إذ قال لها : أكلُّ اليمن فى طاعتك؟ قالت : نعم، إلّا وادٍ عن يمين سبأ، فيه أشجار ومياه غلبت عليه القِرَدَةُ وأزاحوا عنه سُكّانه، وهو وادٍ طويلٌ عريضٌ، وهم فى كثرة، وإنهم على سُنَن اليهود لا يتبايعون يوم السبت . فبعث سليمانُ العُقابَ ليأتيَه بخبرهم . فطار إلى الوادى وعاد اليه قبل أن يقوم من مُقامه ذلك، وأخبره بكثرتهم . فركب سليمان الريحَ على بِساطه فى قُبّة القوارير، وسار فى نفر من بنى إسرائيل حتى نزل على شَفِير الوادى، فعلم القِرَدة أنه سليمان، فبادروا إلى طاعته وأتَوْه، وقالوا : يا نبىّ الله، إنّا من نَسْل اليهود الذين اعتدَوْا فى السبت، ونحن على دين موسى نعمل بأحكام التوراة، وسألوه أن يُقِرّهم فى ذلك الوادى، فأقرّهم فيه وكتب لهم سِجِلًّا على لَوْح من نُحاس وجعله فى عُنق كبيرهم يتوارثونه، ثم انصرف عنهم . هكذا نقل . والصحيح أنّ الذين اعتدَوْا فى السبت وغيرهم ممن مُسِخ لم يُعْقِبوا . وفى الصحيح : إنّ الله لم يجعل لمَسِيخٍ(١) نَسْلا .

(١) مسيخ، أى ممسوخ .

ذكر خبر الرجل الذى قُبِض بأرض الهند

قال الكسائىّ : كان سليمان عليه السلامُ قد سأل الله تعالى أن يُرِيَه مَلَك الموت فأراه إيّاه، وكان يعوده ويأتيه فى كل خميس. فأتاه فى بعض الأيام على صُورة البشر، وجعل يُطيل النظر إلى رجل فى مجلس سليمان حتى ارعبَ ذلك الرجل. فلمّا فارقه مَلَك الموت قال : يانبىّ الله، لقد فزعنى هذا الرجل الذى كان فى مجلسك من نظره إلىّ، فَمَن هو؟ قال: هو مَلَك الموت. قال : يانبىّ الله أسالك أنْ تأمُرَ الريح أن تحملنى إلى أرض الهند، فأمرها سليمان فحملته من مجلسه ووضعته بأرض الهند. ١٩/١٢
ثم جاء مَلَك الموت إلى سليمان؛ فقال له : قد كنتَ اليوم عندى وأنت تنظر إلى ذلك الرجل نظرًا شافيا حتى خاف منك . قال : يانبىّ الله، إنى كنتُ قد أمرت بقبض روحه فى موضع من أرض الهند فى هذا اليوم، فلمّا رأيته عندك عجبتُ متى يصل إلى الهند ، فإذا الريح قد جاءت به ، فالقته فى البقعة التى أُمِرتُ بقبض رُوحه فيها ، فقبضتُ روحه هناك . فعجب سليمان عليه السلام من ذلك .

ذكر خبر الفتنة وذهاب خاتَم سليمان عليه السلام ورجوعه اليه

قال الكسائىّ : كان سليمان عليه السلامُ كلّما نزل بمنزلٍ من البرارى بنت الجنّ والشياطين له قصرًا بديعا، فإذا تحوّل عنه خرّبوه . وكان له قصر على ساحل البحر من بناء الجنّ ، فأمرهم أن يتركوه على حالته . فجاء سليمان إلى ذلك القصر فنزله ، وكان صخر الجنىّ معه وهو شديد الحرص على أن يَسلبه الخاتم؛ لأنه كان قد علِم أن مُلْكه فى خاتَمه . وكان لسليمان جاريةٌ آسمها «الأمينة» فكان إذا أراد الدخول الى الخلْوة بنسائه يسلّم الخاتم اليها، فإذا آغتسل أخذ خاتمه منها، وكذلك إذا أراد الوضوء. فجاء سليمانُ فى بعض الأيام فنزل ذلك القصر وأراد

الوضوء، فدفع الخاتم الى الجارية . فجاء صخر وقد ألقى على نفسه صورة سليمان، فقال للجارية : هاتِ الخاتمَ، فناولته إياه وهي لا تعلم . فلمّا صار الخاتمُ في يد صخر لم يستقر في يده لأنه شيطان ، فرماه في البحر ، فجاء حُوت بإذن الله فابتلعه . ومضى صخر وهو على صورة سليمان فجلس على كرسيّه ومعه الناس وهم يظنّون أنه سليمان ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾(١) قيل : الجسد هو صخر الجنى .

قال : وخرج سليمان من الخلاء وقد غيّر الله صورته إلى صورة صخر، فطلب الخاتمَ، فقالت الجارية : أعوذ بالله منك، قد دفعتُ الخاتم إلى سليمان . فعلم أنّ الله قد أوقع به البليّة ، فخرج يريد القصر ويقول للناس : أنا سليمان، والناسُ يهزءون بقوله ويقولون : لستَ سليمان أنت صخر الجنيّ . فجعل سليمان يدور على جميع الناس وهم على كلمة واحدة في إنكاره، وجعل يدور في القرى ويقول : أنا سليمان والناس يَشْتمُونه حتى لزق بطنُـه بظهره من الجوع، فقال : إلهى إنّكَ ابتليتَ كثيرا من الأنبياء ولم تحرمهـم رزقك . إلهى إنّى تائب إليك من خطيئتى . فلم يَزَلْ سليمان كذلك أربعين يوما لم يَطْعَمْ شيئا، ثم وجد قرصةً يابسةً مُلقاةً، فأخذها ولم يقدر على أكلها ليُبْسها، فأقبل الى ساحل البحر وقعد يبلّ القرصة فاستلبتْها الأمواج من يده . فقال : إلهى رزقتَنى بعد أربعين يومًا قُرصةً يابسة نزلتُ حتى أبلّها فاستلبتْها الأمواج من يدى وأنت المتكفّل بأرزاق العباد ، وأنا عبدك المذنب، فارزقنى فأنت الرزّاق الكريم . ثم جعل يمشى على الساحل وهو يبكى، فإذا هو بقوم يصطادون السمك ، فسألهم شيئا من الطعام فمنعوه وطردوه وقالوا له : انصَرِفْ عنّا، فما رأينا أوحش من وجهك . قال : ما عليكم من وجهى إذا أطعمتمونى؟! . قالوا : وحقّ سليمان

(١) سورة ص آية ٣٤

إنْ قُمْنا إليـك لنُوجعنّك ضربًا إن لم تَرُحْ[1] عنّا . قال : يا قوم، فأنا والله سـليمانُ .
فضربه رجلٌ منهم على رأسه وقال: أتكذِب على نبيّ الله! فبكى حتى بكت الملائكة
لبكائه ورحِمه أولئك القـوم وناولوه سمكةً وأعطَوْه سِكّينًا، فشقّ بطنها ليصلحها
ويَشْوِيَها ويأكلَها، فخرج الخاتمُ من بطنها فغسلَه وجعله فى إصبعه، وعاد اليه حسنُه
وجماله، فوضع السمكةَ وسار يريد قصره، فجعل يمرّ بتلك القُرَى، فكُلُّ من كان قد
٢٠/١٢ أنكره عَرَفه وسجَد له. فبلغ ذلك صخرا الجنيّ فهرَب. وعاد سليمان الى قصره واجتمع
له الإنس والجن والشياطين والسباع والهوامّ كما كانوا أوّل مرّة . فبعث العفاريت
فى طلب صخر فأتَوْه به، فأمر أن ينقُروا له صخرتين وصفّده بالحديد وجعله بينهما
وأطبقهما عليـه وختم عليه بخـاتَمه وطرحه فى بُحيرة طَبَرِيّة . فيقال : إنه فيها إلى
يوم القيامة . ثم أمر الله الرياح أن تَحشُر له سائر الشياطين فحُشِرتْ له، فصـفّد
مَرَدتَهم بالحديد وحبسهم . هـذا ما أورده الكِسائيّ فى قصّـة الفتنة، وهو أولى
ما أورده وأشبه ما نقل .

وحكى الثعلبيّ رحمـه الله فى خبر الفتنـة قال قال محمـد بن إسحـاق قال
بعض العلمـاء عن وهب بن مُنبِّه قال : سمع سـليمان عليه السـلامُ أنّ فى جزيرة
من جزائر البحر رجلًا يقال له «صَيْدون» ملِك عظيم الشأن لم يكن لأحد من الناس
عليـه سبيل لمكانه فى البحر . وقال غيره : إن هـذه الجزيرة مسيرة شهر فى مثله،
وفيها عجائب كثيرة وأشجار وأنهار، وفى وسطها مجلس على عمـد من مرمر ملوّن،
والمجلس من ذهب مفصـل بأنواع الجواهر يُشرف على جميع الجزيرة وقيـل :
إنه كان ساحرا، فكانت الجنّ تُطيف به وتعمل له العجائب، فـدَلّ سليمان
عليها فغزاه .

(١) كذا فى الكسائىّ . وفى الأصول : «تمرّ» .

نرجع إلى سياق الثعلبي قال: فخرج سليمان إلى الجزيرة تحمله الريح على ظهر الماء حتى نزل بها بجنوده من الجن والإنس، فقتل مَلِكها وسبى ما فيها، وأصاب فيما أصاب بنتَ الملك واسمها «جرادة» لم ير الناس مثلها حسناً وجمالاً، فاصطفاها سليمان لنفسه، ودعاها إلى الإسلام فأسلمت على جفاء منها وقلة ثقة، وأحبها سليمان حباً لم يحبه شيئاً من نسائه، وكانت منزلتها عنده منزلة عظيمة، وكان لا يذهب حزنها ولا ترقأ(١) دمعتها على أبيها. فشق ذلك على سليمان وقال لها: ويحك! ما هذا الحزنُ الذي لا يذهب، والدمع الذي لا يرقأ! . قالت: إني أذكره وأذكر مُلْكه وما كان فيه وما أصابه فيحزنني ذلك . قال سليمان: فقد بدلك الله مُلْكاً أعظم من ملكه، وسلطاناً أعظم من سلطانه، وهداك إلى الإسلام وهو خير من ذلك كله. قالت: إن ذلك كذلك، ولكن إذا ذكرته أصابني ما ترى من الحزن. ولو أنك أمرت الشياطين فصوروا لي صورته في داري أراها بكرة وعشية لرجوتُ أن يذهب ذلك، وأن يسكن عني بعضُ ما أجد في نفسي. فأمر سليمان الشياطين أن يمثلوا صورة أبيها في دارها حتى لا تنكر منه شيئاً، فمثلوه لها حتى نظرت إلى أبيها بعينه إلا أنه لا رُوحَ فيه. فعمدت إليه حين صنعوه فأزرته وقمصته وعممته بمثل ثيابه التي كان يَلْبَس. ثم كانت إذا خرج سليمان من دارها تغدو على ذلك التمثال هي وولائدها فيسجُدْن له كما كانت تصنع ذلك في مُلْكه، وتفعل ذلك بكرةً وعشيةً وسليمانُ لا يعلمُ بشيء من ذلك أربعين يوما. وبلغ ذلك آصف بن برخيا، وكان صديقا، وكان لا يُرَدّ من باب سليمان متى أراد دخوله من ليل أو نهار، فأتاه فقال: يانبي الله، كَبِرتُ سني، ودق عظمي، ونَفِدَ عمري، وقد حان مني الذهاب، وقد أحببتُ أن أقوم مقاما قبل الموت أذكر فيه من مضى من أنبياء الله وأُثني عليهم بعلمي، وأُعَلِّم الناس

(١) لا ترقأ: أي لا تجف ولا تنقطع.

ما يجهلون من كثير من أمورهم، فقال : افعل . فجمع له سليمان الناس فقام فيهم خطيبا، فذكر مَنْ مضى من أنبياء الله وأثنى على كلٍّ منهم بما فيه، وذكر ما فضّلهم الله به حتى انتهى إلى سليمان، فقال : ما كان أحلمك فى صغرك، وأورعك وأفضلك فى صغرك، وأحكمَ أمرك فى صغرك، وأبعدك من كل ما تكره فى صغرك، ثم انصرف . فوجَد سليمان فى نفسه من ذلك . فلمّا دخل سليمان داره أرسل إلى آصف بن بَرْخيا فقال : ذكرتَ مَنْ مضى من أنبياء الله، وأثنيتَ عليهم خيرا فى كل زمانهم، وفى كل حالٍ من أمورهم؛ فلما ذكرتنى جعلت تُثنى على بخير فى صِغَرى وسكتَّ عما سوى ذلك من أمرى فى كِبَرى، فماذا أحدثتُ فى آخر أمرى ؟ قال : لأنّ غيرَ الله يُعْبَد فى دارك أربعين يوما فى هَوَى امرأة. قال سليمان : فى دارى ! قال : نعم فى دارك. فاسترجع سليمانُ ثم دخل داره فكسر ذلك الصنم، وخافت تلك المرأة. ثم أمر سليمان بثياب الطُّهر فأُتِىَ بها، وهى ثياب لا يغزلها إلا الأبكار ولا تَمَسُّها امرأة ذاتُ دم. فلبسها ثم خرج إلى فلاة من الأرض وحده، فأمر برماد فَفُرِش له، ثم أقبل تائبا إلى الله حتى جلس على ذلك الرّماد تذلُّلا لله تعالى وتضرُّعا إليه، يبكى ويدعو ويستغفر مما كان فى داره، فلم يزل ذلك دأبَه حتى أمسى، ثم رجع إلى داره . وكان له وَليدة يقال لها «الأَمينة»، فكان إذا دخل لحاجته أو أراد إصابة امرأة من نسائه وضع خاتمه عندها حتى يتطهّر، فوضعه يوما من الأيام عندها ثم دخل لقضاء حاجته، فأتاها صخر الجنّىّ على صورة سليمان لا يُنْكَر منه شىء، فقال لها : يا أمينة، خاتمى؛ فناولته إياه، فجعله فى يده ثم خرج حتى جلس على سرير سليمان وعكفت عليه الجنّ والإنس والطير . وخرج سليمان فأتى الأمينةَ وقد تغير عن حِلْيته وهيئته عند كل مَنْ يراه. فقال : يا أمينة . قالت : ومن أنت ؟ قال : أنا سليمان بن داود . قالت : كذبتَ لستَ سليمان، وقد جاء سليمان وأخذ خاتمه وهو جالس على سريره فى مُلكه،

فعرف سليمان أنّ خطيئته قد أدركته ، فجعل يقف على الدار من دور بنى إسرائيل فيقول : أنا سليمان بن داود ، فيَحْثُون عليــه التراب ويسبُّونه ويقولون : اُنظروا إلى هــذا المجنون يزعم أنه سليمان . فلمّا رأى سليمان ذلك عمَد إلى البحر ، فكان ينقُل الحيتان لأصحاب البحر منه الى السوق فيعطونه كلَّ يوم سمكتين ، فإذا أمسَى باع إحدى سمكتيه بأرغفة ويشوى الأخرى فيأكلها . فمكث كذلك أربعين صباحا عدّة ما كان ذلك الوثن فى داره .

قال : وأنكر آصف وعظماءُ بنى إسرائيل حُكْمَ عدوّ الله الشيطان فى تلك المدّة . فقال آصف : يامعشر بنى اسرائيل ، هل رأيتم من آختلاف حكم سليمان بن داود ما رأيتُ ؟ قالوا نعم . قال : أمهلونى حتى أدخل على نسائه وأسألهنّ هل أنكرنَ منه فى خاصّة أمره ما أنكرناه فى عامّة أمرِ الناس . فدخل على نسائه فقال : ويحكنّ ! هل أنكرتنّ من أمر نبىّ الله سليمانَ ما أنكرناه ؟ فقلن : أشدّ وأعظم ، ما يدع آمرأة منّا فى دمهــا ، ولا يغتسل من جنابة . فقال آصف : إنّا لله و إنا إليه راجعون ، إن هــذا لهو البلاء المبين . ثم خرج إلى بنى اسرائيل فقال : ما فى الخــاصّة أعظُم ممّــا فى العامّة . فلمّا مضت أربعون صباحا طار الشيطان عن مجلسه ثم مرّ بالبحر فقذف الخاتمَ فيه ، فآبتلعته سمكة وأخذها بعض الصيادين ، وقــد عمِل له سليمان صدر يومه حتى إذا كان آخرُ النهــار أعطاه سمكتيه ، فأُعطىَ السمكةَ التى آبتلعت الخاتم ، وحمل سليمان سمكيته فباع التى ليس فيها الخاتمُ بالأرغفة ، ثم عمَد إلى السمكة الأخرى فبقرها ليشويها ، فآستقبله الخاتم من جوفهــا فأخذه ، فجعله فى يده ووقع ساجدا لله تعالى ، وعكفت عليه الطير و[illegible] . وأقبل إليه الناس ورجع إلى مُلكه وأظهر التوبة من ذنبه ، وأمر الشياطين بإحضار صخر فادخله فى صخرة عظيمة ، ثم شدّ عليه أخرى ، ثم أوثقهما بالحديد والرصاص ، ثم أمر به فقُذف فى البحر .

هـذا حديث وَهْب . وقال السُّدِّىّ فى سبب الفتنة : كان لسليمان مائةُ آمرأة وكانت منهن آمرأةٌ يقال لهـا « جَرَادةُ » وهى آثر نسائه وآمنهنّ عنده ، وكان إذا أجنبَ أو أتى حاجته نزع خاتَمه ولم يأتمن عليه غيرَها . فجاءها يوما من الأيام فقالت له : إنّ أخى بينه و بين فـلان خصومة ، و إنى أُحبّ أن تقضىَ له إذا جاءك . قال نعم ، ولم يفعل ؛ فآبتُلِىَ بقوله وأعطاها خاتَمَـه ودخل المَذْهَب[1] ، فخرج الشيطان فى صورته فقال لها : هاتى الخاتم ، فأعطته إيّاه ، فجاء حتى جلس على مجلس سليمان ، وخرج سليمان بعده فسألها أن تُعطِيَه الخاتم فقالت : ألم تأخذه؟ قال : لا ! وخرج من مكانه . ومكث الشيطان يحكم بين النـاس أربعين يوما ، فأنكر الناس حكمه ، فآجتمع قرّاء بنى إسرائيل وعلمـاؤهم فجاءوا حتى دخلوا على نسائه فقالوا : إنّا قد أنكرنا هذا ، فإن كان سليمانَ فقد ذهب عقلُه وأنكرنا حكمه[2] ، فأبكى النساءَ عند ذلك . فأقبلوا يمشون حتى أتَوْه فأحدقوا به ثم نشروا التوراة فقرءوها ، فطار الشيطان من بين أيديهم حتى وقع على شُرْفة والخاتم معه حتى ذهب إلى البحر فوقع الخاتم فى البحر فآبتلعه الحوت . فأقبل سليمان فى حالته التى كان فيهـا حتى آنتهى إلى صيّادين وهو جائع
فآستطعمهم من صيدهم وقال : إنّى سليمان بن داود . فقـام إليه بعضهم فضربه ٢٢/١٢
بعصاه فشجّه . فجعل يغسل دمه وهو على شاطئ البحر ، فلام الصيّادون صاحبه الذى ضربه وقالوا : بئسما صنعتَ حيث ضربته . فقال : إنه زعم أنه سليمان بن داود !

(١) المذهب : المتوضأ

(٢) كذا فى الأصول . وعبارة الثعلبى : «واجتمع قراء بنى اسرائيل وعلماؤهم فجاءوا حتى دخلوا على نسائه فذكروا لهن ما أنكروا فقالوا : ونحن قد أنكرنا هذا فإن كان سليمان قد ذهب عقله وأساء حكامه فليس لنا صبر على ذلك ، فبكى النساء عند ذلك ... الخ » .

فأعطاه سمكتين . فقام إلى ساحل البحر فشقّ بطونهما وجعل يغسلهما ، فوجد خاتمه في بطن إحداهما، فأخذه ولبسه ورَدّ الله تعالى عليه مُلكه وبهاءه، وجاءت الطير فعكفت عليه، فعرفه القوم فقاموا يعتذرون إليه مما صنعوا . فقال : ما أؤاخذكم على عُدوانكم ولا ألومكم على ما كان منكم ، هذا ما كان لا بدّ منه . وجاء حتى أتى مُلكه ، فأخذ الشيطانَ فجعله في صندوق من حديد ثم أطبقه وأقفل عليه بقفل وختَمه بخاتمه، ثم أمر به فأُلقِيَ في البحر، وهو فيه كذلك (١) إلى يوم القيامة .

قال : وفي بعض الروايات أنّ سليمان لمّا افتُتِن سقط الخاتم من يده، فأخذه سليمان فأعاده الى يده، فسقط من يده فلما رآه لا يثبت في يده أيقن بالفتنة . وقال آصف لسليمان : إنك مفتون بذنبك والخاتم لا يتماسك أربعةَ عشر يوما، ففِرَّ إلى الله تعالى تائبا من ذنبك وأنا أقوم مقامك وأسير في عملك وأهل بيوتك بسيرتك حتى يتوب الله عليك ويردّك إلى مُلكك . ففرّ سليمان هاربا إلى ربه، وأخذ آصف الخاتم ووضعه في يده فثبت . وإنّ الجسد الذي قال الله تعالى : ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ هو آصف كاتب سليمان، وكان عنده علمٌ من الكتاب . فأقام آصف في مُلك سليمان يسير سيرته ويعمل بعمله أربعةَ عشر يوما، إلى أن رجع سليمان إلى منزله تائبا إلى الله تعالى، وردّ الله تعالى عليه مُلكه، وقام آصف من مجلسه وجلس سليمان على كرسيّه وأعاد الخاتم في يده فثبت فيها .

قال أبو إسحاق : وقيل في سبب ذلك ما رُوِيَ عن سعيد بن المسيِّب أنّ سليمان احتجب عن الناس ثلاثةَ أيّام، فأوحى الله تعالى إليه أنْ يا سليمان احتجبتَ عن عبادي ثلاثة أيام فلم تنظر في أمورهم ولم تُنصف مظلوما من ظالم . وذكر

---

(١) هذه عبارة الثعلبي . وفي الأصول : « وهو حيّ كذلك الى الساعة »

حديث الخاتم وأخذ الشيطان إياه كما تقدم، وقال فى آخره: قال علىّ: فذكرت ذلك للحسن فقال: ما كان الله ليسلّطه على نسائه (١) .

قال وقال بعض المفسّرين: كان سبب فتنة سليمان أنه أُمر ألّا يتزوج آمرأة إلّا من بنى إسرائيل، فتزوّج من غيرهم فعُوقب على ذلك.

وقيل: إن سليمان لمّا أصاب آبنة الملك صَيْدون أُعجب بها، فعرض عليها الإسلام فأبت وآمتنعت، فخوّفها فقالت: إنْ أكرهتنى على الإسلام قتلتُ نفسى. فخاف سليمان أن تقتل نفسها، فتزوّج بها وهى مشركة أربعين يوما، وكانت تعبد صنمًا لها فى خُفْية من سليمان إلى أن أسلمتْ، فعُوقب سليمان بزوال ملكه أربعين يوما.

قال وقال الشعبىّ فى سبب ذلك: إنّ سليمان وُلد له ولد، فآجتمعت الشياطين وقال بعضهم لبعض: إنْ عاش له ولد لم ننفكّ مما نحن فيه من البلاء والسُّخْرة، وما لنا إلا أن تقتل ولده أو تخبّله. فعلم سليمان بذلك، فأمر السحاب أن يأخذ آبنه، وأمر الريح تحمله، وغدا آبنُه فى السحاب خوفًا من مضرّة الشيطان. فعاقبه الله تعالى بخوفه من الشيطان، ومات الولد فأُلقِىَ ميّتا على كرسيّه، فهو الجسد الذى ذكره الله تعالى فى كتابه العزيز، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾.

---

(١) فى نسخة الثعلبى المطبوعة بعد هذه العبارة ما نصه: «ونعوذ بالله أن يسلط الشيطان على نساء أنبيائه بالمباشرة. وكيف يعتقد ذلك أحد وقد نزه الله تعالى أنبياءه عن مثل هذا القبيح. وهذا قول أصح الأقوال وأليق بأنبياء الله تعالى وأقرب الى التقوى ... الخ».

ذكر عزم سليمان عليه السلام أن يطوف على نسائه

قال الكسائىّ : كان سليمانُ عليه السلام قد أُعطِىَ من القوة ما إنه يأتى على خمسمائة حرّة وسبعمائة سُرِّيّة . فقال فى يوم : لأطوفنّ على ألف آمرأة وأجامعهنّ كلهنّ، فتحمل كل واحدة منهنّ بغلامين فارِسَيْن يركبون الخيل و يغزون البلاد ، ولم يقل إن شاء الله . وطاف عليهنّ فلم تحمل منهنّ غير واحدة، حملتْ بنصف إنسان، قيل : إنه الجسد الذى أُلقِىَ على كرسىّ سليمان . والله تعالى أعلم .

والذى ثبت من هذه القصة ما رويناه من صحيح البخارىّ بسندنا المتقدّم اليه .

قال البخارىّ حدّثنا خالد بن مَخْلَد حدّثنا مُغيرة بن عبد الرحمن عن أبى الزِّناد عن ٢٣/١٢ الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " قال سليمان بن داود لأَطوفنّ الليلةَ على سبعين آمرأةً تحمِل كل آمرأة فارسا يجاهد فى سبيل الله فقال له صاحبُه إن شاء الله فلم يقل، ولم تحمِل شيئا إلا واحدا ساقطا إحدى شِقَّيه فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم لو قالها لجاهدوا فى سبيل الله . قال شُعَيب وآبن أبى الزناد تسعين وهو أصح[1] " .

ذكر وفاة بلقيس زوجة سليمان عليه السلام

قال الكسائىّ : أقامت بِلقيس عند سليمان سبعَ سنين وسبعةَ أشهر ثم تُوُفّيت، فدفنها بمدينة تَدْمُر[2] من أرض الشام تحت حائط، ولم يعلم أحد بموضع قبرها إلى أيام الوليد بن عبد الملك بن مروان .

---

(١) راجع صحيح البخارى (ج ٤ ص ١٢٦ طبع بلاق سنة ١٢٩٦ هـ) .

(٢) تدمر : مدينة قديمة معناها بالعبرانية « النخيل » وكانت عامرة ذات تجارة واسعة ، وهى واقعة بطرف بادية الشام فى الشمال الشرقى من دمشق ، تمرّ عليها القوافل بين الشام والعراق من القرن السادس قبل الميلاد . (راجع معجم الخريطة التاريخية الاسلامية) .

قال موسى بن نُصَيْر : بُعِثْتُ فى أيّام الوليد إلى مدينـة تَدْمُر ومعى العباس بن الوليد بن عبد الملك ، فجاء مطر عظيم فانهار بعضُ حائط المدينة ، فانكشفت عن تابوت طولُه ستون ذراعا وعرضه أربعون ذراعا مُتَّخذٌ من حجر كالزّعفران مكتوب عليه : «هذا تابوتُ بِلقيس الصالحة أسلمت لثلاثَ عشرة سـنة خلت من مُلْك سليمان ، وتزوّج بها يوم عاشوراء سـنة أربع عشرة خلت من مُلكه ، وتوفّيت يوم الاثنين من ربيع الأوّل سنةَ إحدى وعشرين مضت من مُلكه ، وقد دُفنت ليلا فى حائط مدينة تدمُر، ولم يطّلع على دفنها إنس ولا جنّ ولا شيطان» . قال : فرفعنا غطاء التابوت واذا هى غضّـة كأنها دُفنت ليلتَها . فكتبنا بذلك إلى الوليـد فأمر بتركه فى مكانه ، وأن يُبنَى عليه بالصخر والمرمر، ففعلنا ذلك .

ذكر خبر وفاة سليمان بن داود عليهما السلام

قال الكسائىّ : مَلَك سليمان شرق الأرض وغربها وطاف أقطارها حتى انتهى إلى السّـدّ (١) الذى هو بالقُرب من جبـل قاف (٢) ، فوقف هناك ثم قال للريح : هل

(١) هو السـدّ الذى بناه الإسكندر ذو القرنين وهو المعروف بسدّ يأجوج ومأجوج . وقد أرسل الخليفة الواثق بالله سنة ٢٣١ هـ بعثة علمية برياسة سلام الترجمان مزوّدة بالمال والماء والزاد لتأتيه بخبره وحاله . وابن خرداذبه هو أوّل من روى خبر هذه البعثة العلمية عن نصّ رئيسها ثم استملاه من الكتاب الذى كان كتبه فى هـذا المعنى للخليفة الواثق بالله (راجع المسالك والممالك طبع ليـدن سنة ١٣٠٦ هـ ص ١٦٢ — ١٧٠) . وعن ابن خرداذبه نقل جميع المؤلفين الذين جاءوا بعده مثل الادريسى وابن رسته وابن الفقيه الهمذانى والمقدسىّ . أما سنة إرسال هذه البعثة فقد أخذناها عن ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة (ج ٢ ص ٢٥٩) .

(٢) كان الاعتقاد السائد قديما أن هناك جبلا واحدا محيطا بأكثر بسيط المعمور، وليس هو كالبحر محيطا بجميع كرة الأرض ، هو جبـل قاف ، ولا يعرف فى الجنوب إلا بهذه التسمية ، ويعرف فى الشمال بجبل قاقونا ؛ وعلم فى مبدأ هذا الجبل ومنتهاه رأى تراه مبسوطا فى الجزء الأوّل من مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى (ص ٤٧) . وقد ذكر فى كتاب نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر (ص ٢٢) باسم «قاقونيا» بالفاء فى رواية و (بالقاف) فى رواية أخرى . وسمى كذلك باسم «اصطيفون» أو «اصطيقون» .

بحرٍ هاهنا قطّ؟ قالت : لا يا نبيّ الله، و إنه آخر الدنيا وليس وراءه إلا علم الله تعالى . ثم أمر الريح فاحتملته حتى نظر إلى التنّين المُحْـدِق بالعالم ، فسار أياما على طرف من أطرافه فإذا هو بملَك ، فقال : يا ابن داود إن هـذا التنّين محيط بالعالم الذي هو مسيرة خمسمائة عام . ثم ارتفع إلى مستقرّ الغمام ونظر إلى مجمع القَطر، ونزل من هناك إلى مسكن الليل والنهار فاذا هو بملَك يقول : اللهم أعط كل مُنفق خلَفا وكل ممسك تلَفا . ثم أمر الريح أن تحطّ بساطه إلى الأرض المقدّسة، وكانت مدّة غيبته مائة وثلاثين يوما . وكان فى طول سَفْرته هـذه يرى شخصا بين يديه يسبق كل شيء ، فسأله من هو ؟ فأخبره أنه ملَك الموت ، فوقعت عليـه الرِّعدة وتغير لونه وجعل ابنـه رَحْبَعَم خليفتـه ، وأوصى النـاس بالسمع والطاعة له . وأخذ فى الصوم والصلاة طول ليله ، فإذا أصبح خرج من محرابه إلى روضة هناك فيهـا نبات حسن يتسلّى به . فخرج فى بعض الأيام فرأى نبْتًا غريبا لم يكن قد رآه قبل ذلك اليـوم . فقال : أيهـا النبت ما أنت ؟ قال : أنا الخَرْنوب الذى لا أنبت فى موضع إلا خرّبته . فقال سليمان : فما تصنع هاهنا فلستَ من نبات الرياض بل من نبات البرارى؟ قال : قد أُمرت أن أنبت هاهنا . فعاد سليمان من الغد وهو على حاله وقد زاد نبـاته . فقال له سليمان : ألم آمُرْك أنْ تلحق بموضعك من البرارى ! . قال الخرنوب : يا نبيّ الله، إنّ هـذا الموضع سيَخْرَب عن قريب ، فسكت سليمان . فلما ضعُف عن العبادة توكّأ على عصاه . فبينما هو فى محرابه متوكئا قائما يتلو الزَّبور والتوراة إذ أتاه ملك الموت ، فرفع رأسه إليه فناوله شمّةً فشمّها فمات ، وبقى سليمان على حالته لم يسقط إلى الأرض ولم يتحرك ولا مال . فهابوه وما جسروا أن يتقدّموا إليه . وقالوا : إنه لم يمتْ ، ولم تزل الإنس والجنّ والشياطين والوحش

والطير فى الطاعة والأعمال حتى مضت سنة ، ثم وقعت الأَرَضة فى أسفل العصا، فذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ﴾ فخرّ سليمانُ عند ذلك كالخشبة اليابسة ، وكانت الجنّ قبل ذلك تدّعى علم الغيب ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ (١) أى فى تلك السنة فى نقل الصخور والبنيان وغير ذلك .

وحكى أبو إسحاق الثعلبى رحمه الله تعالى فى خبر وفاة سليمان عليه السلام : قال أهل التاريخ : لبث سليمان فى مُلكه بعد أن ردّه الله عليه تعمل له الجنّ ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجوابى و قدور راسيات وغير ذلك ، ويعذّب من الشياطين مَن يشاء ، ويأمرهم بحمل الحجارة الثقيلة ونقلها إلى حيث أحبّ . فأتاهم إبليس وهم فى العمل فقال : كيف أنتم ؟ فقالوا : ما بنا طاقة لما نحن فيه . فقال لهم : تذهبون تحملون الحجارة وترجعون فُرّاغا لا تحملون شيئا ؟ قالوا نعم . قال : فأنتم فى راحة . فأبلغت الريح ذلك سليمان ، فأمرهم أن يحملوا ذاهبين و راجعين . فقال لهم إبليس : تعملون بالليل ؟ قالوا لا . قال : فأنتم فى راحة. فأبلغت الريح ذلك سليمان ، فأمرهم أن يعملوا بالليل والنهار . فأتاهم إبليس فسألهم فشكَوْا إليه أنهم يعملون بالليل والنهار . فقال لهم إبليس : وفَعَلَها؟ قالوا : نعم . قال : فتوقّعوا الفرج، فقد بلغ الأمر منتهاه . فما لبثوا إلا يسيرا حتى مات سليمان .

(١) سورة سبأ آية ١٤

قال ابن عباس وغيره : كان سليمان يتحنث(١) في بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين وأقل من ذلك وأكثر، يدخله ومعه طعامه وشرابه ، فدخله في المرة التي مات فيها . قال : وكان بدء ذلك أنه لم يكن يوماً يُصبح فيه إلا نبتت في بيت المقدس شجرةٌ فيسألها سليمان ما آسمك ؟ فتقول الشجرة : آسمي كذا وكذا . فيقول: لأي شيء تصلحين ؟ فتقول : لكذا وكذا ، [فيأمر بها فتقطع](٢)، فإن كانت تنبت لغرس غرسها ، وإن كانت لدواء كتب عليها لكذا وكذا . فبينا هو يصلي ذات يوم إذ رأى شجرةً بين يديه ، فقال لها : ما آسمك ؟ فقالت : الخرنوبةُ . قال : ولأيّ شيء نبتِّ؟ قالت : لخراب هذا المسجد . فقال سليمان : ما كان الله ليُخربَه وأنا حيّ ، أنت الذي على وجهك هلاكي وخرابُ بيت المقدس . فنزعها وغرسها في حائط له ، ثم قال : اللهمّ عَمِّ عن الجنّ موتى حتى يعلم الإنس أنّ الجنّ لا يعلمون الغيب . وكانت الجنّ يخبرون الإنس أنهم يعلمون الغيب وأنهم يعلمون ما في غدٍ .

قال : ثم دخل سليمان المحرابَ فقام يصلّي متكئا على عصاه ، فمات على تلك الحالة ، ولم يعلم بذلك أحدٌ من الشياطين ، وهم في ذلك يعملون له يخافون أن يخرج فيعاقبهم .

قال وقال عبد الرحمن [بن زيد](٢) قال سليمان لملك الموت : إذا أُمرتَ بي فأعلمني . قال : فأتاه فقال : يا سليمان قد أُمرتُ بك وقد بَقِيَتْ لك سُوَيعة . فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحا من قوارير ليس له باب ، فقام يصلّي وآتكأ على عصاه ، فدخل عليه ملك الموت فقبض روحه وهو متكئ على عصاه .

---

(١) يتحنث : يتعبد .

(٢) زيادة عن الثعلبي .

قال وفى رواية أخرى : أنّ سليمان قال ذاتَ يوم لأصحابه : قد آتانى الله من المُلك ما تَرَوْن، وما مرّ علىّ يوم فى ملكى بحيث صفا لى من الكَدَر، وقد أحببت أن يكون لى يومٌ واحد يصفو لى إلى الليل ولا أغتمّ فيه، وليكن ذلك غدا. فلما كان من الغد دخل قصرا له ، وأمر بإغلاق أبوابه ومَنَع النـاس من الدخول عليه ورَفع الأخبار إليه لئلا يسمع شيئا يسوءه ، ثم أخذ عصاه بيده وصعِد فوق قصره واتكأ عليها ينظر فى ممالكه ، إذ نظر إلى شابّ حسنِ الوجه ، عليه ثياب بيض قد خرج عليه من جانب قصره فقال : السلامُ عليك يا سليمان . فقال سليمان . وعليكم السلام، كيف دخلتَ هذا القصر وقد مَنعتُ من دخوله؟ أمَا منعك البوّاب والحجّاب ! ، أمَا هِبتَنى حين دخلت قصرى بغير إذنى ! ! فقال : أنا الذى لا يحجُبُنى حاجب، ولا يمنعنى بوّاب، ولا أهاب الملوك، ولا أقبل الرِّشا، وما كنتُ لأدخل هذا القصر بغير إذْن . فقال سليمان : فَمَن أذِنَ لك فى دخوله؟ قال : ربّه . فآرتعـد سليمان وعلم أنه مَلَك الموت . فقال له : أنت ملَك الموت ؟ قال نعم . قال : فِيمَ جئتَ؟ قال : جئتُ لأقبِض رُوحك . قال : يا ملك الموت، هذا يوم أردتُ أن يصفو لى وما أسمع فيـه ما يغمّنى . قال له : يا سليمان ، إنك أردت يوما يصفو لك فيـه عيشك حتى لا تغتمّ فيه، وذلك اليوم لم يُخْلَق فى الدنيا، فآرضَ بقضاء ربك فإنه لا مَرَدّ له . قال : فآقبِض كما أُمِرت ، فقبض مَلَك الموت رُوحه وهو متكئ على عصاه .

قال الثعلبىّ قالوا : وكانت الشياطين تجتمع حول محرابه ومُصَلّاه أينما كان . وكان للمحراب كُوًى بين يديه ومن خلفـه، فكان الشـيطان الذى يريد أن يدخل يقول : ألستُ جليـدًا إن دخلتُ فخرجت من ذلك الجانب، فيدخل حتى يخرج من الجانب الآخر. فدخل شيطان من أولئك فمرّ، ولم يكن شيطان ينظر إلى سليمان

فى المحراب إلا آحترق، فمر ولم يَسْمَع صوت سليمان، ثم رجع ولم يَسْمَع، ثم رجع فوقع فى البيت فلم يحترق، ونظر إلى سليمان عليه السلام قد سقط ميتا، فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات، ففتحوا عنه وأخرجوه ووجدوا مِنْسَأته — وهى العصا بلسان الحبشة (١) — قد أكلتها الأَرَضة، (٢) فمكثوا يدأبون له من بعد موته حولا كاملا، فأيقن الناس أن الجن كانوا يكذبونهم، ولو أنهم علموا الغيب لعلموا بموت سليمان، فلم يلبثوا فى العذاب سنة يعملون .

قال : ثم إن الشياطين قالوا للأَرَضة : لو كنت تأكلين الطعام لأتيناك بأطيب طعام ، ولو كنت تشربين الشراب سقيناك أطيب الشراب ، ولكننا سننقل إليك الماء والطين . قال : فهم ينقلون إليها ذلك حيث كانت . قال : ألم تر إلى الطين الذى يكون فى جوف الخشب فهو مما تأتيها به الشياطين شكرا لها ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ ﴾ وهى الأَرَضة ، ويقال لها القادح أيضا ، وهى دُوَيْبَّةٌ تأكل العيدان ﴿ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ﴾ أى عصاه ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ ... ﴾ الآية .

قال أهل التاريخ : كان عمر سليمان ثلاثا وخمسين سنة ، ومدة ملكه أربعين سنة ، ومُلِّك يوم مَلَك وهو آبن ثلاث عشرة سنة .

وقال الكسائى قال وهب : عاش سليمان ستين سنة ، منها فى الملك والنبوة أربعون سنة . قال : وتفرقت الإنس والجن وغيرهم ، فتفرق بنو إسرائيل بعده

(١) الذى فى كتب اللغة أن المنسأة اسم آلة ، من نسأت الدابة إذا زجرتها ليزداد سيرها .

(٢) هذه الجملة لم ترد فى الأصول وقد نقلناها عن الثعلبى ، وقد أورد بعدها هذه العبارة : « فلم يعلموا منذ كم مات فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها يوما وليلة ثم حسبوا على ذلك النحو فوجدوه قد مات منذ سنة وكانوا يعملون بين يديه وينظرون إليه ويحسبون أنه حى ولا ينكرون احتباسه عن الخروج الى الناس لطول صلاته قبل ذلك . وفى رواية ابن مسعود : فمكثوا ... الخ » .

ثلاث فرق : فرقة كفروا واتبعوا السحرة، وفرقة اعتزلوا وقالوا : لانطيع بعده أحدا، وفرقة اتبعوا ابنه رَحبعم[1] .

قال الثعلبيّ : ملك بعد سليمان عليه السلام ابنه رَحْبَعَم ، وكان قد استخلفه فنبّأه الله تعالى ولم يكن رسولا ثم قُبِض، وكان ملكه سبعَ عشرةَ سنة . ثم ملك بعده ابنه أيشا[2] بن رحبعم ، وكان مُلكه ثلاثا وستين سنة . ثم ابنه أينا .

وقال الكسائيّ: ملك بعد رحبعم ابنه لايى ، وملك بعد لايى ابنه أيْشا بن لايى، ثم بعث الله تعالى بعد أن قبض أيشا ، شَعْيَا[3] وهو من ولد هارون بن عمران .

وقال الثعلبيّ في سياقه : لمّا ملك أَينا بن أيشا ، وكان رجلا صالحا ، وكان أعرج ، وكان به عِرْق النَّسَا ، فطمعت الملوك فيه لضَعْفه ، وافترقت ملوك بنى إسرائيل، فغزاهم ملك من ملوك الهند يقال له « زَرَج[4] الهندىّ» فى جمع كثير، فبعث الله تعالى عليهم ملائكة فهزموهم، فقصدوا البحر حتى ركبوه جميعا، فبعث الله تعالى عليهم الرياح والأمواج حتى ضربت سُفُنَهم بعضها ببعض ، فتكسّرت وغرق زَرَجُ ومَن كان معه ، وألقت الأمواج أثقالهم وأموالهم وسلَبهم إلى محَلّة بنى إسرائيل ، ونُودُوا أنْ خذوا ما غنّمكم الله وكونوا فيه من الشاكرين. ثم لم يزل يغزوهم الملك بعد الملك من ملوك العراق وغيرهم، فيُهلكهم الله تعالى الى أن ظهر فيهم الظلم والفساد ، وفشت فيهم المعاصى، وعبد بعض ملوكهم الأصنام ، فكان من أمرهم ما نذكره إن شاء الله تعالى .

---

(١) كذا فى تاريخ الطبرى (ص ٦١٩ من القسم الأوّل) وتاريخ مختصر تاريخ الدول لابن العبرى (ص ٥٥ طبع بيروت) وفى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٥٧٦) : «رحبعام» . وفى الأصول : «رجعيم» .

(٢) كذا فى الأصول وفى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٥٨٣) : « آيام » .

(٣) كذا فى الأصول وتاريخ الطبرى (ص ٦٣٧ من القسم الأوّل) . وفى القاموس المحيط : « سعيا » بالسين المهملة والشين لغة . وفى الكتاب المقدّس (ج ٢ ص ٣٢٤) : « أشعيا » .

(٤) كذا فى تاريخ الطبرى (ص ٦١٩ من القسم الأوّل) : وفى الأصول « روح » .

الباب الثالث

من القسم الثالث من الفن الخامس

فى أخبار شعيا و إرميا عليهما السلام وخبر بختنصّر وخراب بيت المقدس وعمارته وما يتصل بذلك من خبر عُزَير وفتنة اليهود

ذكر قصة شَعْيَا عليه السلام

قال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله : كان المَلِك اذا مَلَكَ من بنى إسرائيل بعث الله معه نبيّاً يُرشده و يسدّده و يكون فيما بين الناس و بين الله تعالى، ولا يُنزل الله تعالى عليه كتابا إنما يأمر بأحكام التوراة و ينهى عن المعصية، و يدعو الناس الى ما تركوا من الطاعة. وكان ممن مَلَك منهم « صَدِيقة ». فلمّا ملك بعث الله تعالى شَعْيَا بن أمْصِيَا(١)، فملك ذلك الملك بنى إسرائيل و بيت المقدس زمانا، ثم كثرت فى بنى إسرائيل الأحداث، فبعث الله سَنْحَاريب(٢) ملك بابل، معه ستمائة ألف راية، فأقبل حتى نزل حول بيت المقدس والملكُ إذ ذاك مريض فى ساقه قرْحة، فجاء النبيّ شَعْيا عليه السلام فقال لملك بنى إسرائيل : إنّ سَنْحارِيب ملكَ بابلَ قد أقبل ونزل بك فى ستمائة ألف راية، وقد هابهم الناس وفَرِقُوا منهم. فكبُر ذلك على الملك وقال : يا نبيّ الله ، هل أتاك وحيٌ فيما حدث فتخبرنا به كيف يفعل الله

(١) فى الكتاب المقدس (ج ٢ ص ٣٢٤ م) : « آموص »

(٢) كذا فى الكتاب المقدس (ج ١ ص ٦٣٧) وتاريخ الطبرى (ص ٦٣٨ من القسم الأوّل) ومختصر تاريخ الدول لابن العبرى (ص ٩٤) وورد فى هامشه : أن معنى سنحاريب « القمر بكثر الإخوة » ومن هنا يؤخذ أن الأشوريين كانوا يتفاءلون بالأسماء كالعرب ، فسمى هذا سنحاريب تفاؤلا بكثرة الإخوة . وفى الأصول : « سنجاريب » بالجيم المعجمة وهو تحريف .

تعالى بنا وسنحاريب ؟ قال : لم يأتنى وحى . فبينما هم كذلك أوحى الله تعالى إلى شَعْيَا أن ائتِ ملك بنى إسرائيل فمُرْه أن يُوصىَ بوصية ويستخلف على مُلكه مَنْ يشاء من أهل بيته . فأتاه شَعْيَا فقال : إنّ ربك عز وجل قد أوحى إلىّ أن آمرك أن تُوصِيَ وصيّتك وتستخلف من شئتَ على مُلكك من أهل بيتك فإنك ميّت . فلمّا قال له شعيا ذلك أقبل صَديقة الملِك على القِبلة فصلّى ودعا وبكى ، فقال وهو يبكى ويتضرّع إلى الله عز وجل بقلب مخلص وتوكُّل وصبر : [اللهمّ ربّ الأرباب وإلهَ الآلهة القُدّوس المقدّس ، يا رحمن يا رحيم ، يا رءوف يامن لا تأخذه سِنةٌ ولا نوم ، اذكُرْنى بنيّتى وعملى وحُسْنِ قضائى فى بنى إسرائيل ، وذلك كله كان منك وأنت أعلم به منّى سِرّى وعَلانِيَتى لك] (١) ، فآستجاب الله تعالى دعاءه ، وكان عبدا صالحا . فأوحى الله تعالى إلى شَعْيَا أن أخبر صَديقة أن الله آستجاب له وقَبِلَ منه ورحمه وأخّر أجله خمسَ عشرةَ سنة ، وأنجاه من عدوّه سَنْحَاريب وجنوده . فأتاه شعيا فأخبره بذلك ، فذهب عنه الجزَع وخرّ ساجدا لله تعالى ودعاه . فلما رفع رأسه أوحى الله تعالى إلى شعيا أن قل للملك صديقة يأمر عبدا من عبيده فيأتيه بماء التين فيجعله على قَرْحة ساقه فيُشفَى ويبرأ ، ففعل ذلك فشُفِيَ . وقال الملك لِشَعْيَا : سَلْ ربّك أن يجعل لنا عِلْما بما هو صانع بعدوّنا هذا . فقال الله تعالى لِشَعْيَا : قل له إنى كفيتك عدوّك وأنجيتك منهم ، وإنهم سيُصبحون موتى إلا سَنْحَاريب وخمسة نفر من كُتّابه . فلمّا أصبحوا جاء صارخ فصرخ على باب المدينة : ياملك بنى اسرائيل ، إن الله تعالى قد كفاك أمر عدوّك ، فإن سَنْحَاريب ومن معه قد هلكوا . فخرج الملك فآلتمس سنحاريب فلم يوجد فى الموتى . فبعث الملك فى طلبه ، فأدركه الطَّلَبُ فى مغارة وخمسةٌ من كُتّابه ، أحدهم

(١) التكملة عن الثعلبى .

بختنصر، بجعلوهم فى الجوامع ثم أتوا بهم[1] ملك بنى إسرائيل، فلما رآهم خرّ ساجداً لله تعالى من حين طلعت الشمس إلى العصر، ثم قال لسنحاريب: كيف ترى فعلَ ربّنا؟ ألم يقتلكم بحوله وقوّته ونحن وأنتم غافلون؟! فقال سنحاريب: قد أتانى خبرُ ربّكم ونصرُه إيّاكم، ورحمتُه التى رحمكم بها قبل أن أخرج من بلادى، فلم أُطِعْ مرشدا ولم يُلقِنى فى الشّقوة إلاّ قلّة عقلى، ولو سمعت أو عقَلْت ما غزوتكم، ولكن الشقوة غلبت علىّ وعلى من معى. فقال صَديقة: الحمد لله رب العزّة الذى كفاناكم بما شاء. إنّ ربّنا لم يُبقك ومَن معك لكرامة لك عليه، ولكنّه إنما أبقاك ومَن معك لتزدادوا شقوةً فى الدنيا وعذابا فى الآخرة، ولتُخبروا مَنْ وراءكم بما رأيتم من فعل ربنا. وَلَدَمُك ودمُ مَن معك أهونُ على الله تعالى من دم قُرَادة لو قُتلت. ثم أمر صَديقة أمير جيشه أن يقذف فى رقابهم الجوامع، فطاف بهم سبعين يوما حول بيت المقدس وإيليا[2]، وكان يرزقهم فى كل يوم خُبزتَيْن من شعير لكل رجل. فقال سَنْحَاريب لملك بنى إسرائيل: القتل خير مما تفعل بنا، فافعل ما أُمرت. فأمر بهم الملك الى سجن القتل، فأوحى الله تعالى إلى شعيا: أن قل لملك بنى إسرائيل: يرسل سنحاريب ومَن معه لينذروا مَنْ وراءهم، وأن يُكرِمهم ويَحملهم حتى يبلغوا بلادهم. فبلّغ شَعْيَا الملكَ ذلك، ففعل ما أُمر به، وخرج سنحاريب ومَن معه حتى قدموا بابل[3].

---

(١) الجوامع: القيود. (٢) ورد فى معجم البلدان لياقوت: أن إيلياء (بكسر أوله واللام وياء، وألف ممدودة) اسم مدينة بيت المقدس، قيل معناه بيت الله، وحكى الحفصى فيه القصر. وفيه لغة ثالثة حذف الياء الأولى فيقال: إلياء (بسكون اللام والمد). قال أبو علىّ: وقد سمى البيت المقدّس إيلياء. قول الفرزدق:

وبيتان بيت الله نحن ولاته * وقصر بأعلى إيلياء مشرّف

وسميت إيلياء باسم بانيها وهو إيلياء بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام. (٣) بابل: مدينة من أقدم وأكبر مدن العالم القديم، على الجانب الأيسر من نهر الفرات، بناها الكلدان، وهى مدينة النمروذ، اشتهرت فى الأزمان الغابرة بالثروة والحضارة وفيها مات الاسكندر المقدونى سنة ٣٢٣ قبل الميلاد وحملت جثته الى الاسكندرية. وهذه المدينة الآن خراب لا يوجد غير أطلالها وفى مكان أطلالها قرية الحلة. (راجع معجم الخريطة التاريخية الاسلامية للرحوم أمين واصف بك وقاموس الجغرافية القديمة للرحوم أحمد زكى باشا)

فلمّا قدموا جمع سنحاريب النّاسَ وأخبرهم كيف فعل الله بجنوده . فقال له كُهّانه وسَحَرته : قد كنا نُقَصّ عليك خبر ربهم وخبر نبيّهم ووحىَ الله إلى نبيّهم ، فلم تُطعنا ، وهى أمّة لا يستطيعها أحد من ربّهم . ولبث سنحاريب بعد ذلك سبع سنين ومات . وآستُخلف بُختنصَّرُ آبنُ آبنـه على ما كان عليه جدّه ، فعمل بعمله وقضى بقضائه ، فلبث سبعَ عشرةَ سنة ثم قَبَضَ الله تعالى صَدِيقةَ مِلكَ بنى إسرائيل ، فمرِج[(١)] أمرُ بنى إسرائيل وتنافسوا المُلْك حتى قتل بعضهم بعضا ، ونبيّهم شَعْيَا معهم لا يرجعون إليه ولا يقبلون منه . فلما فعلوا ذلك أوحى الله تعالى إلى شَعْيَا : أنْ قُم فى قومك أُوحِ على لسانك . فلمّا قام أوحى الله تعالى على لسانه وأنطقه بالوحى فقال : ياسماء آسمعى ، و يا أرض أنصتى ، فإنّ الله يريد أن يقصّ شأن بنى إسرائيل الذين ربّاهم ٢٧/١٢
بنعمته ، وآصطنعهم لنفسه ، وخصّهم بكرامتـه ، وفضّلهم على عباده ، وآستقبلهم بالكرامة ، وهم كالغنم الضائعة التى لا راعىَ لهـا ؛ فآوى شاردَها ، وجمع ضالّها ، وجَبَر كَسيرها ، وداوَى مريضَها ، وأسمن مهزولها ، وحفظ سمينها . فلمّا فعل ذلك بها تناطحت كِباشها فقتل بعضها بعضا ، حتى لم يبق منهم عظم صحيح يُجبَر إليه آخر كَسير . فويلٌ لهـذه الأمة الخاطئـة الذين لا يدرون ما جاءهم من الخير . إنّ البعير ممـا يذكر وطنه فيأتيه ، وإنّ الحمار ممـا يذكر الآرِىّ[(٢)] الذى يَشبَع عليـه فيراجعُه ، و إنّ الثور ممـا يذكر المَرْج[(٣)] الذى يَسمَن فيـه فينتابه ، و إن هؤلاء القوم لا يدرون من أين[(٤)] جاءهم الخير وهم أولو الألباب والعقول ليسوا ببقر ولا حمير ، وإنى ضارب لهم مثلا فليسمعوه .

---

(١) مَرِج الأمر : فسد وآختلط واضطرب . وفى الأصول : « لخرج » وهو تحريف

(٢) الآرى : محبس الدابة . (٣) المرج : الموضع الذى ترعى فيه الدواب

(٤) فى الأصول : «من حيث» .

قل لهم : كيف ترون فى أرض كانت جُرُزا[(١)] زمانًا خَرِبةً مَوَاتا لا عُمْران فيها، وكان لها ربّ حكيمٌ قوىّ، فأقبلَ عليها بالعمارة وكَرِه أن تَخْرَب أرضُه، فأحاط عليها جِدارًا وشيّد فيها قصرًا وأنبط فيها نهرا، وصفّف فيها غِراسا من الزيتون والرمّان والنخيل والأعناب وألوان الثّمار كلها، وولّى ذلك واستحفظه ذا رأى وهمّة حفيظا قويّا أمينا، فانتظرها، فلمّا أطلعتْ جاء طَلْعها خرّوبا ؟ ! . قالوا : بئستِ الأرض هذه ! نرى أن يُهدَم جِدارُها وقصرُها و يُدَمَّر نهرها و يُقبَضَ قيِّمها ويُحْرَق غرسُها حتى تصير كما كانت أولَ مرّة خرابا مَوَاتا لا عُمران فيها . قال الله عزّ وجلّ لهم : إنّ الجدارَ ذِمّتى، و إنّ القصر شريعتى، و إنّ النهرَ كتابى، و إنّ القيِّم نبيِّى، و إنّ الغِرَاس هُمْ، و إن الخرُّوب الذى أطلعَ الغراسُ أعمالُهم الخبيثة، و إنّى قضيتُ عليهم قضاءهم على أنفسهم، فإنه مَثَلٌ ضربه الله لهم . يتقرّبون إلىّ بذبح البقر والغنم، وليس ينالنى اللحمُ ولا آكُله . و يدّعون أنهم يتقرّبون إلىّ بالتقوى والكفّ عن ذبح الأنفُس التى حرّمتُها، فأيديهم مخضوبةٌ منها، وثيابهم مترمِّلةٌ[(٢)] بدمائها؛ يُشيِّدون لىَ البيوت مساجدَ و يطهِّرون أجوافَها، و ينجِّسون قلوبهم وأجسادهم و يُدنِّسونها . فأىّ حاجةٍ لى إلى تشييد البيوت ولستُ أسكنها ! وأىّ حاجةٍ لى إلى تزويق المساجد ولستُ أدخلها ! إنما أُمرتُ برفعها لأُذْكَرَ فيها ولأُسبَّح، ولتكون مُصَلًّى لمن أراد أن يصلى فيها . يقولون : لو كان الله يقدِر على أن يجمع أُلْفَتنا لجمَعَها، ولو كان الله يَقدِر على أن يُفقِه قلوبنا لأفقهها، فاعمِدْ إلى عُودين يابسين ثم ائتِ بهما ناديهم فى أجمع ما يكونون، فقل للعودين : إنّ الله يأمركما أن تكونا عودًا واحدًا . فلمّا قال لهما ذلك اختلطا فصارا واحدا . فقال الله تعالى [قل][(٣)] لهم : إنى قد قَدَرتُ على أن أُفقه العودين اليابسين،

---

(١) الجرز : الأرض التى قطع نباتها . (٢) مترملة : متلطخة .

(٣) زيادة عن الثعلبى .

وعلىّ أن أؤلّف بينهما ، فكيف لا أقدِر على أن أجمع ألفتهم إن شئتُ ! أم كيف لا أقدِر على أن أُفقه قلوبهم وأنا الذى صوّرتُها ! . يقولون : صُمنا فلم يُرفَع صيامُنا ، وصلّينا فلم تُنوَّر صلاتُنا ، وتصدّقنا فلم تَزْكُ صدقاتُنا ، ودعَوْنا بمثل حنين الحمام ، وبكَيْنا بمثل عُوَاءِ الذئاب ، فى كل ذلك لا يُسمَع ولا يُستجاب لنا . قال الله تعالى : فسَلْهم : ما الذى يمنعنى أن أستجيب لهم ! ألستُ أسمعَ السامعين ، وأبصرَ الناظرين ، وأقربَ المُجيبين ، وأرحمَ الراحمين ! ألأنّ ذات يدى قلّتْ ! وكيف ويداىَ مبسوطتان بالخير أُنفق كيف أشاء ، ومفاتيحُ الخزائن عندى لا يفتحها غيرى ! . أو لأن رحمتى ضاقتْ ! فكيف ورحمتى وَسِعتْ كلّ شىء ، إنما يتراحَم المتراحمون بفضلها ! . أو لأنّ البخل يعترينى ! أَوَلستُ أكرمَ الأكرمين . والفتّاحَ بالخيرات أَجْوَدَ مَن أَعطَى وأكرمَ مَن سُئل ! . لو أنّ هؤلاء القوم نظروا لأنفسهم بالحكمة التى تُورِث فى قلوبهم [النور] (١) فنبذوها واشترَوْا بها الدنيا ، إذا لأبصروا من حيثُ أتوا ، وإذًا لأَيقنوا أنّ أنفسهم هى أعدى العُداة لهم . فكيف أرفع صيامهم وهم يَلْبِسونه بقول الزُّور ويتقوّون عليه بطُعْمة الحرام ! وكيف أُنور صلاتَهم وقلوبُهم صاغيةٌ إلى من يحاربنى وينتهك محارمى ! أم كيف تزكُو عندى صدقاتُهم وهم يتصدّقون بأموال غيرهم ! إنما آجُر عليها أهلَها المغصوبين . أم كيف أستجيب لهم دعاءهم ، وإنما هو قولٌ بألسنتهم والفعل من ذلك بعيد ! . إنما أَستجيب للداعى البَرّ ، وإنما أسمع قول المستعفِف المستكين . وإنّ من علامة رضاىَ رِضا المساكين . فلو رَحِموا المساكين ، وقرّبوا الضعفاء ، وأنصفوا المظلوم ، ونصروا المغصوب ، وعدلوا للغائب ، وأدّوا إلى اليتيم والأرملة والمسكين وكلّ ذى حق حقّه ، ثم لو كان ينبغى لى أن أكلّم البشر إذًا لكلّمتهم ، وإذًا لكنتُ نورَ أبصارهم ، وسمعَ آذانهم ، ومعقولَ قلوبهم ، وإذًا لدَعَمتُ أركانَهم فكنتُ قوّةَ أيديهم وأرجلهم ، وإذا لثبّتُّ ألسنتَهم وعقولَهم .

٢٨
١٢

(١) زيادة عن الثعلبى .

يقولون لمّا سمعوا كلامى وبلغتهم رسالاتى إنها أقاويل منقولة، وأحاديث متوارثة، وتآليف مما يؤلف السّحرة والكهنة، وزعموا أنهم لوشاءوا أن يأتوا بحديث مثله فعلوا، وأن يطّلعوا على علم الغيب بما يوحى إليهم الشياطين لأطلعوا، وكلهم يستخفى بالذى يقول ويُسره، وهم يعلمون أنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما يبدون وما يكتمون. وإنى قد قضيتُ يوم خلقتُ السماء والأرضَ قضاءً أثبتّه على نفسى وجعلتُ دونه أجلا مؤجّلا لابدّ أنه واقع، فإن صدقوا فيما ينتحلون من علم الغيب فليخبروك متى أُنفذه، وفى أىّ زمان يكون. وإن كانوا يقدرون على أن يأتوا بما يشاءون فليأتوا بمثل القُدرة التى بها أقضى؛ فإنّى مُظهره على الدّين كله ولو كرِه المشركون. وإن كانوا يقدرون على أن يؤلّفوا ما يشاءون فليؤلّفوا مثل الحكمة التى أدبّر بها أمر ذلك القضاء إن كانوا صادقين. فإنّى قضيتُ يومَ خلقتُ السموات والأرضَ أن أجعل النبوّة فى الأُجَراء (١)، وأجعلَ المُلْك فى الرِّعاء، والعزّ فى الأذلّاء، والقوة فى الضعفاء، والغنَى فى الفقراء، والثروةَ فى الأقلّاء، والمدائن فى الفلَوات، والآجام (٢) فى المفاوز، والبَرّى فى الغيطان، والعلم فى الجهَلة، والحُكْم فى الأمّيّين. فسَلْهم متى هذا ومَن القيّم به وعلى يدَىْ مَن أُسبّبه، ومَن أعوانُ هذا الأمر وأنصارُه، وإن كانوا يعلمون فإنى باعثٌ لذلك نبيّا أُمّيّا لا أعمى من العُمْيان ولا ضالّا من الضالّين، ليس بفظّ ولا غليظ، ولا صخّاب فى الأسواق، ولا متزيّن بالفُحْش، ولا قوّالٍ للخَنَا، أُسدّده لكل جميل، وأَهَبُ له كلَّ خُلُق كريم، ثم أجعل السكينة لباسَه، والبِرّ شعارَه، والتقوى ضميرَه، والحكمةَ معقولَه، والصدقَ والوفاءَ طبيعتَه، والعفوَ والمعروفَ خُلُقه، والعدلَ سيرته، والحقَّ شريعتَه، والهدى إمامَه، والإسلامَ ملتَه، أحمدُ اسمُه، أَهدى به بعدَ الضَّلالة، وأُعلِّم به بعد الجهَالة، وأرفع به بعد الخمَالة، وأُشْهِر

(١) الأجراء: جمع أجير وهو من سلم نفسه بعوض.

(٢) الآجام: جمع أجمة وهى الشجر الكثير الملتف.

به بعد النكرة ، وأكثر به بعد القلة ، وأغنى به بعد العيلة ، وأجمع به بعد الفرقة ؛ وأؤلف به قلوبا مختلفة ، وأهواء متشتتة ، وأمما متفرقة ، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر ، إيمانا بى ، وتوحيدا لى ، و إخلاصا بى ، (١) يصلون قياما وقعودا ، وركعا وسجودا ، و يقاتلون فى سبيلى صفوفا وزحوفا ، و يخرجون من ديارهم وأموالهم آبتغاء رضوانى [ألوفا] (٢) . ألهمهم التكبير والتوحيد ، والتسبيح والتحميد ، فى مجالسهم ومسيرهم ومضاجعهم ومتقلبهم ومثواهم ؛ يكبرون ويهللون و يقدسون على رءوس الأشراف ، ويطهرون لى الوجوه والأطراف ، ويعقدون الثياب إلى الأنصاف ؛ قربانهم دماؤهم ، وأناجيلهم صدورهم ؛ رهبان بالليل ، ليوث بالنهار . ذلك فضلي أوتيه من أشاء ، وأنا ذو الفضل العظيم .

قال فلما فرغ نبيهم شعيا من مقالته عدوا عليه ليقتلوه فهرب منهم فآنفلقت له شجرة فدخل فيها ، فأدركه الشيطان فأخذ بهدبة من ثو به فأراهم إياها ، فوضعوا المنشار فى وسطها فنشروها حتى قطعوها وقطعوه فى وسطها .

ذكر قصة إرميا عليه السلام

قال أبو إسحاق الثعلبي رحمه الله : استخلف الله تعالى على بنى إسرائيل بعد قتلهم شعيا عليه السلام رجلا منهم يقال له « ناشية بن آموص » ، و بعث لهم الخضر نبيا . قال : وآسم الخضر إرميا بن حلقيا ، وكان من سبط هارون ابن عمران . قال : و إنما سمى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فقام عنها وهى تهتز (٣) خضراء . فقال الله عز وجل لإرميا حين بعثه إلى بنى إسرائيل : يا إرميا ، من قبل أن خلقتك آخترتك ، ومن قبل أن أصورك فى بطن أمك قدستك ، ومن

(١) هذه الكلمة ليست فى الثعلبي ، وتعدية الإخلاص هنا بالباء لا ترضاه اللغة .
(٢) زيادة عن الثعلبي . (٣) فى الثعلبي المطبوعة : « تزهر » .

قبل أن أُخرِجَك من بطن أمّك طهّرتُك، ومن قبل أن تبلُغ السَّعْىَ نبّأتُك، ولأمرٍ عظيمٍ اجتبيتُك؛ فذكِّر قومَك نِعَمِي، وعرّفهم أحداثهم، وادعُهم إلىّ . وكانت

٢٩/١٢ الأحداث قد عظُمت فى بنى إسرائيل فركبوا المعاصِى واستحلّوا المحارم . فقال إرميا : إنى ضعيف إن لم تقوّنى ، عاجزٌ إن لم تنصُرنى . فقال الله عزّ وجل : أنا أُلهِمُك . فقام إرميا فيهم ولم يدر ما يقول ، فألهمه الله عزّ وجل خطبة طويلةً بليغةً ، بيّن لهم فيها ثواب الطاعة وعقاب المعصية ، وقال فى آخرها : وإنى أحلف بعزّتى لأُقَيِّضَنّ لهم فتنةً يتحيّر فيها الحكيم ، ولأُسلِّطنّ عليهم جبّارا قاسيا قلبُه ، أُلبِسه الهيبةَ وأنْزِعُ من صدره الرحمة ، يتبعه عددٌ مثلُ سوادِ الليل المظلم . ثم أوحى الله تعالى إلى إرميا : إنّى مُهلِكٌ بنى إسرائيل بيافَثَ ، و يافَثُ أهلُ بابل ، وهم من ولد يافَث بن نوح . فلمّا سمع ذلك إرميا صاح و بكى وشقّ ثيابه ونبذ الرَّمادَ على رأسه ، فلمّا سمع الله عزّ وجل تضرّعه و بكاءه ناداه : يا إرميا ، أشقّ عليك ما أوحيتُ إليك ؟ قال : نعم يارب ، أهلكْنِي قبل أن أرى فى بنى إسرائيل ما لا أُسَرّ به . فقال الله عزّ وجل : وعِزّتى لا أهلك بنى إسرائيل حتى يكون الأمرُ فى ذلك من قِبَلك . ففرح بذلك إرميا وطابتْ نفسُه وقال : لا والذى بعث موسى بالحقّ لا أرضَى بهلاك بنى إسرائيل . ثم أتى الملكَ فأخبره بذلك ، وكان ملكا صالحا ، ففرح واستبشر وقال : إنْ يعذبنا ربُّنا فبذنوبٍ كثيرة ، وإن عفا عنا فبرحمته . ثم إنهم لبثوا بعد الوحى ثلاثَ سنين لم يزدادوا إلا معصيةً وتماديًا فى الشرّ ، وذلك حين اقترب هلاكُهم ودعاهم الملك إلى التوبة فلم يفعلوا ، فسلّط الله عليهم بُخْتُنَصّر فخرج فى ستمائة ألف راية يريد بيت المقدس . فلمّا فَصَل[1] سائرا أتى الخبرُ الملكَ فقال لإرميا : أين ما زعمتَ أنّ الله أوحَى إليك ؟ فقال إرميا : إنّ الله عزّ وجلّ

(١) فصل فلان من البلد : خرج منه .

لا يُخلِف الميعـاد وأنا به واثقٌ . فلمّـا قرُب الأجلُ وعزم الله عز وجل على هَلاكهم بعث الله تعالى إلى إرميا مَلَكا فتمثّل له رجلا من بنى إسرائيـل فقال له : يانبيّ الله، أستفتيك فى أهل رَحِمِى، وصلتُ أرحامَهم ولم آتِ اليهم إلا حُسْنا، ولا يزيد إكرامى إيّاهم إلا إسخاطا لى ، فأفتِنِى فيهم . فقال له : أحْسِنْ فيما بينك وبين الله وصِلْهم وأبشر بخير . فآنصرف المَلَك فمكث أياما ثم أقبل إليه فى صورة ذلك الرجل فقعد بين يديه ، فقال له إرميا : أوما طَهُرَتْ أخلاقُهم لك بعدُ؟ فقال: يا نبيّ الله، والذى بعثك بالحقّ ما أعلم كرامةً يأتيها أحدٌ من الناس إلى أهل رَحِمه إلا قدّمتُها إليهم وأفضل . فقال له إرميا : ارجعْ إلى أهلك وأحسِنْ إليهم، وآسألِ الله تعالى الذى أصلحَ عباده الصالحين أن يُصلحهم . فقام الملك فمكث أيّاما وقد نزل بختنصّر وجنودُه حولَ بيتِ المقدس بأكثر من الجراد ، ففزِع منهم بنـو إسرائيل وشقّ عليهم . فقال ملكهم لإرْمِيَا : يانبيّ الله، أين ماوعَدَك الله ؟ قال : إنى بربّى واثق . ثم أقبـل الملك إلى إرميا وهـو قاعد على جِدار بيت المقدس وهو يضحك ويستبشر بنصر ربّه الذى وعده، فقعد بين يديه وقال له : أنا الذى أتيتُك فى شأن أهلى مرّتين . فقال إرْمِيَا : ألم يأنِ لهم أن يُفيقوا من الذى هم فيـه ؟ فقال الملك : يانبيّ الله، كل شيء يُصيبنى منهم قبلَ اليوم كنتُ أصبِر عليه، فاليومَ رأيتُهم فى عمل لا يُرضِى الله عز وجل . فقال إرميا : على أىّ عمـل رأيتَهم ؟ قال : على عمـل عظيمٍ من سُخْـط الله ، فغضِبتُ لله ولك وأتيتُك لأُخبرَك . وإنى أسألك بالله الذى بعثك بالحقّ إلّا مادعوتَ الله عليهم ليُهلكهم . قال إرْمِيَا : يامَلِكَ السمواتِ والأرض إن كانوا على حقّ وصـوابٍ فأبقهم ، وإن كانوا على سُخْطك وعمـلٍ لا ترضاه فأهلِكْهم . فلمّا خرجتِ الكلمة من فم إرميا أرسل الله عز وجل صاعقةً من السماء فى بيت المَقْدِس فآلتهبَ مكانُ القُربان وخُسِف بسبعة أبواب من أبوابها .

فلمّا رأى ذلك إرميا صاح وشقّ ثيابَه ونَبَـذَ الرّماد على رأسـه وقال : يامَلِك السموات والأرض، أين ميعادُك الذى وعدتَنى ! فنُودِىَ : إنه لم يُصبهم الذى أصابهم إلّا بفُتياك ودعائك . فآستيقَن إرْمِيَا أنها فُتياه، وأن ذلك السائل كان رسول ربه، فطار إرميا حتى خالَطَ الوحوش . ودخل بختنصر وجنودُه بيتَ المقدس ووطِئ الشام وقتَل بنى إسرائيل حتى أفناهم وخرّب بيت المقدس ؛ ثم أمر جنودَه أن يملأ كلّ رجلٍ منهم تُرسه ترابا ثم يَقذفه فى بيت المقدس ، فقَذَفوا فيه التراب حتى مَلَئوه ؛ ثم أمرهم أن يجمعوا مَن كان فى بلدان بيت المقدس كلّهم ، فجمعوا عنده كل صغير وكبير من بنى إسرائيل ، فآختار منهم مائةَ ألفِ صبىّ ، وقيل سبعين ألف صبىّ . فلمّا خرجت غنائم جُنده لتُقَسَّم قال له الملوك الذين كانوا معه : أيّها الملك ، لك غنائمها كلها ، فآقسِمْ بيننا هؤلاء الصّبيان الذين آخترتَهم من بنى إسرائيل ، ففعل ذلك ، فأصاب كلّ رجل منهم أربعة غِلْمة . وكان من أولئك الغلْمان دانِيال وحَنَانِيَا وعزَارِيَا وميشائيل (1) ، ٣٠/١٢
وسبعةُ آلاف من أهل بيت داود عليه السلام ، وأحدَ عشر ألفا من سِبْط يوسف ابن يعقوب وأخيه بِنْيَامين عليه السلام ، وثمانيةُ آلاف من سِبط أشْرِس (2) بن يعقوب ، وأربعةَ عشر ألفا من سِبْط ريالون (3) بن يعقوب ونَفْتَالِى (4) بن يعقوب ، وأربعةُ آلاف من سِبْط يهوذَا بن يعقوب ، وأربعةُ آلاف من سبط رُوبِيل (5) ولَاوِى آبْنَى يعقوب ، ومَن بقِىَ من بنى إسرائيل .

---

(1) فى الكتاب المقدس (ج ٢ ص ٦٢٥) : « حننيا ... ... وعزريا » . وراجع ما كتبه عنهم الدكتور جورج بوست فى قاموس الكتاب المقدس .

(2) فى الكتاب المقـدس (ج ١ ص ٥٠) : « أشير » .

(3) فى الكتاب المقدس (ج ١ ص ٥٠) : « زبولون » .

(4) كذا فى الكتاب المقدس (ج ١ ص ٨٦) . وورد فى الأصول بحروف مهملة .

(5) فى الكتاب المقدس (ج ١ ص ٥٠) : « رأوبين » .

قال : وجعل بُختنصر مَن بَقِيَ(١) من بنى إسرائيل ثلاث فِرَق، فثُلُثاً أقرّ بالشام، وثُلُثاً سَبَى، وثُلُثا قَتَل . وذهب بآنية بيت المقدس وسَلَبَ حُليَّه حتى أقدم ذلك بابِلَ ، فكان على سبعين ألفا ومائةَ ألف عَجَلة من حُلِيّ . فذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ يعنى بختنصر وأصحابه ﴿ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا(٢) ﴾ فهذه الواقعةُ الأولى التى أنزلها الله ببنى إسرائيل لآختلافهم وظلمهم . ولنصل هذا الفصل بخبر بختنصر .

ذكر خبر بختنصر وآبتداء أمره وكيف ملك

يقال فى آسمه : بُخْتَنَصَّر(٣) (بتشديد الصاد و إسكانها) ويقال فيه : بختناصر . وقد آختُلِف فى أمره ، فقال قوم : إنه مَلَكَ الدنيا أجمع . وقال آخرون : بل مَلَكَ بابِل وما آفتتحه . وقال قوم : إنما كان مَرْزُبانًا للهراسف الفارسىّ . وقال قوم : كان أصله من أبناء الملوك ، وقيل : بل كان من الفقراء . وسنذكر إن شاء الله تعالى ما نَقِفُ عليه من ذلك . فمن ذلك ما رواه أبو إسحاق الثعلبىّ فى تفسير قوله عز وجل : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ ... ﴾ الآيات بسندٍ رفعه إلى سَعيد بن جُبَير قال : كان رجل من بنى إسرائيل يقرأ التوراة، حتى إذا بلغ « بَعَثنا عليكم عِبادًا لنا أُولِى بأسٍ شديد » بكى وفاضت عيناه ثم أطبق المصحف وقال: أى ربِّ أرِنِى هذا الرجلَ الذى جعلتَ هَلاكَ بنى إسرائيل على يديه؛ فأُرِىَ

---

(١) فى الثعلبى : « فجعل بختنصر سبايا بنى اسرائيل » .
(٢) سورة الإسراء آية ٤، ٥ .
(٣) ويقال له أيضا : « نبوخذ نصر » و « نبوكدنصر » . (راجع تاريخ المشرق لماسبيرو ص ١١٣ وكتاب المقدس ج ١ ص ٦٤٩) .

فى المنـام مسكينٌ ببابلَ يقال له بُخْتَنَصَّر، فآنطلق بمـال وأعبُدٍ له وكان رجلا مُوسِرًا . فقيل له : أين تريد؟ قال : أريد التجارة . فسار حتى نزل بابِلَ ، فنزل دارا فأكتراها ، ليس فيها أحدٌ غيرُه ، فجعـل يدعو المساكين ويَلْطُفُ بهـم حتى لا يأتيـه أحدٌ إلا أعطاه . فقال : هل بَقِيَ مسكينٌ غيركم ؟ قالوا : نعم، مسكينٌ بفجّ آل فلان مريضٌ يقال له بختنصّر . فقال لغِلْمته : آنطلِقُوا بنا ، فآنطلقَ حتى أتاه فقال له : ما آسمُك ؟ قال بختنصّر . فقال لغِلْمته : آحتملوه، فنقله إليه فمرّضه حتى برئ، فكساه وأعطاه نفقةً، ثم آذن الإسرائيلىّ بالرحيل، فبكى بختنصّر . فقال له الإسرائيـلىّ : ما يُبْكيك ؟ قال : أبكى أنك فعلتَ بى ما فعلتَ، ولا أجد شيئا أُجزِيك به . قال : بلى، شيئا يسـيرا . فقال له : وما هـو ؟ قال : إن مُلِّكْتَ أطعتَنى . فجعل يتبعه ويقـول : تستهزئ بى ! ولا يمنعه من أن يُعطِيَـه ما سأله إلّا أنه يرى أنه يستهزئ به . فبكى الإسرائيلى وقال : لقد علمتُ ما يمنعك مما سألتك إلّا أنّ الله تعالى يريد أن يُنَفِّذَ ما قد أمضَى وكتب فى كتابه .

قال : وضرب الدهر ضَرَبانه(1) فقال صَيْحون(2) وهو ملك فارس ببابلَ : لو أنّا بعثنا طليعةً إلى الشام؟ قالوا : وما ضرّك لو فعلتَ؟ قال : فمن تَرَوْن؟ قالوا : فلان . فبعث رجلا وأعطاه مائة ألف فارس، وخرج بختنصّر فى مطبخه لا يخرج إلا ليأكل من مطبخه [ويعيش منه](3) . فلمّـا قدِم الشام رأى صاحبُ الطليعـة أكثرَ خلقِ الله فُرسانا ورِجالًا ، فكسر ذلك فى ذَرْعه فلم يسأل . فجعل بختنصّر يجلس فى مجالس

---

(1) ضربان الدهر : حدثانه .

(2) كذا فى الأصول وتاريخ الطبرى (ص ٦٥٦ من القسم الأول) . وفى تاريخ الطبرى أيضا (ص ٦٥٧ من القسم الأوّل) : « صيحائين » . وفى الأصول فى بعض المواضع : « صحائين » .

(3) زيادة عن الثعلبى .

أهلَ الشام فيقول : ما يمنعكم أن تغزوا بابِلَ ! فلو غزَوْتموها فما دُون بيت مالها شيءٌ . قالوا : لا نُحسن القتالَ ولا نُقاتل ، حتى انتفذ مجالسَ أهلِ الشام . ثم رجع أميرُ الطَّليعةِ فأخبر الملِكَ بما رأى . وجعل بختنصر يقول لفوارس الملِك : لو دعانى الملكُ لأخبرتُه غيرَ ما أخبره فلان . فرُفع ذلك إلى الملك فدعاه ، فقال : إنّ فلانا لمّا رأى أكثرَ أرضِ الله كُراعًا[(١)] ورِجالًا كسَر ذلك فى ذَرْعه ولم يسألهم عن شىء ، وإنى لم أدع مجلسا بالشام إلا جالستُ أهلَه فقلت لهم كذا وكذا ، فقالوا لى كذا وكذا . فقال صاحب الطليعة لبختنصّر : بصحبتى لك مائةُ ألف دينار وتنزع عما قلتَ . قال : لو أعطيتَنى بيت مالِ بابلَ ما نزعتُ . فضرب الدهر ضَرَبانه فقال الملك : لو بعثنا جريدة خَيـل الى الشامِ ، فإن وجدوا مَساغًا سَاغُوا وإلّا آستلبُوا ما قدروا عليه . قالوا : ما ضرّك لو فعلتَ ؟ قال : فمَن ترَوْن ؟ قالوا : فلان . قال : بل الرجل الذى أخبرنى بما أخبرنى . فدعا بختنصّر وأرسله وآنتخب معه أربعةَ آلافٍ من فرسانهم ، فآنطلقوا فجاسُوا خِلال الديار ، فسبَوْا ما شاء الله ولم يخرِّبوا ولم يقتلوا . ومات صَيْحون الملك ، فقالوا : استخلفوا رجلا . فقالوا : على رِسْلكم حتى يأتى أصحابكم فإنهم فُرسانُكم . فأمهلوا [وأخّروا ذلك][(٢)] حتى جاء بختنصّر بالسَّبْى وما معه ، فقسّم ذلك فى الناس . فقالوا : ما رأينا أحدا أحقّ بالمُلْك من هذا فملَّكوه . ٣١/١٢

قال : وقال السُّدّىّ بإسناده : إنّ رجلا من بنى إسرائيل رأى فى المنام أنّ خرابَ بيتِ المَقْـدِس وهَلاكَ بنى إسرائيل على يَدَىْ غلام يتيم آبن أرْمَلةٍ من أهل بابل يُدعَى بختنصّر ، وكانوا يصدُقون فتصدُق رؤياهم . فأقبل فسأل عنه حتى نزل على أمه وهو يحتطب . فلمّا جاء وعلى رأسه الحطب ألقَى الحُزْمة ثم قعد فى جانب

(١) زيادة عن الثعلبى .

(٢) أكارع الأرض : أطرافها القاصية

من البيت، فكلّمه ثم أعطاه ثلاثة دراهم وقال : اشتر بهذه طعاما وشرابا، فآشترى بدرهم لحما، وبدرهم خبزا، وبدرهم خمرا، فأكلوا وشربوا، حتى إذا كان اليوم الثانى فعل به كذلك ؛ وفى اليوم الثالث كذلك . ثم قال : إنى أحبّ أن تكتب لى أمانا إن أنتَ مُلِّكتَ يوما من الدهر. قال: تسخر منّى؟ قال: إنى لا أسخر منك، ولكن ماعليك أن تتخذها عندى يدا! فكلّمته أمّه فقالت: ماعليك إن كان، وإلّا لم ينقصك شيئا ، فكتب له أمانا . فقال له : أرأيتَ إن جئتَ والناسُ حَوْلك قد حالوا بينى وبينك فآجعَل لى آيةً تعرفنى بها . قال: ترفع صحيفتك على قَصَبة فأَعرِفك بها ، فكساه وأعطاه . ثم إنّ ملك بنى إسرائيل كان يُكرم يحيى بن زكريا عليهما السلام ويُدنى مجلسه ويستشيره فى أمره ولا يقطع أمرا دُونه ؛ وإنه هَوِىَ أنْ يتزوّج بنت آمرأته — قال وقيل : كانت بنت أخيه ، قال الثعلبىّ : وهو الأصح(١) إن شاء الله — فسأله عن ذلك، فنهاه عن نكاحها وقال : لن أرضاها لك . فبلغ ذلك أمّها فحَقَدت على يحيى عليه السلام حين نهاه أن يتزوّج بنتها ، فعمَدت أم الجارية حين جلس الملك على شرابه فألبستها ثيابا رِقاقًا حمراءَ وطيّبتها وألبستها من الحُلىّ ، وألبستها فوق ذلك كساءً أسودَ وأرسلتها الى الملك، وأمرتها أن تَسقيَه وأن تتعرّض إليه، فإن أرادها على نفسها أبتْ عليه حتى يُعطيَها ما سألته ، فإذا أعطاها ذلك سألته أن يُؤتَى برأس يحيى بن زكريا فى طَسْتٍ، ففعلتْ . فلمّا أخذ منه الشرابُ أرادها على نفسها، فقالت: لا أفعل حتى تُعطيَنى ما أسألك . قال : ماتَسألينى ؟ قالت: أسألك

(١) ذكر الثعلبىّ تأييدا لصحة قوله ما نصه : «لما روى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : بعث عيسى بن مريم يحيى بن زكريا فى اثنى عشر من الحوار يين يعلمون الناس. فكان مما نهوهم عنه نكاح بنت الأخ . قال : وكانت لملكهم بنت أخ تعجبه يريد أن ينكحها وكانت لها فى كل يوم حاجة يقضيها، فسأل يحيى بن زكريا عن ذلك فنهاه عن نكاحها ... الخ » .

أن تبعث إلى يحيى بن زكريّا فتُؤتَى برأسه فى طَسْتٍ . فقال : ويحَكِ ! سَلِينى غيرهذا . قالت : ما أريد إلّا هذا . فلمّا أبَتْ عليه بعث إليه فأُتِىَ برأسه ، والرأس يتكلّم حتى وُضِع بين يديه وهو يقول : لا يحِلّ لك . فلمّا أصبح إذا دَمُهُ يَغْلِي ، فأمر بترابٍ فأُلْقِىَ عليه ، فرقىَ الدمُ فوق التراب يَغْلِى ، فأُلْقِىَ عليه أيضا فارتفع الدمُ فوقه ، فلم يزل يُلْقَىَ عليه من التراب حتى بلغ سور المدينة وهو فى ذلك يغلى . فبلغ صُيْحون ملك بابل ذلك فنادى فى الناس ، وأراد أن يبعث إليهم جيشا [ويؤمّر عليهم رجلا] (١) . فأتاه بختنصّر فكلّمه وقال : إنّ الذى كنتَ أرسلتَ تلك المرّة ضعيفٌ ، وإنّى قد دخلتُ المدينة وسمعتُ كلام أهلها [فآبعثنى] (١) فبعثه . فسار بختنصّر ، حتى إذا بلغوا ذلك المكان تحصّنوا منــه فى مدائنهم فلم يُطقهم . فلمّــا آشتدّ عليه المُقَامُ وجاع أصحابُه وأرادوا الرجوع خرجت آمرأةٌ عجوزٌ من عجائز بنى إسرائيل فقالت : أينَ أميرُ الجُنْد؟ فأُتِىَ بها إليه . فقالت : إنه بلغنى أنك تريد أن ترجع بجُنــدك قبل أن تفتح هذه المدينة . قال : نعم ، قد طال مُقامى وجاع أصحــابى ، فلستُ أستطيع المُقام فوق الذى كان منِّى . فقالت : أرأيتَــك إن فُتِحَتْ لك المدينــةُ أتُعطِينى ما أسألك ، فتقتُل مَن أمرتُك بقتله ، وتكُفّ إذا أمرتُك أن تكفّ ؟ فقال لهــا نعم . قالت : إذا أصبحتَ فآقسِمْ جندَك أربعةَ أرباع ، ثم آجعَلْ فى كل زاوية رُبْعًا ، ثم آرفعوا أيديَكم إلى السماء فنــادُوا : إنّا نستفتحك يا الله بدم يحيى بن زكريّا ، فإنها سوف تَسَاقط ، ففعلوا ، فتساقطتِ المدينةُ فدخلوا من جوانبها . فقالت : كُفّ يدك وآقتل على هذا الدم حتى يسكُن ، وآنطلقت به الى دم يحيى بن زكريّا ، وهو على تراب ، فقتل عليه حتى سَكَنَ ، فقتل سبعين ألفا . فلمّــا سكن الدم قالت له : كُفّ يدك ٣٢/١٢ فإنّ الله تعــالى إذا قُتِلَ نبىّ لم يرضَ حتى يُقتَــل مَن قتله ومَن رضِىَ قَتْــلَه . وأتاه

---

(١) زيادة عن الثعلبى .

صاحبُ الصحيفة بصحيفته فكفّ عنه وعن أهل بيته ، وخرّب بيت المقدس وأمر أن تُطرَح الجِيَف فيه ، وقال : مَن طَرَح فيه جيفةً فله جِزْيتُه تلك السنة . قال : وأعانه الروم على خرابه من أجل أنّ بنى إسرائيل قتلوا يحيي بن زكريا .

قال : فلمّا خرّبه بختنصّر ذهب معه بوُجُوه بنى إسرائيل وسَرَاتهم وذهب بدانيالَ وقومٍ من أولاد الأنبياء وذهب معه برأس جالوت الملك ، فلمّا قَدِم وجد صَيْحون مَلِكَ بابِلَ قد مات فمُلِّكَ مكانه .

ذكر خبر بختنصّر مع دانيال

قال : ولمّا سار بختنصّر إلى بابِلَ ومُلِّك بعد موت الملك كان معه دانيالُ ، وكان أكرمَ الناس عليه هو وأصحابُه ، فحسدهم المَجُوس على ذلك ، فوشَوْا بهم إليه وقالوا : إنّ دانيالَ وأصحابَه لايعبدون إلهك ولا يأكلون ذَبِيحتك . فدعاهم فسألهم ؛ فقالوا : أَجَلْ ، إنّ لنا ربّاً نعبدُه ، ولسنا نأكل من ذبيحتكم . فأمر أن يُخَدّ[1] لهم أُخدودٌ فخُدّ لهم وأُلقوا فيه وهم ستّة ، وأُلقِيَ معهم سَبُعٌ ضارٍ ليأكلهم ، ثم قال : اذهبوا بنا نأكل ونشرب ، فذهبوا فأكلوا وشربوا ، ثم عادوا فوجدوهم سبعة والسبع مفترش ذراعيه بينهم ولم يخدِش منهم أحدا . فقالوا : مابالُ هذا السابع إنما كانوا ستّة ! فخرج السابع إلى بختنصّر ، وكان مَلَكا من الملائكة ، فلطَمه لطمةً فصار من الوحش [ومسخه الله][2] سبع سنين ، [ثم ردّه الله الى صورته وردّ عليه ملكه][2] . هذا ما حكاه السدّى .

وروى الثعلبيّ بسنده إلى وَهْب قال : لمّا سار بختنصّر الى بابل ومُلِّك بعد موت ملكها واستتبّ أمرُه لبِثَ على ذلك مدّة ، ثم رأى رؤيا عجيبة فأفزعته وسأل عنها الكَهَنةَ والسحَرةَ فعجزوا عن تعبيرها . فبلغ ذلك دانيالَ وكان فى السجن

(١) يخدّ : يحفر . والأخدود : الحفرة المستطيلة فى الأرض . (٢) زيادة عن الثعلبي .

مع أصحابه وقد أحبّه صاحب السجن وأُعجِبَ به لِمَا رأى من حسن سَمْته . فقال له دانيال : إنك قد أحسنتَ إلىّ ، و إنّ صاحبكم قد رأى رؤيا ، فدُلّه علىّ لأُعبّرها له . بخاء السجّان فأخبر بختنصّر بقصّة دانيال، فآستدعاه بخاء إليه . وكان من عادة من حَضَر بين يَدَيِ الملك أن يسجُد له ، فلما أتَوْا بدانيال قام بين يديه ولم يسجُد له . فقال : ما الذى منعك من السجود؟ فقال : إن لى ربّا آتانى العلمَ والحكمةَ وأمرنى ألّا أسجُد لغيره ، فخشِيتُ إن سجدتُ لغيره أن ينزِع منّى الحكمة والعلم ويُهلكنى . فأُعجِب به وقال : نِعْمَ ما فعلتَ حيث وفّيتَ بعهده ، وأجللتَ علمه ؛ ثم قال : هل عندك علمُ هذه الرؤيا ؟ قال : نَعَمْ وأبشر، فأخبره برؤياه قبل أن يخبره الملك بها ، وعبّرها له . قال الثعلبىّ : وكانت الرؤيا على ما أخبرنا به عبد الله بن حامد فى إسناده عن وهب بن منبّه قال : إنّ بختنصّر رأى فى آخر زمانه صنمًا رأسه من ذهب ، وصدره من فضّة ، وبطنه من نُحاس ، وفخذاه من حديد ، وساقاه من فخّار، ثم رأى حجرا من السماء وقع عليه فدقّه، ثم ربا الحجر حتى ملأ ما بين المشرق والمغرب، ورأى شجرة أصلُها فى الأرض وفرعُها فى السماء، ثم رأى عليها رجلا بيده فأس وسمع مناديا ينادى : اضرِبْ جِذْعَها ليتفرّق الطيرُ من فروعها، ولتتفرّق الدوابّ والسباع من تحتها ، وآترك أصلَها قائما . فعبّرها دانيال عليه السلام له فقال : أمّا الصنمُ الذى رأيتَ ، فأنت الرأس وأنت أفضلُ الملوك . وأما الصدرُ الذى من فضة فآبنك يملك من بعدك . وأما البطنُ الذى رأيتَ من نُحاس فمَلِكٌ يكون بعد آبنك . وأما ما رأيتَ من الفخذَيْن من حديد فيتفرّق الناس فرقتين فى فارس يكون أشدّ الملوك . وأما الفخّار فآخرُ ملكهم يكون دون الحديد . وأما الحجر الذى رأيتَه قد ربا حتى ملأ ما بين المشرق والمغرب فنبىّ يبعثه الله تعالى فى آخر الزمان فيفرّق مُلْكهم كلّه ، و يربو مُلكه حتى يملأ ما بين المشرق والمغرب .

وأما الشجرةُ التى رأيتَ والطيرُ التى عليها والسِّباعُ والدوابُّ التى تحتها وما أمر بقطعها، فيذهب مُلكك و يردّك الله طائرا تكون نسرا ملِك الطير، ثم يردّك الله ثورا ملك الدوابّ، ثم يردّك الله أسدا ملِك السباع والوحش سبع سنين، وفى كل ذلك قلبك قلب إنسان، حتى تعلم أنّ الله له مُلْك السموات والأرض، يقدر على الأرض ومَن عليها، وكما رأيتَ أصلها قائمـا فإن مُلكك قائم. ٣٣/١٢

قال : فمُسِخَ بختنصّر نسرًا فى الطيور، وثورا فى الدوابّ، وأسدا فى السباع، فكان مسخه كله سبع سنين، ثم ردّالله تعالى إليه مُلكه، فآمن ودعا الناس إلى الله تعالى.

قال : وسُئل وهب بن منبِّه : أكان بختنصّر مؤمنا ؟ فقال : وجدتُ أهل الكتاب قد آختلفوا فيه، فمنهم من قال : مات مؤمنا، ومنهم من قال : مات كافرا؛ لأنه حَرّق بيت المقدس وكُتُبَ الله وقَتَل الأنبياء، فغضب الله تعالى عليه ولم يقبل توبته.

قالوا : فلمّا عبّر دانيال لبختنصّر رؤياه أكرمه وصحِبه وآستشاره فى أموره وقرّبه منه حتى كان أكرَمَ الناسِ عليه وأحبّهم إليه، فحسده المجوس على ذلك ووشَوْا به وبأصحابه الى بختنصّر فقالوا : إنّ دانيّال وأصحابه لايعبدون إلهك، ولا يأكلون ذَبيحتك. فدعاهم وسألهم فقالوا : إن لنا ربّا نعبده ولسنا نأكل من ذبائحكم. فأمر بختنصّر بأُخدود، فخُدّ لهم وأُلقوا فيه، وهم ستّة ، وأُلقِيَ معهم سبعٌ ضارٍ ليأكلهم، ثم قالوا : انطلِقوا لنأكل ونشربَ، فأكلوا وشربوا، ثم راحوا فوجدوهم جلوسا والسبع مفترش ذراعيه بينهم ولم يخدش منهم أحدا ولم ينكأهم[1] بشىء، ووجدوا معهم رجلا فعدّوهم فوجدوهم سبعة، فقالوا : ما بال هذا السابع وإنما

---

(١) ينكأهم : يجرحهم

كانوا ستة أيام، فخرج إليهم السابع، وكان ملكا من الملائكة، فلطم بختنصّر لطمةً فصار في الوحوش، ومسخه الله تعالى سبعَ سنين ثم ردّه الله تعالى إلى صورته وردّ عليه مُلْكه .

قال السُّدّيّ : ثم إن بختنصر لمّا رجع إلى صورته بعد المسخ وردّ الله تعالى عليه مُلْكه، كان دانيالُ وأصحابُه أكرمَ الناس عليه . فحسدته المجوسُ ووشَوْا به ثانيةً فقالوا لبختنصّر : إنّ دانيالَ إذا شرب الخمرَ لم يملك نفسه أن يبُول، وكان ذلك فيهم عارًا . فجعل بختنصّر لهم طعاما وشرابا فأكلوا وشربوا وقالوا للبوّابين : أنظروا أوّل مَن يخرج إليكم ليبول فاضربوه بالطَّبَرْزِين[1]، وإن قال لكم أنا بختنصّر فقولوا له : كذبتَ، بختنصّر أمرنا بهذا . فحبس الله تعالى عن دانيال البَوْل، وكان أوّلُ مَن قام من القوم يريد البَوْل بختنصّر، فقام مُدِلًّا وذلك ليلا، فخرج يسحب ثيابه، فشدّ عليه البوّاب فقال : أنا بختنصّر . فقال : كذبتَ، بختنصّر أمرني أن أقتل أوّلَ مَن يخرج، فضربه فقتله .

وحكى محمد بن إسحاق بن يَسَار في سبب هلاك بختنصّر غيرَ ما حكاه السُّدّيّ، وذلك أنه قال بإسناده : لمّا أراد الله تعالى هَلاكَ بختنصّر انبعثَ فقال لمن كان في يده من بني إسرائيل : أرأيتم هذا البيتَ الذي خرّبتُه، وهؤلاء الناس الذين قتلتُهم مَن هم ؟ وما هذا البيت ؟ قالوا : هذا بيتُ الله ومسجدٌ من مساجده، وهؤلاء أهله، كانوا من ذراري الأنبياء فظلموا وتعدَّوْا وعصَوْا، فسُلِّطتَ عليهم بذنوبهم، وكان ربُّهم ربُّ السموات والأرض وربّ الخلق كلهم، يُكرمهم ويمنعهم

(١) الطبرزين : جمعه طبرزينات . وهذا اللفظ مأخوذ من كلمة فارسية (تبر، تپر) ومعناها الفأس، وهي آلة للقتال عبارة عن عمود له حدّان، وكانوا يعلّقونها في السرج ليستخدمها الفارس في وقت النزال والبراز . (راجع شفاء الغليل وصبح الأعشى ج ١ ص ٣٦٥ وقاموس دوزى) .

و يُعزّهم . فلمّا فعلوا ما فعلوا أهلكهم الله تعالى وسلّط عليهم غيرهم . قال : فأخبرونى . ما الذى يطلّع بى الى السماء العُليا لعلِّى أطّلع إليها وأقتل مَن فيها وأتّخذها مُلْكا فإنى قد نزغت من الأرض ومَن فيها؟ قالوا : ما يقدر على هذا أحدٌ من الخلائق . قال : لتفعلُنّ أو لأقتلنّكم عن آخركم. فبكَوْا وتضرّعوا إلى الله تعالى، فبعث الله عز وجل عليه بقدرته ليُرِيه ضَعفَه وهوانه بعوضةً فدخلت فى مَنْخَره ثم ساخت فيه حتى عضّت بأمّ دماغه فما يَقِرّ ولا يسكن حتىٰ يُوجَأ[1] له رأسُه على أمّ دماغه . فلمّا عرف أنه الموت قال لخاصّته من أهـله : إذا مُتّ فشُقّوا رأسى فآنظروا ما هـذا الذى قتلنى . فلمّا مات شقّوا رأســه فوجدوا البعوضةَ عاضّة بأمّ دماغه ليُرِىَ الله تعـالى عباده قُدرتَه وسلطانَه ، ونجّى الله تعالى مَن بَقِىَ فى يديه من بنى إسرائيل و ردّهم إلى إيليا والشام ، فبنَوْا فيه و ربوا وكثُروا حتى كانوا كأحسن ما كانوا عليه . قال : فيزعمون أنّ الله تعالى أحيا أولئك الموتَى الذين قُتلوا ولَحِقوا بهم . قال : ثم إنهم لمّا رجعوا الى الشام وقد أحرقت التوراةُ وليس معهم عهـد من الله تعالى جدّد الله عز وجل تَوراتَهم وردّها عليهم على لسان عُزَيْر، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

قال : وكان عُمر بختنصّر بأيام مَسْخه نَيِّفا وخمسين ســنة وخمسين يوما . فلمّا مات بختنصّر آستُخلف [آبنــه][2] بلسطاس[3] . وكانت آنيةُ بيتِ المقدس التى حملها بختنصّر إلى بابل باقيةً ، فنجّسها بلحوم الخنازير وأكل وشرب فيها ، وأقصى دانيالَ ولم يقبل منه ، وآعتزله دانيال . فبينما بلسطاس ذات يوم إذ بدت له كفّ بغير ساعد وكتبت ثلاثةَ أحرُف بمشهده ثم غابت ، فعجب من ذلك ولم يدر ما هى ، فآستدعى دانيالَ وآعتذر اليه وسأله أن يقرأ تلك الكتابة و يخبره بتأويلها . فقرأها دانيال ، فإذا

(١) يوجأ : يضرب . (٢) زيادة عن الثعلبي .

(٣) فى تاريخ ابن العبرى (ص ٧٨) : « بلطشاصر » .

هى : «بسم الله الرحمن الرحيم . وُزِنَ نخفّ[(١)]، ووُعد فنجز، وجُمع فتفرّق» . فقال دانيال : أمّا قوله وُزن نخفّ، أى وُزِن عملُك فى الميزان نخفّ . ووُعد مُلكٌ فنجز اليوم، وجُمع كتفرّق، أى جُمع لك ولوالدك من قبلِك مُلكٌ عظيمٌ فتفرّق اليوم فلا يرجع إلى يوم القيامة . فلم يلبث إلا قليلا حتى أهلكهم الله تعالى وضعُف مُلكهم، وبَقِىَ دانيال بأرض بابل إلى أن مات بالسُّوس[(٢)] .

فهذه الأقاويلُ التى وردت فى بختنصّر هى على ماجاء فى التفسير[(٣)] والمبتدا[(٤)] . وأمّا قول من قال إنه كان مَرْزُبانًا للهراسف الملك الفارسىّ فسنذكره إن شاء الله تعالى فى أخبار ملوك الفُرْس، على ما تقف عليه إن شاء الله تعالى فى موضعه وهو فى الباب الثالث من القسم الرابع من هذا الفنّ فى السفر الثالث عشر من هذه النسخة من كتابنا هذا.

وهذه الاخبار التى قدّمنا ذكرها أوردها أبو إسحاق الثعلبىّ فى تفسيره وفى كتابه المترجم بـ «يواقيت البيان فى قصص القرآن» . وقال فى تفسيره : إلّا أنّ رواية مَن رَوَى أن بختنصّر غزا بنى إسرائيل عند قتلهم يحيى بن زكريّا عليهما السلام غلطٌ عند أهل السِّيَر والأخبار والعلم بأمور الماضين من أهل الكتاب والمسلمين . وذلك أنهم مُجمعون على أن بختنصّر غزا بنى إسرائيل عند قتلهم نبيّهم شَعْيَا وفى عهد إرميَا بن حِلْقيَا عليهم السلام، وهى الوقعة الأولى التى قال الله تعالى : (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا) يعنى بختنصّر وجنوده.

قال الثعلبىّ قالوا : ومن عهد إرميَا وتخريب بختنصّر البيت المقدّس الى مولد يحيى بن زكريّا أربعمائة سنة وإحدى وستون سنة . والله أعلم .

---

(١) فى الأصول : « ... وزن نخفف ... وجمع نفرق ... » وقد أثبتناه كما فى الثعلبى لوضوحه.

٢ (٢) السوس التى بها قبر دانيال عليه السلام : بلدة بخوزستان (راجع معجم البلدان لياقوت ج ٣ ص ١٨٨ طبع أوربا) . (٣) هو الكشف والبيان فى تفسير القرآن لأبى إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبى النيسابورى المتوفى سنة ٤٢٧ هـ ومنه بعض أجزاء مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية .

(٤) هو اسم كتاب أيضا .

ذكر خبر عمارة بيت المقدس بعد أن خرّبه بختنصّر وخبر الذى مرّ على قرية

قال الله عزّ وجلّ : ﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِى هٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ[1] ... ﴾ الآية .

قال أبو إسحاق الثعلبىّ رحمه الله : اختلفوا فى ذلك المارّ مَن كانَ ، فقال عِكْرِمة وقَتَادة والرَّبيع بن أَنَس والضحّاك والسُّدّىّ وناجية بن كعب وسليمان بن بُرَيدة[2] وسَلْم الخوّاص : هو عُزَير بن شرخيا . وقال وهب بن مُنَبِّه وعبد الله بن عبيد ابن عُمَير : هو إرْمِيَا بن حِلقِيَا ، وكان من سِبْط هارون بن عمران ، وقد تقدّم ذكره .

قال : واختلفوا أيضا فى القرية التى مرّ عليها ، فقال وهب وعِكْرِمة وقَتَادة والربيع : هى بيت المقدس . وقال الضحّاك : هى الأرض المقدّسة . وقال ابن زَيْد : هِى الأرض التى أهلك الله تعالى بها الذين خرجوا من ديارهم وهم أُلوفٌ حَذَرَ الموت . وقال الكلبىّ : هى دَيْر سَابُرَ آبَاذ . وقال السُّدّىّ : هى سلماباذ . وقيل : هى دَيْرِهِزْقِل[3] . وقيل : هى قرية العِنَب ، وهى على فرسخين من بيت المقدس .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٩

(٢) كذا فى الجامع لأحكام القرآن للقرطبى (ج ٣ ص ٢٨٨) طبع دار الكتب المصرية وتهذيب التهذيب لابن حجر (ج ٤ ص ١٧٤) . وفى الأصول : «يزيد» وهو تحريف .

(٣) كذا فى معجم البلدان لياقوت وذكر أنه (بكسر أوّله وزاء معجمة ساكنة وقاف مكسورة) وقال : وأصله حِزقيل ثم نقل الى هزقل ، وهو دير مشهور بين البصرة وعسكر مكرم (خاص بالمجانين) ، وللمبرد حكاية فيه مع أحد عقلاء المجانين ، وقد ذكره دعبل بن على حين هجا أبا عباد كاتب المأمون فقال :

فكأنه من دير هزقل مفلت ☆ حنق يجرّ سلاسل الأقياد

وفى الأصول والجامع لأحكام القرآن للقرطبى (ج ٣ ص ٢٨٩ طبع دار الكتب المصرية) : «هرقل» بالراء المهملة وهو خطأ . (راجع ياقوت ج ٢ ص ٦٤٢، ٥٠٦ ٧ طبع أوربا ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى ج ١ ص ٣٤٤ طبع دار الكتب المصرية) .

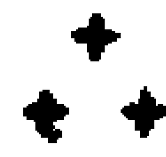
قال فالذى يقول : إن المار إرْمِيَا و إنّ القرية بيت المقدس ، هو ما رواه محمد ابن إسحاق بن يَسَار عن وهب بن مُنَبِّه : أنه لمّا كان من أمر إرْمِيَا ما قدّمناه، وأنه طار لمّا ٱلتهب مكان القُرْبان وخُسف بسبعة أبواب من أبواب بيت المقدس حتى خالط إرْمِيَا الوحش ودخل بختنصّر وجنودُهُ بيت المقدس وخُرِّب كما تقدّم . فلمّا رجع بختنصّر عن بيت المقدس أقبل إرْمِيَا على حمار له معه عَصِيرُ عنب فى رَكْوَة[(١)] وسَلَّةُ تِينٍ حتى غَشِىَ إيلِيَاء[(٢)] . فلمّا وقف عليها ورأى خرابها قال : «أنّى يُحيِي هذه الله بعد موتها» ! . قال : ثم ربط إرْمِيَا حماره بحبل جديد، فألقى الله تعالى عليه النوم، ٣٥/١٢ فلمّا نام نَزَع منه الرُّوح مائةَ عام وأمات حمارَه ، وعَصِيرُه وتِينُه عنده ، وأعمى الله تعالى عنه العيونَ فلم يره أحد وذلك ضُحًى ، ومنع الله السباعَ والطيرَ لحمه . فلمّا مضى من نومه سبعون سنة أرسل الله عز وجل مَلَكًا إلى مَلِك عظيم من ملوك فارس يقال له : « بوسك »[(٣)] فقال له : إن الله عز وجل يأمرك أن تنفر بقومك فتعمِّر بيت المقدس و إيلياءَ وأرضَها حتى تعود أحسنَ ما كانت، فانتدب الملك ألف قَهْرمان مع كل قهرمان ثلاثمائة ألف عامل، فجعلوا يعمِّرونها فعُمِّرت، ونجّى الله تعالى مَن بَقِىَ من بنى إسرائيل ولم يمت ببابل أحدٌ منهم وردّهم الله تعالى إلى بيت المقدس وعمّروها ثلاثين سنة حتى كانوا كأحسن ما كانوا عليه، وذلك بعد أن خُرِّبت سبعين سنة . فلمّا مضت المائة سنة أحيا الله عز وجل منه عينيه وسائرُ جسده ميّتٌ ، ثم أحيا جسده وهو ينظر ، ثم نظر إلى حماره فإذا عظامُه متفرّقةٌ بيضٌ تلوح، فسمع صوتا من السماء : أيّتها العظامُ الباليةُ إن الله

(١) الركوة : إناء صغير من جلد .

(٢) إيلياء : اسم مدينة بيت المقدس . معناه بيت الله .

(٣) كذا فى الأصول . وفى قصص الأنبياء الثعلبى المطبوعة : «بوشك» . وفى المخطوطة : «نوشك» . وفى الجامع لأحكام القرآن القرطبى (ج ٤ ص ٢٩١) : «كوشك» .

يأمرك أن تجتمعى، فآجتمع بعضها إلى بعض وآتصل بعضها ببعض . ثم نُودِىَ : إن الله يأمرك أن تكتسِىَ لحما وجِلْدا فكان كذلك . ثم نُودِىَ : إن الله يأمركَ أن تحيا، فقام بإذن الله ونَهَق . وعمّر الله تعالى إرْميا، فهو الذى يُرَى فى الفَلَوَات؛ فذلك قوله تعالى : ﴿فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ أى أحياه ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وذلك أن الله تعالى أماته ضُحًى فى أوّل النهار وأحياه بعد مائة عام فى آخر النهار قبل غيبوبة الشمس، فقال : «لبثتُ يوما»، وهو يرى أن الشمس قد غَرُبت، ثم آلتفت فرأى بقيّةً من الشمس فقال : «أو بعضَ يوم»، بمعنى بل بعض يوم ﴿قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَٱنْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ﴾ يعنى التّين ﴿وَشَرَابِكَ﴾ يعنى العَصِير ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أى لم يتغيّر ﴿وَٱنْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَٱنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(1) . قال وهب : ليس فى الجنة كلبٌ ولا حمارٌ إلا كلبُ أصحابِ أهلِ الكهف وحمارُ إرْميا الذى أماته الله مائة عام ثم بعثه ؛ هذا قول من قال إنه إرميا بن حِلقِيا .



وأمّا من قال إنه عُزَيْر، فإنه يقول : إنّ بختنصّر لمّا خرّب بيتَ المقدس قتل أربعين ألفا من قرّاء التوراة والعلماء، وقتل منهم أبا عُزَيْر وحدَه . وكان عُزَيْر يومئذ غلاما قد قرأ التوراة وتقدّم فى العلم، وأقدمه بختنصّر مع بنى إسرائيل إلى أرض بابل، وهو من ولد هارون . فلمّا نجا عُزَير من بابل آرتحل على حمار حتى نزل على دير هِزْقِل على شطّ دِجلة، وطاف فى القرية فلم ير فيها أحدا، وعامّة شجرها حامل، فأكل من الفاكهة وآعتصر من العنب وشرب منه، وجعل فضل الفاكهة

(1) سورة البقرة آية ٢٥٩

فى سَلّة وفضل العصير فى زِقّ . فلمّا رأى خراب القرية وهلاك أهلها قال : ﴿ أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ الآية ، وساق فيه نحو ما تقدّم فى خبر إرْميَا .

وقال قوم فى قوله تعالى : ﴿ وَٱنْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ ﴾ إنّ الله تعالى لم يُمِتْ حماره فأحيا الله تعالى عينيه ورأسه وسائرُ جسده ميّتٌ فقال له : « أُنظُرْ الى حمارك » فنظر الى حماره قائماً كهيئته يومَ ربطه حيّا ، لم يَطْعَم ولم يشرب مائةَ عام ، ونظر الى الرُّمّة فى عُنُقه جديدة ؛ وهذا قول الضحّاك وقَتَادة . وقال الآخرون : أراد عظام حماره كما تقدّم فى قصّة إرْميَا . وقوله تعالى : ﴿ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ أى عبرةً ودلالةً على البعث بعد الموت . وقال الضحّاك : وهو أنه عاد إلى قريته وأولادُه وأولادُ أولاده شيوخ وعجائز وهو أسود الرأس واللّحية .

وعن ٱبن عباس رضى الله عنهما قال : أحيا الله تعالى عُزَيرا بعد مائة سنة ، فركب حماره حتى جاء مَحَلّته(١) ، فأنكره النـاسُ وأنكر الناسَ ومنازلَه ، فٱنطلق على وَهْمٍ حتى أتى منزلَه ، و إذا هو بعجوز عمياءَ قد أتى عليها مائةٌ وعشرون سنةً ، وكانت أَمَةً لهم ؛ فخرج عنهم عُزَير وهى ٱبنة عشرين سـنة ، وكانت قد عرَفته وعَقِلَتْه ؛ فلما أصابها الكِبَرُ والزَّمَنُ(٢) قال لها عُزَير : يا هذه ، هذا منزل(٣) عُزَير ؟ قالت : نعم هـذا منزل عُزَير و بكت وقالت : ما رأيتُ أحداً من كذا وكذا سـنة يذكر عُزَيرا وقد نَسِيَه الناس . قال : فإنى عُزَير . قالت : سبحان الله ! فإنّ عُزَيرا قد فقدناه من مائة سنة . قال : فإنّى أنا عُزَير ، إنّ الله أماتنى مائة سنة ثم بعثنى . قالت : فإن عُزَيرا ٣٦
كان رجلا مُجابَ الدعوة ، يدعو للمريض وصاحبِ البلاء بالعافية والشفاء ، فٱدعُ الله ١٢

(١) كذا فى الثعلبى . ووردت محرّفة فى الأصول . (٢) الزمن : مصدر زمن يزمن (مثل فرح) زمنا وزمنة وزمانة . وعبارة الثعلبى : « فلما أصابها الكبر لحقتها زمانة » .
(٣) كذا فى الثعلبى . وفى الأصول : « هذه منازل » ولا تتفق مع السياق .

يردّ علىّ بَصرى حتى أراك، فإن كنتَ عُزَيْرا عرفتُك. فدعا ربّه تعالى فاستجاب له ومسح بيده على وجهها وعينيها فصحّتا، وأخذ بيدها وقال لها: قومى بإذن الله تعالى، فأطلق الله رجلَيْها، فقامت صحيحةً كأنما نَشِطَت من عِقال، فنظرت اليه فقالت: أشهد أنك عُزَير. فانطلقت إلى مَحَلّة بنى إسرائيل وهم فى أنديتهم ومجالسهم وابنٌ لعُزَير شيخٌ ابن مائة سنة وثمانيةَ عشرَ سنة وبنو ابنه شيوخٌ فى المجالس، فنادت: هذا عُزَير قد قدِم وجاءكم، فكذّبوها. فقالت: وأنا فلانة مولاتكم دعا لى ربّه فردّ الله علىّ عينىّ وأطلق رجلىّ، وزعم أنّ الله أماته مائة عام ثم بعثه. فنهض الناسُ وأقبلوا إليه، فقال ابنه: إنه كان لأبى شامةٌ سوداء مثل الهلال بين كتفيه، فكشف عن كتفيه وإذا هو عُزَير.

* * *

وأمّا خبرُ فتنة اليهود به وقولهم عُزَيرٌ ابن الله، فقد رَوَى عطيّة العَوْفىّ عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كان عُزَير من أهل الكتاب، وكانت التوراة عندهم، فعمِلوا بها ما شاء الله تعالى أن يعملوا، ثم أضاعوها وعمِلوا بغير الحقّ، وكان التابوت فيهم. فلمّا رأى الله تعالى أنهم قد أضاعوا التوراةَ وعمِلوا بالأهواء رَفَع عنهم التابوتَ وأنساهم التوراة ونَسَخها من صدورهم، وأرسل عليهم مرضا، فاستطلقت بطونُهم، حتى إنّ الرجل يمَسّ كَبِدَه، حتى نَسُوا التوراة وفيهم عُزَير. فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا بعد ما نُسِخَت التوراةُ من صدورهم. وكان عُزَير دعا الله وابتهل إليه أن يردّ إليه الذى نُسِخَ من صدورهم. فبينما هو يصلّى ويبتهل الى الله تعالى إذ نزل نورٌ من السماء فدخل فى جَوْفه، فعاد إليه الذى كان ذهب من التوراة، فأذّن فى قومه فقال: يا قوم، قد آتانىَ الله التوراة وردّها إلىّ، فطفِق يُعلّمهم، فمكثوا ما شاء الله وهو يعلّمهم. ثم إنّ التابوتَ نزل بعد ذلك. فلمّا رأَوْا

التابوت عَرَضوا ما كان فيه على الذى كان يعلّمهم عُزَير فوجدوه مثلَه ، فقالوا : والله ما أُوتِيَ عزير هذا إلّا وهو آبن آلله .

وقال السُّدِّىّ وآبنُ عبّاس فى رواية عمّار بن ياسر : إنمـا قالت اليهودُ هذا لأنّ العمالقةَ ظهرت عليهم فقتلوهم وأخذوا التوراة وهَرَب علماؤهم الذين بَقُـوا ودفنُوا التوراة فى الجبال وغيرها ، ولحق عُزَير بالجبال والوحوش ، وجعل يتعبّد فى رءوس الجبال ولا يخالط الناس ولا ينزل إلّا يوم عيد ، وجعل يبكى ويقول : يارَبِّ تركتُ بنى إسرائيل بغير عالم ، فبكى حتى سقطت أشفارُ عينيه ، فنزل مرّةً الى العيد ، فلمّا رجع إذا هو بامرأة قد تمثّلت له عنـد قبر من القبور تبكى وتقول : يا مُطْعِماه ، ويا كاسياه ! . فقال لها عُزَير : ياهذه آتقى الله وآصبرى وآحتسبى ، أمَا علمتِ أنّ الموت مكتوبٌ على الناس ! . وقال لها : وَيْحَكِ ! مَن كان يُطعِمُكِ ويكسوكِ قبلَ هذا الرجل ؟ (يعنى زوجها التى كانت تندُبه) . قالت له : الله تعالى . قال : فإن الله تعالى حىّ لا يموت . فقالت : يا عُزَير ، مَن كان يعلِّم العلماء قبـلَ بنى إسرائيل ؟ قال : الله . قالت : فلِمَ تبكى عليهم وقد علمتَ أنّ الموت حقّ وأن الله حىّ لم يمت . فلمّا علم عُزَير أنه قد خُصِم ولّى مُدبرا . فقالت له : يا عُزَير ، لستُ بامرأة ولكنّى الدنيا . أمَا أنه ستنبعُ لك فى مُصَـلّاك عينٌ وتنبتُ لك شجرةٌ ، فكُلْ من ثمرة تلك الشجرة وآشرَبْ من ماء تلك العين وآغتسل وصـلّ ركعتين ؛ فإنه سيأتيك شيخٌ ، فما أعطاك فخـذ منه . فلمّا أصبـح نبعت العين فى مُصلّاه ونبَتَتِ الشجرة ، ففعل ما أمرَتْه به ، وجاء شيخ وقال له : افتح فاك ، ففتح فاه فألقَى فيه شيئا كهيئة الجمرة العظيمة مجتمعا كهيئة القوارير ثلاث مرّات ، ثم قال له : أُدخُل هذه العينَ فآمشِ فيها حتى تبلُغ قومك . قال : فدخلها فجعل لا يرفع قدمه إلّا زِيدَ فى علمه ، فرجَع اليهم وهو أعلم الناس بالتوراة . فقال : يا بنى إسرائيل ، قد جئتكم بالتوراة . فقالوا :

يا عُزَير، ما كنتَ كذّابا . فربط على كلّ إصبع له قلمًا وكتب بأصابعه كلها حتى كتب التوراةَ كلَّها عن ظهر قلبه، فأحيا لبنى إسرائيل التوراة وأحيا لهم السُّنّة . فلمّا رَجَع العلماء استخرجوا كُتُبَهم التى كانوا دفنوها ، فعارَضُوا بها توراةَ عُزَير فوجدوها مثلها، فقالوا : ما أعطاه الله تعالى هذا إلّا أنه آبنه .

وقال الكلبيّ : إنّ بختنصّر لمّا ظهر على بنى إسرائيل وهدم بيت المقدس وقتل مَرَّةً قُرّاء التوراة، كان عُزَير إذ ذاك غلاما صغيرا ، فآستضعفه فلم يقتله، ولم يدرِ أنه يقرأ التوراة . فلمّا تُوفِّيَ مائة سنة ورجعت بنو إسرائيل إلى بيت المقدس وليس منهم مَن يقرأ التوراة بعث الله عزّ وجل عُزَيرًا ليجدّد لهم التوراةَ ويكون لهم آيةً، فأتاهم فقال : أنا عُزَير. فكذّبوه وقالوا : إن كنتَ عُزَيرًا كما تزعمُ فآتلُ علينا التوراةَ . فكتبها وقال : هذه التوراة . ثم إنّ رجلا قال : إنّ أبى حدّثنى عن جدّى أن التوراة جُعِلتْ فى خابية ثم دُفنت فى كَرْم . فآنطلقوا معه حتى آحتفروها وأخرجوا التوراة، فعارضوها بما كتب عُزَير فلم يجدوه غادر منها [آيةً ولا][1] حرفا ، فعجِبوا وقالوا : إن الله لم يقذِف التوراة فى قلب رجل واحد منّا بعد ما ذهبت من قلوبنا إلّا أنه آبنه، فعند ذلك قالت اليهود : عُزَير آبن الله .

(١) زيادة عن الثعلبيّ .

الباب الرابع

من القسم الثالث من الفن الخامس

فى قصة ذى النُّون يونس بن مَتَّى عليه السلام وخبر بلوقيا

ذكر قصة ذى النُّون يونُس بن مَتّى عليه السلام

قال الكسائىّ رحمه الله قال وهب بن مُنَبِّه : كان مَتَّى رجلا صالحا من أهل بيت النبوّة ، ولم يُرْزَق الولدَ الى آخر عمره بعد أن أسنّ هو وزوجته ، فسأل الله تعالى الولدَ ، فنُودِىَ : إنّ الله قد آستجاب دعاءك، فآنطلِق إلى حَضِيرة التوبة ، وهو الموضع الذى أمر الله تعالى بنى إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم فيه لمّا عبدوا العِجْل . فصار إلى هناك وإذا بملَكٍ قد هَبَط من السماء فضرب قُبّة على باب حَضِيرة التوبة ، وذلك فى ليلة عاشوراء ، وأمرهما أن يدخلاها فدخلا وواقعها، فحملت بيونُس، ثم آنصرفا إلى منزلها. فلمّا صار لها أربعةَ أشهر تُوُفِّىَ متّى وبقيتْ آمرأتُه أرملةً ليس لها إلّا قَصْعة كانت لآل هارون، فكانت تُصيب رزقها فى المَسَاء والصباح من عند الله. فلمّا وَضَعَت يونُسَ لم يكن لها لَبَن يكفيه، فكانت أمّه تأتى إلى الرُّعاة وتسألهم اللبنَ فلا يجيبونها ، فكانت تقول : اللّهمّ هذا الولد هِبَتُك فلا تُهلكه جُوعا ، فكانت المواشى تأتيه وتَمجّ[1] عليه بضَرْعها حتى يشبَعَ، فإذا شَبِعَ يقول: الحمد لله[2]، فآمنَ به جماعة من الرُّعاة، فبقى كذلك حتى فَطَمته أُمه،

(١) كذا فى الأصول والكسائى . (٢) فى الكسائى : « الحمد لله الذى سقانى وأروانى ، فكانوا يدهشون إليه من فصاحته على صغر سنه فآمن به فى ذلك الوقت سبعون راعيا يقولون آمنا بالذى أنطق هذا الغلام من هذه الغنم .... الخ » .

وكان يُسمّى يتيم بنى اسرائيل، حتى أتت عليه سبعُ سنين، فأقبل على أمه فقال: يا أمّاه، لا ينبغى أن تذهب أيّامى بالبطالة، وأُريد أن تُلبسينى ثوبا من الصوف حتى أَلحقَ بالعُبّاد وأكون معهم. فقالت: يا بنىّ، أنت صغير ولم يأنِ لك أن تَسيح. فلم يزل بأمّه حتى أجابتـه إلى ذلك ولَحِق بالعُبّاد وآشتهر ذكرُه فيهم بكثرة العبادة حتى آستكمل من العُمْر خمسًا وعشرين سنة، فرأى فى منامه: إنّ الله يأمرك أن تمضىَ الى مدينة الرَّمْلة[1] فإنّ فيها وليّا من أوليائى وله آبنةٌ عفيفةٌ فتزوّجها منه. فلمّا أصبح عزَم على المسير، وصَحِبه جماعةٌ من بنى إسرائيل من أصحابه، وسار حتى دخل مدينة الرَّمْلة، وسأل عنه فقيل: إنه فى السُّوق يبيع ويشترى. فعجب يونس من ذلك وجاء الى السُّوق فرآه وهو يبيع الطِّيب ويُكثر الضّحك. فقال يونس: ليس هـذا من صفات الأولياء والعبّاد. فنظر إليـه زكريّا[2] وقام إليـه وصافحه وسلّم عليه بآسمه وآسم أبيه. قال: وكيف عرفتَنى؟ قال: رأيتك فى المنام وأُمِرتُ أن أزوّج آبنتى منك. وتوجّه به إلى منزله وقدّم له الطعام فأكلا، وذكر له رؤياه وأنها سببُ مَسيره الى الرملة، ثم سأله عن مكسبه بالبيع والشراء فقال: أمّا البيعُ والشراء فباحٌ، والتاجر فاجر إلّا من أَخَذ الحقّ وأعطاه، وآتقَى الله ولم يمدَح سِلْعته. ٣٨/١٢

فلمّا أقبلَ الليل نزع زكريّا ما كان عليه من الثياب ولبس الصوف ودخل محرابه ولم يزل فى صلاته ودعائه وتضرّعه حتى أصبح، فنزع الصوف ولبس ما كان عليه بالأمس وبرَز إلى السوق ويونسُ معه، فكان ذلك دأبَه.

ثم زوّج آبنته من يونس ووَهَب لها بعضَ ماله. وأقام يونس عنده، ورزق الله يونس من زوجته وَلَدَيْن ومات زكريّا، فآحتمل يونس زوجته إلى بيت

(١) الرملة: مدينة عظيمة بفلسطين، بينها وبين بيت المقدس ثمانية عشر ميلا. (٢) فى الأصول: «زكريا عليه السلام» والمذكور هنا هو زكريا بن عبدان، وليس زكريا النبىّ أبا يحيى عليهما السلام.

المقـدس وأقام هنـاك يعبد الله تعـالى . وشَعْيَا يومئذ ببيت المقـدس وهو نبيّ في بني اسرائيل إلى أن بعث الله تعالى يونس نبياً .

قال : وكان في بلاد نِينَوَى (١) مَلِكٌ (٢) وكانت جيوشه كثيرة، قيل : إنها كانت تزيد على عشرة آلاف قائد (٣) . وكان إذا غزا تكون معـه تماثيل من الأسـود والفِيَلة متّخذة من النحاس والحديد، يخرج من أفواهها لَهَبُ النِّيران، ومعه رجال يلعبون بالنيران. فغزا هذا الملك بني إسرائيل على هذه الصورة، فقتل من بني إسرائيل وسبَى، ثم عاد الى بلاد نِينَوَى، وغزاهم ثانيةً وتكررت غزواته فيهم. فأوحَى الله تعالى إلى شَعْيَا نبيّ بني إسرائيل أن يختار من عُبّاد بني إسرائيل أمينا قويّا يبعثه إلى بلاد نِينَوَى رسولا إلى مَن بها من الملوك وغيرهم؛ فإنهم قد جحدوا حقّي وأنكروا معرفتي. فدخل شَعْيَا على حِزْقِيّا الملك وأمره أن ينادِيَ في عُبّاد بيت المقدس ، وبها يومئذ عشرة آلاف عابد ، لباسُهم الشعر والصوف ونعالُهم الخُوص، فنادى فيهم بالاجتماع فاجتمعوا، فاختار منهم ثلاثة واختار من الثلاثة يونُس بن مَتّى، ثم قال له حِزْقِيّا : إن الله أوحَى إلى نبيّه شَعْيَا أن يختار من جملة هؤلاء العُبّاد والزُّهّاد أعبدَهم وأتقاهم، وقد وقع اختياره عليك لِتُبْعَثَ [إلى أهل (٤)] بلاد نِينَوَى . قال يونس : إن في بني إسرائيل مَن هو أعبدُ منّي وأزهدُ، فابعث أيها الملِك غيري. قال: لا أبعث سواك، فانهض

(١) نينوى : كانت قصبة أشور وأعظم مدنها . أسسها أشور على ضفة دجلة الشرقية قبالة الموصل، وهي تبعد عن بابل نحو ٢٥٠ ميلا وعن خليج فارس إلى الشمال الغربي منه ٥٥٠ ميلا . (راجع قاموس الكتاب المقدس للدكتور جورج بوست) .

(٢) في الكسائي : « يقال له ثعلب بن الأسارد » .

(٣) في الكسائي بعد هذا : « ومع كل قائد خلق كثير» .

(٤) التكملة عن قصص الأنبياء للكسائي .

ولا تخالفنى فإنّ هذا عن أمر الله. فانصرف يونُس إلى أمّه وأخبرها الخبر واستشارها، فقالت : إن الله أنطق الملكَ فى حقّك بالرسالة فسِرْ كما أُمِرتَ ولا تعص الله ونبيّنا شَعْيا وملكًا حِزقيا. فعزم على المسير وودّع أمّه وحمل أهـلَه حتى بلغ شاطئ دِجْلة، فنزل هناك وفكّر فى أمره وضَعْفه وعياله وقال : كيف لى بمُطاولة الجبابرة والفراعنة! وأقبل على أهـله وقال : قـد عزمتُ على الفِرَار، فنهاه أهله عن ذلك. فسكت وقام ليعبُرَ دِجْلة إلى بلاد نِينَوَى فعـبَرَ بولده الأكبر، ثم رجع وأخذ ولده الثانى. فلمّـا توسّط دِجْلة زاد المـاء فغَرِق آبنـه الذى كان معـه، وكان فى يده نُقْرةٌ(١) من الذهب كان قد ورثها من حَمِيه فغرِقت، وجاء ذئبٌ إلى ولده الذى عَبَر به فآحتمله. فصاحت المرأة : يايونس، إن آبنـك أخذه الذئب. فخرج من المـاء يعدو خلف الذئب فآلتفتَ إليه وقال : اِرْجِعْ يايونُس فإنى مأمور، فرجع يونس باكيا على ولديه. فلمّا بلغ الشطّ لم يرَ أهله، فجلس يبكى. فأوحى الله إليه : إنك شكوتَ كثرة العيال، وقـد أرحتُك منهـم، فآذهب الآن إلى قومك فإنى سأردّ عليـك أهلك وولَدَيْك وأنا على كل شئ قـدير. فطابت نفسـه وسار حتى بلغ بلاد نِينَوَى فتوسّـط سُوقَها ونادَى : يا قوم، قولوا بأجمعكم : لا إلهَ إلا الله وأنّى يونس عبدُه ورسولُه. فلمّـا سَمِعوا ذلك أقبـلوا على مَلِكهم وأخبروه به وبمقالتـه. فأحضره الملك وقال له : من أين أنت؟ قال : رسول الله إليـك وإلى أهـل مملكتك فآمنوا بى تنجوا من النار. فأمر الملك بحبسه ثم بعث إليه وزيره، وهو من أهل بيت المقدس، وآسمه سنجير(٢)، فقال له : أُدخُل على هذا الرجل يونس وتعرّف أمره. فدخل عليه وسأله عن آسمه وآسم أبيـه، ومن أين أقبل وفيماذا جاء. فـذكر له أنه رسول الله

(١) النقرة من الذهب : ماسبك مجتمعا منها.

(٢) كذا فى الأصول. وفى الكسائى : «سنحاريب».

إليهم. فقال له الوزير : أرى أن ترفُق فإنى أخشى عليك من هذا الملك فإنه جبّار. وآنصرف الوزير إلى الملك وقال له : قد عرفتُ الرجل، وقد ذكر أنه رسول من إله السماء. فهمّ الملك بقتله، فآستوهبه الوزيرُ منه على أن يكون فى البلد ولا يقول مثل مقالته. فآستدعى الوزير يونس وذكر له ذلك. فقال له : أمّا القتلُ فلا أخشى منه، والرسالةُ فلا أتركها حتى يحكم الله بينى وبينه. ثم إنّ الملك خلّى سبيله على أنه مجنون. فلم يزل يونس يدعوهم إلى طاعة الله تعالى فى كل يوم عامّة نهاره، حتى إذا جاء المَسَاء أتى شطّ دِجْلة فيُصَلّى حتى يُصبح، ثم يعود إليهم والناس يضربونه ويرجمونه ويسبّونه حتى ضجِر فآستغاث إلى ربّه. فأوحى الله تعالى إليه : يا يونس، إنك دعوتَ القوم فلا تعجَل عليهم وآدعُهم أربعين يوما، فإن آمنوا وإلّا جاءهم العذابُ. فدعاهم حتى آستكمل العِدّة ولم يؤمنوا. فأوحى الله إليه أنِ آخرُج من بين أظهرهم، فخرج حتى بلغ شاطئ دِجْلة، فقعد ينظر إلى العذاب كيف ينزل بالقوم. فأمر الله تعالى جبريلَ أن يُرسل على قوم يونس سحابةً فيها ألوانُ العذاب، فآنطلقَ إلى مالك وأمره بذلك، فأخرجَ شرارةً من الحُطَمة(١) على مثال سحابةٍ سوداءَ مظلمة. فجاءت بها الزبانيةُ حتى بلغت بلاد نِينَوَى وآنبسطتْ حتى أظلّتْ عليها، فظنّ القوم أنها مطر. فنظر وزير الملك إلى السحابة يخرج من أطرافها شَرَرُ النار، فدخل على الملك وقال : الحَذَرَ الحَذَرَ! فليست هذه سحابةَ مطر بل هى سحابةُ عذاب، وأخشى أن يكون ذلك لتكذيبنا يونس نبيّ الله. ثم قال : أُنظروا إلى يونس إن كان معكم فى بلدكم فلا تخافوا، وإن كان قد خرج عنكم فقد هلكتم. فطلبوا يونس فلم يجدوه. وجعلت السحابة تدنو حتى قرُبتْ منهم ورمتهم بشرر كالرّماد الأحمر لا يقع على

٣٩/١٢

(١) الحطمة : اسم لجهنم.

شيء إلّا أحرقه . فبينا النـاس يقولون : أين نطلب يونس إذا هم بالملك قد خرج عليهم وجميع أصحابه وهم يقولون : أين أنت يا يونس ! فإنا لانعود إلى مخالفتك، فلم يجدوه . فأقبل عليهم سنجير الوزير وقال : أيها الملك، إن يكن يونس قد غاب عنّا فإن إلٰهـه لم يغب، فتعالَوْا حتى نتضرّع إلى الله لعلّه يرحمنا . فخرجوا بأجمعهم ونسائهم وأطفالهم إلى ظاهر البـلد يبكون و يتضرّعون، فقام سنجير فيهم وقال : إلٰهنـا إنك أمرتَنا أن نُعْتِق رقابَ عَبِيدنا و إمائنا ونحن عبيدك و إماؤك فأَعْتِقْنا . إلٰهنا إنك أمرتَنا أن نعفو عمن ظلمنا فٱغفر لنا وٱعفُ عنا . اللهم أَعْتِقْنا من عذابك فإنّا قد آمنا بنبيّك يونس وبجميع النبيّين فٱغفر لنا ذنوبنا، ثم خَرُّوا سُجَّدا بأجمعهم . فأوحى الله تعالى إلى ملائكة العذاب أنِ ٱرجعوا، فٱنصرفت السحابة عنهم، وسمعوا صوتا : أبشِرُوا يأهـلَ نِينَوَى برحمـةٍ من ربكم؛ فرجعوا إلى المدينـة وقد آمنوا . وجاء يونس لينظر إلى ما نزل بهم من العذاب، فلقيه إبليس فى صورة شيخ . فقال له يونس : من أين أقبلت أيها الشيخ ؟ [قال](١) : من نِينَوَى . قال : فما نزل بهم اليوم ؟ قال : ما نزل بنا إلّا سحابة بيضاء أمطرت مطرا جَوْدا(٢) ، وكان يونس قـد وعدنا بالعذاب فلم يكن وعلمنـا كذبَه . فغضب يونس وقال : لا أعود إلى قوم كذّبونى، وسار . قال الله تعالى : ﴿ وَذَا النونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾(٣) . قال مجاهد وقتَادة والضحّاك والكلبىّ : معناه أن لن نقضىَ عليه بالعقوبة، وهى رواية العَوْفىّ عن ٱبن عبّاس؛ ودليل ذلك قراءة عمر بن عبد العزيز والزُّهرىّ « فظنّ أن لن نُقَدِّر عليه » بالتشديد . وقال عطاء وكثير من العلماء : معناه نضيّق عليه الحبس .

---

(١) التكملة عن الكسائى . (٢) الجود من المطر : الغزير .

(٣) سورة الأنبياء آية ٨٧

قال الكسائىّ : فلم يزل يسير حتى لحق بساحل البحر ، فإذا هو بسفينة مارّة فلوّح إليهم فدخلوا إليـه فقال : احملونى معكم فإنّى رجل منقطعٌ غريبٌ من بيت المقدس . فحملوه فقعد على كَوْثَل[1] السفينة . فلمّا توسّطوا البحر هبّت عليهم رياح كثيرةٌ من جميع الجوانب وأشرفوا على الغرق ، فأخذوا فى الدعاء والتضرّع ويونس لا يتكلّم ، فأقبل أهل السفينة عليه وقالوا : لِمَ لم تدعُ أنت معنا؟ قال : لأنى مغموم لذهاب الأهل والولد . فلم يزالوا به حتى دعا ، فآزداد البحر هَيَجانا . قال يونس : اطرحونى فى البحر فإنّ هذا من أَجْلى . قالوا : ما نفعل . قال : فآقترِعُوا . فآقترَعُوا فوقعت القُرعةُ عليه . فقالوا : إنّ القرعة تُخطئ وتصيب ، ولكن تعالَوْا حتى نتساهم . فجعل كل واحد منهم لنفسه سهما ثم رمَوْا بها فى البحر ، فغرقت إلّا سَهْمَ يونس فإنه بَقِىَ على وجه المـاء : قال الله عزّ وجلّ : ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾[2] . ثم أقبل حوت عظيم من بحر الهند حتى بلغ جانب السفينة ، فقام يونس ليرمى بنفسه ، فتعلّق القوم به وقالوا : ألا ترى هذه الأمواج وهذا الحوتُ العظيم ! فأقعدوه والبحر يزيد عليهم بكثرة أمواجه وأهواله ، فصار إلى جانب السفينة ليرمى بنفسه ، فإذا بالحوت قد دار إلى الجانب الذى قصد أن يَرمىَ نفسه منه ، فعلم يونس أنه هو المراد ، فغطّى وجهــه بكسائه ورَمَى نفسه فى البحر[3] فآبتلعه الحوت . قال الله تعالى : ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾[4] معناه يلوم نفسه على ما فعله . وبقِىَ فى جوف الحوت وهو يسمع

---

(١) الكوثل (بالثاء المثلثة) : ذنب السـفينة . وفى ا : « كوزبل » بالباء الموحدة . وفى ب : « كوتل » بالتاء المثناة وكلاهما تصحيف .

(٢) سورة الصافات آية ١٤١ .

(٣) ورد فى الكسائىّ عن كعب الأحبار : أن ذلك البحر هو بحر الروم . وفى قاموس الجغرافيـة القديمة للرحوم أحمد زكى باشا (ص ٢٢) : أن بحر الروم هو البحر الأبيض المتوسط ، وسمى بحر الروم لأن البلاد التى على سواحله كانت كلها فى ملك الروم .

(٤) سورة الصافات آية ١٤٢

٤٠/١٢ تسبيح الحيتان بلغاتهم، فلم يزل كذلك حتى بلغ [الى موضع يُسمَع فيه صَريف الأقلام][1]. وهو اذا سجد يكون سجوده على كبد الحوت وهو يقول له : يا يونس، أسمعني تسبيح المغمومين المحبوسين في حَبْس لم يُحْبَس فيه أحد من الآدميين، ويونس يقول : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾، وكانت الملائكة تقول: إلهنا إنّا نسمع تسبيح مكروب كان لك شاكرا، اللهمّ آرحمه فى غربته . قال الله تعالى: ﴿ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ﴾[2] الآية . قيل : ظُلْمة الليل، وظُلْمة البحر، وظُلْمة بطن الحُوت . قال الله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾[3] أى المصلّين ﴿ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[4] . وآختُلف فى مدّة لُبْثه، فمنهم من قال : لبث أربعين يوما، وقيل : ثلاثة أيام. فلمّا آنقضت المدّة التى قدّر الله عليه ألهمَ الله الحوت أن يرجع إلى الموضع الذى آبتلعه فيه. فشقّ ذلك على الحوت لأنه كان قد أنِس به وبتسبيحه، فناداه الملك أنِ آقذفه من بطنك فليس هو مَطعَمٌ لك . فتقدّم الحُوت إلى الساحل وقذفه . قال الله تعالى :﴿ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾[5]. قال: خرج كالفرخ الذى لا ريش له، وهو لا يقدر على القيام، فأنبت الله عليه شجرة من يَقْطِين[6] كان لها ثلاثة أغصان : غصن قِبَلَ المشرق، وغصن قِبَلَ المغرب، والغصن الثالث على رأسه . وجاءه جبريل فقال : يا يونس، إن الله قد أعطاك من الجنة ما ترضَى به، ثم أمرَّ يده على رأسه وجسمه فأنبت الله شعره ولحيته، وأمر

(١) كذا فى تفسير القرطبي . وصريف الأقلام، أى صوت جريانها بما تكتبه من أقضية الله تعالى ووحيه وما ينتسخونه من اللوح المحفوظ (كما فى النهاية لابن الأثير) . وفى الأصول : « حتى بلغ حصن الرجال » وهو تحريف .

(٢) سورة الأنبياء آية ٨٧

(٣) سورة الصافات آية ١٤٣

(٤) سورة الصافات آية ١٤٤

(٥) سورة الصافات آية ١٤٥

(٦) اليقطين : شجر القرع .

أنّه ظبية فوقفت بين يدىْ يونس وكلّمته بإذن الله، فمصّ من لبنها فقوىَ عند شُربه؛ ثم بشّرته بإيمان قومه وأخبرته بما كان من أمرهم وسبب إيمانهم وذكرت آشتياقهم إلى رؤيته. وكانت الظبية ترعَى حولَ يونس فإذا جاع أو عطِش أرضعته، فلم يزل كذلك أربعين يوما. فنام فى بعض الأيام ثم آنتبه فرأى اليقطينة قد جفّت والظبية قد غابت، فآغتمّ لذلك، فعلم يونس أن الله ضرب له مثلا بقومه. ثم هبط عليه مَلَكٌ وقال: قُم إلى قومك فإنهم يتمنّوْن رؤيتك، وأتاه بحُلّتين فأتّزر بواحدة وآرتدى بالأخرى، ثم سار حتى دخل قريةً كثيرة الأشجار والخيرات وأهلها يقطعون تلك الأشجار ويُلقون ثمارها فى الأرض، فقال: ياقوم، كيف تفعلون ذلك وتُبطلون على أنفسكم ثمارها! فأوحى الله تعالى إليه: يايونس، إنك أشفقتَ على قوم لاتعرفهم من قطعهم الأشجار ولم تُشفق على قومك وهم مائه ألف أو يزيدون! فعلم يونس أن هذا مثلٌ ضربه الله تعالى له، فقال: إلٰهى لا أعود إلى ذلك أبدًا. ثم سار حتى دخل قريةً أخرى وقت المساء، فتلقّاه رجلٌ من أهل القرية وسأله أن ينزل عليه فنزل. فلمّا أكل وشرب نظر إلى بيت الرجل وفيه فخّار كثير يريد أن يُوقد عليه. فأوحى الله تعالى إليه: يايونس، قل لهذا الفاخرانىّ أن يكسر الفخّار الذى قد عَمِلَه. فقال يونس ذلك للفاخرانىّ، فقال: ياهذا أضفتُك لمَا رأيتُ فيك من أثر الخير وإذا أنت رجل مجنون، تأمرنى أن أُكسّر فخّارا قد أتعبت فيه نفسى لأنتفع بثمنه! قُم الآن فآخرج من عندى، وأخرجه. فأوحَى الله تعالى إليه: يايونس، إنه أشفق على فخّاره وسمّاك مجنونا وأخرجك من منزله حين أمرتَه بكسره، وأنتَ بُعثت إلى مائة ألف أو يزيدون فدعوتَ عليهم ولم تفكّر فى هلاكهم فترحمهم!. قال: إلٰهى لا أعود إلى ذلك أبدا. فلمّا أصبح سار فإذا هو برجل يزرع زرعا، فقال له الرجل: ادعُ الله عزّ وجلّ حتى يبارك لى فى زرعى، فدعا له فأنبته الله تعالى من ساعته

وقام على سُوقه ، ففرح الرجل وأتى بيونس إلى منزله . فأوحى الله[1] تعالى إليـه : يايونس ، قد حزنت على إرسال الجراد على الزرع ولم تزرعه ، ولم تحزن على إرسال العذاب على مائة ألف أو يزيدون ! . قال : إلهي تبتُ إليك من ذنبي لا أعود إليـه أبدا . وسار حتى دخل قرية وهناك آمرأة معها رجل وهو ينادى : مَن [يحمـل][2] هذه المرأة إلى بلاد نِينَوَى [ويردّها][2] إلى زوجها وله مائةُ مثقال من الذهب؟ فنظر إليها يونس فإذا هى آمرأته ، فقال : أيها الرجل ، ماقصّة هذه المرأة ؟ قال : إنها كانت قاعدةً على شاطئ دِجلة تنتظر زوجها يونس ، فمرّ بهـا مَلِكٌ من ملوك هـذه القرية فآحتملها وأراد أن يفجُر بها ، فأيبَس الله يَدَيْه ورجلَيْه ، فسألها أن تدعوَ له بالفرج ولا يعود إلى ذلك ، فدعت له . فلمّا عافاه الله لوقتـه دفعها إلىّ وأعطانى مائة مثقال ذهبا على أن أحملها إلى بلاد نِينَوَى ، وما يمكننى ذلك . قال يونس :

٤١/١٢ أنا أحملها فأعطِني الذهب ، فأعطاه إياه وسلّم إليه المرأة . فسارا وقد فرحا حتى أتيا قريةً أخرى ، وإذا برجل يبيع سمكة ، فآشتراها يونس وقعد ليُصلحها فشقّ بطنها فوجد فيها تلك الصرّة الذهب التى وقعت منه فى دجلة ، فقال : الحمد لله الذى ردّ علىّ أهلى ومالى ، اللهمّ فآردُدْ علىّ أولادى ياأرحم الراحمين ، ثم سار فإذا هو برجل على دابّة ومن ورائه غلامٌ ، فإذا هو ولد يونس الصغير . فتعلّق به ، فقال له الرجل : مَن أنت ؟ قال : أنا يونس . فسلّم اليه الغلام وقال : الحمد لله الذى ردّ الأمانة الى أهلها وخلّص ذمّتى . فسأله يونس عن قصّة الغـلام فقال : أنا رجل صيّاد ، وكنتُ قد ألقيتُ الشبكة فى طـرف دِجْلة فوقع هـذا الغلام فيهـا فأخذتُه ، وإذا بهاتف يقول :

(١) سـقط هنا ما معناه : « فأرسل الله جرادا الى الزرع فأكله ، فحزن يونس لذلك ، فأوحى الله ... الخ » . وخبر الزرع وصاحبه ليس فى الكسائى .

(٢) التكملة عن الكسائى .

يا صيّاد، احفَظ هــذا الغلام حتى يأتِيَ اليك يونس فإنه أبوه فادفَعْه اليه . ثم قال له : يا نبيّ الله ، أُدعُ لى أن يُغنِيَنى الله عن صيد السمك، فدعا له فرزقه الله مالا وولدا . وسار يونس حتى قرُب من بلاد نِينَوَى ، فإذا هو براعٍ على قارعة الطريق يرعَى غنما وهو يقول : اللهمّ اردد علىّ والدى ، فرآه يونس فعرَفه وهو ولده الأكبر، فتعانقا وبكيا طويلا، ثم قال له : يا أبتِ إنّ هذه الأغنامَ لرجلٍ فى القرية فسِرْ معى حتى أرُدّها اليه ،فسارا إلى القرية و إذا بشيخ على باب داره، فقال له الغلام: هذا أبى . فقام الشيخ الى يونُس وسلّم عليه . فقال له يونُس : هل تعرف قصّــة هذا الغلام ؟ قال الشيخ : نعم، كنتُ أرعَى هذه الغنمَ، و إذا بهذا الغلام على ظهر ذئبٍ فكلّمنى الذئب بقدرة الله وقال : إذا جاء اليك يونس فآدفَعْ اليه هذا الغلام . ثم قال له : يا نبيّ الله ، أُدعُ الله أن يغفرلى ذنوبى وأن يُميتنى فى وقتى هذا، فدعا له فقبضه الله لوقته ، فغسّله يونس وكفّنه وصلّى عليه ودفنه . ثم سار حتى قرُب من المدينة، فإذا هو بغلام يرعى غنما فوقف يونس عليه السلام وقال: يا غلام، هل من لبَنٍ ؟ قال الغلام: يا هذا، والذى بعث إلينا يونس نبيّا ما ذقتُ اللبن منذ غاب عنّا نبيّنا يونس . قال : فأنا يونس نبىّ الله . فقبّل الغلام رأسه وقال : لو رأيتَنا يا نبىّ الله ونحن نجول تحت العذاب لَرَحِمتَنا . قال : يا غلام ، اذهبِ الآن الى المدينة وأخبِر الناس أنك قــد رأيتَنى . قال : أخشى أن يكذّبونى . فقال : سِرْ اليهم [وهذه الأغنام شهودٌ لك][1] . فمضى حتى توسّط سوق المدينة وقال : أيها الناس، البُشْرى فقد رجع إلينا يونس نبيّنا وقد لقيتُه . فاتّصل الخبر بالملك فقام عن سريره وقال : علىّ بالغلام، فأُتِىَ به، فسأله فأخبره بمَقْدَم يونس . ففرح وخرج الملك وأهلُ المدينة وآلتقَوْا بيونس وأدخلوه المدينة وأجلسه الملك فى موضعه، ووقف بين يديه ، وفرح به أهل المدينة . فقام

(١) التكملة عن الكسائى .

يونس فيهم ما شاء الله يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر الى أن مات الملك وماتت آمرأةُ يونس وولداه جميعا ، فاستخلف يونس الراعى على مدينة نِينَوَى وخرج هو وسبعون رجلا من العُبّاد حتى جاء الى جبل يقال له صِهيون (١) فكانوا هناك يعبدون الله حقّ عبادته ، حتى مات يونس عليه السلام ، ومات العُبّاد الذين صحبوه ، فَقُبِرُوا هناك فى جبل صِهيَوْن ، رضى الله عنهم ورحمهم .

ذكر خبر بُلُوقِيَا وما شاهد من العجائب

وهذه القصّة تشتمل على عجائب كثيرة ووقائع قد ينكرها بعضُ من يقف عليها لغرابتها وليست بمستنكرة بعد أن ثبت فى صحيح البخارى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " بلّغوا عنّى ولو آيةً (٢) وحدِّثوا عن بنى إسرائيل ولا حَرَجَ ومَن كَذَبَ علىّ مُتعمِّدا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَده من النار " . ولنأخذ الآن فى سَرْد القصّة .

قال أبو إسحاق الثعلبىّ رحمه الله تعالى فى كتابه المترجم بيواقيت البيان فى قصص القرآن بسند رفعه عن عبد الله بن سلّام قال :

---

(١) صهيون (الجبل المشمس أو الجاف) قد يطلق هذا الاسم للدلالة على كل أورشليم إلا أنه يحصر غالبا فى الجبل الجنوبى الغربى من المدينة . وكان هذا الجبل محاطا من كل جانب إلا جانب الشمال بأودية عميقة الجوانب شاهقتها ، فكان وادى الجبانين الى شرقيه يفصله عن موريا وأوفل ووادى ابن هنوم إلى جنوبيه وغربيه ، وسمى جزؤه المحاذى المدينة غربيا وادى جيحون . (راجع قاموس الكتاب المقدّس للدكتور بوست) .

(٢) أى آية من القرآن ، أو المراد بالآية العلامة الظاهرة ، أى ولو كان المبلغ فعلا أو إشارة ونحوهما . (راجع القسطلانى ج ٥ ص ٤٠٥ طبع بلاق) .

كان في بني إسرائيل رجل يقال له « أوشيا » وكان من علمائهم ، وكان كثير المال ، وكان إماما لبني إسرائيل ، وكان قد عرف نعت[1] النبيّ صلى الله عليه وسلم في التوراة ، فخبأه وكتمه عنهم . وكان له ابنٌ يقال له بُلُوقِيَا خليفة أبيه في بني إسرائيل ، وذلك بعد سليمان بن داود عليهما السلام . فلمّا مات ٤٢/١٢ أوشيا بقي ابنه بُلُوقِيَا والأمانة في يده والقضاء ، ففتّش يوما خزائن أبيه فوجد فيها تابوتا من حديد مُقفلا بقُفْلٍ حديد ، فسأل الخُزّان عن ذلك ، فقالوا : لا ندرى . فاحتال على القفل حتى فكّه ، فإذا فيه صندوق من خشب الساج ، ففكّه وإذا فيه أوراق ، فقرأها فإذا فيها نعت النبيّ صلى الله عليه وسلم وأُمّته وهي مختومةٌ بالمسك ، فقرأ ذلك على بني إسرائيل ثم قال : الويل لك يا أبتِ من الله فيما كتبتَ وكتمتَ من الحقّ وأهله ! . فقالت بنو اسرائيل : يا بُلُوقِيَا ، لولا أنك إمامنا وكبيرنا لنبشنا قبره وأخرجناه منه وحرّقناه بالنار . قال : يا قوم ، [لا ضَيْر][2] إنما ترك حظّ نفسه وخسر في دينه ودُنياه ، فألحقوا نعت النبيّ صلى الله عليه وسلم وأُمّته بالتوراة . قال : وكانت أمّ بلوقيا في الأحياء ، فاستأذنها في الخروج إلى بلاد الشام ، وكانوا يومئذ في بلاد مصر . فقالت : وما تصنع بالشام ؟ قال : أسأل عن محمد وأمّته ، فلعلّ الله تعالى أن يرزقني الدخول في دينه ، فأذنتْ له . فبرز بُلُوقِيَا وقدِم بلاد الشام . فبينما هو يسير إذا انتهى إلى جزيرة من جزائر البحر ، فإذا هو بحيّات كأمثال الإبل عِظَما وفي الطُّول ما شاء الله وهنّ يقلن : لا إله إلّا الله محمدٌ رسول الله . فقلن له : أيها الخَلْق المخلوق مَن أنت ؟ وما اسمُك ؟ قال : اسمي بُلُوقِيَا ، وأنا من بني إسرائيل . فقُلْنَ : وما إسرائيل ؟ قلت : من ولد آدم . فقُلْنَ : سمعنا باسم آدم ولم نسمع باسم

---

(١) كذا في الثعلبيّ . وفي الأصول : «بعث النبيّ» .

(٢) التكملة عن الثعلبي .

إسرائيل. فقال بلوقيا: أيتها الحيّات مَن أنتنّ؟ فقلن: نحن حيّات من حيّات جهنّم ونحن نعذّب الكفّار فيها يوم القيامة. قال بلوقيا: وما تصنعن هاهنا؟ وكيف عرفتُنّ محمدا؟ فقُلْنَ: إن جهنّم تفور وتزفر في كل سنة مرّتين فتُلقينا هاهنا ثم نعود إليها، فشدّة الحرّ في الصيف من حرّها، وشدّة البرد في الشتاء من بردها. وليس في جهنّم دَرَك من دركاتها، ولا بابٌ من أبوابها، ولا سُرادق من سُرادقاتها إلا وقد كُتب عليه: «لا إله إلّا الله محمّد رسول الله» فمن أجل هذا عَرَفْنا محمدا صلى الله عليه وسلم. قال بلوقيا: أيتها الحيّات، هل في جهنّم مثلكنّ أو أكبر منكنّ؟ فقُلْنَ: إن في جهنّم حيّات تدخل إحدانا في أنف إحداهنّ وتخرج من فمها ولا تشعر بذلك لعظمها. قال: فسلّم بلوقيا عليهنّ ومضى حتى أتى جزيرة أخرى، فإذا هو بحيّات كأمثال الجذوع والسواري، وعلى متن إحداهنّ حيّة صفرى صفراء كلما مشتْ اجتمعتِ الحيّات حولها فإذا نفخت صِرْنَ تحت الأرض خوفا منها. فلمّا رآها ورأته قالت له: أيها الخَلْق المخلوق مَن أنتَ؟ وما اسمُك؟ قال: اسمى بلوقيا، وأنا من بنى اسرائيل من ولد ابراهيم. فاخبرينى أيتها الحيّة مَن أنتِ؟ قالت: أنا موكّلة بالحيّات واسمى تمليخا، ولولا أنى موكّلة بهنّ لقتلتِ الحيّات بنى آدم كلهم فى يوم واحد، ولكنّى اذا صفّرتُ صفرة [واحدة] (١) وسمعنَ صوتى دخلنَ فى الماء الذى تحت الأرض. ولكن يا بلوقيا إن لَقِيتَ محمدا صلى الله عليه وسلم فأقرئه منّى السلام.

قال: ومضى بُلُوقِيَا إلى بلاد الشام فأتى بيت المقدس، وكان بها حَبْرٌ من أحبارهم يسمّى عفّان الحبر، فأتاه فسلّم عليه وقصّ عليه قصّته. فقال له: ليس هذا زمان محمد ولا زمان أُمّته، بينك وبينه بُعْدُ سنين وقرون. ثم قال عفّان: يا بلوقيا أرِنى موضع الحية التى اسمها تمليخا، فإن قدرتُ أن أصيدها رجوتُ أن أنال معك مُلكا

(١) التكملة عن الثعلبى.

عظيما ونحيا حياة طيّبة الى أن يبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم فندخل فى دينه. قال : فمن حرْص بلوقيا على الدخول فى دين محمد صلى الله عليه وسلم قال : أنا أُريك المكان. فقام عفّان وأخذ تابوتا من حديد وحمل فيه قدَحين من فضّة فى أحدهما خمر وفى الآخر لبن، ثم سارا جميعا حتى انتهيا الى موضع الحيّة ففتحا باب التابوت وتنحّيا. وجاءت الحيّة تبغى الرائحة فدخلت التابوت وشربت من اللبن والخمر حتى سكِرتْ ونامت. فقام عفّان ودبّ الى التابوت دبيبا خفيفا فأغلق بابه واحتضنه وسارا جميعا فلم يمرّا بشجرة ولا نبت إلا كلمهما بإذن الله تعالى. فمرّا بشجرة يقال لها الدواء فقالت : يا عفان، مَن يأخذنى و يقطعنى و يدقّنى و يَعصر مائى ودُهْنى و يطلى به قدميه فإنه يغوص البحار السبعة ولا تبتلّ قدماه ولا يغرق. فقال عفّان : إيّاكِ طلبتُ، فقطع تلك الشجرة فدقّها وعصر دُهنها وجعله فى كوز ثم خلّى عن الحيّة فطارت بين السماء والأرض وهى تقول : يا بنى آدم ما أجرأكم على الله تعالى، ولن تصلوا الى ما تريدون، وذهبت الحيّة. وسار عفانُ و بُلُوقيَا الى اليم فطليا أقدامهما ثم عبَرا البحر ٤٣ / ١٢ ومشيا على الماء كما كانا يمشيان على الأرض حتى قطعا البحر الأوّل ثم الثانى، فإذا هما بجبل فى وسَط البحر ليس بعالٍ ولا متدانٍ ترابه كالمسك، عليه غمامٌ أبيض، وفيه كهفٌ، وفى الكهف سريرٌ من الذهب عليه شابٌ مُستلقٍ على قفاه ذو وفْرةٍ[(١)]، واضعٌ يده اليمنى على صدره واليسرى على بطنه بمنزلة النائم وليس بنائم وهو ميّت، وعلى رأسه تنّين وخاتمه فى الشمال. قال: وكان ذلك سليمان بن داود، ومُلْك سليمان فى خاتمه، وكانت حَلْقته من ذهب وفصّه من ياقوت أحمر مربّع، مكتوبٌ عليه أربعة أسطر، فى كل سطر اسمٌ من أسماء الله الأعظم. وكان عند عفّان علمٌ من الكتاب، فقال بلوقيا : مَن هذا؟ قال: هذا سليمان بن داود، نريد أن نأخذ خاتمه

(١) الوفرة : الشعر المجتمع على الرأس.

فتملك مُلكه ونرجو الحياة إلى أن يبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم . فقال بلوقيا : أليس قد سأل سليمانُ ربه : « ربّ هَبْ لى مُلْكا لا يَنْبغى لأحدٍ من بعدى » فأعطاه الله إيّاه على ما سأل ، ولا يُنال مُلك سليمان إلى يوم القيامة لدعائه . فقال عفّان : يا بلوقيا اسكُت إنّ الله معنا ومعنا آسم الله الأعظم ، ولكن أنت يا بلوقيا فاقرأ التوراة . فتقدّم عفّان لينتزِع خاتمَ سليمان من إصبعه ، فقال التنّين : ما أجراك على الله ! إن غلبتنا بآسم الله فنحن نغلبك بقوّة الله . قال : فكلّما نفخ التنّين ذكر بلوقيا آسمَ الله ، فلم تعمل نفخات التنّين فيهما . ودنا عفّان من السرير لينتزِعَ الخاتم من إصبع سليمان ، فآشتغل بلوقيا بالنظر إلى نزول جبريل من السماء ، فلمّا نزل صاح بهما صيحة ارتجّتِ الأرض والجبال وتزلزت منها وآختلطت مياه البحار وماجت وآلتطمت حتى صار كلّ عَذْب مِلْحا من شدّة صيحته ، وسَقط عفان على وجهه ، ونفخ التنّين فخرجت من بطنه شُعلة نار كأنها البرق الخاطف ، فاحترق عفّان وعادت نفخته فى البحر فما مرتِ البرقة بشئ إلّا أحرقته ولا بماء إلا أجاشته وأغلته . وذكر بلوقيا آسم الله الأعظم فلم ينله مكروه ، ثم تراءى له جبريل فى صورة رجل فقال له : يا بن آدم ما أجراك على الله تعالى ! فقال له بلوقيا : مَن أنت رحمك الله ؟ قال : أنا جبريل أمين ربّ العالمين . قال له يا جبريل ، إنما خرجتُ حبّا لمحمد ودينه ولم أقصد الخطأ ولم أتعمّده . قال : فبذلك نجوتَ . ثم صعِد جبريل إلى السماء ، ومضى بلوقيا فَطَلَى قدميه بذلك الدُّهن فأضلّ الطريق الذى جاء منه وأخذ فى طريق آخر ، وسار فقطع ستّة أبحر ووقع فى السابع فإذا هو بجزيرة من ذهب حشيشها الوَرْس[1] والزعفران وأشجارها النخل والرمّان . قال بلوقيا : ما أشبه هذا المكان بالجنّة على ما وُصِفتْ ! . ثم دنا من بعض تلك الأشجار فتناول من ثمرها ، فقالت الشجرة : يا خاطئ آبن الخاطئ

(١) الورس : نبات كالسمسم أصفر يزرع باليمن و يصبغ به و يتخذ منه الغمرة (طلاء) للوجه فاذا جف عند إدراكه تفتقت خرائطه فينفض فينتفض منه الورس .

لا تأخذ منّى شيئا . فتعجّب ، و إذا بحيال الشجرة قوم يترا كضون ، بأيديهم سيوفٌ مسلولة ، يتناوش بعضهم بعضا بالطعن والضرب . فلمّا رأَوْا بلوقيا طافوا به وأحدقوا من ورائه وهمُّوا به سوءا ، فذكر آسم الله فهابوه وعجبوا منه وأغمدوا سيوفهم وقالوا بأجمعهم : لا إله إلا الله محمد رسول الله . ثم قالوا له : مَن أنتَ يا عبد الله؟ قال : أنا من بنى آدم اسمى بُلُوقيَا . قالوا: نعرف آدمَ ولا نعرفك فما أوقعك إلينا ؟ قال : إنى خرجت فى طلب نبىّ يسمّى محمدا و إنى قد ضَلَلْتُ عن الطريق الذى أردته فرأيت من الأهوال كذا وكذا . قالوا : يا بلوقيا نحن من الجنّ مؤمنون، ونحن مع ملائكة الله فى السماء، ثم نزلنا إلى الأرض وقاتلنا كَفَرة الجنّ ونحن هاهنا مقيمون نغزوهم ونجاهدهم إلى يوم القيامة ، ولسنا نموت إلى يوم القيامة وأنت لا تصبر معنا . فقال بلوقيا لملك الجنّ : يا صخر، أخبرنى عن خَلْق الجنّ كيف كان؟ قال : لمّا خلق الله جهنّم خلق لها سبعة أبواب وسبعة ألسُن، خلق منها خَلْقين : خلق فى سمائه [سمّاه](١) حيليت(٢)، وخَلَق فى أرضه [سمّاه](١) تمليت(٣) . فأمّا حيليت فإنه خُلق على صورة أسد، وتمليت فى صورة ذئب ، وجعل الأسد ذكرا والذئب أنثى، وجعل طول كلّ واحد منهما مسيرة خمسمائة عام، وجعل ذنَب الذئب بمنزلة ذنب العقرب، وذنب الأسد بمنزلة الحيّة، وأمرهما أن ينتفضا فى النار آنتفاضة ففعلا، فسقط من ذنب الذئب عقارب(٤) ، ومن ذنب الأسد حيّات(٥) . فعقارب جهنّم وحيّاتها من ذلك.
٤٤/١٢ ثم أمرهما أن يتناكحا ففعلا، فحمل الذئب من الأسد فولد سبعة بنين وسبع بنات. فأوحى الله تعالى إليهم أن يزوج البنات من البنين كما أمر آدم ، فستة بنين

(١) التكملة عن الثعلبىّ . (٢) فى الثعلبىّ : «جليت» . (٣) فى الثعلبىّ : «يمليت» .
(٤) كذا فى الثعلبىّ . وفى الأصول : «عقرب» .
(٥) كذا فى الثعلبىّ . وفى الأصول : «حية» .

أطاعوا وواحد لم يُطع ولم يتزوّج فلعنه آبوه وهو إبليس . وكان آسمه الحارث، وكنيته أبو مرّة؛ فهذا أوّل خلق الجنّ . ثم قال له : يا بلوقيا إنّ دوابّنا لا تثبُت مع الإنس ولكن أُجلّل فرسي وأبرقعه حتى لا يعرف راكبه، فآركب عليه على آسم الله تعالى؛ فإذا آنتهيتَ إلى أقصى أعمالي (١) على ساحل بحر كذا و إذا شيخٌ وشابٌّ ومشايخ معهما فإنك ستلقاهما هناك فآدفع الفرس إليهما وآمض في حفظ الله راشدا . فجاء بلوقيا على الفرس حتى آنتهى إليهم فسلّم على الشيخ والشابّ ونزل عن الفرس ودفعه إليهما . وكان قد فصَل من عند ملك الجنّ عند صلاة الغداة ووصل إليهما نصف النهار . فقالا لبلوقيا : مذ كم فارقتَ الملك ؟ قال : فارقته غدوةً . فقالا له : ما أسرع ماجئتَ ! قد أتعبتَ فرسنا . فقال بلوقيا : والله ما مددتُ إليه يدا ولا حرّكتُ عليه رِجلًا ولم أركُضه عُنْفا (٢) . قالا : صدقتَ ولكن فرسنا أحسّ بك وبمنزلتك ، فطار ما بين السماء والأرض ليُريح نفسه منك، فكم تراه جاء بك؟ قال : خمسة فراسخ أو أقلّ أو أكثر . قالا : بل جاء بك مسيرة مائة وعشرين سنة، وكان يطير بك بين السماء والأرض حول الدنيا دون «قاف» وأنت لا تعلم . فحوّلوا عنه السَّرج واللّجام والبُرقع و إذا العرق يقطُر من كلّ شعرة منه، وله جَناحان انقضّا من كثرة الطيران . فقال بلوقيا : هـذا والله العجب . فقالوا : يا بلوقيا عجائب الله لا تنقضي . ثم سلّم عليهم ومضى فركب اليمّ . فبينما هو يسير إذ رأى مَلَكا إحدى يديه بالمشرق والأخرى بالمغرب وهو يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله . فسلّم عليه بلوقيا، فقال له الملك مَن أنت أيها الخَلْق المخلوق ؟ فقال : أنا بلوقيا وأنا من بني إسرائيل من ولد آدم . ثم قال له : أيها الملك ما آسمك؟ قال : [آسمي يوحاييل وأنا موكّل بضوء النهار وظلمة الليل . فقال : فما بال يديك مبسوطتين ؟ فقال له : في يدي اليمنى ضوء النهار،

(١) في الثعلبي : «أقصى عمار» .

(٢) في الثعلبي : «و بثقلك» .

وفى يدى اليسرى ظُلْمة الليل، ولو سبق النهار الليل لأضاءت السموات والأَرَضُون. ولم يكن الليـل أبدا، ولو سبقت الظُّلْمة النـور لأظلمت السماء والأرض ولم يكن ضوء أبدا. و بين يديه لَوْح معلّق فيه سطران سطرٌ أبيضُ وسطرٌ أسودُ، فإذا رأيتُ السواد ينتقص نقصتُ الظلمة، و إذا رأيتُ السوادَ يزيد زدتُ الظُّلمة، و إذا رأيتُ السـطر الأبيض يزداد زدتُ فى البياض والنـور، و إذا انتقص نقصتُ؛ فلذلك الليل فى الشـتاء أطول والنهار أقصر؛ وفى الصيف النهار أطول والليـل أقصر.

ثم سلّم بلوقيا ومضى، فإذا هو بمَلَك قائم يده اليمنى فى السماء و يده اليسرى فى الأرض فى المـاء تحت الثرى وهو يقول: لا إله الله محمد رسول الله. فسلّم عليه بلوقيا، فقال له: مَن أنت وما آسمك؟ قال اسمى بلوقيا وأنا من بنى إسرائيل من ولد آدم. قال له بلوقيا: أيها الملك ما آسمك؟ قال[(1)]: اسمى ميخاييل[(2)]. قال: فما لى أراك يمينك فى السماء وشمالك فى المـاء؟ قال: أحبس الريح بيمينى والمـاءَ بشمالى، ولو رفعتُ شمـالى عن المـاء لزخرت البحار كلّها فى ساعة واحدة ولَطَمت بإذن الله تعـالى، و يدى اليُمنى فى الهواء أحبس الريح عن بنى آدم لأنّ فى السماء ريحا يقال لهـا الهائمة[(3)] لو أرسلتُها لقتلتْ مَن فى السماء ومَن فى الأرض من بَرْدها. فسلّم عليه بُلُوقيَا ومضى، وإذا بأربعةٍ من الملائكة، أحدهم رأسه كرأس الثور[(4)]، والآخر رأسه كرأس النسر، والثالث رأسه كرأس الأسـد، والرابع رأسه كرأس الإنسان. فالذى رأسه كرأس الثّور يقول: اللهم ارفع العذابَ عن البهائم، وآرفع عنهم بَرْد الشتاء وحرّ الصيف، وآجعل لهم فى قلوب بنى آدم الرأفة والرحمة كيلا يكْرِهْنَّ[(5)] ولا يكلّفوهن فوق طاقتهن.

(١) التكملة عن الثعلبي. (٢) فى ا، ... محـ يـ ـن». وفى الثعلبي: «صحاييل».

(٣) فى الثعلبي: «الفائجة». (٤) فى الأصول بعد قوله «كرأس الثور» هذه العبارة: «وهو يقول: اللهم ارحم البهائم» ولعلها مقحمة من الناسخ لأنها ستذكر بعد سطور ولم ترد فى الثعلبي.

(٥) كذا فى الثعلبي. وفى الأصول: «كيلا يكرهوهم ولا يحملوهم فوق طاقتهم».

واجعلنى من أهل شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة . وأمّا الذى رأسه كرأس النسر فيقول : اللهمّ ارحم الطيور ولا تعذّبها، وادفع عنها بَرْد الشتاء وحرّ الصيف ، واجعلنى من أهل شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة . وأمّا الذى رأسه كرأس الأسد فإنه يقول : اللهمّ ارحم السِّباع ولاتعذبها وادفع عنها بَرْد الشتاء وحرّ الصيف ، واجعلنى من أهل شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة . وأمّا الذى رأسه كرأس الإنسان فإنه يقول : لا إله إلّا الله محمد رسول الله، اللهمّ ارحم المسلمين ولا تعذّبهم وادفع عنهم حرّ النار، واجعلنى من أهل شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة . فسلّم عليهم ومضى حتى أتى على جبل قاف وإذا هو بملَك قائم على قاف، وهو جبل محيط بالدنيا من ياقوتة خضراء. فسلّم بلوقيا على الملك، فقال له : مَن أنت؟ فقال : أنا بلوقيا وأنا من بنى إسرائيل من ولد آدم . فقال الملك : وأين تريد؟ قال : خرجتُ فى طلب مَن يُسمى محمدا، ولستُ أرى أمره ولا أدرى فى أىّ بلاد أنا . فقال الملك : لا إله إلّا الله محمد رسول الله، قد أُمرنا بالصلاة على محمد. قال بلوقيا : أيها الملَك، ما اسمك؟ قال : اسمى حزقاييل. قال : وما تصنع هنا؟ قال : أنا أمين الله على قاف، وإذا فى يده وَتَرٌ مرّةً يعقده ومرّةً يحُلّه، وعروق الأرض كلها مشدودة عليه والوتر فى كفّ الملك [قال :] (١) فإذا أراد الله أن يضيّق على عباده أمرنى أن أمُدّ الوتر وأعقده وأرتق (٢) عُروق الأرض فتضيق الدنيا على العباد والبلاد . وإذا أراد الله أن يوسّع عليهم أمرنى أن أرخى الوتر وأفتق عروق الأرض فتتّسع الدنيا على العباد والبلاد . وإذا أراد أن يخوّف قوما أمرنى أن أحرّك عروق ٤٥/١٢
تلك الأرض، فمن أجل ذلك موضع يهتزّ وموضع لا يهتزّ ، وموضع يتزلزل وموضع

(١) التكملة عن الثعلبىّ .
(٢) أرتق : أسدّ وأغلق .

تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذى القعدة، سنة ثمان من الهجرة مُنْصَرَفَه من الجِعْرَانَة ، فلما دنا منها قالت : أعوذ بالله منك ، فقال : « لقد عُذْت بعظيم الحَق بأهلك »(١) فكانت إذا استأذنت على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم تقول : أنا الشَّقِيَّة إنما خُدِعتُ . ودَلِهَت(٢) وذهب عقلها، وماتت سنة ستين . وروى عن

٦٦/١٦ ابن إسحق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوجها بعد وفاة ابنته زَيْنَب ، وخَيَّرها حين أنزلت آية التخيير(٣) فاختارت الدنيا ففارقها ، فكانت بعد تلْقُط البعر(٤) ، وتقول: أنا الشَّقية اخترْت الدنيا . قال أبو عمر بن عبد البر : وهذا عندى غير صحيح ؛ لأن ابن شِهاب يروى عن أبى سَلَمَة وعُرْوة عن عائشة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خَيَّر أزواجه بدأ بها فاختارت الله ورسوله قالت وتتابع أزواج النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك ، قال قتادة وعكرمة : كان عنده حين خيَّرهن تِسْعُ نسوة وهنّ اللواتى تُوفِّى عنهن، قال الشيخ أبو محمد عبد المؤمن : وقيل إنما طلقها لبياض(٥) كان بها . وقيل : إنما فارقها لأنه كان إذا خرج طلعت إلى المسجد . وقيل : إن الضحّاك عَرَض ابنته فاطمة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: إنها لم تُصدَّع(٦) قَطُّ، فقال : « لا حاجة لى بها ». وروى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : كان فى نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم سَنَاه(٧) بنت سُفيان بن عوف بن كعب ابن أبى بكر بن كلاب . ومنهن :

---

(١) الحق (بكسر الهمزة وفتح الحاء، وقيل بالعكس) : كناية عن الطلاق بالنية ، والمعنى طلقتك .

(٢) دله كفرح : ذهب فؤاده من هم أو عشق ؛ وقوله : « ذهب عقلها » تفسير « لدهت » .

(٣) آية التخيير ٢٨ ، ٢٩ سورة الأحزاب .

(٤) قال فى المواهب : « ولعل ذلك لتبيعه من ضيق عيشها » .

(٥) فى رواية، وضح ، والمراد البرص .

(٦) تصدع : يصيبها صداع وهو وجع الرأس ، وفى رواية المعارف لابن قتيبة : إنها لم تمرض قط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما لهذه عند الله من خير » .

(٧) ذكر ابن سعد الاختلاف فى اسم الكلابية فى (ج ٨ : ١٠٠) .

جبرائيل عصى أن يقدر على فتحه . فدعا بلوقيا، فأمر الله تعالى جبريل فنزل عليه وفتح الباب، ثم قال له: يا بن آدم ما أجرأك على الله ! . ثم جاز بلوقيا حتى آنتهى الى بحرين: بحرٌ مالح وبحر عَذْب . فلمّا وصل إليهما رأى بينهما حاجزا، وفى البحر المالح جبل من ذهب، وفى البحر العذب جبلٌ من فضّة، وبينهما مَلَك على صورة النمل ومعه ملائكة على تلك الصورة . فسلّم عليهم فردّوا عليه السلام وقالوا له : مَن أنت ؟ فأخبرهم بقصّته . ثم قال بلوقيا : مَن أنتم ؟ قالوا : نحن أمناء الله تعالى على هذين البحرين لا يلتقيان ولا يبغيان . فقال لهم بلوقيا : ما هذا الجبل الأحمر ؟ قالوا : هذا كنز الله فى الأرض وكلّ ذهبٍ فى الأرض إنما هو من نصاب هذا الجبل ، وكلّ ما فى الدنيا من ماء عَذْبٍ هو من هذا البحر . وهذا البحر إنما يجىء من تحت العرش من قبل أن خلق الله تعالى الملائكة ؛ وكلّ ما يجرى من ماءٍ مالح فهو من ذلك البحر الملح . وهذا الجبل الأبيض هو من فضّة وهو كنز الله تعالى ؛ وكل كنز فى الدنيا وكل معدِنِ فضّةٍ فهو من عروق هذا الجبل . فسلّم بلوقيا عليهم ومضى حتى آنتهى الى بحر عظيم ، فإذا هو بحيتان كثيرة عظيمة وقد آجتمعت و بينها حُوتٌ عظيم يقضى بين الحيتان . فلمّا نظر الى بلوقيا قال : لا إله إلّا الله محمد رسول الله . فسلّم بلوقيا وأخبره بحال النبىّ صلى الله عليه وسلم وأنه خرج فى طلبه ، فردّ السلام ثم قال : يا بُلُوقيا ، إن لقيتَ محمدا فاقرئه منّى السلام . فقال : نعم إن شاء الله . ثم قال : أيتها الحيتان إنى جائع عطشان وماء البحر ملحٌ وما أجد ما آكل . فقال الحوت الأعظم : يا بُلُوقيا سأُطعمك طعاما تسير أربعين سنةً لا تَعيا ولا تجوع ولا تعطش ، قال : فأطعمه تلك الحوت قُرصا أبيض، فأكله ومضى حتى بلغ العُمْران . قال : ومن قبل أن يبلغ العُمْران رأى شابّاً يجرى على الماء كأنه البدر . فقال له بلوقيا : مَن أنت ؟ قال : مَلَك الذى خلقنى . فسار بُلُوقيا يوما

وليلةً فإذا هو بآخر يمرّ على المــاء ضوءُه كضوء النجوم . فقال له بلوقيا : يا فتى، مَن أنت ؟ قال : سَلِ الذى خَلَقنى . فسار بلوقيا يوما وليلةً، فإذا هو بشابّ كأنه القمر يلوح فى آخر الشمس[(1)]، فقال بلوقيا : أَنشُدُك الله إلّا وقفتَ . قال : فوقف وقال : لمــاذا استحلفتَنى ؟ قال : خَشِيتُ أن تفوتنى مثــل أصحابك المــاضين ، فمَنْ كان الأوّل ؟ قال : إسرافيل صاحب الصُّور، والثانى ميكائيل صاحب المطر ، والثالث جبرائيــل أمين ربّ العالمين . فقال بلوقيا : ما ذا تصنعون فى اليمّ؟ قال جبريل : ٤٦/١٢

حيّة من حيّات البحر قد آذت سُكّانه، فَدَعَوُا الله عليها فٱستجاب الله دعاءهم وأمرنا أن نســوقها الى جهنّم ليعذّب الله بها الكفّار يوم القيامة . قال بلوقيا : كم طولُها وكم عَرْضُها ؟ قال : طولُها مسيرة ثلاثين سنة، وعَرْضُها مسيرة عشرين ســنة . فقال بلوقيا : يا جبريل، أيكون فى جهنّم مثل هذه أو أكبر منها ؟ فقال جبريل : إنّ فى جهنّم من الحيّات ما تدخل هــذه فى أنف إحداهنّ ولا تشعر بها من عِظَم خِلقتها . فسلّم بلوقيا عليه ومضى الى جزيرة أخرى، وإذا هو بغلام أمردَ بين قبرين، فســلّم عليه بلوقيا وقال : يا شابّ ، مَن أنت وما ٱسمُــك ؟ قال : اسمى صالح . قال : فما هذان القبران ؟ قال : أحدهما أبى والآخر أمّى، كانا سائحَيْن فماتا هاهنا، وأنا عند قبريهما حتى أموت . فسلّم بلوقيا ومضى حتى ٱنتهى الى جزيرة، فإذا هو بشجرة عظيمة عليها طائرٌ رأسه من ذهب، وعيناه من ياقوت ، ومنقاره من لؤلؤ، وبدنه من زعفران، وقوائمه من زُمُرد، وإذا مائدةٌ موضوعة تحت الشجرة وعليها طعامٌ وحُوتٌ مَشْوِىّ . فسلّم عليه بلوقيا فردّ عليه الطائر السلام . فقال بلوقيا : أيها الطائر مَن أنت ؟ قال : أنا مــن طيور الجنّــة ، وأنّ الله تعــالى بعثنى الى آدم بهذه المــائدة لمّــا هبط من الجنة وكنتُ معه حتى لقِى حوّاء، وأنا هاهنا من ذلك

(1) كذا فى الأصول ونسخة الثعلبى المطبوعة . وفى نسخة الثعلبى المخطوطة : « آخر الشهر » .

الوقت، وكلّ غريب وعابر سبيل يمرّ بها ويأكل منها، وأنا أمين الله عليها الى يوم القيامة . فقال بلوقيا : ولا تتغيّر ولا تنقُص ! قال : طعام الجنّة لا يتغيّر ولا ينقص . فقال لبلوقيا : كُلْ فأكل حاجته، ثم قال : أيها الطائر، هل معك أحدٌ ؟ قال : معي أبو العبّاس يأتيني أحيانا . قال : ومَن أبو العبّاس؟ قال : الخَضِر . فلمّا ذكر اسمه اذا هو بالخضر عليه السلام قد أقبل عليه ثيابٌ بِيضٌ . قال : فما خطا خطوةً إلّا نبت الحشيش تحت قدميه . فسلّم عليه بلوقيا وسأله عن حاله . قال بلوقيا : قد طالت غَيبتي وأريد أن أرجع الى أمّي . قال الخَضِر : بينك وبينها مسيرة خمسمائة سنة، أنا أردّك في مسيرة خمسمائة شهر . قال الطائر : إن كان بينك وبين أمّك مسيرة خمسمائة سنة أنا أردّك مسيرة خمسمائة يوم . قال الخَضِر : أنا أردّك إليها في ساعة ثم قال : غمّض عينيك فغمّضهما ثم قال له : افتحهما ففتحهما، وإذا هو عند أمّه جالس . فسألها : مَن جاء بي ؟ فقالت : جئتَ على متن طائر أبيض يطير بين السماء والأرض فوضعك قدّامي . قال : ثم إنّ بلوقيا حدّث بني إسرائيل بما رأى من العجائب والأخبار، فأثبتوها وكتبوها الى يومنا هذا . فهذا ما كان من حديث بُلُوقِيا . والله أعلم .

الباب الخامس

من القسم الثالث من الفن الخامس

فى أخبار زكريّا وابنه يحيى وعمران ومريم وعيسى بن مريم عليهم السلام

ذكر نسب زكريّا وعمران عليهما السلام وما يتصل بذلك

قال أبو إسحاق الثعلبىّ رحمه الله تعالى : هو زكريّا بن برخيا بن آفذ بن مُسلم ابن صَدُوق بن نحشان بن داود بن سليمان بن مسلم بن صُدَيقة بن ناحُور بن شلُوم ابن نهفاشاط بن أنبا بن لَبنا بن رَحْبَعم بن سليمان بن داود عليهم السلام .

وعِمْران بن ماثان . وقال ابن إسحاق : هو عمران[1] بن باشَهْم بن أمُون بن منَشّى بن حِزْقِيَّا بن أحزيق بن يوثام بن عَزاريا بن أنصيا بن ناوش بن يادم بن يهفاشاط بن أنبا بن لَبنا بن رحبعم بن سليمان بن داود .

وكان زكريّا وعمران متزوّجين باختين ، فامرأة زكريّا أساع ، وقيل بَلِيشْفع بنت فاقود وهى أم يحيى . وامرأة عمران حَنّة بنت فاقود وهى أم مريم بنة عمران .

قالوا : وكان زكريّا نجّارا قبل أن يُبعث نبيّا ، وكان كثير العبادة ، وكان بيت المقدس قد خلا من الأنبياء ، فبينا زكريّا فى محراب جدّه داود عليه السلام وقد انفتل[2] عن صلاته إذ هبط عليه جبريل بوحى الله تعالى ونبوّته ، وأعلمه أنّ

---

(١) والذى فى تاريخ الطبرى (ص ٧١٢ من القسم الأوّل طبع أوربا) عن ابن إسحاق أيضا : «عمران ابن ياشهم بن آمون بن منشا بن حزقيا بن أحزيق بن يوثام بن عزريا بن أمصيا بن ياوش بن أحزيهو بن يادم ابن يهشافاط بن أسا بن أيبا بن رحبعم بن سليمان ... الخ » . ونسبه كما يؤخذ من تتبع أسماء جدوده فى الكتاب المقدّس هو : « عمران بن يوشيا بن آمون بن منسى بن حزقيا بن آحاز بن يوثام بن عزريا بن أمصيا بن يوآش بن أخزيا بن يورام بن يوشافاط بن آسا بن أبيام بن رحبعام بن سليمان» .

(٢) انفتل عن الصلاة إذا انصرف عنها .

الله تعالى قد بعثه رسولا إلى بنى إسرائيل . فخر زكريا ساجدًا لله تعالى على ذلك، وخرج إلى بنى إسرائيل ودعاهم، فكذّبه بعضهم وصدّقه آخرون . فأقام زكريا فى بنى إسرائيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر وعمران يعبد الله . وكان
٤٧/١٢ زكريا وعمران لم يُرزقا الولد . فبينا حَنّة ذاتَ يوم جالسة إلى جانب عمران إذ رأت حمامة تَزُقّ فرخا لها، فبكت شوقا منها إلى ولد، وذكرت ذلك لزوجها عمران فقال: قومى ندعو الله ربّنا فى ذلك، فقاما جميعا وصلّيا ودعوَا الله تعالى أن يرزقهما ولدا، فرأى عمران فى منامه إن الله قد استجاب دعاءك . فقام إلى زوجته فواقعها فحملت منه، وقالت ما أخبر الله تعالى عنها . قال الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّى إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾(١) . قال : وكان النـاس فى ذلك الزمان يتقربون إلى الله عز وجل بتحرير أولادهم، وكانوا يخدمون بيت المقدس فى صغرهم إذا بلغوا، فمن أحبَّ أن يقيم على الخدمة أقام، ومن آختار الآنصراف انصرف .

ذكر ميلاد مريم بنة عمران عليه السلام

قال الكسائى : ولمّا حرّرتها أمها لله تعالى قال لها زوجها : إنك حرّرتِ ما فى بطنك، فإن كان أنثى كيف يكون محررا؟ فاغتمت لذلك حتى وضعت مريم . قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّى أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾(٢) ثم قالت : «ربّ إنى كنت نذرتُ لك ما فى بطنى محررا فتقبّلها منى» . قال

---

(١) سورة آل عمران آية ٣٥
(٢) سورة آل عمران آية ٣٦

الله تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾(١) . قال : ثم حملتها حتى دخلت بيت المقدس وزكريّا هناك فى نفر من عُبّاد بنى إسرائيل، فقال لها : ماهذه ياحَنّة ؟ قالت : هذه ٱبنتى مريم، قد جعلتُها مُحرَّرةً وقد قبِلها الله منّى فٱقبَلوها ولا تردّوها ، فأقبل بنو إسرائيل على زكريّا وقالوا : ماتقول فى هذه ؟ قال : لابدّ لها من مُكَفِّل إلى أن تبلُغ مبلغ الخدمة ثم تكون خادمةً فى المسجد . قالوا : أيّنا يكفُلها ؟ قال زكريّا : أنا أولى بها لأنّى زوج خالتها ، ولكنّا نقترع ، فأخذوا أقلامهم وصاروا إلى عَيْن سُلْوان(٢) وقالوا : نَرمِى بأقلامنا فيها فأيّنا وقف قلمُه فهو الذى يكفُلها ، فألقوها فرسبتْ أقلامهم جميعا إلّا قلم زكريّا فإنه طفا وغالَبَ الجِرْية ، فأخذها وٱسترضع لها بعض نساء بنى إسرائيل. ثم مات عِمْرانُ والد مريم . قال : وبنى لها زكريّا بيتا لايُصْعَد إليه إلّا بسُلّم ، وكان لا يصعَد إليها إلّا زكريّا يحمل إليها الطعام ، وٱبن خال لها يقال له يوسف بن يعقوب النجّار، وكان من العبّاد المحرَّرين ، وكان زكريّا إذا صعِد إليها وجد عندها فى الصيف فواكه الشتاء ، وفى الشتاء فواكه الصيف، فيعجب من ذلك . قال الله تعالى : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾(١) .

---

(١) سورة آل عمران آية ٣٧

(٢) سلوان : محلة فى ربض مدينة بيت المقدس تحتها عين عذبة تسق جنانا عظيمة وقفها عثمان ابن عفان رضى الله عنه على ضعفاء البلد. قال عبد الله الفقير : ليس من هذا الوصف اليوم شىء لأن عين سلوان محلة فى وادى جهنم فى ظاهر بيت المقدس لا عمارة عندها البتة إلا أن يكون مسجدا أو ما يشابهه وليس هناك جنان ولا ربض . ولعل هذا كان قديما . والله أعلم (ياقوت) .

ذكر دعاء زكريا أن يرزقه الله عز وجل الولد ومولد يحيى بن زكريا

قال الكسائي : فلمّا نظر زكريّا الى ما رَزَق الله عزّ وجلّ من الفاكهة في غير وقتها قال : إن الذى رزق هذه الفواكه لقادرٌ على أن يرزق من العجوز العقيم والشيخ الكبير الولد. قال الله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾(١) . قال : ولمّا أراد زكريّا أن يدعو استحيا من الله تعالى، بجلس سبعة أيّام ثم قام الى المحراب و وافق ذلك يوم عاشوراء، فكلّمه المحراب بإذن الله تعالى وقال : يازكريّا، أوجدتَ ربّك بخيلا ! يازكريّا إنّ ربك أبدا رحيم . فعند ذلك عزم على الدعاء واجتهد في العبادة، ثم رفع يديه « ونادَى ربّه نداءً خفيًا » معناه أخفاه عن قومه « قال ربِّ إنّي وَهَنَ العظْمُ منّي واشتعَلَ الرأسُ شيبًا » يعنى غلب بياضه على سواده « ولم أكن بدعائك ربّ شقيًا » معناه لم تخيّبنى فى الدعاء « وإنّي خفتُ الموَالِيَ من ورائى » يعنى الذرّيّة من بعدى أن تصير الجبوريّة فى غير أولاد الأنبياء « فهَبْ لى من لدنك وليًا يرثُني ويرثُ من آل ٤٨/١٢
يعقوب » يعنى مكانى وحُبورَتى والتابوت الذى فيه وأقلام المحرّرين ومفاتيح القُرْبان، ثم قال: «واجعلهُ ربّ رضيًا» فى بنى اسرائيل . فاستجابَ الله تعالى دعاءه وأمر جبريل أن ينزل عليه بالبُشرى فأتاه وأنسه الملائكة وأحدقوا بالمحراب . قال الله تعالى : ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى ﴾(٢) الآية . وقال تعالى : ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ

---

(١) سورة آل عمران آية ٣٨

(٢) سورة آل عمران آية ٣٩

مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا * قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا * قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾(١). ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾(٢) . قال الكلبيّ : كان زكريّا يوم بُشّر بالولد آبن آثنتين وتسعين سنة . وروى الضحّاك عن آبن عبّاس رضى الله عنهما قال : كان آبن مائة وعشرين سنة . وكانت آمرأته بنت ثمانٍ وتسعين .

قالوا : ولمّا جامع زكريّا آمرأته آغتسل وعاد الى محرابه ، فجاءته نساء بنى إسرائيل وقالوا له : نرى أمرك أعجبُ من آمرأتك ، فذهب زكريّا ليتكلّم فلم يقدر على الكلام ، فعلم أن آمرأته قد حملت فكتب لهم فى الأرض ، إنّى لا أقدر على الكلام ثلاثة أيام .

قال الثعلبيّ رحمه الله : فإن قيل : لِمَ أنكرَ زكريّا ذلك وسأل الآية بعد ما بشّرته الملائكة ؟ أكان ذلك شكّا فى وَحْيه ؟ أم إنكارًا لقُدْرته ، وهذا لا يجوز أن يُوصَف به أهل الإيمان فكيف الأنبياء ؟ ! فالجواب عنه ماقال عِكْرِمة والسُّدّى : إنّ زكريّا لمّا سمع نداء الملائكة جاءه الشيطان فقال : يازكريّا إنّ الصوت الذى سمعتَ ليس من الله إنما هو من الشيطان سَخِر بك ، ولو كان من الله لأوحاه إليك خَفيًّا كما ناديته خَفيًّا وكما يوحى إليك فى سائر الأمور ؛ فقال ذلك دفعًا للوسوسة . قال : وفيه جواب آخر ، وهو أنه لم يشُكّ فى الولد و إنما شكّ فى كيفيته والوجه الذى يكون منه الولد فقال : "أنّى يكون لى ؟" أى كيف يكون لى ولد ؟ أتجعلنى وآمرأتى شابّين أو ترزقنا على كِبَرنا ، أو ترزقنى من آمرأة عاقر ، أم من غيرها من النساء ؟ فقال

---

(١) سورة مريم آية ٩

(٢) سورة آل عمران آية ٤١

ذلك مستخبرا لا مستنكرا . وهذا قول الحسن . « قال ربّ اجعلْ لى آيةً قال آيتُك ألّا تُكلِّمَ النّاس» تكُفّ عن الكلام ثلاثة أيام وتُقْبِل بكليّتك على عبادتى وطاعتى؛ لأنه ما حبس لسانه عن الكلام ولكنه نُهِى عنه؛ و يدلّ عليه قوله : ﴿ وَٱذْكُر رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴾ . هذا قول قوم من أهل المعانى . وقال آخرون : عُقِلَ لسانُه عقوبةً له لسؤاله الآيةَ بعد مُشافهةِ الملائكة إيّاه، فلم يقدِر على الكلام ثلاثة أيام، لأنهم كانوا اذا صاموا لم يتكلّموا إلّا رَمْزاً .

قال : و فى بعض الأخبار أنه لمـّا وُلِد يحيى رُفِع الى السماء فغُذِّىَ بأنهار الجنّة حتى فُطِم ثم أُنزِل الى أبيه، فكان يُضىء البيت لنُوره .

واختلفوا فى تسميته بيحيى ولمَ سُمِّىَ بذلك؟ قال آبن عبّاس رضى الله عنهما : لأنّ الله تعالى أحيا به عُقْر أمّه . وقال قَتَادة وغيرُه : لأنّ الله تعالى أحيا قلبه بالإيمان والنبوّة . وقال الحُسين بن الفَضْل : لأنّ الله تعالى أحياه بالطاعة حتى لم يَعْصِ ولم يَهِمّ بمعصية . وقيل : سُمِّى بذلك لأنه آستُشهِد والشهداء أحياء عند ربهم يُرزَقون .

و يحيى أوّل من أقرّ بعيسى عليه السلام وصدّقه؛ وذلك أنه لمـّا كان فى بطن أمّه استقبلتها مريم وقد حمَلتْ بعيسى، فقالت لها أمّ يحيى : يا مريم ، أحاملٌ أنت؟ فقالت : لماذا تقولين؟ قالت : إنى أرى ما فى بطنى يسجُد لما فى بطنك؛ فذلك تصديقه وإيمانه . وكان يحيى أكبر من عيسى بستّة أشهر، وقُتِل قبل رفع عيسى . وقوله تعالى فيه : ﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا ﴾ قال آبن جُبَير : السيّد الذى يطيع ربّه عزّ وجلّ . وقال الضحّاك : السيّد الحَسَن الخُلُق . وقال عِكْرِمة : السيّد الذى لا يَغضَب . وقال سُفيان : السيّد الذى لايحسُد . وحَصُورا، قال ٢٠

ابن مسعود وابن عباس وغيرهما : هو الذى لا يأتى النساء ولا يقربهن، فعول بمعنى فاعل، يعنى أنه حصر نفسه عن الشهوات : وقال المبرّد : الحصور : الذى لا يدخل فى اللعب ولا الباطل .

ذكر صفة يحيى بن زكريا وحليته

قال كعب الأحبار : كان يحيى بن زكريا عليهما السلام حَسَنَ الوجه والصُّورة، ٤٩/١٢
ليِّن الجَنَاح، قصيرَ الأصابع، طويلَ الأنف، مقرونَ الحاجبين ، رقيقَ الصوت ، كثيرَ العبادة ، قويًّا فى طاعة الله عزّ وجلّ وقد ساد الناس فى عبادته .

ذكر نبوّة يحيى عليه السلام وسيرته وزهده

قال الله تعالى : ﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾(1) . قيل : هو أن يحيى عليه السلام قال له أقرانه من الصبيان : يايحيى اذهب بنا نلعب؛ فقال : أللعبِ خُلِقنا! . وقال الآخرون : هو أنه نبىّ وهو صغير، وكان يعظ الناس ويقف لهم فى أعيادهم وجمعهم يدعوهم الى الله تعالى ، ثم ساح ودخل الشام يدعو الناس .

ولمّا بعثه الله عز وجل إلى بنى إسرائيل أمره أن يأمرهم بخمس خصال وضَرَب لكلّ خصلة منها مثلا :

أمرهم أن يعبدوا الله تعالى ولا يُشركوا به شيئا وقال : مَثَلُ الشِّرْك مَثَلُ رجل اشترى عبيدا من خالص ماله ثم أسكنهم داراً له ودفع لهم مالاً يتجرون فيه ويأكل كل واحد منهم مايكفيه، ويؤدّون إليه فضل الرِّبح، فعمَد العَبيد الى فضل الربح فدفعوه الى غير سيدهم .

(1) سورة مريم آية ١٢

وأَمَرهم بالصلاة وقال : إنّ مَثَل المُصلِّي كمَثَل رجل استأذنَ على ملكٍ فأذِن له ودخل عليه ، فأقبل الملك عليه بوجهه ليسمع مقالته و يقضيَ حاجته ، فلما دخل الرجل ٱلتفت يمينا وشمالا ولم يَهْتم بحاجته ، فأعرض الملك عنه بوجهه ولم يقض حاجته .

وأَمَرهم بالصدقة وقال : مثلها كمثل رجل أسره العدوّ فٱشترى منهم نفسه بثمن معلوم ، بجعل يعمَل في بلادهم و يؤدّى إليهم من كَسْبه القليلَ والكثيرَ حتى وفّى ثمنه فأُعتق .

وأَمَرهم بذكر الله تعالى وقال : مَثَلُ الذِّكْر مثل قوم لهم حِصْنٌ ولهم عدوّ، فإذا أقبل عليهم عدوّهم دخلوا حِصْنهم فلم يقدر العدوّ عليهم ، كذلك مَن ذكر الله عزّ وجلّ لا يقدِر عليه الشيطان .

وأَمَرهم بالصيام وقال : مثله كالجُنّة[1] لا يصل عدوّه إليه . وكان عليه السلام فيهم كثير التقشُّف والعبادة والزهد والسياحة إلى أن قُتل عليه السلام .

ذكر مقتل يحيى بن زكريّا وأبيه زكريّا عليهما السلام

اختلف العلماء في سبب قتل يحيى، فقال بعضهم : كان يحيى عليه السلام في زمن مَلِكٍ من ملوك بني إسرائيل، وكانت له آمرأةٌ وهى بنت ملك صَيدَا[2]، وكانت قتّالة للأنبياء والصالحين، وكانت عاهرة تبرُز للناس، وكان يحيى يزجُرُها

(١) الجنه (بضم الجيم المعجمة) : كل ماوقى من سلاح . وفي العبارة إيجاز والمعنى المراد واضح .

(٢) صيدا (بالقصر والمد) : مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال دمشق ، شرقى صور ، بينهما ستة فراسخ . كان لها في القرن السابع عشر إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد شهرة عظيمة في التجارة والحضارة ، وتفوّق كبير في الملاحة . ولما انتقلت السيادة إلى جارتها مدينة صور حفظت مركزها أيضا و بقيت قاعدة مملكة كنعان . فتحها المسلمون في خلافة عمر سنة ٦٣٨ م (١٧ هـ) . (راجع تاريخ صيدا ومعجم الخريطة التاريخية) .

عن ذلك ويقول لها : لاتُبرزين كاشفةً عن وجهك . وكان كثيرا مايقول لها : مكتوبٌ فى التوارة : إنّ الزُّناة يُوقَفُون يوم القيامة وريحهم أنتنُ من الجِيَف . فأمرتْ بيحيى فسُجِن . وكان قد حُبِس رجلٌ من أبناء الملوك، وكان يختلف إليها، فعلم بها وبه يحيى فزجره، فبلغ ذلك آمرأة الملك فحملتْ بنتا لها وآستقبلت بها زوجها . فقال : لم فعلتِ ذلك ؟ فقالت : وَجَب لها عليك حقّ . فقال : سَلِينِي ماشئتِ . فسألته أهلَ السجن . فظنّ أنها ترحمهم وتسرّحهم فقال : قد فعلتُ . فأمرت المرأة بأهل السجن فعُرِضوا . فلمّا مَرّ بيحيى أمرت به فذُبِح فى طَسْت ثم حملت الطست إلى أبيها بأمر أمّها وقالت : أيها الملك ، إنى ذبحتُ لك ذبيحةً من أعظم ما وجدتُ ، ولو كان مثلُه ألفاً لذبحتهم لك . فقال : ومن هو ؟ قالت : يحيى بن زكريا . قال : هلكتِ وأهلكتِ أبويك . فغيّر الله ما بهم من النعم، وسلّط عليهم عدوّهم فذبح البنت وأبويها، وسلّط عليهم الكلاب حتى أكلتهم .

وقال الثعلبيّ فى تفسيره : والصحيح من ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق بن يَسَار قال : عمرت بنو اسرائيل بعد ما عمرت الشام(١)، وعادوا اليها بعدخراب بُخْتُنَصَّر إياها وسَبْيِهم منها ، فجعلوا بعد ذلك يُحدثون الأحداث بعد مَهْلَك عُزَير عليه السلام ، ويعود الله عليهم ويبعث فيهم الأنبياء ، ففريقا يُكَذّبون وفريقا يقتلون، حتى كان آخرُ من بعث الله تعالى فيهم من أنبيائهم زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام . ٥٠/١٢ فمات زكريا وقُتل يحيى بسبب نَهْيه الملك عن نكاح آبنته فى قول عبد الله بن الزبير، وآبنة آمرأته فى قول السُّدّيّ ، وآبنة أخيه فى قول آبن عباس رضى الله عنهما وهو الأصح إن شاء الله تعالى ؛ لِمَا رَوَى الأعمش عن المِنْهَال عن سَعيد بن جُبير عن آبن عباس رضى الله عنهما قال : بَعَث عيسى بنُ مريم يحيى بنَ زكريا عليهم

(١) كذا فى الأصول ! !

السلام فى اثنى عشر من الحَوَاريّين يعلّمون الناس ، فكان مما نَهَوْهم عنه نكاحُ ابنة الأخ . قال : وكانت للملكهم ابنة أخ تُعجبه يريد أن يتزوّجها ، وكانت لها فى كل يوم حاجةٌ يقضيها لها . فلمّا بلغ ذلك أمّها أنه نهى عن نكاح بنت الأخ قالت [لابنتها : اذا دخلتِ على الملك فسألكِ فقولى له : حاجتى أن تذبح لى يحيى بن زكريا . فلمّا دخلت عليه سألها حاجتها قالت : حاجتى أن تذبح لى يحيى بن زكريا . فقال :][1] سَلِينى غير هـذا . قالت : لا أسألكِ إلا هذا . فلمّا أبت عليه دعا بيحيى ودعا بطَسْت فذبحه فيه ، فندّت من دمه قطرة على الأرض ، فلم تزل تَغْلِي حتى بعث الله عز وجل ملك بابل ، فقتــل عليها من بنى إسرائيل حتى سكنت . وقد تقدّم أيضا خبر مقتله ، وأنّ بختنصّر هو الذى قَتَل على دمه حتى سكن[2] . والصحيح أن بختنصّر إنمـا قَتَل بسبب قتل شَعْيَا عليه السلام .

قال الثعلبى أيضا : وقال علماء النصارى : إنّ قتل يحيى كان على يدَىْ ملك من ملوك بنى إسرائيل يقال له هِيرُودُس بسبب امرأة يقال لهـا هِرْدُوبَا ، كانت امرأة أخ له يقال له فَلْفُوس ، عَشِقها فوافقته على الفجور ، فنهاه يحيى وأعلمه أنها لا تحـلّ له ، فسألت المرأة هِيرُودُس أن يأتيها برأس يحيى ففعل ، ثم سُقِط[3] فى يده وجَزِع جَزَعا شديدا .

وقال كعب : كان يحيى عليه السلام من أحسن الناس وجها وأجملهم فى زمانه ، فأحبّته امرأة الملك الذى كان فى ذلك الزمان حبّا شـديدا ، فأرسلت اليه تراوده ،

---

(١) التكملة عن الثعلبى والطبرى (ص ٧١٣ من القسم الأوّل) . وعبارة الأصول : « عن نكاح بنت الأخ قالت : تذبح يحيى بن زكريا قال » وهى مضطربة من الناسخ .

(٢) راجع (ص ١٥٧) من هذا الجزء .

(٣) يقال لكل من ندم أو حزن وتحسر على فائت من فعل أو ترك أو عجز : قد سقط فى يده .

فأرسل إليها أنه لا عِلْم له بالنساء والمِلك أحقّ أن يطأ فِراشَه . فلمّا جاءها الرسول غضِبتْ وقالت : كيف لى أن أقتله حتى لا يخبر الناسَ أنى قد راودته ! . فلم تزل بالملك حتى وهب لها رأسَ يحيى بن زكريّا ، وأرسلت إليه وهو قائم يصلِّى فى محراب داود فى بيت المقدس فضُرِب عنقه وأخذ رأسه . فلمّا أرادوا أن يأخذوا رأس يحيى خَسَف الله بها و بأهلها الأرض عقوبةً لقتلها يحيى عليه السلام .

قال كعب : فلمّا رأى زكريّا أن ابنه يحيى قد قُتِل وخُسِف بالقوم انطلق هاربا فى الأرض، حتى دخل بستانا عند بيت المقدس فيه أشجار . وأرسل الملك فى طلبه غضبًا لما لَقِيَت المرأة وأهلها . فمرّ زكريّا بشجرة من تلك الأشجار فنادته الشجرة يا نبيّ الله، هَلُمّ إلى هاهنا . فلمّا أتاها انفقّت عليه الشجرة ودخل زكريا عليه السلام فى وَسَطها ، فانطلق عدوّ الله إبليس لعنه الله حتى أخذ بطَرَف ردائه ، فأخرجه من الشجرة ليصدّقوه إذا أخبرهم، وجاء الذين يلتمسون زكريّا، فأخبرهم إبليس أنه دخل الشجرة؛ فقالوا : لا نصدّقك . قال : فإنى أُريكم علامة تصدّقونى بها . قالوا : فأَرِناها ، فأراهم طَرَف ردائه ، فأخذوا الفؤوس فضربوا الشجرة حتى قطعوها باثنتين، فسلّط الله عليهم أخبثَ أهل الأرض عِلْجا مجوسيًّا، فانتقم الله من بنى إسرائيل بدم يحيى و زكريّا ، فقتل عظماء بنى إسرائيل وسَبَى منهم مائة ألف وعشرين ألفا .

وقد قيل فى سبب قتل زكريا غير هذا ، وسنذكره إن شاء الله فى أثناء أخبار عيسى بن مريم على ما نقف عليه إن شاء الله تعالى .

ذكر هلاك بنى إسرائيل وخراب بيت المقدس ثانيا

قال الثعلبيّ رحمه الله تعالى فى بعض طُرُقه عن محمد بن إسحاق : إنّ خراب بيت المقدس ثانيا وقَتْلَ بنى إسرائيل كان بعد رفع عيسى بن مريم وقَتْلِ يحيى بن زكريّا . فلمّا فعلوا ذلك سلّط الله تعالى عليهم مَلِكا من ملوك بابل يقال له خَرْدُوس(١)، فسار إليهم بأهل بابل حتى دخل عليهم الشام؛ فلمّا ظهر عليهم أمر رأسا من رءوس أجناده يدعى نَبُوزَرَادَان(٢) صاحب الفيل(٣) فقال له : إنى قد كنتُ حلفتُ بإلهى إن أنا ظهرتُ على أهل بيت المقدس لأقتلنّهم حتى تَسيل دماؤهم فى وسَط عسكرى إلى ألّا أجد أحدا أقتله ، فأمره أن يقتلهم حتى يبلغ ذلك منهم ، وأن نَبُوزَرَادَان ٥١٠/١٢ دخل بيت المقدس فقتلهم فى البقعة التى كانوا يقرّبون فيها قُربانهم ؛ فوجدوا فيها دما يَغْلِى فسألهم عنه فقالوا : هذا دَمُ قُربانٍ قرّبناه فلم يُتَقَبَّلْ منّا فلذلك هو يَغْلِى كما تراه، ولقد قرّبنا منذ ثمانمائة سنة القُربان فتُقُبِّل منّا إلّا هذا القربان . فقال : ما صَدَقتمونى الخبر . قالوا له : لو كان كأوّل دمائنا تُقبل ولكنّه قد انقطع منّا المُلْك والنبوّة والوَحْى فلذلك لم يُقْبَل . فذبح منهم نَبُوزَرَادَان على ذلك الدم سبعمائة وسبعين رُوحا من رءوسهم فلم يهدأ ، فأمر بسبعة آلاف من سبيهم فذبحهم على الدم فلم يَبْرُد . فلمّا رأى نَبُوزَرَادَان أن الدم لا يهدأ قال لهم : ويلكم يا بنى إسرائيل! اُصْدُقونى واصبروا على أمر ربكم ، فقد طالما ملكتم الأرض تفعلون فيها ما شئتم ، قبل

(١) كذا فى تاريخ الطبرى (ص ٧٢٠ من القسم الاول والبحر المحيط لأبى حيان (ج ٦ ص ١١) وفى نسختى أ ، ب : «جردوس» بالجيم المعجمة . وفى نسخة ج «حردوس» بالحاء المهملة .

(٢) كذا فى الكتاب المقدس (ج ١ ص ٦٥١) . وفى تاريخ الطبرى (ص ٧٢٠ من القسم الأول) «نبوزراذان» . وفى الأصول : «بيورزاذان» .

(٣) كذا فى الأصول وتاريخ الطبرى . وفى الكتاب المقدس (ج ١ ص ٦٥١) : «رئيس الشرط» . وفى نسخة من تاريخ الطبرى أشير إليها فى الهامش (ص ٧٢٠ من القسم الأول) : «صاحب القتل» .

ألّا أترك نافخ نار ذكر أو أنثى إلا قتلته . فلمّا رأوا الجهد وشدّة القتل صدّقوه الخبر فقالوا: إن هذا دم نبيّ منّا كان ينهانا عن أمور كثيرة من سخط الله، فلو أطعناه لكان أرشد لنا، وكان يخبرنا بأمركم فلم نصدّقه فقتلناه فهذا دمه. فقال لهم: ما كان ٱسمه؟ قالوا: كان اسمه يحيى بن زكريّا. قال: الآن صدّقتمونى، لمثل هذا ينتقم منكم ربكم. ولمّا رأى أنهم قد صدّقوه خرّ ساجدا وقال لمن حوله: أغلقوا باب المدينة وأخرجوا مَن كان هاهنا من جيش خَرْدُوس . وخلا فى بنى اسرائيل ثم قال: يا يحيى بن زكريا، قد علم ربّى وربّك ما قد أصاب قومك من أجلك وما قُتل منهم، فآهدأ بإذن الله تعالى قبل ألّا أُبقى من قومك أحدا، فهدأ دم يحيى بن زكريّا بإذن الله تعالى، ورفع نَبُوزَرَادان عنهم القتل وقال: آمنتُ بما آمنت به بنو اسرائيل وصدّقت به وأيقنت أنه لا ربّ غيره . فأوحى الله تعالى الى رأس من رءوس بقيّة الأنبياء عليهم السلام أن نَبُوزَرَادان حَبُور صَدُوق — والحبور بالعبرانية حديث الإيمان — فقال نَبُوزَرَادان: يا بنى إسرائيل، إنّ عدوّ الله خَرْدُوس أمرنى أن أقتل منكم حتى تسيل دماؤكم وَسَط عسكره، وإنى لستُ أستطيع أن أعصيه . قالوا له: افعل ما أُمرتَ به، فأمرهم أن يحفروا خندقا وأمر بأموالهم من الخيل والبغال والحُمُر والبقر والغنم فذبحها حتى سال الدم فى العسكر، وأمر بالقتلى الذين كانوا قُتلوا قبل ذلك فطُرحوا على ما قُتل من مواشيهم حتى كانوا فوقها . فلمّا بلغ الدم عسكر خَرْدُوس أرسل الى نَبُوزَرَادَان أن ٱرفع عنهم القتل فقد بلغتنى دماؤهم . ثم ٱنصرف عنهم الى بابل وقد أفنى بنى إسرائيل أو كاد . وهذه هى الوقعة الآخرة التى أنزل الله تعالى فيها وفى الأولى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ فِى الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِى الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [1] فكان بختنصر

(١) سورة الاسراء آية ٤ و ٥

وجنودُه . ثم ردّ الله لهُم الكرّة عليهم . وكانت الوقعة الآخرة خَرْدُوس وجنوده فلم تقُم لهم بعد ذلك راية . وانتقل المُلْك بالشام ونواحيها الى الروم واليونان، إلاّ أنّ بقايا بنى إسرائيل كثروا وآنتشروا بعد ذلك . وكانت لهم الديانة والرياسة ببيت المقدس ونواحيها على غير وجه الملك . وكانوا فى نَعْمة ومَنَعَة الى أن بدّلوا وأحدثوا الأحداث وآستحلّوا المحارم وضيّعوا الحدود، فسلّط الله تعالى عليهم طَطُوس(١) بن اسفَيَانوس(٢) الرومى فأخرب بلادهم وطردهم عنها، ونزع الله تعالى منهم المُلْك والرياسة وضرب عليهم الذلّ، فليسوا فى أمّة من الأمم إلّا وعليهـم الصَّغار(٣) والجزية والمُلْك فى غيرهم . وبقى بيت المقدس خرابا الى أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه فعمّره المسلمون بأمره .

قال : ورَوَى أبو عَوَانة عن أبى بشر قال : سألت سَـعيد بن جُبَير عن قول الله عز وجل : ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ الآيات فقال : أمّا الذين جاسوا(٤) خلال الديار فكان صَرْخان(٥) الخزرى، شعّث من الديار وتبّر(٦) . ثم قال : ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِـمْ﴾ الى قوله : ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ الى قوله : ﴿تَتْبِيرًا﴾ قال : هذا بختنصّر الذى خرّب بيت المقدس . ثم قال لهم : ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ قال : فعادوا فعِيدَ عليهم، فبعث الله تعالى عليهم ملك الروم . ثم عادوا أيضا فعِيدَ عليهم، فبعث عليهم درم أوزن(٧) ملك الرى . ثم عادوا أيضا فعيد عليهم، فبعث عليهم سابورَ ذا الأكتاف .

---

(١) كذا فى تاريخ الطبرى (ص ٧٤٣ من القسم الأوّل) ونسخة ج . وفى نسختى ا ، ب : «طنوس» . (٢) فى تاريخ الطبرى : « سلفسيانوس » . (٣) الصغار : الذل .

(٤) جاسوا : عاثوا وقتلوا . (٥) وفى الجامع لأحكام القرآن للقرطبى (ج ١٠ ص ٢١٦) : « وقال سعيد بن جبير فى قوله تعالى : (ثم بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار) هو سنحاريب من أهل نينوى بالموصل ملك الروم » . (٦) تبر : أهلك ودمر .

(٧) كذا فى الأصول ولم نجد هذا الاسم فى المظان .

وقال قتادة : هذه الآية قضاءٌ قُضِىَ على القوم كما يسمعون ، فبعث عليهم فى الأولى جالوت فسبى وقتل وخرّب بيتَ المَقْدِس وسامهم سوء العذاب ، ثم قال : ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ ﴾ فعاد الله عليهم برحمته . ثم عاد القوم بشرّ ما يحضرهم . فبعث
٥٢/١٢ الله تعالى عليهم ما شاء أن يبعث من نِقْمته وعقوبته . ثم بعث الله تعالى عليهم هذا الحىّ من العرب ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ (١) فهم بهم فى عذاب الى يوم القيامة .

وهذه الأخبار التى أوردناها فى هذا المكان من خبر زكريا ويحيى وخراب بيت المقدس ثانيا ، منها ما كان فى زمن عيسى عليه السلام ، ومنها ما كان بعد رفعه . وإنما أوردناها سياقة وتركنا خبر عيسى عليه السلام لئلا تنقطع بغيره ، وليتلو بعضها بعضا . فلنرجع الى أخبار عيسى بن مريم عليه السلام .

ذكر خبر حمل مريم بنة عمران بعيسى عليهما السلام

قال الكسائىّ رحمه الله تعالى : وكانت مريم تنمو وتزيد فى كل يوم وتعبد الله تعالى حتى برزت فى العبادة على نساء بنى اسرائيل . فلمّا بلغت مبلغ النساء أتت منزل زكريا ، فقال لها : كيف خرجتِ من بيتك ومفتاحه معى ؟ قالت : إنى رأيت أمرا قبيحا — أرادت بذلك الحيض — فجئتك بإذن الله . فأمرها زكريا أن تكون عند خالتها حتى تطهر ، ففعلت ذلك . فلما طهُرت واغتسلت عادت إلى عبادتها . فكان ذلك عادتها وشأنها اذا حاضت . فذلك قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا ﴾ (٢) أى سترا ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ يعنى جبريل ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ أى فى صورة رجل

(١) سورة الأعراف آية ١٦٧ (٢) سورة مريم آية ١٦ وما بعدها .

﴿قَالَتْ إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ أى مطيعا لربك ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ ثم نفخ فى جيبها فوصلت النفخة الى جوفها فحملت بعيسى لوقتها . ويقال : إن زكريا فى ذلك الوقت أفضى إلى آمرأته فحملت بيحيى . وقيل : إن آمرأة زكريا حملت قبل مريم بثلاثة أشهر، وقيل ستة أشهر . وكانت مريم إذ ذاك بنت خمس عشرة سنة ، وقيل ثلاث عشرة سنة .

وحكى الثعلبى فى قصة حمل مريم أنه كان معها فى المسجد آبن عم لها من المحررين يقال له يوسف بن يعقوب النجار ، وكان رجلا حكيما نجارا ، يتصدق بعمل يديه، وكان يوسف ومريم اذا نفد ماؤهما أخذ كل واحد منهما قلته وآنطلق إلى المغارة التى فيها الماء يستقيان منه ثم يرجعان إلى الكنيسة . فلما كان اليوم الذى لقيها فيه جبريل، وكان أطول يوم فى السنة وأشد حرا، نفد ماؤها، فقالت : يايوسف، ألا تذهب بنا نستقى؟ فقال لها : إن عندى لفضلا من ماء أكتفى به فى يومى هذا إلى غد . قالت : لكنى والله ما عندى ماء، فأخذت قلتها ثم آنطلقت وحدها حتى دخلت المغارة، فوجدت عندها جبريل عليه السلام، قد مثله الله عزوجل بشرا سويا ؛ فقال لها : يا مريم، إن الله قد بعثنى اليك لأهب لك غلاما زكيا . قالت : إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا . قال عكرمة : وكان جبريل قد عرض لها فى صورة شاب أمرد وضىء الوجه، جعد الشعر، سوى الخلق . قال الحكماء : وإنما أرسله الله تعالى فى صورة البشر لتثبت مريم عليها السلام وتقدر على آستماع كلامه، ولو أتاها على صورته التى هو عليها لفزعت ونفرت عنه، ولم تقدر على آستماع كلامه . فلما آستعاذت مريم منه قال : ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ

رَبِّكِ ﴾ الآية . فلما قال ذلك استسلمتْ لقضاء الله تعالى . فنفخ جبريل فى جيب دِرْعها ، وكانت قـد وضعته ، ثم انصرف عنها . فلمـا لبست مريم درعها حملت بعيسى عليه السلام ، ثم ملأت قُلّتها وانصرفت الى المسجد . وقال السُّدّىّ وعِكْرِمة : إنّ مريم عليها السلام كانت تكون فى المسجد ما دامت طاهرة فإذا حاضت تحوّلت الى بيت خالتها حتى إذا طهُرت عادت إلى المسجد . فبينما هى تغتسل من الحيض وقد أخذت مكانا شرقيّا — قال الحسن : إنما اتخذت النصارى الشرق قِبلةً لأن مريم انتبذت مكانا شرقيّا — فاتخـذت ، فضربت من دونهم حجابا ، أى سـترا . وقال مقاتل : جعلت الجبـل بينها و بين قومها ، فبينما هى كذلك اذ عرض لهـا جبريل و بشّرها ونفخ فى جيب درعها .

قالوا : فلما اشتملت على عيسى وتبيّن حملُها داخلها الغمّ وعلمت أنّ بنى إسرائيل سوف يفضحونها ، فنادتها الملائكة : ﴿ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ ٱصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ ﴾ أى من الحيض ﴿ وَٱصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَـالَمِينَ * يَامَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ . قال : و بشّرها الله تعالى بعيسى فقال : ﴿ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْـهُ ٱسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِى الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١) . ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ * وَرَسُولًا إِلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ ﴾ (٢) الآية فطابت نفسهـا . قال وَهْب : فلمّا اشتملت على عيسى وكان معها يوسف النجار ، وكانا منطلقين الى المسجد الذى بجبل صِهْيَوْن — وجبل صهيون على باب بيت المقدس — وكان ذلك المسجد يومئذ من أعظم مساجدهم ، وكانت مريم و يوسف يخدمان ذلك المسجد ، وكان لخدمته فضل عظيم ، فكانا يليان معالجته بأنفسهما وتطهيره ، وكان لا يُعْلَم أحدٌ من أهل زمانهما أشدّ اجتهادا وعبادة

٥٣/١٢

(١) سورة آل عمران آيتى ٤٥ ، ٤٦ (٢) سورة آل عمران آية ٤٨ وما بعدها .

منهما . فكان أوّل مَن أنكر حمل مريم يوسف النجّار . فلما رأى ما بها استعظمه وقُطِع به ولم يدر على ماذا يضع أمرَها . فكان إذا أراد أن يتّهمها ذكر صلاحها وعبادتها وبراءتها وأنها لم تَغِب عنه ، وإذا أراد أن يبرّئها رأى الذى ظهر بها من الحمل . فلما آشتدّ ذلك عليه كلّمها ، فكان أوّل ما كلّمها به أن قال لها : إنه قد وقع فى نفسى منك ومن أمرك شىء ، وقد حرَصت على أن أكتُمه فغلبنى ذلك ورأيتُ أنّ الكلام فيه أشفَى لصدرى . فقالت : قل قولا جميلا . قال : خبّرينى يا مريم ، هل ينبُت زرع بغير بَذْر ؟ قالت نعم . قال : فهل تنبُت شجرة بغير غيث يصيبها ؟ قالت نعم . قال : فهل يكون ولدٌ من غير فَحْل؟ قالت : ألم تعلم أنّ الله عزّ وجل أنبت الزرع يوم خلقه من غير بَذْر، والبِذَارُ إنما تكون من الزرع الذى كان أنبته من غير بذر ! . ألم تعلم أن الله عزّ وجل أنبت الشجر من غير غيث، وبالقَدَر جعل الغيث حياة الشجر بعد ما خلق كل واحدة على حدة ! . أوَ تقول إن الله لا يقدر على إنباته ! . قال يوسف لها : لا أقول هذا ، ولكنى أعلم أن الله تبارك وتعالى يقدر على مايشاء ، يقول لذلك : كُنْ فيكونُ . فقالت له مريم : أوَ لم تعلم أن الله تبارك وتعالى خلق آدم وآمرأته حوّاء من غير ذكر ولا أنثى ! . قال بلى . فلمّا قالت له ذلك وقع فى نفسه أن الذى بها شىء من أمر الله ، وأنه لا يسعه أن يسألها عنه، وذلك لِما رأى من كتمانها . وقال الكسائىّ : لما قال يوسف لمريم : هل يكون ولد من غير فَحْل؟ قالت : نعم، آدم من غير أب وأمّ . قال صدقتِ . ثم قال : هذا الولد الذى فى بطنك مَن أبوه ؟ قالت : هذا هبة ربّى لى ، ومَثَلُه كمثل آدم خلقه من تراب . فنطق عيسى فى بطنها وقال : يا يوسف ما هذه الأمثال التى تضربها ! قم فآشتغل بصلاتك وآستغفر لذنبك مما قد وقع فى قلبك . فقام يوسف وجاء الى زكريّا وأخبره ، فاغتمّ وقال لآمرأته : إنّ مريم حاملٌ ، وأخاف من فُسّاق

بنى إسرائيـل أن يتّهموا يوسف بها . قالت : توكّل على الله وٱستعن به فإنه يردّ عنها مقالة الفُسّاق .

قالوا : ثم تولى يوسف خدمة المسجد وكفاها كل عمل كانت تعمله فيه لما رأى من رقّة جسمها ، وٱصـفرار لونها ، وكَلَف وجهها ، ونتوء بطنها ، وضعف قوّتها . والله أعلم .

ذكر خبر ميلاد عيسى بن مريم عليهما السلام

قال الكسائىّ رحمه الله : فلمّا دنا وقت الولادة خرجت مريم فى جوف الليل من منزل زكريا حتى صارت إلى خارج بيت المقدس ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَٱنْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ . قال : وأخذها الطَّلْق . فنظرت إلى نخلة يابسة فجلست تحتها فاخضَرَّت النخلة من ساعتها وصار لها سَعَفًا وخُوصا وحملت الرُّطَب لوقتها وأنبع الله فى أصل النخلة عينا من الماء . قال : وعن وهب أنه لمّا دنت ولادة مريم عليها السلام أوحى الله تعالى إليها أن تخرج من المحراب فتتبوّأ منزلا تلد فيه ، فتحوّلت إلى بيت خالتها أمّ يحيى بن زكريا لتَلِد فى بيتها . قال : فلمّا دخلت عليها استقبلتها أمّ يحيي وسلّمت عليها . فلما ٱلتقيا أحسّت أمّ يحيى بسجود مَن فى بطنها ، فقالت : يا مريم ، إن الذى فى بطنى يسجد لما فى بطنك .

قالوا : ثم أوحى الله تعالى إلى مريم أن تخرج من أرض بَيْتَ لَحْم[1] إلى جهة من الأرض تلد فيها ، فحملها يوسف النجّار على حمار بأُكاف[2] ليس بينها و بين الأُكاف غير

---

(١) بيت لحم : قرية صغيرة مبنية على أكمة تبعد ٦ أميال الى الجنوب من أورشليم وهى محاطة بتلال تكسوها الأشجار والنباتات الجميلة ، وفيها مياه عذبة تتفجر من أراضيها الخصبة . (راجع قاموس الكتاب المقدس للدكتور جورج بوست) . (٢) أكاف الحمار (بضم أوله وكسره) : برذعته .

٥٤/١٢ ثوبها وهي مُثقِلة لا تكاد تقوم . فانطلقا في سواد الليل من بيْتَ لَحْمَ يؤمّان الجبال، حتى إذا كانا ببعض الطريق بين نخلات ينزلها الرُّكبان ، بينهنّ أَوارِيّ[1] مبنية بناها السَّفْر[2] ليعلّقوا فيها دوابّهم . فنزلا ذلك المنزل، فأدركها المخاض ، فالتجأت إلى بعض تلك الأواريّ وهو في أصل جِذْع نخلة يابس مَحْل ليس فيه عَراجين[3] ولا غيرها ، فأنبته الله تعالى وأثمره حتى أظلّها وأكنّها وتدلّت عليها غصونه من كل جانب حتى سترها السَّعَف والعراجين . واشتدّ بها الطَّلْق وداومها سبع ليال ، وأشرفت على الموت ، فقالت ما أخبر الله تعالى به عنها ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾[4] . قال : واشتدّ عليها البرد، فعمَد يوسف إلى حطب فجعله حولها كالحظيرة ، ثم أشعل فيه النار فأدفأها ، وكسر لها سبع جَوْزات فأكلتها . فمن أجل ذلك تُوقد النصارى النارَ ليلة الميلاد وتلعب بالجوز . قال وقال كعب : إنها خرجت منفردة ، فلمّا فقدها زكريا أهمّه ذلك ، وبعث يوسف النجّار في طلبها ، فجاء حتى نظر إليها تحت النخلة . قال : ولمّا شكت من ألم الولادة ما شكت وقالت : « يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا » أي لا تُعرَف ولا تذكر ﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا ﴾ — قيل : إن الذي ناداها عيسى . وقيل : جبريل — ﴿ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ وهو الجدول الصغير . قالوا : كان نهرا من ماء عذب ، يكون باردًا إذا شربت منه ، وفاترا إذا استعملته ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ أي نضيجا ﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ أي كلي واشربي من الماء الذي أنبعه الله لك وقرّي عينا بهذا الولد ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا ﴾ أي صمتا ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾

(١) أواريّ جمع آريّ وهو محبس الدابة . (٢) السفر : جماعة المسافرين .

(٣) عراجين : جمع عرجون ، وهو أصل العذق الذي يعوج وتقطع منه الشماريخ فيبقى على النخل يابسا . سمي بذلك لانعراجه . (٤) سورة مريم آية ٢٣ وما بعدها .

قال : فلما جاء يوسف النجّار كلّمها فلم تتكلم ، فتكلّم عيسى فى حِجْرها وقال : يا يوسف ، أبشر وقَرّ عينًا وطِبْ نفسا ، فقد أخرجنى ربى من ظلمة الأرحام الى ضوء الدنيا ، وسآتى بنى إسرائيل وأدعوهم الى طاعة الله .

واختلف العلماء فى مدّة حمل مريم عليها السلام بعيسى ووقت وضعها إياه ، فقال بعضهم : كان تسعة أشهر كحمل سائر النساء ، وقيل : ثمانية أشهر ، وكان ذلك آية أخرى لأنه لم يعش مولود يوضع لثمانية أشهر غير عيسى ، وقيل : ستة أشهر ، وقيل : ثلاث ساعات ، وقيل ساعة واحدة . وقال ابن عباس : ما هو إلا أن حملت فوضعت ، ولم يكن بين الحمل والانتباذ إلا ساعة واحدة ؛ لأن الله تعالى لم يذكر بينهما فصلا . وقال مُقاتل : حملته مريم فى ساعة وصُوّر فى ساعة ووضعته فى ساعة حين زالت الشمس من يومها وهى بنت عشر سنين ، وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل بعيسى عليه السلام . قال : فانصرف يوسف الى زكريّا وأخبره بولادة مريم وكلام عيسى ، فازداد زكريّا غمّا لما يقوله الناس .

قال الثعلبىّ قال وهب : فلما وُلد عيسى عليه السلام أصبحت الأصنام كلها بكل أرض منكوسة على رءوسها ، ففَزِعت الشياطين ولم يدروا لم ذلك ، فساروا مسرعين حتى جاءوا إبليس وهو على عرش له فى لُجّة خضراء يتمثل بالعرش يوم كان على الماء ، فأتوه وقد خلت ستّ ساعات من النهار . فلمّا رأى إبليس جماعته فزع من ذلك ولم يرهم جميعا منذ فرّقهم قبل تلك الساعة إنما كان يراهم أشتاتا ، فسألهم ، فأخبروه أنه حدث فى الأرض حادث أصبحت الأصنام كلها منكوسةً على رءوسها ، ولم يكن شىء أعون على هلاك بنى آدم منها لما يدخل فى أجوافها فتكلّمهم وتدبّر أمرهم ، فيظنّون أنها هى التى تكلّمهم ، فلمّا أصابها هذا الحادث صغّرها فى أعيُن

بنى آدم وأذلّها . وقد خَشِينا ألّا يعبدوها بعد هذا . وٱعلم إنّا لم نأتك حتى أحصينا الأرض وقلبنا البحار وكل شيء ، فلم نزدد بما أردنا إلا جهلا . فقال لهم إبليس : إنّ هذا لأمرٌ عظيم ، فكونوا على مكانكم . وطار إبليس عند ذلك ولبث عنهم ثلاث ساعات ، فمرّ بالمكان الذى وُلد فيه عيسى عليه السلام . فلمّا رأى الملائكة مُحْدِقين بذلك المكان علم أنّ ذلك الحادث فيه ، فأراد إبليس أن يأتيه من فوقه فإذا فوقه رءوس الملائكة ومناكبهم الى السماء ، ثم أراد أن يأتيه من تحت الأرض فإذا أقدامُ الملائكة راسيةٌ ، فأراد أن يدخل من بينهم فنحَّوْه عن ذلك ، فرجع إبليس إلى أصحابه فقال : ماجئتكم حتى أحصيت الأرض كلها شرقها وغربها وبرّها و بحرها والخافِقَيْنِ والجوّ الأعلى ، وكل هذا بلغته فى ثلاث ساعات ، وأخبرهم بمولد عيسى عليه السلام وقال : ما ٱشتملت قبله أمّ على ولد إلّا بعلمى ، ولا وضعته قطّ إلّا وأنا حاضرها . وإنى لأرجو أن أُضِلّ به كثيرا ممن يهتدى ، وما كان نبيّ قبله أشدّ علىّ وعليكم من هذا المولود .

قال : ثم خرج من تلك الليلة قوم يؤمّونه من أجل نجم طلَع ، وكانوا قبل ذلك يتحدّثون أنّ مطلع ذلك النجم من علامات مولود فى كتاب دانِيَال ، فخرجوا يريدونه ومعهم الذهب والمُرّ واللُّبان ، فمرّوا بملك (١) من ملوك الشام ، فسألهم أين تريدون ؟ فأخبروه بخبرهم . قال : فما بال الذهب والمرّ واللُّبان أهديتموه له من بين الأشياء

(١) هو هيرودس الأكبر الذى حكم من ٤٠ — ٤ قبل الميلاد ، والتاريخ المسيحى متأخر عن وقته الأصل بأربع سنين ، ولذلك يكون ميلاد المسيح فى السنة الأخيرة من ملكه . وكان هيرودس هذا حديد الذهن قوىّ الارادة مشهورا بالحيل غير أنه كان عنيفا صارما لا يبالى الحق فى إجراء مقاصــده . (راجع الكتاب المقــدس ج ٣ ص ٣ وقاموس الكتاب المقــدس للدكتور بوست وتاريخ الطبرى ص ٧٤٠ من القسم الأول) .

كلها[1]؟ قالوا : تلك أمثاله ؛ لأن الذهب سيّد المتاع كله، وكذلك هذا النبيّ سيد أهل زمانه . ولأن المرّ يجبر به الكسر والجُرْح، وكذلك هذا النبيّ يَشْفِي الله تعالى به كل سقيم ومريض . ولأن اللُّبان يبلغ دُخَانه إلى السماء ولا يبلغها دُخان غيره ، وكذلك هذا النبيّ يرفعه الله تعالى إلى السماء ولا يرفع فى زمانه أحدا غيره . فلمّا قالوا ذلك للملك حدّثت نفسه بقتله فقال : اذهبوا، فإذا علمتم مكانه فأعلمونى ذلك فإنى راغب فى مثل ما رغبتم فيه من أمره . فانطلقوا حتى دفعوا ما كان معهم من تلك الهديّة إلى مريم ، وأرادوا أن يرجعوا إلى الملك ليعلموه بمكان عيسى ، فلقيهم مَلَكٌ فقال لهم : لا ترجعوا إليه ولا تعلموه بمكانه فإنه إنما أراد بذلك ليقتله ، فانصرفوا فى طريق آخر . وقال مُجاهد : قالت مريم عليها السلام : كنت إذا خلوت أنا وعيسى حدّثنى وحدّثته ، فإذا شغلنى عنه شىء سبّح فى بطنى وأنا أسمع .

قالوا : وكان مولد عيسى عليه السلام بعد مضىّ اثنتين وأربعين سنة من مُلْك أغوسطوس[2]، وخمسين سنة مضت من مُلك الأشغانين[3] ملوك الطوائف . وكانت المملكة لملوك الطوائف ، والرياسة بالشام ونواحيها لقيصر ملك الروم، والملك عليها من قِبَل قيصر هيرُودُس[4] ، وقيل فى اسمه هرادوس .

(١) هذه عبارة الثعلبي الذى ينقل عنه المؤلف . وفى الأصل : « ... ... أهديتموه بهذه الأشياء » .

(٢) كذا فى تاريخ الطبرى (ص ٧٤٠ من القسم الأوّل) . وفى الأصول : « أعسوطوس » وهو تحريف .

(٣) كذا فى تاريخ الطبرى (ص ٧٠٦ من القسم الأوّل) . وذكر الطبرى أن الأشغانين استمر ملكهم مائتى سنة وستين سنة . وفى الأصول : « الأسكانين » .

(٤) كذا فى كتاب المقدس (ج ٣ ص ٣) وقاموس الكتاب المقدس لبوست وتاريخ الطبرى ص ٧٤٠ من القسم الأوّل) . وفى الأصول : « هردوس » .

ذكر رجوع مريم بعيسى عليه السلام بعد مولده الى قومها

قال الكسائيّ : ثم قامت مريم بعد الولادة وحملت عيسى على صدرها حتى أشرفت به على بنى إسرائيل وزكريا بينهم . وقال الثعلبيّ قال الكلبيّ : احتمل يوسفُ مريمَ وعيسى الى غار فأدخلهما فيه أربعين يوما حتى تعالَّتْ(١) مريم من نفاسها، ثم جاء بهما فكلّمها عيسى فى الطريق فقال : يا أمّاه، أبشرى فإنى عبد الله ومسيحه . قال الله تعالى : ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾(٢) . فلما نظروا اليها بكَوْا و﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ أى عظيما فظيعا لا يُعرَف منك ولا من أهل بيتك ، وكانوا أهل بيت صالحين . ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ واختلف فى سبب قولهم لها « يا أخت هارون » ، فقال الكسائيّ : ناداها هارون وكان أخاها من أمّها ، وهو من أحبار بنى إسرائيل وعُبّادهم ، وقال لها : ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ ، فمن أين لك هذا الولد ! وقال الثعلبيّ قال قتادة : كان هارون رجلا صالحا من أتقياء بنى إسرائيل، وليس هارون أخا موسى . وقال وهب : كان هارون من أفسق بنى إسرائيل وأظهرهم فسادا، فشبّهوها به. ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ أى كلّموه. ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ ! ، وضربوا بأيديهم على جباههم تعجّبا، فتنحنح عيسى و﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ . قالوا : فلما سمع ذلك أحبار بنى إسرائيل علموا أنه لا أبَ له وأنّ الله تعالى خلقه كما خلق آدم . فقال زكريا : الحمد لله الذى برّأنا بقول عيسى من فُسّاق بنى إسرائيل . قالوا : ثم لم يتكلم عيسى بعدها حتى كان بمنزلة غيره من الصبيان . وقيل غير هذا . والله أعلم .

(١) تعالّت المرأة من نفاسها : خرجت منه وطهرت . (٢) سورة مريم آية ٢٧ وما بعدها .

ذكر خروج مريم وعيسى عليهما السلام إلى مصر

٥٦/١٢ وما ظهر له من المعجزات فى مسيره ومدّة مُقامه إلى أن عاد

قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾(١) . اختلف العلماء فى الرُّبوة فقال عبد الله بن سَلَام : هى دمشق . وقال أبو هريرة : هى الرَّملة . وقال قَتَادة وكعب : هى بيت المقدس . وقال كعب : هى أقرب الأرض إلى السماء . وقال أبو زيد : هى مصر . وقال الضحّاك : هى غُوطَة دمشق . وقال أبو العالية : هى أيلة . وقال بعض المفسرين : هى قرية من قرى مصر تسمى سَدَمَنْت . وسَدَمَنْت : بلد من بلاد إقليم الفيوم معروفة مشهورة . وقوله تعالى : ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ القرار : الأرض المستوية . والمعين: الماء الظاهر . وكان سبب خروج مريم إلى مصر ما حكاه الكسائىّ وغيره من أهل السير قالوا : وبلغ الملك هِيرُودُس خبر عيسى فهمّ بقتل مريم وٱبنها ، فخاف زكريا والمؤمنون عليهما من القتل ، وذلك بعد مولد عيسى بأيام قلائل ، فقال زكريا لمريم : إنى أخاف عليك وعلى ٱبنك من هذا الملك ، وأمر يوسف النجار أن ينقلهما إلى أرض مصر ، وأعطاهما أتانا و زوّدهم ، فسار يوسف بهما نحو مصر .

***

وكان من المعجزات التى ظهرت على يَدَىْ عيسى عليه السلام فى مسيره ومُقامه بمصر أنه بينما هم سائرون إلى أرض مصر رأى يوسف النجّار فى بعض الطريق أسدا ففزع منه ، فقال عيسى : قرّبانى إلى الأسد ولا تقرَباه أنتم ، فقرّبوه ، فلما صار بين يَدَىِ الأسد قال عيسى : أيها الوحش ، ما وقوفك على قارعة الطريق؟ قال : لثور

(١) سورة المؤمنون آية ٥٠ .

يمز عليّ لا بدّ لى منه . قال عيسى : هذا الثور لقوم مساكين ليس لهم سواه ، ولكن انطلق الى بريّة كذا وكذا ، فإنك سترى جملا ميّتا فكُلْه ، واترك هذا الثور لأصحابه ، فمضى الأسد نحو الميتة وتركهم . والله أعلم بالصواب .

معجزة أخرى :

قال : ثم ساروا ، فرأوا قوما قد اجتمعوا بالقُرب من دار ملك من الملوك . فقال لهم عيسى : ما وقوفكم هاهنا ؟ . قالوا : امض أيها الصبيّ لشأنك . قال : أتحبّون أن أخبركم بوقوفكم ؟ قالوا نعم . قال : إنكم تريدون دخول هذه الدار اذا جنّ الليل فتأخذون مال هذا الملك ، فلا تفعلوا فإنه مؤمن ، ودلّهم على كنز وقال : إنه كان لقوم ماتوا ، فسار أولئك إليه واقتسموا منه مالا عظيما .

معجزة أخرى :

قال : ثم ساروا حتى دخلوا قرية عامرة وقد اجتمع الناس على باب ملكها ومعهم صنم من حجر وهم يبكون و يسجدون لذلك الصنم . فقال عيسى : ماشأنكم أيها القوم؟ فقالوا : إنّ امرأة هذا الملك قد عسُر عليها وضع الولد ، وقد أمرنا الملك أن نسجد لهذا الصنم ونسأله أن يخفّف عنها ما هى فيه . قال عيسى : اذهبوا الى الملك وقولوا له : لو وضعتُ يدى على بطنها يخرج الولد عاجلا . فأخبروا الملك فقال : ائتونى به ، فأدخلت مريم وعيسى على الملك ، فعجب من نطقه وهو صغير ، وأدخل على المرأة ، فقال عيسى : إن أخبرتك بما فى بطنها وخرج كما أقول أتؤمن بربّى الذى خلقنى من روحه؟ . قال نعم . قال عيسى : فى بطنها غلام على خدّه خال أسود ، وعلى ظهره شامة بيضاء ، ثم وضع يده على بطن المرأة وقال : أيها الجنين ، بالذى خلق الخلق وأسبغ عليهم سعة الرزق اُخرُج . فخرج الولد على ما وصفه عيسى

فهمّ الملك أن يؤمن، فقال وزراؤه : إنّ هذه المرأة ساحرة، وهذا الصبيّ مثلها، وقد طردوهما من بيت المقدس، ولم يزالوا به حتى ردّوه عن الإيمان . فأرسل الله تعالى على الملك وقومه صاعقة فأهلكتهم . ثم مضى يوسف بهما حتى دخلوا مصر، ونزلت مريم دار دِهقان[1] هناك، ولم يكن لها ما تعيش منه إلّا الغَزْل، فكانت تغزل الكَتّان والصوف بالأُجرة لأهل مصر، ويوسف يحتطب ويبيع الحطب مدّة ليس لهم رزق إلا من ذلك.

معجزة أخرى :

٥٧/١٢ قال الثعلبيّ قال وهب : كان أوّل آية رآها النـاس من عيسى أنّ أمه كانت نازلة فى دار دِهقان من أهل مصر أنزلها به يوسف النجّار حين ذهب بها إلى مصر، وكانت داره يأوِى إليها المساكين، فسُرِق للدّهقان مال من خزانته فلم يتّهم المساكين، فحزنت مريم لمصيبة الدهقان . فلمّا رأى عيسى حُزْن أمّه بمصيبة صاحب ضيافتها قال لهـا : يا أمّاه ، أتحبّين أن أدلّه على ماله؟ قالت : نعم يا بنىّ . قال: قولى له يجمـع لى مساكين داره . فقالت مريم ذلك للدهقان، فجمع له المساكين . فلمـا اجتمعوا عمَد إلى رجلين منهم أحدهما أعمى والآخر مُقعَد ، فحمل المقعد على عاتق الأعمى وقال له : قُم به . فقال الأعمى : أنا أضعف من ذلك . فقـال عيسى : وكيف قويت على ذلك البارحة! . فلمّا سمعوه يقول ذلك ضربوا الأعمى حتى قام. فلما استقلّ قائمـا هوى المُقعَد إلى كُوة الخزانة . فقال عيسى عليـه السلام : هكذا احتالا على مالك البارحة، لأن الأعمى استعان بقوّته والمقعد بعينيه . فقال المقعد والأعمى : صدق، فردّا على الدهقان ماله . فقال الدهقان لمـريم : خذى نصف المـال . فقالت : إنى لم أُخلق لهـذا . قال : فأعطه ابنـك . قالت : هو أعظم منى شأنا . والله أعلم بالصواب .

---

(١) الدهقان : التاجر أو رئيس الإقليم .

معجزة أخرى :

قال : ثم لم يلبث الدهقان أن أعرس آبنا له ، فصنع له عيدا لجمع عليه أهل مصر وكان يُطعمهم شهرين . فلمّا انقضى ذلك زاره قوم من أهـل الشام ولم يعلم الدهقان بهم حتى نزلوا به وليس عنده يومئذ شراب . فلمّا رأى عيسى آهتمامه بذلك دخل بيتا من بيوت الدهقان فيه جرار ، فأمرّ عيسى يده على أفواهها وهو يمشى ، فكلّما مرّ بيده على جرّة امتلأت شرابا حتى أتى على آخرها ، وهو يومئذ ابن آثنتى عشرة سنة .

معجزة أخرى :

قال : وبينـا عيسى يلعب مع الصبيان بأرض مصر ، إذ وثب غلام منهم على غلام آخر فقتله . فجاء أهله وتعلّقوا بجميع الصبيان وفيهم عيسى وأتوا بهم الى القاضى . فقال القاضى : مَن قتل هذا ؟ قالوا : هذا ، وأشاروا إلى عيسى . فقال له القاضى : لم قتلتَ هـذا الغلام ؟ قال : أراك حاكما جاهلا ، كان يجب أن تسألنى : أقتلتـه أم لا ! قال القاضى : أراك ذا عقل ، فـا آسمك ؟ قال : عيسى بن مريم . قال : يا عيسى ، لم قتلتَه ؟ قال : ياجاهل ، أبهذا أمرتك ؟ ثم دنا عيسى من الغلام وقال : قم بإذن الله ألذى يحيى العظـام وهى رميم ، فآستوى جالسا وقال له : مَن قتلك ؟ قال : قتلنى فلان بن فلان ، وهذا عيسى بن مريم برىء من دمى . فعجب الناس من ذلك وقتلوا قاتل الغلام ، وأخذت مريم بيد عيسى وآنطلقت .

معجزة أخرى :

قال : وأتت به أمه الى معلّم ليعلّمه ، فقال : إنّ ربى قد أغنانى عن تعليم المعلّمين وقد علّمنى التوراة والإنجيل . قالت : صدقتَ ، ولكن تكون عند معلّم خير من أن تلعب مع الصبيان . فأتت به الى معلّم يعلّمه ، فعلّمه عيسى . قال الثعلبىّ : وروى

محمد الباقر رحمه الله قال : لمـا وُلد عيسى عليه السلام كان آبنَ يوم كأنه آبن شهر، فلمّا كان آبنَ تسعة أشهر أخذت والدته بيـده وجاءت به الى كتّاب وأقعدته بين يدَي المؤدّب . فقال له المؤدّب : قل : « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ » فقالهـا عيسى عليه السلام . فقال المؤدّب : قل : أبجد، فرفع عيسى رأسه وقال للمؤدّب : هل تدرى ما أبجد؟ فعلاه ليضربه . فقال : يا مؤدّب، لا تضربنى، إن كنت تدرى وإلّا فسَلْنى حتى أُفسّر لك . فقال : فسِّره لى . فقال عيسى عليـه السلام : الألف آلاء الله، والباء بهجة الله، والجيم جلال الله، والدال دين الله . هوّز، الهاء هى جهنم وهى الهاوية، والواو ويل لأهل النار، والزاى زفير جهنم . حُطِّى، حُطّت الخطايا عن المستغفرين . كَلَمُن، كلام الله غير مخلوق لا مبدّل لكلماته . سعفص، صاع بصاع ٥٨/١٢ والجزاء بالجزاء . قَرَشَتْ تقرشهم حين تحشرهم، أى تجمعهم . فقال المؤدّب لأمه : أيتها المرأة، خذى بيد آبنك فقد عُلِّم ولا حاجة له الى مؤدّب . وقال سَعيد بن جُبَير : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنّ عيسى عليه السلام أرسلته أمه الى الكُتّاب ليتعلّم، فقال له المعلّم قل بسم الله الرحمن الرحيم فقال وما باسم الله . قال لا أدرى . قال الباء بهاء الله والسين سناء الله والميم مملكته" . والله أعلم الموفّق .

معجزة أخرى :

قال الكسائى : وآنطلقت به أمّـه إلى صبّاغ ليعلّمه صنعة الصباغة . فأخذه الصبّاغ وأمره أن يمـلأ التّيغارات(١) من تيغار كبير، وناوله أصباغا وأمره أن يجعل فى كل تيغار صِبغًا، وأن يصبُغَ الثياب فى تلك التيغارات على آختلاف ألوانها، وفارقه الصبّاغ وخرج إلى منزله . فعمَد عيسى إلى تيغار واحد وملأه ماء وأخذ جميع تلك

(١) فى كتب اللغـة : التيغار : الإجانة (بكسر الهمزة وتشـديد الجيم) . والإجانة : إناء تغسل فيه الثياب جمعه أجاجين .

الأصباغ بجعلها فيه، ووضع جميع تلك الثياب فيه وانصرف إلى أمه . فلما كان من الغد جاء الصبّاغ إلى الحانوت فنظر إلى ما فعله عيسى، فقال له : يا عيسى أهلكتني وأفسدت ثياب الناس . قال عيسى : ياصبّاغ، ما دينك؟ قال : دين اليهود . قال : قل : لا إله إلا الله وأنّي عيسى رُوح الله، وأدخل يدك في هذا التيغار وأخرج كل ثوب على ما تريد . فآمن الصبّاغ بالله و بعيسى عليه السلام وأدخل يده فأخرج كل ثوب على ما أراده أصحابه . قال : وظهر لعيسى بمصر معجزات كثيرة .

ذكر خبر زكريا عليه السلام
مع هيرودس الملك وما كان من أمره

قال الكسائيّ : ولمّا كان من أمر عيسى عليه السلام وكلامه ما قدمناه وتنكّست الأصنام ليلة مولده، جاء إبليس لعنه الله إلى الملك في صورة شيخ وقال له : أيها الملك، إن لك عندي نصيحة فاخْلُ معي . فخلا به وقال : ما نصيحتك؟ قال : قد بلغك ما كان من شأن المولود الذي تكلم في المهد . قال نعم . قال : وقد رأيتَ ما حلّ بالأصنام من شؤم مولده، و إنه لخليق أن يشمَل الأرض كلها بشؤمه، وأنت فلا يمكنك قتله الآن لخروجه من بلادك، وأرى أن تفعل أمرا يتشاءم الناس بسببه بهذا المولود ويُعينوك على قتله، وأنت مع ذلك تطلبه، فإن ظفرتَ به ذبحته . قال الملك : فما الذي رأيت؟ فلعمري لقد وقع في نفسي إنك لخليق أن يكون عندك رأي ومكيدة . قال : تذبح الولدان، فإن ذلك يبغضه إلى الناس و يتشاءمون به فيكفونك أمره . قال : لقد أتيت بالأمر على وجهه، وأمر بذبح الولدان من سنتين فما دونهما، فوقع الذبح في صبيان بني اسرائيل . قال : ثم انطلق إبليس إلى مجالس بني إسرائيل و نواديهم يقول : الفاحشة في مريم و يقذفها بزكريا، يعرّض

بذلك لخيارهم ، ويبوح به ويصرح لشرارهم ، حتى شاعت الفاحشة على زكريا . فلما رأى زكريا ذلك هرب وآتبعه سفاؤهم وشرارهم ، وسلك فى واد كثير النبت ، حتى اذا توسّط الوادى انفرجت له شجرة فدخلها وأقبل القوم فى طلبه ، وإبليس يقدُمهم حتى أوقفهم عليه وهو فى الشجرة وقد آلتحمت عليه ، فأشار عليهم بقطعها ، فقُطعت . ثم قال لهم : أىّ العقوبة والنكال أبلغ فى هذا الذى أورث آباءكم الطيبين إبراهيم و إسحاق و يعقوب وذرّيتهم من بعدهم الفضيحة والعار؟! . قالوا : القتل أو النشر . فأشار عليهم بنشره ، فنشروه نصفين ثم آنصرفوا عنه ، وغاب عنهم إبليس لعنه الله . و بعث الله تعالى الملائكة فغسلوا زكريّا وصلّوا عليه ثلاثة أيام ثم دفنوه . وقد قيل فى مقتل زكريا غير هذا ، وقد تقدّم فى أخباره . والله أعلم .

٥٩/١٢

ذكر رجوع عيسى ومريم عليهما السلام من مصر

قال الكسائىّ قال وهب : وأقامت مريم وآبنها عيسى بمصر آثنتى عشرة سنة حتى أهلك الله الملك هيرُودُس . قال : وأوحى الله تعالى إلى مريم بهلاك الملك وأمرها أن ترجع إلى بلادها بالشام ، فجاء يوسف النجار فرجع بها . فلم تزل هى وآبنها يسكنان بجبل الخليل بقرية يقال لها الناصرة (١) ، وبها سمّيت النصارى وبها آبتُدعت النصرانية . قال : ثم أوحى الله تعالى إلى عيسى بعد أن تمت له ثلاثون سنة أن يبرز إلى الناس ويدعوهم إلى الله تعالى ، وأنزل عليه الإنجيل . فكان يسير فى البلاد ويدعو

---

(١) كذا فى معجم البلدان لياقوت والكتاب المقدس (ج ٣ ص [illegible]) ؛ وهى مدينة اشتهرت بكونها وطن المسيح مدة طفولته وصباه إلى أن ابتدأت خدمته ، وهى تبعد ١٤ ميلا عن بحر الجليل و ٦ أميال عن تابور و ٦٦ ميلا عن أورشليم . وفى الأصول : « نصورية » .

الناس إلى الله عز وجل، ويرغّبهم فيما عنده، ويزهّدهم فى الدنيا ويضرب لهم أمثالا، ويداوى المرضى والزّمنى[1]، ويبرئ الأكمه والأبرص. فأحبّه الناس وسكنوا إليه، وكثرت أتباعه حتى آمتنع وعلا أمره. ثم أحيا الموتى بإذن الله تعالى.

قالوا: وربما آجتمع عليه من المرضى والزّمنى فى الساعة الواحدة خمسون ألفا، فمن أطاق منهم أن يبلغه بلغه، ومن لم يقدر على ذلك أتاه عيسى يمشى إليه. وإنما كان يداويهم بالدعاء بشرط الإيمان.

ذكر خبر الحواريّين[2]

حين آتبعوا عيسى عليه السلام وآمنوا به

قال الكسائىّ رحمه الله: ومرّ عيسى على قوم يصيدون السمك وهم أربعة: شمعون، وأخ له آسمه أندريوس، ويعقوب، ويوحنّا. فوعظهم وزهّدهم فى الدنيا ووعدهم الجنة ونعيمها فآمنوا به وآتّبعوه. قال: ومرّ بطائفة أخرى فوجدهم على نهر يغسلون الثياب، منهم لوقا، وتوما، ومرقوس، ويوحنّا، وأخوان لهم صبيّان لم يبلغا الحلم، أحدهما شمعون والآخر يعقوب. وقيل فى أسمائهم غير هذا. والله تعالى أعلم. فقال لهم عيسى: يا قوم، إنكم تقصّرون هذه الثياب وتنظّفونها من أوساخها، فلم لا تفعلون ذلك مع قلوبكم! . ثم قال لهم: إنّى رسول الله إليكم جميعا، وبشّرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿ومبشّرا برسول يأتى من بعدى آسمه أحمد﴾[3]

---

(١) الزمنى: أصحاب العاهات.

(٢) الحواريون: سموا بذلك لبياض ثيابهم، وكانوا قصارين وصباغين. وهم خاصة الأنبياء ودخلاؤهم وأنصارهم كما قال تعالى: «من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله» وقال عليه الصلاة والسلام: "لكل نبىّ حوارىّ وحوارىّ الزبير". وأسماؤهم كما فى الكتاب المقدّس (ج ٣ ص ١٦) سمعان وأندراوس ويعقوب بن زبدى ويوحنّا وفيلبس وبرتلماوس وتوما ومتّى العشّار ويعقوب آبن حلفى وتدّاوس وسمعان القانوىّ ويهوذا الإسخريوطىّ.

(٣) سورة الصف آية ٦

قال : فآمنوا به وآتبعوه، وكانوا كلهم آثنى عشر رجلا، أربعة منهم كانوا يصيدون السمك، وثمانية يقصّرون الثياب . وكان من القصّارين رجل أسفلَ النهر يقال له يوذا[1] لم يسمع كلام عيسى. فلمّا رأى أصحابه اتّبعوه لحق بهم، وهو الذى ارتدّ بعد ذلك ودلّ اليهود على عيسى، فصاروا به قبل آرتداده ثلاثة عشر.

ذكر الخصائص والآيات والمعجزات

التى أظهرها الله تعالى على يد عيسى عليه السلام بعد مبعثه

قال الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾[2] الآيات . قوله تعالى : ﴿اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ قال الحسن : ذكر النعمة : شكرها، وأراد بقوله : ﴿ نِعْمَتِي ﴾ نعمى، كقوله تعالى : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾[3] . ثم ذكر تعالى النعم فقال : ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ وقال : ﴿ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾[4] . وآختلفوا فى روح القدُس ماهو ؟ فقال الربيع بن أنس : هو الرُّوح الذى نفخ فيه، أضافه سبحانه الى نفسه ٦٠/١٢

---

(١) اسمه « يهوذا الإسخريوطى » كما فى الكتاب المقدّس (ج ٣ ص ٨٥) .

(٢) سورة المائدة آية ١١٠ (٣) سورة ابراهيم آية ٣٤ (٤) سورة البقرة آية ٨٧ وورد فى الجامع لأحكام القرآن للقرطبي عن روح القدس ما نصه : أنه جبريل عليه السلام وهو الأصح . قال النحاس : يسمى جبريل روحا وأضيف إلى القدس لأنه كان بتكوين الله عزّ وجلّ له روحا من غير ولادة والد ولده ؛ وقال حسّان :

وجبريل رسول الله فينا ✻ وروح القدس ليس به خفاء

(راجع ج ٢ ص ٢٤ من الطبعة الثانية وج ٦ ص ٣٦٢ من الطبعة الأولى) .

تكرُّما وتخصيصا ، نحو : بيت الله ، وناقة الله . والقدس : هو الله تعالى يدلّ عليه قوله : ﴿ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾ (١) . وقال آخرون : أراد الله تعالى بالقدس : الطهارة ، يعنى الروح الطاهرة ، سمّى روحه قدسا لأنه لم تتضمنه أصلاب الفحولة إنما كان أمرا من الله تعالى . وقال السُّدّى وكعب : روح القدس هو جبريل ، وتأييد عيسى بجبريل عليهما السلام هو أنه كان رفيقه وقرينه يُوحى اليه ويعينه ويسير معه حيثما سار الى أن صَعِد به الى السماء . وقال سعيد بن جُبَير وعُبيد بن عُمير : هو اسم الله الأعظم ، وبه كان يُحيى الموتى ويُرى الناس تلك العجائب . وقوله : ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ ﴾ يعنى الخطّ ، ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ يعنى العلم والفهم . ﴿ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ كان يقرؤهما من حفظه . وقوله : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ﴾ . قوله : ﴿ تَخْلُقُ ﴾ أى تجعل وتصوّر وتقدّر ﴿ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ﴾ أى كصورة الطير . فكان عيسى يصوّر من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيصير طيرا بإذن الله تعالى . قالوا : ولم يخلُق غير الخُفّاش . وانما خُص بالخُفّاش لأنها أكمل الطير خَلْقا ، فتكون أبلغ فى القُدرة ، لأن لها ثديا وأسنانا ، وهى تَلِد وتحيض وتطهر . قال وهب : كان يطير ما دام الناس ينظرون اليه ، فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتا ليتميّز فعل الخلق من فعل الله تعالى ، وليعلم أنّ الكمال لله عز وجل . وقوله تعالى : ﴿ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ﴾ . الأكمه : الذى وُلد أعمى ولم ير الضوء قط . قالوا : ولم يكن فى الإسلام أكمه غير قَتَادة . والأبرص : الذى به وَضَح ، وكان الغالب على زمن عيسى الطبّ ، فأراهم الله تعالى المعجزة من جنس ذلك .

(١) سورة التحريم آية ١٢

قال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله : يروى أنّ عيسى عليه السلام مرّ بدير فيه عُميان، فقال : ما هؤلاء ؟ فقيل: هؤلاء قوم طُلبوا للقضاء فطمسوا أعينهم بأيديهم . فقال لهم : ما دعاكم الى هذا ؟ فقالوا : خفنا عاقبة القضاء فصنعنا بأنفسنا ما ترى . فقال : أنتم العلماء والحكماء والأحبار والأفاضل ، امسحوا بأيديكم أعينكم وقولوا : باسم الله . ففعلوا ذلك فإذا هم جميعا يبصرون .

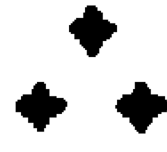
ذكر خبر سام بن نوح وغيره
الذين أحياهم عيسى بإذن الله عزّ وجلّ

قال الكسائيّ قال وهب : سألتْ طائفة من بنى اسرائيل عيسى بن مريم عليه السلام أن يُحيي لهم سام بن نوح وقالوا : أَحْيِ[1] لنا سام بن نوح ليكلّمنا وإلّا قتلناك ، وإن فعلتَ آمنّا بك واتّبعناك . فأوحى الله تعالى اليه : نادِه ثلاث مرّات فإنه سيُجيبك. فقام عيسى على قبره وناداه ثلاث مرات : يا سام بن نوح قم بإذن الله ، فقام فى الثالثة وهو أشمط[2] الرأس واللحية . فقال له عيسى : أهكذا متّ أبيض الرأس واللحية ؟ قال : لا ، ولكنّى سمعت نداءك فخفت أن تكون القيامة فشَمِطتُ ، وأخبر القومَ بما أرادوه وكلّمهم ، ثم ردّه عيسى الى قبره ، وما آمن بعيسى منهم إلّا قليل .

---

(١) وعبارة الكسائى : « فقالوا : أحى لنا سام بن نوح وسام بوصفة فى تابوت من حجر . قال : فوثب عيسى وتوضأ وصلى ركعتين ... الخ » وعبارة الثعلبى : « قال له الحواريون وهو يصف لهم سفينة نوح عليه السلام : لو بعثت لنا من شهد السفينة فيصف لنا ذلك ... الخ » . وردت العبارة فى الأصول مضطربة .

(٢) الأشمط : من خالط بياض رأسه سواد .



قالوا : وممن أحياه عيسى بن مريم العازر ، وكان صديقا له ، فأرسل أخته الى عيسى إن أخاك العازر يموت فأته ، وكان بينه وبين أن يصل إليه مسيرة ثلاثة أيام ، فأتاه هو وأصحابه فوجدوه قد مات منذ ثلاثة أيام ، فقال لأخته : انطلق بنا الى قبره ، فأنطلقت معهم الى قبره وهو فى صخرة مُطْبِقَة . فقال عيسى : اللهمّ ربّ السموات السبع والأرضين السبع إنك أرسلتَنى الى بنى اسرائيل أدعوهم الى دينك وأخبرتُهم أنى أُحيِى الموتى بإذنك فأَحْيِ العازر . فقام العازر وأوداجه تقطُر . فخرج من قبره وبقى ووُلِد له .

[١١/٢] قالوا : ومرّ عيسى عليه السلام برجل جالس على قبر وكان يكثر المرور به فيجدُه جالسا عنده ، فقال له : يا عبد الله ، أراك تكثر القعود على هذا القبر . فقال : ياروح الله ، آمرأة كانت لى وكان من جمالها وموافقتها كيت وكيت ولى عندها وديعة . فقال عيسى : أتحبّ أن أدعو الله تعالى فيحييها ؟ قال نعم . فتوضّأ عيسى وصلّى ركعتين ودعا الله عز وجل فإذا أسود قد خرج من القبر كأنه جِذْع محترق . فقال له : ما أنت ؟ قال : يا رسول الله أنا فى عذاب منذ أربعمائة سنة ، فلما كانت هذه الساعة قيل لى أجِبْ فاجبتُ . ثم قال : يا رسول الله ، قد مرّ علىّ من أليم العذاب ما إن ردّنى الله الى الدنيا أعطيته عهدا ألّا أعصيه ، فأدعُ الله لى . فرقّ له عيسى ودعا الله عز وجل ثم قال له : امض ، فمضى . فقال صاحب القبر : يارسول الله ، لقد غلطت بالقبر ، إنما قبرها هذا . فدعا عيسى عليه السلام ، فخرج من ذلك القبر امرأة شابّة جميلة . فقال له عيسى : أتعرفها؟ قال : نعم هذه آمرأتى . فدعا عيسى حتى ردّها الله عليه . فأخذ الرجل بيدها حتى انتهيا الى شجرة فنام تحتها ووضع رأسه فى حجر المرأة . فمرّ بهما آبن ملك فنظر اليها ونظرت اليه وأُعجب كل

واحد منهما بصاحبه ، فأشار اليها فوضعت رأس زوجها على الشجرة وآتّبعت آبن الملك . فاستيقظ زوجها ففقدها وطلبها فدُلّ عليها ، فأدركها وتعلّق بها وقال : آمرأتى ، وقال الفتى : جاريتى . فبينما هم كذلك إذ طلع عيسى فقال الرجل : هذا عيسى وقصّ عليه القصّة . فقال لها عيسى : ما تقولين ؟ قالت : أنا جارية هذا ولا أعرف هذا . فقال لها عيسى : ردّى علينا ما أعطيناك . قالت : قد فعلت . فسقطتْ مكانها ميّتة . فقال عيسى : هل رأيتم رجلا أماته الله كافرا ثم بعثه فآمن ! . وهل رأيتم آمرأة أماتها الله مؤمنة ثم أحياها فكفرت ! .

قالوا : ومرّوا بميّت على سرير، فدعا عيسى الله تعالى، فجلس الميّت على السرير ونزل عن أعناق الرجال ولبس الثياب وحمل السرير على عنقه ورجع إلى أهله و بقى ووُلِد له .

وممن أحياه عيسى بإذن الله تعالى آبنة العازر ، قيل له : أتحييها وقد ماتت بالأمس ! فدعا الله عز وجل ، فعاشت وبقيت ووُلدت .

قال الكسائى : وسأل بنو إسرائيل عيسى عليه السلام أن يُحيى لهم عُزَيرا ، فقال : التمسوا قبره فالتمسوه ، فوجدوه فى صندوق من حجر ، فعالجوه ليفتحوا بابه فلم يستطيعوا ذلك . فرجعوا الى عيسى وأخبروه أنهم عجزوا أن يُخرجوه من قبره ، فأعطاهم ماء فى إناءٍ وقال : انضَحوه بهذا الماء فإنه ينفتح . فآنطلقوا ونضحوه بالماء فآنفتح طابقه . فأقامه عيسى فى أكفانه فنزعها عنه ، ثم جعل ينضح جسده بالماء ولحمه ينبت وشعره وهم ينظرون . ثم قال عيسى : يا عُزَير احْىَ بإذن الله ، فإذا هو جالس . فقالوا : ما شهادتك على هذا الرجل ؟ فقال عزير : أشهد أنه روح الله وكلمته ألقاها الى مريم وأنه عبد الله ونبيّه وآبن أمته . قالوا : ياعيسى ، ادعُ ربك يحييه لنا فيكون بين أظهرنا . فقال عيسى : ردّوه الى قبره فإنه انقطع رزقه وآنقضى أجله ، فردّوه الى قبره .

ومن معجزاته عليه السلام إخباره عن الغيوب

قال الله عز وجل إخبارا عنه: ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(١) . قالوا : لما أبرأ عيسى عليه السلام الأكمه والأبرص وأحيا الموتى بإذن الله قالوا له : إنك تزعم أنك تخبرنا بما نأكل فى بيوتنا وما ندّخر . قال نعم . قالوا : فإنّا نجمع خيارنا وأحبارنا ورهباننا فنأمرهم أن يأكلوا ويدّخروا فى بيوتهم ثم نأتيك فتخبرنا . قال نعم . فانطلقوا الى بيوتهم وأكلوا وآدّخروا وأقبلوا اليه من الغد ، وسأله كل رجل منهم وهو يخبره بما أكل وآدّخر .

ومما أخبر به عيسى عليه السلام من المغيّبات قصّة آبن العجوز . وكان من خبره ما حكاه أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله أن عيسى عليه السلام مرّ فى سياحته ٦٢/١٢
بمدينة ومعه الحواريّون ، فقال : إنّ فى هذه المدينة كنزا ، فمن يذهب فيستخرجه ؟ . قالوا : يا روح الله ، لا يدخل هذه القرية غريب إلّا قتلوه . فقال لهم : مكانكم حتى أعود اليكم ، ومضى حتى دخل المدينة فوقف بباب فقال : السلام عليكم يأهل الدار ، غريب أطعموه . فقالت له آمرأة عجوز : أمَا ترضى أن أدعَك لا أذهب بك الى الوالى حتى تقول أطعمونى شيئا ! . فبينا عيسى بالباب إذ أقبل آبن العجوز فقال له عيسى : يا عبد الله ، أضفنى ليلتك هذه . فقال له الفتى مثل مقالة العجوز . فقال له عيسى : أمَا إنك لو فعلت ذلك زوّجتك بنت الملك . فقال له الفتى : إمّا أن تكون مجنونا ، وإمّا أن تكون عيسى بن مريم . قال : أنا عيسى . فأضافه وبات عنده . فلما أصبح قال له : اغدُ وآدخل على الملك وقل له : جئت أخطب آبنتك فإنه سيأمر بضربك وإخراجك . فمضى الفتى حتى دخل على الملك وقال له :

(١) سورة آل عمران آية ٤٩

جئت أخطب إليك ابنتك ، فأمر به فضُرب وأخرج . ورجع الفتى إلى عيسى فأخبره ، فقال له : إذا كان الغد فاذهب إليه واخطُب إليه فإنه ينالك بدون ذلك . ففعل ما أمره عيسى ، فضربه الملك دون ذلك . فرجع الى عيسى فأخبره ، فقال : إرجع اليه واخطبها فإنه سوف يقول لك : إنى أُزوّجك إياها على حُكْمى ، وحُكْمى قصر من ذهبٍ وفضّة ، وما فيه من فضّة وزَبَرْجَد ، فقُلْ له : أفعَلُ ذلك . فاذا بعث معك فاخرج فإنك سوف تجده فلا تُحدِث فيه شيئا . فدخل عليه فخطب اليه ، فقال : تُصدِقها حُكْمى ؟ فقال : وما حكمك ؟ فحَكَم الذى سمّى [له] (١) عيسى . فقال له : نعم ، ابْعَثْ مَن يقبض ذلك . فبعث معه [قوماً] (١) ، فدفع اليهم ما سأله الملك . فعجب الملك من ذلك وسلّم اليه ابنته . فتعجّب الفتى وقال لعيسى : ياروح الله ، تقدر على مثل هذا وأنت على مثل هذه الحال ! . قال عيسى : لأنى آثرت ما يبقى على هذا الفانى . فقال الفتى : وأنا أدعه وأصحبك . فتخلّى من الدنيا واتّبع عيسى . فأخذ بيده وأتى أصحابه وقال : هذا هو الكنز الذى قلت لكم . فكان ابن العجوز مع عيسى حتى مات . والله أعلم .

ذكر خبر يجمع عدّة معجزات من معجزات عيسى عليه السلام

حكى أبو إسحاق الثعلبىّ رحمه الله قال وَهْب : خرج عيسى عليه السلام يسيح فى الأرض ، فصحبه يهودىّ ، وكان مع اليهودىّ رغيفان ، ومع عيسى رغيف . فقال له عيسى : تشاركنى فى طعامك ؟ قال اليهودىّ نعم . فلمّا رأى اليهودىّ أنّ عيسى ليس معه إلّا رغيف واحدٌ ندم . فقام عيسى الى الصلاة فأكل اليهودىّ رغيفا . فلما قضى عيسى صلاته قدّما طعامهما ، فقال عيسى لليهودىّ : أين الرغيف الآخر؟

(١) الزيادة عن الثعلبىّ .

فقال : ما كان إلّا رغيف واحد، فأكل عيسى رغيفا وصاحبُه رغيفا، ثم ٱنطلقا فجاءا الى شجرة، فقال عيسى لصاحبه : لو أننا بتنا تحت هذه الشجرة! . فناما ثم أصبحا . فٱنطلقا فلقيا أعمى، فقال له عيسى : أرأيتَ إن عالجتك حتى ردّ الله عليك بصرك هل تشكره؟ قال نعم . فمسّ عيسى عليه السلام بصره ودعا الله تعالى فإذا هو صحيح . فقال عيسى لليهوديّ : بالذى أراك الأعمى بصيرا كم كان معك من رغيف؟ فقال : والله ما كان إلّا رغيف واحد ، فسكت عيسى عنه . ومرّا فإذا هما بمُقعد ، فقال له عيسى : أرأيتَ إن عالجتك فعافاك الله تعالى هل تشكره ؟ قال بلى . فدعا الله عيسى فإذا هو صحيح قائم على رجليه . فقال صاحب عيسى : ما رأيتُ مثل هذا قط! . فقال عيسى : بالذى أراك الأعمى بصيرا والمُقْعَد صحيحا، مَن صاحب الرغيف الثالث؟ فحلف له اليهوديّ ما كان معه إلّا رغيف واحد، فسكت عيسى . وٱنطلقا حتى ٱنتهيا الى نهر عَجّاج جرّار، فقال عيسى : لا أرى جسرا ولا سفينة، فخذ بحُجْزتى[(١)] من ورائى وضع قدمك موضع قدمى، ففعل ومشيا على المـاء . فقال له عيسى : بالذى أراك الأعمى بصيرا والمقعد صحيحا وسخّر لك هـذا البحر حتى مشيت عليه، مَن صاحب الرغيف الآخر؟ فقال : لا والله ما كان إلّا رغيف واحد، فسكت عيسى . وٱنطلقا فإذا هما بظباء يرعَيْن، فدعا عيسى بظبى فأتاه فذبحه وشـوى منه بعضا وأكلاه، ثم ٦٣/١٢
ضرب عيسى بقية الظبى بعصاه وقال : قُم بإذن الله عز وجل فإذا الظبى يعدو . فقال الرجل : سبحان الله ! . فقال عيسى : بالذى أراك هذه الآية، مَن صاحب الرغيف الآخر؟ فقال : ما كان إلّا رغيف واحد . فٱنطلقا فمرّا بصاحب بقر، فنادى عيسى : ياصاحب البقر، اجزُر لنا من بقرك هـذه عجلا . قال : ابعَثْ صاحبك يأخذه . فانطلق اليهوديّ فجاء به، فذبحه وشواه وصاحب البقر ينظر اليه . فقال له عيسى :

(١) الحجزة : معقد الإزار .

كُلْ ولا تكسر له عظما، ففعل. فلمّـا فرغ قذف بعظامه فى جلده وضرب به بعصاه وقال : قُم بإذن الله تعالى ، فقام العجل وله خُوَار . فقال : ياصاحب البقر خذ عجلك . قال : ويحك! من أنت؟ قال : أنا عيسى بن مريم . قال : عيسى السحّار ! ثم فرّ منه . فقال عيسى لصاحبه : بالذى أحيا لك العجل ، كم كان معك من رغيف؟ قال : ما كان معى إلا رغيف واحد، فسكت عيسى . ومضيا حتى دخلا قرية ، فنزل عيسى فى أسفلها واليهودىّ فى أعلاها ، فأخذ اليهودىّ عصا عيسى وقال : أنا الآن أبرئ المرضى وأحيي الموتى . قال : وكان ملك تلك المدينة مريضا مُدنفا . فآنطلق اليهودىّ ينادى : مَن يبتغى طبيبا ، حتى أتى قصر الملك ، فأُخبر بوجعه ، فقال : أدخلونى عليه فأنا أُبرئه ، و إن لقيتموه قد مات فأنا أحييه . فقيل له : إنّ وجع الملك قد أعيا الأطبّاء قبلك ، فليس من طبيب يداويه ولا يَشفيه إلّا صلبه . فقال : أدخلونى عليه ، فأدخلوه فضرب الملك بعصاه فمات . فجعل يضربه بالعصا وهو ميّت ويقول : قُم بإذن الله . فأُخذ ليُصلَب . فبلغ ذلك عيسى ، فأقبل اليه وقد رُفع على الخشبة ، فقال لهم : أرأيتم إن أحييت لكم الملك أتتركون لى صاحبى؟ قالوا نعم . فدعا الله تعالى عليه السلام فأحياه وقام وأنزل اليهودىّ من الخشبة ، فقال : ياعيسى ، أنت أعظم الناس علىّ منّة ، والله لا أفارقكَ أبدا . فقال له عيسى : أنشُدُك الله الذى أحيا الظبى والعجل بعد ما أكلناهما ، وأحيا هذا بعد ما مات ، وأنزلك من الجذع بعد ما صُلبت ، كم كان معك من رغيف؟ قال : والله ما كان معى إلّا رغيف واحد ، قال : لا بأس . ثم آنطلقا حتى أتيا قرية عظيمة خربة فيها كنز وفيها ثلاث لَبِنات من ذهب . فقال الرجل لعيسى : هذا المـال لك؟ فقال : أجَلْ ! واحدة لى ، وواحدة لك ، وواحدة للذى أكل الرغيف الثالث . فقال اليهودىّ : أنا والله أكلته وأنت تصلى . فقال عيسى : هى لك كلها . فآنطلق عيسى وتركه قائمـا ينظر وهو لا يستطيع أن

يحمل واحدة منهنّ ، وكلما أراد أن يحمل واحدة ثقُلت عليه . فقال له عيسى : دعه فإنّ له أهلا يهلِكون عليه . فجعلت نفس اليهودىّ تَطَلَّع إلى المـال و يكره أن يعصى عيسى و يعجز عن حمله . فأنطلق مع عيسى ، فبينما هما كذلك إذ مرّ بالمـال ثلاثة نفر فأقاموا عليه . فقال آثنان منهما لصاحبهما : انطلق إلى أهل هذه القرية (١) فأتنا بطعام وشراب ودوابّ تحمل هذا المـال عليها . فلمّا ذهب صاحبهما قال أحدهما للآخر : هـل لك أن نقتله إذا رجع ونقتسم المـال فيما بيننا ؟ قال نعم . وقال الذى ذهب فى نفسه : هو ذا أجعل فى الطعام سمّـا فإذا أكلاه ماتا و يصير المـال كله إلىّ ، ففعل ذلك . فلمّا رجع إليهما قتلاه ، ثم أكلا الطعام فماتا . ومرّ عيسى عليه السلام بهـم وهم موتى حوله ، فقال : هكذا تصنع الدنيا بأهلها ، فأحياهم بإذن الله عزّ وجل ، فآعتبروا ومرّوا ولم يأخـذوا من المـال شيئا . فتطلّعت نفس اليهودىّ صاحب عيسى إلى المـال فقال : أعطنى المـال . فقال له عيسى : خذه فهو حظّك من الدنيا والآخرة . فلمّـا ذهب اليهودىّ ليحمله خسف الله تعالى به الأرض ، وآنطلق عيسى عليه السلام .

ذكر خبر المـائدة التى أنزلها الله عزّ وجل من السماء

قال وهب : وسأل بنو إسرائيل عيسى بن مريم عليـه السلام أن يُنزل عليهم مائدة من السماء . قال الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (٢) . وقرأ علىّ وعائشة وسعيد بن جُبير ومجاهد رضى الله عنهم « هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ » (بالتاء ٦٤/١٢
المثناة من أعلاها ونصب البـاء الموحدة فى ربك) وآختاره الكسائىّ وأبو عُبَيـد

(١) فى الثعلبى « إلى بعض هذه القرى » . (٢) سورة المـائدة آيتى ١١٢ ، ١١٣

على معنى هل تستطيع أن تدعو ربك وتسأل ربك . قالوا : لأنّ الحواريّين لم يكونوا شاكّين فى قدرة الله تعالى . وقرأ الباقون « يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ » (بالياء المثناة من تحتها ورفع الباء) وقالوا : إنهم لم يشكّوا فى قدرة الله تعالى وإنما معناها هل يُنزل أم لا ، كما يقول الرجل لصاحبه : هل تستطيع أن تنهض معى وهو يعلم أنه يستطيع ، وإنما يريد هل يفعل أم لا ، وأجراه بعضهم على الظاهر فقالوا : غلط القوم وكانوا بشرا ، فقال لهم عيسى عليه السلام استعظاما لقولهم : « اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » معناه أن تشكّوا فى قدرة الله أو تنسبوه إلى عَجْز أو نقصان . وقيل : قال لهم : اتقوا الله أن تسألوه شيئا لم تسأله الأمم قبلكم . قالوا : إنما سألنا لأنّا نريد أن نأكل منها فنستيقن قدرته وتطمئنّ وتسكُن قلوبنا ، ونعلم أن قد صدقتنا بأنك رسول الله ، ونكون عليها من الشاهدين ، فنقرّ لله بالوحدانية والقدرة ، ولك بالرسالة والنبوّة . وقيل : ونكون عليها من الشاهدين لك عند بنى إسرائيل إذا رجعنا إليهم . قال الكسائىّ : فأمرهم عيسى بصيام ثلاثين يوما وأنّ الله بعد ذلك يُطعمهم ويُنزلها عليهم . فصاموا حتى تمّ الأجل ، فقام عيسى وصلّى وسأل الله تعالى وقال : ﴿ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾[1] . قال قوله : ﴿ عِيدًا ﴾ أى عائدة من الله علينا وحجة وبرهانا . والعيد اسم لما أعدته وعاد إليك من كل شىء ؛ ومنه قيل ليوم الفطر ويوم الأضحى عيد ، لأنهما يعودان كل سنة . وقوله : ﴿ لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا ﴾ . قال الثعلبىّ : يعنى لأهل زماننا ولمن يجىء من بعدنا . وقرأ زيد بن ثابت : « لِأُولَانَا وَأُخْرَانَا »[2]

(١) سورة المائدة آية ١١٤

(٢) فى الأصول : « لأولينا وآخرينا » . والتصويب من البحر المحيط لأبى حيان (ج ٤ ص ٥٦) وغيره من كتب التفسير ؛ قال صاحب البحر : وقرأ زيد بن ثابت وابن محيصن والجحدرى « لأولانا وأخرانا » أنثوا على معنى الأمة والجماعة .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : يعني يأكل منها آخر الناس كما يأكل أولهم. ﴿وَآيَةً مِنْكَ﴾ دلالة وحجة . قال الله عز وجل مجيبا لعيسى عليه السلام : ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ . وقرأ أهل الشام وقتادة وعاصم « مُنَزِّلُهَا » بالتشديد لأنها نزلت مرات، والتفعيل يدل على التكثير مرة بعد مرة . وقال تعالى : ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ﴾ أي يكفر بعد نزول المائدة ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾(١) أي عالمي زمانهم . قال : فجحد القوم وكفروا بعد نزول المائدة فمسخوا قردة وخنازير .

قال الثعلبيّ : واختلف العلماء في المائدة، هل نزلت أم لا ؟ فقال مجاهد : ما نزلت مائدة ، وهذا مثل ضُرب . وقال الحسن : والله ما نزلت المائدة ، إنّ القوم لمّا سمعوا الشرط وقيل لهم : ﴿فمن يكفر بعدُ منكم فإني أعذّبه عذابا لا أعذّبه أحدا من العالمين﴾ . استعفَوا وقالوا : لا نريدها ولا حاجة لنا فيها، فلم تنزل . قال أبو إسحاق الثعلبيّ : والصواب أنها نزلت ، لقوله عز وجل : ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ ولا يقع في خبره الخُلْف ولتواتر الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين رضوان الله عليهم وغيرهم من علماء الدين في نزولها . قال كعب : أنزلت يوم الأحد ، فلذلك اتخذه النصارى عيدا .

واختلفوا في صفتها وكيفية نزولها ، فحكى الكسائيّ عن وهب قال : أنزل الله تعالى على عيسى مِكْتَلًا(٢) فيه ثلاث سَمَكات مشويّات ليس لها شوك ولا قشر وثلاثة أرغفة ، والملائكة تحملها حتى وضعوها بين يدَيْ عيسى . قال : وقد قيل : إنّ المائدة كانت سُفرة(٣) من الأَدَم الأحمر، وكان فيها سمكة واحدة مشويّة وحولها الخُضَر

(١) سورة المائدة آية ١١٥

(٢) المكتل : زبيل يعمل من الخوص يحمل فيه التمر وغيره يسع خمسة عشر صاعا .

(٣) السفرة : هي التي تتخذ من الجلود ولها معاليق تنضمّ وتنفرج ، فبالانفراج سميت سفرة؛ لأنها اذا حلت معاليقها انفرجت فأسفرت عما فيها فقيل لها السفرة .

والبقول ، وعند رأسها خلّ ، وعند ذنبها مِلح وخمسة أرغفة على كل منها زيتون ، وخمس رمّانات وتمرات . وقال الثعلبيّ في تفسيره : روى قَتادة عن خِلاس بن عمرو عن عمّار بن ياسر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " نزلت المائدةُ خبزا ولحما "(١). وذلك أنهم سألوا عيسى طعاما يأكلون منه لا ينفَد، فقيل لهم : إنها مقيمة لكم مالم تخونوا أو تخبئوا أو ترفعوا، فإن فعلتم ذلك عُذّبتم . قال : فما مضى يومهم حتى خبئوا ورفعوا وخانوا. وقال إسحاق بن عبد الله : إنّ بعضهم سرق منها وقال : لعلها لا تنزل أبدا ، فرُفعت ومُسِخوا قِردة وخنازير . وقال ٱبن عبّاس رضى الله عنهما : إنّ عيسى بن مريم عليه السلام قال لبنى إسرائيل : «صوموا ثلاثين يوما ثم سَلُوا الله تعالى ما شئتم يُعطِكم» . فصاموا ثلاثين يوما، فلمّا فرغوا قالوا : ياعيسى، إنا لو عَمِلنا لأحد فقضينا عمله لأطعمنا طعاما ، وإنّا قد صُمنا وجُعنا ، فٱدعُ الله أن ٦٥/١٢ ينزل علينا مائدة من السماء ففعل . فأقبلت الملائكة بمائدة يحملونها ، عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات(٢) حتى وضعتها بين أيديهم ، فأكل منها آخر الناس كما أكل أولهم . وروى عطاء بن السائب عن زاذان وميسرة قالا : كانت المائدة اذا وُضعت لبنى إسرائيل اختلفت عليهم الأيدى من السماء بكل طعام إلّا اللحم . وقال سَعيد بن جُبَير عن ٱبن عباس رضى الله عنهم : أُنزِل على المائدة كل شىء إلّا الخبز واللحم . قال عطاء : أُنزل عليها كل شىء إلا السمك واللحم . وقال عطيّة العَوْفى : نزل من السماء سمكة فيها طعم كل شىء . وقال عمّار وقتادة : كانت مائدة تنزل من السماء وعليها ثمر من ثمار الجنة . وقال وهب بن مُنبِّه : أنزل الله تعالى

(١) نص الحديث كما ورد فى الجامع لأحكام القرآن للقرطبى (ج ٦ ص ٣٧٢) : "أنزلت المائدة من السماء خبزا ولحما وأمروا ألا يخونوا ولا يدخروا لغد فخانوا وادخروا ورفعوا لغد فمسخوا قردة وخنازير" .

(٢) أحوات (جمع حوت) : وهو نوع من السمك معروف .

أقرِصةً من شعير وحيتانا . فقيل لوهب : ماكان ذلك يُغنى عنهم ؟ قال : لا شيء ، ولكنّ الله أضعف لهم البركة ، فكان قومٌ يأكلون ويخرجون ويجيء الآخرون فيأكلون ويخرجون ، حتى أكلوا بأجمعهم وفَضَل . وقال الكلبيّ ومُقاتل : استجاب الله تعالى لعيسى عليه السلام فقال : إنى مُنَزِّلها عليكم كما سألتم ، فمَن أكل من ذلك الطعام ثم لم يؤمن جعلته مثلا ولعنة لمن بعدهم ، قالوا : قد رَضِينا . فدعا شِمْعُون الصّفا وكان أفضل الحواريِّين فقال : هل معك طعام ؟ قال : نعم معى سمكتان وسبعة أرغفة . قال : قدّمها . فقطعهنّ عيسى عليه السلام قطعا صغارا ثم قال : اقعُدوا فى روضة وترفّقوا رفاقا ، كل رفقة عَشَرة . ثم قام عيسى عليه السلام ودعا الله تعالى فآستجاب الله له ونزّل فيها البركة ، فصار خبزا صِحَاحا وسمكا صِحاحا . ثم قام عيسى فجعل يُلقى فى كل رفقة ما حملت أصابعه ، ثم قال : كلوا بآسم الله ، فجعل الطعام يكثر حتى بلغ رُكَبهم ، فأكلوا ما شاء الله وفَضَل منه ، والناس خمسة آلاف ونيِّف . فقال الناس جميعا : نشهد أنك عبد الله ورسوله . ثم سألوه مرّة أخرى ، فدعا الله تعالى ، فأنزل الله خبزا وسمكا ، خمسة أرغفة وسمكتين ، فصنع بها ما صنع فى المرّة الأولى . فلمّا رجعوا إلى قُراهم ونشروا هذا الحديث ضحك منهم مَن لم يَشهدها ، وقالوا لهم : ويحكم ! إنما سحر أعينكم ، فمَن أراد الله تعالى به الخير ثبّته على بصيرته ، ومَن أراد فتنته رجع إلى كفره . فمُسِخوا خنازير وليس فيهم صبيّ ولا آمرأة . فمكثوا بذلك ثلاثة أيام ثم هلكوا ، ولم يتوالدوا ولم يأكلوا ولم يشربوا . وقال كعب : نزلت مائدة منكوسة من السماء تَطير بها الملائكة بين السماء والأرض عليها كل طعام إلّا اللحم . وقال قَتادة : كانت تنزل عليهم بكرة وعشيّة حيث كانوا كالمنّ والسَّلْوى لبنى إسرائيل . وقال يَمَان بن رِئاب : كانوا يأكلون منها ما شاءوا . وروى عطاء بن أبى رباح عن سَلْمان الفارسيّ قال : لمّا سأل الحواريّون عيسى

ٱبن مريم أن يُنزل عليهم المـائدة لبس صوفا وبكى وقال : ﴿ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ الآية ، وٱرزقنا عليها طعاما نأكله ، وٱرزقنا وأنت خير الرازقين . فنزلت سُفْرة حمراء بين غمامتين ، غمامة من فوقها وغمامة من تحتها ، وهم ينظرون إليها وهى تهوِى منقضّة حتى سقطت بين أيديهم . فبكى عيسى وقال : « اللهـمّ ٱجعلنى من الشاكرين ، اللهم ٱجعلها رحمةً ولا تجعلها عُقوبةً ومُثْلَةً[1] » والشهود ينظرون إليها ، ينظرون الى شىء لم يَرَوا مثله قطّ ، ولم يجدوا ريحا أطيبَ من ريحه . فقال عيسى عليـه السـلام : ليقُمْ أحسنُكم عملا فيكشف عنها ويذكر ٱسم الله ويأكل منها . فقال شِمْعون الصّفَا رأس الحواريّين : أنت أولى بذلك منّـا . فقام عيسى عليـه السـلام فتوضّأ وصلّى صلاة طويلة وبكى بكاء كثيرا وكشف المنديل عنها وقال : بٱسم الله خير الرازقين . فاذا هو بسمكة مشويّة ليس عليهـا فلوسا ولا شوك تسيل سيلا من الدسم[2] . وعنـد رأسها مِلْح ، وعند ذنبها خلّ ، وحولهـا من أنواع البقول ما خلا الكرّاث ، واذا خمسـة أرغفة على واحد منها زيتون ، وعلى الثانى عسـل ، وعلى الثالث بيض ، وعلى الرابع جُبن ، وعلى الخامس قَديد . قالوا : فلمّا استقرت بين يدَىْ عيسى قال شِمْعون رأس الحواريّين : أنت أولى يا روح الله ، أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الآخرة ؟ فقال عيسى عليه السلام : ليس شىء ممّـا ترون ، ولكنّه شىء ٱفتعله الله تعالى بالقدرة الغالبة ، كلوا ممّـا سألتم يُمْدِدكم ويَزِدْكم من فضـله . قال الحواريّون : يا روح الله ، لو أريتنا من هـذه الآية اليوم آية أخرى ! فقال ٦٦/١٢
عيسى : يا سمكة ٱحْيَىْ بإذن الله . فاضطربت السمكة وعادت عليها فلوسها وشوكها ففزعوا منهـا . فقال عيسى : ما لكم تسألون أشياء اذا أُعطيتموها كرهتموها ،

(١) المُثْلة (بالضم) : التنكيل .

(٢) فى الجامع لأحكام القرآن للقرطبى (ج ٦ ص ٣٧٠) : « تسيل سيلان الدسم » .

ما أخوفني عليكم أن تعذَّبوا ! يا سمكة عودى كما كنتِ بإذن الله تعالى. فعادت السمكة مشويّة كما كانت . فقالوا : يا روح الله ، كن أوّل من يأكل منها ثم نأكل نحن . فقال عيسى : معاذ الله أن آكل منها ، ولكن يأكل منها من سألها ، فخافوا أن يأكلوا منها . فدعا عيسى عليه السلام أهلَ الزَّمانة والمرض وأهلَ البَرَص والجُذَام والمُقْعدين والمُبْتَلين فقال : كلوا من رزق الله ولكم المَهْنأ ولغيركم البلاء . وفى رواية : كلوا من رزق ربكم ودعوة نبيّكم واذكروا آسم الله . فأكلوا وصدروا عنها وهم ألف وثلاثمائة رجل وآمرأة من فقير وزَمِن ومريض ومبتلًى كلهم شبعان يتجشّأ[1] ، ثم نظر عيسى عليه السلام الى السمكة فاذا هى كهيئتها حين نزلت من السماء . ثم طارت المائدة صُعُدا وهم ينظرون إليها حتى توارت عنهم . فلم يأكل منها يومئذ زَمِنٌ إلّا صحّ ، ولا مريض إلا برأ ، ولا مبتلًى إلّا عُوفِيَ ، ولا فقير إلا استغنى ولم يزل غنيّا حتى مات ؛ وندم الحواريّون ومن لم يأكل منها إذ لم يأكلوا منها . وكانت اذا نزلت آجتمع الفقراء والأغنياء والصغار والكبار والرجال والنساء فيزدحمون عليها . فلمّا رأى عيسى ذلك جعلها نوبة بينهم ، فلبثت أربعين صباحا تنزل ضُحًى ولا تزال منصوبة يؤكل منها حتى اذا فاء الفىء طارت صُعُدا وهم ينظرون الى ظلها حتى تتوارى عنهم . وكانت تنزل غبّا ، تنزل يوما ولا تنزل يوما كناقة صالح . وأوحى الله عز وجل الى عيسى أن آجعل مائدتى ورزقى للفقراء دون الأغنياء ، فعظُم ذلك على الأغنياء حتى شكّوا وشكّكوا الناس فيها وقالوا : أترون المائدة حقّا نزلت من السماء ! فقال عيسى : هلكتم تجهّزوا لعذاب الله . فأوحى الله تعالى الى عيسى عليه السلام : إنى شرطت على المكذّبين شرطا أنّ مَن كفر بعد نزولها عذّبته عذابا لا أعذّبه أحدا من العالمين . فقال عيسى : « إن تعذّبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم

(١) جشأ وتجشأ : أخرج صوتا من فمه عند الشبع .

فإنك أنت العزيز الحكيم » . فمسخ منهم ثلاثمائة وثلاثة وثلاثون رجلا . وقال الكسائى عن وهب : مُسخ منهم خمسة آلاف وخمسمائة، فباتوا على فرشهم مع نسائهم فى ديارهم، فأصبحوا خنازير يسعَوْن فى الطُّرقات والكُنَاسات ويأكلون العَذِرة . فلما رأى الناس ذلك فزِعوا الى عيسى عليه السلام، وبكى على الممسوخين أهلوهم . ولما أبصرت الخنازير عيسى عليه السلام بكت وجعلت تطيف به وجعل عيسى يدعوهم بأسمائهم واحدا واحدا فيبكون ويُشيرون برءوسهم ولا يقدرون على الكلام، فعاشوا ثلاثة أيام ثم هلكوا . وهؤلاء الذين لُعنوا على لسان عيسى كما قال تعالى : ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾[(١)] الآية .

ذكر ما قالته الشياطين الثلاثة فى عيسى بن مريم واتّبعهم الناس بعدهم

قال الكسائى قال وهب : جاء إبليس الى عيسى عليه السلام هو وأصحاب له على صُوَر رجال ذوى هيئة وشيبة وعيسى يقول لبنى إسرائيل : ﴿ قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[(٢)] الآية . فقال إبليس : أتخلُق وتَشفِى المرضَى وتُحيِى الموتى وتنبئنا بالغيب ؟ قال عيسى نعم . قال إبليس : هذا الله عز وجل ! يأيها الناس فانظروا اليه، فإنه نزل اليكم ليُرِيكم قُدرته . فقال أحد أصحاب إبليس : بئسما قلتَ يا شيخ ! أخطأت وجُرتَ وقلت قولا عظيما، أتزعم أن الله يتجلّى لخلقه لينظروا الى قدرته ! وهل ينبغى لخلقه أن ينظروا اليه أو يسمعوا كلامه أو يقوموا لرؤيته ! لا، ولكنّه ابن الله وليس هو الله . فقال الثالث : كلّا كما قال شططا وأخطأ وجار وقال قولا عظيما، وهل ينبغى لله أن يتخذ صاحبة يكون له منها ولد ! وهل ينبغى لولد هو من الله

(١) سورة المائدة آية ٧٨ (٢) سورة آل عمران آية ٤٩

٦٧/١٢ أن تستقلّ به قوة امرأة و يسعه رَحِمها ! ولكنّه إله مع الله وليس بولد لله وليس بالله كما قلتما . قال : فتفرّقوا على ذلك ونطق الناس بقولهم، فصار ذلك كلام النصارى . قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾(١). وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ﴾(٢) . وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾(٣) .

ذكر خبر إبليس حين عارض عيسى عليه السلام وما خاطبه به وجوابه

قال وهب : ثم جاء إبليس الى عيسى بن مريم فعارضه فى عَقَبة(٤) من عقاب الأرض المقدّسة يقال لها عَقَبة فِيق : فقال له : أنت المسيح بن مريم؟ قال عيسى : أنا المسيحُ عيسى بنُ مريم رُوح الله وكلمتُه وعبدُ الله وابن أمته . فقال له إبليس : فأنت إله الأرض . قال : بل إله الأرض ربّى . قال : فأنت الذى بلغ من عظم رُبوبيّتك أن تكلّمت فى المهد صبيّاً . قال : بل العَظَمة للذى أنطقنى فى صغرى . قال : بل فأنت الذى بلغ من عِظَم ربوبيتك أنك تخلُق من الطين كهيئة الطير فتنفُخ فيه فيكون طيرا . قال عيسى : بل العَظَمة للذى خلقنى وخلق ما سخّر لى . قال : فأنت الذى بلغ من عظم ربوبيّتك أنك تَشفِى المرضَى . قال عيسى : بل العظمة للذى بإذنه شَفَيتهم وإن شاء أمرضنى . قال إبليس : فأنت الذى بلغ من عظم ربوبيتك أنك تُحيى الموتَى . قال عيسى : بل العَظَمة للذى بإذنه أحييهم، ولا بدّ أنه سيُميت من أحييتُ ويُميتنى . قال : فأنت الذى بلغ من

---

(١) سورة المائدة آية ٧٢ (٢) سورة البقرة آية ١١٦

(٣) سورة المائدة آية ٧٣ (٤) العقبة : مرقى صعب من الجبال، أو الطريق فى أعلاها .

عظم رُبوبيّتك أنك تعبرُ البحر فلا تبتلّ قدماك ولا ترسخ فيه . قال : بل العظمة للذى ذلّله . قال : فأنت الذى بلغ من عظم رُبوبيّتك أنك تعلم الغيب . قال : بل العظمة لعالم الغيب والشهادة ، لستُ أعلم إلا ما علّمنى . قال : فأنت الذى بلغ من عظم ربوبيتك أنك كُوِّنت من غير أب . قال : بل العظمة للذى كوّننى وكوّن آدم وحوّاء من قبلى . قال : فأنت الذى بلغ من عظم رُبوبيتك أنك سيأتى عليك يوم تعلو فيه الخلائق كلها ، فتكون السموات السبع والأرضون السبع ومن فيهنّ دونك ، وأنت فوق ذلك كلّه تدبّر الأمر وتَقسِم الأرزاق . قال : فأعظم عيسى قولَه وضاق به ذرعا وسبّح إعظاما لما قال إبليس . قال : فأتاه جبريل فنفخ إبليسَ نفخة ذهب يلطِم منها على وجهه فلا يملك من نفسه شيئا حتى وقع بالخافق الأقصى ، ثم نهض بالذى أعطاه الله من القوّة فسبق عيسى إلى أسفل العقبة فسدّها وملأ كل ثُلْمة وطريق ، ثم قال لعيسى: لقد غضبتَ غضبَ إله عظيم ، وقد أخبرتك بأنك إله وما أنت من البشر ، ولو كنت من البشر ما قمتَ (١) ، منذ فارقتك ، أربعين ليلة لم تَطْعَم ولم تشرب ولم تَنَم ولم يضرع (٢) لذلك جسمُك ، وهذا مالا ينبغى لبشر . قال عيسى: إن جسدى ليألم مما يألم منه البشر ، وإنى لأَطْعَم وأشرب وأنام وأغفُل وأفرَح وأحزَن وأجزَع وأهلَع وأحتاج إلى أن أتنظّف بالماء وكيف تزعم أنى إله وأنت تعلم أنى هكذا ! . ولم يزل إبليس لعنه الله يحاوره حتى عرَض عليه أن يأمر الشياطين بعبادته والاعتراف بربوبيته . فضاق عيسى ذَرْعا وسبّح لله تعالى فقال : « سبحان الله عما يقول وبحمده ، ملء سمائه وأرضه ، وعدد خلقه ، ورضا نفسه ، ومبلغ علمه ، ومنتهى كلماته ، وزنة عرشه » . فهبط جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فنفخه ميكائيل نفخة ذهب منها نحو مطلع الشمس حتى صدم عين الشمس عند طلوعها ، فخسر

---

(١) فى الأصل : « ما قمت لى » بزيادة « لى » . وظاهر أنها من زيادات النساخ .
(٢) يضرع : يضعف .

حصيدا محترقا ، فأتبعه إسرافيل فنفخه نحو مغرب الشمس فانطلق لا يملك من نفسه شيئا حتى حاذى عيسى فقال : يآبن مريم ، لقد لقيت منك تعبا . ومرّت به النفخة حتى وقع فى العين الحامية التى تغرب الشمس فيها ، فلبث سبعة أيام وسبع ليال ، متى أراد الخروج منها غطّته الملائكة بأجنحتها ، فما رام عيسى بعد ذلك . والله أعلم .

ذكر خبر عيسى مع اليهود

حين ظفروا به وأرادوا صلبه وقتله ٦٨/١٢

قال وهب : لمّا أوحى الله عز وجل إلى عيسى : ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾[1] جَزِع من الموت جَزَعا شديدا وقال للحواريّين : هذا الزمان الذى يَقبِض الله فيه الراعى ثم تُفرَّق الرعيّة من بعده ، فعرفوا أنه يعنى نفسه ، فبكَوْا وجزِعوا ، فقال : لا تبكوا من حزن الفراق ، فستروْن ما هو أشدّ منه ، ولستُ مفارقكم حتى يظفر بى عدوّى ثم يأسرونى ، فلا تدفعوا عنّى ولا تمنعوا . قال : وطلبه اليهود ليقتلوه فآستخفى منهم ، فدلّهم عليه يُوذَا وهو الذى آرتدّ عنه ، فأخذوه من غار جبل بيتَ لَحْمَ وجعلوا على رأسه إكليلا من الشّوك ليمثّلوا به ، وجعلوا يلطِمونه ويضربونه من خلفه ويقولون له : إن كنت نبيّا كما تزعم فامنع عن نفسك وآدعُ ربك فليحُلْ بيننا و بينك ، وهو لا يكلّمهم حتى طلع الفجر ، ونصبوا له خشبة ليصلبوه . فلمّا أرادوا أن يرفعوه عليها أظلم الجوّ ظلمةً عظيمة لم تلبس الأرض مثلها ، وأرسل الله الملائكة فحالوا بينهم و بينه وصلبوا مكانه يُوذَا الذى دلّ عليه ، وأشرقت الشمس وقلب الله قلوب الناس وأبصارهم فجعلوا ينظرون إلى يُوذَا فى صورة عيسى . قال الله تعالى : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾[2] . قال : ولمّا رفعوا يُوذَا على الخشبة قال:

---

(١) سورة آل عمران آية ٥٥ (٢) سورة النساء آية ١٥٧

يا هؤلاء ، إنّى أذكّركم الله فى دمى ، إنّى صاحبكم يوذا الذى دللتكم على عيسى . ثم أخبرهم خبر الظلمة وأنّ الملائكة حالوا بينهم وبين عيسى وجعلوه مكانه ، وأخبرهم بعلامات يعرفونها . فلمّا سمعوا ذلك منه زادهم عليه غيظا وحنقا وقالوا : ما أعظم سحره ! كيف اطّلع بسحره على سرّنا وما كنّا نطويه دونه ! وقتلوه وهو صاحبهم .

ذكر خبر رفع عيسى عليه السلام أوّل مرة
وهبوطه إلى الأرض ووصيّته إلى الحواريّين ورفعه ثانيا

قال : رفع الله تعالى عيسى لثلاث ساعات مضت من النهار، فلبث فى السماء أيّاما ، قيل سبعة أيام ، وقيل أربعين يوما . والله أعلم . ثم قال الله له : إنّ أعداءك اليهود أعجلوك عن الوصيّة والعهد إلى أصحابك ، فانزل إليهم واعهد لهم وأوصهم ، وانزل على مريم المجدلانيّة[1] فإنها فى غار فى جبل الجليل . وكانت مريم المجدلانيّة من قرية من قرى أنطاكية يقال لها مجدل . وكانت من أوسط نساء بنى إسرائيل حسبا ، وكانت أجمل نسائهم وأكثرهم مالا ، وكانت تستحاض فلا تطهر أبدا وخطبها أشراف بنى إسرائيل وملوكهم وامتنعت من إجابتهم ، فظنّوا أنّ ذلك ترفّعا منها ، وإنما كان بسبب ما يعرض لها . فلمّا ظهر عيسى عليه السلام وشاع ذكره أتته فى جملة المرضى ليشفيها ، فخجلت أن تسأله لكثرة الناس حوله ، فجاءت من ورائه فمسّته بيدها فزال عنها ما كانت تشكوه وطهرت وآمنت بعيسى ، وأنفقت مالها فيما أمرها به من وجوه البرّ ، وصارت فقيرة وتبتّلت وتخلّت للعبادة ، وكانت تعدّ من أصحاب عيسى .

قال : وأمر الله تعالى عيسى أن يأمرها أن تجمع له الحواريّين ، وأن يستخلف عليهم شمعون ، وأن يفرّقهم دعاة إلى الله عزّ وجلّ فى البلاد ، وأن يخبرهم بالعلامة التى تأتيهم من الله . ثم أهبطه الله تعالى على مريم فاشتعل الجبل نورا ، وأتته بالحواريّين ، فبلّغهم

(١) كذا فى الأصول والثعلبى . ولعلها نسبة شاذة إلى مجدل . وفى الكتاب المقدس : "المجدلية".

رسالة ربهم، وقال : إن آية ذلك أن تأتيكم الملائكة فى ليلتكم هذه بمغارف فيها نور من نور الله، فكلّ مَن تناول مِغرفةً منها فليلحَس النور الذى فيها فإنه يصبح وقد تكلّم بلغة القوم الذين بُعث إليهم ويُصبح وهو على باب مدينتهم . قال : والليلة التى هبط عيسى فيها هى لليلة التى تدخّن فيها النصارى باللُّبان . قال : فلمّا فرغ عيسى من وصيّته الى الحواريّين رُفع بعد سبعة أيام، وتوفّاه الله تعالى لثلاث ساعات من النهار ، ثم كساه الله الريش وألبسه النور ، وقطع عنه المطعم والمشرب وصار مَلَكيًّا إنسيًّا . قال وهب : برز عيسى عليه السلام للناس يوم برز وهو ابن ٦٩/١٢
ثلاثين سنة ، ولبث فيهم فى نبوّته وفيما كان الناس يرونه منه من العجائب والآيات ثلاث سنين، ورفعه الله وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة . وحكى أبو إسحاق الثعلبيّ عن أهل التاريخ أن الله تعالى أوحى الى عيسى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، ورفعه من بيت المقدس ليلة القدْر من شهر رمضان وهو ابن ثلاث وتسعين سنة . وقد ورد فى الحديث ما يدلّ على أنه رُفع وله مائة وخمس وعشرون سنة . وسنذكر ذلك إن شاء الله تعالى فى آخر السيرة النبوية على ما تقف إن شاء الله عليه هناك .

ذكر وفاة مريم بنة عمران عليها السلام

قال الكسائىّ قال كعب : ماتت مريم بنة عمران أمّ عيسى عليهما السلام قبل رفعه ، فدفنها فى مشاريق بيت المقدس . وحكى الثعلبيّ رحمه الله أنها ماتت بعد رفع عيسى عليهما السلام . وقال فى خبره : إنه لمّا صُلِب المشبَّه بعيسى جاءت مريم ابنة عمران وامرأة كان عيسى دعا لها فأبرأها الله من الجنون يبكيان عند المصلوب، فجاءهما عيسى عليه السلام فقال لهما : على ما ذا تبكيان ؟ فقالتا عليك . فقال : إن الله تعالى رفعنى فلم يُصبنى إلا خير، وإنّ هذا شيء شُبّه لهم . ثم قال أيضا فى قصة

وفاة مريم عن وهب : لمّـا أراد الله تعـالى أن يرفع عيسى عليـه السلام آخى بين الحواريّين وأمر رجلين منهما وهما شِمْعُون ويوحنّا أن يلزما أُمّه ولا يفارقانها، فانطلقا ومعهما مريم الى نيرون[(١)] ملك الروم يدعوانه الى الله عز وجل، وقد بعث الله اليه قبل ذلك بُولُس[(٢)]. فلمّا أتوه أمر بشِمْعُون وبُولُس فقُتِلا وصُلِبا منكَّسَيْن، وهربت مريم ويوحنّا، حتى اذا كانا فى بعض الطريق لحقهما الطلب، فخافا فانشقت لهما الأرض فغابا فيها، فأقبل نيرون ملك الروم وأصحابه فحفروا ذلك الموضع فلم يجدوا شيئا فردّوا التراب على حاله، وعلموا أنه أمرٌ من الله عز وجل. فسأل ملك الروم عن حال عيسى فأُخبر به فأسلم. وقد قيل فى إسلامه غير هذا، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

(١) كذا فى تاريخ الطبرى (ص ٧٣١ من القسم الأوّل). وفى الأصول: «بارون».

(٢) كذا فى تاريخ الطبرى (ص ٧٣١ من القسم الأوّل) وكما سيذكره المؤلف فى الصفحة التالية. وفى الأصول: «بودس».

الباب السادس من القسم الثالث

من الفنّ الخامس فى أخبار الحواريّين الذين أرسلهم عيسى عليه السلام وما كان من أمرهم مع من أرسلوا اليه وخبر جرجيس

ذكر خبر أخبار الحواريّين

قال الكسائىّ قال وهب : وأصبح الحواريّون على أبواب المدائن التى بُعثوا اليها ، يتكلّم كل رجل منهم بلغة الأمة التى بُعث اليها . فبعث الى أهل رُومِيَة رجلين من الحواريّين ، و بعث إندراوس ولوقا الى أرض الحبشة ، و بعث رجلا الى بابل ، و بعث رجلا الى إفريقيّة ، ورجلا الى أصحاب قرية الكهف ، ورجلا الى بربر ، ورجلين الى أنطاكِيَة ، ورجلا الى السِّند والهند ، وأقام شمعون مكانه وهو رأسهم ، وأمروا أن يستظهروا به فيما يهمّهم .

ذكر خبر يوحنّا وبولس اللذين توجّها إلى إنطاكية

قال الكسائىّ : لمّا أصبح يُوحنّا و بولُس على باب إنطاكِيَة دخلاها عند فتوح بابها ، ومَلِكُها يومئذ مَخلنطيس بن مَخلنطيس[1] ، وكان ظالما جبّارا متكبّرا ، فلم يقدرا ٧٠/١٦ على الوصول اليه ، وما أمكنهما أن يذكرا ما جاءا فيه مخافة أن يُقتَلا قبل أن يبلّغاه رسالة الله تعالى . فكانا كذلك مدّة ، حتى شخص الملك من منزله الى مُستَنزَه له فناداه من بعيد بالإنذار . فلمّا سمع أصواتهما أرسل مَن يسمع مقالتهما فبلّغاه رسالة الله عزّ وجلّ ؛ فأمر الملك بجلد كلّ منهما مائة جلدة وحلْق رءوسهما حلْق الشمامسة

(١) فى الطبرى (ص ٧٩٠ من القسم الأوّل) : « انطيخس بن انطيخس » .

ليمثّــل بهما ، ثم أمر بهما الى السجن ليخلُدا فيــه . فأوحى الله تعــالى الى شمْعُون بخبرهما وأمره بالانتصار لهما . فخرج حتى بلغ أنطاكِيَة فدخلها ، وتلطّف حتى صحِب خواصّ الملك و بطانته وأنِسوا به وذكروه للملك . ثم طرق السجن ليلا ، وكان له باب من حديد طوله خمسون ذراعا وعرضه ثلاثون ، وكان اذا فُتِح صرصر حتى يَسْمَع صريره أقصاهم وأدناهم . فأرسل الله تعالى مَلَكا فاقتلع الباب من موضعه فلم يُسمَع له صوت ، وألقى الله عز وجل السُّبات على أهل السجن وحرّاسه . فدخله شمْعُون ، واجتمع بيُوحنّا و بولس و بشّرهما عن الله بالثواب والخير وانصرف عنهما ، وردّ الملك باب السجن الى موضــعه . وكان شمعون يدخل مع الملك وأصحابه الى بيوت أصنامهم و يسجد لله و يبكى و يُكثِر العبادة وهم لا يشكّون أنه يعبد أصنامهم ، فأحبّه الملك وقرّبه وسأله عن نسبه ، فأخبره أنه من بنى إسرائيل وأنه بقيّــة قوم انقرضوا ، ولم يكن له مَن يأنَس به فاعتمدتكم رغبة فى قُربكم ، وحرصا على إخائكم . فقال الملك : قــد قبلنا قولك وسوّدناك علينا ، فأنت أفضلنا وسيّدنا . فلبث فيهم زمنًا يصدرون عن رأيه . فلما تمكّن أمره من الملك قال له : أيها الملك ، بلغنى أنك سجنت رجلين كانا قد جاءاك يدعوانك الى غير دينك والى عبــادة إله غير إلهك ، و يزعمان أنّ الله أرسلهما إليك ، وعجبتُ كيف اجترآ عليك . فاذا قلتَ لهما وما قالا لك ؟ وهل أجبتهما بمــا كان ينبغى لك من الجواب ؟ وهل سألتهما حين عظّما لك ربهما أن يذكرا لك سائر عظمته ، أو أحييا لك ميّتا ، أو غير ذلك مما تعرف به مصداق قولهما ؟ قال الملك : لقد حال الغضب دون ما تقول . قال : فهل لك أن تدعوهما ؟ قال نعم . فأحضرهما بين يديه ، فقال لهما شمْعُون : أخبرانى مَن أرسلكما الى هــذا الملك وقومه ؟ قالا : أرسلنا الله الذى هو على كل شىء قدير . فقال شمعون : صِفا لى عظمته . قالا : هى أعظم من أن تُحْصَى . قال : فأخبرانى ماذا يبلُغ من قدرته ؟

قالا : إن شئتَ وصفنا لك ما نُطيق وصفَه، وصِفَتُه أعظم من طاقتنا، و إن شئتَ وصفنا لك ذلك فى كلمتين تكفيان من كلام كثير . قال : نعم، صِفَا وأوجزا . قالا : إنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد . فوضع شمعون يده على رأسه كالمنكر لما قالا، ثم أقبل عليهما وقال : إنى أسألكما أمرا فإن قدَر إلٰهكما عليه آمنّا بكما . قالا : سل . قال : هل يقدر أن يخلق خلقا ونحن ننظر اليه ؟ قالا نعم . قال : اعلما ما تقولان ! قالا : قد علمنا، فتى شئتَ أريناك . فعندها خلا شمعون بالملك وقال : أيها الملك، إنّ هذين الرجلين ليسا ببعيدين من أن يكون ربهما كما قالا، ولا أظنهما عرّضا أنفسهما للملك لمثل هذا الموقف إلا وعندهما ثقةٌ من إلٰهما . وإنى أخشى أن يدعُوَا ربهما فيخلق خلقا ينظر اليه الناس فيُمْرِض ذلك قلوبهم ويزهدون فى إلٰهك الذى تعبده ويذهبان بالصوب (١) والشرف . فهل لك أن تدعو إلٰهك فيخلق هذا الخلق الذى نريد أن نتمناه عليهما فيكون لك ولإلٰهك شرف هذا اليوم وصوْبُه ؟ . قال له الملك : ليس دونك سرّ، إنّ هذا الإلٰه الذى نعبُد لا يسمع ولا يُبصر ولا يضرّ ولا ينفع ولا يُحيى ولا يُميت . فقال لهما شمعون : اعرِضا علىّ بعض قدرة إلٰهكما فإن أجابكما وخلَق الشىء على أعيننا ونحن ننظر اليه فقد صدَقتما والقول قولكما . واجتمع الناس لينظروا . فأوحى الله اليهما أن سَلاه ماذا يريد، فإنى مسخِّر لكما ما سألكما . قالا : قد أُوحِىَ الينا أنه فاعلٌ ما تسألنا، فسلنا . وكان شمعون قد عهد فى المدينة غلاما مطموس الوجه لم يُخْلَق له عينان، فأُتِىَ به فقال : ادعُوَا ربكما أن يخلُق له عينين ونحن ننظر . قالا نعم . فأوقفاه بين أيديهما ودعَوَا الله وأعانهما شمعون سرّا، فأجابهم الله تعالى، فأخذ كل واحد منهما حَثْوَةً من تراب 71/12 وعجنه وجعله كالبندقة، ووضعا البندقتين فى موضع العينين من وجه الغلام فانشق

(١) الصوب : ضدّ الخطأ، مثل الصواب .

لهما البصر، ثم صارت البندقتان عينين . فخاف الملك، فقال له شمعون : لا تخف إنّ عندى حيلة . قال له الملك: لعلّهما ساحران، أرنا مالا يكون وما ليس بكائن . قال شمعون : ليس هـذا من السحر، ولكنى أخاف أن يأتى من إلهيهما ما يعجز حيلتنا . فدعا شمعون بغلام مطموس وعمل كما عملا فانشق بصره، كما انشق بصر الأوّل ، ففرح الملك وأصحابه بذلك . فقال شمعون : إنما صنع ما ترون إله اخترته لنفسى وهو الذى أظهر فُلْجكم[1]، فاسجدوا لهذا الإله الذى أظفركم بعدوّكم لعلّه يعينكم على ما يكون بعد هـذا . فقال الملك : كيف نسجُد لغير إلهنا ! . قال شمعون : ألم تُخبرنى أنه لا يُبصر ولا يسمع ولا يضرّ ولا ينفع، فما قدرته عليك إن سجدتَ لغيره ! قال : صدقتَ . وسجد الملك وسجد قومه لسجوده . ثم قال شمعون ليوحنّا و بولُس : إنّى أسالكما عن أمر، فإن قدَر عليه إلهكما فالحجة إذًا لكما والقولُ قولكما . قالا : سَلْ عمّا بدالك . قال : تسألان ربكما أن يُحيىَ لنا ميّتا حتى يكلّمنا ويخبرنا ما خبره، ويُعلمنا ما كان فيه وما لقِيَ بعدنا . قالا : نعم، إنّ الذى سألتَ يسيرٌ على الله وهيّن عليه . فوضع شمعون يده على رأسه كالمُعْظِم والمنكر لما قالا . ثم خلا بالملك وقال: إنك قد رُميتَ بأمر عظيم، وإنى أخاف إن أحيا إلههما الموتى أن يميل الناس إليهما . قال الملك : إنّا نرجو ألّا يأتيا بشىء إلا أتيتَ أنت بمثله . قال شمعون: إنّى لا أغرّكم، إنّ إلهى لا يُحيي الموتى، ولا أعلم فى الأرض مَن يقدِر على ذلك . قال الملك : فهل تَدعهما يَدعاننا وندعهما، فإن أبيَا قاتلناهما؟ . قال شمعون : كيف نقاتل مَن لهما إله يُحيي الموتى ! ولكن أرجو أن أدعو الإله الذى صنع ما رأيتم فيُعيننا على ما نريد . قال شمعون : هل يقدر إلهكما على أن يُحيِيَ الموتى ؟ قالا نعم . قال الملك : إنّ عندنا ميتًا قد مات منذ سبعة أيام وهو ابن

(١) الفلج (بالضم) : بمعنى الفوز والظفر .

دِهْقان مدينتنا، فدعا به الملك فأُحضر فى نَعْش، وقد تغيّر لونه وأَرْوَح[1]، فقال: دونكما ادعُوَا أن يُحيِيَه إلهكما. فدعوَا الله، فما لبث أن تفتّقت عنه أكفانه وردّ الله إليه رُوحه. فسألوه متى مات وما ذا لقِى. فقال: مُتّ منذ سبعة أيام، ثم عُرِضْتُ على عملى فقُذِفتُ فى سبعة أودية من نار، وذكر ما فى الأودية من العذاب والحيّات وغير ذلك. قال: فلمّا صرت الى الوادى السابع خُفِّف عنّى العذاب. قالوا: فمن أين خُفِّف عنك العذاب؟ قال: أحيانى الله وردّ علىّ رُوحى، فجاءنى شىء مثل الريح فدخل فى رأسى، فلمّا صار فى جسدى حَيِيتُ، ثم قيل لى: انظر فوقك، فشخَصتُ[2] ببصرى وفُتحت أبواب السماء، فنظرتُ فإذا برجل شابّ حَسَنِ الوجه نحيف الجسم أبيض يخالطه حمرة متعلّق بالعرش يشفع لهؤلاء الرهط الثلاثة، يعنى عيسى بن مريم. فقال له الملك: أىّ رهط تعنى؟ قال: هذا الشيخ الأجلَح[3]، وهذا الكهل الأنزع[4]، وهذا الفتى الرَّجْل[5]. فما زالوا مجتهدين فى الدعاء حتى شُفِّعوا، والشافع لهم مُصغٍ إليهم بأذنه كأنه يسمع ما يقولون ثم يرفعه الى الله فيدعو به. فلما فرغ من كلامه قال: إنّى أحذّركم أيها القوم مثلَ ما كنتُ فيه، فإنه لا إله إلّا إله عيسى بن مريم وشِمْعُونَ وبُولُس ويُوحنّا. قال شِمْعُون: اعتصَمنا بالله وتوكّلنا عليه، ثم أخبر الملك بخبره وخبر أصحابه ودعاهم الى الله، فمنهم من آمن، ومنهم من تولّى. وكان الملك ممن آمن به فى عُصبةٍ يسيرةٍ. وأرسل الله على مَن تولّى منهم صيحة من السماء فإذا هم خامدون.

قال: وكان قد نُعِى الى الدّهقان ابنُه، وكان اسم الدّهقان حبيبا النجّار، ثم لم يلبث أن جاءته البشارة بحياة ابنه، ولم يكن له ولدٌ غيرُه، وأُخبر خبر الحَواريّين،

(١) أروح: أنتن. (٢) شخص بصره و ببصره: رفعه. (٣) الأجلح: الذى انحسر شعره عن جانبى رأسه. (٤) الأنزع: الذى انحسر شعره عن جانبى جبهته.
(٥) الرجل (بسكون الجيم): الذى شعر رأسه بين السبوطة والجعودة.

فآمن بهم قبل أن يراهم ، فأقبل مسرعا . فلمّا قصّ عليه ابنه قصّته ازداد إيمانا و يقينا . قال وهب : فيقال — والله أعلم — إنّ هذا هو الذى ذكره الله تعالى فى قوله : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾(١) الآية . فأوجب الله له بكلامه الجنة، وخيّر أن يعمّر هو وابنه مائة عام أو يعجّل بهما الى الجنة، فاختارا الجنة؛ وهو قوله تعالى : ﴿ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ ﴾(٢) الآية . قال : ولم يزل يجاهد قومه قبل أن تأخذهم الصيحة ٧٢/٢ و يدعوهم الى الله حتى قتلوه،فقيل له :ادخل الجنة ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾(٣) .

ذكر خبر تُومَا الحوارىّ مع ملك الهند و إيمانه به

قال الكسائىّ قال وهب : وجاء توما الى أرض الهند والسِّنْد. فبينما هو يتردّد على ساحلهم إذا هو بغلام لملك الهند يقال له حَيّان ، وكان تاجرا. فأتاه تُومَا فقال له : هل لك أن تبتاعنى للملك؟ فقال له حَيّان : مَن أنت أيها الرجل الكريم؟ . قال له تُومَا : إنّى كنتُ عَبدا مملوكا فأعتقنى سيّدى وأمرنى بالطلب لنفسى ، فلم أصادف من الحرّية ما كنتُ أظنّ ، وكان حالى يوم كنتُ عبدا خيرا منه اليوم وأحسن . فقال له حيّان : ما أرى عليك مِيسمَ العُبوديّة ،وإنى لأرى عليك أثرالخير، ثم قال له : ماالذى تُحسِن من الأعمال؟ قال : أعمل سائرالأعمال . فاشتراه بثلاثمائة مثقال من الذهب وانطلق به الى الملك . فلمّا رآه أجلّه وعظّمه ،وسأل التاجرعنه فأخبره أنه اشتراه على أن يعمل سائرالأعمال . فقال له الملك : أريد أن تبنى لى

---

(١) سورة يس آية ٢٠ (٢) سورة يس آية ٢٣

(٣) سورة يس آية ٢٧

قصرا لم يُعمَل مثلُه لأحد قطُّ . قال تُومَا : لك ذلك علىّ ، ولكن أرضُك حارّة ، وإذا بُنِىَ فى زمن الحرّ كان حارّا لا يُسكَن من حرّه ، وكذلك فى زمن البرد يكون باردا ، وإنى لأرى أن يُعمَل فى زمن الاعتدال ، فوافقه الملك على رأيه . وعرض للملك غَزَاةٌ فخرج اليها واستَخلف أخاه على المُلْك ، وأمره أن يدفع لتُومَا مايحتاج اليه من الأموال للنفقة على القصر ، فصرف له أموالا كثيرة ، ففرّقها توما فى الفقراء والمساكين حتى أغناهم ، ثم مرِض أخو الملك مرضا شديدا وغاب عن حسّه وحركته سبعة أيام . فقدم الملك وهو على تلك الحال ، فلما ردّ الله عليه رُوحه قال الملك لتوما : ما فعلتَ فى القصر ؟ قال : قد فرغتُ منه . فقال الملك لأخيه : ما الذى أعطيتَه من مالى ؟ قال : ما فى بيت مالك . قال : فهل رأيتَ القصر ؟ قال : إنه قبض منى المال ثم اشتكيت فقلت لتوما : أين بنيتَ هذا القصر ؟ قال : بنيتُه لك فى السماء . قال : وكيف لى بسُلَّم أنال به السماء ؟ قال : تنال السماء بالسُّلَّم الذى نالها به أخوك . فقال له أخوه : اسمع منّى أيها الملك أُخبِرْكَ بالعجب ، فإنك لو علم ما أ ل عليك هذا الرجل من الخير وصرف عنك من الشرّ لقبّلتَ قدميه وجعلته فوق رأسك . قال : أخبِرْنى خبره . قال : أُخبرك أنّ الله عزّ وجل عرَج برُوحى ، فعرَضنى على النار فرأيتُ أمرا عظيما مَهُولا ووصفه لأخيه ، ووصف له صفة ما يُعَذَّب به أهل الشِّرك بالله وعبدة الأوثان . قال : ثم قيل لى : إنّ الله عرضك على النار فأراك ما رأيتَ لتكون لمن خلفك نذيرا ، وسيُريك الجنة ، لتبشّر بها قومك ، ولتُخبِر مَن خلفك بما رأيت . قال : فأُدخلتُ الجنة فرأيت كذا وكذا ، ووصف الجنة ونعيمها وما فيها . قال : وانتهيتُ الى قصر عظيم من أعظم قصورها وأبوابُه مُغلقة ، فقلت لخزنة الجنة : إنّى أحبّ أن أشاهد باطن هذا القصر فإنّى لم أر مثله . قالوا : إنّ صاحبه الآن فى الدنيا

ومفاتيحه عند ملَك من الملائكة . قلت : فلمن أُدّخِر هذا القصر ؟ قالوا : هــذا لأخيك فلان وهو الآن فى الدنيا ، وعنده رسول من عند الله يقال له تُوما الحَوارِىّ من حوارِيّى عيسى بن مريم . فإذا رجعتَ إليه فبشِّره وأخبره أنه القصر الذى بناه له تُوما فى السماء ، وأنفق فيــه بيت ماله . ثم ردّ الله بعد ذلك علىّ رُوحى ، وأنت تعلم يا أخى أنّ لى شَطْر مالك ومُلْكك وخزائنك ، وتعلم ما لى بعد ذلك من الأموال والخزائن ، وأنا أُعطيك جميع ذلك على أن تُعطينى قصرك الذى رأيته لك فى الجنة . قال : يا أخى ، ما كنتُ لأُعطيك الباقى بالفانى . ثم أقبل على تُوما وآمن به هو وأهل مملكته ، ولم تزل تلك الأمة على دين عيسى حتى أبادها الموت .

ذكر خبر لُوقَا الحوارىّ مع ملك فارس ٧٣/٤٢

قال : وأصبح لُوقا على باب مدينــة من مدائن فارس ، وهى التى يسكنهــا الملك ، فإذا غلمانٌ من أبناء الملوك وأبناءِ الوزراء جلوسٌ على قارعة الطريق يلعبون فجلس الحوارىّ الى جانب غلام منهــم وسأله كيف يلعب ، فغلب جميــع أولئك . فلمّا تفرّقوا دعاه الغلام الى منزله ، فقال له : اذهَبْ الى أبيكِ وٱستأذِنْه فى ذلك . فٱنطلق الغلام الى أبيــه وأخبره بخبر الشيخ ، فأذِن له أن يأتيه به ، فرجع اليه وقال له : إنّ أبى يدعوك ، فأقبل معه . فلمّا ولَجَ باب الدار قال : بٱسم الله ، فخرج كل شيطان فى الدار ، وصاحبُ الدار ينظــر الى ذلك ، وكانت الشياطين تَظهر لهم وتُشاركهم فى طعامهم وشرابهم ، فعجِب صاحب الدار من ذلك . وقُدِّم الطعام فأقبلت الشياطين لتأكل على عادتها ، فقال لُوقا : بٱسم الله ، فنفَرت الشياطين وفرّت من الدار . فقال الشيخ : قد رأيتُ منك اليوم ما لم أره من أحد ، وإنّ لك لشأنا ، وخلا به وقال : لابدّ أن تُخبرنى خبرك ولا تكتُمنى أمرك . قال : على أن تكتُمه ولا تذكره إلّا أن

آذَنَ لك، قال نعم . فآستوثق منه وأخبره بخبره . ثم قال له لُوقا : أخبرنى أىّ مال الملك أحبّ اليه وأعجب عنده ؟ قال : ما شىء من ماله أحبّ اليه وأعجب عنده من بِرْذَون حتى إنه يركبه من سريره . ثم أقام مدّة ، فقُدِّم البِرْذَون إلى الملك ليركبه على عادته، فلما صار الى جانب السرير خرّ ميّتا، فشقّ ذلك على الملك وآلمه وقال : وَدِدتُ لو فديتُه بمال عظيم، وحزِن جلساءُ الملك وخواصُّه لحزنه . قال : وجاء الرجل الى لُوقَا وقد حَزِن لحُزْن الملك، فسأله عن سبب حُزْنه فذكر له قصّة البِرْذَون، فقال له : ارجِعْ الى الملك وقل له : إنى أُحيِيه له إن أطاعنى فيما أقول . فرجع الى الملك وأخبره بذلك، وقال : إنّ هذا الرجل لمّا عَبَر الى منزلى نفَرتْ منه الشياطين ولم تطعَم من طعامنا، وكانت تأكل معنا قبل ذلك وتشرب كما علمتَ ، وقد قال : إن أطاعنى الملك أحييتُ له بِرْذَونه . فقال الملك : إنّ نفْسى لتَطيب بكل شىء أُحيِي به هذا البِرْذَون، فعلَىّ بالرجل ، فأحضره إلى الملك . فلمّا دخل الدار لم يبق بها شيطان إلا خرج . ثم جلس لوقا إلى جانب الملك، فقال له : بلغنى أنك تُحيِي الموتى، فأَحيِ لى بِرْذَونى هذا . فقال له : إن أطعتنى فيما أقول لك أُحْيِ بِرْذَونَك . قال الملك : مُرنى بما شئتَ . قال : أُدْعُ آبنك وآمرأتك، وكان ابنُه ولىّ عهده وآمرأته منه بمكان، فدعاهما ، فأخذ لُوقا بقائمة من قوائم البِرْذَون ، وكلّ من الملك وآبنه وآمرأته بقائمة، ثم قال الحوارىّ بالفارسية : «اللّهمّ ربَّ السموات والأرض، خالق السموات والأرض وما فيهما لا إله إلّا أنتَ وحدك لا شريك لك، أَحيِ هذا العضو الذى فى يدى» فتحرّك ذلك العضو . ثم قال للملك : قل كما قلتُ ، فقال الملك مثل قوله . فتحرّك العضو الذى فى يده. ثم قال لآبنه : قل كما أقول ، فقال فتحرّك العضو الثالث ، ثم قال لآمرأته : قولى كما قلتُ ، فدعت بدعائه، فتحرّك العضو الذى فى يدها . ثم قال لهم : قولوا جميعا كما أقول، فقالوا كلهم : « اللهم

ربّ السموات والأرض خالق السموات والأرض وما فيهما لا إله إلّا أنت وحدك لا شريك لك أحْيِ هذا البِرذون» . فقام البِرْذَوْن حيّا ينفُض ناصيته . فعجب الملك والناس من ذلك . وسأله الملك عن خبره فأخبره أنه رسول عيسى بن مريم إليه وإلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله تعالى، فآمنوا به . وقد قيل : إن الذى أُرسل إلى أرض فارس متّى الحوارىّ ، وإنه لمّا دخل على الملك كان الملك سكرانا ، فلمّا أحيا الفرس أمر الملك أصحابه بقتل متّى فقتلوه . فلمّا أفاق الملك من سكره سأل عنه فقيل له : إنك أمرتَ بقتله فقتلناه ، فقال : ما علمتُ بذلك . فقاموا إليه وغسلوه وكفّنوه ودفنوه . ويقال : إنّ الله تعالى بعد دفنه خسَف بالملك وأولاده وأهله . والله أعلم . ولنصل أخبار الحواريّين بخبر جرجيس وإن لم يكن منهم، فقد كانت له قصّة عجيبة تلتحق بهم .

ذكر خبر جِرْجِيس رحمة الله عليه ٧٤ / ٢

قال أبو إسحاق الثعلبىّ رحمه الله تعالى فى كتابه المترجم بـ«يواقيت البيان فى قصص القرءان» بإسناده عن وهب بن مُنَبِّه قال : كان بالموصل ملك يقال له داديه (١)، وكان قد ملك الشام كله ودان له أهله ، وكان جبّارا عاتيا، وكان يعبد صنما يقال له أفلون؛ وكان جِرْجِيس عبدا صالحا من أهل فِلَسْطِينَ قد أدرك بقايا من حَوَارِيّى عيسى عليه السلام، وكان تاجرا عظيما كثير المال عظيم الصدقة، وكان لا يأمن ولاية المشركين

---

(١) فى الطبرى (ص ٧٩٦ من القسم الأول) : « داذانه » وقد أشار مصححه فى الهامش الى أنه ورد فى بعض النسخ « دادايه » و « دازانه » . وفى تاريخ ابن الأثير (ج ١ ص ٢٦٤ طبع أوربا) « دازانه » وأشار مصححه فى الهامش الى أنه ورد فى بعض النسخ « رازلنه » .

عليه مخافة أن يفتنوه عن دينه . فخرج يريد المَوْصِل(١) ومعه مال يريد أن يُهديه إليه حتى لا يجعل لأحد من الملوك عليه سلطانا دُونه . فجاءه حين جاءه وقد بَرَز فى مجلس له وأمر بصنمه أفلون فنُصِب وأوقَد نارا ، فمن لم يسجُد لصنمه أُلْقِىَ فى النار . فلمّا رأى جِرْجِيس ذلك قُطِع به وهاله وأعظمه وحدّث نفسه بجهاده ، وألقى الله تعالى فى نفسه بغضه ومجاهدته . فعمَد إلى المـال الذى أراد أن يُهديه له فقسمه فى أهل ملّته حتى لم يبقَ منـه شىءٌ وكرِه أن يجاهده بالمـال . ثم أقبل عليه وقال له : إنك عبد مملوكٌ لا تملك لنفسك شيئا ولا لغيرك ، وإنّ فوقك ربًّا هو الذى ملّكك وغيرك ، وهو الذى خلقك ورزقك ويُحييك ويُميتك ويضرّك وينفعك ، وإنك عمَدتَ إلى خَلْقٍ من خَلْقه قال له : كن ، فكان أصمّ أبكم لا ينطق ولا يَسمع ولا يُغنى عنك من الله شيئا ، فزيّنته بالذهب والفضة فتنةً للناس ، ثم عبدته من دون الله . فكان من جواب الملك إيّاه أن سأله عن حاله وأمره ومَن هو ومن أين هو . فأجابه جرجيس : أنا عبد الله وآبنُ عبده وآبنُ أمته أذلّ عباده وأفقرهم إليـه ، من التراب خُلقت وإليه أصيـر . فقـال له الملك : لو كان ربّك الذى تزعُم كما تقـول لرُئِى عليك أثرُه كما رُئِى أثرى على مَن حَوْلى وفى طاعتى . فأجابه جِرْجِيس بتحميد الله وتعظيم أمره وقال : أتعدِل أفلون الأصمّ الأبكم الذى لا يُغنى عنك شيئا بربّ العـالمين الذى قامت السموات والأرض بأمره ! . أو تعدِل طَرْقَلينا(٢) وما نال بولايتك فإنه عظيم قومك بما نال إلياس

---

(١) الموصل : مدينة بأرض الجزيرة على نهر دجلة على جانبه الغربى ، قديمة العهد لا يعلم من بناها . وفى قبالتها على البر الشرقى منها أطلال مدينة نينوى قاعدة ملك آشور ، وهى التى أرسل إليها النبى يونس عليه السلام . وكانت قاعدة ملك بنى حمدان ، ثم انتقلوا منها إلى حلب ، ثم كانت قاعدة الدولة الزنكية . (راجع معجم الخريطة التاريخية للمالك الاسلامية للرحوم أمين واصف بك) .

(٢) فى الطبرى (ص ٧٩٨ من القسم الأول) : «طرقلينا» . وأشار مصححه فى الهامش إلى أنه ورد فى بعض النسخ : «طرقبلينا» . وفى تاريخ ابن الأثير (ج ١ ص ٢٦٤ طبع أوربا) : «طرقليا» .

بولاية الله تعالى ؛ فإن إلياس كان فى بدء أمره آدميًّا يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق فلم تزل به كرامة الله تعالى حتى أنبت له الريش وألبسه النور فعاد إنسيًّا ملكيًّا سماويًّا أرضيًّا يطير مع الملائكة! أم تعدل مَخْلَنْطِيس[1] وما نال بولايتك فإنه عظيم قومك، بالمسيح بن مريم وما نال بولاية الله تعالى فإن الله فضّله على رجال العالمين وجعله [وأمه][2] آية للمعتبرين ! أم تعدل أمر هذه الروح الطيّبة التى اختارها الله لكلمته وسوّدها على إمائه وما نالت بولاية الله تعالى، بأزبيل[3] وما نالت بولايتك فإنها كانت من شيعتك وعلى ملّتك، فأسلمها الله مع عظم مُلْكها حتى آقتحمت عليها الكلاب فى بيتها فآنتهشت لحمها وولغت فى دمها، وقطّعت الضباع أوصالها!. فقال الملك : إنك لتحدّثنا عن أشياء ليس لنا بها علمٌ، فأتنى بالرجلين اللذين ذكرتَ أمرهما حتّى أنظر إليهما، فإنى أنكر أن يكون هذا من البشر. قال له جِرْجِيس : إنما جاءك الإنكار من قِبَل الغِرّة بالله تعالى. وأمّا الرجلان فلن تراهما ولا يريانك إلّا أن تعمل بعملهما فتنزل منازلهما. فقال له الملك : أمّا نحن فقد أعذرنا إليك وتبيّن لنا كذبك لأنك فخرتَ بأمور عجزتَ عنها . ثم خيّره الملك بين العذاب وبين السجود لأفلون. فقال جِرْجِيس: إن كان أفلون هو الذى رفع السماء ووضع الأرض فقد أصبتَ، وإلّا فاخسأ أيها النجِسُ الملعون. فلمّا سمعه الملك غضب وسبّه وسبّ إلٰهه وأمر بخشبة فنُصِبتْ له وجعل عليها أمشاط الحديد فخدّش بها جسدَه حتى تقطّع لحمه وجلده وعروقه، ونضح خلال ذلك الخلّ والخردل، فحفظه الله تعالى من ذلك الألم والهلاك. فلما رأى ذلك لم يقتله أمر بستّة مسامير من حديد فأُحميتْ، حتى إذا جُعِلت نارًا سمّر

---

(١) فى الطبرى (ص ٧٩٨ من القسم الأول) : « مجليطيس » . وأشار مصححه فى الهامش إلى أنه ورد فى بعض النسخ : « مخليطيس » و « محلنطس » و « محليطس » . وفى تاريخ ابن الأثير (ج ١ ص ٢٦٥) : « مخليطيس » . (٢) زيادة عن الثعلبى .

(٣) كذا فى الطبرى (ص ٧٩٨ من القسم الأول) والثعلبى . وفى الأصول : « بأزنبيل »

بها رأسه حتى سال دماغه، فحفظه الله من الألم والهلاك . فلمّا رأى ذلك لم يقتله أمر بحَوْض من نحاس وأوقد عليه حتى إذا جعله نارًا أمر به فأُدخل فى جوفه
٧٥/٢ وأُطبق عليه فلم يزل فيه حتى برد [حرّه] (١). فلمّا رأى أنّ ذلك لم يقتله دعا به فقال : يا جرجيس ، أمَا تجد ألَم هذا العذاب الذى تُعذَّب به ؟ فقال : إنّ ربّى الذى أخبرتك به حمل عنّى [ألم العذاب] (١) وصبّرنى لأحتجّ عليك. فلمّا قال له ذلك أيقن الملك بالشرّ وخافه على نفسه ومُلْكه ، واجتمع رأيه أن يخلّده فى السجن . فقال له الملأ من قومه : إنك إن تركتَه طليقا فى السجن [يكلّم الناس] (١) يوشك أن يميل بهم عليك، ولكن مُرْ له بعذاب فى السجن يشغله عن كلام الناس . فأمر به فبُطح [فى السجن] (١) على وجهه ثم أوتد [له] (١) فى يديه ورجليه أربعة أوتاد من حديد [فى كل ركن منها وتدٌ] (١)، ثم أمر بأسطوان من رخام فوُضع على ظهره، وحمل ذلك الأسطوان ثمانية عشر رجلا، فظلّ يومه [ذلك] (١) مُوتَدًا تحت الحجر . فلمّا أدركه الليل أرسل الله تعالى [إليه] (١) ملَكا فقلع عنه الحجر ونزع الأوتاد وأطعمه وسقاه و بشّره وعزّاه . فلمّا أصبح أخرجه من السجن وقال له : الحَقْ بعدوّك فجاهده فى الله حقّ جهاده ، فإنّ الله يقول لك : أبشر واصبر فإنّى قد ابتليتك بعدوّك هذا سبع سنين يعذّبك و يقتلك فيهنّ أربع مرّات ، فى كل ذلك أردّ إليك رُوحك ، فإذا كانت الرابعة تقبّلت رُوحك وأوفيتك أجرك . قال : فلم يشعُر الملك وأصحابه إلّا وجرجيس قد وقف على رءوسهم وهو يدعوهم إلى الله تعالى . فقال له الملك : يا جرجيس مَن أخرجك من السجن ؟ قال : أخرجنى الذى سلطانه فوق سلطانك . فلمّا قال له ذلك مُلِئ غيظا ودعا بأصناف العذاب حتى لم يخلّف منها شيئا . فلمّا رآها جرجيس أوجس فى نفسه خِيفةً وفزعا منها ، ثم أقبل على نفسه يعاتبها بأعلى صوته وهم يسمعون .

---

(١) زيادة عن الثعلبى

فلمّا فرغ من عتابه نفسَه مدّوه بين خشبتين ثم وضعوا سيفا على مَفْرِق رأسه فنشروه حتى سقط من بين رجليه وصار قطعتين ، فعمَدوا إلى أجزائه فقطّعوها قطعا ، وللملك سبعةُ أسود ضارية ، وكانوا صنفا من أصناف عذابه ، فرمَوْا بجسده إليها . فأمرها الله تعالى فخضعت له برءوسها وأعناقها وقامت على براثنها ، فظلّ يومه ذلك ميتا وهى أوّل موتة ماتها . فلمّا أدركه الليل جمع الله جسدَه الذى قطّعوه بعضَه إلى بعض حتى سوّاه ، ثم ردّ الله تعالى إليه رُوحه وأرسل مَلَكا فأخرجه من قَعر الجُبّ فأطعمه وسقاه و بشّره وعزّاه . فلمّا أصبحوا قال له المَلَك : يا جِرْجِيس ، قال : لَبّيك ! قال : اعلم أنّ القدرة التى خلق الله تعالى بها آدم من التراب هى التى أخرجتك من قعر الجُبّ ، الحَقْ بعدوّك وجاهدْه فى الله حقّ جهاده ومُتْ موتَ الصابرين . فلم يشعُر الملك وأصحابُه إلّا وقد أقبل جِرْجِيس وهم فى عيد لهم عُكوفٌ عليه صنعوه فرحا بموت جِرْجِيس . فلمّا نظروا إليه وقد أقبل قال الملك : ما أشبهَ هذا بجرجيس ! قالوا : كأنه هو . قال الملك : ما بجِرْجِيس من خفاء إنه لهو ، ألّا ترون الى سكون ريحه وقلّة هيبته . قال جرجيس : أنا هو ، بئس القوم أنتم ! قتلتم ومثّلتم فأحيانى الله بقدرته ، فهلمّوا الى هذا الرب العظيم الذى أراكم ما أراكم . فلمّا قال لهم ذلك أقبل بعضُهم على بعض وقالوا : ساحرٌ سحر أعينكم . وجمعوا مَن كان ببلادهم من السَحرة . فلمّا جاءوا قال الملك لكبيرهم : اِعرِض علىّ من كبير سحرك ما يُقِرّ عَيْنى . قال : ادعُ لى بثور من البقر . فلمّا أُتِى به نفث فى إحدى أذنيه فانشقّت باثنتين ، ثم نفث فى الأخرى فإذا هو ثوران ، ثم دعا ببذر فحُرِث وبُذِر ، فشبّ الزرع واستحصد ، ثم دُرِس وذُرِىَ وطُحِن وعُجِن وخُبِز ، كلّ ذلك فى ساعة واحدة . فقال الملك : هل تقدِر أن تمسخه لى دابّة؟ قال الساحر : أىّ دابّة أمسخه لك؟ قال : كلبا . قال : ادعُ لى بقَدَح من ماء .

فلمّا أُتِى بالقدح نفث فيه الساحر ثم قال: اعْزِمْ عليه أن يشربه ، فشربه جِرْجِيس حتى أتى على آخره . فلمّا فرغ منه قال له الساحر : ماذا تجـد ؟ قال : ما أجد إلّا خيرا ، قد كنتُ عطشتُ فلطَف الله بى بهذا الشراب فقوّانى به عليكم . فأقبل الساحر على الملك فقال له : اعلم أيها الملك إنك لو كنتَ تقاسى رجلا مثلك اذًا لقد كنتَ غلبته ، ولكنّك تُقاسى جبّار السموات والأرض . وهو الملك الذى لا يرام .

قال : وكانت امرأةٌ مسكينةٌ من أهـل الشام سمعت بجِرْجِيس وما يصنع من الأعاجيب ، فأتته وهو فى أشدّ ما هو فيـه من البلاء ، فقالت له : يا جِرْجِيس ، إنى امرأةٌ مسكينةٌ ولم يكن لى مالٌ إلا ثورا أحْرُث عليه فمات فجئتك لترحمنى وتدعو الله تعالى أن يُحيِىَ لى ثورى . فذرفت عيناه ، ثم دعا الله تعالى أن يُحيِىَ لها ثورها ، ٧٦/٢ وأعطاها عصًا وقال لها : اذهبي الى ثورك فاقرعيه بهذه العصا وقُولِى له : احْىَ بإذن الله . فقـالت : يا جِرْجِيس ، مات ثورى منذ أيام ومزّقته السّباع ، و بينى و بينه أيام . فقال : لو لم تجدى منه إلّا سنًّا واحدةً ثم قَرَعْتِها بالعصا لقام بإذن الله تعالى . فآنطلقت حتى أتت مَصْرَعَ ثورها ، وكان أوّلُ شىء بدا لها أحدَ رَوْقَيه وشعر أذنيه ، فجمعت أحدهمـا الى الآخر ثم قرعتهما بالعصا وقالت كما أمرها ، فقام الثور بإذن الله تعالى وعملت عليه . قال : فلما قال الساحر للملك ما قال ، قال رجل من أصحاب الملك ، وكان أعظمهم من بعد الملك ، إنكم قد وضعتم أمرَ هذا الرجل على السحر ، و إنكم عذّبتموه فلم يصـل اليه عذابكم ، وقتلتموه فلم يَمُتْ ، فهـل رأيتم ساحرًا يدرأ عن نفسه الموت وأحيا ميّتا قط؟ فقالوا له : إنّ كلامك لكلام رجل قد صغا إليه فلعلّه استهواك . فقال : بل آمنتُ بالله ، وأشهدوا أنّى برىء مما تعبدون فقام اليه الملك وأصحابه بالخناجر فقتلوه . فلمّـا رأى القوم ذلك اتّبع جِرْجِيس أربعة آلاف رجل . فعمد اليهم الملك فأوثقهم ، ثم لم يزل يعذّبهم بأنواع العذاب حتى أفناهم . فلمّا

فرغ منهــم قال لجرجيس : هلّا دعوتَ ربك فأحيا لك أصحابك هؤلاء الذين قُتلوا بجريرتك !. فقال له جرجيس: ما خُلِّى بينك و بينهم حتى حان لهم . فقال رجل من عظماء أصحابه يقال له مَخْلَنْطِيس : إنك زعمتَ يا جِرْجِيس أن إلٰهك هــو الذى يبدأ الخلق ثم يُعيده، وإنى سائلك أمرًا إن فعله إلٰهك آمنتُ بك وصدّقتك وكفيتك، إنّ حولنا أربعةَ عشر كرسيًا ومائدة، وبيننا أقداحٌ وصِحَافٌ وهى من أشجار شتّى، فادعُ إلٰهك ينشئ هذه الكراسىّ والأوانى كما بدأها أوّل مرّة حتى تعود خضراء يُعرَف كلّ عود منها بلونه وورقه وزهره . فقال له جِرْجِيس : قد سألتَ أمرا عزيزا علىّ وعليك، وإنه على الله لهيّن، ودعا الله عزّ وجل، فما برِحوا من مكانهم حتى آخضرّت تلك الكراسىّ والأوانى كلهــا وساخت عروقها وأُلبست اللحاء وتشعّبت فأورقت وأزهرت وأثمرت. فلمّا نظروا الى ذلك انتدب له مَخْلَنْطِيس الذى تمنّى عليه ما تمنّى فقال : أنا أعذّب لكم هذا الساحر عذابا يضلّ عنه كيدُه . فعمَد الى نحاس فصنع منه صورة ثور أجوف واسع، ثم حشاه نِفطا ورَصاصا وكِبْريتا وزِرْنيخا، ثم أدخل جِرْجِيس مع الحشو فى جوفه، ثم أوقــد تحت الصــورة حتى آلتهبت وذاب كل شىء فيهــا وآختلط، ومات جرجيس فى جوفها . فلمّا مات أرسل الله عزّ وجل ريحا عاصفا فملأتِ السماء سحابا أســودَ مظلما، فيــه رعد و برق وصواعق ، وأرسل الله تبارك وتعــالى إعصارا ملأت بلادهم عَجاجا وقتاما حتى آســودّ ما بين السماء والأرض، ومكثوا أياما متحيّرين فى تلك الظُّلمة لا يفصلون بين الليل والنهــار ، وأرسل الله تعالى ميكائيل فآحتمل الصورة التى فيها جرجيس، حتى اذا أقلّها ضرب بها الأرض ففزِع من روعها أهــل الشام أجمعون فخرّوا على وجوههم صَعِقين ، وآنكسرت الصورة فخرج منها جرجيس حيّا. فلمّا وقف يكلّمهم انكشفتِ الظلمة وأسفر ما بين السماء والأرض ورجعت اليهم أنفسهم . فقال له رجل يقــال له طَرْقَلِينا : لا ندرى

يا جرجيس أأنت تصنع هذه الأعاجيب أم ربّك! فإن كان ربك هو الذى يصنع هذا فآدعُه يُحْيِ موتانا ؛ فإنّ فى هذه القبور أمواتا منهم مَن يعرف ومنهم مَن لا يعرف . فقال له جِرْجِيس : لقد علمتُ ما يصفح الله عنكم هذا الصفح و يُريكم هذه الأعاجيب إلّا كانت عليكم حجّة ، فتستوجبوا غضبه ، ثم أمر بالقبور فنُبِشتْ وهى عظامٌ رُفَاتٌ وأقبل على الدعاء ، فما برحوا من مكانهم حتى نظروا الى سبعة عشر إنسانا : تسعة رهط وخمس نسوة وثلاثة صبية ، واذا فيهم شيخ كبير . فقال له جرجيس : يا شيخ ، ما آسمك ؟ فقال : يا جرجيس اسمى نُوبِيل . قال : متى مُتَّ ؟ قال : فى زمان كذا وكذا . فحسبُوا فإذا هو مات منذ أربعمائة سنة . فلمّا نظر الملك وأصحابه الى ذلك قالوا : ما بقِى من أصناف العذاب شىءٌ إلّا وقد عذّبتموه به إلّا الجوع والعطش ، فعذّبوه بهما . فعمَدوا الى بيت عجوز كبيرة ، وكان لها آبن أعمى أصمّ أبكم مُقعَد ، فحصروه فى بيتها ولا يصل اليه من عند أحد طعامٌ ولا شرابٌ . فلمّا بلغ به الجوع قال للعجوز : هل بقِى عندك من طعام أو شراب ؟ قالت : لا والذى يُحلَف به ما عهِدنا الطعام منذ كذا وكذا ، وسأخرج ألتمس لك شيئا . فقال لها جرجيس : هل تعرفين الله تعالى؟ قالت نعم . قال : فإيّاه تعبُدين؟ قالت لا . فدعاها الى الله عزّ وجلّ فصدّقته ، وانطلقت تطلب له شيئا ، وفى بيتها دِعامة من ٧٧/٢
خشبة يابسة تحمل خشب البيت ، فأقبل على الدعاء ، فاخضرّت تلك الدِّعامة وأنبتت له كل فاكهة تُؤكَل أو تُعرَف ، حتى كان فيها اللُّوبيا واللُّبانُ[(١)] مثل البَرْدِى يكون بالشام ، وظهر للدِّعامة فروعٌ من فوق البيت أظلّته وما حوله . فأقبلت العجوز وهو فيما شاء يأكل رَغَدا . فلمّا رأتِ الذى حدث فى بيتها من بعدها قالت : آمنتُ بالذى أطعمك ، فادعُ هذا الربَّ العظيم ليشفى آبنى . قال : أُدنيه منّى ، فأدنته ، فبصق

(١) كذا فى الثعلبى . وفى الأصول : « وآليا وهو شىء يكون بالشام الخ » .

فى عينيه فأبصر، ونفث فى أذنيه فسمع . قالت له : أطلق لسانه ورجليه رحمك الله . قال: خذيه فإنّ له يوما عظيما . وخرج الملك يوما ليسير فى مدينته، إذ وقع بصره على الشجرة، فقال : إنى أرى شجرة بمكانٍ ما كنتُ أعرفها به . قالوا : تلك شجرة نبتت لذلك الساحر الذى أردتَ أن تعذّبه بالجوع، فهو فيما شاء وقد شبع منها وأشبع العجوز الفقيرة وشفى لها آبنها . فأمر الملك بالبيت فهُدِم و بالشجرة لتُقطَع . فلمّا همّوا بقطعها أيبسها الله تعالى و ردّها كما كانت أوّل مرّة، فتركوها . وأمر بجرجيس فبُطح على وجهه وأُوتدَ له أربعةُ أوتاد ، وأمر بعجلة وأوقرها أسطوانا وجعل فى أسفل العجلة خناجر وشفارا ، ثم دعا بأربعين ثَوْرا فنهضت بالعجلة نهضةً واحدة وجِرْجيس تحتها، فآنقطع ثلاثَ قِطَع، فأمر بِقطَعه فأُحرقت بالنار، حتى اذا عادت رَمادا بعث بذلك الرّماد و بعث معه رجالا فذرّوه فى البحر ، فلم يبرحوا من مكانهم حتى سمعوا صوتا من السماء : يا بحر، إنّ الله يأمرك أن تحفظ ما فيك من هذا الجسد الطيّب، فإنّى أريد أن أعيده كما كان . ثم أرسل الله تعالى الريح فأخرجته ثم جمعته حتى صار الرّماد صُبْرَةً كهيئته قبل أن يذرّوه، فخرج منه جِرْجيس مغبراً ينفُض رأسه، فرجعوا ورجع جِرْجيس ، فأخبروا الملك خبر الصوت [الذى سمعوا] والريح التى جمعته (1)، فقال : هل لك ياجرجيس فيما هو خيرٌ لى ولك مما نحن فيه ؟ ولولا أن يقول الناس إنك قهرتنى وغلبتنى لأتّبعتك وآمنتُ بك، ولكن اسجد لأفلون سجدة واحدة وآذبَح له شاة واحدة، ثم إنى أفعل مايسرّك . فقال له : نعم، مهما شئت فعلت ، فأدخلْنى على صنمك . ففرح الملك بقوله فقام وقبّل يديه ورجليه ورأسه وقال : إنّى أعزِم عليك ألّا تظل هذا اليومَ إلّا عندى ، ولا تبيت هذه الليلةَ إلّا فى بيتى وعلى فراشى ، حتى تستريح و يذهب عنك وَصَب العذاب، ويرى الناس كرامتك علىّ،

(1) زيادة عن الثعلبى .

فأُخلى له بيت فظلّ فيه جرجيس، حتى اذا أدركه الليل قام يصلّى ويقرأ الزّبور، وكان أحسن الناس صوتا . فلمّا سمعت امرأة الملك استجابت له، فلم يشعُر إلّا وهى خلفه تبكى معه، فدعاها جرجيس الى الإيمان فآمنت به، وامرها فكتمت إيمانها. فلمّا أصبح غدا به الملك الى بيت الأصنام ليسجُد لها. [وقيل للعجوز التى كان سجن فى بيتها : هل علمت أن جرجيس قد فتن بعدك فأصغى الى الدنيا وقد خرج به الملك الى بيت أصنامه ليسجُد لها] [(١)] فخرجت العجوز تحمل ابنها على عاتقها وتوبّخ جرجيس والناس مشغولون عنها . فلمّا دخل جرجيس بيت الأصنام ودخل الناس معه نظر فإذا العجوز وابنها على عاتقها أقرب الناس اليه مقاما ؛ فدعا ابن العجوز باسمه فنطق وأجابه ولم [يكن] [(١)] يتكلّم قبل ذلك، ثم اقتحم عن عاتق امه يمشى على رجليه وهما مستويتان وما وطئ على الأرض قبل ذلك قط . فلمّا وقف بين يدى جرجيس قال : اذهَبْ فادعُ لى هذه الأصنام وهى حينئذ سبعون صنما على منابر من ذهب، وهم يعبدون الشمس والقمر معها . فقال له الغلام : كيف أدعو الأصنام؟ قال : قل لها إن جرجيس يسألك ويعزِم عليك بالذى خلقك إلّا أجبتيه . قال : فلمّا قال لها الغلام ذلك أقبلت تدحرج الى جرجيس، فلمّا انتهت اليه ركض الأرض برجله فخسف بها و بمنابرها، وخرج إبليس من جوف صنم منها هاربا فَرِقا من الخَسْف، فلمّا مرّ بجرجيس أخذ بناصيته، فخضع له وكلّمه جرجيس فقال له : أخبرنى أيها الرُّوح النجِسة والخَلْق الملعون، ما الذى يحملك على أن تُهلِك نفسَك وتُهلِك الناسَ وأنت تعلم أنك وجُندك تصيرون الى جهنّم ؟ فقال له إبليس : لو خُيِّرتُ بين ما أشرقت عليه الشمس وأظلم عليه الليل و بين هلكة واحد من بنى آدم وضلالته طَرْفة عين لاخترته على ذلك كله، وإنه ليقَعُ لى من الشهوة واللذّة فى ذلك مثل جميع ما يتلذّذ به جميع الخلائق . ألم تعلم يا جرجيس أنّ الله تعالى

(١) زيادة عن الثعلبى .

أسجد لأبيك آدم جميع الملائكة فسجدوا كلّهم وآمتنعتُ أنا من السجود وقلتُ
٧٨/٢ أنا خير منه ! . فلما قال هذا أخلاه جرجيس . فما دخل إبليس منذ ذلك اليوم
جوف صنم ولا يدخله بعدها فيما يذكرون أبدا . [فقال الملك : ياجرجيس خدعتنى
وغدرتنى وأهلكت آلهتى.](١) فقال جرجيس للملك : إنما فعلت ذلك لتعتبر ولتعلم
أنها لو كانت آلهة لآمتنعت منّى فكيف ثقتك — ويلك — بآلهة لم تمنع أنفسها منّى !
وإنما أنا مخلوق ضعيف لا أملك إلّا ما ملّكنى ربّى . فلمّا قال جرجيس هذا كلّمتهم
آمرأة الملك وكشفت لهم إيمانها، وعدّدت عليهم[أفعالهم](١) أفعال جرجيس والعبر التى
أراهم الله تعالى، وقالت لهم : ما تنتظرون من هذا الرجل إلّا دعوةً فيخسف الله
بكم الأرض كما خسف بأصنامكم. اللهَ اللهَ أيها القوم فى أنفسكم ! . فقال لها الملك :
وَيْحَك يا سَكَنْدرة ! ما أسرعَ ما أضلّك هذا الساحر فى ليلة واحدة وأنا أقاسيه
منذ سبع سنين فلم يظفر منّى بشىء قطّ ! فقالت : أمَا رأيتَ الله كيف يُظفره بك
ويسلّطه عليك فيكون له الفَلْج والحجّة عليك فى كل موطن ! . فأمر بها الملك عند ذلك
فحُملتْ على خشبة جرجيس التى كان عليها عُلّق، وحُملت عليها الأمشاط التى جُعلت
على جرجيس . فلمّا تألّمت قالت : ادعُ ربك يا جرجيس فيخفّف عنّى فإنى قد
آلمنى العذاب . فقال لها : انظرى فوقك . فلمّا نظرتْ ضحكت . فقال لها : ما الذى
يُضحِكك؟ قالت : أرى مَلَكين فوقى معهما تاجٌ من حلى الجنة ينتظران به روحى
أن تخرج . فلمّا خرجتْ أتيا بذلك التاج ثم صعدا بها الى الجنة . قال : فلمّا
قبض الله تعالى رُوحها أقبل جرجيس على الدعاء فقال : اللّهمّ أنت أكرمتنى بهذا
البلاء لتُعطِينى فضائل الشهداء، فهذا آخر أيامى التى وعدتَنى فيه الراحة من بلائك،
فإنّى أسألك ألّا تقبضَ رُوحى ولا أزول من مكانى هذا حتى تُنزِل بهؤلاء القوم من

(١) زيادة عن الثعلبى .

سطوتك ونقمتك مالا يقبل لهم به حتى تشفى به صدرى وتقر به عينى؛ فإنهم ظلمونى وعذبونى . اللهمّ وأسألك ألّا يدعوَ بعدى داعٍ فى بلاء وكرب فيذكرنى ويشير بآسمى إلّا فرّجتَ عنه ورحِمتَه وأجبتَه وشفّعتنى فيه . فلمّا فرغ من هذا الدعاء أمطر الله عليهم نارا من السماء . فلمّا رأوْا ذلك عمدوا اليه وضربوه بالسيوف غيظا عليه من شدّة الحريق ليُعطِيَه الله تعالى بالقتلة الرابعة ما وعده . ثم احترقت المدينة بجميع ما فيها وصارت رمادا ، فحملها الله من وجه الأرض وجعل عاليها سافلها ، فمكثت زمانا يخرج من تحتها دُخَانٌ مُنتِنٌ لا يشمّه أحدٌ إلّا سقِم سقما شديدا . وكان مَن آمن بجرجيس وقُتل معه أربعة وثلاثون ألفا وآمرأة الملك . قالوا : وكان جرجيس فى أيام ملوك الطوائف .

وحيث آنتهى بنا القول فى سرد ما شرحناه من قصص الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ، وما آتصل بذلك من الأخبار؛ فلنذكر الآن التذييل الذى شرحناه فى ترجمة هذا القسم للسبب الذى قدّمناه . وبالله المستعان .

التذييل على القسم الثالث من الفنّ الخامس

يشتمل على ذكر الحوادث التى تظهر قبل نزول عيسى بن مريم الى الأرض ، وما يكون من الفِتَن والحروب ، وخروج من يخرج ويتغلّب على البلاد ، وخروج المهدىّ والدجّال ونزول عيسى بن مريم وقتله الدجّال ، وخروج يأجوج ومأجوج وهلاكهم ، ووفاة عيسى بن مريم ، وما يكون بعده من أشراط الساعة ويوم القيامة والنفخ فى الصُّور والحَشر والمعاد . ممّا أورد إن شاء الله تعالى ذلك من كتب الحديث الصحيح النبوىّ ، ومن كتاب المبتدا للكسائىّ ، ومن كتاب العاقبة للشيخ أبى محمد عبد الحقّ بن عبد الحقّ بن عبدالله الأَزْدىّ الإشبيلىّ على سبيل الاختصار

الباب الأوّل

من التذييل على القسم الثالث من الفنّ الخامس

فى ذكر الحوادث التى تظهر قبل نزول عيسى بن مريم

٧٩/٢ ولنبدأ بذكر الملاحم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ستُصالحكم الرُّوم صُلْحا آمِنًا، ثم تغزون أنتم وهم عدوّا[1] فتنتصرون وتغنمون وتسلمون ثم تنصرفون حتى تنزلوا بمَرْج ذى تلول، فيرفع الرجلُ من أهل الصليبِ الصليبَ فيقول غلب الصليب، فيغضب رجل من المسلمين فيقوم اليه فيدقّه، فعند ذلك تغدر الروم ويجتمعون للملحمة فيأتون حينئذ تحت ثمانين غاية[2] تحت كل غاية اثنا عشر ألفا ". وعنه صلى الله عليه وسلم : " اذا وقعتِ الملاحمُ بعث الله بَعْثًا من الموالى هم أكرمُ العرب فرَسًا وأجودُه سلاحًا يؤيّد الله بهم الدّين ". وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الملحمة الكبرى وفتح القُسْطَنْطِينِيّة وخروج الدجّال فى سبعة أشهر[3] ". وعنه صلى الله عليه وسلم : " لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما صغارَ الأعيُن ذُلْفَ[4] الأنوف كأنّ وجوههم المَجَانّ المُطْرَقة[5] ولا تقوم الساعة حتى تُقاتِلوا قوما نِعالُهم الشَّعر[6] ". وفى الحديث

---

(١) أى عدوّا آخرين بالمشاركة والاجتماع بسبب الصلح الذى بينكم وبينهم أو أنتم تغزون عدوّكم وهم يغزون عدوّهم بالانفراد. (٢) الغاية هنا : الراية. (٣) وروى ابن ماجه أيضا فى سننه (ج ٢ ص ٢٧٥) : « بين الملحمة وفتح المدينة ست سنين ويخرج الدجال فى السابعة ».

(٤) الذلف (بالتحريك) : قصر الأنف وانبطاحه. وقيل : ارتفاع طرفه مع صغر أرنبته.

(٥) المجانّ : جمع المجن وهو الترس. والمطرقة : هى التى ألبست طراقا ، أى جلدا يغشاها. شبه وجوههم بالترس لبسطتها وتدويرها، وبالمطرقة لغلظها وكثرة لحمها (راجع صحيح مسلم ج ٨ ص ١٨٤).

(٦) نعالهم الشعر ، أى يتخذون النعال من الشعر. ويحتمل أن يراد أن ذوائبهم لطولها ولوصولها الى أرجلهم كالنعال.

الآخر: «إن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوما عِراضَ الوجوه كأنّ وجوههم المجانّ المُطْرَقَة، وإن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوما ينتعلون الشَّعَر». وعنه صلى الله عليه وسلم: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما صِغارَ الأعينِ عِراض الوجوه كأنّ أعينهم حَدَق الجراد كأنّ وجوهم المجانّ المُطْرَقة ينتعلون الشَّعَر ويتخذون الدَّرَق يربطون خيولهم بالنخل[1]». خرّج هذه الأحاديث ابن ماجه[2].

ذكر خبر المتغلّبين على البلاد

وذلك مما يظهر من الفتن قبل نزول عيسى عليه السلام

قال أبو الحسن الكسائى عن كعب الأحبار: ولا بدّ أن يحدُث بين يدَىْ نزول عيسى علامات وحروب وفتن، فأوّل مَن يخرُج ويغلب على البلاد رجلٌ اسمه الأَصْهَبُ من بلاد الجزيرة، ويخرج الجُرْهُمِى من بلاد الشام، ويخرج القَحْطانى بأرض اليمن، وهو أمثل هؤلاء الثلاثة شَوْكةً. فبينا هؤلاء الثلاثة فى مواضعهم وقد تغلّبوا على أمكنتهم بالظلم والجَوْر إذا هم بالرجل السُّفيانى قد خرج من غُوطة دِمَشْق، وقيل: إنه يخرُج من الشام، وقيل: إنه يخرُج من الوادى اليابس. وأخواله من كَلْب، واسمه مُعاوية بن عَنْبسة، وهو رَبْعٌ من الرجال، دقيق الوجه، طويل الأنف، مُحْدَوْدِب، جَهْوَرِىّ الصوت، يَكْسِر عينه اليمنى؛ يحسَبُه الذى يراه كأنه أعْوَر وليس بأعور، يظهر فى أوّل أمره بالزهد ويبذُل الأموال، ويُخْطَب له على منابر الشام، ويكون جريئا على سَفْك الدماء لمن خالفه، ويعطِّل الجمعة والجماعة. وعلامة بدء أمره أنه يخرُج فى كل مدينة دجّال يدعو الى نفسه، ويُظهِر الفسق حتى إنهم يفجُرون فى المساجد، فيخرُج عليهم السُّفيانى

(١) النخل: موضع غربى مسجد الأحزاب. وقيل: هو على ثلاثة أميال من المدينة.

(٢) راجع كتاب سنن ابن ماجه (ج ٢ ص ٢٧٠، ٢٧١ طبع مصر سنة ١٣١٣ هـ).

حتى ينزل أرض دمشق ، فيجتمع اليه القوم ويبايعونه ، ويفرق الأموال الكثيرة بينهم حتى يقولوا هذا خير أهل الأرض . ثم يسير فى الشام وعلى مقدّمته رجلٌ من جُهَينة يقال له ناجية حتى ينزل العراق، فيُخرج اليه القحْطانىّ جيشا كثيرا فيهزمهم ناجية هزيمة قبيحة، فعند ذلك يُوَجّه السُّفْيانىّ ثلاث جيوش : جيش الى الكوفة فيقتُلون قتلا ذريعا، وجيش الى خراسان فيقتُلون ويحرّقون، وجيش الى الروم حتى يكثر القتل منهم فى الدنيا وفى كل طريق . فعند ذلك يجتمع الصالحون على السُّفيانىّ ويخوّفونه عقوبة الله فى سَفْك الدماء، فيأمر بقتلهم وقتل العلماء والزُّهّاد فى جميع الآفاق . فعند ذلك يجتمع المسلمون على رجل من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقال له محمد بن علىّ فيبايعونه ويسمّونه المهدىّ . والله أعلم .

ذكر خبر خروج المهدىّ

قال ٱبن عبّاس رضى الله عنهما : يُبَايَعُ بين مكة والرُّكن، ويكون أوّل أمره على عدد ٨٠ / ١٢
أهل بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا. وقيل : إنه يخرج [قبل هذا ولىّ] (١) من قرية من قرى حرس (٢) فى ثلاثين رجلا، ثم يجتمع اليه المؤمنون من كل ناحية، ثم ينكسف القمر ثلاث ليالٍ متواليات، ثم يظهر المهدىّ بمكة ويَشيع أمره، فيبلغ ذلك [الزّهرانىّ صاحب] (١) السُّفيانىّ، فيبعث الى المهدىّ جيشا ثلاثين ألفا فينزلون فى البرّيّة . ثم يخرج السُّفيانىّ الى البيداء، فإذا ٱستقرّ بالموضع خسف الله تعالى بهم الأرض، فيأخذهم الى أعناقهم حتى لا يُفلت منهم إلّا رجلان يخرجان بفرسيهما، فإذا وصلوا الى القوم رأوهم وقد خَسَف الله بهم، فيخسف الأرض بواحد منهما، ويحوّل الله وجه الآخر الى قفاه، فيبقى كذلك مدّة حياته . ثم يخرُج المهدىّ

(١) التكملة عن الكسائى . (٢) كذا فى الأصول . وفى الكسائى : « مرجوش » .

بمن معه الى بلاد الروم فيسير حتى يسمع بهلاك السُّفيانىّ وأصحابه . قال : وذلك قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾[1] . فيحمد المهدىّ الله تعالى على ذلك، ويخرج الى بلاد الروم فى نحـو مائة ألف فيصل الى القُسْطَنْطِينِيّة، فيدعو ملكَ الروم الى الإسـلام فيأبَى فيقاتله ، ويدوم القتال بينهم شهرين، ثم ينهزم ملك الروم . ويدخل [المسلمون][2] الى القسطنطينية ، فينزل المهدىّ على بابها، ولها سبعة أسوار، فيكبِّر سبع تكبيرات فينهدم كلّ سور منها بتكبيرة . ويدخلها المهدىّ ويقتُل خلقا كثيرا ويقتُل ملكَ الروم، ثم يرفع [عنهم][2] السيفَ، ويأخذ المسلمون من الغنائم ما لا يُحصَى ، حتى إنّ الرجل ليأخذ من الجوهر ما يعجز عن حمـله . فبينما هم كذلك إذ يأتيهم الخـبرُ من خليفة المهدىّ بخروج الدجّال واجتماع الناس عليه، فيتركون تلك الغنائم وينصرفون الى بلادهم مسرعين لمحاربة الدجّال. فيقال : إن المهدىّ يسير نحو الدجّال وعلى رأسه عمامة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيلتقون ويقتتلون قتالا شديدا ، فيُقتَل من أصحاب الدجّال أكثر من ثلاثين ألفا. ثم ينهزم الدجّال فيمرّ نحو بيت المقدس، فيأمر الله الأرض بإمساك قوائم خيله ، ويرسل عليهم ريحا حمراءَ فتقتُل منهـم أربعين ألفا . قال : ثم يُقبِل المهـدىّ بجيشه زُهاء[3] مائة ألف، فى أيديهم الراياتُ البيض . فيقول المهدىّ [لعسكر الدجّال][2] : ويلكم! أتشكّون فى هـذا الأعور الكذّاب[4] أنه الدجّال؟ فيقولون : لا ، ولكنّا نعيش فى طعامه . فيُمسَـخُون فى الحال قِرَدَةً وخنازير . ثم ينزل عيسى بعـد ذلك الى الأرض ويصلّى خلف المهدىّ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

---

(١) سورة سبإ آية ١٥ (٢) زيادة عن الكسائىّ .

(٣) فى الأصول : « بجيشه زهاء على مائة ألف ... الخ » بزيادة « ع

(٤) عبارة الكسائى : « أتشكون فى هذا الأعور الدجال أنه كذاب »

ذكر خبر خروج الدجّال وصفته

وما يكون من أمره الى أن ينزل عيسى عليه السلام

قال كعب : إنّ الدجّال رجلٌ طويلٌ، عريضُ الصدر، مطموسُ العين اليمنى، واليسرى كأنها كوكبٌ درّىّ، مكتوبٌ بين عينيه : "كافر"، يقرؤه كل كاتب أو غير كاتب . و يدّعى أنه الربّ، ومعه يومئذ جبل من خبز، وجبل من لحم، وأجناس الفواكه والخمور، ومعه أصحاب الملاهى يمشون بين يديه بالطبول والطنابير والمعازف والعيدان والنايات والصُّنوج وغير ذلك، فلا يسمعه أحد إلا وتبعه وفتنه إلّا مَن عصمه الله . و يكون معه نارٌ وجنّة، وهو يقول : مَن أطاعنى أدخلته الجنّة، ومَن عصانى ولم يسجُد لى ألقيته فى النار . قال : وعلامة خروجه أن تهبّ ريحٌ مثل ريح قوم عاد، وتُسمَع صيحةٌ عظيمةٌ مثل صيحة قوم صالح، ويكونَ مَسْخا كمَسْخ أصحاب الرسّ، وذلك عند ترك الناس الأمرَ بالمعروف والنهىَ عن المنكر . فإذا أخذوا فى سَفْك الدماء واستحلّوا الرِّبا وشيّدوا البنيان وشربوا الخمور، واكتفى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، فعند ذلك يخرج الدجال من جهة المشرق من قرية يقال لها سيراباد(1) بين الأهواز وأصفهان، ويخرج على حمار له . قال: وهو أحمرُ الحاجبين، أشعرُ الأنف، تخرُج من خلل أسنانه رائحةٌ لا يَشَمّها أحدٌ إلّا صار اليه نَتْنه، فى جبهته قرنٌ مكسور تخرج منه الحيّات والعقارب، مُحْدَوْدِب الظهر، قد صُوِّرت آلات السلاح فى جسده حتى الرمح والفأس والسهم والدَّرَق . وهو يتناول السحاب بيده، و يخوض البحار الى كعبيه، ويستظلّ فى ظلّ أذُن حماره خلقٌ كثير من أولاد الزِّنا، عليهم خِفافٌ مخروطةٌ، لخفافهم مناقير كمناقير العِقْبان، لأصابعهم أظافير كالمناجل، ومعه قوم ٨١/١٢

(1) فى الكسائىّ : « درساباد » .

من السَّحَرة يقلبون الجبال خبزا والأنهارَ شرابا ، ولا يُطعِم ولا يَسقِي إلّا من آمن به . ومعه صاحب لوائه من قريته ينادى بأعلى صوته : هذا ربكم فاعرِفوه . فإذا سار الدجّال سارت معه جبال طعامه وأنهار شرابه ، و إذا وقف وقفت . يطوف الأرض شرقَها وغربَها حتى يدخل أرض بابِل فيلقاه الخَضِر ، فيقول له الدجّال : أنا ربّ العالمين . فيقول له الخَضِر : كذبتَ يا دجّال ! إنّ ربّ العالمين ربُّ السموات والأرضين . فيقتله الدجّال و يقول : لو كان لهذا إله كما يزعم لأحياه . فيُحيِي الله الخضر من ساعته فيقوم ويقول : ها أنا يا دجّال ، قد أحيانى الله ربّى . ثم يُقبِل الخَضِر على أصحابه و يقول : ويلكم ! لا يَفْتننّكم هذا الكافر . ويقال : إنه يقتل الخَضِر ثلاث مرّات ويُحييه الله تعالى . ثم يخرج الدجّال نحو مكة ، فإذا دنا منها رأى الملائكة (١) مُحدقين بالبيت الحرام قد نشروا أجنحتهم على الكعبة ، يخرُج من خلَل أجنحتهم مثلُ شَرَر النّيران ، فلا يقدر على دخولها . ثم يسير الى المدينة فيجدها كذلك . ثم يمضى الى بيت المَقْدِس فلا يقدر على دخوله لكثرة مَن حوله من الملائكة . واختُلف فى مدّة إقامته فى الأرض ، فقيل أربعين سنة ، وقيل أربعين يوما ، على ما نورد ذلك من الحديث الصحيح النبوىّ الذى يشمَل ذكر هذه الفتن كلها . قال : وأمّا المسلمون فإنهم يصومون و يصلّون كما كانوا غير أنهم فى غمّ ، قد تركوا المساجد ولزموا البيوت ، وتطلُع الشمس متلوّنة : مرّة بيضاء ، ومرّة صفراء ، ومرّة حمراء ، ومرّة سوداء ، وتكون الأرض فى الزلزلة والرجفة ، ثم يكون بينه و بين المهدىّ ما قدّمنا ، ثم ينزل عيسى بن مريم عليه السلام .

---

(١) كذا فى الكسائىّ . وفى الأصلين : « ينظر الى الملائكة » .

الباب الثانى من التذييل

على القسم الثالث من الفنّ الخامس

فى خبر نزول عيسى بن مريم عليه السلام وقتله الدجّال

وخروج يأجوج ومأجوج وفسادهم وهلاكهم، ووفاة عيسى عليه السلام

لمّا رأيت أهل السِّيَر قد أكثروا من القول فى نزول عيسى عليه السلام وزادوا فى القول ونقصوا منه، عدلت عن أقوالهم، وأوردت ما أذكره من ذلك من الحديث الصحيح النبوىّ، وكذلك خروج يأجوج ومأجوج وهلاكهم. وختمتُ هذا الباب بالحديث الشامل فى خروج الدجّال، ونزول عيسى بن مريم عليه السلام وغير ذلك. وهذه الأحاديث خرّجتها من كتاب السُّنَن للإمام الحافظ أبى عبد الله محمد ابن يزيد بن ماجه القَزْوِينى، رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين.

ذكر نزول عيسى بن مريم عليه السلام

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد ذكر فتنة الدجّال وما يلاقيه الناس منه، قال: "فبينما هم كذلك إذ بعث الله عيسى بنَ مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق بين مَهْرُودَتَيْن[1] واضعٌ[2] كفّيه على أجنحة مَلَكَيْن، اذا طأطأ رأسه قَطَر[3]، وإذا رفع رأسه يتحدر منه جُمان كاللؤلؤ، ولا يحلّ لكافر أن يجد ريح نَفَسه إلّا مات. ونَفَسُه ينتهى حيث ينتهى طَرْفه، فينطلق حتى يدرك الدجّال فيقتله عند باب لُدّ[4]".

قال: "ثم يأتى نبىّ الله عيسى عليه السلام قوما قد عصمهم الله فيمسح وجوههم ويحدّثهم بدرجاتهم فى الجنة". والله أعلم.

(١) أى بين حلتين شبيهتين بالمصبوغ بالمرد. والمرد (بالضم): عروق يصبغ بها.

(٢) كذا فى سنن ابن ماجه. وفى الترمذى «واضعا» بالنصب وهو الظاهر. على أنه يجوز أن يقرأ هنا بالنصب لأن أهل الحديث كثيرا ما يكتبون المنصوب بصورة المرفوع. أما الرفع فعلى تقدير مبتدأ محذوف.

(٣) قطر: ذهب وأسرع. (٤) لد (بالضم والتشديد): قرية قرب بيت المقدس من نواحى فلسطين.

٨٢/١٢

ذكر خبر يأجوج ومأجوج

صحّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إنّ يأجوج ومأجوج ليَحْفِرون السدّ كلّ يوم حتى إذا كادوا يَرَوْن شُعاع الشمس قال الذى عليهم ارجعوا فستحفِرونه غدا فيعيده الله عزّ وجل أشدّ ما كان حتى إذا بلغت مدّتهم وأراد الله أن يبعثهم إلى الناس حفَروا حتى إذا كادوا يَرَوْن شُعاع الشمس قال ارجعوا فستحفِرونه غدا إن شاء الله واستثنَوْا فيعودون اليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفِرونه ويخرجون على الأرض فيَنْشَفُون المياه ويتحصّن الناس منهم فى حصونهم فيرمُون بسهامهم إلى السماء فيرجع عليهم الدم الذى أَجْفظ[1] فيقولون قهَرْنا أهلَ الأرض وعلَوْنا أهلَ السماء فيبعث الله عليهم نَغَفا[2] فى أقفائهم فيقتلهم بها" . قال صلى الله عليه وسلم : "والذى نفسى بيده إنّ دوابّ الأرض لتسمَن وتشكَر[3] شكرا من لحومهم ودمائهم" . وفى الحديث الآخر : " إنّ الله تعالى يوحى إلى عيسى أنّى قد أخرجتُ عباداً لى لا يَدَان لأحدٍ بقتالهم فأحْرِزْ عبادى إلى الطور . ويبعث الله يأْجُوج ومأْجُوج وهم كما قال الله تعالى ﴿مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ فيمرّ أوائلهم على بُحَيرة طَبَرِيّة فيشربون ما فيها ثم يمرّ آخرهم فيقولون لقد كان فى هذا ماء مرّةً ولَيُحْصَرُ نبىّ الله عيسى عليه السلام وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرا من مائة دينار لأحد كم اليوم فيرغَب نبىّ الله عيسى وأصحابه إلى الله عزّ وجل فيُرسِل الله عليهم النغَف فى رقابهم فيصبحون فَرْسَى[4] كموت نفس واحدة ويهبط نبىّ الله عيسى وأصحابُه فلا يجدون موضع شبْرٍ إلّا قد ملأه زَهَمُهم[5] ونَتَنهم ودماؤهم فيرغبون إلى الله عزّ وجل فيُرسِل عليهم طيرا كأعناق البُخْت فتحملهم

---

(١) أجفظ (بالجيم) : أنتن . (٢) النغف : الدود . (٣) شكرت الدابة شكرا (وزان فرح) : سمنت . (٤) فرسى كقتلى لفظا ومعنى؛ يقال : فرس الذئب الشاة إذا قتلها . (٥) الزهم (بالضم) : الريح المنتنة .

فتطرحهم حيث شاء الله عز وجل . ثم يرسل الله [عليهم][1] مطرا لا يكنّ منه بيت مدر ولا وبر فيغسله حتى يتركه كالزلفة[2]، ثم يقال للأرض أنبتي ثمرتك وردّي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة فتشبعهم و يستظلون بقحفها[3]، و يبارك الله في الرِّسل[4] حتى إن اللقحة[5] من الإبل تكفي الفئام[6] من الناس، واللقحة من البقر تكفي القبيلة، واللقحة من الغنم تكفي الفخذ[7] . فبينما هم كذلك إذ بعث الله عليهم ريحا طيبة فتأخذ تحت آباطهم فتقبض روح كل مسلم و يبقى سائر الناس يتهارجون[8] كما يتهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة" . وفي الحديث الصحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : "لما كان ليلة أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم لقي إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام فتذاكروا الساعة فبدءوا بإبراهيم فسألوه عنها فلم يكن عنده منها علم، ثم سألوا موسى فلم يكن عنده منها علم، فردّ الحديث إلى عيسى بن مريم فقال قد عهد إليّ فيما دون وجبتها[9]، فأما وجبتها فلا يعلمها إلا الله، فذكر خروج الدجال قال فأنزل فأقتله فيرجع الناس إلى بلادهم فيستقبلهم يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، فلا يمرّون بماء إلا شربوه ولا بشيء إلا أفسدوه، فيجأرون إلى الله تعالى فأدعو الله أن يميتهم فتنتن الأرض من ريحهم ، فيجأرون إلى الله فأدعو الله فيرسل السماء بالماء فيحملهم

(١) زيادة عن سنن ابن ماجه .

(٢) الزلفة (بفتحتين) : الصخرة الملساء ، والصدفة ، والمرآة ، ومصانع الماء .

(٣) بقحفها (بالكسر) : بقشرها تشبيها بقحف الرأس .

(٤) الرسل (بكسر الراء وسكون السين المهملة) : اللبن .

(٥) اللقحة (بالفتح والكسر) : الناقة القريبة العهد بالنتاج .

(٦) الفئام (ككتاب) : الجماعة الكثيرة من الناس ، لا واحد له من لفظه .

(٧) الفخذ : هو دون القبيلة وفوق البطن .

(٨) يتهارجون : يتسافدون .

(٩) وجبتها : قيامها .

فيلقيهم فى البحر ثم تُنسف الجبال وتُمَدّ الأرض مدّ الأديم فعُهد إلىّ متى كان ذلك كانت الساعة من الناس كالحامل لا يدرى أهلها متى تفجأهم بولادتها " .

قال العوّام بن حَوْشَب وهو من رواة هذا الحديث : ووُجد تصديق ذلك فى كتاب الله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾[1] . وفى الحديث الآخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يُفتَح يأجوجُ ومأجوجَ فيخرجون كما قال الله تعالى : ﴿ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ فيعمّون الأرض ويحاز منهم المسلمون حتى تصير بقيّة المسلمين فى مدائنهم وحصونهم ويضمّون إليهم مواشيَهم، حتى إنهم ليمرّون بالنهر فيشربونه حتى ما يذرون فيه شيئا، فيمرّ آخرهم على أثرهم فيقول قائلهم لقد كان بهذا المكان مرّةً ماء . ويَظهَرون على الأرض، فيقول قائلهم هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم ولَنُنازِلَنّ أهلَ السماء، حتى إنّ أحدهم لَيهُزّ حَربته إلى السماء فترجع مخضَّبةً بالدم،

٨٣ / ١٢ فيقولون قد قتلنا أهل السماء . فبينما هم كذلك إذ بعث الله دوابّ كنغف الجراد فتأخذ بأعناقهم فيموتون موت الجراد يركب بعضهم بعضا، فيصبح المسلمون لا يسمعون لهم حسّا، فيقولون مَن رجُلٌ يَشْرِى نفسه وينظر ما فعلوا، فينزل منهم رجُلٌ قد وطَّن نفسه على أن يقتلوه فيجدهم موتَى، فيناديهم ألَا أَبْشِروا فقد هلك عدوّكم ، فيخرج الناس ويُخلون سبيل مواشيهم فما يكون لهم رِعْيٌ إلّا لحومهم فتَشكَرَ عليها كأحسن ماشكِرت من نباتٍ أصابته قطّ " . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " سيُوقِد المسلمون من قِسِيّ يأجوج ومأجوج ونُشّابهم وأَتْرِستهم سبعَ سنين " .

والله المعين .

---

(١) سورة الأنبياء، آية ٩٦ وما بعدها .

الحديث الجامع لأخبار عيسى بن مريم عليه السلام والدجّال

قال الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزوينى فى سُنَنه :

حدّثنا علىّ بن محمد قال حدّثنا عبد الرحمن المُحَارِبىّ عن إسماعيل بن رافع أبى رافع عن أبى زُرْعة السَّيبانىّ(١) يحيى بن أبى عمرو عن أبى أُمامة الباهلىّ قال : خَطَبنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فكان أكثر خطبته حديثا حدَّثناه عن الدجّال وحذَّرَناه، فكان من قوله أن قال: "إنه لم تكن فتنةٌ فى الأرض مُنذ ذرأ(٢) الله ذرّية آدم صلى الله عليه وسلم أعظم من فتنة الدجّال، وإنّ الله عزّوجل لم يبعث نبيّا إلّا حذّر أمّته الدجّال. وأنا آخر الأنبياء وأنتم آخر الأمم، وهو خارجٌ فيكم لا محالة. فإن يخرُج وأنا بين ظَهْرانَيْكم فأنا حَجيجٌ لكلّ مسلم، وإن يخرُج من بعدى فكلّ امرئٍ حجيج نفسه، والله خليفتى على كل مسلم. وإنه يخرُج من خِلّة بين الشام والعراق فَيَعيث(٣) يمينا ويَعيث شمالا يا عباد الله فاثبتوا فإنّى سأصفه لكم صفةً لم يصفها إيّاه نبىّ قبلى: إنه يبدأ فيقول أنا نبىّ، ولا نبىّ بعدى، ثم يثنّى فيقول أنا ربكم، ولا تَرَوْن ربكم حتى تموتوا، وإنه أعور وإنّ ربكم عزّ وجل ليس بأعور، وإنه مكتوبٌ بين عينيه «كافر» يقرؤه كل مؤمن كاتب أو غير كاتب. وإنّ من فتنته أنّ معه جنّةً ونارا، فناره جنّةٌ، وجنّته نارٌ. فمن ابتُلِىَ بناره فليستغث بالله وليقرأ فواتح الكهف فتكون عليه بَرْدا وسلاما كما كانت النار على إبراهيم. وإنّ من فتنته أن يقول لأعرابىّ أرأيتَ إن بعثتُ لك أباك وأمّك أتشهد أنّى ربّك فيقول نعم، فيتمثّل له شيطانان فى صورة أبيه وأمّه فيقولان يابنىّ اتبعه فإنه ربك. وإنّ من فتنته أن يسلَّط على نفس واحدة فيقتلها وينشُرها بالمنشار حتى تُلقَى شِقّين، ثم يقول

---

(١) السيبانى (بفتح السين المهملة) : نسبة الى سيبان، بطن من حمير. وفى الأصول :
٢ «الشيبانى» بالشين المعجمة وهو تحريف. (٢) ذرأ : خلق.
(٣) يعيث : يفسد.

انظروا الى عبدى هذا فإنّى أبعثه الآن، ثم يزعم أنّ له ربّاً غيرى، فيبعثه الله و يقول له الخبيثُ مَن ربّك؟ فيقول ربّى الله وأنتَ عدوّ الله أنتَ الدجّال، والله ما كنتُ بعدُ أشدّ بصيرةً بك منّى اليوم". قال أبو الحسن الطَّنافِسِىّ فحدثنا المُحَارِبِىّ حدثنا عُبَيدالله ابن الوليد الوَصّافِىّ عن عطيّة عن أبى سَعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ذلك الرجلُ أرفعُ أمّتى درجةً فى الجنة". قال قال أبو سَعيد: والله ما كنّا نرى ذلك الرجل إلّا عمر بن الخطاب حتى مضى لسبيله. قال المُحارِبِىّ ثم رجعنا الى حديث أبى رافع قال: "وإنّ من فتنته أن يأمر السماء أن تُمطِر فتُمطِر، و يأمرَ الأرض أن تُنبِت فتُنبِت. وإنّ من فتنته أن يمرّ بالحىّ فيكذّبونه فلا تبقَى لهم سائمةٌ إلّا هلكت. و إنّ من فتنته أن يمرّ بالحىّ فيصدّقونه فيأمر السماء أن تُمطِر فتُمطِر و يأمر الأرض أن تُنبِت فتُنبِت حتى تروح مواشيهم من يومهم ذلك أسمَن ما كانت وأعظمَه وأمدّه خواصرَ وأدَرّه ضروعا. وإنه لا يَبقَى شىءٌ من الأرض إلّا وطئه وظهر عليه إلّا مكة والمدينة لا يأتيهما من نَقْب[1] من نقابهما إلّا لَقِيَتْه الملائكة بالسيوف صَلْتَةً[2] حتى ينزل عند الظُّرَيب[3] الأحمر عند مُنْقَطَع السَّبَخة فترجُف المدينة بأهلها ثلاثَ رَجَفات فلا يبقَى منافق ولا منافقة إلّا خرج اليه، فتنفى الخَبَث منها كما ينفِى الكِيرُ خَبَثَ الحديد، ويُدعَى ذلك اليوم يومَ الخلاص. فقالت أمّ شَرِيك بنت أبى العَكَر[4] يارسول الله فأين العرب يومئذ؟ ٨٤/١٢ قال هم يومئذ قليلٌ وجلّهم ببيت المقدس و إمامهم رجلٌ صالح. فبينما إمامهم قد تقدّم يصلّى بهم الصبح إذ نزل عليهم عيسى بن مريم عليه السلام الصبحَ، فرجع ذلك

(١) النقب (بفتح فسكون): الطريق بين الجبلين. (٢) صلتة، أى مجردة؛ يقال: أصلت السيف إذا جرّده من غمده. (٣) الظريب لعل المراد به الجبل. (٤) كذا فى الأصول وكتاب سنن ابن ماجه الذى ينقل عنه المؤلف، وهو خطأ. والصواب أن أم شريك هذه هى بنت دودان ابن عوف بن عامر ابن رواحة الدوسية. وكانت تحت أبى العكر الدوسىّ واسمها غزية، و يقال غزيلة. من المهاجرات. (راجع أسد الغابة فى معرفة الصحابة ج ٥ ص ٥٩٤ وتهذيب التهذيب ج ١٢ ص ٤٧٢).

الإمام ينكص (يمشي القهقرى) ليتقدّم عيسى عليه السلام يصلّي بالناس، فيضع عليه السلام يديه بين كتفيه ثم يقول له تقدّم فصلّ فإنها لك أُقيمت فيصلّي بهم إمامهم، فإذا انصرف قال عيسى عليه السلام افتحوا الباب[1] فيُفتَح ووراءه الدجّال ومعه سبعون ألف يهوديّ كلهم ذو سيف محلًّى وساج[2]، فإذا نظر اليه الدجّال ذاب كما يذوب الملح فى الماء فينطلق هاربا، ويقول عيسى عليه السلام إنّ لى فيك ضربةً لن تسبقني بها فيدركه عند باب اللُّدّ الشرقيّ فيقتله فيهزم الله اليهود فلا يبقى شيء مما خلق الله عزّ وجلّ يتوارى به يهوديّ إلا أنطق الله ذلك الشيء لا حجرٌ ولا شجرٌ ولا حائطٌ ولا دابّةٌ إلّا الغرقدة[3] فإنها من شجرهم لا تنطق إلا قال ياعبد الله المسلم هذا يهوديّ فتعالَ اقتُله. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنّ أيامه أربعون سنةً، السنة كنصف السنة، والسنة كالشهر، والشهر كالجمعة، وآخر أيامه كالشَّرَرة يُصبح أحدكم على باب المدينة فلا يبلُغ بابها الآخر حتى يُمسي. فقيل له يارسول الله كيف نُصلّي فى تلك الأيام القِصار؟ قال تقدّرون فيها الصلاة كما تقدّرونها فى هذه الأيام الطِّوال ثم صلّوا. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيكون عيسى بن مريم فى أمّتي حكمًا[4] عدلا وإماما مُقسطا[5]، يدُقّ الصليب[6]، ويذبح الخنزير[7]، ويضع الجزية[8]، ويترك الصدقة[9] فلا يُسعَى على

---

(١) الباب، أى باب المسجد.
(٢) الساج: الطيلسان الأخضر.
(٣) الغرقدة: ضرب من شجر العضاه.
(٤) حكما، أى حاكما بين الناس بشريعة النبيّ صلى الله عليه وسلم لا نبيا مرسلا بشريعة أخرى.
(٥) مقسطا، أى عادلا فى الحكم.
(٦) يدق الصليب، أى يكسره بحيث لا يبقى من جنس الصليب شيء حتى لا يعبد إلا الله تعالى.
(٧) ويذبح الخنزير، أى يحرم أكله أو يقتله بحيث لا يوجد فى الأرض ليأكله أحد.
(٨) ويضع الجزية، أى لا يقبلها من أحد من الكفرة بل يدعوهم الى الاسلام مرّة وهذا بيان منه صلى الله عليه وسلم بأن الجزية فى دينه الى زمان عيسى لا أن عيسى يأتى بنسخها.
(٩) ويترك الصدقة، أى الزكاة لكثرة الأموال.

شاة ولا بعير، وتُرفَع الشحناء والتباغُض، وتُنزَع حُمَة(1) كلّ ذاتِ حُمَة حتّى يُدخِل الوليد يده فى الحيّة فلا تضرّه، وتفُرّ(2) الوليدةُ الأسدَ فلا يضرّها، و يكون الذئب فى الغنم كأنه كلبها، وتُملأ الأرضُ من السِّلْم كما يُملأ الإناء من الماء، وتكون الكلمة واحدة فلا يُعبَد إلا الله، وتَضع الحرب أوزارها، وتُسلَب قريشٌ مُلْكَها، وتكون الأرض كفاثور(3) الفضّة — وقيل كفاثور الفضة — تُنْبِت نباتَها بعهد آدم حتى يجتمع النفر على القِطْف من العِنب فيُشبِعُهم، و يجتمع النفر على الرمّانة فتُشبِعُهم، ويكون الثور بكذا وكذا من المال، و يكون الفرس بالدُّرَيهمات. قالوا يا رسول الله: وما يُرخِّص الفرس؟ قال: لا يُركَب لحرب أبدا. قيل له: فما يُغلي الثور؟ قال تُحرَث الأرض كلُّها. و إنّ قبلَ خروج الدّجال ثلاثَ سنوات شِدَاد يصيب الناس فيها جوعٌ شديدٌ، يأمر الله السماء فى السنة الأولى أن تَحبِس ثُلث مطرها و يأمر الأرض فتَحبِس ثُلث نباتها، ثم يأمر السماء فى السنة الثانية فتَحبِس ثُلثَيْ مطرها و يأمر الأرض فتحبِس ثُلُثَيْ نباتها، ثم يأمر الله السماء فى السنة الثالثة فتَحبِس مطرها كلّه فلا تقطُر قطرة و يأمر الأرض فتَحبِس نباتها كلّه فلا تُنبت خَضِرًا، ولا تبقَى ذاتُ ظِلْف إلّا هلكت إلّا ما شاء الله عزّ وجل. قيل: فما يُعيش الناسَ فى ذلك الزمان؟ قال: التهليل والتكبير والتسبيح والتحميد و يجرى ذلك عليهم مَجرى الطعام". قال المُحاربى: ينبغى أن يُدْفَع هذا الحديث إلى المؤدّب حتى يعلّمه الصبيان فى المكاتب.

---

(1) الحمة: السم أو الابرة التى يضرب بها الزنبور والحية ونحو ذلك أو يلدغ بها.

(2) تفرّ أى تفتح فاه. (3) لم نجد كلمة «فاثور» فى كتب اللغة، على أن هذه الكلمة ليست فى سنن ابن ماجه. والفاثور: الخوان من رخام، أو طست أو جام من ذهب أو فضة.

الباب الثالث من التذييل

على القسم الثالث من الفنّ الخامس

فى ذكر ما يكون بعد وفاة عيسى بن مريم عليه السلام الى أن ينفخ إسرافيل فى الصور النفخة الأولى

ذكر خروج الدابّة وطلوع الشمس من مغربها

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " تخرُج الدابّة ومعها خاتَمُ سليمان بن داود وعصا موسى بن عمْران، فتجلو(١) وجه المؤمن بالعصا، وتَخْطِم(٢) أنفَ الكافر بالخاتَم، حتى إنّ أهل الحِواء(٣) ليجتمعون فيقول هـذا يا مؤمن و يقول هذا يا كافر " . وعن عبـد الله بن بُرَيدةَ عن أبيـه رضى الله عنهما قال : ذهب بى رسـول الله صلى الله عليـه وسلم الى موضع بالبادية قريب من مكة فإذا ٨٥ / ١٢ أرضٌ يابسةٌ حولهـا رملٌ، فقال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : " تخرج الدابّة من هذا الموضع" فإذا فترٌ فى شِبرٍ . قال ابن بُرَيدة : فحججتُ بعد ذلك بسنين فأرانا عصًا له ، فاذا هى بعصاى هـذه كذا وكذا . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا تقوم الساعةُ حتى تطلُع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس آمن مَن عليها ؛ فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانُها لم تكن آمنت من قبل " . وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أوّلُ الايات خروجًا طلوعُ الشمس من مغربها، وخروجُ الدابّة على الناس ضُحًى " . قال عبد الله : فأيّتهما ما خرجت قبل الأخرى فالأخرى

---

(١) تجلو وجه المؤمن أى تنوّره . (٢) تخطم أى تسمه بها ، من خطمت البعير اذا كويته خطا من الأنف الى أحد خديه . (٣) الحواء (بكسر الحاء المهملة والمدّ) : بيوت مجتمعة من الناس على ماء .

منهـا قريبٌ . قال عبـد الله : ولا أظنها إلّا طـلوع الشمس من مغربها . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ من قِبَل مغرب الشمس بابا مفتوحا عَرْضُه سبعون سنة، فلا يزال ذلك الباب مفتوحا للتوبة حتى تطلُعَ الشمس من نحوه، فإذا طلعت من نحـوه لم ينفع نفسًا إيمانهـا لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا " . والله الهادى للصواب .

ذكر خبر قيام الساعة والنفخة الأولى

عن أبى هُرَيرةَ رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما زال صاحبُ الصُّور مذ وُكِّل به مُسـتعدّا ينظر نحو العَرْش الى أن يُؤمَرَ فينفُخ قبل أن يرتدّ اليه طَرْفه كأنّ عينَيْه كوكبان دُرِّيّان " . وسُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الصُّور؟ فقال: "قرنٌ يُنفَخ فيه". وعنه صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى الصُّورِ﴾ قال: "الصور كهيئة القَرْن". وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لاتقوم الساعةُ حتى تقتتلَ فئتانِ عظيمتانِ تكون بينهمـا مَقْتلةٌ عظيمةٌ دَعْوتُهما واحدةٌ، وحتّى يُبعَثَ دجّالون كذّابون قريبٌ من ثلاثين كلّهم يزعُم أنه رسول الله، وحتّى يُقبَضَ العلمُ وتكثُرَ الزلازلُ ويتقارَبَ الزمانُ وتَظهَرَ الفِتَنُ ويكثُرَ الهَرْجُ، وهو القتل، وحتّى يكثُرَ فيكم المـالُ فيَفيضَ حتى يهمَّ ربَّ المـال مَن يَقبَلُ صدَقَته، وحتّى يَعرِضَه فيقولَ الذى يَعرِضُه عليـه لا أَرَبَ لى به، وحتّى يتطاولَ الناسُ فى البُنيان ، وحتى يمُرّ الرّجُلُ بقبر الرّجُلِ فيقول يا ليتنى مكانَه، وحتّى تطلُعَ الشمسُ من مغربها فإذا طَلَعَتْ ورآها الناسُ آمنـوا أجمعون فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانُها لم تكن آمنَتْ من قبلُ أو كسَبَتْ فى إيمـانها خيرا. ولَتَقُومَنّ الساعةُ وقد نَشَرَ الرجُلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يَطْويانه. ولَتقُومَنّ

الساعةُ وقد انصرف الرجلُ بلَبَنِ لِقْحَتِه فلا يَطْعَمُه، وَلَتَقُومَنّ السّاعةُ وهو يَلِيطُ[1] حَوْضَه فلا يَسْقِي فيه. وَلَتَقُومَنّ الساعةُ وقد رَفَعَ أُكْلَتَه الى فِيه فلا يَطْعَمُها " .

هذا من صحيح البخارى[2]. وعن عبد الله بن عمرو بن العاص وذكر خبر الدجّال وقتله قال[3]: "...... ثم يمكُثُ الناسُ سَبْعَ سنينَ ليس بين اثنين عداوةٌ. ثم يرسلُ الله عز وجل ريحا باردةً من قِبَل الشام فلا يَبقَى على وجه الأرضِ أحدٌ فى قلبه مثقالُ ذرّة من خير أو إيمان إلا قَبَضَتْه، حتّى لو أنّ أحدَكم دخل فى كَبِد جَبَلٍ لَدخلتْه عليه حتى تَقبِضَه . قال فيبقَى شِرارُ الناسِ فى خِفّةِ الطيرِ وأحلامِ السِّباعِ[4] لا يعرفون معروفا ولا يُنكرون مُنكَرًا، فيتمثّلُ لهم الشيطانُ فيقول أَلَا تستجيبون! فيقولون فما تأمُرُنا؟ فيأمُرُهم بعبادة الأوثان، وهم فى ذلك دارٌّ رزقُهم[5] حَسَنٌ عيشُهم. ثم يُنفَخُ فى الصُّور فلا يَسمَعه أحدٌ إلا أصغَى لِيتًا[6] ورَفَعَ لِيتاً . قال وأوّلُ من يسمعه رجلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إبلِه، قال فيَصعَقُ ويَصعَقُ الناسُ، ثم يُرسِلُ اللهُ — أو قال يُنزِلُ اللهُ — مطرًا كأنه الطَّلّ أو الظِّلّ — الشكّ من الراوى — فتَنبتُ منه أجسادُ الناسِ، ثم يُنفَخُ فيه أخرى فإذا هم قيامٌ ينظرون، ثم يقال يأيُّها الناسُ هَلُمُّوا الى ربّكم" . ويروى أن هذا المطر الذى تنبت منه الأجساد كمَنِيّ الرجال .

(١) يليط حوضه : يطينه ويصلحه . ويقال : لاط حوضه يلوطه ويليطه .

(٢) راجع (ج ٨ ص ٩٥ طبع بلاق سنة ١٢٩٦ هـ) .

(٣) راجع صحيح مسلم (ج ٨ ص ٢٠١ طبع الآستانة) .

(٤) خفة الطير وأحلام السباع ، أى يكونون فى سرعتهم الى الشر وقضاء الشهوات والفساد .

(٥) دارّ رزقهم ، أى كثير .

(٦) الليت (بكسر اللام) : صفحة العنق وهى جانبه .

٨٦/١٢

البـاب الرابع

من التذييل على القسم الثالث من الفنّ الخامس

فى أخبار يوم القيامة والحشر والمعاد والنفخة الثانية فى الصور

ذكر يوم القيامة وأسمـائه

هـو اليوم الذى وصـفه الله عز وجل بالعظمـة فقـال : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾[1] . ووصفه الله بالطُّول فقال : ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ * فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾[2] .

وليوم القيامة أسماءٌ جاء بها القرآن ، وقد ذكرها عبد الحقّ فى كتاب العاقبة فقال : "يوم القيامة وماأدراك ما يوم القيامة ! يوم الحسْرة والندامة ، يوم يجد كلّ عامل عمله أمامه ، يوم الدمدمة ، يوم الزلزلة ، يوم الصاعقة ، يوم الواقعة ، يوم الراجفة ، يوم الرادفة ، يوم الغاشـية ، يوم الداهية ، يوم الآزفة ، يوم الحاقّة ، يوم الطامّة ، يوم الصاخّة ، يوم التَّلاقِ ، يوم الفراق ، يوم الميثاق ، يوم الآنشقاق ، يوم القِصاص ، يوم لات حين مناص ، يوم التَّنادِ ، يوم الأشهاد ، يوم الميعاد ، يوم المآب ، يوم العذاب ، يوم الفِرار ، يوم القَرار ، يوم المِرْصاد ، يوم السائلة ، يوم المناقشة ، يوم الحساب ، يوم القضاء ، يوم الجزاء ، يوم البكاء ، يوم البلاء ، يوم تَمُور السماء مَوْرًا وتسير الجبال سيرا ، يوم الحشر ، يوم النشر ، يوم الجمع ، يوم البَعْث ، يوم العَرْض ،

---

(١) سورة الحج آيتى ١ ، ٢ (٢) سورة المعارج آيتى ٤ ، ٥

يوم الوَزْن ، يوم الحقّ ، يوم الحُكْم ، يوم الفصل، يوم الجزى ، يومٌ عقيمٌ ، يومٌ عظيمٌ ، يومٌ عَسِير، يومٌ عَبُوس ، يومٌ قمطرير، يوم النشور، يوم المصير، يوم الدِّين، يوم اليقين، يوم النفخة، يوم الصَّيْحة، يوم الرَّجْفة، يوم الرجّة، يوم الزجرة، يوم الشدّة، يوم الفَزَع، يوم الجَزَع، يوم القَلَق، يوم العَرَق، يوم الميقات، يوم تخرج الأموات وتظهر المخبآت، يوم الإشفاق ، يوم الأنشقاق، يوم الأنكدار ، يوم الأنتشار ، يوم الأنفطار ، يوم الأفتقار ، يوم الوقوف ، يوم الأنصداع ، يوم الأنقطاع ، يومٌ معلوم، يومٌ موعود، يومٌ مشهود ، يوم تُبلَى السرائر، يوم تُخْرَج الضمائر ، يوم لا تَجْزِى نفسٌ عن نفس شيئا، يوم لا تملك نفسٌ لنفس شيئا ، يوم يُدْعَى فيه إلى النار ، يوم تُسْجَر[(١)] فيه النار ، يوم تُقَلَّبُ فيه الوجوه فى النار ، يوم البروز فيه إلى الله، يوم الصُّدور إلى الله، يوم لا تنفع المعذرة ، يوم لا يرضى إلّا المغفرة . قال : وأهول أسمائه وأشنع ألقابه : يوم الخلود، يومٌ لا آنقطاعَ لعذابه، ولا آخرَ لعقابه، ولا يكشف عن كافر ما به . نعوذ بالله من غضبه و بلائه، برحمته وآلائه . والله معين العاجزين .

ذكر الحشر والمعاد والنفخة الثانية

جاء فى بعض التفاسير فى قوله تعالى : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ[(٢)]﴾ قيل : جبريل وميكائيل و إسرافيل وملك الموت . قال : ثم يأمر الله ملك الموت أن يقبض رُوح جبريل وميكائيل وإسرافيل، ثم يأمر ملك الموت أن يموت فيموت ولا يبقى إلا الله ، فينادى جلّ جلاله : ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ[(٣)]﴾ فلا يجيبه أحد، فيقول : ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

---

(١) تسجر : توقد . (٢) سورة الزمر آية ٦٨ (٣) سورة غافر آية ١٦

٨٧/١٢ ثم يمكث الناس فى البَرْزَخ(١) أربعين عاما، ثم يحيى الله عز وجل إسرافيل فيأمره أن ينفخ النفخة الثانية، قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ(٢) ﴾. وقال تعالى: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى(٣) ﴾. وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ(٤) ﴾. روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "يأكل الترابُ كلّ شىء من الإنسان إلا عَجْبَ(٥) الذَّنَب" . قيل : يا رسول الله، وما هو ؟ قيل : "مثل حبّة خَرْدَل ومنه ينشأ" . وفى الحديث الآخر : "ثم يُنزل الله من السماء ماء فينبُتُون كما ينبُت البقل" . وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "يقول الله وعزتى وجلالى لَيرجعنّ كلُّ رُوح إلى جسده، فتدخل الأرواح فى الأرض إلى الأجسام، فتدخل فى الخياشيم ثم تمشى مَشْىَ السم فى اللّديغ" . قال : "وتجتمع الأرواح كلها فى الصُّور، ثم ينفخ إسرافيل فيه فتخرج الأرواح كأنها النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض، ثم تدخل فى الأجساد" كما تقدّم . وفى الحديث الصحيح أنّ عائشة رضى الله عنها قالت : يا رسول الله ، كيف يُحشَر الناس يوم القيامة ؟ قال : "حُفَاةً عُرَاةً" . قالت : يا رسول الله، والنساء؟ قال: "والنساء". قالت : يا رسول الله، فما نستحيى؟ قال: "يا عائشة الأمر أهمّ من أن ينظُر بعضُهم الى بعض" . وعن أبى موسى الأشعرىّ رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يُعرَضُ الناسُ يوم القيامة ثلاثَ عَرَضات، فأمّا عَرْضتان فجِدَالٌ ومعاذير، وأمّا الثالثة فعند ذلك تطير الصحف فى الأيدى، فآخِذٌ بيمينه وآخِذٌ بشماله" . وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله

---

(١) البرزخ : ما بين الدنيا والآخرة قبل الحشر من وقت الموت الى القيامة .

(٢) سورة الزمر آية ٦٨ (٣) سورة طه آية ٥٥ (٤) سورة الروم آية ٢٧

(٥) العجب (بفتح العين وإسكان الجيم) : العظم الذى فى أسفل الصلب وهو رأس العصعص .

صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) قال : "يقوم أحدهم فى رَشْحه الى أنصاف أُذُنَيه وهو اليوم الذى قال الله تعالى فيه ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ * يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ (٣)". وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد فيُسمِعُهم الداعى ويَنفُذهم البصر" يريد أرضا مستوية لاجبلَ فيها ولا أَكَمَةَ ولا رَبْوة ولا وَهْدَة ، أرضٌ بيضاء لم يُسفَك عليها دمٌ قطّ ، ولا عُمِل عليها خطيئةٌ ولا ارتُكِب فيها محرَّمٌ . قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ (٤) . وفى حديث ثَوْبان : أن النبى صلى الله عليه وسلم سُئل أين يكون الناس يوم تُبَدَّل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال : " هم فى الظُّلمة دون الجِسر " والجسر هو الصراط . وفى حديث عائشة " إنهم على الصراط " . قال الله عزّ وجل : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ ﴾ (٥) . وقال تعالى : ﴿ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴾ (٦) أى يقول بعضهم لبعض سرًّا ، فيقول أعدلهم قولا وأرجحهم عقلا : إن لبثتم إلا يوما . قال الله عزّ وجل : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ (٧) .

ورُوى عن مجاهد أنه قال : للكفّار هَجْعةٌ قبل يوم القيامة يجدون فيها طعم النوم ، فإذا بُعثوا قالوا : ياويلنا مَنْ بعثنا من مَرْقَدِنا ! فتخرج الخلائق مذعورين خائفين وَجِلين ، وإذا المنادى ينادى : ﴿ يَا عِبَادِي لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ (٨) ، فيطمع فى ذلك النداء المؤمنون والكافرون ، فينادى المنادى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا

---

(١) سورة المطففين آية ٦ — (٢) الرشح (بفتحتين) : العرق
(٣) سورة القيامة آيتى ١١ ، ١٢ — (٤) سورة إبراهيم آية ٥٨
(٥) سورة يونس آية ٤٥ — (٦) سورة طه آية ١٠٣ ٢
(٧) سورة طه آية ١٠٤ — (٨) سورة الزخرف آية

وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾[١] . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يُحشَر الناسُ يومَ القيامة ثلاثةَ أصناف رُكبانا ومُشاةً وعلى وجوههم " . قيل : يارسول الله ، وكيف يمشون على وجوههم ؟ قال : " إنّ الذى أمشاهم على أقدامهم قادرٌ على أن يُمْشِيَهم على وجوههم أمَا إنهم يتّقون بوجوههم كلّ حَدَبٍ[٢] وشَوْكٍ " .

وفى حديث مسلم بن الحجّاج عن أنس أنّ رجلا قال : يا رسـول الله ، كيف يُحْشَر الكافرُ على وجهه يوم القيامة ؟ قال : " أليس الذى أمشاه على رِجلَيه فى الدنيا قادرًا على أن يُمْشِيَه على وجهه يومَ القيامة " . والأحاديث الصحيحة فى هذا الباب كثيرة جدًا لو آستقصيناها لطال الكلام وآنبسط القول ، وخرج التأليف عن شرطه الذى قدّمناه ، فلنختم هذا الباب بحديث لَقِيط بن عامر العُقَيلىّ فإنه حديث جامع لأكثر ما فى هذا الباب .

حديث لَقِيط بن عامر

قال أبو بكر بن أبى خَيْثمة بإسناده الى لَقِيط بن عامر العُقَيلىّ قال : خرجتُ أنا وصاحبٌ[٣] لى حتى قَدِمْنـا على رسول الله صـلى الله عليه وسلم المدينـةَ لأنسلاخ[٤] رجب ، فأتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، [فوافيناه][٥] حين انصرف من صلاةِ[٦] الغداة

88/12

---

(١) سورة الزخرف آية ٦٩ (٢) الحدب : ما ارتفع من الأرض وغلظ . وقد ورد هذا الحديث فى صحيح الترمذى (ج ١١ ص ٣٠٠ طبع مصر) .

(٣) هو نهيك بن عاصم بن مالك بن المنتفق ، كما فى مسند الإمام أحمد (ج ٤ ص ١٣) والبداية والنهاية لابن كثير (ج ٥ ص ٨٠ طبع مصر) .

(٤) فى البداية والنهاية : « انسلاخ رجب » بدون اللام .

(٥) التكملة عن مسند الامام أحمد والبداية والنهاية .

(٦) كذا فى مسند الامام أحمد والبداية والنهاية والعقد الفريد ج ١ ص ١٣٥ طبع بلاق وفى الأصل : « مصلاه » .

فقام [فى الناس](١) خطيبا فقال : " أيها الناس ! ألاَ إنى قد خبأتُ لكم صوتى منذ أربعةَ أيام لأُسمعكم اليومَ . ألاَ فهل من امرئٍ بعثه قومه [فقالوا اعلَمْ لنا ما يقول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — . ألاَ ثم لعله أن يلهيه حديث نفسه أو حديث صاحبه أو يلهيه الضّلال](١) . ألاَ إنى مسئولٌ هل بلّغتُ . ألاَ اسمعوا تعيشوا(٢) ألاَ اجلسوا(٣) " فجلس الناس وقمت أنا وصاحبى ، حتى إذا فرغ لنا فؤاده وبصره قلت : يا رسول الله ، ما عندك من علم الغيب ؟ [فضحك لَعَمْرُ الله وهزّ رأسه وعلِم أنّى أبتغى لسقطه](٤) فقال : " ضنّ(٥) ربك عز وجل بمفاتيح خمس من الغيب لا يعلمها إلا الله "(٦) . فقلت : وما هنّ يا رسول الله ؟ قال : " علم المنية [قد علم متى منيّة أحدكم ولا تعلمونه](٧) . وعَلِم المنىّ(٨) حين يكون فى الرَّحِم [قد علمه ولا تعلمونه](٩) وعَلِم ما فى غد وما أنت طاعمٌ غدًا ولا تعلمه . وعلم يوم الغيث يشرف عليكم آزِلين(١٠) مسنتين(١١) فيظل يضحك قد علم أنّ غوثكم قريبٌ " . قال لقيط : لم لن نعدَم من ربٍّ يضحك خيرا . " وعلم يوم الساعة " . قلت : يا رسول الله ، إنى سائلك عن حاجتى . قال : " سل عما شئتَ "(١٢) . قلتُ : يا رسول الله ،

(١) زيادة من مسند الامام أحمد والبداية والنهاية والعقد الفريد . (٢) فى المواهب اللدنية : « ألا اسمعوا تعيشوا » أى تحيوا حياة أبدية سعيدة فانها الحياة المطلوبة . (٣) فى مسند أحمد والبداية والنهاية : «ألا اجلسوا ألا اجلسوا» . (٤) التكملة عن مسند الامام أحمد والبداية والنهاية والعقد الفريد . وفى العقد الفريد : « ابتغى سقطه » بدون اللام . (٥) فى الأصل : « ضن ربك بخمس » . (٦) زاد فى مسند أحمد والبداية والنهاية هنا : « وأشار بيده » . (٧) زيادة من مسند أحمد والبداية والنهاية والعقد الفريد . (٨) فى الأصل « متى » . (٩) فى الأصل : « وعلم ما فى غد قد علم ما أنت طاعم غدا » . (١٠) أزل الرجل : صار فى شدة وضيق . (١١) كذا فى البداية والنهاية . ومسنتون : أصابتهم سنة ، أى قحط وجدب . وفى سائر المصادر : « مشفقين » . (١٢) زاد فى العقد الفريد هنا : « فلا تعجلنى » .

علّمنا مما لا يعلم الناسُ(١) ومما تُعلّم، فإنا من قبيل لا يصدقون تصديقنا أحدا من مذحج التى تدنو إلينا، وخثعم التى توالينا، وعشيرتنا التى نحن منها(٢)]. قال: " تلبثون ما لبثتم ثم يُتوفّى نبيّكم ثم تلبثون ما لبثتم ثم تُبعثُ الصيحةُ، فلعَمْرُ إلٰهك ما تدع على ظهرها من شيء إلّا مات والملائكة الذين مع ربك، فأصبح(٣) ربك يطوف فى الأرض وقد خلت عليه البلاد(٤)، فأرسل ربك السماء [بهَضْبٍ](٥) من عند العرش، فلعمر إلٰهك ما تَدَع على ظهرها من مَصْرَع قتيل ولا مَدْفَن ميّت إلا شقّت القبرَ عنه حتى تخلُقه من قِبَل رأسه فيستوى جالسا، فيقول ربك مَهْيَم(٦) لما كان فيه، فيقول: يارب أمتى(٧) أمسِ اليوم، لعهده بالحياة يحسبه حديثا بأهله". فقلت: يا رسول الله، كيف يجمعنا

---

(١) كذا فى البداية والنهاية. وفى الأصل: «ما تعلّم الناس وما تعلم». وفى مسند أحمد: «علمنا مما تعلم الناس وما تعلم».

(٢) زيادة عن مسند أحمد والبداية والنهاية والعقد الفريد.

(٣) فى العقد الفريد: «فيصبح».

(٤) فى كتاب التذكرة للقرطبى (نسخة مخطوطة فى دار الكتب المصرية برقم ١ م تصوف): «قال علماؤنا: قوله فأصبح ربك يطوف فى البلاد وقد خلت عليه البلاد، إنما هو تفهيم وتقريب الى أن جميع من فى الأرض يموت وأن الأرض تبقى خالية وليس يبقى إلا الله، كما قال عز وجل: ﴿كل من عليها فان﴾ الآية».

(٥) التكملة من مسند أحمد والبداية والنهاية، وفيهما: «تهضب» وهو تصحيف. وفى كتاب التذكرة: «فأرسل ربك من السماء بهضبة». وفى العقد الفريد: «فيرسل ربك بهضب». والهضب: المطر.

(٦) مهيم: كلمة استفهام عن الحال والشأن. وفى لسان العرب (فى مادة مهيم): «فيستوى جالسا فيقول رب مهيم».

(٧) كلمة «أمتى» ليست فى المصادر التى بين أيدينا. والعبارة فى مسند أحمد والبداية والنهاية: «يقول أمس اليوم فلعهده ...».

بعد ما تمزقنا الرياحَ والبلى والسباع ؟ قال : " أنبئك بمثل ذلك فى إلّ الله[1] الأرض أشرقتَ عليها وهى مَدرة بالية فقلتَ لا تحيا أبدًا ثم أرسل ربك عليها السماء[2] فلم تلبث عليها إلا أياما حتى أشرفَت عليها فإذا هى شَرْبةٌ[3] واحدة ، فلعَمرُ إلٰهك لهو أقدرُ على أن يجمعهم من المـاء على أن يجمع نبات الأرض فتخرجون من الأصواء[4] ومن مصارعكم فتنظرون إليه ساعةً وينظر إليكم " . قلت : يا رسول الله ، [وكيف[5]] ونحن ملء الأرض وهـو شخصٌ واحدٌ ينظر إلينا وننظر اليـه ؟ قال : " أُنبئكم بمثـل ذلك فى إلّ الله الشمس والقمر آيةٌ [منه[5]] صغيرةٌ تَرَوْنهما ساعة واحدةً[6] ويريانكم لاتُضَارُّون[7] فى رؤيتهما ولَعَمرُ إلٰهك لهو أقدرُ على أن يراكم وتَرَوْه[8] منهما أن تروهمـا ويرياكم لا تضارُّون فى رؤيتهما " . قلت : يا رسول الله ، فماذا يفعل بنا ربّنا إذا لَقيناه ؟ قال : تُعرَضون عليه باديةً [له[5]] صَفَحاتُكم لا يخفى عليه [منكم[5]] خافيةٌ ، فيأخذ ربك [بيده[5]] غَرْفةً من المـاء فينضح [بها[5]] قِبَلكم ، فلعمرُ إلٰهك ماتُخطئ وجهَ واحدٍ منكم منها قطرةٌ ، فأمّا المسلم

---

(١) إلّ الله : ربوبيته وإلٰهيته وقدرته ، ويجوز أن يكون فى إلّ الله أى فى عهده (راجع النهاية لابن الأثير .

(٢) فى مسند الإمام أحمد والبداية والنهاية « عليك » .

(٣) الشربة : الحنظلة ، أى إن الأرض تخضرّ بالنبات فتصير فى اخضرار الحنظلة ونضارتها . ويروى « شربة » بالموحدة ، أى يكثر الماء فمن حيث أردت أن تشرب شربت . قال الزمخشرى : « ولو روى شربة — بالتحريك — فهى حوض فى أصل النخلة .

(٤) الأصواء هنا : القبور .

(٥) التكملة عن مسند الإمام أحمد والبداية والنهاية والعقد الفريد .

(٦) فى الأصل : « ... ترونهما ساعة واحدة فيريانكم » وفى مسند الإمام أحمد والبداية والنهاية « ترونهما ويريانكم ساعة واحدة » .

(٧) فى الأصل : « لا تضامون » .

(٨) فى الأصل : « ... لهو أقدر على أن يراكم وترونه منهما أن ترونهما ويريانكم ولا تضامون » وهو تحريف .

فتدَع وجهه مثل الرَّيطة[1] البيضاء، وأمّا الكافر فتخطِمه بمثل الحُمَمِ[2] الأسود. ألَا ثم ينصرف [نبيّكم][3] و يتفرّق على أثره الصالحون، فتسلكون جسرًا من النار يطأ أحدُكم الجمرة يقول حَسِّ[4]، فيقول ربك وإنَّه[5]. ألا فتطلعون على حوض الرسول لا يظمأ والله ناهلُه فلعمر إلٰهك ما يبسط أحدٌ منكم يده إلّا وقع عليها قدحٌ يطهره[6] من الطَّوف والبوْل[7] والأذى. وتُحبَس الشمس والقمر فلا ترون منهما واحدا". قلت: يا رسول الله، فبِمَ نُبصِر الأرض[8]؟ قال: "بمثل ساعتك هذه" وذلك مع طلوع الشمس في يوم أشرقتْه[9] الأرض و واجهته الجبال. قلت: يا رسول الله، فبِمَ نُجْزَى من سيئاتنا وحسناتنا؟ قال "الحسنةُ بعَشر أمثالها والسيئة بمثلها إلّا أن يعفو الله". قلت:

---

(١) الريطة: المنديل.

(٢) فى الأصل: «الحيم». والحمم: الفحم. وتخطمه، أى تصيب خطمه وهو أنفه، يعنى تصيبه فتجعل له أثرا مثل أثر الخطام فترده بصغر (عن كتاب النهاية لابن الأثير).

(٣) التكلة عن مسند الامام أحمد والبداية والنهاية والعقد الفريد.

(٤) كلمة يقولها الانسان إذا أصابه ما مضه وأحرقه غفلة كالجمرة والضربة ونحوهما.

(٥) كذا فى العقد الفريد والنهاية لابن الأثير والفائق للزمخشرى. وفى جميع المصادر التى بين ايدينا «أوانه». ومعنى إنه أى نعم والهاء للسكت، أو اختصر الكلام بحذف الخبر، والمعنى إنه كذلك.

(٦) فى الفائق والنهاية: «... قدح مطهرة من الطوف والأذى» قال الزمخشرى: قوله (مطهرة) محمول على المعنى؛ لأنه وقع على يد كل واحد منهم قدح فهى أقداح كثيرة». وفى النهاية: «الطوف: الحدث من الطعام. المعنى أن من شرب تلك الشربة طهر من الحدث والأذى. وأنث القدح لأنه ذهب بها إلى الشربة».

(٧) كذا فى مسند الإمام أحمد والبداية والنهاية والعقد الفريد. وفى الأصول: «والايل».

(٨) كلمة «الأرض» ليست فى غير الأصل.

(٩) كذا فى البداية والنهاية. وفى مسند الامام أحمد: «فى يوم أشرقت الأرض واجهت به الجبال». وفى الأصول: «فى يوم أسفرته وواجهته الجبال».

يا رسول الله، ما الجنة وما النار[1] . قال : " لَعَمْرُ إلهك إن[2] للنار لسبعةَ أبواب ما منها بابان إلا يسير الراكب بينهما سبعين عاماً . و إن للجنة لثمانيةَ أبواب ما منها بابانِ إلا يسير الراكب بينهما سبعين عاما" . قلت : يا رسول الله، فعلامَ نَطَّلِعُ من الجنة؟ قال : "على أنهار من عسل مصفّى، وأنهارٍ من كأس ما بها صُداع ولا نَدامة، وأنهارٍ من لبن لم يتغيّر طعمه، وماءٍ غير آسن، [وفاكهةٍ لَعَمْرُ إلهك ما تعلمون][3] وخيرٍ من مثله معه وأزواجٍ مطهّرة" . قلت : يا رسول الله، ولنا فيها أزواج أو منهن مصلحات؟[4] قال : " الصالحات للصالحين تلذّونهنّ مثلَ لذّاتكم فى الدنيا ويَلْذَذْنكم غير أن لا توالُد فيها" .

انتهى التذييل على القسم الثالث بعون الله تعالى وحُسْن توفيقه . والله الموفق للصـــواب .

(١) فى العقد الفريد : « فى الجنـــة أم النار » . وفى سائر المصادر التى بين أيدينا : « أما الجنة وأما النار » .

(٢) كذا فى مسند الإمام أحمد والبداية والنهاية . وفى الأصول : « لعمر إلهك لها » .

(٣) ما بين المربعين عبارة مسند الإمام أحمد والبداية والنهاية والعقد الفريد . وفى الأصل : «وماء غير آسن خير مما تعملون وخير من مثله معه » .

(٤) فى الأصل : « ان لنا فيها أزواجا أو منهن مصلحات » .

٨٩/١٢

القسم الرابع من الفنّ الخامس

فى أخبار ملوك الأصقاع ، وملوك الأمم والطوائف ، وخبر سيل العَرِم ووقائع العرب فى الجاهلية ، ويشتمل على خمسة أبواب

الباب الأوّل

فى أخبار ذى القرنين الذى ذكره الله عزّ وجل فى كتابه العزيز فى سورة الكهف

قال الله تعالى : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾[1] . واختُلِف فى تسميته ذا القرنين ، فقيل : لبلوغه أطراف الأرض ، وإنّ الملك الموكّل بجبل قاف سمّاه بذلك . وهذا القول محكيّ عن ابن عبّاس رضى الله عنهما . وقيل : إنما سُمّى بذلك لأنه كانت له ذؤابتان من الذهب . ويُعْزَى هذا القول إلى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . وقيل : إنما سُمّى بذلك لأنه رأى فى منامه أنه يدنو من الشمس فيضع يده فى قرنيْها من شرقها وغربها ، فقصّ رؤياه على قومه فسمّوْه ذا القرنين ، وهذا القول مروىّ عن وهب . وقيل : إنما سُمّى به لأن الله تعالى كان قد بعثه إلى قوم فضربوه على قرْنه فمات ، فأحياه الله ثم بعثه إليهم فضربوه على قرنه الآخر فمات ، ثم أحياه الله ، فسُمّى ذا القرنين . وقيل : إنما سُمّى بذلك لأنه أفنى قرنين من الناس . وقيل : لأنه كريم الطرَفين من أهل بيت شرف من قِبَل أبيه وأُمّه . وقيل : لأنه أُعطِىَ علم الظاهر والباطن .

---

(١) سورة الكهف آيتى ٨٣ ، ٨٤

وقيل : لأنه دخل الظلمة والنور . وقيل : لأنه ملك فارس والروم . وقيل غير[١] ذلك . والله تعالى أعلم .

قال وهب : كان ذو القرنين رجلا من أهل الإسكندرية يقال له الإسكندروس . والعجبُ كونه نَسَبَه أنه من أهل الإسكندرية، وقد نقل جماعة من أهل التاريخ أن الإسكندر هو الذى أنشأ الإسكندرية و بناها، فكيف يكون من أهلها وهو الذى أنشأها واليه نُسبت! . ورُوِى عن وهب أيضا أن ذا القرنين كان خارجيا فى قومه ، ولم يكن بأفضلهم نسبا ولا حسبا ولا موضعا، ثم قال بعد ذلك : إن الله تعالى بعثه نبيّا و رسولا . ولا يكون الأنبياء إلّا من أفضل قومهم حسبا وأشرفهم نسبا. وقد يكون هذا النقل لاختلاف الروايات . وما آفة الأخبار إلّا رُواتها .

قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد القُرْطُبِىّ فى تفسيره عن ابن إسحاق قال حدّثنى مَن يسوق الأحاديث عن الأعاجم فيما توارثوا من علم : أنّ ذا القرنين كان رجلا من أهل مصر، اسمه مرزبان[٢] بن مرذبة اليونانى من ولد يُونان بن يافث ابن نوح . قال وقال ابن هشام : اسمه الإسكندر، وهو الذى بنى الإسكندرية، فنسبت اليه . قال وقيل : اسمه هرمس ، و يقال هرديس . وقال ابن هشام : هو الصعب بن ذى يزن الحِميَرى . وقال وهب : هو رومى . وقيل : إنه أفريدون [الذى قتل بيوراسب بن أروانداسب[٣]] الملك الفارسى[٤] .

---

(١) وقد ساق ابن كثير فى كتابه البداية والنهاية (ج٢ ص١٠٣) بعض الأقوال التى لم تذكر هنا .

(٢) كذا فى السيرة النبوية لابن هشام (ص ١٩٧ طبع أوربا) والبداية والنهاية لابن كثير (ج ٢ ص ١٠٥ طبع مصر). وفى تفسير القرطبى (ج ١١ ص ٤٥ طبع دار الكتب المصرية) : «مرزبان بن مردبة» . وفى الأصول : «مرزبا بن مرذبة» .

(٣) التكلة عن تفسير القرطبى (ج ١١ ص ٤٧).

(٤) فى تفسير القرطبى : «الملك الطاغى على عهد ابراهيم عليه السلام، أو قبله بزمان» .

وقال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله تعالى فى قصصه — وذكر الخلاف فى نبوّته — قال : الصحيح إن شاء الله أنه كان نبيّا غير مُرْسَل، كما رُوى عن وهب وغيره من أهل الكتب . قال وقالوا : كان ذو القرنين رجلا من الروم ابن عجوز من عجائزهم ليس لها ولد غيره، وكان آسمه إسكندروس . قال ويقال : كان اسمه ابن عيّاش (١)، وكان عياش عبدا صالحا. قال وهب : ونشأ ذو القرنين فى علم وأدب وثروة وعفّة، ولم يزل يتخلّق بمكارم الأخلاق ويسمو إلى معالى الأمور حتى بُعدت همّته، وآشتدّ أمره، وعلا صوته، وعزّ فى قومه، وألقى الله تعالى عليه الهيبة، وحدّثت نفسه بمعالى الأمور . قال الثعلبيّ : فلمّا آستحكم مُلْكه وآستجمع أمره أوحى الله تعالى إليه : ياذا القرنين، إنى بعثتك إلى جميع الخلائق ما بين الخافقَيْن، وجعلتك حجّتى عليهم، وهذا تأويل رؤياك . وإنى باعثك إلى أمم الأرض كلهم وهى سبع أمم مختلفة ألسنتهم، منهم أمّتان بينهما عَرْض الأرض، وأمّتان بينهما طُول الأرض، وثلاث أمم فى وَسَط الأرض، وهم الإنس والجنّ ويأجوج ومأجوج . فأمّا الأمّتان اللتان بينهما طولُ (٢) الأرض فأمّة عند مغرب الشمس يقال لها ناسك، والأخرى [بحيالها عند مطلع الشمس] (٣) يقال لها مُنسك . وأمّا الأمّتان اللتان بينهما عرضُ (٤) الأرض فأمّة فى قطر الأرض الأيمن يقال لها هاويل، والأخرى بحيالها فى قطر الأرض الأيسر يقال لها تاويل . فلمّا قال الله تعالى له ذلك قال ذو القرنين : إلهى إنك قد ندبتنى إلى أمر عظيم لا يقدر قدره (٥) إلا أنت ؛ فأخبرنى عن هذه الأمم التى بعثتنى إليها بأىّ قوّة أُكاثرهم، ٩٠ / ١٢
وبأىّ حيلةٍ وجَمْعٍ أُكابرهم، وبأىّ صبر أقاسيهم، وبأىّ لسان أناطقهم ؛ وكيف لى بأن أفقه لغاتهم، وبأىّ سمع أسمع أقوالهم ، وبأىّ بصر أنفُذهم، وبأىّ

(١) كذا فى الثعلبى . وفى الأصول : « ابن عباس » . (٢) كذا فى الثعلبى . وفى الأصل "عرض الأرض" . (٣) زيادة عن الثعلبى . (٤) فى الأصل : «طول الأرض» .
(٥) فى الثعلبى : « لا يقدر عليه ذو قدرة إلا أنت » .

حجّة أخاصمهم ، وبأىّ عقل أعقِل عنهم ، وبأىّ قلب وحكمة أدبّر أمرهم ، وبأىّ قسط أعدِل بينهم ، وبأىّ حلم أصابرهم ، وبأىّ معرفة أفصل بينهم ، وبأىّ علم أُتقن أمرهم ، وبأىّ يدٍ أسطو عليهم ، وبأىّ رِجْلٍ أطؤهم ، وبأىّ طاقة أُحصيهم ، وبأىّ جُنْدٍ أُقاتلهم ، وبأىّ رفقٍ أتألفهم ، وليس عندى يا إلٰهى شئ مما ذكرتُ يقوم لهم ويَقْوَى عليهم(1) وأنت الرءوف الرحيم ، الذى لا تكلّف نفسا إلا وُسْعَها ، ولا تحمّلها إلّا طاقتها ، ولا تُشْقِيها ؛ بل أنت ترحمها . فقال الله تعالى له : إنى سأُطَوّقك ما حمّلتك ، وأشرح لك صدرك وسمعك فتسمع وتَعِى كلّ شئ ، وأُوسّع لك فهمك فتفقه كلّ شئ ، وأبسُط لك لسانك فتنطِق بكل شئ ، وأفتح لك بصرك فينفُذ فى كل شئ ، وأحصى لك قوّتك(2) فلا يفوتك شئ ، وأشُدّ لك عضُدك فلا يهولك شئ ، وأشيّد لك ركنك فلا يغلبك شئ ، وأشدّ لك قلبك(3) فلا يُفْزعك شئ ، وأشُدّ لك يديك فتسطو على كلّ شئ ، وأُلبسك الهيبة فلا يروعك شئ ، وأسخّر لك النور والظلمة وأجعلهما جندا من جنودك ، يهديك النور من أمامك ، وتحوطك الظلمة من ورائك . قال : فلما قيل له ذلك حدّث نفسه بالمسير ، وألحّ عليه قومه بالمُقام ، فلم يفعل وقال : لابدّ من طاعة الله تعالى . قال وهب : وكان أوّل ما بدأ به أن أخذ قومه بالإسلام فأسلموا قهرا من عند آخرهم ، ثم أمرهم أن يبنوا له مسجدا ويجعلوا طوله أربعمائة ذراع ، وعرضه مائتى ذراع ، وسُمْك حائطه اثنين وعشرين ذراعا ، وآرتفاعه فى السماء مائة ذراع ، وأمرهم أن ينصبوا فيه سوارى . قالوا : ياذا القرنين ، كيف لنا بخشب يبلغ ما بين الحائطين؟ فلّما كمل البناء أمرهم بردمه بالتراب ، ثم فرض على المُوسِر قدرَه من الذهب وعلى المُقْتِر قدرَه ، وأمرهم أن يجعلوا ذلك الذهب كقُلامة الظِّفر

---

(1) كذا فى الثعلبى . وفى الأصل : « أقوم لهم وأقوى عليهم » .

(2) كلمة « قوتك » ليست فى الثعلبى . (3) كذا فى الثعلبى . وفى الأصل : « بدنك » .

ويخلطوه بالتراب وكبسوا التراب حتى ساوى البناء، ثم أمرهم بعد ذلك أن يتخذوا أعمـدةً من النحاس بدلا من الخشب فصنعوها، وجعلوا على كل حائط اثنى عشر ذراعا، فكان طول كل عمود من النحاس مائتين وأربعة وعشرين ذراعا. فتمكّنوا من ذلك بسبب الردم. فلمّـا استقرّ[1] السقف بمـا فيه أمر الإسكندر المساكين أن يحوّلوا التراب، ومن خرج له شئ من الذهب فهو له، فسارعوا إلى ذلك ونقـلوه واستغنوْا بمـا فيه، ثم جنّد القومَ أربعين ألفا، وهم أوّل جُنْد اتّبعوه.

وقال الثعلبيّ رحمه الله: إنّ الإسكندر جنّد المساكين بما حصل لهم من قُراضة الذهب، وكانوا أربعين ألفا، جعلهم أربعة أجناد، في كل جُنْد عشرة آلاف.

قال: ثم عرَض جُنْده فوجدهم فيما قيـل ألف ألف وأربعمائة ألف رجل غير المساكين، وهم أربعون ألفا، ثم انطلق يؤمّ الأمّة التي عنـد مغرب الشمس، فسار لا يمرّ بأمّة إلّا دعاهم إلى الله تعالى، فإن أجابوه قبـل ذلك منهم، وإن أبوْا عليـه غشيتهم الظُّلْمة فلبست مدائنهم ومنازلهم وأعشت أبصارهم، فيتحيّروا حتى يجيبوه، أو يأخذهم عنوةً. ولم يزل كذلك حتى بلغ مغرب الشمس. قال الله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ۝ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾[2] أى ذات حَمْأة، ومن قرأ حامية فمعناه حارّة ﴿وَوَجَدَ عِنـدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ الآيات إلى قوله: ﴿يُسْرًا﴾. قال الثعلبيّ: فوجد جمعا وعددا لا يُحصيه إلا الله تعالى، وقوة وبأسا لا يُطيقه إلا الله تعـالى، ورأى ألسنًا مختلفةً وأهواء متشتّتة، وهذه الأمّة هي ناسك. فلمّا رأى ذلك كاثرهم بالظُّلْمة فضرب حولهم ثلاث عساكر فأحاط بهم من كل مكان حتى جمعهم في مكان واحد، ثم أخذ عليهم بالنور فدعاهم إلى الله تعالى وعبادته، فنهم من آمن به ومنهم من صدّ عنه،

(١) كذا في الثعلبي. وفي الأصل: «استقل». (٢) سورة الكهف آية ٨٥ وما بعدها.

فعمَد إلى الذين تولّوا عنه فأدخلهم الظُّلْمة ، فدخلت فى أفواههم وأنوفهم وآذانهم وأجوافهم ، ودخلت فى بيوتهم وغَشِيَتهم من فوقهم ومن تحتهم ومن كل جانب ؛ فصاحوا وتحيّروا وأشفقوا من الهَلَكة ؛ فعجُّوا إليه بصوتٍ واحدٍ ، فكشفها عنهم وأخذهم عَنْوَةً فدخلوا فى دعوته ، فجنّد منهـم أمما عظيمة وجعلهم جُنْدا واحدا ؛ ثم انطلق بهم يقودهم والظُّلْمة تسوقهم من خلفهم وتحرُسهم والنور أمامهم ، وسار ٩١ / ١٢ يريد الأمة التى فى قطر الأرض التى يقال لها هاو يل ، فكان إذا انتهى إلى بحر أو نهر بنى سُـفُنا من ألواح صغار أمثال النعال ينظمها فى ساعة ، ثم حمل فيها جميع من معه من تلك الأمم والجنود ، فإذا قطع ذلك البحر أو النهر فتقها ثم دفع إلى كل رجل منهم لَوحا فلا يكرُثه حملُه ، فلم يزل ذلك دأبه حتى انتهى إلى هاو يل ففعل بهم كما فعل بالأمة التى قبلها . قال : ولـمّا فرغ منها مضى حتى انتهى إلى مُنسك وهى الأمة التى عند مطلع الشمس . قال الله تعالى : ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۝ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ۝ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾(١). قال : وقوله تعـالى : ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ وذلك أنهم كانوا فى مكان لا يستقرّ عليه بناء، وكانوا يكونون فى أسراب(٢) لهم ، حتى إذا زالت الشمس خرجوا الى معايشهم وحروثهم . وقال الحسن(٣) : كانت أرضهم أرضا لاتحتمل البناء، فكانوا إذا طلعت الشمس عليهم تهوّروا فى المـاء ، فإذا ارتفعت عنهم خرجوا فتراعَوْا كما تَرعى البهائم . وقال الكلبىّ : هم أمّة يقال لها مُنسك عُراةٌ حُفاةٌ عُماةٌ عن الحقّ . قال : وحدّثنى عمرو بن مالك بن أميّة قال : وجدت رجلا بسَمَرْقَنْد يحدّث الناس

(١) سورة الكهف آية ٨٩ وما بعدها .

(٢) الأسراب : جمع سرب (بالتحريك) وهو الحفير تحت الأرض .

(٣) عبارة الحسن فى تفسير القرطبىّ (ج١١ص ٥٤) : (كانت أرضهم لا جبل فيها ولا شجر، وكانت لا تحمل البناء، فاذا طلعت عليهم الشمس نزلوا فى الماء، فإذا ارتفعت عنهم خرجوا فيتراعون كما تتراعى البهائم).

وهم مجتمعون حوله، فسألت بعض مَن سمع حديثه فأخبرنى أنه حدّثهم عن القوم الذين تطلُع عليهم الشمس، قال: خرجت حتى جاوزت الصين، ثم سألت عنهم فقيل: [لى][1] إن بينك و بينهم مسيرة يوم وليلة، فآستأجرت رجلا [يرينيهم][1]، فسرت بقيّة عشيّتى وليلتى حتى صبّحتهم، فإذا أحدهم يفترش أذنه و يلبَس[2] الأخرى. وكان صاحبى يُحسن لسانهم فسألوه فقال: جئنا ننظر كيف تطلُع الشمس. قال: فبينما نحن كذلك إذ سمعنا مثل الصلصلة، فغُشِىَ علىّ فوقعت، فلمّا أفقت وجدتهم يمسحوننى بالدهن فإذا الشمس طلعت على الماء، وهى عليه كهيئة الزيت، و إذا طرف السماء كهيئة الفُسطاط، فلمّا آرتفعت دخلوا فى سَرَبٍ لهم وأنا وصاحبى، فلمّا آرتفع النهار خرجوا إلى البحر فجعلوا يصطادون السمك فيطرحونه فى الشمس فينضَج.

نرجع إلى تتمة أخبار الإسكندر ومطلع الشمس. قالوا: ولمّا بلغ الإسكندر مطلع الشمس فعل بمنسك كما فعل بالأمم التى قبلها وجنّد منها جنودا، ثم كرّ حتى أخذ ناحية الأرض اليسرى وهى بدء تاويل، وهى الأمّة التى بحيال هاويل، وهما متقابلتان بينهما عَرْض الأرض. فلمّا بلغها عمل فيها كما عمل بمَن قبلها. ولمّا فرغ من الأمم الذين هم بأطراف الأرض وطاف الشرق والغرب عطف منها إلى الأمم التى هى فى وسط الأرض من الجنّ والإنس و يأجوج ومأجوج. فلمّا كان فى بعض الطريق ممّا يلى منقطع الترك نحو المشرق قالت له أمّة صالحة من الإنس: ياذا القرنين، إنّ بين هذين الجبلين خَلْقا من خَلْق الله ليس فيهم مُشابهة من الإنس، وهم أشباه البهائم، يأكلون العُشْب و يفترسون الدوابّ والوحوش كما يفترسها السباع، ويأكلون هوامّ الأرض من الحيّات والعقارب وكل ذى رُوح مما خلق الله تعالى. وليس لله خلق ينمون نماءهم ولا يزدادون كزيادتهم. فإن أتت مدّة على ما نرى من

(١) التكملة عن القرطبى. (٢) فى تفسير القرطبى: «و يلتحف».

نمائهم وزيادتهم فلا شكّ أنهم سيملئون الأرض ويُخـلون أهلها منها ويظهرون عليها فيفسدون فيها . وليست تمرّ بنا سـنة منذ جاورناهم إلا ونحن نتوقعهـم أن يطلع علينا أوّلهم من [بين](١) هذين الجبلين(٢) .

قال الشيخ عبد الوهاب بن المبارك الأنماطي في كتابه عن وهب بن مُنَبِّه : إنّ يأجوج ومأجوج أجفلوا(٣) في زمن ذي القرنين يريدون أرضا وأمّة من الأمم، وكانوا إذا توجّهوا لوجه لم يَعْدِلوا عنه ولا يميلون ولا يعرّجون، وكانت تُسمَع هَمْهَمَتُهم من مسيرة مائة فرسخ لكثرتهم . فلما سمعت تلك الأمّة حِسّهم استغاثوا بذي القرنين، وهو يومئذ في ناحية أرضهم من شرق أرض الترك والخزر وقالوا : ياذا القرنين، إنه قد بلغنا ما آتاك الله من السلطان والمُلْك، وما ألبسك من الهيبة، وما أيّدك به من جنود أهل الأرض ومن النور والظلمة، وإنّا جيران يأجوج ومأجوج، وليس بيننا وبينهم إلا شواهق الجبال، وليس لهم إلينا طريق إلا من هذين الصَّدَفين(٤)، فهل نجعل لك خرجا [على أن تجعل بيننا وبينهم سدّا](١) . قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا * قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا(٥) ﴾ أي جعلا وأجرا ﴿ عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ أي حاجزا فلا يصلون إلينا ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي ﴾ أي قوّاني ﴿ خَيْرٌ ﴾ من خراجكم ولكن ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ ٩٢/١٢ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ حاجزا كالحائط . قالوا : وما تلك القوّة ؟ قال : فَعَلَةٌ وصنّاع

(١) التكملة عن الثعلبي . (٢) هما جبلان من قبل إرمينية وأذربيجان، كما في تفسير القرطبي . (٣) أجفلوا : أسرعوا الهرب . وهي هنا غير واضحة في السياق .

(٤) الصدفان : جانبا الجبل، لأنهما يتصادفان أي يتقابلان .

(٥) سورة الكهف آية ٩٢ وما بعدها .

يُحسِنون البناء والعمل والآلة . قالوا : وما تلك الآلة : قال ﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾ يعنى قِطَعَه، واحدتها زُبْرَة ، وأتونى بالنُّحاس . قالوا : من أين لنا الحديد والنُّحاس [ما يكفى هذا العمل](1) ؟ قال ، سأدلّكم على معادن الحديد والنحاس ، فضرب لهم فى جبلين حتى فلقهما ، ثم استخرج منهما معدنين من الحديد والنحاس . قالوا : فبأىّ قوة نقطع الحديد والنحاس؟ فاستخرج معدن السامور وهو أشدّ ما خلق الله بياضا ، وهو الذى قطع به سليمانُ صخورَ بيت المقدس وجواهره ، كما تقدّم . قال الثعلبىّ : ولمّا شغلهم الإسكندر فى استخراج الحديد والنحاس سار نحو يأجوج ومأجوج ليعلم علمهم ، فانطلق يؤمّهم حتى انتهى إليهم وتوسّط بلادهم ، فوجدهم على مقدارٍ واحدٍ ذكرهم وأنثاهم ، يبلغ طول الواحد منهم مثل نصف الرجل المربوع منّا . ورُوِى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : منهم مَن طوله شبر ، ومنهم مَن هو مُفرِطٌ فى الطول ، لهم مخاليبُ فى أيديهم موضع الأظافر ، وأنيابٌ وأضراسٌ كالسِّباع ، يُسمَع لها حركةٌ إذا أكلوا كقَضْم البغل المسنّ أو الفرس القوىّ ، ولهم من الشعر فى أجسادهم ما يُوارِيهم وما يتّقون به الحرّ والبرد ، ولكل واحد منهم أُذُنان عظيمتان ، إحداهما وَبِرَةٌ والأخرى زَغِبَةٌ ، يفترش إحداهما ويلتحف الأخرى ، ويصيّف فى إحداهما ويشتّى فى الأخرى(2) . وقال الأنماطىّ فى خبره :

---

(1) زيادة عن الثعلبي .

(2) ورد فى البداية والنهاية لابن كثير (ج ٢ ص ١١٠ طبع مصر) ردّا على هذا مانصه :

« من زعم أنهم على أشكال مختلفة وأطوال متباينة جدّا ، فمنهم من هو كالنخلة السحوق ، ومنهم من هو غاية فى القصر ، ومنهم من يفترش أذنا من أذنيه ويتغطى بالأخرى ؛ فكل هذه أقوال بلا دليل ، ورجم بالغيب بغير برهان . والصحيح أنهم من بنى آدم وعلى أشكالهم وصفاتهم » اهـ .

ولا شك أن ما يذكره أصحاب القصص من صفات يأجوج ومأجوج فما لبه ليس بصحيح ، وإنما هو من قبيل الخرافات والاسرائيليات التى هى كذب محض ، تناقله أولئك الرواة والكاتبون بدون تحرّز ولا تدقيق =

ولهم أخفاف كأخفاف الإبل . قالوا : وليس منهم ذكرٌ ولا أنثى إلّا قد عرف أجلَه الذى يموت فيه . وذلك أنّ الذكر منهم لا يموت حتى يخرج من صُلبه ألف ولد، ولا تموت الأنثى حتى يخرج من رحمها ألف ولد[1]، فإذا كان ذلك أيقن بالموت

= وقد أثبت المحققون من رجال التاريخ أن أصل المغول والتتر من رجل يقال له « ترك » . وسماه أبو الفداء باسم « مَاجوج » . فيظهر من هذا أن المغول والتتر هم يأجوج ومأجوج وكانوا يشغلون الجزء الشمالى من آسيا الكبرى من التبيت جنوبا الى المحيط المتجمد الشمالى ، وتنتهى بلادهم غربا بما يلى بلاد التركستان .

وما ذكره الله تعالى من إفسادهم فى الأرض فقد ذكر المؤرخون أن هذه الأمم كانت تغير على من جاورها من الأمم فى أزمنة مختلفة وأهلكوا الحرث والنسل وخربوا البلاد . وذكروا أن منهم الأمم المتوحشة والجيوش الجارفة التى انحدرت من هضبات آسيا الوسطى الى أوربا وآسيا الغربية مقرّ الأنبياء (صلوات الله وسلامه عليهم) . كل ذلك قبل نزول القرآن وظهور النبى صلى الله عليه وسلم الى أن ظهرت تلك الداهية الدهياء والغارة الشعواء فى أوائل القرن السابع من الهجرة إذ ظهر منهم رجل يسمى « تموجين» وهو جنكزخان المتوفى سنة ٦٢٤ هـ فاكتسح بجموعه قسما عظيما من البلاد الاسلامية وأبادوا جموعها حتى وصلوا الى الشام بدون أن ينالوا فسادهم الحرمين الشريفين ولا القدس كما أخبرت به الأحاديث .

وقد أصابوا على البلاد الاسلامية من كل حدب ، وذلك هو مصداق القرآن الكريم . ومن أراد الاستفاضة فى هذا فليراجع تفسير العلامة المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى (ج ٩ ص ١٩٧ — ٢٠٨) والهداية الى سبيل المؤمنين للعلامة الشيخ ابراهيم أطفيّش الجزائرى (ص ١٤٩ — ١٥٢) وفاكهة الخلفاء (ص ٢٢٩) .

وقال المرحوم أمين واصف بك فى كتابه معجم الخريطة التاريخية للممالك الاسلامية عن يأجوج ومأجوج ما نصه : « يؤخذ مما قرره الباحثون أن هذه الأقوام هى أمم السكيثيون (Les Scytes) عند اليونان ، وكانت منازلهم بالشمال الشرقى من بحر الخزر ، وهم قبائل رحل ، وكانوا على حدود بلاد ماوراء النهر مما يلى فرغانة والشاش ، ومنهم قبائل الخزر والمساجيت أو من سلائهم » اهـ .

(١) ورد فى البداية والنهاية أيضا ردا على هذا مانصه :

« ماقيل من أن أحدهم لا يموت حتى يرى من ذريته ألفا فإن صح فى خبر قلنا به وإلا فلا نرده إذ يحتمله العقل، والنقل أيضا قد يرشد اليه . بل ورد حديث مصرح بذلك إن صح قال الطبرانى — وذكر السند — قال : (إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم ولو أرسلوا لأفسدوا معايشهم ولن يموت منهم رجل إلا ترك من ذريته ألفا فصاعدا ... ...) وهو حديث غريب جدا وإسناده ضعيف وفيه نكارة شديدة » .

وترك طلب المعيشة . قالوا : وهم يُرْزَقون التنين فى أيام الربيع ، يقذفه عليهم السحاب من البحر فى كل عام مرة . فإذا تأخر عنهم وقت عادته استمطروه كما يُستمطَر الغيث لحينه ، فإن قُذِفوا به أخصبوا وسمنوا وتوالدوا وكثروا وأكلوا منه حولا كاملا لا يأكلون غيره ، ويقددونه فيعمّهم على كثرتهم . قال : وهم يتداعَوْن تَداعِيَ الحمام، ويعوون عُوَاء الذئاب، ويتسافدون تسافُد البهائم حيث التقَوْا . فلمّا عاينهم ذو القرنين انصرف إلى ما بين الصَّدَفين فقاس ما بينهما ، ثم أوقد على ماجُمع من الحديد والنحاس فصنع منه زُبَرًا أمثال الصخور العظام، ثم أذاب النّحاس فجعله كالطين وألاط به تلك الصخور الحديد ثم بناه .

قالوا : وكيفيّة بنائه على ما ذكره أهل السِّيَر : أنه لمّا قاس ما بين الجبلين وجد ما بينهما مائة فرسخ ، ثم حفرله الأساس حتى بلغ الماء، وجعل عرضه خمسين فرسخا ، ثم وضع الحطب بين الجبلين ، ثم نَسج عليه الحديد ، ثم نسج الحطب على الحديد ، فلم يزل يحوّل الحديد على الحطب والحطب على الحديد حتى ساوى بين الصّدَفين ، وهما الجبلان، ثم أمر بالنار فأُرسلت فيه، ثم قال انفخوا ثم جعل يُفرِغ القِطْر(١) وهو النحاس المُذَاب ، فجعلت النار تأكل الحطب ويصير النحاس مكان الحطب حتى لزم الحديد النحاس، فصار كأنه بُرْد حِبرة(٢) من صُفْرة النحاس وحُمرته، وسواد الحديد وغُبْرته ؛ فصار سدّا طويلا عظيما حصينا . قال الله تعالى : ﴿ فَمَا ٱسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَاعوا لَهُ نَقْبًا(٣) ﴾ . وقد رُوى أنّ رجلا قال يارسول الله قد رأيتُ سدّ يأجوج ومأجوج . قال: " انعَتْه لى " . قال : كالبُرْد المُحبَّر ، طريقة سوداء، وطريقة حمراء . قال : " قد رأيته " .

---

(١) فى الأصل : « يفرغ مفرغ القطر» وهو تحريف . (٢) برد حبرة (على الوصف والإضافة) : ضرب من البرود اليمانية المخططة . (٣) سورة الكهف آية ٩٧

وقد ذكرنا خبر السدّ فيما سلف من كتابنا هذا عن سلّام التُّرجمان حين أرسله الواثق إلى السدّ فرآه، وهو فى الباب الثالث من القسم الخامس من الفنّ الأوّل وهو فى السفر الأوّل من كتابنا هذا .[1]

قال الأنماطىّ قال وهب : فبلغنا — والله أعلم — أنهم يأتونه فى كل سنة مرّة، وذلك أنهم يسيحون فى بلادهم حتى إذا انتهَوْا إلى ذلك الرَّدْم حبسهم فرجعوا يسيحون فى بلادهم، فهم كذلك حتى تقرُب الساعة، فإذا جاء أشراطها فتحه الله عزّ وجلّ، فذلك قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾[2]، وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾[3] . والله أعلم .

٩٣/١٢

ذكر خبر دخول ذى القرنين الظلمات

مما يلى القُطْب الشمالىّ لطلب عين الحياة

قال أبو إسحاق الثعلبىّ رحمه الله : قال علىّ رضى الله عنه : ملَك ذوالقرنين ما بين المشرق والمغرب، وكان له خليل من الملائكة اسمه رَفائيل يأتيه ويزوره، فبينما هما ذات يوم يتحادثان إذ قال ذو القرنين : يا رفائيل، حدّثنى عن عبادتكم [فى السماء][4]. فبكى وقال : ياذا القرنين، وما عبادتكم [بشىء][4] عند عبادتنا ! إنّ فى السماء من الملائكة من هو قائم أبدا لا يجلس، ومنهم من هو ساجدٌ لا يرفع رأسه أبدا، ومنهم الراكع لا يستوى أبدا قائما، يقولون : سبحان الملك القدّوس، ربّ الملائكة والرُّوح، ربنا ما عبدناك حقّ عبادتك . فبكى ذو القرنين بكاء شديدا ثم قال : إنى لأحبّ أن

---

(١) راجع (ج ١ ص ٣٧٤ — ٣٧٨ من هذه الطبعة) . (٢) سورة الأنبياء آية ٩٦
(٣) سورة الكهف آية ٩٨ (٤) زيادة عن الثعلبى .

أعيش فأبلغ من عبادة ربى حق طاعتـه . قال رفائيل : أوتحبّ ذلك؟ قال نعم . قال : فإنّ لله عينا فى الأرض تسمّى عين الحياة فيها من الله عزيمةٌ، إنّ من يشرب منها شربة لم يمت أبدا حتى يكون هو الذى يسأل ربّه الموت. قال ذو القرنين: هل تعلم موضع تلك العين ؟ قال المَلَك : لا، غير أنّا نتحدّث فى السماء أنّ لله تعالى فى الأرض ظُلمة لا يطؤها إنسٌ ولا جانّ، فنحن نظن أنّ العين فى تلك الظلمة . فجمع ذو القرنين علمـاء أهل الأرض وأهل دراسة الكتب وآثار النبوّة فقال لهم : أخبرونى هل وجدتم فيما قـرأتم من كتب الله وما جاءكم من أحاديث الأنبياء ومَنْ كان قبلكم أنّ الله وضع فى الأرض عينا سمّاها عينَ الحياة ؟ . قالوا لا . وقال عالم من العلماء[1] : إنّى قرأتُ وصيّة آدم، وصّى أنّ الله تعالى خلق فى الأرض ظُلمة لم يطأْها[2] إنسٌ ولا جانّ ووضع فيها عين الخـلد . فقال ذو القرنين : فأين وصيّته فى الأرض ؟ قال : على قرن الشمس . فبعث ذو القرنين وحشر إليه العلماء والأشراف والملوك، ثم سار يطلب مطلع الشمس، فسار اثنتى عشرة سنة إلى أن بلغ طرف الظُّلمة، فإذا ظلمة تقوم[3] مثل الدُّخان ليست بظُلمة ليل ، فعسكر هناك ، ثم جمع العلمـاء وقال : إنّى أريد أن أسلُك هذه الظلمة . قالوا : إنه مَن كان قبلك من الأنبياء والملوك لم يطلبوا هذه الظلمة فلا تطلبها ، فإنّا نخاف أن ينبثق عليك أمر تكرهه فيكون فيه فساد [أهل][4] الأرض . فقال : لا بدّ من أن أسلُكها . قالوا : أيها الملك كفّ عنها ولا تطلبْها فإنّا لو نعـلم أنك إن طلبتها ظفرت بما تريد ولم يسخط علينا ربّنا لاتّبعناك، ولكنّا نخاف العنت من الله عزّ وجل وفساد الأرض ومَن عليها . فقال: لابدّ أن أسلكها.

---

(١) كذا فى الثعلبى . وفى الأصل : « وقال عالم العلمـاء منهم » .

(٢) كذا فى الثعلبى . وفى الأصل : «لا يطؤها» .

(٣) فى الأصل : «تفور» . (٤) زيادة عن الثعلبى .

قالوا : شأنك بها . قال : أىّ الدوابّ بالليل أبصر ؟ قالوا : الخيل . قال : فأىّ الخيل أبصر؟ قالوا : الإناث . قال : فأىّ الإناث أبصر ؟ قالوا : البِكارة . فجمع ذو القرنين ستّة آلاف فرس بهذه الصفة ، ثم انتخب من عسكره [أهل الجلد والعقل](١) ستّة آلاف رجل ، فدفع إلى كلّ رجلٍ فرسا ، وعقد للخَضِر عليه السلام على مقدّمته ألفين ، وبَقِى هو فى أربعة آلاف . وقال ذو القرنين للناس : لا تبرحوا من معسكركم هذا إلى اثنتى عشرة سنة ، فإن رجعنا إليكم وإلا فارجعوا إلى بلادكم . فقال الخضر : أيها الملك ، إنّا نسلُك ظُلمةً لا ندرى كم المسير فيها ولا يُبصر بعضنا بعضا ، فكيف نصنع إذا ضَلَلنا ! فدفع إلى الخضر خرزة حمراء وقال : حيث يصيبكم الضلال فاطرَح هذه فى الأرض فإذا صاحت فليرجع إليها أهل الضلال أين صاحت . فسار الخضر بين يديه ، يرتحل الخضر و ينزل ذو القرنين . فبينما الخضر يسير إذ عرَض له وادٍ فظنّ أنّ العين فيه وأُلقِى ذلك فى قلبه ، فقام على شفير الوادى وقال لأصحابه : قِفُوا لا تبرحوا ، ورمى بالخرزة فى الوادى ومكث طويلا حتى أجابته الخرزة ، فطلب صوتها فانتهى إليها فإذا هى إلى جانب العين . فنزع الخضر ثيابه ثم دخل العين ، فإذا ماؤها أشدّ بياضا من اللبن وأحلى من الشهد ، فشرب واغتسل وتوضّأ ولبس ثيابه ، ثم رَمَى الخرزة نحو أصحابه ، فوقعت الخرزة وصاحت ، فرجع إلى صوتها حتى انتهى إلى أصحابه ، فركب وقال : سيروا على اسم الله . ومرّ ذو القرنين فأخطأ الوادى فسلكوا تلك الظُّلمة أربعين يوما وليلة ، ثم خرجوا إلى ضوء ليس بضوء ٩٤/١٢ شمس ولا قمر ، وإلى أرض حمراء ورملةٍ خشخاشية(٢) ، فإذا هو بقصر مبنىّ فى تلك الأرض طوله فرسخ فى فرسخ عليه باب ، فنزل ذو القرنين بعسكره ، ثم خرج وحده فدخل القصر ، فإذا حديدةٌ قد وُضع طرفاها على جانبَى القصر من هاهنا وهاهنا ،

(١) زيادة عن الثعلبى .   (٢) كذا فى الأصل والثعلبىّ .

وإذا طائرٌ أسودُ يشبه الخُطّاف مزموم بأنفه إلى الحديدة، معلّق بين السماء والأرض. فلمّا سمع الطائر خشخشة ذي القرنين قال: مَن هذا؟ قال: أنا ذو القرنين. فقال: يا ذا القرنين، أما كفاك ما وراءك حتى وصلت إليّ! ثم قال الطائر: يا ذا القرنين، حدّثني، قال سَل، فقال: هل كثُر بناء الآجُرّ والجَصّ في الأرض؟ قال نعم، فانتفض الطائر انتفاضةً ثم انتفخ فبلغ ثلث الحديدة، ثم قال: يا ذا القرنين، هل كثُرت شهادات الزور في الأرض؟ قال نعم، فانتفض الطائر ثم انتفخ فملأ الحديدة وسدّ ما بين جداري القصر. ففرِق ذو القرنين فَرَقًا عظيمًا. فقال الطائر: لا تخف. حدّثني. قال سَل. قال: هل ترك الناس [شهادة أن](١) لا إله إلّا الله بعدُ؟ قال لا، فانضمّ الطائرُ ثُلُثه ثم قال: هل ترك الناس الصلاةَ المفروضة بعدُ؟ قال لا، فانضمّ ثلثاه. ثم قال: يا ذا القرنين، هل ترك الناس غسل الجنابة بعدُ؟ قال لا، فعاد الطائر كما كان. ثم قال: يا ذا القرنين. اسلُكْ هذا الدَّرَج درجةً درجةً إلى أعلى القصر. فسلكها وهو خائفٌ وَجِلٌ لا يدري على ما يهجم، حتى انتهى إلى سطح ممدود، عليه صورة رجل شابّ قائم، وعليه ثيابٌ بيضٌ، رافعا وجهه إلى السماء، واضعا يديه على فيه، فلمّا سمع خَشْخَشَة ذي القرنين قال: مَن هذا؟ قال: أنا ذو القرنين. قال: يا ذا القرنين، إنّ الساعة قد اقتربت، وأنا منتظرٌ أمر ربّي يأمرني أن أنفخ [فأنفخ](١)، ثم أخذ صاحب الصُّور شيئا بين يديه كأنه حجرٌ وقال: خذه يا ذا القرنين، فإن شبع هذا شبعتَ، وإن جاع جُعتَ؛ فأخذه ونزل إلى أصحابه فحدّثهم بأمر الطائر وما قال له وما ردّ عليه، وما قال صاحب الصُّور. ثم جمع علماء عسكره فقال: أخبروني عن هذا الحجر ما أمرُه؟ [فقالوا: أيها الملك، أخبرنا عما قال لك فيه صاحب الصور. فقال ذو القرنين: إنه قال لي: إن شبع هذا شبعت وإن جاع جعت](١) فوضعوا

(١) زيادة الطبري.

ذلك الحجر فى إحدى كِفّتَىْ ميزان وأخذوا حجرا مثله فوضعوه فى الكفة الأخرى ثم رفعوا الميزان فإذا هو يميل، [فوضعوا معه آخر فإذا هو يميل بهن](١) فلم يزالوا يضعون حتى وضعوا ألف حجر فمال بالألف جميعا، فقالوا: انقطع علمنا دون هذا الحجر لا ندرى أسحرٌ هو أم علم [ما نعلمه](١)! فقال الخضر: نعم أنا أعلمه، فأخذ الميزان بيده ثم وضع الحجر فى كفتها وأخذ كفا من تراب فجعله فى الكفة الأخرى ثم رفع الميزان فاستوى. فخرّت العلماء سُجّدًا لله تعالى وقالوا: هـذا علمٌ لم يبلغه علمنا. فقال الخضر عليه السلام: أيها المَلك، إنّ سلطان الله عزّ وجل قاهرٌ لخلقه، وأمره نافذٌ فيهم، وحُكمه جارٍ عليهم، وإنّ الله تعالى ابتلَى خَلْقَه بعضهم ببعض، فابتلى العالِمَ بالعالم، والجاهلَ بالجاهل، والعالم بالجاهل، والجاهل بالعالم، وإنه ابتلانى بك وابتلاك بى. قال ذو القرنين: صدقتَ، فأخبرنى ما هذا؟ فقال الخضر: أيها الملك، هذا مَثَل ضربه لك صاحب الصُّور، [إن الله تعالى مكّن لك فى البلاد، وأعطاك منها ما لم يعط أحدا، وأوطأك منها ما لم يوطئ أحدا، فلم](٢) تشبع، وأبيتَ نفسك شرّها، حتى بلغتَ من سلطان الله ما لم يطأه إنسٌ ولا جانّ، فهذا مثلٌ ضَرَبَه لك، إن ابن آدمَ لا يشبع أبدًا دون أن يُحثَى عليه التراب، ولا يملأ جوفه إلّا التراب. فبكى ذو القرنين وقال: صدقتَ، لا جرم [أنى](١) لا طلبتُ أثرا فى البلاد بعد مسيرى هذا حتى أموت. ثم انصرف راجعا. فلمّا توسّط الظُّلمة وطئ وادى الزَّبَرْجَد، فقال مَن معه لما سمعوا الخشخشة تحت حوافر دوابّهم: ما هذا أيها الملك؟ فقال: خذوا منه فإنه من أخذ منه ندم، ومَن تركه ندم، فمنهم مَن أخذ، ومنهم مَن ترك. فلمّا خرجوا من الظلمة إذا هو الزبرجد. فندم الآخذ كونَه لم يُكثر، والتاركُ كونَه لم يأخذ. قال:

---

(١) زيادة عن الثعلبى.

(٢) زيادة عن الثعلبى، ومكانها فى الأصل: «إنك لم».

فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " رَحِمَ اللهُ أخى ذا القرنين لو ظفِر بوادى الزَّبَرْجَد فى المبتدأ ما ترك منه شيئا حتى أخرجه إلى الناس لأنه كان راغبًا فى الدنيـا ولكنّه ظفِر به وهو زاهدٌ فى الدنيا لا حاجةَ له فيها " .

قال الثعلبيّ : ثم رجع إلى العراق وملك ملوك الطوائف ، ومات فى طريقه بشَهرَزُور[(١)] . وقال علىّ رضى الله عنـه : [ثم إنه[(٢)]] رجع إلى دُومة الجَنْـدَل[(٣)] فأقام بهـا حتى مات . وصرّح الثعلبيّ فى سياقة أخباره أنه الذى قتـل دَارَا بن دَارَا ، وأنه لم تَطُل مدّة عمـره . وسنذكر إن شاء الله تعـالى خبر قاتل دارا بن دارا فى أخبار ملوك اليونان .

وحكى الأنماطيّ عن وهب فى خبر دخول الإسكندر الظُّلُمات : أنه لمّـا آنتهى إلى مغرب الشمس ترك مَن معه هنالك وسار على المـاء فى الظلمة ثمانيةَ أيام وثمـانى ليال حتى آنتهى إلى جبل قاف، وإذا هو بملَك قابض على الجبـل يسبِّح الله تعالى؛ فخرّ ذو القـرنين ساجدًا لله تعـالى فلم يرفع رأسـه حتى قوّاه الله تعـالى على النظر إلى المَلَك . فقال له : كيف قَوِيتَ يآبن آدم على أن تبلُغ هـذا الموضع ولم يبلُغه أحدٌ ٩٥/١٢
من ولد آدمَ قبلك؟ ! قال : قوّانى الله الذى قوّاك على قبض هذا الجبل . فأخْبِرْنى عن هذا الجبل . قال : إنه قافُ المحيط بالأرض كلها ، ولولا هو لآنكفأت الأرض بأهلها ، وليس على ظهـر الأرض أعظم منـه ، و إنه لمحيط بها كالحَلْقة ، وهو أوّل جبل أثبته الله ، فرأسُه مُلصَقٌ بسماء الدنيا ، وأسفله راسخ فى الأرض السفلى .

(١) شهرزور (بفتح الشين المعجمة وسكون الهـاء وضم الراء المهملة والزاء المعجمة) : بلدة بين الموصل وهمذان ، بناها زور الضحاك ، فقيل شهرزور ، ومعناه مدينة زور ، وهى خصبة كثيرة المتاجر فى غزلة ، وفى أهلها غلظ وجفاء . (عن تقويم البلدان) . (٢) زيادة عن الثعلبى .

(٣) دومة الجنـدل (بضم الدال المهملة) : موضع فاصـل بين الشام والعراق ، على سبع مراحل من دمشق ، وعلى ثلاث عشرة مرحلة من المدينة . (عن تقويم البلدان) .

وحكى إبراهيم بن وَصِيف شاه فى كتاب العجائب الكبير : أنّ ذا القرنين لمّا سار إلى الظُّلمة مرّ بجزيرة فيها أُمّة رءوسُهم رءوسُ الكلاب العظام باديةٌ أنيابُهم، يخرج من أفواههم مثلُ لَهَبِ النار، وأنهم خرجوا إلى مراكبه فحاربوه فتخلّص منهم، وسار فرأى نورا ساطعا فقصده فاذا هو قد بلغ جزيرةَ القصر . قال : وهذه الجزيرة فيها قصرٌ مبنيّ بالبلّور الصافى عالى الطول يشفّ حتى يُرَى نورُه على البعد، فأراد النزول بها، فمنعه بهرام فيلسوف الهند وعرّفه أنّ من نزل اليها وقع عليه النومُ وعزب عقلُه فلا يستطيع الخروج منها حتى يهلك . قال : ويقال إنه ظهر لهم منها قومٌ قِصَار زُعْرٌ، لباسُهم ورق الشجر . فسأل بهرامُ عن صبرهم على المُقام بها، فعرّفوه أنّ بها ثمرا اذا أكلوا منه زال عنهم ذلك، وذكروا أنهم إذا كان الليل ظهر بين شُرَف القصر مثلُ المصابيح تُسرَج إلى الصُّبح ثم تُخمَد نهارا إلى الليل فتُوقَد . قال : ويقال إنه مرّ فى طريقه بجزيرة التِّنّين(1) وإنها جزيرة فيها جبال وأنهار وأشجار وزروع وهى عامرة ، وعلى مدينتها حصنٌ عالٍ، وبها تِنّين عظيمٌ قد سام أهلَها أقبح سَوْم . فلمّا دخلها الإسكندر استغاثوا به من التنّين وأنه أتلف مواشيَهم حتى إنهم جعلوا له فى كل يوم ثورين ينصبونهما قريبًا من موضعه، فيخرج فيبتلعهما . فأمر الإسكندر بثورين عظيمين فسُلِخَا وحشا جلودهما زِفْتا وكِبْريتا وكِلْسا وزِرْنيخا، وجعل مع تلك الأخلاط كلاليبَ حديد، وجعلهما فى ذلك المكان . وخرج التنّين وأقبل كالسحابة السوداء وعيناه [تلمعان](2) كالبرق، والنار تخرج من جوفه، فابتلعهما ومضى، فاضطرمت تلك الأشياء فى جوفه، فلمّا أحسّ بثقلها ذهب ليقذفها، فتشبّكت

---

(١) هذه الجزيرة تسمى « جزيرة المستشكين » كما ورد فى الجزء الثانى من مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى (ص ٦٧) الذى تقوم بطبعه دار الكتب المصرية وقد ذكر حكاية الإسكندر والتنين بتوسع عما هنا . (٢) زيادة عن مسالك الأبصار .

الكلاليب فى حلقه نخر وفتح فاه ليستروح، فأمر الإسكندر بقطع الحديد فأُحميت وحُملت على ألواح من حديد وقُذفت فى حلقه فمات . ففرح أهل ذلك الموضع بموته وألطفوا الإسكندر وحملوا اليه من طرائف ما عندهم . وكان فيما حملوه اليه دابّة فى خَلْق الأرنب ، شعرها أصفر يبرق كالذهب، يسمّونها المعراج(١)، وفى رأسها قرن واحد أسود، اذا رأتها الأسود وسباع الوحش وكلّ دابّة هربت منها .

وقال الأنماطىّ فى سياقة أخبار الإسكندر عن وهب تلو خبر السدّ : ثم انطلق ذو القرنين بعد ذلك ، فبينما هو يسير إذ مرّ على شيخ يصلّى ، فوقف عليه بجنوده حتى إذا انصرف من صلاته قال له : كيف لم يَرُعْك ما حضرك من الجنود؟ ! قال : كنت أُناجى مَنْ جنودُه أكثرُ من جنودك ، وسلطانُه أعزّ من سلطانك ، وقوّته أشدّ من قوّتك؛ ولو صرفتُ وجهى اليك لم أُدرك حاجتى قبله . قال له : هل لك أن تنطلق معى وأواسيك بنفسى وأستعينَ بك على بعض أمرى ؟ قال : نعم ، إن ضمِنتَ لى أربعةَ خِصالٍ : نعيمٌ لا يزول ، وصحةٌ لا سَقَم فيها ، وشبابٌ لا كِبَرَ فيه ، وحياةٌ لا موت فيها . قال له ذو القرنين : وأىّ مخلوق يقدِر على هذه الخصال ! . قال الشيخ : فإنّى مع مَن يقدر عليها ويملكها، فتركه وسار . فبينما هو يسير إذ دَفَع الى الأمة الصالحة من قوم موسى الذين يهدون بالحقّ وبه يعدلون ، فوجد أمّة مُقسطةً عادلةً يَقسمون بالسّويّة ، ويحكمون بالعدل ويتواسَوْن، فكلمتُهم واحدة، وقلوبُهم مؤتلفة مستقيمة ، وسيرتُهم مستوية، وقبور موتاهم فى أفنيتهم، وليس على بيوتهم أبوابٌ(٢) تُغلَق ، وليس عليهم أُمراءُ ، ولا قضاة بينهم ، ولا أشراف

(١) كذا فى حياة الحيوان للدميرى (ج ٢ ص ٢٨٤) وعرفها بقوله : «المعراج : دابة عظيمة عجيبة مثل الأرنب صفراء اللون على رأسها قرن واحد أسود لم يرها شىء من السباع والدواب إلا هرب، ذكرها القزوينىّ فى جزائر البحار» . وفى الأصول : «يسمونه بمراج» وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : «وليس على أبواب بيوتهم» .

يتفاوتون، ولا يتفاضلون ولا يختلفون ولا يتنازعون ولا يتسابّون ولا يقتتلون ولا يقحطون ولا تصيبهم الآفات؛ فعجب من أمرهم وقال: أخبرونى خبركم أيّها القوم؛ فإنّى قد أحصيتُ الأرض شرقها وغربها، وسهلها وجبلها، وبرّها وبحرها، ونورها وظُلْمتها، فلم أرَ مثلكم. قالوا: سَلْنا عمّا بدا لك نُخْبِرْك. قال: ما بال قبوركم فى أفنيتكم وعلى أبواب بيوتكم؟ قالوا: لئلا ننسى الموت ولا يخرجَ ذكره من قلوبنا. قال: فما بال بيوتكم لا أبواب عليها؟ قالوا: ليس فينا متّهم ولا ظَنِين، ولا فينا إلّا مؤتَمَنٌ أمين. قال: فما بالكم ليس عليكم أمراء؟ قالوا: لأنّا لا نتظالم. قال: فما بالكم ليس فيكم أغنياء؟ قالوا: لأنّا لا نتكاثر. قال: فما بالكم لا تتفاضلون ولا تتفاوتون؟ قالوا: من قِبَل أنّا متواسُون متراحمون. قال: فما بالكم ليس فيكم أشراف؟ قالوا: ٩٦/١٢ لأنّا لا نتنافس. قال: فما بالكم لا تتنازعون ولا تختلفون؟ قالوا: من أُلْفة قلوبنا وصلاحِ ذاتِ بيننا. قال: فما بالكم ليس بينكم حكّام؟ قالوا: نحن لا نختصم. قال: فما بال كلمتكم واحدة؟ قالوا: من قِبَل أنّا لا نتكاذب ولا نتخادع ولا يغتاب بعضنا بعضا. قال: فأخبرونى من قِبَل ماذا تشابهت قلوبكم واعتدلت سِيرَتكم؟ قالوا: من صحّة صدورنا، فنزع الله بذلك الغِلّ والحسد من قلوبنا. قال: فما بالكم ليس فيكم مسكين ولا فقير؟ قالوا: من قِبَل أنّا نقسم بالسويّة. قال: فما بالكم ليس فيكم فظّ ولا غليظ؟ قالوا من قِبَل الذل والتواضع. قال: فأخبرونى بماذا أنتم أطول الناس أعمارا؟ قالوا: من قِبَل أنّا نتعاطَى الحقّ ونحكم بالعدل. قال: فما بالكم لا تقحطون؟ قالوا: لأنّا لا نغفُل عن الاستغفار. قال: فما بالكم لا تُصيبكم الآفات؟ قالوا: من قِبَل أنّا لا نتوكّل إلّا على الله، ولا نَستمطر بالأنواء ولا بالنجوم. قال: أهكذا وجدتم آباءكم يفعلون؟ قالوا: وجدنا آباءنا يُعطُون مسكينهم، ويُواسُون فقيرهم، ويوقّرون غنيّهم، ويعفُون عمّن ظلمهم، ويُحسنون الى مَن أساء اليهم،

ويحلُمون عمّن جهِل عليهم، ويستغفرون لمن سبّهم، ويَصِلون أرحامهم، ويؤدّون أماناتهم، ويحفظون وفاءهم لصلاحهم، ويُوفون بعهدهم، ويصدقون فى مواعيدهم، ولا يرغبون عن أكفائهم، ولا يستنكفون عن أقاربهم؛ فأصلح الله تعالى لهم بذلك أمرهم، وحفِظهم به ما كانوا أحياء . قال : فأقام ذو القرنين عنـدهم حتى قبضه الله عزّ وجل، ولم تُطل مدّة إقامته فيهم . قال وهب : عاش منذ بعثه الله تعالى الى أن قُبض خمسمائة عام . وقال غيره : أكثر من ذلك، وقد ذكر فى المعمَّرين . وقيل : إنه عاش ألف وستمائة وخمسين سنة ومات فى حياة أمه . وقيل : إنه أدرك إبراهيم الخليل وآجتمع معه وأركبه من دوابّه . حكاه الأزرقىّ وأبو عبيد البكرىّ . والله أعلم .

الباب الثانى

من القسم الرابع من الفنّ الخامس

فى أخبار ملوك الأصقاع، وهم ملوك الهند والصين والترك وجبل الفتح وملوك مصر

ذكر أخبار ملوك الهند

قال المسعودى فى مروج الذهب(١) : ذكر جماعة من أهل النظر والبحث الذين واصلوا البحث والعناية بتأمل شأن هذا العالم [و بدئه](٢) أنّ الهند كانت فى قديم الزمان الفرقةَ التى فيها الصلاح والحكمة، وأنه لمّا تجيّلت الأجيال وتحزّبت الأحزاب حاولت الهند أن تضم المملكة وتستولى على الحوزة وتكون الرياسة فيها. قال كبراؤهم: نحن كنّا أهلَ البدء وفينا التناهى، ولنا الغاية والصدر والانتهاء، ومنّا سرى الأب الى الأرض، فلا شاقّنا أحدٌ ولا عاندنا ولا أراد بنا الأغتماص(٣) إلّا أتينا عليه وأبدناه أو يرجعَ(٤) الى طاعتنا . فأجمعت على ذلك رأيها ونصبتْ لها ملكا، وهو « البَرهمَن » الأكبر والملك الأعظم، واليه تُنسَب طائفة البراهمة بالهند، لا الى إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم. وهذا «البرهمن» هو الإمام المقدّم فيهم الذى ظهرت فى أيامه الحكمة وتقدّمت العلماء، وأمر بآستخراج الحديد من معادنه، وضُربت فى أيامه السيوف والخناجر وكثير من أنواع السلاح وآلات القتال، وشيّد الهيا كل ورصّعها بالجواهر النفيسة المشرقة، وصوّر فيها الأفلاك والبروج الآثنى عشر بُرجا والكواكب، وبيّن بالصورة

---

(١) راجع (ج ١ ص ٣٥ طبع بلاق) .

(٢) زيادة عن مروج الذهب .

(٣) الاغتماص : الاحتقار والاستصغار .

(٤) كذا فى المسعودى . وفى الأصول : « ليرجع » .

كيفيّة العالم ، وأرى بالصورة[1] أيضا كيفيّة أفعال الكواكب في هذا العالم وإحداثها للأشخاص الحيوانيّة من الناطقة وغيرها ، وبيّن حال المدبّر الأعظم الذى هو الشمس ، وبرهن على ذلك كلّه وقرّبه إلى عقول العوامّ[2] وأذهانهم ففهموه ، وغرس فى نفوس الخواصّ دراية ماهو أعلى من ذلك ، وأشار إلى المُبدئ الأوّل المُعطى لسائر الموجودات [وُجُودَها الفائض عليها بجُوده][3]. فانقادت له الهند ، وأراهم وجه مصالح الدنيا وأخصبت بلادهم . وجمع الحكماءُ فى أيامه كتاب «السند هند»[4] ، وتفسيره دهر الدهور[5] ، ومنه فُرِّعت الكتب ، ككتاب الأزجهير والمَجَسْطِى ، وفُرِّع [من الأزجهير الأركند ومن المجسطى][6] كتاب بطليموس ، ثم عُمِل منها بعد ذلك الزِّيجات . وأحدثوا التسعة الأحرف المحيطة بالحساب الهندىّ . وكان البرهمن هذا أوّل من تكلّم فى أوج الشمس[7] ، وذكر أنه يقيم فى كلّ بُرْج ثلاثة آلاف سنة ، ويقطع الفَلَك فى ستّة وثلاثين ألف سنة ، الى غير ذلك من هذا الفنّ . وكان مُلْك البرهمن الى أن هلك ثلاثمائة سنة وستا وستين سنة ، وولده يعرفون بالبراهمة ، والهند تعظّمهم الى وقتنا هذا ، وهم أعلى أجناسهم وأشرفُهم ، وهم لا يتغذّون بشىء من الحيوانات . وفى رقاب النساء والرجال منهم خيوط صُفْر يتقلّدون بها كحمائل السيوف ، تفرق بينهم

٩٧ / ١٢

(١) فى مروج الذهب : « وأورد » . (٢) كذا فى مروج الذهب . وفى الأصل : « إلى عقول القوم » . (٣) التكملة عن مروج الذهب .

(٤) السند هند أحد المذاهب الثلاثة المشهورة بالهند فى علم النجوم ، وهى مذهب السند هند ، ومذهب الأزجير ، ومذهب الأركند . ومذهب السند هند هو المذهب الذى تقلده جماعة من الإسلام وألفوا فيه الأزياج كمحمد بن إبراهيم الفزارى وحبش بن عبدالله البغدادى ومحمد بن موسى الخوارزمى والحسين بن محمد المعروف بابن الآدمى وغيرهم . (راجع طبقات الأمم لابن صاعد ص ١٩ طبع مصر) .

(٥) فى طبقات الأمم أن معنى «السند هند» الدهر الداهر .

(٦) الزيادة من مروج الذهب . وفى الأصول : « وفرع منها » .

(٧) قال المسعودى فى مروج الذهب : «والأوج على رأى البرهمن فى وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة فى برج الثور ، وأنه إذا انتقل إلى البروج الجنوبية انتقلت العمارة فصار العامر خرابا والخراب عامرا ، والشمال جنوبا والجنوب شمالا ... الخ » ثم ذكر المسعودى كلاما طويلا .

و بين غيرهم من أنواع الهند. وقد تنوزع فى البرهمن ، فنهم من زعم أنه آدم وأنه رسول من الله الى الهند ، ومنهم من زعم أنه كان ملكا ، على حسب ما قدمناه وهو الأشهر. ولمّا هلك البَرَهْمَن جزِعت عليه الهند جزعا شديدا ، وملّكت عليها ولده الأكبر .

ذكر تنصيب ابن البَرَهْمَن وهو الباهبود(١)

وكان ولىّ عهد أبيه من بعده . فسار فيهم سيرةَ أبيه وأحسن النظر إليهم ، وزاد فى بناء الهياكل ، وقدّم الحكماء ورفع من مقدارهم و زاد فى مراتبهم ، وحثّهم على تعليم الناس الحكمة و بعثهم على طلبها . وكان مُلْكه الى أن هلك مائةَ سنة . و فى أيامه عمِل النّرد ولعِب به ، وجعل ذلك مثالا للمكاسب ، وأنها لا تُنَال بالكَيْس ولا بالحِيَل فى هذه الدنيا ، وأن الرزق لا يتأتّى فيها بالحذق . وذكر أن أردَشير بن بابك أوّل مَن وضع النّرد ولعب بها ، وأرى تقلُّب الدنيا بأهلها واختلاف أمرها . وجعل بيوتها اثنى عشر بعدد الشهور ، وجعل مهاركها(٢) ثلاثين بعدد أيام الشهر ، والفصوص أمثلةً للقَدَر وتقلبه بأهل الدنيا وأن الانسان يلعب بها فيبلغ بإسعاد القَدَر له فى مراده بها ما يريد ، وأن الحازم الفَطِن لا يتأتّى له ما يتأتّى لغيره اذا لم يُسعده القَدَر ، وأن الأرزاق لا تُنال فى هذه الدنيا إلا بمقادير .

ثم ملك بعده رامان(٣)، فكان مُلْكه نحوًا من خمسين ومائة سنة . قال : وله سِيَر وأخبار وحروبٌ مع ملوك فارس وملوك الصين .

ثم ملك بعده فُور ، وهو الذى قتله الإسكندر بن فيلِبُّس اليونانىّ مبارزةً . وكان مُلْكه الى أن قُتِل أربعين ومائة سنة .

(١) فى مروج الذهب للمسعودى (ج ١ ص ٣٧) : « الباهبود » .

(٢) فى المسعودى « كلابها » .

(٣) فى المسعودى : « داماى » .

ثم ملك بعده تسام(١)، وهو الذى وضع كتاب كليلة ودمنة الذى نقله ابن المقفع. وكان مُلكه مائة وعشر سنين(٢)، وقيل غير ذلك .

ثم ملك بعده بلهيت . وفى أيامه صُنعت الشِّطْرَنْج فقضى بلعبها على النَّرْد، وبيّن الظفر الذى يناله الحازم والنكبة التى تلحق الجاهل وحسب حسابهما، ورتّب لذلك كتابا للهند يتداولونه بينهم، ولعب بها مع حكمائه . وكانت مدّة مُلكه الى أن هلك نحوا من ثمانين سنة، وفى بعض النسخ أنه ملك ثلاثين ومائة سنة .

ثم ملك بعده كُوش(٣)، فأحدث للهند آراءً فى الديانات على حسب ما رأى من صلاح الوقت ، وبما يحتمله أهل العصر من التكليف، وخرج عن مذاهب من سلف . وكان فى مملكته وعصره سندباد، وله كتاب الوزراء السبعة والمعلم والغلام وامرأة الملك، وهو الكتاب المترجم بكتاب السندباد . وعُمل لهذا الملك الكتاب الأعظم فى معرفة العِلَل والأدواء والعلاجات وأشكال الحشائش وصفتها . وكان مُلك هذا الملك الى أن هلك عشرين ومائة سنة . ولمّا هلك اختلفت الهند فى آرائها فتحزّبت الأحزاب وتجيّلت الأجيال وانفرد كل رئيس بناحيته، فملك على أرض السند ملك ، وعلى أرض القِنَّوج ملك ، وعلى أرض قشمير ملك . فكانت مدّة اجتماع ٩٨/١٢
الكلمة ببلاد الهند على ملك واحد على هذا الحكم نحوا من ألف سنة وستّ وستين سنة . وعلى القول الآخر ألف سنة ومائة سنة وست عشرة سنة . وعدّة ملوكهم سبعة ملوك . والله تعالى أعلم .

---

(١) فى المسعودى : « دبشلم » .

(٢) فى المسعودى : « وعشرين سنة » .

(٣) فى المسعودى : « كورش » .

وملك بعد كُوش بمدينة المانكير وهي الحَوْزة الكبرى ملك يسمّى البَلْهَرا . قال المسعوديّ : وأرض الهند أرضٌ متسعة في البرّ والبحر والجبال . ومملكهم يتّصل بملك الزّنج وهي دار مملكة المَهراج . وهذه المملكة فَرْزٌ بين مملكة الهند والصين . قال : ومن عادة الهند أنها لا تملّك الملك حتى يبلغ عمره أربعين سنة ، ولا تكاد ملوكهم تظهر لعوامّهم إلّا في كل برهة معلومة من الزمان . ويكون ظهور الملك للنظر في أمور الرعيّة . وقال أيضا : رأيت في بلاد سَرَنديب[1]، وهي جزيرة من جزائر البحر اذا مات ملكهم صيّروه على عجلة صغيرة البكَرة وشعره يجرّ على الأرض ، وامرأة بيدها مِكْنسةٌ تحثو التراب على رأسه وتنادي : أيها الناس ، هذا مَلِكُكم بالأمس قد مَلَككم وجاز فيكم أمره قد صار الى ما تَرَوْن من ترك الدنيا ، وقبض روحه ملك الملوك الحيّ القديم الذي لا يموت . فلا تغترّوا بالحياة بعده . وكلامٌ هذا معناه من الترهيب والتزهيد في هذا العالَم . ويطاف به في جميع شوارع المدينة وهو كذلك ، ثم يُفصَل بأربع قِطَع وقد هُيّئ له الصندل والكافور وسائر أنواع الطِّيب ويُحرَق بالنار ويذرى رماده في الرياح . قال : وكذلك فعل أكثر أهل الهند بملوكهم وخواصّهم لغرض يذكرونه . قال : والمُلْك مقصور في أهل بيت لا ينتقل منهم الى غيرهم . وكذلك بيوت الوزراء والقضاة وسائر أرباب المراتب، تتوارث مناصبهم ولا تغيّر ولا تبدّل . وعندهم أنّ ملكهم متى شرب الشراب فقد استحق الخلع . والله الهادي .

---

(١) سرنديب : هي جزيرة سيلان الآن .

ذكر أخبار ملوك الصين

قال أبو الحسن علىّ بن عبد الله المسعودىّ فى كتابه المترجم بمروج الذهب[1] : لمّا قسم فَالَغ[2] بن عَابَرَ بن أَرْفَخْشَذ بن سام بن نوح الأرض بين ولد نوح سار ولد عامور[3] بن تُوبَلِ[4] بن يَافَثَ بن نوح يَسْرةَ المشرق، فكان منهم أجناس الترك. وسار الجمهور من ولد عامور[3] على ساحل البحر حتى آنتهوا الى أقاصيه من بلاد الصين. فتفرّقوا فى تلك البقاع والبلاد وقطنوها وعمّروها، وكوّروا الكُوَر، ومصروا الأمصار، ومدّنوا المُدُن، وآتخذوا للملك مدينة عظيمة سمّوها إيقو[5]، وبينها وبين ساحل البحر الحبشىّ، وهو بحر الصين مسيرة ثلاثة أشهر، مدن وعمائر متصلة. فكان أوّل مَن تملّك عليهم فى هذه الديار نسطيرطاس[6] بن ماعور[7] بن برنج[8] بن عامور[3]. قال: ولمّا ملك فرق أهله فى تلك الديار، وشقّ الأنهار، وغرس الأشجار، وطعّم الثمار، وقتل السباع. وكانت مدّة ملكه ثلاثمائة سنة ونيّفا وهلك.

فقام بالأمر بعده ولده عَرُون بن نسطيرطاس، فجعل جسد أبيه فى تمثال من الذهب الأحمر جزعًا عليه وتعظيما له، وأجلسه على سرير من الذهب مُرصّع بالجوهر، وجعل مجلسه دونه، وسجد له وهو فى جوف ذلك التمثال، وسجد معه أهل مملكته، وفعل ذلك فى كل نهار فى طرفيه. وكانت مدّة مُلْكه بعد أبيه نحوًا من مائتى سنة وخمسين سنة ثم هلك.

---

(١) راجع (ج ١ ص ٦١ طبع بلاق).

(٢) فى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ١٨): «فالج» بالجيم المعجمة. (٣) فى المسعودى «عابور».

(٤) كذا فى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ١٧) وفى الأصل: «مربل».

(٥) فى المسعودى: «انموا». (٦) كذا فى ب. وفى ا هنا، «فنطرطاس». وفى المسعودى: «اسطرماس». (٧) كذا فى ا. وفى ب: «باعور». وفى المسعودى: «قاعور». (٨) فى المسعودى: «بريج».

فملك بعده آبنه عِيبرون بن عَرْبون[1] . ولمّا ملك جعل جسد أبيه عَرْبون في تمثال من الذهب ونصبه دون مرتبة جدّه، وكان يبدأ بالسجود لجدّه ثم يسجد لأبيه، وساس الرعيّة بأحسن سياسة، وساواهم فى جميع أمورهم، وشملهم بعدله، وكثر النسل، وأخصبت الأرض . وكان مُلْكه الى أن هلك مائتى سنة .

٩٩/١٢

ولمّا مات ملك بعده ولده عَيْنان[2] بن عِيبرون . قال : ولمّا ملك جعل جسد أبيه فى تمثال من الذهب، وجرى فى أمره على ما سلف من عادتهم فى السجود والتعظيم . وطالت مدّته فى الملك، واتسعت مملكته حتى اتصلت بلاده ببلاد الترك من بنى عمه . واتّخذ فى أيامه كثيرٌ من المهن مما لطف فى الرقة من الصنائع، وعاش أربعمائة سنة ثم هلك .

فملك بعده آبنه حَرَانان[3] بن عَيْنان . قال : ولما ملك جرى فى جسد أبيه على عادتهم، ثم أمر باتّخاذ الفُلْك وحمل فيها الرجال، وحمل معهم لطائف بلاد الصين وسفّرهم نحو بلاد الهند والسند والى إقليم بابل وسائر الممالك مما قرب وبعد فى البحر . وأهدى الى الملوك الهدايا العجيبة والتحف النفيسة . وأمر أصحابه الذين سفّرهم أن يجلبوا إليه ما فى كل بلد من الطرائف والتحف والمأكول الذى لا يوجد فى بلاده، والمشروب والفروش وأصناف الأقمشة والأمتعة وغير ذلك . وأمرهم أن يتعرّفوا سياسة كلّ ملك، وملّة كل أمة وشرائعها ونهجها الذى هى عليه، وأن يرغّبوا الناس فيما فى بلادهم من الجواهر والطّيب والآلات . فتفرّقت تلك المراكب فى البلاد وفعلوا ما أمرهم به، فلم يَرِدُوا على مملكة من الممالك إلا أعجبوا بهم واستظرفوا ما معهم . فأنشأت الملوك المحيطة بممالكهم

---

(١) فى المسعودى : « [illegible] » . (٢) فى المسعودى : « عيناف » .

(٣) فى أ : « [illegible] » [illegible] .

بالبحار السفن وجهّزت نحو الصين ، وحملوا إليهم ما ليس عندهم . وكاتبوا ملكهم وكافئوه على ما كان قد هاداهم به من تحف بلاده . فعمرت بلاد الصين ، وآستقامت أمور مملكة الصين . فكانت مدّة حياته فى الملك نحوا من مائتى سنة وهلك ، بخزع أهل مملكته عليه وحزنوا حزنا شديدا ، وأقاموا النياحة عليه شهرا .

وملك بعده ابنه توتال[1] بن حراتان . قال : ولما ملك جعل جسد أبيه فى تمثال من الذهب ، وسلك فيه سنّة من تقدّمه من آبائه ، وآستقام أمره ، وأحدث من السُّنَن المحمودة ما لم يُحدثه أحدٌ من الملوك قبله . وقال لأهل مملكته : إنّ المُلْك لا يثبت إلا بالعدل لأنه ميزان البارى ، و إنّ من العدل الزيادة فى الإحسان مع الزيادة فى العمل . وخصّ وشرّف وتوج ورتّب الناس فى رتبهم ، و وقفهم على طرائقهم . وخرج يرتاد موضعا يبنى فيه هيكلا ، فوافى موضعا عامرا بالنبات ، حسن الاعتمام بالزهر ، تخترقه المياه . فخط الهيكل هناك ، وجُلبت له أنواع الأحجار المختلفة الألوان ، فشيّد الهيكل وجعل على أعلاه قبّة ، وجعل لها مخارق للهواء متساوية . وجعل فى الهيكل بيوتا لمن أراد الآنفراد للعبادة . فلمّا فرغ من الهيكل نصب فى أعلاه تلك التماثيل التى فيها أجسام مَن سلف من آبائه ، وقال : فى ترك ذلك على ما هو عليه خروج عن حدّ الحكمة ، ويكون ذلك الى غير غاية ونهاية . وأمر بتعظيم تلك الأجساد التى جعلها فى أعلى القبّة . ثم جمع الخواصّ من أهل مملكته وأخبرهم أنّ من رأيه أن يضمّ الناس الى ديانة يرجعون إليها فيجتمع الشمل و يتساوى النظام ، وقال : إنه متى عدم الملك الشريعة لم يؤمن عليه الخلل ، ودخول الفساد والزلل ؛ فرتّب لهم سياسة وشريعة وفرائض[2] ، ورتّب لهم قصاصا

(١) فى المسعودى : « توماءان » .

(٢) فى المسعودى : « فرتب لهم سياسة شرعية وفرائض عقلية وجعلها لهم رباطا » .

للنفوس والأعضاء ، وقاعدةً تستباح بها الفروج وتصحّ بها الأنساب . وجعل مما رتّبه وقرّره لوازم ونوافل ، وأوجب عليهم صلواتٍ لخالقهم تقرّبا الى معبودهم [منها[1]] إيماءٌ لا ركوعَ فيها ولا سجود [فى أوقات من الليل والنهار معلومة ، ومنها بركوع وسجود[1]] فى أوقات من السنين وفى شهور محدودة . و رسم لهم أعيادا . وأوجب على الزُّناة منهم حدودًا ، وعلى مَن أراد من نسائهم البِغاءَ جزيةً مقرّرة ، وألّا يستبحن بالنكاح وقتا من الأوقات ، وإن أقلعن عمّا كنّ عليه [تكفّ الجزية عنهنّ[2]] . وما يكون من أولادهنّ ذكورًا[3] يكونون للملك جُنْدا وعبيدا ، وما يكون من أولادهنّ إناثا فلأمهاتهنّ ويلحقن بصنعتهنّ . وأمر بقرابين للهياكل ودُخْنٍ وأبخرة للكواكب . وجعل لكل كوكب منها دُخْنًا[4] يتقرّب إليه بها معمولة من أنواع الطِّيب والعقاقير . وأحكم لهم جميع الأمور ، فاستقامت أيامه وكثُر النسل . فكانت مدّة حياته نحوًا من مائة وخمسين سنة ثم مات ، فجزعوا عليه جزعا عظيما ، وجعلوه فى تمثال من الذهب ورصّعوه بالجوهر وبنوا له هيكلا عظيما ، وجعلوا فى أعلاه ٢ سبعة أنواع من الجوهر على ألوان الكواكب السبعة وأشكالها ، وجعلوا يوم وفاته صلواتٍ وعيدًا يجتمعون فيه عند [ذلك[1]] الهيكل ، وصوّروا صورته وذكروا سيرته فى لوح من الذهب ، وجعلوه فى أعلى الهيكل من حيث تراه الأبصار ليكون ذلك مثالا لمن يَرِد بعده فى السياسة ونهج السيرة وصوّروا صورته على أبواب المدينة . وعلى الدنانير والفلوس والثياب . وأكثر أموالهم الفلوس الصُّفْر والنّحاس . قال : وآستقرّت هذه المدينة دار ملك الصين وهى مدينة إيفو . قال : ولهم مدينة عظيمة

(١) التكملة عن المسعودى . (٢) كذا فى المسعودى . وفى الأصل : «والشهور معدودة» .

(٣) كذا فى المسعودى . وفى الأصل : « ذكورهنّ للملك جندا وعبيدا وما كنّ من إناث... » .

(٤) فى المسعودى : « ... وجعل لكل كوكب منها وقتا يتقرّب اليه فيه مذخرـــ صوابه بدخن وهو ذريرة يدخن بهاـــ معمول من أنواع الطيب والعقاقير » . (٥) فى المسعودى : «انموا» كما تقدّم .

نحو ما يلى مغرب الشمس من أرضهم يقال لهـا مدو، وتلى بلاد التُّبَّت . والحروب بين أهل مدو وبين أهل بلاد التُّبَّت سجال . ولم تزل الملوك من طرا بعد هذا الملك أمورُهم منتظمة، وأحوالهم مستقيمة، والخصب والعدل لهم شامل، والجور فى بلادهم معدوم، يقتدون بما نصب لهم توتال من الأحكام . وحروبهم على عدوّهم قائمة ، وثغورهم مشحونة، والرزق على الجنود جار، والتجّار يختلفون اليهم فى البرّ والبحر من كل بلد . ودينهم دين من سلف من آبائهم ، وهى ملّة تُدعَى السُّمَنية (١) ، [عباداتهم] (٢) نحو من عبادات قريش قبل الاسلام، يعبدون الصُّوَر ويتوجهون نحوها بالصلوات . فاللبيب فيهم يقصد بصلاته الخالق عزّ وجل، ويقيم التمثال من الأصنام وغيرها مقام قِبْلة . والجاهل ومن لا علم له يُشرك هذه التماثيل بـ[الاهية] (٢) الخالق ويعتقدهما (٣) جميعا، وأنّ عبادتهم الأصنام تقربهم الى الله زُلْفى، وأنّ منزلتهم فى العبادة تنقُص عن البارئ لجلالته وعظمته وسلطانه ، وأنّ عبادتهم لهـذه الأصنام طاعة له ووسيلة ، الى أن ظهرت فى أهل الصـين آراء ونِحَل حدثت من مذاهب الثَّنَوِيَّة (٤) وأهل الدهر . وقد كانوا قبـل ذلك فى الآراء وعبادة التماثيل على حسب ما عليـه عوامّ الهند وخواصّهم ، فتغيّرت أحوالهم وبحثوا وتناظروا، إلّا أنهم ينقادون فى جميع أحكامهم الى ما نُصب لهم من القـاعدة التى قدّمناها . قال : ومُلْكهم متصل بمُلْك الطُّغُزْغُز (٥) . وكان اعتقاد

(١) السمنية (بضم ففتح) : قوم بالهند من عبدة الأصنام دهريون قائلون بالتناسخ وينكرون وقوع العلم بالأخبار . يقال إنه نسبة إلى سمن اسم صنم لهم . وقيل : إن نسبتهم إلى بلد بالهند يقال لها سومنات، فتكون النسبة على غير قياس . (راجع شرح القاموس مادة سمن) . (٢) تكملة من المسعودى .

(٣) كذا فى المسعودى . وفى الأصل : «ويعبدهما» . (٤) الثنوية : أصحاب الاثنين . يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان بخلاف المجوس فإنهم قالوا بحدوث الظلام والنور بنسوبهما فى القدم واختلافهما فى الجوهر والطبع والفعل والحيز والمكان والأجناس والأبدان والأرواح . (راجع الملل والنحل للشهرستانى) . (٥) ويقال لهم أيضا طغزغز (بزايين) وتغزغز وتغزغر : جيل من الترك كانوا يسكنون أرضا واسعة على حدود الصين، وهم فيها أصحاب خيام كأعراب البادية . (راجع النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣ وكتاب التنبيه والإشراف للمسعودى) .

الطُّغُزْغُز القــول بإله النــور والظُّلْمة، وكانوا قبــل ذلك جاهليّة جهلاء، سبيلهم فى الاعتقاد سبيل أنواع الترك، الى أن وقع إليهم شيطان من شـياطين المـانيّة (١)، فزخرف لهم كلاما يريهم فيه تَضادّ هذا العالم وتنافيَه من موت وحياة وصحّة وسقم وغنى وفقر وضـياء وظلام وآجتماع وآفتراق وآتصال وآنفصال وشروق وغروب ووجود وعدم وليل ونهار وغير ذلك من سائر المتضادّات، وذكر لهم أنواع الآلام المعترضة لأجناس الحيوان الناطق والصامت، وما يعرض للاطفال والبُله والمجانين، وأنّ البارى غنىّ عن إيلامهم، وأراهم أنّ هناك ضِدّا شديدا دخل على الخير الفاضل فى فعـله وهو الله، تعالى الله عمـا يقولون علوّا كبيرا، فآجتـذب بذلك عقولهم ودانوا به. فإذا كان ملك الصين سُمَنِىّ المذهب يذبح الحيوانات، فتكون الحرب بينه و بين ملك الترك قائمة، و إذا كان مانىّ المذهب كان الأمر بينهم (٢) مشاعا.

قال: وملوك الصين ذوو آراء ونِحَل، إلّا أنهم مع آختلاف أديانهم غير خارجين عن قضيّة العقل وسُنَن الحق فى نَصْب القُضَاة والأحكام، وآنقياد الخواصّ والعوامّ الى ذلك. قال: وأهل الصين شعوبٌ وقبائل كشعوب العـرَب وأفخاذها، ولهم مُرَاعاةٌ لحفظ أنسابهم. وينتسب الرجل منهم الى خمسين أبا وأكثر الى أن يتصل بعامور (٣). ولا يتزوّج أهـل كل فخـذ إلا من فخذهم (٤)، و يزعمون أنّ فى ذلك صحة النسل وقوام البنية، وأنّ ذلك أصحّ للبقاء وأتمّ للعمر.

---

(١) المـانية ويقال لها أيضا المـانوية: أصحاب مانى بن فاتك الحكيم الذى ظهر فى زمان سابور ابن أزدشير وقتـله بهرام بن هرمز بن سابور، وذلك بعـد عيسى عليه السـلام، أخذ دينا بين المجوسية والنصرانية، وكان يقول بنبوّة المسيح ولا يقول بنبوّة موسى عليه السلام، وزعم أنّ العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين أحدهما نور والآخر ظلمة، وأنهما أزليان لم يزالا ولن يزالا. وأنكر وجود شىء لا من أصل قديم، وزعم أنهما لم يزالا قوّتين حساسين سميعين بصيرين، وهما مع ذلك فى النفس والصورة والفعل والتدبير متضادان وفى الحيز متحاذيان تحاذى الشخص والظل ... (راجع الملل والنحل للشهرستانى).

(٢) فى الأصل: «كان الأمر بينهم والملك مشاعا». (٣) فى المسعودىّ: «بعابور».

(٤) كذا فى المسعودىّ، وقد فصل هذه القضية. وفى الأصل: «ولا يتزوّج أهل فخذ من فخذه».

قال المسعودىّ : ولم تزل أمورُ الصين مستقيمةً فى العدْل على حسب ماجرى به الأمر فيما سَلَف من ملوكهم الى سنة أربع وستين ومائتين ؛ فإنه حدث فى مُلْك الصين أمر زال به النظام وآنتقض به حكم شرائعهم ومَنَع من الجهاد . وكان سبب ذلك أنّ خارجيًّا خرج ببلد من مدن الصين وهو من غير بيت المُلْك ، يقال له ياسر ، شرّير . وكان فى آبتداء أمره يطلب الفتوّة ، ويجتمع اليه أهل الدعارة والشرّ ، فلحق الملوك وأرباب التدبير غفلة عنه لخمول ذكره . وأنه ممن لا يبالَى به ؛ فاشتدّ أمره ، ونما ذكره ، وكثر عتوّه ، وقَوِيتْ شوكته ، وقطع أهل الشرّ المسافات نحوه . فسار من موضعه وشنّ الغارات ، ولم يزل كذلك حتى نزل مدينة خانقو(١) ، وهى المدينة العظيمة . قال : وهى على نهر عظيم أكبر من دِجْلة أو نحوه ، تدخله السفن التى ترد من بلاد البصرة وسِيراف(٢) وعُمان(٣) ومدن الهند وجزائر الزابج(٤) . وبين هذه المدينة وبحر الصين مسيرة 101/12

(١) مدينة خانقو كما وصفها الادريسى : تقع الى الشرق من مصب نهر حمدان (ينغ تسى كينغ) . وبالرجوع الى مصوّر الادريسى نرى أن هناك مدينة أخرى تسمى « خانكو » أو « جانكو » ، وتقع هى كذلك على الشرق من مصب نهر حمدان . ونهر حمدان ، كما رسمه الادريسى ، يصب فى المحيط بفرعين بينهما بعد كبير ، ويلتقيان فى الداخل على مسافة كبيرة وتقع خانقو على الفرع الجنوبى منهما . والظاهر أنه عدّ نهر « سيكينج » ونهر « ينج تسى كينج » فرعين لحمدان (ينغ تسى كينغ) وقد ذهب كونراد ميللر محقق وناشر خرائط الادريسى إلى أن خانقو هى مدينة « كنتون » الآن . كما ذهب إلى أن مدينة « جانكو » هى مدينة « تشوتشو » . (راجع مسالك الأبصار ج ٢ ص ٣٩ الحاشية رقم ٤) .

(٢) سيراف : من بلاد فارس على ساحل البحر مما يلى كرمان ، وهى مدينة آهلة . (راجع تقويم البلدان) .

(٣) عمان (بضم العينَ المهملة وفتح الميم) : مدينة جليلة على بحر فارس تحت البصرة ، وبها مرسى السفن من السند والهند والصين والزنج ، وليس على بحر فارس مدينة أجلّ منها . (راجع تقويم البلدان) .

(٤) جزائر الزابج : هى فى أقصى بلاد الهند وراء بحر هركند فى حدود الصين ، وقيل : هى فى بلاد الزنج ، ذات زرع خصب وضرع وماء كثير ، وبها مغاصَ اللؤلؤ وأفاويه الطيب ، وبها جبل يسمى ورة يأوى إليه عبادها . (راجع معجم البلدان ومسالك الأبصار ج ٢ ص ٣٤) .

ستة أيام أو سبعة، وفيها خلائق من الناس مسلمون ونصارى ويهود ومجوس وغيرهم من أهل الصين. فقصد الخارجيّ هذه المدينة، وآلتقى بجيوش الملك فهزمها. وحاصر المدينة وفتحها واستولى على المملكة. وقتل من أهل مدينة خانقو خلقًا لا يُحصَون كثرةً. وأحصى من قُتل فيها من المسلمين والنصارى واليهود غير أهل الصين فزادوا على مائتى ألف. ثم سار بجيوشه الى بلد بلد فافتتحه. وقصد مدينة إنقو، وهى دار المملكة، وهو فى ثلاثمائة ألف ما بين فارس وراجل. فخرج اليــه الملك فى خواصّه فى نحو مائة ألف وآلتقيا، فكانت الحرب بينهم سجالا نحو شهر وصبرا جميعا. ثم كانت على الملك فآنهزم، وأمعن الخارجيّ فى طلبه. وآنحاز الملك الى مديــنة فى أطراف أرض الصين. وآستولى الخارجيّ على حوزة الصين وآحتوى على دار المُلْك وخزائن الملوك السالفــة وما أعدّوه للنوائب. وعلم أنه لا يقوم بالمُلْك لأنه ليس من بيته، فأخرب البــلاد وآستباح الأموال وسفك الدماء. فكاتب ملك الصــين ملك الترك أمرخان وآستنجده. فأنجده ملك الترك بولده فى نحو أربعمائة ألف فارس وراجل. وقد آستفحل أمر الخارجيّ فآلتقى الفريقان، فكانت الحرب بينهما سجالا نحو سنة وقتل من الطائفتين ما لا يحصى كثرةً. ثم فُقد الخارجيّ فقيل قُتل وأُسر ولده وخواصّ أصحابه، وعاد ملك الصين الى دار ملكه. قال: والعامّة تسمّيه «بغبور»[1]، وتفسيره ابن السماء تعظيما له. والآسم الذى يخاطب به ملوك الصين طمغاجيان، ثم لقّبــوا بعد ذلك ملكهم بالخان. قال: ولمّا كان من أمر هــذا الخارجيّ الذى ذكرناه تغلّب صاحب كل عمل على عمله. وضعف ملك الصين عن مقاومتهم. وسنذكر إن شاء الله تعالى ما آل اليه مُلْك الصين عند ذكرنا لأخبار الدولة الجنكزخانيّة.

والله أعلم.

---

(١) فى المسعودى «بغبور».

ذكر أخبار ملوك الترك

قال المسعودىّ : وقد تنازع الناس فى الترك وبدئهم ، فذكر كثير منهم أن ولد عامور بن تُوبل بن يافث بن نوح لمّـا قسم فَالَغ بن عابَر بن أرفخشذ بن سام بن نوح الأرض بين ولد نوح كما ذكرنا فى أخبار ملوك الصين ساروا يَسْرة المشرق ، فقطع قوم منهم من ولد رعُوَ على سمت الشمال وآنتشروا فى الأرض ، فصاروا عدّة ممالك ، منهم الدّيلم(١) ، والجيل(٢) ، والطّيْلسان(٣) ، والتتر(٤) ، وفَرْغانة(٥) ، وأهل جبل الفتح من أنواع اللّكز(٦) واللان(٧) والخزر(٨) والأبخاز(٩) والسّرير(١٠) وكشك وسائر تلك الأمم المنتشرة فى ذلك الصُّقع

(١) الديلم : ناحية واسعة بين طبرستان وأذربيجان على بحر قزوين . قاعدتها مدينة رشت . خرج منها طائفة من دول الشرق ، مثل بنى بويه بالعراق وبنى مرداويج بجرجان وغيرهم . وهى الآن إقليم جيلان بمملكة إيران (راجع معجم الخريطة التاريخية للرحوم أمين واصف بك) .

(٢) الجيل : اسم لصقع واسع مجاور لبلاد الديلم فيه قرى كثيرة ، ويقال له جيلان وكيلان (راجع تقويم البلدان) .

(٣) الطيلسان : إقليم واسع كثير البـلدان والسكان من نواحى الديلم والخزر افتتحه الوليد بن عقبة فى سنة ٣٥ هـ . (راجع معجم البلدان لياقوت) .

(٤) التتر : جيل من أجناس الترك ظهر سنة ست عشرة وستمائة هجرية بأقاصى بلاد المشرق فى جبال طغماج من حدود الصين يتاخمون الترك ويجاورونهم ، وبينهم وبين بلاد الاسلام التى هى ما وراء النهر ما يزيد على مسيرة ستة أشهر ، وهم الذين عناهم النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : « كأنّ وجوههم المجان المطرقة » . وكان ملكهم يسمى جنكزخان (راجع تاريخ ابن خلدون ج ٣ ص ٥٣٤ طبع بلاق وشرح القاموس) .

(٥) فرغانة : ناحية عظيمة وراء الشاش ووراء جيحون وسيحون ، ينسب اليها كثير من العلماء .

(٦) اللكز : جيل من الناس كانوا يسكنون بلدة بنوها فسميت بهم وهى تقع خلف الدربند تتاخم شروان (راجع تقويم البلدان ومعجم البلدان) .

(٧) اللان : أمة كانت تسكن إقليم القفقاس ممـا يلى جبال القبج (القوقاز) شمـالا غربى داغستان والدربند (راجع معجم الخريطة التاريخية) .

(٨) الخزر : جيل خزر العيون . وقيل : هى بلاد الترك خلف باب الأبواب المعروف بالدربند قريب من سدّ ذى القرنين .

(٩) كذا فى تقويم البلدان وياقوت . وهى اسم ناحية من جبل القبق المتصل بباب الأبواب ، وهى جبال صعبة المسلك ، وعرة لا مجال للخيل فيها ، تجاور بلاد اللان . وردت فى الأصول بحروف مهملة .

(١٠) السرير : مملكة واسعة بين اللان والباب والأبواب وليس اليها إلا مسلكان : مسـلك إلى بلاد الخزر ، ومسـلك إلى بلاد إرمينيـة ، وهى ثمانية عشر قرية فى جبـال ، وهى المعـروفة الآن بداغستان .

والأرمن إلى طَرَابزَنْدة (١) إلى بحر مانيطش (٢) ونِيطش (٣) و بحر الخزَر إلى البُلغار (٤) ومَن اتصل بهم من الأمم . وعبر ولد عامور نهر بَلْخ ، ويمّم بلاد الصين الأكثر منهم وتفرّقوا فى تلك البلاد وانتشروا فى تلك الديار ، منهم الخُتَّل وهم سكّان خَتْلان (٥) ووَرْسنان (٦) والأُسْرُوشْنة (٧) ، والسُّغْد (٨) وكانوا بين بُخارَى وسَمَرْقَنـد (٩) ، ثم الفراغنة والشاش (١٠) وإسْبيجاب (١١) وأهل بلاد الفاراب (١٢) ، فبنـوا المدن والضياع ، وانفرد منهـم ناس غير هؤلاء فسكنوا البوادى

(١) ذكر أبو الفداء فى تقويم البلدان أنها تسمى الآن طرابزون ، وهى ميناء مشهورة على بحر مانيطش غربى عموم وشرق سامسون ، وفى جنوبها بشرق جبال الكرى و يقال له جبل الألسن لما فيـه من اللغات . وأكثر سكانها الكرى . وهـذه المدينة لهـا أسواق فى السنة يأتى اليها كثير من الأمم للتجارة من المسلمين والروم والأرمن وغيرهم .

(٢) هو المعروف الآن ببحر آزاق وبحر آزوف . (٣) هو المعروف الآن بالبحر الأسود .

(٤) البلغار : جنس معروف وهم منسوبون إلى بلدان يسكنونها وهى قسم عظيم من بلاد الخزر على نهر الإتل (الفولجا) ولاية قازان الروسية الآن (راجع معجم الخريطة التاريخية) .

(٥) ختلان : بلاد مجتمعة وراء بلخ قرب سمرقند . (٦) ورسنان : من قرى سمرقند .

(٧) أسروشنة : الغالب عليها الجبال ، ويحيط بها من الشرق بعض فرغانة ، ومن الغرب حدود سمرقند ، ومن الشمال بعض فرغانة أيضا ، ومن الجنوب بعض حدود كش والصغانيان (راجع تقويم البلدان) .

(٨) السغد ، و يقال فيها الصـغد (بالصاد بدل السين) وهى أحد متنزهات الدنيا الأربعة التى هى : غوطة دمشق ، ونهر الأبلة ، وشعب بوّان ، وسغد سمرقند ، وهو أنزه الأربعة لأنه ممتد نحو ثمانية أيام ، مشتبك الخضرة والبساتين ، لا ينقطع ذلك فى موضع منه ، وقد حفت تلك البساتين بالأنهار الدائم جريها ، ومن وراء الخضرة من الجانبين مزارع ، ومن وراء المزارع مراعى السوائم ، وهى أزكى بلاد الله وأحسنها أشجارا . (راجع صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٣٣) . (٩) سمرقنـد : من أكبر مدن ما وراء النهر وحاضرة السـغد ، فتحهـا قتيبة بن مسـلم سنة ٩٣ هـ ، وكانت قاعدة الدولة السامانيـة (راجع معجم الخريطة التاريخية) . (١٠) الشاش : مدينة جليلة فى أرض سهلة من عمل سمرقند وراء نهر سيحون ، ومنها إلى فرغانة خمس مراحل (راجع تقويم البلدان) . (١١) إسبيجاب : بلدة كبيرة من أعيان بلاد ما وراء النهر فى حدود تركستان (راجع معجم البلدان لياقوت) .

(١٢) كذا فى تقويم البلدان ومعجم البـلدان ، وهى ولاية وراء نهر جيحون فى تخوم بلاد الترك وهى أبعـد من الشاش قريبـة من بلاد ساغون ، وواديها يأخذ من نهر الشاش . وفى الأصـول : « الفارات » وهو تصحيف .

وهم الترك الخَزْلج(١) والتُّغُزْغُز وهم أصحاب مدينة كُوشان(٢)، وهى مملكة بين بلاد خراسان والصين . قال : ومن الترك الكِيْماكية(٣) والبَرْسْخانية(٤) والغُزِّية(٥) والجفرية(٦) . قال : وأشدّهم بأسا الغُزِّيّة، وأحسنهم صورا الخَزْلجيّة، وكانوا على بلاد فَرْغانة والشاش وما يلى ذلك الصُّقع . قال : وفيهم كان المُلْك، ومنهم خاقان الخَوَاقين، وكان مُلْكه يجمع سائر ممالك الترك وينقاد إليه ملوكها .

قال : ولحق فريق من ولد عامور بتُخُوم الهند، فأثّرت فيهم تلك البقاع فصارت ألوانُهم خلاف ألوان الترك ولحقوا بألوان الهند . ولهم حضر وبوادٍ، وسكن فريق منهم بلاد التُّبَّت وملَّكوا عليهم ملكا وكان ينقاد إلى ذلك الخاقان . فلمّا زال مُلْك خاقان سَمّى أهل التُّبَّت ملكهم بخاقان تشبيها بملوك الترك .

ذكر جبل الفتح وما عليه من الملوك والأمم

قال المسعودىّ : وأمّا جبل الفتح فهو جبل عظيمٌ اشتمل على كثير من الممالك ١٠٢/١٢
والأمم، وفيه اثنتان وسبعون أمّة، لكل أمّة ملك ولغة تخالف لغة الأخرى . وهو ذو شعاب وأودية، ومدينة الباب والأبواب على شِعْب من شعابه، وهى التى بناها كسرى . وعلى أحد شعاب هذا الجبل بحر الخَزَر مما يلى الباب والأبواب، ومملكة

---

(١) الخزلج : صنف من الترك، وهم الذين كان منهم السلجوقية .

(٢) كوشان : مدينة فى أقصى بلاد الترك كما فى معجم البلدان لياقوت .

(٣) الكيماكية : نسبة إلى كيماك، ولاية واسعة فى حدود الصين وكان أهلها تركا يسكنون الخيام ويتبعون الكلأ .

(٤) البرسخانية : نسبة إلى برسخان، وهى من مدن إسبيجاب .

(٥) الغزية : حدود ديارهم ما بين الخزر وكيماك وأرض الخزلجية وبلغار .

(٦) الجفرية : نسبة إلى الجفر وهى فى حدود بلاد التغزغز كما ذكر ياقوت فى كلامه على تركستان .

شروان، ويلى هذه المملكة مملكة الأران(١)، وملكها يدعى الأران شاه. ومنها مملكة الموقانية(٢)، ومملكة اللكز، وهى أمة لا تحصى كثرة تسكن أعالى هذا الجبل، وهؤلاء ينقادون إلى ملك شروان، ومنهم كفار لا ينقادون اليه يقال لهم الدودانية(٣) جاهلية لا يرجعون إلى قبلة. ويلى ملك شروان ملك طبرستان. ومن ممالك الجبل مملكة حيزان(٤)، وهى داخلة فى جملة الخزر. ومملكة الخزر تلى مملكة حيزان، وبين مملكة الخزر ومدينة الباب ثمانية أيام. ومدينة الخزر اسمها سمندر(٥). ومن مدن الخزر أيضا مدينة إتل(٦) بينها وبين سمندر سبعة أيام، وهى ثلاث قطع يقسمها نهر عظيم يرد من أعالى بلاد الترك، ويتشعب منه شعبة نحو بلاد البلغار ويصب فى بحر مانيطش. وفى هذه المدينة [خلق(٧)] من المسلمين والنصارى واليهود والجاهلية. فالملك وحاشيته وجيشه من اليهود، والجاهلية بها من الصقالبة والروس، وهم يحرقون موتاهم ودواب من يموت وآلاته. واذا مات الرجل منهم أحرقت معه امرأته، وإن ماتت المرأة لا يحرق معها الزوج. وأما المسلمون فهم جند الملك، ويعرفون باللارسية، وهم ناقلة من بلاد خوارزم كانوا قد وفدوا الى هذه المملكة لقحط أصاب بلادهم فى صدر

(١) أران: ناحية واسعة الأرجاء، بين أرمينية وأذربيجان وبلاد الكرج وبحر قزوين. وأشهر مدنها: موقان، وبرذعة، والبيلقان، وبين أران وإقليم الكرج نهر الكر، ومنها اشتق اسم دولة « إيران » فى عصرنا هذا (راجع معجم الخريطة التاريخية). (٢) الموقانية: نسبة الى موقان بن كالنج، وهى ولاية فيها قرى ومروج كثيرة تحتلها التركمان للرعى فأكثر أهلها منهم؛ وهى بأذربيجان، يمر القاصد من أردبيل الى تبريز فى الجبال. (راجع معجم البلدان فى كلامه على موقان). (٣) الدودانية: أمة يزعمون أنهم من بنى دودان بن أسد بن خزيمة بن مدركة، كما ذكر ياقوت فى كلامه على أرمينية. (راجع معجم البلدان فى كلامه على أرمينية). (٤) حيزان: من مدن أرمينية قريبة من شروان. (راجع معجم البلدان لياقوت). (٥) سمندر: مدينة بين إتل وباب الأبواب ذات بساتين كثيرة، يقال إنها تشتمل على نحو من أربعة آلاف بستان كرم، وهى التى افتتحها فى بدء الاسلام سلمان بن ربيعة الباهلى. (راجع ياقوت). (٦) إتل: عاصمة بلاد الخزر. وقد سمى بها النهر العظيم الذى يمر ببلاد الخزر وبلاد الروس وبلغار. (راجع ياقوت). (٧) التكلة من المسعودى (ج ١ ص ٨٦).

الإسلام . فاستعان بهم الملك فأقاموا عنده على شروط، منها : أن يقيموا شعار الإسلام ، وأن تكون الوزارة فيهم ، وأنه اذا كانت الحرب بينه و بين المسلمين لا يحضرونها و يحاربون معه سائر الكفار. و بالمدينة قضاة سبعة : اثنان من المسلمين، واثنان للخزر يحكمان بحكم التوراة(١)، واثنان من النصارى يحكمان بالإنجيل، وواحد من الصقالبة والروس والجاهلية يحكم بالقضايا العقلية . واذا ورد ما لا علم لهم به من النوازل الكبار اجتمعوا الى قضاة المسلمين فتحاكموا اليهم وانقادوا لما توجبه الشريعة الإسلامية . وليس فى الملوك من عنده جند مرتزقة غير ملك الخزر.

قال : وفى دار مملكة الخزر رجل يكون اسمه خاقان لا يركب ولا يظهر للخاصّة ولا العامّة ، ولا يستقيم مُلك الخزر لملكهم إلّا أن يكون عنده خاقان معه فى قصره . فإذا أجدبت أرض الخزر أو نابت بلادهم نائبة أو حرب، جاءت الخاصّة والعامّة الى ملك الخزر وقالوا له : قد تطيّرنا بخاقان و بأيامه وتشاءمنا به، فاقتله أو سلّمه إلينا نقتله ،من غير أن يكون قد عمل ما يوجب ذلك؛ فتارة يقتله ،وتارة يسلّمه اليهم فيقتلونه ، وتارة يمانع عنه و يرقّ له . واذا قتل خاقان أقاموا غيره . قال : وللخزر زوارق يركبون فيها من نهر فوق المدينة يصبّ الى نهر يقال له بُرطاس . عليه أمم من الترك حاضرة داخلة فى جملة ملوك الخزر ، وعمائرهم متّصلة بين مملكة الخزر والبُلغر، يرد هذا النهر من نحو بلاد البلغر . ومن بلاد بُرطاس تُحمل جلود الثعالب السّود التى يُعرف و برها بالبُرطاسىّ . قال المسعودىّ : ويبلغ ثمن الجلد منها مائة دينار . وتلبسها الملوك وهو عندهم أغلى من السمور(٢) والفَنَك(٣)، والحُمْر دونها فى الثمن .

---

(١) فى الأصل : «يحكمون» . (٢) السمور: حيوان برىّ يشبه السنور يتخذ من جلده فراء ثمينة لينها وخفتها وإدفائها وحسنها . (٣) الفنك (محركة): دابة يفترى جلدها، أى يلبس فروا .

قال : وفى أعالى نهر الخزر مصبّ يتصـل بخليج من نهـر نيطش، وهو بحر للروس لا يسلكه غيرهم ، وهم على ساحل من سواحله . وهى أمّة عظيمة لا تنقاد الى ملك ولا الى شريعة. وفى أرض الرّوس معدن من الفضّة. قال : والرّوس أمم كثيرة (١) ، فمنهم جنس يقال لهم البوداغية (٢) ، وهم الأكثر . يختلفون بالتجارات الى بلاد الأندلس والقسطنطينية ورومية . قال : وبين مملكة حيزان التى ذكرناها وبين البـاب والأبواب أناس من المسلمين عرب لا يُحسنون غير اللغـة العربية فى آجام هنالك وغياض وأودية وأنهـار، ولهم قرى قد سكنوها . وهم على نحو من ثلاثة أميال من مدينة الباب والأبواب .

قال : ويلى مملكة حيزان ممـا يلى الفتح والسّغد ملك يقال له برزينان (٣) مسلم، ويعرف بلد هذا الملك بالكرج . وكل ملك يلى هذه المملكة يدعى برزينان . ثم يلى مملكة برزينان ملك يقـال له عينق (٤) ، وهم يدينون بدين النصرانيـة ، لا ينقادون لملك ، ولهم رؤساء . وهم مهادنون لأهـل مملكة اللّان . ثم يليهم ممـا يلى السور ١٠٣ / ١٢
والجبـل مملكة يقـال لها زِرِه كَرَان . وتفسير ذلك بالعربية عمّـال الزّرَد ؛ لأن أكثرهم يعملون الزّرَد والسـيوف والّلُجُم والرُّكُب وغير ذلك من آلات الحديد . وهم ذوو أديان مختلفة من المسلمين والنصـارى واليهود . وبلدهم بلد ممتنع خَشِنٌ قـد آمتنعوا فيه ممن جاورهم من الأمم لخشونته . ثم يلى هؤلاء مَلِك السرير (٥)

---

(١) كذا فى المسعودى . وفى الأصل : « ...مة كبيرة » . (٢) فى ا : « النوذاغية » بالنون والذال المعجمة . وفى المسعودى : « الموذغنه » . (٣) كذا فى معجم البلدان لياقوت فى كلامه على الكرج . وفى الأصول : « برزنيان » . وفى المسعودى : « مدرمان » .

(٤) فى المسعودى : « عيق » . (٥) ذكر المسعودى أنه من ولد بهرام جور . وسمى صاحب السرير لأن يزدجرد حين ولى منهزما قدم سرير الذهب وخزائنه وأمواله مع رجل من ولد بهرام ليسير بها الى هذه المملكة فيحرزها هناك الى وقت موافاته ، ومضى يزدجرد الى خراسان فقتل هناك وذلك فى خلافة عمر رضى الله عنه ، فقطن ذلك الرجل فى هذه المملكة وآستولى عليها وصار الملك فى عقبه ، فسمى صاحب السرير .

ويدعى قُبْلان شاه يدين بالنصرانية. ودار مملكته تعرف بخندج(١)، وله اثنتا عشرة ألف قرية يستعبد منهم من شاء. وبلده بلد منيع. وهو شُعَبٌ من جبل الفتح. وهذا الملك يغير على الخَزَر ويستظهر عليهم. ثم يلى هذه المملكة مملكة اللّان. وملكها يقال له كَرْكُنْداج(٢)، وهذا الاسم غالبٌ على سائر ملوكهم. وكانوا جاهليّة ثم دانوا بالنصرانيّة، ثم رجعوا فيها بعد العشرين والثلاثمائة. وصاحب اللّان يركب فى ثلاثين ألف فارس. ثم يلى ملك اللان أمّة يقال لها كَشك. وتفسير هذا الاسم بالفارسية التِّيه والصَّلَف. وهم بين جبل الفتح وبحر الروم. وهى تنقاد الى دين المجوسيّة. قال: وليس فى الأمم التى ذكرناها أنقى أجسادا، ولا أصفى لونا، ولا أحسن رجالا، ولا أصبح نساءً، ولا أقوم قدودا، ولا أرقّ أخصارا وأظهر أرداقا، ولا أحسن شكلا من هذه الأمّة. ونساؤهم موصوفات بلذّة الخلوة. ولباسهنّ البياض والدّيباج الرومىّ والسّقلاطون(٣) وغير ذلك من أنواع الديباج المذهب. واللّان تستظهر على هذه الأمّة إلّا أنها تمتنع منهم بقلاع لها على ساحل البحر. وتلى هذه الأمّة على ساحل البحر أمّة يقال لبلدهم السبع بلدان، وهى أمّة كثيرة ممتنعة بعيدة الدار. ويلى هذه الأمّة أمّة عظيمة يقال لها إرَم [ذات العماد](٤) ذوو خلق عجيب جاهليّة الآراء. ويلى هذه الأمّة صحراء نحو من مائة ميل، بين جبال أربعة، كل جبل منها ذاهب فى الهواء، فى وسط هذه الصحراء دارة مقوّرة كأنها خُطّت ببركار(٥)،

(١) فى المسعودىّ: «تعرف بخيرج» ولم نهتد الى الصواب فيه.

(٢) فى ياقوت فى كلامه على اللان والمسعودى: «كركنداج» بالجاء المهملة.

(٣) السقلاطون: الملابس الملوّنة بالألوان القرمزية وغيرها. وهو اسم بلد بالروم تصنع فيه تلك الملابس وتنسب إليه. (راجع القاموس الانجليزى الفارسىّ).

(٤) التكملة عن المسعودى.

(٥) البركار (بالكسر): آلة ذات ساقين ترسم بها الدوائر، وهى المعروفة بالبرجل.

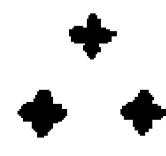
منحوتة فى حجر صَلْد، استدارتها نحو من خمسين ميلا قَطْعٌ قائمٌ كأنه حائط مبنىّ، يكوّن قعرها نحوا من ميلين، لاسبيل الى الوصول الى مستوى تلك الدارة، و يُرى بها بالليل نيران كثيرة فى مواضع مختلفة ، و يرى فيها بالنهار قرى وأنهـارٌ تجرى ، وفيها ناس وبهائم إلا أنهم يُرَوْن لطاف الأجسام لبُعْد قعر الموضع لا يُدرَى من أىّ الأمم هم . ولا سبيل الى صعودهم ولا الى النزول اليهـم من جهـة من الجهات . ووراء تلك الجبال خَسْفة أخرى قريبة القعر فيهـا آجام وغياض، فيها نوع من القرود منتصبة القامات مستديرة الوجوه، الأغلب عليها صُوَر الناس وأشكالهم إلا أنهم ذوو شعور. قال : وربّما وقع فى النادر منها القرد اذا ٱحتيل عليه فى ٱصطياده، فيكون فى نهاية الفَهْم والدراية . وربّما حُمِل الواحد منها الى الملوك فيُعلَّم القيام على رأسه بالمِذَبّة . ولهم خاصيّة بمعرفة المسموم من المآكل والمشارب . فإذا دنا الطعام منهـا شمّته و يُلقِىَ لها الشىء منه فإن أكلته أكله الملك ، و إن ٱمتنعت علم الملك أنّ ذلك مسموم .

قال : وفيما بين بلاد الخـزر و بين بلاد المغـرب أمم أربع من الترك ترجـع فى أنسـابها الى أب واحد ، وهم حَضَرٌ وبَدْوٌ ، ذوو مَنَعة و بأس شديد . ولكلّ أمة منها ملك . ومسافة كل مملكة منها أيام، متّصلة ممالكهم بعضها ببحر نيطش . وتتّصل غاراتهم ببلاد رومية وما يلى بلاد الأندلس . وهى تستظهر على سائر مَن هنالك من الأمم . و بينهم و بين الخزر واللّان مهادنة، و بلادهم تتّصل بممالك الخزر . فالجيل الأوّل منهم يقال له نجا . ويليه بجعود(١) . ويليه بجناك . وهى أشدّ هذه الأمم الأربع بأسا، ويليه أنو جرذد(٢) . وكانت لهم حرب مع الروم بعد العشرين والثلاثمائة . ويلى بلاد اللان أيضا أمة يقال لها الأبخاز تدين بالنصرانية ، وملك اللّان مُستظهِر عليهم وهم متّصلون بجبل الفتح . ثم يلى بلاد الأبخاز مملكة الخزرية، وهم أمّة عظيمة منقاطعة

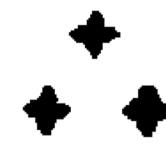
(١) فى المسعودى : « بجغرد » . (٢) فى المسعودى : « البوكرده » .

الى دين النصرانية تُدعَى نخَزران ولها ملك . قالوا : وكانوا يؤدّون الخراج الى صاحب ثغر تَفليس . وتليهم أمّة يقال لها الصمصحيّة نصارى، ومنهم جاهليّة لا ملِك لهم . ويليهم بين ثغر تَفْليس وقلعة باب اللّان مملكة يقال لها الصنبارية(١)، وملكهم يقال له كريشكُوش(٢)، ينقادون الى النصرانيّة، ويزعمون أنهم من العرب من نزار بن معدّ . ١٠٤/١٢
ثم يلي مملكة الصنباريّة مملكة شكى(٣) وهم نصارى . ويليهم مملكة أخرى وهي مأوى الصعاليك والدُّعّار، ثم تتصل بمملكة المُوقانيّة وهي التي على ساحل بحر الخزر . والله أعلم بالصواب .

(١) كذا في المسعودي . وفي الأصول : « الضارية » .
(٢) في المسعودي : « كرسكوس » . (٣) في المسعودي : « سكين » .



تم الجزء الرابع عشر، ويليه الجزء الخامس عشر
وأوّله : ذكر أخبار مصر



كَمُلَ طبع "الجزء الرابع عشر من نهاية الأرب فى فنون الأدب"
بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الثلاثاء ٢٧ محرم سنة ١٣٦٢
(٢ فبراير سنة ١٩٤٣) م

محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب
المصرية

مطابع كوستاتسوماس وشركاه
٥ شارع وقف الخربوطلي بالظاهر ج.ع.م
تليفون ٩٠٠١١٨ ص.ب ٦٣٤١١